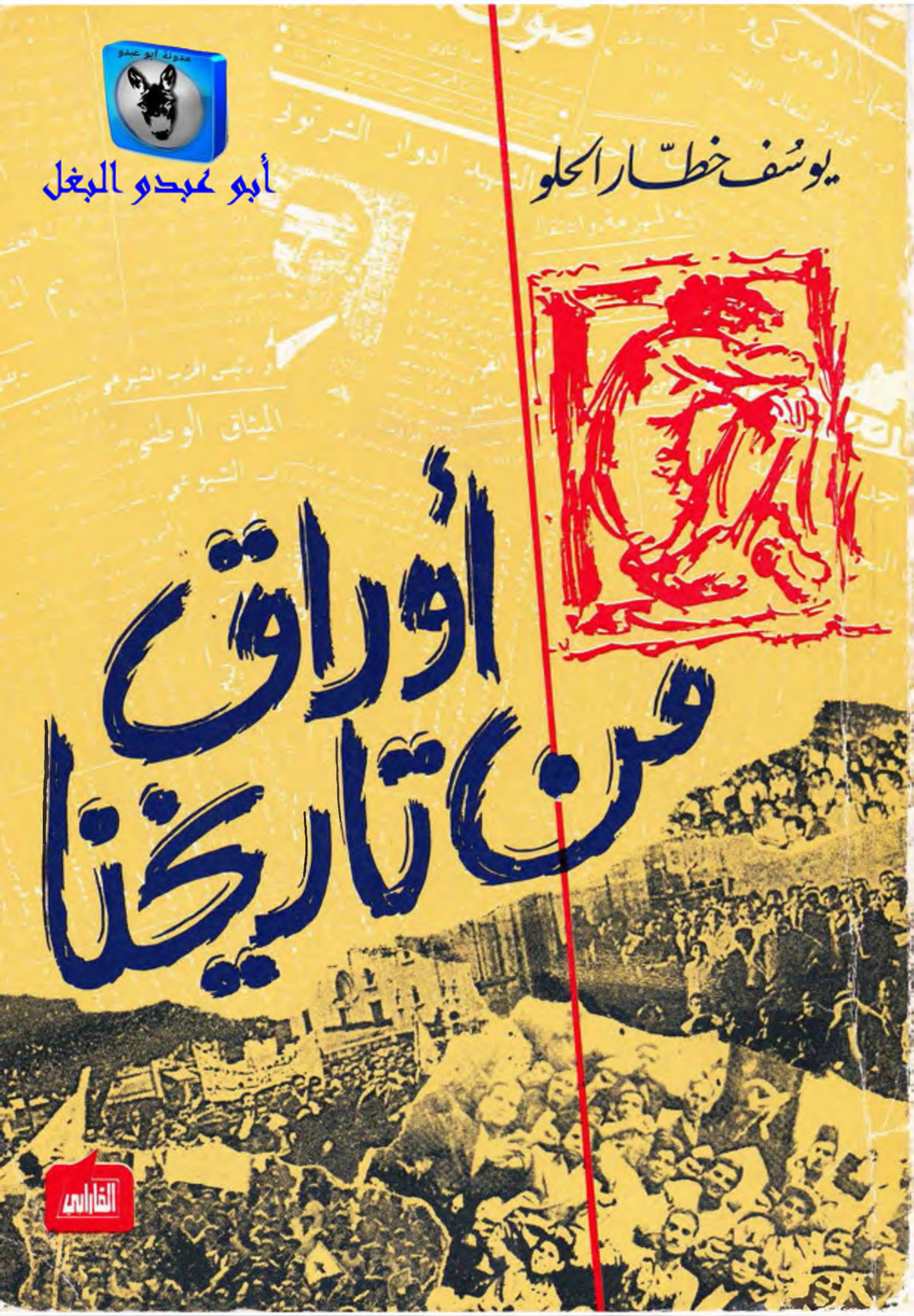


مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
يوسُف خطّار الحلو
أوراق من تاريخنا
الفارابي

يوسف خطار الحلو





١٩٨٨

★ الكتاب	أوراق من تاريخنا
★ المؤلف	يوسف خطار الحلو
★ قدّم له	جورج البطل
★ الناشر	دار الفارابي ـ تلفون: ٣١٧٢٠٥ ـ ص.ب: ٣١٨١ / ١١
بيروت ـ لبنان
★ الطبعة الأولى	١٩٨٨
★ التنضيد	شركة المطبوعات اللبنانية. ش.م.ل.
★ تصميم الغلاف	كريم الحاج

أوراق من تاريخنا

اهـداء

إلى من علمني حرفاً في ألف باء السياسة، وأنمى فيَّ حبّ الوطن والتفاني في الدفاع عن حقوق المعدمين، وزرع في أفكاري حبّ العروبة النقيّة الحرّة. والاشتراكية الحقة وإعلاء شأن لغة الضاد وكان سبيلي إلى الالتـزام الشيـوعـي، إلى روح كبير شهـدائنـا فرج الله الحلو أهدي هذا الكتاب «أوراق من تاريخنا» عربون إخلاص لمدرسته، وتقديراً لما له علي من مكرمات، ولما له في عنقي من دين عجزت وسأبقى عاجزاً عن إيفاء حتى فائدته.

يوسف خطار الحلو

تقديم

مره جديدة يُطلب مني مراجعة كتاب جديد ليوسف خطار الحلو، ويُطلب مني بالطبع، تقديم لهذا الكتاب.

ومثل كل مرة كانت سعادتي كبيرة بأن أكون القارىء الأول للكتاب والمعلّق الأول عليه. فقراءة كتابات أبي وضاح ممتعة ومفيدة. وفي هذا الكتاب، أيضاً، يلقي أبو وضاح الأضواء على زوايا مختلفة من تاريخ الحزب ومن الأحداث التي واكبت هذا التاريخ. يلقيها ليس ببرودة المؤرّخ المدقّق بل بحرارة الراوية المشارك في صنع الرواية أو الشاهد الحي على أحداثها. وطبيعي أن يكـون المشارك كالشاهد منحازاً. منحازاً لدوره، لأصدقائه، لدور هؤلاء الأصدقاء، لما كان يعتبره صحيحاً وما يزال يعتبره صحيحاً. والمشارك كالشاهد قاس حكمه على من أو ما كان يعتبره الخير بعينه، فإذا به يكتشفه شراً مطلقاً. في الحالتين يتغلب الصدق والحرارة على الموضوعية.

هذا الكتاب هو في الأساس، جمع لجهد كتابي بذل على امتداد بضع سنين. ومعظم مواده نشر على صفحات جريدة «النداء»، إلا أنه، رغم ذلك، ليس جمعاً لمواد متفرقة لا يربط بينها رابط، بل هو، في الواقع، كتاب يتحدّث في الأساس، عن طائفة من المناضلين الشيوعيين وعلى رأسهم قائدا الحزب فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي. إنه شهادة يوسف خطار الحلو بهؤلاء وبسواهم ممن عرفهم وعايشهم، وروايته عن الأحداث التي واكبت حياتهم. وهو بالتالي، كتاب يؤرّخ، على طريقة الراوية يوسف خطار الحلو، لمرحلة هامة من تاريخ الحزب.

ولأن الأحداث التي رافقت حياة ونضال فرج‌الله الحلو هي تقريباً، نفس الأحداث التي رافقت حياة ونضال نقولا شاوي، وهي نفسها التي رافقت، في ظروف معينة، حياة ونضال كل الذين يتحدث عنهم أبو وضاح في هذا الكتاب، ولأن الكتاب لم يوضع مرة واحدة، بل هو، في الأساس، جمع لمواد سبق نشرها في أزمنة مختلفة، فإنه لا مهرب من وجود تكرار في رواية

الأحداث يصعب القضاء عليه. إلاّ أن هذا التكرار لا يسيء إلى السياق بل هو أحياناً، يشكل، في موقعه تأكيداً لحادث ينبغي التأكيد عليه.

يعطي أبو وضاح حيّزاً كبيراً من هذا الكتاب لذكرياته عن فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي. وهذا طبيعي فإنه في نضاله في الحزب، قد عمل، منذ انتسابه، معهما وبقيادتهما، حتى وفاة كل منهما. إضافة إلى أن فرج‌الله هو قريب ليوسف وابن قريته جمعتهما أواصر القربى ورفقة القرية قبل أن يجمعهما النضال الحزبي. إلاّ أن ما يميِّز كتابات أبي وضاح عن هذين القائدين هو الاحترام الكبير الذي يكنه لهما والتقدير العالي لما كان يتمتع به كل منهما من صفات.

في الحديث عن فرج‌الله الحلو هذه المرة، وقد تحدَّث عنه أبو وضاح في كل كتبه السابقة وبنفس الحب والحرارة، يتعرَّض صاحب الكتاب لمرحلة قاتمة السواد في تاريخ الحزب، هي المرحلة التي استشرت فيها «عبادة الفرد» وتمّ فيها التصرُّف بمصائر جملة من الملاكات القيادية في الحزب تصرُّف الملاَّك الاقطاعي بمصائر أقنانه. يتحدَّث عن الرسالة المعروفة باسم «رسالة سالم» وهي الرسالة التي فرض على فرج‌الله الحلو كتابتها وهو ينتقد فيها ذاته ويصف نفسه بأقسى النعوت وأبشعها فيما يقرظ خالد بكداش ويضفي عليه نعوتاً كان سوقها رائجاً في أواخر عهد ستالين. وفي هذه الرسالة تأكيد، في معرض الانتقاد الذاتي، الذي أملي على فرج‌الله إملاءً، ان هذا الأخير ـ وآخرين في القيادة ـ لم يكن موافقاً على قرار منظمة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين، وان موقفه هذا كان في رأس التهم الموجهة إليه. وقد استخدمت هذه الرسالة ـ التي فرضت على فرج‌الله بالتهديد والابتزاز ـ لعزله من القيادة التي ظل خارجها، رسمياً حتى استشهاده وهو يقود، منفرداً، الشيوعيين في سوريا في ظروف عام ١٩٥٩ الشديدة التعقيد، بعد أن غادر خالد بكداش البلاد مع كل المسؤولين الآخرين. هذه الرسالة وزعت في حينه ـ ١٩٥٢ ـ على كل منظمات الحزب في لبنان وسوريا. وقد اعتبرها الحزب الشيوعي اللبناني، منذ قطعَ عام ١٩٦٤ كل علاقة تنظيمية مع الحزب الشيوعي السوري، لاغية شكلاً ومضموناً معيداً الاعتبار الكامل لفرج‌الله الحلو. وفي العام الماضي، اتخذ المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري الذي انتخب يوسف فيصل أميناً عاماً للجنة المركزية، قراراً مماثلاً. وقد رأى يوسف خطار الحلو من المفيد، وقد عاد الكلام عن هذه «الرسالة» بعد أن قل، بسبب مرور الزمن، عدد الذين عاشوا ظروفها وادركوها، وبعد أن ظل هناك، للأسف الشديد، من يتمسك بالنهج والأسلوب اللذين أدّيا إلى كتابة مثل هذه الرسالة، أن ينشرها استناداً إلى النسخة التي في حوزته ـ وهي محفوظة بين أوراقه منذ توزيعها ـ وعلى مسؤوليته الشخصية إسهاماً في تسليط الأضواء على تلك المرحلة المكفهرة من تاريخنا.

إلى فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي يتحدَّث أبو وضاح عن كوكبة مشرقة من المناضلين الشجعان - ممن أسماؤهم معروفة أو ممن درست أسماؤهم - ، وهو كما في حديثه عن فرج‌الله ونقولا يجمع بين تاريخهم والأحداث ودوره فيها وعلاقاته معهم، فإذا به يروي، في الغالب، روايات ممتعة. وكعادته في كتبه السابقة « يصطاد » أسماء لفها النسيان، كعساف الصباغ، ذلك المناضل الشيوعي العاملي، ابن إبل السقي، الذي ألف في الثلاثينات وقاد كوكبة من المجاهدين شاركت في النضال المسلح ضد الصهاينة في مناطق الحولة، والذي أعدمه الفاشيون أنصار فيشي شنقاً في ساحة إبل السقي في شهر حزيران عام ١٩٤١. وهو يروي، أيضاً، سير مناضلين عاشوا في الظل وكافحوا بصمت إلاَّ أنهم لعبوا في بناء الحزب وتطوُّره الدور الذي يلعبه الجندي المجهول في الحرب وهو، على كل حال، ليس أقل الأدوار. وفي الكتاب توقف عند مجموعة هامة من الأحداث، بدءاً من تأسيس نقابة إلى انتخابات عامة، أو مؤتمر للحزب...

في كل ما يتضمَّن الكتاب، نرى أبا وضاح مشاركاً وشاهداً، يحاول إعطاء ما يعتقد أنه أهم وأدق التفاصيل. وهو يؤكِّد أنه ليس مؤرِّخاً مدققاً، بل راوية لأحداث عاشها ولسير أشخاص عرفهم وعاش معهم. بهذا يعطي، في هذا الكتاب، كما أعطى في كتبه السابقة، مادة فيها متعة للقارىء ومنفعة جزيلة، وتشكل مرجعاً لأولئك الذين سيكتبون تاريخ الحزب وتاريخ القهر السائر إلى انصرام.

وأختم بالتمني أن يُعطى أبو وضاح مزيداً من الأعوام في العافية، ليتذكر ويعطينا من ثمار تذكُّره ما يمتع ويفيد.

١٩٨٨/١/٣

جورج البطل

٣٩ سنة مع فرج الله الحلو

«يذكرني طلوع الشمس صخراً   واذكره لكل غروب شمس»

فاجأتنا الحرب العالمية الأولى أول آب ١٩١٤ - ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ وكنا، فرج‌الله وأنا صغيرين. أنا بعمر ثلاث سنوات وثمانية شهور، وهو بعمر سبع سنوات وثمانية شهور. وهذا يعني أننا حرمنا من المدرسة وبقينا شريدين يترصدنا الموت الذي أودى بحياة ١٢٠ نفساً من أبناء قريتنا «حصرايل» قضوا بسبب انعدام الغذاء، بينهم الشاب، والفتاة، والام والطفل. لقد نجونا فرج‌الله وأنا، بفضل ما بذله ذوونا لإنقاذنا. فلفرج‌الله أم مهاجرة مع ولديها إلى الولايات المتحدة الاميركية، وكانت قد أمدّت زوجها والد فرج‌الله هنا ببعض المال، كما وأن خال فرج‌الله يوسف مخايل الحلو، وكان قد عاد إلى الوطن من هجرة ساعدته على جمع بعض المال، قد عطف على أولاد شقيقته فأمدّهم ببعض المساعدات مما صان حياة جميع أفراد عائلة اسطفان الحلو، والد فرج‌الله.

أما بالنسبة لي، فقد رهن والدي مساحات واسعة من الأرض لتجار من بيروت مما ساعده على حفظ حياتنا. يضاف إلى ذلك الجهود التي بذلها شقيقي الاكبر فرنسيس من المتاجرة الصغيرة بين المدينة والقرية، حيث كان ينقل الاغراض لأبناء «حصرايل» من البترون بأسعار متدنية فيكسب بعض المال وذلك ساعدنا على حفظ حياة عائلتنا.

وما كادت الحرب العالمية الأولى تتوقف في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨، حتى بدأت غيوم المجاعة تنقشع، وابواب الرزق تنفتح، فالعديد من شباننا أخذ يعد العدة للسفر إلى الولايات المتحدة الاميركية. وأول من أقدم على ذلك هو شقيق فرج‌الله فياض الذي ترك «حصرايل» في أواخر العام ١٩١٩. وتلاه رعيل آخر سنة ١٩٢٠ بينهم شقيقي فرنسيس مع آخرين من الشبان.

توقف الحرب في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨، لم يوقف العسر. فملامح المجاعة ظلت منتشرة. ولكن تدابير عديدة اتُّخذَتْ بدأت تخفف من حدة الضائقة، مثلاً: توزيع المواد الغذائية من قبل منظمات الصليب الأحمر الدولية: كالأرز، والبطاطا، والسكر، وتقديم الخبز والأكل والملابس الخ.

كنا، بيتنا وبيت فرج‌الله، اصدقاء. صداقة متينة شدّت شقيقي فرنسيس إلى فياض وغالب شقيقي فرج‌الله، وهذه الصداقة انسحبت بيني وبين فرج‌الله. ولما سافر شقيقي إلى الولايات المتحدة الاميركية، وسافر شقيق فرج‌الله فياض، تركا لنا حمارين، الحمار الذي تركه شقيقي اسود اللون والحمار الذي تركه فياض ازرق. وكنا يومياً، فرج‌الله وأنا، نأخذهما إلى المرعى، وهناك كنا نجري سباقاً ونحن ممتطيان ظهريهما. وأحياناً كثيرة كنا نتركهما لحالهما يرعيان في الحقل، حتى اذا حمي النهار وعطشا، عادا إلى مكان قريب هو بيت العم عقل، حيث يوجد جرن ماء فيستقيان، ثم يزربان حالهما في قبو مفتوح الابواب.

* * *

بعودة الحياة تدريجياً إلى طبيعتها، راح الناس، وبخاصة المتقدمين في المعرفة منهم، يفكرون بالمدرسة، وتعليم أولادهم. ففتحت في «حصرايل» مدرسة قام بالتدريس فيها الخوري خادم الرعية، واسمه الخوري بولس من قرية «الدوق» في بلاد البترون، وهو من أصل «غلبوني». كان مهذباً، يتقن العربية والسريانية ويلم باللغة الفرنسية. وكانت المدرسة في «أوضة الخوري»، أي في المكان الذي كان حضرته ينام فيه. وكنت واحداً من الذين أمّوا هذه المدرسة. وقد بدأت بتعلم السريانية والعربية، والفرنسية. امضيت سنة بين ١٩٢٠ و ١٩٢١ في حصرايل. ولما لم يعد بالإمكان متابعة التعليم في مدرسة الخوري بولس وكانت مدرسة أكثر تطوراً انشأها المعلم بولس عبدالله في قرية «جدايل» المجاورة لقرية حصرايل. والمعلم بولس يجيد العربية والانكليزية وعلم الحساب، وكان قد انشأ مدرسة في «جدايل» قبل الحرب العالمية الأولى، ضمّت عدداً من شباب القرى المجاورة. ولكن الحرب وما نتج عنها من قسر، وحرمان، ومجاعة، وموت، أدّى إلى اقفال المدرسة المشار إليها. حتى إذا انتهت الحرب، وعاد الناس شيئاً فشيئاً لمزاولة حياة طبيعية، اعاد المعلم بولس عبدالله فتح المدرسة فأقبل عليها التلامذة، من صبيان وبنات وإليها ذهب فرج‌الله وبعض التلامذة من ضيعتنا. وحاولت مع بعض التلميذات والتلاميذ الالتحاق بمدرسة جدايل لأكون بالقرب من فرج‌الله، فما قبل المعلم بولس لعدم وجود امكنة تتسع لقبول تلامذة جدد.

في هذا الوقت ١٩٢١ أنشئت مدرسة في قرية «شيخان» الملاصقة لقرية «جدايل»، انشأها المعلم شفيق زنفل وهو من قرية «المنصف» يحسن اللغتين العربية والانكليزية ويتقن علم الحساب وقد اتجهنا إليها فقبلنا. وكنا يومياً، الذين يتعلمون في مدرسة «جدايل»، وعلى رأسهم فرج‌الله، والذين يتعلمون في مدرسة «شيخان» وانا بينهم، نترافق حتى إذا وصل تلامذة «جدايل» إلى محيط القرية انفصلوا عنا، وتابعنا نحن السير مسافة ٥٠٠ متر، إلى شيخان، وعند انتهاء المدرسة بعد الظهر، كان الذين يتعلمون في جدايل ينتظروننا، فنصل جميعنا إلى «حصرايل» طابوراً واحداً وكأننا في مدرسة واحدة.

حصيرة وطراحة

والمدارس آنذاك في القرى لم تكن مجهزة بمستلزمات توفّر الراحة للتلميذ: فكان كل تلميذ يأخذ معه طرّاحة ليضعها على الأرض ويتربّع عليها واذا كان أهل التلميذ من الميسورين حضروا له طرّاحة من الصوف. وإذا كانوا مثلنا رقيقي الحال حضروها من الشراطيط، وكفنوها بقالب. أما الحصيرة التي كنا نضع الطراحات عليها في المدرسة، فكان التلامذة يشترونها بما يتمكنون من دفعه؛ لذا كانت الحصيرة ملكية عامة للتلامذة، والطراحات ملكية خاصة لكل منهم. وهذه الحال فرضت على التلميذ أن يجعل من ركبته طاولة لكتابة الفروض. وبما أنه لا يمكن القيام بأي درس جماعي بين تلميذين في الداخل، كان المعلم يسمح لتلميذين يتفقان على الدراسة خارج الغرفة، واذكر أن الإذن من المعلم كان يطلب باللغة الانكليزية.

وللمعلم يعود التقدير، فاما أن يسمح للطالب، أو يرفض وذلك بعد تحديد المدة المفروض أن يتم الدرس فيها خارج الغرفة. وعند حلول فرصة تناول الغداء ظهراً، كنا نفلش «الزواويد» لنأكل مما أمّنته لنا أمهاتنا واخواتنا، وغالباً يتكون من بيض مسلوق، أو عجّة بطحين، أو بطاطا محرقصة، وتين مطبوخ، أو بقايا من الأكل البايت. والزوادة كانت توضع في قطعة من القماش بسعة ذراع مربعة، أما الرقع التي كنا نستعملها للزواويد فهي مؤلفة من بضع قطعات قماش، رتبتها لباقة امهاتنا لعدم تمكنهن من شراء قماش جديد.

مكثت سنة واحدة في مدرسة «شيخان»، حتى إذ تمكنت من الالتحاق بمدرسة جدايل ١٩٢٢ حيث كان فرج‌الله، سجلت اسمي فيها وانتقلت إليها، واصبحت هنا في حي فرج‌الله وبالقرب منه.

كان فرج‌الله ابرز تلميذ في الصف الأول، وكان مجلياً باللغة العربية، بالإضافة إلى كونه يتمتع بأخلاق رفيعة وضعته في المرتبة الأولى كمرجع لجميع التلامذة، وأي اقتراح يبديه للفصل في موضوع ما، لا يعترض عليه أحد ويسلم به الجميع. ومما ساعده على ذلك تفوقه في دروسه كما أشرت.

مكثت في مدرسة «جدايل» سنة واحدة وفي «شيخان» سنة أيضاً درست فيها اللغة الانكليزية والعربية. وبانتهاء السنة لم يعد لفرج‌الله وصديقه طانيوس انطون، صف في مدرسة المعلم بولس، مما فرض عليهما التفتيش على مدارس أخرى خارج «جدايل». وبعد بحث وتمحيص، وجدا لهما مكاناً في «المدرسة الوطنية» في «عمشيت» لمؤسسها المربي الكبير أديب لحود. وانتقال فرج‌الله من «جدايل» أربكني، وفرض علي الانتقال إلى «عمشيت». ولكن العقبة هي بتأمين مرتب المدرسة غير المتوفر معي. ووالدي لم يكن بمجال تمكنه من مساعدتي اللهمّ إلا بتأمين الأكل. فما العمل إذن؟

لقد حلّت المسألة على الشكل التالي: بالنسبة للمرتب تبرّع به غالب شقيق فرج‌الله. وبالنسبة للسكن، فقد تأمن عند اقارب لي في عمشيت هم والدة وأشقاء زوجة شقيقي الأكبر نسيم المهاجر إلى الولايات المتحدة الاميركية.

وقد فرحت وسررت جداً لحل مشكلتي، وانتقلت إلى « الوطنية » وأصبحت بالقرب من فرج‌الله.

وفي الوطنية تخليت عن متابعة دراستي اللغة الانكليزية، وبدأت بدراسة اللغة الفرنسية. وبالرغم من طيشي، فقد كنت تلميذاً مقدراً من حيث النجاح بالفحوص والحصول على العلامات والجوائز التقديرية.

وفرج‌الله كان أبرز تلميذ في المدرسة. وسيرته في « الوطنية » هي كسيرته في « جدايل » تفوق في الدروس، ومسلك خلقي رفيع المستوى بوأه لأن يصبح مرجعاً لجميع التلامذة، مقدراً من الجميع، اساتذة وطلاباً، ومستخدمين. وتقديراً لهذه الصفات انتخب بالإجماع رئيساً لـ « جمعية الحبل بلادنس »، كما انتخبت انا قارئاً أول للجمعية.

عندما كان فرج‌الله وصديقنا طانيوس انطون في مدرسة « جدايل » تعلما اللغة الانكليزية وحصّلا فيها تحصيلاً بارزاً. وعندما انتقلا إلى « الوطنية » في عمشيت، تركا اللغة الانكليزية، وبدآ بتعلم اللغة الفرنسية. وعندما لم يعد لهما صف في « الوطنية » قرر طانيوس العودة لتعلم اللغة الانكليزية لأنه كان بوارد السفر لعند شقيقيه في الولايات المتحدة الاميركية. وعليه فقد انتقى « الجامعة الوطنية » في عاليه، فيما فرج‌الله ذهب إلى مدرسة « دير ميفوق » في بلاد جبيل التي اسست حديثاً وجهزت بطاقم اساتذة مشهورين بينهم العلامتان الخوري يوسف الحدّاد، والخوري يوحنا ضنوس وسواهما. وكان الرهبان هم الذين يشرفون على ادارة المدرسة.

أما أنا فقد اضطررت إلى العودة إلى « الوطنية » وشعرت بعد غياب فرج‌الله، بوحدة مطلقة، مما جعلني بعد مرور ثلاثة شهور على وجودي، أن اعود إلى حصرايل. وفي هذه الأثناء، وذات ليلة، واذا بفرج‌الله يصل إلى بيته في حصرايل، تعباً منهوكاً، حتى إذا وصل وارتاح قليلاً، شعر بأنه سعيد لتخلّصه من « السجن » الذي مكث فيه بضعة شهور في « مدرسة » ميفوق.

كان أساتذة المدرسة من أبرز وأشهر المدرسين، ولكن الإدارة كانت مهملة، وأعمالها سيئة مع التلامذة، وقد تحمّل فرج‌الله هذه الحياة، ولكن إلى حد لم يعد فيه قادراً على ذلك. فحزم أمره على الهروب. وذات صباح ضب كتبه في كيس وحمله على كتفه، واتجه نحو الساحل ميمّماً شطر « حصرايل ». وكل ما مشى كيلومتراً، كان الكيس يزداد، كما روى لنا هو بذاته، ثقلاً بقدر ما

كان فرج‌الله يزداد تعباً. قال فرج‌الله عندما كان يروي لنا عملية هروبه: «كان الكيس يزداد ثقلاً، فكنت مضطراً للاستراحة ونبشه فلربما يكون راهب مختبئاً فيه».

بعد انقطاع دام حوالى أربعة شهور بيني وبين فرج‌الله، عدنا للالتقاء في حصرايل، بعيدين عن دور التعليم، التي بقيت افكارنا متجهة اليها ولكن الأمور مشت على غير ما نشتهي. وكانت طلائع أزمة اقتصادية قد بدأت تلقي بثقلها على البلاد، ورافق ذلك نشوب الثورة السورية ١٩٢٥، التي كان لها انعكاسات على لبنان وقد تعاطف معها جمهور واسع، لا من المسلمين وحسب، بل ومن المسيحيين المعادين للاستعمار الفرنسي، وأذكر أننا كنا، وتحديداً، فرج‌الله، وقزحيا الحلو، وأنا، نميل إلى الثوار، وندافع عن الثورة، وذات مرة «دبّت المَمّة» بأحد المناصرين للفرنسيين في قريتنا وقال، انتم «مَيْلكم» «درازي» بدّي روح خبّر الظابط في جبيل عنكم، ومشى بضعة أمتار، ثم تراجع، ولكننا نحن لم نتراجع واستمرينا بإبداء عطفنا على الثورة السورية. ولطالما فرحنا لبطولة زيد الأطرش، وذلك الثائر الذي شطر أحد الضباط المستعمرين بسيفه شطرين في معركة «المسيفرة» ومغامرات حمزة الدرويش وسواه.

كنا نقرأ جريدة «الوطن» لوديع عقل فيسحرنا نهجها العروبي. في ذلك الوقت لم نكن على اتصال بأي فكر ماركسي، فقد انتقلنا من بؤرة الانعزال اللبناني، إلى محراب العروبة من جهة، والفكر المادي من جهة أخرى. وفي هذا المجال اثرت بنا كثيراً كتب جبران خليل جبران وعلى وجه الضبط قصته «خليل الكافر» وكتاب: «أسرار الكون» للصحافي أسبر الغريّب، ومجلة الهلال التي تنشر مقالات لسلامة موسى، ونقولا حداد وسواهما.

عندما سدّت بوجهينا ابواب العودة إلى المدارس، رحنا نفكّر بالمهاجرة سعياً للكسب المادي. ولكن البلدان التي كانت محط أنظار المهاجرين، بدأت بوضع شروط وقيود على كل من يودّ المهاجرة إليها. واقرباؤنا جميعهم كانوا موجودين في الولايات المتحدة الاميركية، ولذا كانت هذه البلاد غايتنا. لكن القيود التي فرضت حالت دون ذلك، مما جعلنا نفتش في كتب الجغرافيا عن البلدان الغنيّة في العالم التي يمكن أن نسافر إليها، ونشتغل فيها، ونجمع الثروات ونعود إلى الوطن متمولين مما يوفر لنا مكانة اجتماعية مرموقة.

وفي نهاية المطاف قررنا، فرج‌الله وانا، أن نسافر إلى المكسيك، لسببين: أولاً كان لنا أصدقاء وأقارب فيها بينهم خال فرج‌الله، وثانياً كونها قريبة من الولايات المتحدة الاميركية، مما يسهل علينا الانتقال بسهولة إليها لعند أشقائنا.

يبقى «الناولون» أو «التكت» كما كان المهاجرون يسمّونه، فقد ألححت على المرحوم عمي

عقل الحلو (صهرنا) فنقدني أربعين ليرة عثمانية ذهبا. وفرج‌الله استدان قدر هذا المبلغ من الصديق طنوس الياس الحلو. وبما أنني عجول، وبالرغم من ارتباطي بفرج‌الله وتعلقي به، لم انتظره بل سبقته بالسفر، على أمل أن يلحق بي بعد أسبوعين إلى مرسيليا. وفي ٢٧ تموز سنة ١٩٢٧ ركبت الباخرة الفرنسية (لوتس) إلى مرسيليا وقد امضيت ثمانية أيام على ضهر البابور، أنام على الكرسي البحري الذي اشتريته بـ ١٤٠ قرشاً، وقيمة «الناولون» بين بيروت ومرسيليا كانت ١٥ ليرة لبنانية (ما يوازي خمس ليرات عثمانية ذهباً).

ولكن حدثاً طرأ خلال هذه الفترة غيّر المجرى. فبعد وصولي إلى مرسيليا اتخذت حكومة المكسيك قراراً بمنع الهجرة إليها. وقد أصبحت وأنا في مرسيليا أمام أمرين، فإما العودة إلى لبنان، أو السفر إلى بلد آخر. ورحنا نشيل ونحط، ونقلب الآراء، فاقترح عليّ أحدهم من العاملين في شركات السفر وهو لبناني من «حامات» اسمه اسحق زخريا، السفر إلى كوبا، لأنها قريبة من المكسيك، ومن الولايات المتحدة الاميركية، وبعدما أمدني شقيقاي، نسيم وفرنسيس، وصهرنا جرجس في الولايات المتحدة الاميركية، بـ ٣٠٠ دولار، دبّرت أمري وقررت السفر إلى هابانا كوبا.

أما بالنسبة لفرج‌الله، فقد عدل عن السفر، وبذلك وفّر عليه الكثير من المشقات، والعذابات التي كان المهاجرون يتعرضون لها في تلك السنين، سواء في اثناء سفرهم بين بيروت ومرسيليا، حيث كانوا يعاملون كما لو أنهم سجناء. كانت إدارة البابور تنظمهم فرقاً، كل مجموعة من عشرة أشخاص تسلمهم الأكل جماعياً، وهم يوزعونه بشكل «قروانة» على بعضهم. وكانوا ينامون على كراس بحرية على «ضهر الباخرة» واذا لم يستيقظوا في الساعة الخامسة صباحاً، فيصوّب شغيلة البابور خراطم المياه عليهم.

وصلت إلى هابانا بعد انقضاء أربعة عشر يوماً في الباخرة، وقد ترافقت مع عائلة من آل مكرزل من قرية «عين عار» وضعها كوضعي. وفي كوبا تبخّرت كل أحلامي. فطريق المكسيك سدّت في وجهي، وكذلك طريق الولايات المتحدة، وبعد مكوث عشرة شهور في هابانا، قررت العودة إلى لبنان، وكان ذلك في أوائل شهر نوار ١٩٢٨، فأبحرت من هابانا على باخرة هولندية إلى «لوتردام» ومن هناك استقليت القطار إلى مرسيليا، ومن ثم في الباخرة وإسمها (تيوفيل غوتيه) إلى بيروت.

ومن جديد التقيت فرج‌الله الذي كان لا يزال يسعى وراء عمل. وقد علّم الأولاد في قرية «غرفين». وقدّم طلباً للعمل في مصلحة المساحة التي كان يديرها «المسيو دي رافور» الفرنسي فنجح، وعين في الجبل العلوي. مكث هناك شهراً واحداً فاستقال وعاد إلى «حصرايل». والسبب

الرئيسي الذي دفعه للاستقالة، ما رآه من عسف، وظلم تنزله إدارة المصلحة الفرنسية بالأهالي. ومن جديد عاد إلى البطالة، والتفتيش عن عمل.

وفي أواخر العام ١٩٣٠، عاد فرج‌الله إلى متابعة دراسته في «المدرسة الإنجيلية» في حمص لصاحبها فريد مسّوح. كان يَدْرُس ويدرِّس، دون أن يدفع أو يقبض شيئاً. وفي الإنجيلية حصل على البكالوريا القسم الأول في اللغتين العربية والفرنسية.

الجديد في حياة فرج‌الله

كانت حمص منبلجاً جديداً أضاء طريق فرج‌الله، لا من حيث حصوله على البكالوريا، وتبؤوه مركزاً أدبياً مرموقاً، بل من حيث الاتجاه السياسي الذي أصبح فتحاً جديداً في حياة فرج‌الله.

في حمص وجد فرج‌الله نفسه محاطاً بكوكبة من الأصدقاء الأساتذة في الكلية الإنجيلية، منهم، حنا نمر، ناصر حدّة، إميل مكرزل، فريد مبارك، عبدالعزيز الرفاعي وسواهم. والذي أثّر في تفكيره المادي، هو مطالعاته الغزيرة في مجلة «المقتطف» المصرية، ومؤلفات سلامة موسى، ونقولا حداد، وجبران خليل جبران وبخاصة مؤلفه «خليل الكافر». ويشار إلى الأثر المادّي الذي قبسه من كتاب صاحب مجلة «الشمس» إسبر الغريب واسمه: «أسرار الكون».

سنوات ١٩٢٩ - ١٩٣٣ كانت محراباً لأشد أزمة اقتصادية عرفها العالم الرأسمالي. والاستعمار الفرنسي عمل بجميع الوسائل، وبما له من سلطان، على تخفيف حدّة الأزمة في بلاده على حساب شعوب البلدان الواقعة تحت سلطته الاستعمارية، ومن بينها سوريا ولبنان. فجميع موارد بلادنا الرئيسية التي تنتج فرنسا مثلها كحرير القز مثلاً، ضربت. ففيما كان لبنان ينتج حوالى الستة ملايين أقّة من الشرانق، تقلص الانتاج إلى بضع مئات من الاقات (الأقّة ١٢٠٠ غرام).

أما في المجال الصناعي، فكان الاستعمار يمنع اللبنانيين من بناء مصانع، وأذكر أن أحدهم جلب معدات لبناء معمل لصنع البويا، ولكن السلطة المستعمرة لم تعطه رخصة لبناء معمل، فتركت في محلة «الدورة» سنوات إلى أن تآكلها الصدأ وتلفت.

والشباب المتعلم كان يفتش على الوظيفة فلا يجدها. ومن كان يسعده الحظ ويُقبل في سلكي الدرك أو البوليس لقاء مرتب ثلاثين ليرة بالشهر، يعد من أكبر المحظوظين، ورافق ذلك انخفاض في أسعار المنتجات الزراعية. ثمن رطل الطحين كان خمسة قروش، أي (فرنك قديم). وثمن قنطار الفحم (القنطار ٢٥٠ كيلو) كان ليرتين لبنانيتين، وثمن رطل الزيت (الرطل ٢٥٠٠ غرام) أربعين قرشاً. وفي حينه اشتغلت بصناعة الفحم، وبالنتيجة عملنا حسابنا مع من كنت اشتغل وإياهم، فبلغت أجرة الواحد منّا يومياً أحد عشر قرشاً.

في هذه الحقبة كنا، فرج‌الله وأنا، وشباب أخر نفتش على عمل، على مخرج لما نحن فيه من ضيق، وانعدام مدخول. وقد وجدنا المنفذ، والمنبلج بالحزب الشيوعي الذي زرع فينا الآمال الكبار، فاقتنعنا بأن التنظيم المستند إلى أهداف اجتماعية ممكنة التحقيق، هو الطريق الوحيد لخلاصنا، وخلاص شعبنا مما يلّم به من محن، وأزمات، وحتى مجاعات.

في المدرسة الأرثوذكسية بدمشق

بعدما حصل فرج‌الله على شهادة البكالوريا ـ قسم أول، في الكلية الإنجيلية بحمص، إتجه لمتابعة الدروس للحصول على البكالوريا ـ قسم ثان. ولما لم تكن الكلية الإنجيلية مهيأة لمنح هذه الشهادة، راح يفتش عن مدرسة موافقة، أي مدرسة يعلم فيها ويتعلم دون أن يدفع أو يأخذ أي مرتب، فقط منامة وأكل. ووجد هذه المدرسة في الكلية الأرثوذكسية بدمشق.

في هذا الوقت كنا قد أسسنا منظمة الحزب الشيوعي في بلاد جبيل، والفضل في تأسيسها يعود لإثنين: لفرج‌الله الحلو الذي كان قد تعرف على الحزب في حمص، بشخص المدرّس ناصر حدّة. ولتوفيق نجم الذي أنشأ صلات، في أثناء وجوده في مصح بحنّس، مع أحد الشيوعيين الأرمن الذي عرّفه على فؤاد الشمالي. كان ذلك في ربيع العام ١٩٣١. كان توفيق نجم صديقاً لي. نشأت صداقتنا في مدرسة المعلم بولس عبدالله في جدايل سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢، وبعدها سافر توفيق إلى البرازيل ولما لم يسعفه الحظ فانتكست صحته، عاد إلى لبنان وقد تعالج هنا فبرىء مما ألّم به من داء، ولكنه من جهة أخرى تعرّض للعوز لعدم توفر الأشغال. وقد التقينا على « الطفر »، والسعي لوجود عمل. ولكن المنبلج الذي افتتح أمام توفيق في مصح بحنس كان له الفضل في تحقيق أمنيتين: أمنية الصحة وقد عادت إلى توفيق، وأمنية الأمل وقد عادت إليه بتقبله الأفكار الاشتراكية العلمية.

وذات يوم وكنا عائدين عند المساء إلى حصرايل بعدما كنا قد اغتسلنا بمياه البحر، مشياً على الأقدام لعدم وجود طريق للسيارات، وكنا جهرة من الشبّان، نتحاكى ونتشاكى حولْ أحوالنا المادية، قال توفيق هناك حزب يعمل من أجل الشغيلة، وهدفه تغيير الأوضاع وتسليم الحكم للعمال والفلاحين، بتدخل فيه؟. أجبته من كل بد. قال: حط ايدك هون. ومدَّ لي يده فشبكت يدي بيده، دلالة على الموافقة، ورحنا ننتظر عودة فرج‌الله، من حمص، لأنه كان دليلنا وقيدومنا، وحائزاً على كامل ثقتنا.

في شهر تموز سنة ١٩٣١ عاد فرج‌الله من حمص حاملاً ذخيرتين: شهادة البكالوريا، وبراءة لتأسيس حزب شيوعي في بلاد جبيل. وكنا في سهرة عند فرج‌الله في بيته، أنا وتوفيق، وطانيوس فرحات راح فيها فرج‌الله يشرح الأفكار الاشتراكية، وبالنهاية قال بدنا نؤسس فرع للحزب

الشيوعي هنا، وبادىء ذي بدء عندما حُدّثت بالأمر، اتجهت أفكاري إليكم أنتم لتكونوا نواة هذا الفرع. فوافقنا جميعنا، وأطلعناه على ما أقامه توفيق من علاقة مع فؤاد الشمالي، وهكذا تم كل شيء، ورحنا نتحيّن المناسبات لإنجاز ما قررناه.

كان ذلك في شهر أيلول ١٩٣١، عندما اتفقنا على دعوة ممثل للحزب من بيروت لحضور أول اجتماع تأسيسي نعقده لبناء منظمة شيوعية في منطقتنا. وكلفنا توفيق نجم بذلك.

وعند تبليغ الذين وافقوا على الانضمام للحزب ليوافونا إلى المكان المقرر اللقاء فيه، وكان في محلة بخراج «عمشيت» تسمّى «وطا يوسف» حيث توجد مغارة على شط البحر، وبالقرب منها «نبع» تصب مياهه في البحر وبعض الناس عندنا يسمون تلك المحلة «جورة سعَيد» أو «الزغرين» وقد أزيلت معالمها الآن بسبب استثمارها تجارياً. أقول عند التبليغ، اعتذر بعضهم: طانيوس فرحات ولبّى الدعوة فرج‌الله الحلو، توفيق نجم، يوسف خطار، جورج جبور، حنا نمر الذي اعتذر عن الحضور لارتباطه بموعد مع زائر من بيروت، إنما كلف فرج‌الله بتمثيله، وأبدى موافقته المسبقة على كل ما نتخذه من قرارات وترتيبات.

وفي الوقت المتفق عليه بين توفيق وفؤاد الشمالي، حضر الأخير لنقضي نهاراً ممتعاً مع استاذ الدعاية والتحريض فؤاد الشمالي أمين عام الحزب الشيوعي في سوريا آنذاك. وكانت الحصيلة ولادة أول منظمة شيوعية في بلاد جبيل، سكرتيرها فرج الله الحلو، والمسؤول عن المطبوعات فيها يوسف خطار، كما أننا عينّا مسؤولاً للمالية.

لم يمكث فرج‌الله طويلاً في حصرايل، فاضطر بعد شهر تقريباً للذهاب إلى دمشق لمتابعة دروسه للحصول على البكالوريا - قسم ثان، فاستلمت مهمة سكرتير المنظمة، وكان عدد الشيوعيين قد ازداد، وأقيمت علاقات مع مجموعة من القرى؛ غرزوز - بخعاز - المنصف - البربارة - غلبون - جدايل - شيخان - حصارات.

في أثناء وجود فرج‌الله في دمشق اعتقلت لاتهامي بتوزيع كراس «لماذا يناضل الشيوعيون في سوريا ولبنان». وقد بعثت إليه رسالة أطلعه فيها على الذي حصل معي وأنني قلت للدرك في جبيل: «سجنكم صغير علي، هيا انقلوني إلى سجن بيروت». وقد ارتاح فرج‌الله إلى هذا الموقف، أمام الدرك، وكتب يهنئني على ذلك.

وعاد فرج‌الله إلى حصرايل وكان الوضع الاقتصادي يزداد صعوبة. مكث في حصرايل من مطلع تموز ١٩٣٢، إلى حزيران ١٩٣٣. خلال هذه المدة كنا نمضي الوقت بأشغال متنوعة. تارة نصنع أحجار اللِبْنْ لقطع البيوت، وتارة في النجارة. ومن ابرز الآثار التي صنعها فرج‌الله تحت

للمنامة صنع من خشب الزنزلخت، ولا يزال موجوداً حتى اليوم، ودوري كان مساعدا لفرج‌الله. دق مسمار هنا. ابرد هذه الخشبة. ناولني المنشار. أما الأعمال الدقيقة فكانت جميعها من اختصاص فرج‌الله.

أصبح تخت فرج‌الله حديث الناس. لأنه مؤلف من عشرات القطع دون مسامير. كما وأنه صنع طاولة من خشب التوت وأخرى من الزنزلخت لا تزال موجودة حتى الآن.

سفر فرج‌الله إلى موسكو

في شهر حزيران ١٩٣٣ ستدعي فرج‌الله إلى بيروت، وعاد إلى حصرايل ليطلعني بأنه تقرر سفره إلى موسكو للدراسة في معهد الماركسية اللينينية. وبدأ بتحضير جواز سفره. هذا الخبر أفرحني بقدر ما أزعجني. أفرحني بذهاب فرج‌الله إلى موسكو وعدّينا ذلك تقديراً من الحزب لمنظمتنا. وأزعجني غيابه عني. فارتبكت، وأصبت بهموم. إحتارت لأمرها والدتي، التي اعتقدت أن صدمة حلّت بي لأن إحدى البنات التي كنت أتردد عليها، ستتزوّج من سواي. إنها لم تعلم بأن انقطاعي عن فرج‌الله لمدة سنة هو الذي غيّر مجرى حياتي.

بسفر فرج‌الله ازدادت مسؤولياتي، ولا سيما وأن الحزب في بلاد جبيل لم يعد أفراداً في قريتي «حصرايل»، «وشيخان»، بل أصبح له امتدادات في العديد من القرى. والحديث عن الشيوعيين أصبح شائعاً في جميع السهرات.

وقد وجدت بمن تعاونت معهم من الرفقاء وبخاصة، توفيق نجم وهنري عازار ووديع شاهين، وحنا طنوس وفريد فرح، سنداً ساعدني على القيام بالمهمة التي ألقيت على عاتقي. أما الصلة بفرج‌الله عندما كان في دمشق فاقتصرت على الرسائل. وقد حرص فرج‌الله على تضمينها التوجيهات الضرورية لمسار عملنا في قرى بلاد جبيل، وقد تركزت بمجملها على الدفاع عن حقوق الفلاحين والشغيلة والفقراء. فبمبادرة من فرج‌الله ساعدنا كثيرين من الرفقاء والأصدقاء على شراء الدواء ودفع أجرة الطبيب، فكان لذلك وقع طيب بين الأهالي. ومن جملة الوسائل التي لجأنا إليها في قرية حصرايل، تأسيس صندوق عمومي يساهم فيه جميع أبناء القرية، لمساعدة المحتاجين إذا ما نزلت بهم نازلة، أو أصيبوا بداء، أو اضطروا إلى قضاء حاجة لهم في دوائر الحكومة، كالحصول على رخصة لقطع الأحراج، أو تقديم طلب لزراعة التبغ في عهد البندرول، أو لتصليح طريق وردم الحفر فيها، أو بناء عبّارة للمرور فوق النهر.

مكث فرج‌الله في موسكو سنة كاملة، عاد بعدها إلى لبنان في أواخر شهر حزيران سنة ١٩٣٤. وكان رجوعه فرحة كبرى بالنسبة إليّ. وقد دلف شباب كثيرون من مختلف القرى

لتهنئته بسلامة العودة. وبالرغم من أجواء الإرهاب، وحصي الأنفاس على كل من يقوم بدعوة للشيوعية، كان يحدث زائريه بكل وضوح عن الحياة في الاتحاد السوفياتي، وضرورة تقوية الحزب الشيوعي، والعمل على تنظيم الفلاحين كشرط للحصول على مطالبهم الاقتصادية. والمبادرة الأولى التي قام بها فرج‌الله ودفعتنا جميعنا للتحرك والعمل، هي السعي لعقد مؤتمر لفلاحي منطقتنا، مهما كان عدد القرى المشتركة فيه، كمقدمة لانتخاب وفد يحمل عريضة تتضمن مطالب الفلاحين ورفعها إلى المفوض السامي الفرنسي.

وفد الفلاحين

وبالفعل توصلنا إلى الصلة بحوالى ٢٢ قرية وفي أكثرها عقدت اجتماعات بحث فيها الوضع الاقتصادي العام، والضرورات التي تقضي برفع الصوت لتحقيق المطالب. وكان الفلاحون في كل اجتماع يعقد في قريتهم ينتخبون وفداً منهم ليمثلهم في المؤتمر المحلي العام. حتى إذا انتهينا من المخطط الموضوع، دعونا المندوبين المنتخبين لاجتماع عام عقد في قرية جدايل في بيت المرحوم طنوس ناصيف بولس الملقب بـ (بو علي)، وفيه لخص فرج‌الله حصيلة الاجتماعات المحلية، والمطالب التي وضعت فيها وعلى أساسها جرى انتخاب وفد مصغّر ليحمل هذه المطالب المدوّنة في عريضة إلى السلطة المنتدبة.

في هذه الاثناء استدعي فرج‌الله إلى بيروت وكلف بمهمة للعمل الحزبي في مدينة حلب. وعليه تألف الوفد من يوسف خطار، ونجم عاصي، وتوفيق جبور وآخرين لم اعد أذكر أسماءهم. استعدَينا للذهاب إلى بيروت، وأحدث استعدادنا خضّة في المنطقة، فمنهم من راح يشيّع أن السلطة ستعتقل الوفد فوراً. ومنهم من راح يقول إن أحداً لن يقابلهم. وكلما انقضت ساعة من ساعات النهار، كان الشك يزداد، حتى عند أهلنا وأصدقائنا من أن سوءاً حلّ بنا. والحقيقة أننا ذهبنا إلى المفوضية الفرنسية، إلى غرفة المفوض السامي، ولكن المفوض لم يقابلنا، بل قابلنا أحد أركان غرفته واستلم العريضة وسجلها في سجل الواردات اليومي. وكنا قد حضرنا نسخاً عنها قمنا بدورة على الجرائد ووزعناها عليها لنشرها. وعندما وصلنا إلى مكتب جريدة «المساء» في شارع عبد الوهاب الانكليزي وجدنا أحد أصحابها الاستاذ عارف الغريب الذي راح يناقشنا ويبدي تبرّماً لنشر العريضة. في هذه الاثناء وصل إلى المكتب المرحوم أحمد السبع المحرر في «المساء»، ولما اطلع على الغاية من قدومنا، وعرف أن عارف الغريب لا يريد نشر العريضة، قال أحمد بصوته الجهوري، أهلاً بكم يا شباب تأكدوا بأننا سننشرها. وهكذا كان، فـ «المساء» هي وحدها التي نشرت العريضة بنصّها الكامل.

وعاد الوفد إلى حصرايل متأخراً وراحت الآراء تتضارب حوله، ووقف الأهل زرافات

زرافات على مشارف الطريق منتظرين قدومنا، حتى إذا وصلنا فرحوا بمجيئنا، في حين استاء المتربصون والشامتون.

كان بامكاننا أن نحافظ على وفد فلاحي قرى بلاد جبيل كتشكيلة تنظيمية، ولكننا لم ننتبه لذلك، وفرج‌الله المبادر إلى تنظيم هذا الوفد، كان قد ترك حصرايل وذهب إلى حلب وانقطعت صلتنا به.

إستمرت مهمة فرج‌الله في حلب من خريف ١٩٣٤، حتى مطلع العام ١٩٣٦، فقد طوّر منظمة الحزب الشيوعي في الشهباء، وأصبح لها ملاك مستقر، وحرص على تطويره فأوفد بضعة مناضلين من العمال لدراسة الماركسية اللينينية في جامعة شعوب الشرق في موسكو. كما وأنه نظم العلاقات بين حلب وبيروت التي كانت المركز الرئيسي للقيادة الحزبية. وبحكم عملي بين تشرين الأول سنة ١٩٣٥ وحزيران سنة ١٩٣٦، في منظمة بيروت، كنت مكلفاً بتأمين إيصال المطبوعات إلى حلب، عبر وسائل النقل القانونية، والرسمية. وفي حلب كان مستخدمون وموظفون ليسوا شيوعيين يعملون في إدارة سكة الحديد وهم من لبنان إنما وطنيون جيدون، يوصلونها إلى من عيّنه فرج‌الله لهم، وعندما نتذكر ذلك لا يسعنا إلاّ أن ننحني إجلالاً وتقديراً لمثل هؤلاء الشرفاء الذين يملكون سهماً في عملية الثورة التحررية الوطنية والاجتماعية في بلادنا وفي طليعتهم الصديق الشيخ ع.ن.

الاضراب الخمسيني

في شباط سنة ١٩٣٦، وكانت سوريا وبخاصة دمشق تغلي غلياناً شديداً بالنضال الوطني. الشوارع لا تخلو يومياً من تجمعات ومظاهرات. والاستعمار يلجأ إلى كل ما عنده من أدوات إرهابية لتحطيم مقاومة الجماهير الثائرة، في هذا الوقت لم يكن في دمشق من الرفقاء القياديين سوى رشاد عيسى، وناصر حدّة، وفوزي الزعيم، فاقتضى استدعاء فرج‌الله من حلب إلى دمشق، ولكن عيون السلطة لم تكن غائبة، فعلى اثر الاضراب الخمسيني الشهير اعتقل فرج‌الله وأبعد عن الأراضي السورية إلى لبنان، وعاد لتوّه إلى بيروت. وقد وافانا فور وصوله إلى بيت الرفيق أرتين مادويان في حي مار مخايل ـ النهر. حيث كنا في اجتماع موضوعه الوضع الراهن في دمشق وانعكاساته في لبنان. وقد ساعدنا وصول فرج‌الله الذي قدم تقريراً مستفيضاً عن تطورات الوضع في سوريا.

منذ شهر آذار ١٩٣٦ حتى شهر شباط سنة ١٩٣٧. استقر فرج‌الله في بيروت، وأصبح عملياً المسؤول الأول عن الحزب يعاونه نقولا شاوي، وناصر حدّه، ورشاد عيسى، وأرتين مادويان ويوسف خطار الحلو، وعندما أخلي سبيل مصطفى العريس وفؤاد قازان في تموز ١٩٣٦، أصبحا في مركز القيادة.

في تلك الحقبة جرت تطورات سياسية مهمة. ففي سوريا تراجع الاستعمار أمام صمود الحركة لوطنية. والإضراب الذي أعلنته دمشق استمر خمسين يوماً. وقاوم أبناء العاصمة السورية تدابير لانتداب الشرسة، إلى أن رضخت سلطاته، وتشكل الوفد الوطني السوري لمفاوضة السلطات الانتدابية الفرنسية في باريس. وسافر الوفد وأجرى المفاوضات التي أسفرت عن تنظيم العلاقات بين سوريا والاستعمار الفرنسي، على أساس معاهدة ضمنت لسوريا بعض الحقوق الوطنية، رقلصت بعض الصلاحيات التي كانت من صلاحية المفوض السامي الفرنسي.

أما في لبنان فلم يحدث أي نضال، ولكن السلطات الاستعمارية بالاتفاق مع أعوانها اللبنانيين الذين في الحكم، عمدت إلى وضع نصوص معاهدة بين فرنسا ولبنان هي دون المعاهدة السورية ـ الفرنسية. وقد انتقدها الحزب الشيوعي ببيان طويل مفصّل، نشر في جريدة «الرابطة الشرقية» باسم يوسف خطار الحلو.

بالرغم من معارضة اليمين في البرلمان الفرنسي، للمعاهدتين المعقودتين بين فرنسا من جهة وسوريا ولبنان من جهة، وعرقلة تصديقها، فإن جوّاً من ممارسة الحريات بدأ في سوريا ولبنان، والإرهاب الشديد ضد الحريات والأحزاب الوطنية وبخاصة الحزب الشيوعي، خفّت وطأته، وأصبح بإمكان قادة الحزب الشيوعي وملاكاته التحرك بحرية.

ولكننا لم نفهم جيداً طبيعة تلك المرحلة، ولم ندرك أبعاد مخاطر التمدد الفاشي في بلادنا. تمدد المانيا النازية وايطاليا الفاشية. ولا سيا الفاشيستية الايطالية التي احتلت الحبشة، راحت أنظارها ترنو إلى احتلال بلدان أخرى، وكانت سوريا ولبنان، وبخاصة لبنان مستهدفاً، وقد نشطت فيه دعاياتها، وكثرت تنظياتها، وتوسّع مدى إعلامها.

في هذا الوقت عاد خالد بكداش من موسكو عن طريق فرنسا، وكان قد ذهب إليها بتوجيه قيادة الكومنترن للاتصال بالوفد السوري المفاوض. وقد قدم خالد مساعدات جلّى للوفد عبر الحزب الشيوعي الفرنسي، كما وانه أقام علاقات جيدة مع رياض الصلح الذي كان في باريس مع الوفد السوري.

وبين ٣ و ٧ شباط ١٩٣٧ عقد في دمشق اجتماع موسع للجنة المركزية للحزب في سوريا ولبنان كان طابعه وتركيبه والمهات المطروحة عليه وكأنه «كونفرانس» حزبي، كان ذلك في مكتب الحزب بحي «المزرعة». في هذا الاجتماع قدم خالد تقريراً سياسياً تقرر على اثره السير بالعمل العلني، وترتب على ذلك فتح مكتب في بيروت، كما عين فؤاد قازان مسؤولاً عنه، باعتبار لبنان منطقة. وكان الحزب فيه رسمياً بمثابة لجنة منطقية. كما اتفق على تشكيل لجنة مركزية في عدادها، خالد بكداش، فرج‌الله الحلو، نقولا شاوي، رشاد عيسى، فوزي الزعيم، يوسف خطار الحلو،

فؤاد قازان، مصطفى العريس، لويس صعب، عبد الجليل سيريس، نسيب الجندي، طنوس دياب وآخرون.

كما تشكلت سكريتاريا من: خالد بكداش، فرج‌الله الحلو، نقولا شاوي، رشاد عيسى. واستمر خالد أميناً عاماً للحزب، ولم يكن عندنا مكتب سياسي. كانت السكريتاريا تقوم بمهمة مكتب سياسي. ولطالما صدرت بيانات، وبلاغات باسم «غرفة السكريتاريا» للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. في هذا الاجتماع قدم فرج‌الله الحلو تقريراً عن التنظيم في الحزب لا يزال حتى الآن يحتفظ بقيمته الكبيرة وهو المعروف باسم «التنظيم اساس النجاح». إنها الوثيقة الثانية الصادرة عن الحزب، بعد الوثيقة التي صدرت عن كونفرانس ١٩٣١.

بالفعل اتجهنا في لبنان لتنفيذ قرارات الاجتماع الموسع المنعقد سنة ١٩٣٧ في دمشق. فأسسنا مكتباً علنياً في شارع المعرض. وبعدما حصل نقولا شاوي على امتياز بإصدار جريدة «صوت الشعب» في ١٥ نوار ١٩٣٧ انتقل المكتب إلى رأس «المعرض» مقابل سينما التياترو الكبير. في هذه الفترة استقر فرج‌الله في بيروت، وكان مع نقولا شاوي، يشرفان على جريدة «صوت الشعب» وبذات الوقت يقوم بمهماته الحزبية. وكان هناك تركيز على توسيع الصلات مع الشخصيات السياسية، وتأسيس منظمات جماهيرية تشكل روافد للنضال ضد الاستعمار والفاشية. في هذا الإطار والوقت تأسست «جمعية مكافحة الفاشيستية» برئاسة المهندس انطون ثابت. كما انشىء وأعيد إنشاء العديد من الجمعيات، والنقابات العمالية، في طليعتها نقابة عمال المطابع.

نكسة انتهازية

بين أعوام ١٩٣٣ و١٩٣٧، حقق الحزب انجازات مهمة على الصعيدين الوطني والقومي. وقبل أن تصدر مقررات المؤتمر السابع للأممية الشيوعية ٢٥ تموز - ١٩ آب ١٩٣٥ حاملة نصوص الانعطاف الكبير في خطة واستراتيجية الأممية الشيوعية، بدأ حزبنا، قبل ذلك، بانعطاف شاملا سائر الميادين، الوطنية والقومية، العمالية والثقافية، والفلاحية. وعلى سبيل الذكر لا الحصر أورد بعضاً من تلك المنجزات التي حققناها وهي: أولاً: التخلي عن تأسيس معارضات نقابية داخل النقابات، وأصبح الشعار كل العمال في النقابة بمعزل عن الاتجاه السياسي لهذا العامل أو لسواه. ثانياً: تحرك الفلاحين، وفد فلاحي بلاد جبيل وتقديمه عريضة إلى المفوض السامي تحمل مطالب الفلاحين. ثالثاً: الدخول بعمق في وسط المثقفين: تأسيس مجلة «الدهور» برئاسة سليم خياطه سنة ١٩٣٤ والتفاف عدد من كبار الكتاب العرب حولها. رابعاً: عقد المؤتمر الوحدوي العربي سنة ١٩٣٤ في زحلة، وصدور وثيقة عنه لا تزال حتى تاريخه تتمتع بصحتها، خامساً - صدور مجلة «الطليعة» التي اكملت خط «الدهور» الوطني والقومي سنة ١٩٣٥.

هذا الانعطاف حصل بعد تكون كوادر وطنية كفوءة قادرة على تطبيق الخط الماركسي في المجالين اللبناني والعربي. وكان شعار الاستقلال والتحرر من الاستعمار هو الشعار الرئيسي. وأمام الخطر الذي شكله انتصار النازية في المانيا وبسط سيطرة هتلر الكاملة على الحكم، ثم جاء العدوان الفاشي الإيطالي على الحبشة سنة ١٩٣٥، ليضيف إلى شعارات حزبنا الرئيسية الموجهة ضد الاستعمار، شعار مكافحة الخطر الفاشي بقيام أوسع تجمع وطني، لبناني وعربي ضد الاستعمار والفاشية.

ولكننا بعد اجتماع اللجنة المركزية في دمشق شباط ١٩٣٧، الذي وضع الإطار السياسي لمسار الحزب أخطأنا برفع شعار «التحالف مع الديمقراطية الفرنسية»، في مواجهة مخاطر الفاشية فكان شعار النضال ضد الفاشية والاستعمار الفرنسي في آن، ومن أجل الاستقلال الوطني.

والمد الوطني، وجو ممارسة الحريات الديمقراطية النسبية، فرضا اجراء انتخابات نيابية وكانت على أساس المحافظة ولم تكن النساء قد نلن حقهن في المشاركة بالانتخابات. وقد رشح الحزب الشيوعي فرج‌الله الحلو عن محافظة جبل لبنان، ونقولا شاوي وسعد الدين مومنه عن محافظة بيروت الممتازة.

في هذا الوقت بين حزيران ١٩٣٧، وحزيران ١٩٣٨، كنت خارج البلاد حيث أمضيت سنة في موسكو في معهد الماركسية اللينينية، عدت بعدها، في شهر تموز ١٩٣٨ إلى بيروت، لأجد تطوراً واسعاً جداً في نشاط الحزب، وفي ممارسة العمل العلني، والتطور في التنظيم النقابي، والشبابي، ولا سيما العمل بين الفلاحين، وتأسيس منظمات حزبية في مناطق جديدة.

وفرج‌الله ارتاح لعودتي، وكان يستشف بي ملامح مناضل عنيد، مستقيم، صلب، وكنت دائماً احرص على أن أكون عند حسن ظنه بي.

كان فرج‌الله في هذا الوقت ينام في مكتب الجريدة الكائن مقابل سينما التياترو الكبير، لعدم توفر الإمكانات المادية لاستئجار غرفة مستقلة. أما الوقعة الممتازة التي كان يتناولها فكانت سندويش من عند عارف القاضي وثمنها ثلاثة قروش.

بعد عودتي من موسكو مكثت في الضيعة مدة قصيرة، ومن ثم نزلت إلى بيروت فاشتغلت في معمل للكازوز «سينالكو» يخص قيصر الكك، وشريكه فريجة. كنت انقل الصناديق، وأغسل القناني لقاء خمسين قرشاً باليوم. وبذات الوقت كنت أقوم بما يكلفني به الحزب من عمل. أما مسؤوليتي الرئيسية فبقيت في منظمة الحزب في بلاد جبيل.

جديد طرأ على حياة فرج‌الله في بيروت وهو انتقال عائلة خاله يوسف مخايل الحلو من

حصرايل، إلى العاصمة اضطراراً. وقد استأجرت بيتاً في حي مدرسة الحكمة، وكانت مؤلفة من خاله وزوجته، وأولادهما الأربعة، صبيين، وبنتين. هذا الوضع الجديد ساعد فرج الله على حلّ قسم مهم من حياته المعيشية، ومن ثم السكنيّة. فهو كان يحدب كثيراً على عائلة خاله، ويهتم بشؤونها، والعائلة كانت حريصة، بقدر ما هو متوفر لها من امكانات مادية، على تأمين ما هو بحاجة إليه.

وشاء العمل الحزبي أن ينتقل فرج‌الله لمدة وجيزة إلى دمشق، وكذلك نقولا شاوي. فانتقلت معهما «صوت الشعب» إلى هناك، وأصبحت تصدر من دمشق اسبوعياً. وكنت أوافيها اسبوعياً برسالة من لبنان. ولم يطل هذا التدبير حتى عادت «صوت الشعب» إلى الصدور في بيروت وعاد فرج‌الله ونقولا معها واستمرت بالصدور حتى اعلان الحرب العالمية الثانية في الثالث من أيلول سنة ١٩٣٩ بهجوم غادر قامت به المانيا الهتلرية على بولونيا. على اثر ذلك حاول الحزب أن يكسب بعض الوقت لتدبير شؤونه، فلم يفصح صراحة عن موقفه في البدء، فاكتفى بنشر «الميثاق السوفياتي - الالماني» وقد شطبت الرقابة معظمه. ولكن انفضاح موقف الاستعمار الانكليزي والفرنسي، بعدما بدأت فرنسا بحشد جيوشها في سوريا ولبنان بقيادة ويغان، في حين أن ثقل الجبهة كان على الحدود الشمالية الفرنسية حيث يستعد هتلر للهجوم على فرنسا وبلجيكا وهولندا. إن حشد الجيوش الفرنسية في بلادنا كان موضع تساؤل، وقد دعا الحزب في بيان صدر في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٩، إلى النضال ضد سياسة الاستعمار الفرنسي التي تخدم، بتصرفاتها، هتلر. على اثر ذلك شنت دوائر الأمن الفرنسية حملة اعتقالات واسعة شملت العشرات من الملاكات الشيوعية في طليعتهم فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي ومير مسعد واغباشيان، والدكتور سميح علم الدين، وسليم خياطة من لبنان، ورشاد عيسى، وابراهيم بكري وغيرهما من سوريا، كما اعتقلوا النقابيين اللبنانيين سعد الدين مومنه، ميشال العازار، حنا الزرقا، رامز دميانوس وسواهم.

في هذه الأثناء كنت قد عدت إلى حصرايل بقرار من الحزب، وأصبحت اتعاطى الأعمال الزراعية، تارة قطع الاحراج وصناعة الفحم، وتارة اقتناء عدد من سواعير المعزى لتربيتها وتسمينها. وبقيت على صلة بالحزب في بيروت. وكنت أتلقى بعض ما يصدر من منشورات. وكنت أوزعها بدوري على الرفقاء بشكل سرّي.. وذات مرة أعطي الرفيق أسد عاد من «غلبون» نشرة حزبية، وقد أعطاها بدوره إلى شخص اسمه روفايل من «غلبون» ومن روفايل وصلت إلى الدرك في جبيل فاعتقلوه. وبسؤاله عن وصولها إليه قال: أسد عاد هو الذي أوصلها إليّ. فاعتقلوا أسد، وقد قال أسد في إفادته إن يوسف خطار الحلو هو الذي أعطانيها، فقام درك جبيل بملاحقتي ولما لم يجدوني، حولوا الأوراق إلى المحكمة العسكرية الفرنسية، فحكمتني خمس سنوات غيابياً، الأمر الذي اضطرني إلى ترك بلاد جبيل وانتقلت إلى بيروت. وبعد مكوثي مدة في العاصمة اقترح علي الحزب الانتقال إلى حلب. فسافرت بالقطار مع رفيق أرمني يعرف مداخل

حلب أسمه « دجانول ». كان ذلك في تموز ١٩٤٠ حتى هذا التاريخ لم تكن المحكمة العسكرية الفرنسية نظرت بموضوع الشيوعيين المعتقلين. بقيت في حلب زهاء شهرين، عدت بقرار مني شخصياً، إلى بيروت.

فور عودتي إلى بيروت اتصلت بالرفيقين بانوس وتوما وذهبنا نحن الثلاثة ليلاً لمقابلة الرفيق خالد بكداش في قرية « بصاليم » حيث كان يقيم بشكل سرّي عند إحدى العائلات. وبدلاً من أن يرحب بنا اغلظ لنا القول ودعانا إلى العودة فرجعنا فوراً، في أثناء الليل، مشياً على الأقدام من « بصاليم » إلى انطلياس فامضينا ما تبقّى من الليل في بيت توما (طنوس دياب).

بعد ذلك عدت إلى بيروت وأصبحت مسؤولاً عن منظمة العاصمة، وعملياً عن الصلات في سائر المناطق التي بقي فيها تنظيم للشيوعيين، أو أفراد نظمت الصلة الفردية معهم.

في هذه الفترة كان الرفقاء جميعهم لا يزالون في سجن القلعة في بيروت بانتظار محاكمتهم. وقد نظمنا الصلات بهم، فكنا نرسل إليهم المؤن، والمأكولات وما يحتاجون إليه من مستلزمات السجن. ولا بد من التنويه هنا بدور رائد للمرحومة أم ميشال التي ثابرت على زيارة السجن اسبوعياً ناقلة إلى فرج‌الله، وهي زوجة خاله، المأكل والملابس وسوى ذلك من الحاجيات. كما أن بوغوص ناتاريان، كان من جهة أخرى يقوم بمهمة أوسع وهي تأمين « زوّادة » اسبوعية لجميع السجناء. وكنا نتلقى رسائل من فرج‌الله ونقولا شاوي، يطلعاننا فيها على أوضاعهم في السجن. وعندما جرت محاكمة جميع الشيوعيين وفي طليعتهم فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي، ألقى فرج‌الله دفاعاً قيماً عنيفاً في المحكمة. وهو بمثابة خطاب سياسي حدّد فيه قائد الحزب الشيوعي اللبناني طبيعة المرحلة. والمهات المطروحة أمام الشعب والحزب، وتواطؤ الاستعمار الفرنسي مع الاستعمار الانكليزي لتحويل الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، وستكون شعوبنا العربية وقوداً لها. وبملء الأسف فإن العدد من « نضال الشعب » الذي نشر فيه هذا الدفاع مفقود من الأرشيف.

بعد اصدار الحكم على الرفقاء بين خمس سنوات وسنة وسنتين وثلاث سنوات، نقلوا جميعهم إلى سجن « بتدين ». وكان قد انضم إليهم الرفيق مصطفى العريس الذي اعتقل فيما بعد عند عودته على الحدود اللبنانية ـ الفلسطينية وحكم بخمس سنوات سجناً في المحكمة العسكرية. بعد خروج فرج‌الله ورفقائه من السجن، نشأ وضع جديد في الحزب تطلب تمركز القيادة وتجميع شتاتها، وكانت بيروت هي المركز الرئيسي للقيادة وعلى رأسها خالد بكداش وفرج‌الله الحلو ونقولا شاوي ورشاد عيسى. وأول عمل قامت به هو إعادة اصدار جريدة « صوت الشعب » كأداة اعلاميّة رسمية للحزب. وسبق اصدار صوت الشعب، أن صدرت « مجلة الطريق » الاسبوعية برخصة حصل عليها المهندس انطون تابت رئيس عصبة مكافحة الفاشية في لبنان.

صدرت «صوت الشعب» بعدما دام تعطيلها سنتين وثلاثة شهور. ورئس تحريرها الرفيق نقولا شاوي، وكان فرج‌الله محرراً رئيسياً فيها. وقد انتدبتني القيادة مديراً للشؤون الإدارية. وبذات الوقت كنت مسؤولاً مالياً في الحزب، ومسؤولاً عن العمل التنظيمي في محافظة جبل لبنان، وعليه كانت صلاتي وطيدة وحية بفرج‌الله الذي كان يمثل الوجه السياسي البارز في الحزب، وكان نقولا شاوي يمثل الوجه الإعلامي والمسؤول عن السياسة الخارجية في اللجنة المركزية للحزب.

استمرت علاقتي وثيقة بفرج‌الله. وازدادت توثقاً عندما قرر الحزب خوض معركة الانتخابات في صيف ١٩٤٣ بمحافظة جبل لبنان بشخصي فرج‌الله الحلو، وانطون ثابت. وقد كلفت بتحمل مسؤولية الاشراف على سير المعركة لجهة المالية، ووسائل النقل، والإعلام. وكان نقولا شاوي سنداً رئيسياً لي في هذه المسؤولية وبخاصة لجهة الناحية الإعلامية (حفر افيشات، طبع منشورات ـ وصور وغير ذلك مما يتطلبه مسار المعركة).

رفض الذين اشتركوا في الانتخابات في القائمتين المتخاصمتين، القائمة الدستورية برئاسة الشيخ بشاره الخوري، وقائمة الكتلة الوطنية برئاسة الاستاذ اميل اده، رفضوا التعاون مع الحزب الشيوعي، وادخال أي مرشح من مرشحيه الاثنين على قائمتيهما. وكان لا بد من أن يخوض فرج‌الله الحلو وانطون ثابت المعركة منفردين.

وحصلت الانتخابات التي تدخل فيها علانية ممثلو الانتداب لفرض انجاح أصدقائهم، وأكثرهم كان في قائمة الكتلة الوطنية. وبالرغم من ذلك فقد سجل فرج‌الله الحلو وانطون ثابت نجاحاً ملحوظاً بعدد الأصوات التي نالاها. فقد حصل فرج‌الله على تسعة آلاف ومئة صوت. وحصل انطون ثابت على حوالى ثمانية آلاف صوت. في حين أن القائمة التي نجحت وهي مؤلفة من سبعة عشر شخصاً، حصلت على ثمانية عشر ألف صوت، وحصل فرج‌الله لوحده على نصف عدد الأصوات التي حصل عليها معظم الذين نجحوا وأصبحوا «نواباً عن الشعب».

عوامل ثلاثة دعمت فرج‌الله الحلو، وشكلت المنطلق الذي اكسبه هذا الرقم من الأصوات. أولها نفوذ الحزب الشيوعي الذي امتد آنذاك في معظم مناطق جبل لبنان، وأسس له قواعد فيها. وثانيها النفوذ الدولي للاتحاد السوفياتي الذي صمد بوجه العدوان الهتلري، وبدأ بعمليات هجومية لاسترجاع ما فقده من الأراضي السوفياتية. وثالثها هو شخصية فرج‌الله الحلو الجذّابة التي كان لها شأن ملموس في مسار المعركة الانتخابية. هذه العوامل توفرت موضوعياً في العام ١٩٤٣، وأعطت الحزب الشيوعي في جبل لبنان حوالى الـ ٢٠٪ من أصوات الذين اشتركوا في المعركة الانتخابية.

معركة الاستقلال
وتأسيس المؤتمر الوطني

لم يرق الوضع الذي نجم عن نتائج الانتخابات، السلطات الاستعمارية الفرنسية، فراحت تعد عُدّدها لتوجيه ضربة للاتجاه الوطني، واستعادة بعض ما فقدته من هيبة، وإعادة أصدقائها إلى الساحة كقوة أساسية تناط بهم مهات الحكم الموالي للاستعمار الفرنسي.

وازدادت نقمة الاستعمار بعدما تشكلت الحكومة برئاسة رياض الصلح، ولا سيما بعد اقدامها على تعديل دستور سنة ١٩٢٦ الذي وضع الاستعمار نصوصه، وكلها يربط لبنان بالمفوضية الفرنسية. وجاءت تعديلات حكومة رياض الصلح، تزيح معظم تلك النصوص، وتعطي السلطة اللبنانية حقوقاً أنكرها عليها المستعمرون. فاستشاط الانتدابيون الفرنسيون غيظاً وبدأوا يسرعون في توجيه ضربة للحكم فاعتقلوا بشارة الخوري، رياض الصلح، عبدالحميد كرامي، عادل عسيران وكميل شمعون وآخرين.

ففي ليلة ١٠ - ١١ تشرين الثاني ١٩٤٣، وكانت المفوضية الفرنسية قد نظمت حفل استقبال رسمي في هذا اليوم - ١١ نوفمبر - الذي يرمز إلى إعلان الهدنة في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، وتحقيق النصر على المانيا. وقد درجت السلطات الانتدابية في سوريا ولبنان على إقامة حفل استقبال بهذه المناسبة. وكانت الحكومة بكامل وزرائها، والقصر الجمهوري، والنواب مدعوين لحضوره. وعند منتصف الليل - ليل ١٠ - ١١ نوفمبر - داهمت قوات الجيش الفرنسي منازل الأشخاص المشار إليهم واعتقلتهم بثياب النوم وذهبت بهم إلى قلعة راشيا، وبينهم رئيس الجمهورية الشيخ بشاره الخوري، ورئيس الحكومة رياض الصلح.

على اثر ذلك هاج الشعب في العاصمتين، بيروت وطرابلس، وفي جميع المدن، والبلدات وتنادى الوطنيون فاجتمع ممثلوهم في مؤتمر وطني للبحث في المستجدات واتخاذ التدابير للرد على الهجمة الاستعمارية. وكان فرج‌الله الحلو ممثلاً للحزب الشيوعي في هذا المؤتمر. كما كان مصطفى العريس وسعد الدين مومنه ممثلين لـ « الاتحاد العام لنقابات العمال والمستخدمين في لبنان »، وأرتين مادويان ممثلاً للقوى الديمقراطية الأرمنية، وانطون تابت ممثلاً لعصبة مكافحة الفاشيستية.

وقد تحول هذا المؤتمر الطارىء، إلى مؤتمر دائم دعي بـ : « المؤتمر الوطني اللبناني » وقد أصبح المركز الرئيسي لتوجيه وقيادة النضال الوطني، والمطالبة بالإفراج عن المعتقلين، واستعادة الشرعية اللبنانية المصادرة. وكان فرج‌الله قد أصبح بحكم من يمثل من جهة، وما يتصف به من قدرة على المناقشة وطرح القضايا، وبما يمتاز به من صفات حميدة، وخلقية رفيعة، وقدرة على الخطابة والكتابة، من جهة أخرى، قد أصبح بالفعل لولباً في المؤتمر الوطني، وخطيباً مفوهاً من أبرز خطبائه.

وكان لتراجع السلطات الفرنسية أمام الوثبة الوطنية الشاملة، ولإبراز البوادر على الجبهة الشرقية لمصلحة الاتحاد السوفياتي وحلفائه، ولما حصل من ضربات على الجبهة الافريقية وجهت إلى جيش روميل الالماني، آثار محولة على الوضع في لبنان. وكل ذلك ارتبط إلى حد ما، بموقف الشيوعيين الواضح من تحديد العدو من جهة، وتوضيح دور الصديق من جهة أخرى. الأمر الذي وجدت له تربة خصبة في الوسطين الشعبي، والوطني الديمقراطي. وقد ساعد ذلك على امتداد واتساع نفوذ الحزب الشيوعي في لبنان، إن لزيادة عدد نشطائه، أو لجهة مواقفه في الدفاع عن قضايا ومطالب الجماهير الشعبية.

معركة الاستقلال، ودخول الحزب الشيوعي بعمق فيها بطائفة من أبرز قادته وفي مقدمتهم فرج‌الله الحلو قد رفعت من مكانة فرج‌الله السياسية والوطنية، وبخاصة على الصعيد الحزبي. وقد لعب فرج‌الله بما يتّصف به من أخلاق حميدة، وباع طويل في معاطاته مع الناس، وجلده على الحوار، والروح الحزبية العالية التي طبعت أخلاقه، وممارساته، كل ذلك جعل منه الشخصية اللبنانية الأولى في الحزب، والمعترف بها لا من الحزب بالذات، بل من الوسط الوطني. وكان ذلك كسباً سياسياً للحزب الشيوعي من جهة، وللحركة الوطنية من جهة أخرى.

مؤتمر الحزب الشيوعي

إن الإقدام على عقد المؤتمر الوطني للحزب، ٣١ كانون الأول ١٩٤٣ - ١ - ٢ - ٣ كانون الثاني ١٩٤٤، في تلك الحقبة التي كانت فيها الحرب في أعلى درجات اشتعالها، عمل مقدر جداً. وقليلة جداً هي الأحزاب الشيوعية في العالم التي أقدمت آنذاك على عقد مؤتمرات لها.

في تلك اللحظات، بعد الانتصار في معركة الاستقلال، كانت قيادة الحزب، اللجنة المركزية، وبخاصة ابرز المسؤولين فيها، خالد بكداش وفرج‌الله الحلو، ونقولا شاوي، ورشاد عيسى، على موعد مع الواقع في سوريا ولبنان، بالدعوة لعقد مؤتمر الحزب الوطني. وهي المرة الأولى التي يعقد فيها، في حزبنا مؤتمر حسب الأساليب العصرية المتبعة في عقد المؤتمرات. وتجدر الإشارة هنا إلى الدور المميّز لخالد بكداش الذي كان على اطّلاع أكثر من سواه، على كيفية التحضير للمؤتمر، والأصول التي يجب أن تتبع، والأساليب التي يجب أن تمارس. وكان قد اكتسب معارف تنظيمية واسعة في أثناء عمله في «الكومنترن» مدة ثلاث سنوات.

ولعب فرج‌الله الحلو دوراً بارزاً في المؤتمر. فقد كان الشخصية الثانية فيه. والتقرير التنظيمي الذي قدمه، وهو من انشائه، لا يزال حتى يومنا هذا مرجعاً لكل من يريد المزيد من التعمق في أسس تنظيم الحزب.

المؤتمر تطلب جهوداً كثيرة متنوعة، فهناك التحضير السياسي والتنظيمي الذي أشرف عليه مباشرة خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا شاوي. وكنت مع الرفيق انطون تابت مسؤولَيْنْ عن تنفيذ المهمات المقررة: ايجاد المكان ـ تحضيره ـ ترتيبه داخلياً ـ استقبال الوفود ـ تنظيم إقامتها ـ تأمين المطاعم ـ وتزويد المندوبين ببطاقات المندوبية، إلى آخر ما هنالك من مثل هذه الترتيبات. وقد عاونتنا لجنة تنظيم من عشرات الرفقاء.

افتتح المؤتمر مصطفى العريس بوصفه المسؤول الأول عن منظمة بيروت في صباح ٣١ كانون الأول ١٩٤٣.

كانت جلسة الافتتاح عامرة سواء بمن حضر من المندوبين المفوضين من قبل منظماتهم في سوريا ولبنان، أو بالضيوف الكثر وأبرزهم نائب رئيس الحكومة وزير العدلية الاستاذ حبيب أبو شهلا. كما أن المؤتمر تلقى برقيتي تحية من رئيسي جمهوريتي سوريا ولبنان شكري القوتلي والشيخ بشارة الخوري، وفي جلسة الافتتاح تلا يوسف خطار الحلو برقية الشيخ بشارة، وفوزي الشلق برقية شكري القوتلي.

وانتهت أعمال المؤتمر للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان التي بدأت في ٣١ كانون الأول ١٩٤٣ و ١ / ٢ / ٣ / كانون الثاني سنة ١٩٤٤، باقرار ميثاقين وطنيين للحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنان، وبانتخاب لجنة مركزية مشتركة للحزبين، وبمكتب سياسي انتخبته اللجنة المركزية. وقرر المؤتمر رغم استمرار الحزب موحداً في البلدين أن تتم رسمياً تسمية خالد رئيساً للحزب الشيوعي في سوريا وفرج‌الله رئيساً للحزب الشيوعي في لبنان، وأن يكون كل من علم سوريا وعلم لبنان علماً للحزب في البلد المعني وأن يكون النشيد الوطني هو النشيد الرسمي.

شكل المؤتمر الوطني للحزب نقلة نوعية وكمية دفعت الحزب خطوات إلى الأمام. فتكاثر عدد منظماته، وكثر عدد اعضائه، ونشأت له صلات مع أوساط وطنية وقومية عربية واسعة. كما تطورت كماً ونوعاً ركيزته الأساسية الطبقة العاملة، وازداد نفوذه فيها، وكان فعلاً قائدها السياسي الوحيد، وهذه الصفة مكنت الاتحاد العام للنقابات الذي رئسه مصطفى العريس من أن ينتزع سنة ١٩٤٦ قانون العمل اللبناني ـ أفضل قانون للعمل في جميع بلدان الشرق الاوسط في حينه.

وجاء النصر على الفاشيستية وتحطيم الدولة الهتلرية في التاسع من نوار ١٩٤٥، يرفع من دور الحزب الشيوعي، ويزيد من مكانته في الأوساط العمالية والفلاحية، والثقافية، والوطنية. وأي عمل وطني لم يكن بالإمكان إنجازه وخوض معارك لإنجازه، بدون الحزب الشيوعي اللبناني الذي أصبح يرتكز إلى قوة عددية محترمة بلغت سنة ١٩٤٧، ١٨ الف عضو.

ولم تكمن هنا فقط قوة نفوذ الحزب، بل كان يرتكز إلى ركائز اساسية: نقابات العمال ـ عصبة مكافحة الفاشيستية ـ اتحاد الأحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية ـ تحركات الفلاحين وإقدامهم على الانضمام للحزب الشيوعي. تحرك العمال الزراعيين ومطالبتهم بالتنظيم النقابي وبعقد مؤتمرات لهم.

ومع ازدياد نفوذ الحزب هذا، ازداد نفوذ قادته وبخاصة فرج‌الله الحلو، نقولا شاوي، مصطفى العريس، انطون تابت.

ففي كل ناد كنت ترى فرج‌الله الحلو لا بالحضور فقط، بل وبالكلام الموجه. وَنَدَرَ أن عقد «المؤتمر الوطني» اجتماعاً، أو أنه نظم حفلاً إلاّ وكان فرج‌الله الحلو في طليعة المتكلمين فيه بتكليف من رئيس المؤتمر.

لقد ارتفع اسم فرج‌الله وأصبح على كل شفة ولسان، ولكن الرياح بدأت على صعيد الحزب تجري في غير اتجاهاتها. إن نفوذ فرج‌الله، واستقطابه أوساطاً عديدة، لم يرق لبعض قادة الحزب. وهذا ما جعل هؤلاء يدبرون مقالب للحدّ من نفوذ الحزب الشيوعي في لبنان عن طريق إزاحة أبرز وجه فيه فرج‌الله الحلو.

١٩٤٦

كان العام ١٩٤٦، عام انتصارات كبرى للحزب الشيوعي اللبناني وللحركة الوطنية، والعمالية. ففي هذه السنة تحقق الجلاء العسكري الأجنبي التام عن سوريا ولبنان. وحصل العمال على قانون العمل. وارتفع كثيراً توزيع «صوت الشعب».

وهذه الانتصارات وإن تكن مقرونة بعوامل موضوعية محلية ودولية، فهي أيضاً مقرونة بعوامل ذاتية كان لها شأنها ودورها في تحقيق المنجزات. وفرج‌الله الحلو كان على رأس الحزب الشيوعي في لبنان، والحزب كان موجوداً في كل مكان.

إزاحة فرج‌الله عن قيادة الحزب

ففي أواخر العام ١٩٤٦، فاجأتنا القيادة الفعلية للحزب الممثلة بخالد بكداش وببعض المنفذين لرغباته باقتراح يقضي بأن يسافر فرج‌الله الحلو إلى فرنسا «لاستكمال» دراسته في الماركسية ـ اللينينية، وبما أنه هو رئيس الحزب وسيغيب عن الساحة الوطنية، فيجب تعيين رئيس جديد للحزب.

وقبل عيد الميلاد بأيام قليلة دعي بعض الرفاق إلى مكتب أنطون تابت في ساحة النجمة. بعضهم كان جلوساً، والبعض كانوا وقوفاً، وطرحت عليهم قضية سفر فرج‌الله الحلو إلى فرنسا

« بناء على طلبه »، « كما قيل »، وتعيين نقولا شاوي رئيساً للحزب الشيوعي اللبناني: وقد تمت الموافقة على ذلك بخلال أقل من ربع ساعة.

وفي صباح ٢٦ كانون الأول سنة ١٩٤٦ صدر في جريدة « صوت الشعب » الخبر والبيان التاليان: « أبحر إلى فرنسا أول أمس (ليلة عيد الميلاد) الأستاذ فرج‌الله الحلو، على ظهر الباخرة ترانسلفانيا، التي غادرت بيروت في ليل الإثنين ».

« وكان في وداعه على ظهر الباخرة الأساتذة، نقولا شاوي، فؤاد قازان، حسن قريطم، يوسف خطار الحلو، هاشم الأمين وغيرهم من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني، الاستاذان خالد بكداش ورشاد عيسى من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، واعضاء اسرة « صوت الشعب »، وقد مكث الجميع على الباخرة حتى المساء، ثم ودعوا الأستاذ حلو متمنين له سفرا سعيدا ».

وقد نشر في الصحف بيان باسم « المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني » هذا نصه:

عقد المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني اجتماعاً في بيروت حضره فرج‌الله الحلو، نقولا شاوي، فؤاد قازان، حسن قريطم، هاشم الأمين، مير مسعد، يوسف خطار الحلو. وقد تقرر بالإجماع الموافقة على سفر فرج‌الله الحلو إلى باريس ولندن. وقرر المكتب السياسي بالإجماع انتخاب نقولا شاوي رئيسا للحزب الشيوعي اللبناني ».

ملاحظتان حول هذا التدبير تنفيان الإجراءات التي اتخذت، وهما:

١ - لم يكن للحزب الشيوعي اللبناني مكتب سياسي مستقل. كان هناك مكتب سياسي واحد للحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنان انتخبته اللجنة المركزية التي انتخبها المؤتمر الأول للحزب، واعضاؤه هم: خالد بكداش، فرج‌الله الحلو، نقولا شاوي، رشاد عيسى، يوسف خطار الحلو، مصطفى العريس، عبدالقادر اسماعيل.

٢ - ليس للمكتب السياسي حق التشريع وانتخاب رئيس وليس هناك مستندات تبرر ما اقدمنا عليه.

التف الحزب حول نقولا شاوي، واستمر في اتساعه وتمدده بين العمال، وفي القرى وبين المثقفين. لأن القضية الرئيسية التي تربى عليها الشيوعيون اللبنانيون كانت ولا تزال وستبقى، الحزب الواحد الموحد.

ورغم ذلك فإن غياب فرج‌الله أحدث فراغاً لا سيما أننا كنا على أبواب معركة انتخابية أعد لها

الحكم، والرجعية اللبنانية كل ما بوسعهم لإبعاد الممثلين الحقيقيين للشعب من الوصول إلى البرلمان، والحزب الشيوعي الذي حقق انتصارات ملموسة، إن لجهة اتساعه وشموله مناطق لبنانية واسعة، أو لجهة زيادة عدد اعضائه، أضف إلى ذلك الانتصارات التي حققتها الطبقة العاملة وفي رأسها انتزاع قانون العمل، ذلك كله أخاف البرجوازية الحاكمة وحليفتها الإقطاعية، فراحوا يحضرون لعملية تزوير شاملة، تؤدي إلى انتخابات تكون نتائجها لمصلحتهم.

وموقف البرجوازية اللبنانية لم يكن منفصلاً عن الاتجاهات الجديدة للاستعمار الجديد الذي ظهرت قاعدته المادية بمشروع مارشال. هذا المشروع الذي ينص على إبعاد الشيوعيين عن كل مراكز القيادة في الحكومات، والمنظمات الاجتماعية والسياسية.

والحزب الشيوعي، وهو الأقوى، سياسياً وعددياً وتنظيماً في لبنان، قرر خوض المعركة من الباب العريض. وهنا بدأت الحاجة تصبح ملحة لعودة فرج‌الله إلى الساحة الوطنية.

في تلك الاثناء خلال شهري شباط ـ آذار ١٩٤٧، عقد الحزب الشيوعي الانكليزي مؤتمره الوطني. وبذات الوقت بعد انتهاء أعمال مؤتمره، عقد مؤتمر للاحزاب الشيوعية في البلدان التابعة للامبراطورية البريطانية. وقد وجهت دعوتان للحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنان لحضور المؤتمرين المشار إليهما. وعليه تقرر أن يكون خالد بكداش ممثلاً للحزب الشيوعي السوري، وفرج‌الله الحلو ممثلاً للحزب الشيوعي اللبناني. وعلى هذا الأساس سافر خالد بكداش إلى باريس حيث التقى فرج‌الله وسافر الاثنان إلى لندن. وبعدما انتهت أعمال المؤتمرين المشار إليهما والمقابلات التي اجراها الرفيقان خالد وفرج‌الله مع قادة الحزب الشيوعي البريطاني، عادا إلى بيروت بالطائرة.

استقبال ضخم فتح المعركة الانتخابية

أعد الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا استقبالاً ضخماً لخالد بكداش وفرج‌الله الحلو العائدين بالطائرة من لندن إلى بيروت. فمن جميع مناطق البلدين، حضرت الوفود تحمل اليافطات بتحية القائدين، وبالشعارات الوطنية التي ترمز إلى الانتخابات النيابية.

وفي حي «المزرعة» ببيروت، وتحديداً في بيت لطف‌الله قازان، وكل شوارع الحي، تجمع الألوف من الشيوعيين، وأصدقائهم، والشخصيات الوطنية أتوا للترحيب بخالد بكداش وفرج‌الله. وكان الجميع ينتظرون عودتها، وبخاصة عودة فرج‌الله ليتبوأ المعركة الانتخابية مرشحاً عن الحزب الشيوعي في محافظة جبل لبنان.

والخطاب الذي ألقاه فرج‌الله الحلو من على شرفة بيت قازان ونقله الميكروفون إلى الأحياء المجاورة، تكلم عن الانتخابات النيابية وضرورة جعلها ديمقراطية ليتسنى لممثلي الشعب الوصول

إلى البرلمان. وبكلمات مقتضبة شرح أسس البرنامج الانتخابي الذي يخوض الحزب الشيوعي المعركة على أساسه.

وينتهي مهرجان الاستقبال، وتعود الوفود إلى مناطق سوريا ولبنان، لتدلف الشخصيات السياسية والوطنية والاجتماعية إلى مكتب الحزب الشيوعي في «الخندق الغميق» ببيروت، مرحبة بعودة أحد أبرز شخصيات الحزب الشيوعي فرج‌الله الحلو. وكانت «صوت الشعب» تتابع يومياً نقل الأخبار عن الزوّار الكثر. بالفعل كانت تلك الاستقبالات مدخلاً للمعركة الانتخابية.

وما كادت معالم المعركة الانتخابية تنتشر في البلاد، وتتناقل الصحافة الأخبار عنها، وعن التدابير التي بدأت الحكومة باتخاذها، والتطبيقات التي نشطت لتشكيل جبهة حكومية يفرض نجاحها فرضاً، حتى بدأت المخاوف من الإعداد لعملية تزوير كبيرة. وإن ما ساور الحزب الشيوعي، بدأ يوماً فيوماً، يصبح حقيقة. وذات يوم ذهب فرج‌الله الحلو وكنت برفقته، لمقابلة رئيس الحكومة رياض الصلح في منزله برأس النبع. وكان المنزل مكتظاً بالناس، فانفرد رياض بك بنا على إحدى الشرفات الخارجية. قال له فرج‌الله يا دولة الرئيس إننا نشعر بأن الإعداد لعملية تزوير للانتخابات ناشطة في بعض الأجهزة الرسمية، وهذا ما جعلنا نتخوف من ذلك. أجابه رياض بالحرف: «وَلَو اخوكم رياض في الحكم وتخشون من تزوير للانتخابات؟ إطمئنوا فإن شيئاً من ذلك لن يحصل».

وجاء يوم الاقتراع، فاذا بزلم الدولة، ورجال الأمن يتحولون إلى عصابات للقتل، والخطف، والضرب، والمنع من الدخول إلى صناديق الاقتراع، الأمر الذي فرض على المرشحين الديمقراطيين الانسحاب بعد، مرور ساعات قليلة من بدء عملية الاقتراع.

أما بالنسبة لفرج‌الله الحلو مرشح جبل لبنان، وكان فوزه منتظراً في المعركة، حتى ولو كان منفرداً، فقد حجبت عنه الأصوات لمصلحة مرشحي الحكومة.

أما لماذا حصل ذلك، فلأن رئيس الجمهورية بشارة الخوري كان يعمل لتجديد رئاسته لدورة ثانية، ولكي يؤمن ذلك فهو بحاجة إلى مجلس نيابي مطواع، يسير كما يريد. وعلى هذا الأساس تم الاتفاق بين ممثلي الطبقات البرجوازية، والإقطاعية، والسائرين في ركاب السياسة الاستعمارية الانكلواميركية، على التزوير الذي وحده يمكنهم من المجيء بمجلس دمية.

في تلك المعركة كنت مرافقاً لفرج‌الله، ومشرفاً على النشر والدعاية. وبعد كل جولة انتخابية تدوم حتى منتصف الليل كنت أعود إلى بيروت وادون حصيلة ما قام به فرج‌الله من نشاط، وزيارات، ومقابلات، وصلات وإعدادها للنشر في جريدة «صوت الشعب».

إن يوم ٢٥ نوار سيظل لطخة عار في جبين الديمقراطية اللبنانية، وجبين الذين نظموا التزوير، وأشرفوا على تطبيقه. لطخة باقية في سجل التاريخ اللبناني. وإذا كان فرج‌الله الحلو لم يحالفه النجاح، فلأن عملية التزوير الشائنة هي التي اقصت المرشحين الوطنيين والديمقراطيين وفي طليعتهم فرج‌الله الحلو.

في تلك الحقبة، بعد ٢٥ نوار ١٩٤٧، شهدت منطقة الشرق الأوسط أحداثاً جسيمة ضخمة، أبرزها طرح القضية الفلسطينية على مجلس الأمن الدولي. ويذكر في هذا المجال أن الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، كان قد أعلن موقفه مراراً وتكراراً، إنه ضد تقسيم فلسطين، وانشاء وطن قومي صهيوني فيها. ونذكر هنا أن أول شهيد لبناني سقط في النضال ضد «وعد بلفور» أي ضد تقسيم فلسطين، هو شيوعي (ادوار الشرتوني) في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٤٥.

وإن أول لبناني نظم مقاومة مسلحة ضد العصابات الصهيونية سنة ١٩٣٨ في الحولة هو شيوعي واسمه عساف الصباغ من قرية «إبل السقي»، وقد أعدمه الفيشيون - في ٢٠ حزيران سنة ١٩٤١ في ساحة إبل السقي.

استطالت مناقشة مجلس الأمن الدولي في القضية الفلسطينية، إلى أن انتهى الأمر إلى قرار بتقسيم فلسطين. وقد أثار هذا القرار العالم العربي كله، فتعالت الاصوات ضده. كان التيار القومي والوطني كذلك، غير موافق على التقسيم. في هذه الغمرة من العنفوان القومي تخلت قيادة الحزب بتوجيه وإصرار من خالد بكداش عن مواقفها المدنية السابقة ووافقت على قرار مجلس الأمن الدولي بإقرار التقسيم لمجرد أن الاتحاد السوفياتي وافق عليه.

حصل ذلك بالرغم من تحفظ عدد من قادة الحزب: فرج‌الله الحلو، ورشاد عيسى، ومير مسعد. واقترح فرج‌الله، بأن يقال إننا نأسف لما حصل، ولكن هذا الاقتراح قوبل بالرفض التام، وبنوع من السخرية من قبل خالد بكداش الذي استمر أميناً عاماً فعلياً رغم القرارات بتسمية رئيس للحزب الشيوعي السوري وتسمية رئيس للحزب الشيوعي اللبناني (فرج‌الله ثم نقولا).

لقد تخلت قيادة الحزب بهذا الموقف عن مواقفها الوطنية المعادية للصهيونية السابقة وزجّت بالحزب في طريق العزلة الوطنية والقومية الأمر الذي مكّن الحكم من توجيه ضربة إرهابية ضدنا، باعتقال عشرات الرفقاء في لبنان، وبإقامة معتقل بعلبك الذي دخله أكثر من أربعين شيوعياً، وقد استمر زهاء ستة شهور، وما كان ليقفل لولا بطولة رفقائنا المعتقلين في اضرابهم الاثنين عن الطعام، وللدعم الذي أبدته جماهير الشعب اللبناني إن بالمظاهرات الكبيرة، أم بالوفود وغير ذلك من أدوات الدعم.

جريمة جديدة في الحزب

كان للموقف الواضح الصحيح لفرج‌الله الحلو ونفر من رفاقه من القضية الفلسطينية، وعلى وجه الضبط، موقفه الرافض لقرار التقسيم آثار غير مريحة لدى خالد بكداش وبعض من في القيادة الحزبية معه. وهنا بدأت عملية حوك مؤامرة جديدة ضد فرج‌الله الحلو وذلك باعداد ملف كبير ملفق لإدانة هذا القائد الكبير. وقد استغل خالد بكداش تسلطه على القيادة، في عهد سيادة عبادة الفرد، ومعرفته اخلاص فرج‌الله للحزب وتعلقه به وخوفه من أن يطرد منه، وحرصه الدائم على وحدة الحزب، إضافة إلى ذلك الاسلوب الغريب الذي ساد الحركة الشيوعية العالمية في اواخر عهد ستالين والذي أدى بقادة كبار ومناضلين عظام إلى الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها ولا علاقة لهم بها، ودفع بعضهم حياته ثمناً لهذه الاعترافات. وقد تم الكشف عن هذا الاسلوب منذ المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي واعيد الاعتبار لآلاف الشهداء العظام ضحايا نزوات الفرد وتسلطه، وضحايا الخروج الفظ على المبادىء اللينينية في حياة الاحزاب الشيوعية.

فابتداء من العام ١٩٤٩ عزل فرج‌الله نهائياً من قيادة الحزب واصبحت القيادة رباعية مع خالد بكداش كثيرة التغيير يخضع تركيبها لمزاجه ورغبته وحاجاته. أما فرج‌الله المصرّ أن يبقى مناضلاً رغم المؤامرة والمتآمرين فقد كلف بترجمة «في سبيل سلم دائم»، وكان يطلب منه أحياناً استغلال صداقاته لجمع بعض التبرعات. المهم كان إقصاء فرج‌الله عن الناس وإبعاده حسداً من الشعبية التي كان يتمتع بها والنفوذ الذي يحظى به والعلاقات الواسعة التي أقامها في البلاد، في اوساط أهل السياسة والفكر والثقافة.

ومع إعداد الملف وإبعاد فرج‌الله بدأت عملية تعذيب نفسي وإذلال منظمة تلاحق فرج حوالى ٣ سنوات. فكان يتهم بشتى التهم ويطالب الاعتراف بها وتفرض عليه كتابة انتقاد ذاتي يرفض ثم يملي عليه إملاءً ما ينبغي قوله والاعتراف به حتى أخرجت للحزب رسالة سالم الشهيرة (سالم اسم سري لفرج)، وهي من الوثائق الملفقة المعبرة عن نهج قيادة خالد بكداش.

هذه الوثيقة سحبت من وثائق الحزب واعتبرت ملغاة وأعيد الاعتبار الكامل لفرج‌الله الحلو وأدين المفترون عليه، وذلك في أول اجتماع للجنة المركزية عقد عام ١٩٦٤ بعد الانفصال التام عن الحزب الشيوعي السوري وانتخاب نقولا شاوي اميناً عاماً وإعادة النظر في تركيب اللجنة المركزية والمكتب السياسي. كما ان المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري الذي انتخب يوسف فيصل اميناً عاماً، عام ١٩٨٧، قد اعتبر هذه الرسالة لاغية وأعاد الاعتبار لفرج‌الله وادان المفترين عليه.

واني انشر على مسؤوليتي الشخصية نص رسالة سالم ورسالة القيادة المركزية التي ارفقت بها،

بالنص الأصلي الذي ما أزال احتفظ به. وفي النص بالذات الدليل القاطع على الأسلوب الرهيب الذي مورس ضد فرج الله، الشهيد الكبير والقائد العظيم...

نص الرسالتين:

أيها الرفاق الاعزاء

إن الرفيق سالم قد اقترف سلسلة من الأخطاء يعود تاريخها إلى العهد العلني، ودلت في تسلسلها على أنها لم تكن مجرّد اخطاء مفصول بعضها عن الآخر، بل إنها كانت اتجاهاً معيناً مغايراً ومنافياً لمفاهيم ومبادىء حزبنا الشيوعي، الحزب الثوري الماركسي اللينيني الستاليني للطبقة العاملة. وقد تبين للقيادة المركزية خلال بحثها ومناقشتها لاخطاء الرفيق سالم ومنشأها وجذورها أنه كان ولا يزال واقعاً تحت تأثير العقلية البرجوازية، ويحمل ميولاً كوسموبوليتية، غريبة عن عقلية الطبقة العاملة وحزبها الثوري. وقد كان لهذه الميول الكوسموبوليتية التي يحملها الرفيق سالم أثرها السيء الكبير في مختلف الميادين التي كلف بالعمل فيها، حتى أنها أدت به إلى مواقف تتعارض على خط مستقيم مع خطة الحزب الثورية. ويعود الفضل الأكبر في اكتشاف جذور الميول الكوسموبوليتية والشوفينية وخطرها، إلى الرفيق خالد بكداش الذي حارب بحزم وعناء تيارها في قلب اللجنة المركزية. وقد بين الرفيق خالد والقيادة المركزية مدى خطورة تسرب هذه العقلية، عقلية الأعداء الطبقيين، عقلية القومية البرجوازية بمظهريها الشوفيني والكوسموبوليتي، إلى داخل حزبنا في القرارات التي صدرت عن اجتماع القيادة المركزية المنعقد في حزيران ١٩٥١ والتي طبعت في كراس تحت عنوان « خطة الحزب في الاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين والعوائق السياسية والتنظيمية التي تحول دون تحقيق هذا الاتجاه ومهمات الحزب في النضال ضد هذه العوائق والتغلب عليها ». إن هذه القرارات تظهر بوضوح أن الميول الشوفينية والكوسموبوليتية لا تعرقل تطبيق خطة الحزب الثورية وحسب بل تعزله عن الجماهير وتجره في طريق التصفية المحتوم.

إن الرفيق سالم تنفيذاً لقرار القيادة المركزية التي بحثت أخطاءه وجذورها ونتائجها، قد أرسل إليها رسالة يعترف فيها بهذه الأخطاء ويحلل أسبابها ومنشأها ويبين نتائجها على الحزب. وقد رأت القيادة المركزية في هذه الرسالة محاولة طيبة للانتقاد الذاتي المبني على أساس فهم الأخطاء وجذورها ومنشأها وأسبابها الذي هو بمثابة الخطوة الأولى الضرورية في سبيل اصلاح هذه الأخطاء.

والقيادة المركزية إذ ترسل هذه الرسالة إلى جميع الرفاق والفرق والفروع واللجان المنطقية، تطلب إليهم جميعاً قراءتها بإمعان ودرسها واستخلاص الدروس منها، فتكون، بما تظهره من

أخطار الميول الكوسموبوليتية على حزبنا، دافعاً إلى مضاعفة اليقظة والنشاط والحزم في محاربة هذه الميول بلا هوادة في صفوف حزبنا.

أواسط شباط ١٩٥٢
القيادة المركزية

نص رسالة الرفيق سالم الموجهة إلى القيادة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان

إلى الرفاق الأعزاء أعضاء القيادة المركزية،

إن الانتقادات التي وجهت إلي في اجتماع اللجنة المركزية (في نيسان)، ثم في اجتماعها الأخير (في حزيران) هي انتقادات صائبة وفي محلها تماماً، وإني مقتنع كلياً. فقد فتحت عيني على هذه الانتقادات، أخيراً، على مدى ابتعادي عن طريق اللينينية الستالينية، وإمعاني في اتجاه خطر ثابرت عليه، رغم الانتقادات والملاحظات والتنبيهات التي ظلت، خلال مدة طويلة، توجه إليّ، في داخل القيادة المركزية، وخصوصاً من الرفيق خالد بكداش.

وكلما أمعنت النظر الآن في تلك الأخطاء والانحرافات، تبينت لي، بصورة أجلى، جسامة الأضرار التي جرتها على الحزب، بما أدت إليه عرقلة تنفيذ خطته الثورية الصحيحة. وهذا ما يملأ نفسي شعوراً بعظم التبعة التي أحملها أمام حزبنا وشعبنا، وأمام التاريخ، وأمام كل الشيوعيين في سوريا ولبنان، بل في جميع الأقطار العربية، إذ كنت في نظرهم جميعاً أحد من يحملون شرف تمثيل الحزب الشيوعي، طليعة النضال الشعبي الوطني ضد الاستعمار.

وإني أفهم الآن وأقدر كل مغزى غضب الرفاق أعضاء اللجنة المركزية نحوي، فهو غضب مشروع حقاً، ومتواز مع الثقة التي كانت موضوعة بي.

وإن موقف اللجنة المركزية من أخطائي وانحرافاتي، وإجماعها على تسجيلها لمن أكبر العلامات على أن حزبنا يصبح فعلاً، بقيادة الرفيق خالد بكداش، حزباً جدياً إذ أن الحزب الجدي يعرف، كما يعلمنا لينين وستالين، على أساس موقفه من أخطائه وأخطاء أعضائه، ومدى تطور الانتقاد والانتقاد الذاتي فيه.

أيها الرفاق

إن أخطائي وانحرافاتي تعود لانزلاقي إلى مواقف الانتهازية، وضياع الهدف الثوري من

أمامي، وخروجي عن طريق المبادىء اللينينية الستالينية واتباعي طريقاً آخر معادياً للبلشفية، خصوصاً فيما يتعلق بمفهوم الحزب الشيوعي ودوره الثوري.

لقد غاب عني مفهوم الحزب الشيوعي اللينيني ودوره الثوري. بدأ ذلك منذ العهد العلني، ثم استمر بعد دخول حزبنا مرحلة النضال السري، رغم الحوادث والانتقادات والملاحظات. إن نظرتي للحزب الشيوعي غدت نظرة مناقضة تماماً للفكرة اللينينية الستالينية عن الحزب، لقد كانت، في الواقع، نظرة اشتراكية ديمقراطية. لقد غاب عني منذ عهد النضال العلني، دور الحزب الشيوعي كقوة قائدة ومحركة إلى أمام للطبقة العاملة وللجماهير الشعبية الكادحة، كفصيلة الطليعة المنظمة من الطبقة العاملة. وصرت أنظر إلى الحزب كمنظمة تقوم بالانتخابات وببعض الدعاية للأفكار الشيوعية فقط. ونسيت أن على الحزب القيام بمهمة قيادة حركة التحرر الوطني ضد الاستعمار، وتحقيق الثورة الوطنية الديمقراطية في بلادنا، هذه الثورة التي «تلخص أهدافها في القضاء على سيطرة الاستعمار وعملائه وتصفية بقايا الإقطاعية في بلادنا، أي تحقيق التحرر الوطني الديمقراطي، تحرير شعبنا من نير الاستعمار الأجنبي السياسي والاقتصادي ونير عملائه، ومن بقايا القرون الوسطى، وإقامة حكم ديمقراطي شعبي. وعند ذلك تبدأ مرحلة جديدة، هي مرحلة توطيد الحكم الديمقراطي الشعبي وتوفير الشروط اللازمة لتحقيق الاشتراكية في بلادنا»، (تقرير خالد بكداش «لأجل النضال في سبيل السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية يجب الاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين»).

«ومن الواضح، كما يقول الرفيق بكداش، في تقريره التاريخي المذكور آنفاً، أن نضالنا في سبيل هذه الأهداف الوطنية الديمقراطية، يمتزج امتزاجاً عضوياً بالنضال العام ضد خطر الحرب العالمية الثالثة التي يعمل لإشعالها الاستعمار العالمي، بقيادة الاستعمار الاميركي».

وبنتيجة المفهوم الخاطىء لدور الحزب، ولغياب أهدافه الثورية عن ناظري، غاب عني دور القيادة الشيوعية البلشفية، ومفهوم مهمات القائد في الحزب الشيوعي. وقد بلغ بي الأمر أن نظرتي لدوري كقائد انحطت حتى أصبحت كالنظر لدور القيادة في الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، أو للزعامة البرجوازية. «أكبر ما يمكن من التشريفات، واقل ما يمكن من الواجبات». لقد أصبحت القيادة في نظري «امتيازات» لا أعباء ثقيلة مرزحة. فلم أكن أحفل بما تتطلبه مهمة القيادة في الحزب الشيوعي من صلة حيوية دائمة بالحزب، وتلبية جميع حاجاته ومتطلباته، ومن يقظة وسهر وروح ابتكار في حل المشاكل والقضايا السياسية والتنظيمية التي تضعها الحياة وظروف النضال أمام الحزب، ومن تعب وجد ودرس في وضع خطة سياسية للحزب، وشعارات مناسبة في كل ظرف بعينه، والسهر على تطبيقها، واختيار الرجال ـ أي الكادر ـ الصالحين لتنفيذ هذه

الخطة، مع تقديم المساعدة المستمرة لهم، والعمل على رفع مستواهم، والإكثار منهم، أي إغناء الحزب دائماً بأفواج جديدة من الرجال المناضلين. لم أكن أحفل بأن دور القيادة هو دائماً دور قوة محركة تشد الحزب دائماً إلى أمام وإلى مستوى أعلى في شعاراته وسياسته، وفي تنظيمه وثقافته، وهدفها الدائم جعله فصيلة الطليعة حقاً، من الطبقة العاملة، وقائد الجماهير الشعبية.

وانعكس المفهوم الخاطىء لدور الحزب الثوري في قلة اهتمامي بمصير المنظمات الحزبية وبعملها ونضالها، وكيفية اتجاهها وتطورها، وكيفية تركيبها وتأليف قياداتها. مثال ذلك أن منظمات كثيرة في الحزب، كانت تولد وتندثر، أو كان يتسلمها عملاء العدو، أو كانت تطبق قانون الحزب وخطته السياسية كما يحلو لها أو لا تطبقها أبداً، دون أن يلقى ذلك اهتماماً مني. ولم أكن أحفل بالانتقادات والملاحظات من الرفيق خالد بكداش، كما لم أكن القي بالاً لملاحظات الرفاق الآخرين. وكان من جراء ذلك عيوب عديدة في عملي الحزبي. طغيان الأسلوب العشائري على عملي الحزبي، وطمس المبادىء الأساسية التنظيمية في الحزب، كالتخلي عن المركزية الديمقراطية وعن الانتقاد والانتقاد الذاتي، وعدم احترام هيئات الحزب وعدم إقامة وزن لمقرراتها وعملها، مع الميل إلى العمل الفردي وعدم التعاون مع الرفاق الآخرين المسؤولين، وعدم تقدير لجدوى هذا التعاون، وكره اجتماعات الحزب (السكريتارية، المكتب السياسي، اللجنة المركزية). وعملياً أصبح تصرفي تصرف شخص غير مسؤول، وفي أحسن الحالات صار دوري كدور « مستشار » وتكوّن عندي رأي بأني « ثمين » جداً بالنسبة للحزب. وفي الوقت نفسه كان عجزي عن القيام بمهمات الحزب يتفاقم، وينمو عندي شعور الاكتفاء والغرور. فصرت اميل إلى إخفاء تقصيري وأخطائي حتى عن رفاق السكريتارية والمكتب السياسي. فكان ذلك مني خداعاً للحزب والقيادة، من الناحية العملية، دفعت إليه بشعور برجوازي صغير، شعور المحافظة على ظواهر « زعامتي ».

ومن عيوب عملي الناتجة عن الانغماس في الانتهازية وعن المفهوم الخاطىء لدور الحزب الثوري، عدم الاهتمام بإيجاد الكادر وتكوينه وتثقيفه وتقديمه، وكانت نظرتي إلى تقديم الكادر خاطئة ومغايرة للقاعدة الستالينية. فلم يكن الغرض الرئيسي تهيئة رجال يساهمون في تنفيذ مهمات الحزب المتعاظمة، بل كان كل اتجاهي هو إيجاد أشخاص ينفذون من المهمات الجارية ما يمكن أن يخفف الأعباء عني، دونما نظر إلى كيفية تطورهم في المستقبل، ومدى كفاءتهم، دون نظر إلى سيمائهم السياسية التي يتحدث عنها الرفيق ستالين، ولم أكن أقدم لهم المساعدة والعناية، وكان الناس « الراضون » « السكوتون » هم المفضلون عندي، وبسبب ذلك جررت اللجنة المركزية إلى أخطاء في هذا الباب. ومن المعلوم أنه قد تقع أخطاء في تقديم الكادر، وفي كل عمل حزبي آخر، ولكن تظل هذه الأخطاء تعد بسيطة إذا وقعت ضمن الخطة الصحيحة. أما أخطائي في تقديم الكادر فلم تكن من هذا النوع، بل كانت في الخطة نفسها. والفرق بين الأمرين عظيم.

وبالطبع كان هذا الإهمال والاستهتار في مسائل الكادر، ناتجاً عن ضياع الهدف الثوري، ونسيان دور الحزب. ويصح بي هنا قول ستالين عن الموقف السلبي الذي تقفه أحزاب الأممية الثانية من مسألة الفلاحين حيث يفسر هذا الموقف بقوله «إن تلك الأحزاب لا تؤمن بديكتاتورية البروليتاريا وإنها تخشى الثورة، ولا يخطر ببالها أن تقود البروليتاريا إلى الحكم، ومن يخشى الثورة، ولا يريد أن يقود البروليتاريين إلى الحكم، لا يمكن أن يهتم بمسألة حلفاء البروليتاريا في الثورة، فمسألة الحلفاء في نظره، ليست بذات بال، ولا هي موضوعة على بساط البحث بشكل ملح».

كذلك يمكن القول فيما يتعلق بموقفي من الكادر، إن من ينسى دور الحزب الثوري وتغيب عنه أهدافه الثورية، وينغمس في حمأة الانتهازية، لا يمكن أن يهتم بتوفير المزايا الرئيسية التي تقوي الحزب وتجعله كفوءاً للقيام بمهمته، ومن أهم هذه المزايا تكوين الكادر وتثقيفه وتصليبه.

وهكذا نسيت شيئاً فشيئاً أن الحزب حزب نضال ومعارك وكفاح ثوري حافل بالمصاعب والمشاكل والتضحيات. وحين أستعرض الماضي الآن، أرى كم من الأخطاء ارتكبتها، وكم من ضرورات للنضال ضيعتها. لقد مرت سنوات، دون أن يدخل أحد من الشيوعيين إلى السجن. لقد نسي الشيوعيون السجن. ولماذا؟ هل زال الاستعمار من بلادنا في تلك الفترة أم توقفت البرجوازية عن الخيانة واستثمار الجماهير؟ فكم من خيانة ارتكبها الحكام الرجعيون، وكم من تدخل استعماري سافر ومستتر، وكم من عدوان على العمال وخبز الشعب وحرياته! كان الشعب يناضل والعمال يضربون، ولم تكن الطبقة العاملة تنقصها روح الكفاح. ولكن خطتي التي كنت أسير عليها قلمت من اظافر الحزب، وأضعفت من روحه الكفاحية. صحيح أن لرفاقنا النقابيين المسؤولين تبعتهم، فيما يتعلق بقضايا العمال والعمل النقابي، ولكن التبعة الكبرى تقع علي، على خطتي. لقد كان الرفيق خالد بكداش ينتقد وينصح وينبه، ولكن بلا جدوى فقد كانت تلك في نظري آراء «تصح» في غير لبنان، ذي «الوضع الخاص»، كما يفكر الاشتراكيون الديمقراطيون تماما. كم عطلت «صوت الشعب» وكم اعتدي على الحريات الشعبية، وكان من الضروري إعلان النضال، وتجنيد قوى الحزب للمعارك والمظاهرات، ولكن أسلوب النضال كان المراجعات من «فوق» والبرقيات، بسبب خطتي تلك. فلقد ذهب من قلبي الحقد الطبقي على الاستعمار وعملائه الخونة. وكانت تلك الخطة هي التي أفسحت أرحب مجال لتغلغل العناصر البرجوازية الصغيرة في الحزب، وترعرعها فيه، وطمس عناصره الثورية.

وحين اضطر الحزب للانتقال إلى مرحلة النضال السري، اتخذت نظرتي الانتهازية شكل استصغار لإمكانيات النضال عند الحزب وعند الشعب. ونسيت ما كان قاله جدانوف، منذ أمد قريب إذ ذاك، في تقريره التاريخي، في الاجتماع الأول (١٩٤٧) «لمكتب الانباء» (الكومنفورم) من أن النضال بين المعسكرين، الاستعماري والمعادي للاستعمار، يجري في ظروف أشد ملائمة

للمعسكر الثاني، وأن قوى الديمقراطية والسلم والاشتراكية أكبر من قوى الاستعمار، وأن أكبر خطر على الطبقة العاملة الآن هو استصغار قواها الخاصة واستعظام قوى خصومها.

لقد نظرت إلى حزبنا وإلى شعبنا، تجاه القوى الاستعمارية المتألبة على بلادنا، نظرة منفصلة عن الوضع العالمي، نظرة برجوازية قومية، نظرة، في الأصح، أضيق أفقاً أيضاً، نظرة كوسموبوليتية. ولم أؤمن ايماناً تاماً أن شعبنا وبلادنا، كما كان يقول الرفيق خالد بكداش، قطاع من الجبهة العالمية الجبارة المناضلة ضد الاستعمار والحرب، وفي طليعتها الاتحاد السوفياتي، وفصيلة من جيش الشعوب الجرار، جيش السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية والاشتراكية. ولذلك لم أكن مؤمنا إيماناً تاماً بجدوى نضال الحزب. لقد استعظمت المصاعب، وضعفت ثقتي بإمكان تغلب الحزب على النواقص التي كان يعانيها، وفي رأسها تكاثر العناصر البرجوازية الصغيرة فيه. لقد كانت نظرتي إلى الحزب والظروف نظرة جامدة، محافظة، لا نظرة ديالكتيكية، أي لا نظرة إلى شيء متحول متحرك. فكان موقفي العملي مهادنة البرجوازية والاستعمار، والتزام خطة الدفاع لا الهجوم، بأمل المحافظة على ما عندنا. وهذه الخطة هي خطة التصفية بعينها.

وحين بدأ الحزب بمحاربة هذه النواقص والعيوب بمبادرة الرفيق خالد بكداش وتحت قيادته، ظللت غير مؤمن بجدوى ذلك، رغم إعلان موافقتي. فكنت من جهة غير مدرك لخطر العناصر الانتهازية في الحزب، ومن جهة ثانية غير مؤمن بإمكان التغلب عليها. ولذلك لم أشاطر في تنفيذ المهمات والتدابير المتخذة لتصفية تلك العيوب والنواقص في الحزب، بل كنت، على الضد من ذلك، متجهاً في كل سلوكي إلى «حماية» هذه العناصر، والتهوين من شرها، وعرقلة محاربتها. فمن جهة أعلن الموافقة على ضرورة محاربتها، وعلى التدابير المتخذة لذلك، ومن جهة أخشى تنفيذ هذه التدابير والصعوبات التي ستنجم عنها، فكنت أؤجل وأماطل. وهكذا كنت عملياً أخدع الحزب والقيادة، وأعمل على تصفية المنظمات. وقد أوشكت فعلاً بعض المنظمات على التصفية «بفضل» خطتي.

كل هذا، ولم أحفل بالانتقادات المستمرة التي توجه لي، ولا بالتنبيهات الأخوية والتحذيرات الشديدة. لقد كانت هناك أشياء تمنع وصول الانتقاد إلى أعماق قلبي، حتى سميت انتقادات الرفيق بكداش مرة «وعظاً».

والحقيقة أن غرقي في حمأة الانتهازية جعلني فكرياً وسياسياً أقرب إلى الانتهازيين مما إلى خطة الحزب الثورية، وكنت لا أرى فرقا كبيراً بيني وبينهم، ولذلك لم أجد القدرة على محاربتهم. حتى اني كنت لا أرى الانتهازيين ولا أستطيع اكتشافهم في المنظمات، ولا اكتشاف عزلتهم وتخريبهم وعملهم على تصفية المنظمات التي يتولونها. إن كثيرين من الانتهازيين وصغار البرجوازيين قد

أبعدوا عن المراكز المسؤولة في المنظمات، بفضل يقظة خالد بكداش، في وقت لم أكن أشعر بضرورة إبعادهم، أو بضرورة التعجيل بذلك، رغم أن وجودهم في القيادات المنطقية أو على رأسها كان يعرقل عمل الحزب وتطوره بشكل ظاهر، بل كان يقود هذه المنظمات إلى التصفية.

لقد كنت عملياً درعاً للعناصر الانتهازية، ومفسدة للعناصر الثورية الطيبة، إذ كانت تتشبه بي وتأخذ عني، نظراً لوضعي كقائد مسؤول، في نظرها.

وهكذا! أشعر الآن بمرارة وبوخز في الضمير، إذ أني بسبب التساهل مع الانتهازيين وعرقلة تصفيتهم من الحزب قد أخرت عملياً اتجاه الحزب نحو العمال والفلاحين الفقراء، ونحو الجماهير الشعبية الكادحة، هذا الاتجاه الذي وضعه الرفيق خالد بكداش في داخل الحزب، منذ صيف ١٩٤٨، قبل تقريره التاريخي الأخير (كانون الثاني ١٩٥١).

إن انزلاقي إلى هذه المواقف الانتهازية يعود خصوصاً إلى وقعي تحت تأثير الميول الكوسموبوليتية، هذه الميول الرجعية الغريبة عن عقلية الطبقة العاملة والمعادية لها على خط مستقيم.

فالكوسموبوليتية التي هي في الأساس إنكار الوطن ونبذ فكرة السيادة الوطنية، والاستهتار بالشرف الوطني، هي عقلية الإقطاعية الرجعية العفنة وعقلية البرجوازية المالية الكبرى، البرجوازية السمسرية التي لا تعرف وطناً ولا شرف وطني عندها، والمندمج رأسمالها بالرأسمال الاستعماري والمرتبطة مصالحها بوجود الاستعمار ارتباطاً متيناً.

ونشر الكوسموبوليتية هو دائماً من وسائل الاستعمار في كل بلد واقع تحت سيطرة الاستعمار أو مراد استعماره. والمستعمرون الأميركيون هم اليوم حملة لواء نشر الكوسموبوليتية بغية إضعاف النضال الوطني القائم في جميع الأقطار ضد مشاريعهم الحربية التوسعية الاستعبادية للسيطرة على العالم.

والميول الكوسموبوليتية قد غذاها، في لبنان منذ عهد طويل، المستعمرون الأجانب ولا سيما الفرنسيون، ونشروها على يد شركاتهم الأجنبية وإرسالياتهم ومدارسهم التبشيرية، (الجزويت والفرير وغيرها من مدارس الذكور والإناث).

ولما تولوا السيطرة المباشرة على لبنان، في عهد الانتداب، اتخذوا نشر الكوسموبوليتية والتفرقة الطائفية سلاحاً لتدعيم سيطرتهم ولضرب النضال الوطني الشعبي ضد الاستعمار. وقد وجدوا في الإقطاعيين والفئات العليا من البرجوازية وفي رجال الإكليروس المسيحيين ولا سيما الإكليروس الماروني عوناً لهم على أغراضهم المجرمة.

والإقطاعيون وكبار البرجوازيين، على اختلاف طوائفهم، قد وجدوا في الاستعمار عوناً لهم

ضد الشعب، وضد العمال والفلاحين، فساعدوه على نشر الكوسموبوليتية والتفرقة الطائفية متخذين من ذلك ستاراً لإخفاء استثمارهم للعمال والفلاحين، مسلمين ومسيحيين، ووسيلة لطمس الشعور الطبقي وشل النضال الطبقي.

أما رجال الإكليروس وخصوصاً كبارهم، ولا سيما الإكليروس الماروني الذين يشكلون من الناحية الاقتصادية والاجتماعية جزءاً من الإقطاعية والبرجوازية، فقد كانوا خدم الاستعمار الفرنسي وساعدوه على بث دعايته السامة الزاعمة أن مصلحة لبنان ومستقبله وازدهاره لا تقوم على استقلاله الوطني وتحرره من كل سيطرة أجنبية، بل على الارتباط بدولة أجنبية كبرى « تحمي المسيحيين » وتحافظ على « التوازن » بين الطوائف. وقديماً كانت فرنسا هي في نظرهم هذه الدولة، أما اليوم فقد أصبحت (مع محافظة بعضهم على الولاء لفرنسا) الولايات المتحدة الأميركية هي الدولة التي « يكلون » إليها أمر هذه « الحماية »، ويقوم الفاتيكان عميل الاستعمار الأميركي من الدرجة الأولى، بمساندة هذا الاتجاه والعمل له بشدة. وتنفذ الفئة البرجوازية العليا المتربعة في الحكم هذا الاتجاه متحالفة مع الإقطاعيين ومع رجال الإكليروس أنفسهم. وهكذا نرى أن معظم المتفرنسين القدماء قد تأمركوا اليوم.

وتتجلى الميول الكوسموبوليتية، من الناحية السياسية والفكرية، بمظاهر عدة. فمن مظاهرها ضعف الشعور الوطني وضعف الرابطة الوطنية، وحلول الرابطة الطائفية محلها، مما يؤدي عملياً إلى إقامة الحواجز بين المواطنين على أساس انتمائهم الديني، ويضعف الشعور الطبقي عند العمال والفلاحين، ويفسح المجال لإثارة التفرقة الطائفية وتحويل العمال والفلاحين وسائر الجماهير الكادحة عن القيام بنضال موحد ضد الاستعمار والإقطاعية وضد الاستثمار البرجوازي إلى نزاع داخلي وانقسام على أساس الانتساب الطائفي.

ومن مظاهر الميول الكوسموبوليتية أيضاً اتخاذ مواقف العداء نحو سوريا والشعب السوري بصورة خاصة، وموقف العداء من الحركة الوطنية التحررية ضد الاستعمار في الأقطار العربية بصورة عامة. ومن أبرز حملة لواء هذه الميول الرجعية، في هذا المجال، ممثلو الأوساط العالية البرجوازية المرتبطة بالرأسمال الأجنبي الاستعماري، وخدم هذه الأوساط كزعماء « الكتائب » وزعماء الكتلة الإدية، وغيرهم من الرجعيين كالمطران مبارك. وفي الميدان الفكري، يحمل لواء هذه الميول آخرون رجعيون وجزويتيون كالبنكي ميشال شيحا وغيره ممن يبشرون « بالثقافة المتوسطية »، ويبدون الإعجاب والتمجيد « للثقافة » الاستعمارية الغربية الفرنسية والأنكلوأميركية، أو ممن ينكرون الطابع العربي للثقافة في لبنان، ويحملون عزلها وفصلها عن التراث العربي.

ومن مظاهر هذه الميول أنها، مع تعاليها على الثقافة الوطنية للشعوب العربية، ترى مقاييس «التقدمية» و «الديمقراطية» في مظاهر «الثقافات» الاستعمارية. في حين أن مدى التقدمية والديمقراطية يقاس بمقدار الكره للاستعمار الأميركي الإنكليزي الفرنسي، وكره «ثقافته» الأميركية خصوصاً التي تبث البغض للإنسان، وتمجد الوحشية والحروب واللصوصية، وتنشر التخنث والتفسخ عن طريق الصحافة الخلاعية والسينما والكتب والراديو. فأبسط فلاح أو عامل يكره الاستعمار والحرب ويناضل ضدهما، هو تقدمي وديمقراطي أكثر من شخص كشارل مالك، صديق الاستعمار الأميركي، رغم شهاداته الجامعية الطويلة.

وتبرز هذه الميول أيضاً بشكل عطف على الرجعية والصهيونية، يحمل لواءه خصوصاً أناس رجعيون خدموا الاستعمار طول حياتهم، كالمطران مبارك نفسه، أو بيير الجميل وكثير من متزعمي الإديين وغيرهم ممن يرون بينهم وبين الصهيونية وحكام إسرائيل الرجعيين صلة نسب سياسية وطبقية ونوعاً من «الزمالة» في خدمة الاستعمار، باعتبار الرجعية والصهيونية التي تحكم في إسرائيل، سنداً رئيسياً للاستعمار الأميركي ضد الحركات الوطنية التحررية لشعوب الشرق الأدنى، وعوناً للمستعمرين في مشاريعهم الحربية الاحتلالية الموجهة ضد الشعوب العربية وضد الاتحاد السوفياتي وبلدان الديمقراطية الشعبية.

ولكن تجب الملاحظة أن هذه الميول، عند انعكاسها في الحزب الشيوعي، تتقنع بأقنعة مختلفة، فتظهر مثلاً بشكل «تقدمي» مزعوم. كالنفور من العادات المتأخرة عند الجماهير الشعبية، مع أن الجماهير غير مسؤولة عن ذلك، أو كالمبالغة في تعظيم الصعوبات الموضوعية التي تعترض عمل الحزب بين هذه الجماهير (انتشار الأمية، قوة نفوذ الإقطاعية في بعض المناطق الفلاحية، انتشار الأوهام الباطلة حول موقف الشيوعيين من المرأة والعائلة والدين، الخ... ظروف المعيشة الصعبة مع هذه الجماهير، الخ...) وتنعكس هذه الميول أحياناً في النظر إلى هذه الجماهير من خلال الزعماء الرجعيين، وقياسها بمقياسهم وتحميلها أوزارهم وجرائرهم، الخ... بحجة أن قسماً من هذه الجماهير لا يزال يسير وراء أولئك الزعماء، أو عنده أوهام حولهم.

وخلاصة هذه الميول، عند انعكاسها في الحزب الشيوعي، برجوازية صغيرة لا تستطيع أن ترى القوة الثورية الحقيقية الكامنة في الجماهير الشعبية الفقيرة، تلك القوة الوطنية والطبقية المعادية للاستعمار والإقطاعية والاستثمار الرأسمالي.

وإذا كانت الميول القومية البرجوازية أساسها عدم رؤية الصلة بين الحركة الوطنية التحررية والحركة البروليتارية العالمية والانحصار في الأفق القومي الضيق، فالميول الكوسموبوليتية ليست كذلك وحسب، بل هي لا ترى القوى الوطنية التحررية في الأقطار العربية الشقيقة، بل لا ترى

هذه القوى في لبنان نفسه. وكذلك تؤدي بأصحابها إلى الشعور أو الاعتقاد بعدم إمكان أو بعدم جدوى النضال ضد الاستعمار، والنتيجة المنطقية لذلك هي القبول عملياً بالعبودية للاستعمار.

وهذه الميول التي أدى انتشارها في لبنان إلى منع اتساع النضال الوطني ضد الاستعمار، قد حال تسربها إلى صفوف الحزب، عن طريق العناصر البرجوازية الصغيرة التي تكاثرت فيه في عهد النضال العلني، دون ظهور وجهه الوطني وصفته الطبقية، وبالنتيجة عرقل دخوله بين العمال والفلاحين.

وكان من نتيجة وقوعي في هذه الميول أن انعكست طبعاً في مواقفي المختلفة، فصرت من حامليها، بشكل أم بآخر، ولذلك لم أستطع محاربتها، بل جنحت إلى مسايرتها والتساهل نحوها، والارتياح لها، بل إلى خلق جو عرقل عملياً محاربتها وساعد على ترعرعها ونموها في الحزب.

ومن الواضح أن حزبنا لن يستطيع أن يقوم بتطبيق خطته الموضوعة في تقرير الرفيق خالد بكداش عن «الاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين»، وأن يهيء الجماهير لخوض المعارك الكبرى ضد الاستعمار وفي سبيل السلم والاستقلال والتحرر الوطني والديمقراطي، إلا بإشهار النضال الصارم ضد جميع هذه الميول حتى استئصالها من جذورها استئصالاً تاماً.

وحين يتعمق المرء في تعرية هذه الميول من قشورها المختلفة حتى يصل إلى جذورها، يرى أنها، حين تنعكس في الحزب الشيوعي، تصبح تياراً يمت إلى التروتسكية بنسب قوي، حين كانت التروتسكية لا تزال معدودة تياراً سياسياً في حركة العمال، قبل أن تصبح عصابة تجسس وخيانة وتخريب واغتيال، في خدمة الاستعمار، وأفظع أقسامه الرجعية، ضد الاتحاد السوفياتي، وضد الحركة الشيوعية.

فالتروتسكية، كتيار في حركة العمال، كانت تنكر كفاءة الفلاحين الثورية، وتنكر أيضاً كفاءة الطبقة العاملة على جر جماهير الفلاحين وراءها. وفي ظروف بلادنا، أليس احتقار الجماهير الشعبية الكادحة، ونسيان كفاءة الفلاحين الثورية، ولا سيما الفلاحين الفقراء، وإهمال الاهتمام بالجماهير المناضلة ضد الاستعمار، أليس ذلك كله ضرباً من التروتسكية؟

كذلك إلى وقوعي تحت تأثير الميول الكوسموبوليتية وانزلاقي إلى مواقف الانتهازية ونسياني مفهوم الحزب الثوري، يجب رد خطأ موقفي المخزي، حين فكرت أن بالامكان بحث مسألة إبداء الأسف لموقف الاتحاد السوفياتي من قضية فلسطين وموافقته على قرار التقسيم. لقد حاولت حينها أن أفسر موقفي تفسيرات مختلفة، ثم حاولت بعدها، حتى المدة الأخيرة، أن أجد له «التعليلات»

والأسباب «المخففة» أو أن أصوره كشيء غير ذي خطر ولا علاقة له بأخطائي الانتهازية ومواقفي السابقة، كالقول أن أساس الفكرة لم يكن التنصل من الاتحاد السوفياتي، بل تفسير موقفه، وكتذرعي بأشياء أخرى لتفسير الخطأ وتبريره. ولكن يجب أن أقول إن كل هذه التفسيرات لا معنى لها سوى زيادة جسامة الخطأ، وسوى البرهان على موقف انتهازي، موقف ارتداد، وعداء للثورة. فقد كان مجرد خطور الفكرة على بالي، فكرة إبداء «الأسف»، خضوعاً وتراجعاً أمام تهويش الاستعمار وعملائه الرجعيين، وتقديم تنازل مبدئي وفكري وسياسي لهم. وكان ذلك من شأنه توجيه طعنة لسمعة حزبنا الوطنية والدولية، لم يكن ليتسنى له الشفاء منها، قبل مضي وقت طويل. ولم يكن موقفي ذاك وليد الظروف وحدها، بل كان أيضاً نتيجة لاتجاهي العام في التهاون والاستهتار بالمسائل المبدئية، وهو ميل انتهازي، اشتراكي ديمقراطي، ليبرالي، ميل إلى الانفلات من السياسة العلمية القائمة على الماركسية اللينينية، وأسير كيفما اتفق، بدون هدف ثوري، لقد كان نتيجة لاستصغاري قوة حزبنا وقوة معسكر الديمقراطية، واستعظام قوى الرجعية والاستعمار، نتيجة لعدم رؤيتي دور الاتحاد السوفياتي في العالم على رأس معسكر السلم والديمقراطية والاشتراكية. لقد كان موقفي نتيجة عدم الثقة التامة بسياسة الاتحاد السوفياتي، وانطباقها التام على مصالح الشعوب. ماذا تعني فكرة «الأسف» لموقف الاتحاد السوفياتي من قضية فلسطين؟ إنها تعني بلا مراء، بأن الاتحاد السوفياتي قد اتخذ موقفاً ضد مصلحة جماهير سكان فلسطين، أو قسم منهم - أي الجماهير العربية. لقد كانت فكرة إبداء «الأسف» تضليلاً وكذباً بالنسبة للشعب، وافتراء على الاتحاد السوفياتي. لقد كان رأي المستعمرين وعملائهم الرجعيون أن كل تهويشهم وافترائهم على الاتحاد السوفياتي بشأن فلسطين، لم يستطع أن يوصلهم إلى ما يبتغون من تحويل غضب الجماهير عنهم، وخلق تيار قوي ضد الاتحاد السوفياتي. فإن كثيرين بين الجماهير، رغم كل اكاذيب الدعاية الاستعمارية، رأوا أن التقسيم قد يكون في صالح العرب، ما دام الاتحاد السوفياتي، صديق الشعوب العربية الأمين، قد وافق عليه. ولذلك ظلت الجماهير غير مقتنعة بأن الاتحاد السوفياتي اتخذ موقفاً ضد العرب، في قضية فلسطين. ولكن لم أكن أستطيع، في حينها، سماع صوت الجماهير، ولا الأحساس بنبضات قلبها. بل فتحت أذني لصوت الرجعيين والقوميين البرجوازيين، وكنت أريد أن أقدم خير خدمة لهم في إنكار موقف الاتحاد السوفياتي. ولو أني أحسست في حينها، بنبضات قلب الجماهير، لكان يجب علي أن أرى أن التقسيم الذي اراده الاتحاد السوفياتي، أي تأليف دولتين مستقلتين ديمقراطيتين عربية ويهودية لا جيوش أجنبية فيهما، هو خير موقف لمصلحة الجماهير العربية واليهودية. لقد أقنعت الحوادث الآن، حتى أشد الغلاة، كم كان موقف الاتحاد السوفياتي متفقاً مع مصالح الجماهير العربية في فلسطين، وكما كان موقفاً بعيد النظر، وكم كان يرمي إلى توفير مآس وآلام على الجماهير العربية في فلسطين، وأن يخطو بالنضال الوطني التحرري خطوة كبرى ضد الاستعمار في الشرق الأدنى.

إني أرى الآن فظاعة تلك الفكرة. فكرة إبداء «الأسف»، إذ كانت تخلياً مني عن الأمية التي تعني، قبل كل شيء الثقة بالاتحاد السوفياتي، والالتفاف حوله. والأمانة التامة للحزب البلشفي، ولمعلم الشغيلة ومرشدهم وقائدهم وصديقهم الرفيق ستالين. وهكذا أيضاً نسيت قول ستالين أن السياسة الصحيحة هي السياسة المبدئية، فهي التي لها المستقبل.

إن موقفي ذاك، الذي كنت أعده هفوة عابرة، هو في الواقع، أنموذج لعمق المنحدر الذي صرت إليه. في الابتعاد عن الطريق الثوري. طريق اللينينية الستالينية، ودليل على مدى انغماسي في الانتهازية، وعلى مدى الخفة والاستهتار اللذين كنت أواجه بهما مسائل الحزب الحيوية الخطيرة.

أما عدم اهتمامي بالنضال ضد الانتهازيين والانهزاميين، وخصوصاً عدم اهتمامي بالنضال ضد المخربين التيتويين، من هاشم الأمين إلى باشابـزيان وقدري قلعجي ورشاد عيسى ومير مسعد ورئيف خوري واميلي فارس ابراهيم، وغيرهـم، فمـن أسبـابـه الرئيسيـة استصغـاري لشـأنهم، واحتقاري لدورهم. ولكن لم يكن ذلك ناتجاً عن إيماني بقدرة الحزب على سحقهم، بقدر ما كان ناتجاً عن استصغاري لدور حزبنا في نظر العدو الطبقي، ولعدم إدراكي الكافي لمدى كره العدو لحزبنا وخوفه منه، ولعدم رؤيتي الدور المتعاظم الذي يقوم به ويمكن أن يقوم به حزبنا في مقاومة مشاريع المستعمرين الحربية الاستعبادية وعرقلتها، وإيقاد جذوة النضال الشعبي ضد الاستعمار والحرب. ولم أكن مقدراً أهمية الانعطاف الجماهيري الشعبي في بلادنا، وفي العالم، نحو الاتحاد السوفياتي، ونحو الشيوعية، ولم أكن مقدراً ضعـف معسكر الاستعمار بكل مداه. ولم أقدر الأهمية التي يعلقها الاستعمار على مروق العصابة التيتوية وخيانتها، وسعيه إلى تعميم الخيانة التيتوية في جميع الأقطار، وفي سوريا أيضاً، وتقسيم صفوف الحركة والديمقراطية بواسطتها.

لذلك نظرت إلى المخربين التيتويين كأفراد سيئين، كأفراد غير جديرين بشرف الانتماء للحزب الشيوعي، أو المساهمة في الحركة الديمقراطية، كأفراد تنقصهم مزايا الشجاعة والاستقامة وحب الشعب، فكانت نظرة إلى جهة واحدة فقط. ولكن لم أنظر إليهم من خلال منظار احتدام النضال الطبقي، ولا كممثلين لأفكار ومحاولات طبقية معادية للحزب الشيوعي وللطبقة العاملة وللشعب. ولم انتبه لإمكان وجود يد الاستعمار وزمرة تيتو وراءهم، ولا لتطورهم الذي سيسير بهم حتماً وسريعاً إلى أحضان الاستعمار والزمرة التيتوية. وقد اعتبرت أنهم «ماتوا» سياسياً واندثروا، منذ أن ساروا في اتجاه القطيعة مع الحزب، أو لن يلبثوا أن «يموتوا» ويندثروا. وهذا صحيح، لقد ماتوا كجماعة مفروض فيها أنها ثورية، ولكن لن «يموتوا» كخونة وجواسيس ومخربين إلا بالنضال الدائب لفضحهم وعزلهم. لقد كانت نظرتي إليهم نظرة سطحية وغير علمية، نظرة مجردة عن وجود الاستعمار واحتدام النضال الطبقي. ولم اتعمق في النظر إلى ما كان يبلغني من «مديحهم»

ياي، وإلى مقاصدهم من وراء ذلك. وكنت أشعر أن ذلك المديح مهين لي، ولكني كنت أحسب أنه محاولة مسكينة منهم لخلق انقسام مستحيل في قيادة الحزب، أو كنت أحسبه أحياناً نوعاً من « التغطية » لتطاولهم الوقح على الرفيق خالد بكداش. لكنهم في الواقع كانوا يمدحون فيَّ نقصاً وضعفاً، يمدحون خطتي التي كانت تعبيراً عن رغباتهم في الحزب، لا عن رغبات الشعب. وقد نسيت كلمة ذلك الثوري الألماني: « إذا رأيت العدو يبتسم لي، أفكر حالاً أية حماقة ارتكبت ». لقد سلكتِ نحوهم سلوكاً خالياً من اليقظة الثورية. وليست قلة التجربة هي السبب بفقدان اليقظة الثورية عند شيوعي مسؤول ومجرب مثلي، بل هو فقدان الحقد الطبقي، هو ضعف الحقد على الاستعمار وعملائه الخونة، هو عدم الشعور بما يقترفه المستعمرون وعملاؤهم الحكام الرجعيون ضد شعبنا، ضد أطفالنا، ضد العمال والفلاحين.

كذلك، إن غياب دور الحزب الثوري عن ناظري، ونسياني مفهوم الحزب اللينيني الستاليني قد أدى بي إلى فهم خاطىء لوحدة الحزب ووحدة القيادة. فقد ظننت أن الموافقة الشكلية، حتى بدون قناعة تامة، معناها وحدة الحزب ووحدة القيادة. مع أن ستالين يقول في تحديد الحزب بأنه « وحدة الإرادة ووحدة العمل التامة المطلقة بين أعضائه » - لا بين أعضاء القيادة فقط، وهذه الوحدة، كما يقول ستالين، هي « الشرط الذي لا غنى عنه، والذي بدونه لا يمكن تصور حزب موحد »... فالوحدة الحقيقية الفعلية هي المشاطرة العملية الفعلية الحقيقية في وضع خطة الحزب السياسية، وتنظيم تنفيذها وإيجاد الرجال، أي الكادر للقيام بها، وأن هذه الوحدة تعني وجود مستوى سياسي وفكري واحد أو متقارب إلى الحد الأقصى بين أعضاء القيادة، ومفهوماً لينينياً ستالينياً واحداً عن الحزب ودوره.

وهكذا، كنت حين أعلن موافقتي، بلا اقتناع تام، لا استطيع المساهمة في تنفيذ خطة الحزب على وجه صحيح. فكنت عملياً أخدع القيادة والحزب.

أيها الرفاق

هذه أهم الأخطاء والانحرافات، وليست كلها. ومن ذلك يتبين، أنها أشياء عميقة، كما قال الرفاق في اجتماعات اللجنة المركزية، أشياء لا يمكن الاستهانة بها. فقد كان هناك فعلاً، في القيادة، مفهومان للحزب ودوره، وخطتان في سياسته وتنظيمه. مفهوم لينيني ستاليني يمثله الرفيق خالد بكداش، ومفهوم اشتراكي ديمقراطي أمثله أنا. خطة ثورية، يمثلها خالد بكداش وخطة انتهازية أمثلها أنا.

وحين أرجع بالذاكرة إلى تلك « المشاهد » التي كانت تجري في القيادة المركزية بسببي، حتى اتهمت القيادة المركزية مرة « بالتغرض »، وحين أتذكر كم كنت أكابر على الانتقاد، وكم كنت

أعاند في الاعتراف بالخطأ، وحين أتذكر كم مرة وعدت بالإصلاح ولم أصلح، وبالتنفيذ ولم أنفذ، وحين أتذكر أن الانتقادات البلشفية الرفاقية المخلصة الصادقة التي كانت تدفعني إلى اتخاذ موقف الاستقالة الضمنية، بسبب مكابرتي وضيق أفقي وروح البرجوازية الصغيرة، والوقوع تحت تأثير الميول الكوسموبوليتية، حين أتذكر كل ذلك، أرى كم اتسعت الشقة بيني وبين الحزب، حتى لقد صار هناك اتجاهان في اللجنة المركزية: اتجاه يسير على طريق لينين وستالين بقيادة خالد بكداش، واتجاه آخر أسير فيه على طريق أخرى معاكسة تماماً، طريق الانتهازية والاشتراكية الديمقراطية، طريق كل ما هو معاد لمفهوم الحزب الشيوعي.

وإني أعتقد الآن أن هذا الانتقاد الذاتي الذي أقدمه هنا لا يشمل كل أخطائي، ولا يصل إلى كل أعماقها، ولكنه، في كل حال، يمس جذوراً أساسية منها. وسأتابع الكشف عن اخطائي في ضوء الانتقادات الموجهة لي، وفي ضوء العمل، وبمساعدة الحزب أيضا، واعضاء القيادة المركزية، وعلى رأسهم الرفيق خالد بكداش.

وإني لأعرف أن بين الانتقاد الذاتي والاعتراف بالخطأ من جهة، وبين إصلاح الأخطاء من جهة ثانية، مسافة شاسعة. فالانتقاد الذاتي، حتى ولو بلغ درجة عالية من الكمال، لا يمثل سوى فتح مجال الامل بالاصلاح.

أيها الرفاق، يجب أن اقول أيضاً، قبل الختام، إني حين أعود الآن، إلى التعمق في أسباب انزلاقي إلى مواقف الانتهازية، وفقدان مفهوم الحزب الثوري والأهداف الثورية، وحين أتعمق خصوصاً في بحث مسألة عجزي عن التخلص من هذه الأخطاء وعن إصلاحها، ووقوعي تحت تأثير الميول الكوسموبوليتية إلى ذاك الحد، أرى بوضوح أن هناك عاملاً لعب دوراً كبيراً في ذلك هو إهمالي الثقافة النظرية الماركسية اللينينية، أهمالاً يكاد يكون تاماً. وقد تحققت من ذلك أثناء مطالعاتي الاخيرة لمؤلف ستالين «مبادىء اللينينية»، وبعد اجتماع اللجنة المركزية. فإن هذه المطالعات، بعد الانتقادات التي وجهت لي، قد ساعدت على فتح عيوني، وفي ابراز اخطائي أمامي بصورة أكثر جلاء ووضوحاً.

إن وضع قضيتي في اللجنة المركزية وأمام الحزب عملية ضرورية لتخليص الحزب من العيوب التي أورثته إياها، ولاستئصال اخطائي وانحرافاتي ونتائجها وآثارها، بل أقول لاستئصال «مدرستي» من الحزب استئصالا تاماً وسريعاً. فذلك هو الشرط الضروري لتمكين الحزب من تنفيذ الاتجاه المرسوم في تقرير الرفيق خالد بكداش، الاتجاه الذي سميناه انقلابياً، لأجل النضال لجعل حزبنا فعلاً حزب العمال والفلاحين القادر على النضال بنجاح في سبيل السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية.

وإني اعتبر أن خير مساهمة يمكن أن اقوم بها، في نضال الحزب، في هذا الباب، هي متابعة البحث والدرس والتعمق في كشف اخطائي والنضال للتعجيل في اصلاحها والخلاص منها.

واعلن استعدادي للعمل والنضال بدون توفير اية قوة من قواي، في سبيل التعويض عن بعض ما ارتكبت. لقد كنت وسأبقى ابداً جندياً من جيش الحركة الشيوعية العظيم، جندياً من جنود الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، حزبنا الذي ليس اشرف وانبل من الانتماء إليه ومن مهمة النضال تحت لوائه، في خدمة قضية الشعب، قضية السلم والاستقلال الوطني وخبز الشعب، قضية الحرية والاشتراكية.

سالم

وقد نشرت هذه الرسالة التي تم إملاؤها بالإكراه على فرج‌الله في الحزب كله للتشهير بصاحبها بحجة تثقيف الحزب، وعقدت الاجتماعات العديدة على مختلف المستويات للتنديد بفرج‌الله وشكر «العناية» التي وفرت للحزب قائداً استثنائياً من نوع خالد بكداش يقظ وقادر على التمييز الدقيق بين الصواب والخطأ واعطاء الحكم القاطع.

إن ما لا يمكن تصوره بالكامل الآن كان يحصل، وإن كان فرج‌الله هو كبير ضحايا تلك الأساليب فإنه لم يكن ضحيتها الوحيدة، عشرات الرفاق قضت عليهم عبادة شخصية خالد بكداش وأساليب القيادة التي كانت سائدة في أيامه.

حضرت بعض الاجتماعات التي نوقش فيها مشروع «رسالة سالم» وفي كل هذه الاجتماعات كانت تتم املاءات على فرج لتضمينها الرسالة التي استمر إعدادها منذ عام ١٩٤٩ إلى ربيع عام ١٩٥٢.

دخلت السجن في أول تموز ١٩٥١ وقد اعتقلت عندما كنت اقود مظاهرة ضخمة ضد مشروع «الدفاع المشترك»، وبقيت في السجن بين «الرمل» في بيروت، وسجن البترون حتى منتصف شهر أيلول ١٩٥٢، خلال سجني جرت اجتماعات التشهير بفرج‌الله، وعند خروجي من السجن فاجأني احد الرفاق بالقول «أكلها صاحبك» فقلت من هو فقال فرج‌الله الخ...

بعد ذلك استمر فرج‌الله في الحزب مناضلاً عادياً يترجم ويكتب بعض المقالات لجريدة «الصرخة»، أما أنا فقد الحقت بعد السجن في جريدة الصرخة مديراً لادارتها ومحرراً فيها. وكانت البلاد على طريق يفسح في المجال لممارسة بعض الحريات الديمقراطية. حصل ذلك بعد الإطاحة عن طريق الجبهة العريضة برئيس الجمهورية بشارة الخوري.

وقد رأت القيادة، آنذاك، أن تشق الديجور بإصدار بيان سياسي علني يتضمن وجهة نظر

الحزب في الاوضاع الحاضرة. ووقع هذا البيان: نقولا شاوي، فرج‌الله الحلو، حسن قريطم، ارتين مادويان.

كان هذا البيان انطلاقه افسحت في المجال، للعمل السياسي العلني. وقد حولت المحكمة العسكرية موقعيه إلى المحاكمة، فحوكموا غيابياً. وحكم على كلٍ منهم بشهر واحد سجناً.

على اثر ذلك انتقل خالد بكداش من لبنان حيث كان يقيم، إلى سوريا التي كانت على أبواب وضع يمكّن من ممارسة الحريات. لا سيما أن الانتخابات النيابية كانت قريبة، وذلك على أثر الاطاحة بدكتاتورية الشيشكلي، وقد انسحب ما حصل في لبنان على سوريا، فأذاع الحزب الشيوعي السوري بياناً مماثلاً وقّعه خالد بكداش وبعض الرفقاء السوريين. وكان هذا البيان عملياً فاتحة المعركة للانتخابات البرلمانية ، بعد سقوط الديكتاتورية، وقد قرر الحزب ترشيح خالد بكداش لخوض المعركة عن دمشق. واستوجب هذا الترشيح نقل ثقل قيادة الحزب إلى دمشق، وفي رأس من انتقلوا إلى هناك فرج‌الله الحلو، ثم نقولا شاوي والعشرات من الملاك الحزبي اللبناني انتقلوا إلى دمشق للعمل في التنظيم والتحضير لمعركة مرشح الحزب خالد بكداش، وسواه ممّن رشحهم الحزب في دمشق والمناطق السورية.

أعطى فرج‌الله كل ما عنده من طاقات تنظيمية، وكتابية، لدعم خالد بكداش. وقد سارت الامور باتجاه امّن النجاح لخالد الذي فاز في الدورة الأولى بأصوات محترمة. وأصداء هذا النجاح لم تكن سورية ولبنانية فحسب، بل وعلى الصعيدين العربي والدولي، تشير إلى ذلك برقيات التهنئة التي وردت إلى الحزب وخالد بكداش من جميع البلدان العربية والأجنبية، ومن المنظمات والأفراد.

أما على الصعيدين السوري واللبناني، فقد تقاطرت مئات الوفود، ضامة عشرات الآلاف، من جميع احياء دمشق، ومحافظات سوريا، واقضية لبنان. فعلى امتداد أكثر من شهر، لم ينقطع سيل الجموع الدالفة إلى منزل خالد في حارة الاكراد حاملة اليافطات، ومطلقة الهتافات لتحية الحزب الشيوعي وقادته الميامين.

وبعدما فاز خالد، استقر فرج‌الله في دمشق، ولا سيما بعد صدور جريدة للحزب الشيوعي السوري، هي جريدة «النور» واصبح فرج‌الله محرراً رئيسياً فيها.

لم تعد في هذه الأثناء بيننا في لبنان، وبين فرج‌الله صلات حيّة، وكذلك نقولا شاوي (رئيس الحزب الشيوعي اللبناني) انتقل إلى دمشق وكان عمله في أثناء حملة الانتخابات لخالد بكداش الاشراف على لوائح الانتخابات، وطبع الاوراق، وتعيين وكلاء المرشح في هذا الحيّ أو ذلك. هل استلم هذا الوكيل وصل توكيله أم لا.

وانتهت الانتخابات واستمر فرج‌الله ونقولا في دمشق، وإذا ما أتيا حيناً إلى لبنان، يأتيان كزائرين لمشاهدة عائلتيهما ليس إلاّ. وبقيت أنا هنا في لبنان مع صوايا وأرتين، وكنت كل مرة أذهب إلى دمشق، إما بمبادرة مني، أو بدعوة من القيادة المقيمة هناك، للتباحث بأمر ما، وينحصر الموضوع بتقديم تقرير مقتضب عن لبنان، ثم يليه إما «عيطة» مرفقة ببهدلة، أو بوضع مهمات، من بعيد، مفروض علينا تنفيذها..

وكنا في لبنان نعاني من خلل في التنظيم وفي التوجه السياسي الصحيح. مع من نشتغل؟. مع من نحن، وضد من نحن؟. وبالرغم من ذلك اصبنا نجاحات في مجالات اساسية، في حركة السلم بالتعاون مع الرفيق انطون ثابت، وفي معركة البترول من أجل زيادة العائدات، مع مجموعة من المحامين والشخصيات العامة. في دعم الثورة المصرية ودعم عبد الناصر في العدوان الثلاثي على قناة السويس سنة ١٩٥٦. وأخيراً في النضال ضد الأحلاف الاستعمارية من حلف الدفاع المشترك سنة ١٩٥١، حتى حلف مبدأ ايزنهاور سنة ١٩٥٧. فمع «المؤتمر الوطني للأحزاب والهيئات والصحافة الحرة» خضنا المعركة من بابها العريض فاصبنا نجاحات وسجلنا انتصارات لمسنا نتائجها بحصول انطون ثابت في أثناء معركة الانتخابات النيابية ١٩٥٧، على أصوات أكدت فوزه (أكثر من ١٥ الف صوت) ولكن غرفة التزوير آنذاك شطبت من هذه الاصوات وجيرتها إلى خصمه بيار اده. وبعدما اتى كثيرون اشرفوا على عملية الفرز في بلدية بيروت، وهنأوا انطون بفوزه، إذ بالنتائج «الرسمية» التي اعلنت مؤخراً تشير إلى نجاح بيار اده.

العام ١٩٥٧ حفل بالاحداث في لبنان. احداث جسام، بانعكاساتها السلبية، والايجابية، لا تنسحب على لبنان وحسب، بل وعلى سوريا بشكل رئيسي.

إن انضمام لبنان إلى المشروع الاستعماري الرهيب «مبدأ ايزنهاور» موجه ضد سوريا. والنجاحات الايجابية التي حققها الشعب اللبناني، وفي اساسه، الحزب الشيوعي اللبناني، والمنظمات الديمقراطية المتعاونة معه، تهم سوريا كما تهم لبنان، وربما أكثر من ذلك. والهجمة الاستعمارية الأميركية كانت موجهة ضد لبنان لجعله الساحة لمركزة المشاريع الاستعمارية، ومن ثم الانطلاق منها إلى البلدان العربية، وفي طليعتها سوريا.

إستشرى الحكم الشمعوني في علاقته بالامبريالية الاميركية وقد أفقده هذا الاستشراء رصيده الوطني والقومي، فلجأ إلى أميركا يطلب تدخلها عسكرياً في لبنان، استناداً إلى المادة ٥٢ من الدستور اللبناني التي تخول رئيس الدولة عقد اتفاقات وتنفيذها دون الرجوع المسبق إلى الحكومة ومجلس النواب، وعلى الفور نزلت في بيروت قوات المارينز بكثافة، وامتلأ البحر بالقطع الحربية الاميركية، مما أثار نقمة شديدة ضد الحكم الشمعوني الذي قصد من استدعائه القوات الأميركية،

لا ضرب الحركة الوطنية اللبنانية وحسب بل وضرب الثورة المصرية، ومن ثم الثورة العراقية.

في هذه الأثناء كان فرج‌الله في دمشق، وكان نقولا شاوي في بيروت، وكنت مع الرفيق أرتين وآخرين نتعاون في قيادة العمل الحزبي، وقد اشترك الحزب بإمكانات متواضعة من السلاح بالانتفاضة ضد الحكم الشمعوني، وتمكنّا من تجنيد مئات من الرفقاء للمساهمة في العمليات العسكرية، في بيروت، وطرابلس، والشوف بقيادة كمال جنبلاط، وفي بعلبك، والنبطية.

وانتهت الانتفاضة، بالقضاء على حلف مبدأ ايزنهاور، وبمنع دخول الاسطول السادس الأميركي إلى المياه اللبنانية. ومنذ تموز ١٩٥٨، لم يتسنّ للقطع الحربية الأميركية الدخول إلى المياه اللبنانية، إلا في أثناء الاحتلال الإسرائيلي في حزيران ١٩٨٢. ولكن وثبة شعبنا ضد الاحتلال، وتدخل القوات المتعددة الجنسية، منع من جديد الاسطول الاميركي من الدخول إلى مياهنا.

في أثناء إقامته في دمشق، كانت عائلة فرج الله في بيروت. زوجته ڤيرجيني التي تعمل في الخياطة، وبناته الثلاث. وكلما طلبت منه حاجة، كان فرج‌الله يجيبها شوقي بو وضاح فهو يدبرها. وكنت دائماً عند حسن ظنه بي.

وأثناء اعلان الوحدة المصرية ـ السورية كان فرج‌الله محرراً رئيسياً في جريدة «النور» السورية. وكانت مقالاته تصب في اطار وحدوي. وعندما جاء عبدالناصر إلى دمشق كتب فرج‌الله افتتاحية في جريدة «النور» بعنوان: «أهلاً بعبد الناصر في سوريا». وقد اثارت هذه الافتتاحية عليه نقمة خالد بكداش، ولكنها لقيت استحساناً من الجماهير الشعبية، والاوساط الوطنية.

عندما طرح مشروع دستور الوحدة المصرية ـ السورية وانتخاب عبدالناصر رئيساً لها في استفتاء شعبي في سوريا، وزع الحزب الشيوعي السوري بياناً دعا فيه إلى اتخاذ موقف ايجابي من ذلك، أي دعوة الشيوعيين لانتخاب عبدالناصر رئيساً لدولة الوحدة.

ولكن الرياح سارت باتجاه آخر، بعدما وزع خالد بكداش في كانون الأول ١٩٥٨ بياناً تضمن ١٢ بنداً طالب فيها بإعادة النظر في الوحدة من الأساس. وعلى أثر ذلك بدأت سلطات الوحدة في دمشق بمكافحة الشيوعيين وملاحقتهم، واستخدام أشد أنواع الإرهاب والتعذيب ضدهم. وقد سقط بعضهم ميتاً تحت ضرب السياط. وخرج أمين عام الحزب خالد بكداش من سوريا بطريقة سرية أمنها له رفقاؤنا في طرابلس، عن طريق حمص، وقد التقى الجميع في بيروت، فخالد سافر إلى الخارج عبر مطار بيروت. ونقولا سافر مع محمد الخطاب إلى موسكو لحضور المؤتمر الـ ٢١ للحزب الشيوعي السوفياتي.

وقبل سفر خالد ونقولا، عقدت «القيادة المركزية» اجتماعاً قررت فيه فصل الحزبين

الشيوعيين السوري واللبناني عن بعضها تنظيمياً وسياسياً، ونشر ذلك ببلاغ في جريدة « الأخبار ». أتى فرج‌الله بذاته إلى مكتب الجريدة في شارع المعرض، وسلمنا هذا البلاغ ومفاده، أن الأعضاء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري يشكلون اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. والأعضاء اللبنانيون يشكلون اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني. كان ذلك حوالى منتصف شهر كانون الثاني ١٩٥٩.

فرج‌الله يعود إلى دمشق

لم يمكث فرج‌الله طويلاً في لبنان، فقد عاد إلى دمشق كمسؤول عن الحزب الشيوعي في سوريا باقتراح من خالد بكداش، على أن تكون اقامته في دمشق. وكان من معاونيه المسؤول عن منظمة الحزب في دمشق رفيق رضا. وكان لفرج‌الله رفيق يقوم بمهمة صلة مع الفرق الحزبية وغيرها من تنظيم الصلات.

عانى فرج‌الله صعوبات جمة في دمشق. فالارهاب ضد الشيوعيين ازداد شدة، والاعتقالات اتسع نطاقها، وسقط بعض الرفقاء قتلى بسبب التعذيب البوليسي الوحشي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى افرغت سوريا من اعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية للحزب. فقط بقي فرج‌الله لوحده يقود الحزب. فالمناشير كانت تطبع في لبنان وينقلها رفقاء لبنانيون شجعان إلى سوريا، وليس هذا وحسب، بل كان يطلب إليهم القيام بتوزيعها في سوريا، في هذا الوضع السيّىء، الشاق، المظلم ترك فرج‌الله يعمل منفرداً في سوريا. أتى ذات يوم إلى لبنان وقد التقينا في « دار المعجم » شارع بشارة الخوري. قال لا اقدر أن اشرح لكم الصعوبات التي نعانيها. لم يبق في دمشق أحد من الكادر. ولا نتمكن من وجود رفيق يقوم بأية مهمة.

كان فرج‌الله بين الحين والحين يأتي إلى بيروت بطرق سرية وآخر مرة التقيته فيها كانت حوالى ١٥ نوار سنة ١٩٥٩، وكان الرفيق نقولا شاوي قد عاد من سفرة طويلة استغرقت أربعة شهور. وكان لقاؤنا مع فرج‌الله في منزل علي أبو حيدر في الشياح. في أثناء الحديث قال فرج‌الله لنقولا: لقد طولت كثيراً بسفرتك. وهذا سبب لنا صعوبات في العمل، ولا سيما بالنسبة للرفقاء في العراق، إذ كان بإمكانك أن تسدي إليهم مساعدات مفيدة.

في ١٩ نوار ١٩٥٩ تركت بيروت إلى « ليبزيغ » في المانيا الديمقراطية وبقي فرج‌الله في بيروت حتى الخامس والعشرين من شهر حزيران ١٩٥٩، وقد عمل بجد ونشاط في جريدتي « النداء » و « الأخبار ».

كان اتجاه فرج‌الله عدم العودة إلى دمشق، لأن وجوده فيها لم يبق له أي معنى بعد أن تركها

جميع أعضاء اللجنة المركزية، بقرارات أو بدون قرارات، ولكن اصرارا غير مبرّر استعمل مع فرج الله ليذهب إلى دمشق، لأن هناك بعض الأعمال التكنيكية تتطلب وجوده. وحاول فرج الله أن يقنع الرفقاء في القيادة، ولكنهم أصرّوا عليه بضرورة الذهاب وكانت رسائل خالد بكداش تلح دوماً على ضرورة أن يبقى فرج في دمشق. وقد اخبرني الياس البواري، ويرغات بأنهما سمعا فرج الله باذنيهما يقول حرفياً: يا رفقاء، يمكن لاي رفيق أن ينجز العمل المطلوب، وليس شرطاً أن أكون أناّ بالذات. ولكنهم، بالرغم من ذلك، اصرّوا عليه بوجوب الذهاب، فذهب.

في أثناء غياب فرج الله عن دمشق كان جهاز المكتب الثاني «جهاز السراج» قد اعتقل رفيق رضا، وحامت شكوك حول موقف رفيق. ولكن، في الأيام الأولى لم يظهر من رفيق ما يؤكد انه افشى باسرار امام البوليس. ولكن الأمور سارت على غير ما ظهر في البدء. فرفيق رضا، كان كما يبدو، عميلاً قديماً للبوليس، وعلى صلة وثيقة بالسراج. وقد سلم كل ما يعرف عن الترتيبات المتخذة إلى المكتب الثاني، وأطلعهم على المكان الذي يسكن فيه فرج الله، وعلى الشخص المكلف بمهمة الصلة به. وقد وضع البوليس السرّاجي يده على كل ما سلمه اياه رفيق رضا من معلومات. فاعتقلوا أولاً الصلة، وكمنوا في المنزل الذي يسكنه فرج الله.

ولما عاد فرج الله من بيروت يوم ٢٦ حزيران ١٩٥٩، ذهب لتوه إلى المكان المتفق عليه مع الصلة، فلم يجد أحداً. انتظر بعض الوقت، فلم يأت أحد. عندها غامر وذهب لتوّه إلى غرفته، وما كاد يفتح الباب ويدخل إلى الغرفة، حتى وجد عدداً كبيراً من البوليس في انتظاره.

في أثناء ذلك ليل ٢٥ ـ ٢٦ حزيران ١٩٥٩ لم أكن في لبنان، كنت في الاتحاد السوفياتي، ذهبت خصيصاً إلى هناك لمقابلة الرفيق خالد بكداش، ومن موسكو اتيت إلى بلغاريا ومكثت في «صوفيا» و«فارنا» ثلاثة أيام، وعدت إلى بيروت بطريق «فيينّا». وفي أول تموز وصلت إلى بيروت. وفي أثناء وجودي في غرفتي بمكتب جريدة «النداء» بحي الصيفي، اتى حسن قريطم الذي لم أره منذ ثلاث سنوات لغيابه عن لبنان. دخل الغرفة واوصد بابها، وقال لي أود أن اطلعك على خبر سيّء وهو، أن فرج الله اعتقل في دمشق، والأخبار مقطوعة عنه، ونخشى أن يكون قد قتل. وكانت لحظة قاتمة شهقنا كلانا بالبكاء. وقبلنا بعضنا بعضاً، ودمنا على هذه الحال زهاء نصف ساعة ولم نرد خلالها لا على مخابرات التلفون، ولا على قارعي الباب. وبعد أن رتبنا وضعنا النفسي، فتحنا الباب، لاننا حرصنا على أن لا ننشر خبر اعتقال فرج الله آنذاك.

لقد هزّ اعتقال فرج الله الحزب، بل لبنان بأسره. وقد وجدنا تعاطفاً واسعاً في الحملة الوطنية التي نظمناها للمطالبة بإطلاق سراحه. كما لقينا، عالمياً، تعاطفاً شديداً عبّر عنه تشكيل اللجنة العالمية للمطالبة بحرية فرج الله الحلو. وقد ضمّت شخصيات سياسية برلمانية، ورسمية، وعلمية

واجتماعية من شتى البلدان: وزارت وفود منها لبنان، واتصلت بعائلة فرج‌الله: زوجته ڤيرجيني وبناته، بشرى، ونجوى، وندى.

وعلى الصعيد الوطني اللبناني والقومي العربي شكلت لجنة ضمت العشرات من الشخصيات البارزة في المجتمع. كما أن الصحافة اللبنانية عكست حملة النشاط الوطني والعالمي للإفراج عن القائد الكبير.

وبمعزل عن كل شيء، عن اعتقال فرج‌الله ثم قتله بعد تعذيب شديد، وإخفاء جثته الطاهرة، ثم تذويبها بالأسيد، فإن الحزب لم يخرج عن النطاق السياسي في حملته لتحرير قائده. لقد حاول بعض القادة الانعزاليين الذين يكرهون القومية العربية، والتضامن العربي الممثلين آنذاك بمصر عبد الناصر، أن يسيروا بحملة الاحتجاج إلى اقصى مداها وتحويلها إلى حملة كره ضد العرب. ضد سوريا ومصر. ولكن الحزب لم يقع في هذا الفخ، وحافظ على علاقاته مع الوسط الوطني الذي لم يدّخر شيئاً، في سبيل المطالبة بالإفراج عن فرج‌الله الحلو. إن قضية فرج‌الله الحلو، أصبحت قضية عالمية، ولم تبق أية جريدة تقدمية في العالم إلا وتناولتها وضمّت صوتها إلى صوت رفقائه واصدقائه في لبنان.

دامت حملة المطالبة بالإفراج عن القائد الكبير زهاء سنتين، التقينا فيها كثيرين، منهم من أتى يؤمّلنا بأن فرج‌الله حيّ وللتأكيد، سيوافونا ببعض السطور بخط يده. ومنهم من جاء يسمسر بأنه لقاء مبلغ معين من المال، سيوافينا برسالة بخط يد فرج‌الله. وقد وافقنا معه ودفعنا له، حسب اقتراحه، نصف المبلغ، على أن ندفع النصف الآخر عندما يوافينا بالرسالة بخط يده. ولكن كل هذه المساعي ذهبت سدى لأن مصير فرج‌الله كان قد تقرر ليلة اعتقاله في ٢٦ حزيران ١٩٥٩.

وبعدما تأكدنا من ذلك، أي أن فرج‌الله توفي، قررنا اذاعة الخبر. أولاً اطلاع عائلته، وثانياً الكتابة في الصحف، وثالثاً تعيين موعد لتقبل التعازي في بيروت، وفي قريته حصرايل.

وفي أواخر شهر نوار ١٩٦١، ذهبت مع انطون تابت وزوجته ماري والاستاذ رئيف خوري، إلى بيت شقيقته مريانا في حصرايل وكان شقيقه غالب حاضراً، وبعد كلمات تليق بالمقام قالها انطون، اطلعناهم على الخبر المؤلم المفجع. وهكذا حصل في بيروت حيث كانت تسكن عائلته فقد اطلعت على الخبر، وفي المناسبتين، في حصرايل، وفي بيروت كان موقف الشقيق والشقيقة وعائلتيهما، وموقف ڤيرجيني ثورياً، نبيلاً، فقد تقبلوا النبأ برباطة جأش، وبصلابة وتأكيد على أن طريق فرج الله ستبقى طريقهم.

وأقيم في الرابع من شهر حزيران سنة ١٩٦١ مهرجان تأبيني في حصرايل حضره أكثر من

عشرين الف نسمة، من بلاد جبيل ومناطق لبنان كافة. خطب فيه الشيخ عبد الله العلايلي، ونائب بلاد جبيل أحمد اسبر، والدكتور جورج حنا، ويوسف خطار الحلو، وأرتين مادويان، ورئيف خوري، والمحامي ادمون عون، و حسين مروة، وأمين الأعور، وميشال القهوجي وقد ألقى قصيدة.

وخلال أيام تقبل التعازي في منزل عائلة الفقيد في بيروت، دلف الالوف من الشخصيات السياسية، ووفود الاحياء، والنقابات، والهيئات الاجتماعية لتقديم تعازيها بالقائد الشهيد.

لم يهز لبنان استشهاد أو موت شخص كما هزّه استشهاد فرج‌الله. ولم تبق شخصية أو هيئة سياسية أو اجتماعية أو نقابية إلاّ وتضامنت مع اللجنة الوطنية المطالبة بالإفراج عنه، وأبدت استنكارها إن بتصريحات نشرت في الصحافة، أو بآراء افضت بها في مجالسها الخاصة. والجميع اعتبر غياب شخصية سياسية وطنية كفرج‌الله الحلو، خسارة وطنيّة وقومية كبرى.

وعلى الصعيد الحزبي كانت الخسارة أروع وأكثر وأبلغ. فإن أحد أعمدة الحزب الاساسية قد تحطم، وهذا ما وعته القيادة المسؤولة، برئاسة نقولا شاوي، فعمدت إلى اتخاذ التدابير التنظيمية السريعة، بالنسبة للجنة المركزية، والمكتب السياسي. وبالرغم من أنها جوبهت ببعض الصعوبات، فقد أعادت بناء أسسها مستمدة من تعاليم فرج‌الله الحلو، واسلوب عمله، وتمسكه العنيف بالروح الحزبية الصادقة، ما ساعدها على تجاوز الصعوبات.

ففي مطلع عام ١٩٦٥ عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً موسعاً ضمت فيه إلى صفوفها مجموعة من الملاكات التي كانت تحتل في الحزب مسؤوليات هامة، وانتخبت نقولا شاوي أميناً عاماً لها، كما اعادت تركيب المكتب السياسي على ضوء تركيبها الجديد.

ولم تؤد الأزمة السياسية والتنظيمية التي بلغت ذروتها في الحزب عام ١٩٦٧ إلا إلى تعزيز وحدة الحزب التي أكدها مؤتمر الحزب التاريخي - تموز ١٩٦٨، وعبر عن هذه الوحدة بانتخاب هيئات الحزب وإقرار برنامجه السياسي، ونظامه الداخلي، وفي كل وثائقه، وبخاصة في نظامه الداخلي، استمد الحزب من فكر وعطاء فرج‌الله الحلو، الوضوح والصفاء في طرح القضايا، وإيجاد الحلول للمشاكل الناشئة.

وفي الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني، ٢٤ تشرين الأول ١٩٧٤، احتفل الحزب والشعب اللبناني، بإقامة تمثال لفرج‌الله الحلو أمام بيته في حصرايل، وذلك في مهرجان لبناني عالمي، ضم أكثر من عشرين ألف شخص، أتوا من شتى مناطق لبنان، يشاركون حزبهم في إحياء ذكرى قائده الشهيد فرج‌الله الحلو.

إن مساري الحياتي العام مع فرج‌الله دام من سنة ١٩٢٠ حتى ١٩ نوار ١٩٥٩. ولكن مساري

الحقيقي الفعلي عمره ٢٨ سنة فقط، أي من شهر أيلول ١٩٣١، حتى استشهاده في ٢٦ حزيران ١٩٥٩، وهي المدة التي انقضت على انضمامنا إلى الحزب الشيوعي، والتزامنا بمبادئه، والعمل حسب خطته واستراتيجيته، والتزام فرج‌الله بذلك كلفه حياته، والشهيد حياته بمماته، أما أنا فلا أزال على طريق فرج‌الله مثابراً، ولن أنحو عنها لا شمالاً ولا يميناً، وسأظل محافظاً على العهد الذي قطعناه لفؤاد الشمالي سنة ١٩٣١.

إنها دورة مدرسية امتدت بالنسبة إلي، ٢٨ سنة، كان فيها فرج‌الله معلمي، ومرشدي، وملاذي. كان بعد الحزب، كل شيء عندي في الدنيا. وغيابه الأبدي اثر بي، بل صدني، وأخلّ بالمعادلات التي أقيس بها علاقتي بهذا القائد أو سواه. ولكنني وقد آليت على نفسي إلا أن أكون دائماً تلميذاً لفرج‌الله، ورفيقه الأول، عدت إلى مدرسة فرج‌الله الحلو، التي تعني، من ألفها إلى يائها، التعلق بالحزب، وتفسير ما يمر من أحداث في ضوء الماركسية اللينينية، انطلاقاً من الأسلوب الديالكتيكي، في الحكم على الأحداث، الصغيرة والكبيرة، وفي إطار النضال الطبقي، والانحرافات اليمينية من جهة واليسارية من جهة، التي تقود، إلى التعلق بالتزعم من جهة، وبالنزوع إلى الفردية والتخلي عن الديمقراطية من جهة أخرى.

إن أفضل تكريم وتخليد، لفرج‌الله الحلو، هو بتقوية الاستمساك بأهداب الحزب الشيوعي والعمل بتفانٍ ونكران ذات لتنفيذ المهمات التي تطرحها هيئاته القيادية، المهم أن يبقى عضو الحزب في حزبه، وأن لا يقوده عناده وعماوته، وكيده، إلى أن يصبح خارج الحزب ـ حتى ولو كان في قرارته مخلصاً.

وخلال الـ ٢٩ سنة التي انقضت على استشهاد فرج‌الله، كنت أشعر، ولا سيما في أثناء الأزمات، والشدائد، أنني بالقرب من فرج‌الله، وأنه معي، وهذه الروحية ستبقى مرافقة لي على ما تبقّى لي من سنين. وإن ما شجعني ويشجعني على المضيّ بما أنا عليه، وعلى استمراريتي في مساري، هو ما ألمسه من قيادة حزبنا بالنسبة لموقع ودور فرج‌الله في تاريخ الحزب. ويشرفنا أن إعادة الاعتبار لأبرز وجه في حزبنا، قام بها صانعو مؤتمر الحزب ١٩٦٨. فليس شيء عابر في التاريخ، إقامة تمثال لفرج الله الحلو في قريته. وليس من هوامش التاريخ حضور أكثر من عشرين ألف شخص في مهرجان إزاحة الستار عن التمثال في ١٩ تشرين الأول ١٩٧٤. إنها ثوابت أبدية مقدرة في حزبنا، ومحترمة من قبل جماهير شعبنا.

فبالنسبة لي إن لسان حالي يقول دائماً فيما يتعلق بفرج‌الله، ما قالته الخنساء بصخر:

« يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمسِ »

وبالنسبة لرافعي راية فرج الله، قيادة حزبنا الذين يعيش فرج الله في ضمائرهم، فينعكس ذلك في أمتن وحدة، وأعمق تضامن في الحزب، يطل بها حزبنا على مؤتمره ٣ - ٦ شباط ١٩٨٧، أقول:
«إن البطولة أن تموت من الظمأ   ليس البطولة أن تعب الماء»

البطولة هي في رص صفوف الحزب، وليس بتفريقه شيعاً، وأقساماً. وإننا والحمد لله بعيدون عن ذلك، وسنبقى بفضل تمسكنا بالديمقراطية ونواتها الانتقاد والانتقاد الذاتي، بعيدين عن كل ما يشوب التنظيم الحزبي. وما يسدّ جميع المنافذ على الأعداء الذين يضيرهم وجود حزب شيوعي في لبنان، هو غير شكل، موحّد، لا شطط فيه ولا تقاعس، أمين بجميع تصرفاته لأمجد تقاليد شعبنا الثورية.

ان حزبنا انطلاقاً من تاريخه على امتداد ٦٤ سنة، ومن بطولات أعضائه بدءاً باستشهاد عساف الصباغ سنة ١٩٤١، حتى الذي ينتظر دوره في الشهادة على مشارف عيترون، وحولا، وإبل السقي. وكل شبر يحتله الصهاينة في أرضنا الغالية، حزبنا هذا المؤتمن عليه لدى رفقاء جرّبناهم واختبرناهم في أشد المحن، وأصعب المطبات، وأخطر المزالق، فكانوا ضميراً حياً للحزب، روحاً محيية لفرج الله، وللآلاف من ميعة شبابنا الذين يشكلون انصع كوكبة، هؤلاء لم يقدموا على ما أقدموا عليه من أجل «عب الماء» بل تحملوا الظمأ لتأمين المياه غزيرة دفاقة، لشعبنا في لبنان، كل لبنان، في بلدان العروبة الشقيقة.

هنا يكمن فخرنا، واعتزازنا. ومن هؤلاء الذين «ماتوا من الظمأ» نستمد البطولة، في مسارنا الشاق الطويل حتى النصر.

أوابد من أقوال فرج الله الحلو

لفرج الله الحلو، شهيد لبنان السموح والعروبة الحقّة، والاستقلال والحرية، شهيد الكلمة الصريحة الحرّة، والحضارة المتوثبة التي وجدت، أول ما وجدت لها مكاناً منذ عشرات، بل مئات السنين، في لبنان، لفرج الله الحلو أوراق كثيرة عالج فيها، بحكم موقعه كقائد للحزب الشيوعي اللبناني، وككاتب رئيسي في صحف «صوت الشعب»، و «الأخبار»، و «النور»، و «الطريق» و «النداء». شتى القضايا التي تشغل بال شعبنا اللبناني بخاصة، والشعوب العربية بعامة. ورأيت بدافع الحرص على تراث فرج الله الحلو، لا كنسيب، ولا كرفيق مدرسة وقرية، بل كشريك في النضال في صفوف الحزب الشيوعي، ولفرج الله في عنقي، كما في عنق كل من التزم بالقضية التي التزم بها، وانتظم مثله في الحزب الشيوعي اللبناني، دين مستحق تلكأت عن ايفائه. وإذا ما أقدمت

بلى أخذ بعض ما كتبه في « أوراقه » الخصبة، ودونته في مقالات أكتبها تحت عنوان « أوراق من اريخنا »، فلأنني أحرص على التراث والأصالة من جهة، وعلى اعطاء بعض الملامح الحية عن ذلك لقائد الكبير الذي له صورة في صدر كل شيوعي ووطني وكل ذي حضارة من جهة، وعلى بعد ظره، وصواب تصوّره، وصدق مدرسته من جهة أخرى.

هذه الأوراق التي أوردها، وهي مجتزآت من مقالات بقلم فرج‌الله الحلو نفسه، ستكون موضع هتام وتقدير جديين للقائد الكبير الشهيد، وهي تشكل بحد ذاتها تاريخاً يغني تاريخ لبنان لحقيقي، ويعطي صورة حقيقية عن واقع مرحلة الاستقلال الوطني وتحرير البلاد من الاحتلال لأجنبي، وبالتالي مرحلة الهجمة الاستعمارية، الاقتصادية والسياسية والعسكرية، لتجويف لاستقلال السياسي من معناه الحقيقي، وجعل السيادة الوطنية اسماً ليس إلا. وفيما يلي أوراق مجتزأة ن مقالات وخطب للقائد الكبير وقد احتفظت بالعناوين كما وردت.

رسالة البابا إلى الكاثوليك

... ولو أدرك المسؤولون المخلصون في بلادنا حق الإدراك واجبهم الوطني وقبلوا أن يضعوا دهم في يدنا لاستطاعت البلاد أن تنجو من النكبات والويلات التي حلت بها ولاستطاعت أن ؤمن شيئاً من الحرية والهناء والطمأنينة لأبنائها.

ولكن قد حان الوقت لأن يدرك المسؤولون، من أي نوع كانت مسؤوليتهم، ضرورة الاتحاد الاخاء بين كل أبناء البلاد لأجل انقاذ بلادنا من الويلات والمصائب النازلة، ولأجل إيصالها إلى ىيء من الطمأنينة والاستقرار والهناء.

وقد حان الوقت أيضاً ليدرك المثقفون وكل رجال الحركة الفكرية والسياسية وأحرار الضمائر لمخلصين في البلاد مسؤوليتهم الكبرى في هذا السبيل فهم مثلنا لا يريدون البغض والتفرقة، ومثلنا يريدون الاتحاد والاخاء لأنهم مقتنعون معنا أن الاتحاد والآخاء بين أبناء البلاد وسيلة الخلاص من مذه الحالة التي لا تطاق. فلنوحد الجهود في جبهة وطنية واحدة يتعاون فيها كل عناصر الأمة لنشيطة تعاوناً ديمقراطياً أخوياً صحيحاً قائماً على أسس صريحة واضحة لأجل تغيير هذه الحالة ؛تخفيف ويلاتها وشرورها.

من مقال بعنوان « رسالة البابا إلى الكاثوليك »
صوت الشعب ١٨ / ١٢ / ١٩٣٧

دعوة لتأليف جبهة وطنية ديمقراطية

وعلى اثر المعركة الانتخابية في كانون الأول سنة ١٩٣٧، وخاضها الحزب في محافظتي بيروت وجبل لبنان. ففي بيروت ترشح نقولا شاوي وسعد الدين مومنه، وجرى بينهما وبين رياض الصلح وحزب الهانشاق الأرمن اتفاق للتعاون في المعركة. وفي جبل لبنان ترشح فرج‌الله الحلو. وقد حصل « ائتلاف » حكومي - رجعي رافقته عملية تزوير كبرى شملت المناطق كافة. على اثر هذه النتائج كتب فرج‌الله مقالة في « صوت الشعب » دعا فيها إلى تأليف « جبهة وطنية ديمقراطية » كوسيلة وحيدة لإنقاذ لبنان من مصاعبه قال فيها:

« ... كان الكثيرون يسألوننا قبل الانتخابات النيابية هل نحن متأكدون من النجاح، وما هي القوى التي نعتمد عليها. فكنّا نقول إن النجاح مربوط بمسائل أخرى كثيرة أهمها تضامن القوى الديمقراطية والمحافظة على حرية الانتخابات واحترام إرادة الشعب احتراماً صحيحاً، ومع تدخل الرجعيين وأصحاب المقامات تدخلاً غير شرعي لصالح هذا الفريق من المرشحين دون صالح الفريق الآخر.

وكنا نقول أيضاً إن غايتنا من الاشتراك في المعركة الانتخابية ليست الوصول إلى المجلس النيابي كيفما اتفق وبأية طريقة كانت - وإن كان هذا من أول وأهم الأمور التي نسعى إليها - بل نريد الوصول بطريقة ديمقراطية دستورية، أي بإرادة الشعب.

وكنا نريد فوق ذلك أيضاً أن يكون اشتراك الديمقراطيين في المعركة الانتخابية واسطة لإظهار القوى والعناصر الديمقراطية وسبيلاً لتجميع وتنظيم القوى والعناصر الشعبية وقد أتبعنا في عملنا الانتخابي منذ اللحظة الأولى هذه الطريقة بصدق وأمانة ولم نخلّ بها لحظة واحدة.

ولكن المؤسف أن اخواننا الديمقراطيين والمرشحين الشعبيين لم يدركوا، على ما يظهر، حقيقة غايتنا، وكان التردد يسود أوساطهم في غالب الأحيان.

وقد تأثر قسم منهم بتهويش الرجعية ووعود بعض المقامات الرسمية والطائفية بالمساعدة إذا هم ابتعدوا عن هذا المرشح الشعبي أو ذاك المرشح الديمقراطي.

فظلت صفوف الديمقراطيين مفرقة، والقوى الشعبية التي تؤيدهم بدون توحيد ولا تنظيم.

ووحد الرجعيون وأبطال العهد البائد صفوفهم، وتناسوا كل أحقادهم وضغائنهم القديمة.

وكانت النتيجة تلك الفضيحة التي فتح الشعب اللبناني عينيه عليها صباح ٢٧ تشرين الأول

« نجاح » الائتلاف على طول الخط. و « فشل » الديمقراطيين على طول الخط.

نعم إن التزوير والتزييف وسوء الائتمان والسرقات، كل ذلك وما إليه قد لعب الدور الأكبر في الوصول إلى تلك النتيجة المزعجة. ولكن التزوير والتزييف وما إليه لم يكن ممكناً بتلك السهولة لو كانت صفوف الديمقراطيين موحدة في جبهة منظمة، ولو كان التضامن سائداً بينهم كما ينبغي.

وها نحن الآن والشعب اللبناني كله في وسط هذه المصاعب الشديدة، والاستياء يعم الجميع، والجميع يتساءلون عن طريق الخروج من هذه الحالة ويطلبون تلك الطريق.

إن الانتخابات النيابية وإن لم تمكن الديمقراطيين من تنظيم صفوفهم من الوصول إلى المجلس النيابي، فقد مكنتهم من شيء آخر هو من الأهمية بمكان عظيم: لقد ساعدت الانتخابات النيابية على إظهار القوى والعناصر الشعبية الديمقراطية في البلاد وأظهرت الانتخابات أن هذه العناصر والقوى مستعدة لكثير من التضحية والاقدام.

فليس من الصحيح القاء مسؤولية الفشل على اكتاف الشعب والاكتفاء بالقول « إن شعبنا ليس فيه حياة » كما تعود الرجعيون أن يتهموه.

بل الصحيح أن الشعب أظهر من التعلق بمرشحيه الشعبيين أكثر مما كان يتوقع المرشحون أنفسهم. فمسؤولية الفشل لا تقع أبداً على الشعب، بل على عدم توحيد القوى الشعبية وتنظيمها، وعلى عدم التضامن بين الديمقراطيين.

كما أن هناك ظاهرات عديدة تدل بوضوح لا يقبل الشك أن العناصر والقوى الديمقراطية ترغب بإلحاح شديد في التنظيم وتوحيد الصفوف. وهناك أيضاً بين المثقفين الديمقراطيين ورجال الحركة الفكرية والسياسية في البلاد ميل شديد إلى التنظيم والتعاون مع كل العناصر الديمقراطية.

لكننا نرى في نفس الوقت تلك الوجوه الرجعية الكالحة تعود من جديد إلى التهويش والتضليل، وتروم من جديد الوقوف دون توحيد الصفوف والتعاون بين الديمقراطيين ذارفة الدمع على لبنان، ونائحة من بؤس الشعب اللبناني. ومثلها في ذلك مثل القاتل الذي يسير في جنازة قتيله.

فهل ينخدع الديمقراطيون اللبنانيون بوعود هذه المقامات الرجعية، وهل يتراجعون مرة أخرى أمام تهويشهم وتضليلهم ويؤخرون خروج لبنان من هذه الحالة السيئة؟، أم يتعلمون من أخطاء الماضي ويتخذون من هذه الأخطاء، دروساً ويسيرون إلينا كما نسير نحن إليهم، ويصافحون اليد الأخوية التي نمدّها لهم فنؤلف جميعاً جبهة لبنانية ديمقراطية موحدة تتعاون فيها تعاوناً صحيحاً كل القوى والعناصر الشعبية الديمقراطية لأجل إنقاذ لبنان من هذه الحالة التي يتخبط فيها والتي لم

يعد الشعب يطيقها.

إننا واثقون بأن اخواننا الديمقراطيين سيلبون رغباتنا ورغبة الشعب الملحة في ضرورة توحيد الجهود وتنظيم الصفوف في الجبهة اللبنانية الديمقراطية بالرغم من كل العوائق.

كانون الأول ١٩٣٧ / صوت الشعب

مصيرنا بعد هذه الحرب

« وليس من ريب أن كل صدمة يلقاها الاستعمار العالمي تؤدي إلى تقوية حركتنا الوطنية التحريرية العربية وتفتح أمامنا أبواباً جديدة أوسع وأرحب للنضال من أجل استقلالنا وحرياتنا ».

« فمصير العالم بعد هذه الحرب، لن تقرره حفنة من الساسة حول مائدة مستديرة أو مستطيلة. إن الشعوب نفسها ستقرر مصيرها بنفسها. وبمقدار ما يكون اشتراك كل شعب الآن في النضال ضد الاستعمار الهتلري يكون تأثير هذا الشعب في تقرير مصيره، إن النضال الوطني الأعظم الآن هو النضال ضد الاستعمار الهتلري ولذلك دعونا وندعو جميع العرب إلى الانتظام انتظاماً نشيطاً في جبهة أعداء النازية والفاشيستية والاشتراك في سحق الوحش الهتلري ».

من مقال له في صوت الشعب ١٩٤٢/٥/٤

بين المعسكرين

« بين المتربصين والمنتظرين جماعة كبيرة حاربنا وإياهم من قبل الدعاية النازية وطابورها الخامس، وهم أنفسهم قد ذاقوا من محاربة الطابور الخامس لهم ما لا ينسونه أفلا يجدر بهم الآن أن يعيدوا النظر في موقفهم وأن يفحصوا سلوكهم على أساس تقدير المخلصين وتقدير غير المخلصين؟ من يؤيدهم في موقف التربص ويشجعهم عليه؟. أليس دعاة النازية؟ أليس الطابور الخامس؟. ومن يحثهم على ترك موقف التربص والخروج من ذلك الانعزال المظلم؟. أليس المناضلون الواعون المخلصون؟، ويكفي هؤلاء الاخوان المتربصين أن يرد الطابور الخامس راضياً عن سلوكهم حتى يقتنعوا بخطأ موقف المتربصين وبضرورة اتخاذ موقف صريح.

من افتتاحية له في صوت الشعب ٦ / ٢ / ١٩٤٢

لبنان في طريق تطوره الطبيعي

وليس من ريب في أن الحكومة اللبنانية تدرك أن أمامها مصاعب كثيرة، ودون تنفيذ السياسة التي أعلنتها عقبات كثيرة، والوسيلة الوحيدة للتغلب على المصاعب وتذليل العقبات هي الاستناد إلى الشعب بتخفيف بؤسه ومعالجة مشاكله اليومية كلها وحلها حلاً ملائماً، ونشر روح الديمقراطية في البلاد، وبانتهاج سياسة حكيمة رشيدة منصفة لجميع الطبقات والمناطق تساعد على توحيد صفوف الشعب ونشر روح الآخاء والتضامن في جماهيره.

من افتتاحية في صوت الشعب تشرين أول ١٩٤٢

الصهيونية المجرمة
خطرها في لبنان خطرها في بلاد العرب

« ... ولذلك فلا مجال للتقليل من أهمية الخطر الصهيوني على لبنان لا من الوجهة الاقتصادية ولا من الوجهة السياسية. فإذا كان اللبنانيون قد ناضلوا ويناضلون لتوطيد حقوقهم الوطنية وللتخلص من النفوذ الاستعماري الأجنبي، فإن تسرب الصهيونية إلى البلاد سيكون من أول أخطاره المباشرة المساعدة على تمكين نفوذ أجنبي آخر في وطننا، وهو أشد ما يخشاه ويحاربه كل لبناني. وكفى بهذا حافزاً لجميع اللبنانيين على اختلاف ميولهم السياسية وعقائدهم الدينية أن يهبُّوا جميعاً ويوحدوا الصفوف والكلمة في مكافحة تسرب الصهيونية إلى لبنان من جهة وفي التضامن مع فلسطين العربية في نضالها ضد هذا الخطر من جهة ثانية ».

« لقد كنا وما نزال نقول إن نضال العرب في فلسطين ضد الصهيونية هو نضال سياسي، نضال وطني ضد شكل من أبشع أشكال الاستعمار الأجنبي. وجميع العرب في لبنان وفي كل مكان يعتبرون نضال فلسطين هذا جزءاً من نضالهم الوطني جميعاً في سبيل تحرر أقطارهم وسيادتها واستقلالها ».

صوت الشعب ١٩٤٢

نحن يا سادة ديمقراطيون

« نحن يا سادة ديمقراطيون والديمقراطية تعني حكم الشعب، وحكم الشعب معناه في نظرنا، ويجب أن يكون معناه في نظر الجماهير، خبزاً وكرامة وثقافة وراحة فكر، لا لأقلية ضئيلة من الشعب، بل للشعب بأسره ».

« ونحن نسعى لتحقيق هذه الديمقراطية في لبنان، ونعلم أننا لا نستطيع تحقيقها وحدنا، إننا نعلم أن اتحاد جميع اللبنانيين يمكنه فقط أن يحقق هذا الهدف الكبير. ونحن لسنا نبغي أبداً زعامة زعيم يحب لبنان، ولا القضاء على وجاهة وجيه يحب لبنان. إننا نمد يدنا لجميع الزعامات والمقامات والوجاهات سواء كانت لرجال الدنيا أو الدين لأجل توحيد القوى والاتجاه بها إلى تحقيق المثل الأعلى الذي ينشده جميع اللبنانيين وهو العيش بكرامة وهناء واستقلال ».

من خطاب ألقاه في مهرجان انتخابي في جبيل
١٩٤٣/٥/٦ ونشر افتتاحية في « صوت الشعب »

منبع قوة الجيش الأحمر

... فالجيش الأحمر هو جيش الاتحاد والاخاء بين جميع شعوب الاتحاد السوفياتي، وجيش الدفاع عن حرية هذه الشعوب واستقلالها وقد برهن هذا الجيش الذي يضم كثيرين من قواد وجنود ينتمون إلى القوميات الصغيرة في الاتحاد السوفياتي، ان المجد العسكري لم يبق وقفاً على الأمم الضخمة والشعوب الكبيرة، لقد برهن الجيش الأحمر جيش الشعوب والقوميات المتآخية المتضامنة، أن الشعوب الصغيرة مثلنا يمكنها هي أيضاً أن تطمح إلى مجد عسكري وفخر عسكري.

من خطاب له ألقي في قاعة الباريزيانا ببيروت في ٢٤ شباط ١٩٤٣ بمناسبة عيد الجيش الأحمر ونشر في « صوت الشعب » تحت عنوان: « الديمقراطية السوفياتية منبع قوة الجيش الأحمر ».

لبنان وسلامة حدوده

« لقد قلنا ولا نزال نقول إن السياسة الوطنية الرشيدة، ليس معناها احتقار لبنان، وكره لبنان وبغض لبنان. وقلنا ولا نزال نقول إن السياسة اللبنانية الرشيدة أيضاً ليس معناها مقاطعة جيران لبنان، والنفور من جيران لبنان، وتفضيل الأباعد على جيران لبنان ». « كما أن لبنان المستقل المتمتع بحريته الوطنية، لا يشكل أي خطر على سوريا، أو أي قطر عربي آخر، بل هو عون وقوة لجميع الأقطار العربية، وسوريا والأقطار العربية الأخرى، تشكل بدورها ضمانة لاستقلال لبنان وحريته الوطنية وعزته بمقدار ما تتمتع به من حرية وطنية واستقلال ».

صوت الشعب - ١٩٤٣/١٠/١١

الحركة الوطنية اللبنانية

ليست وليدة حوادث طارئة

« ... ولكن من الصعب أن ينجح دعاة التفرقة بعد اليوم في بلوغ أهدافهم: فالحركة الوطنية

اللبنانية التي شملت لبنان كله، بمدنه وقراه، ليست وليدة حوادث طارئة تزول بزوالها، بل هي تعبير عن رغبة كانت تجيش بها صدور الوف اللبنانيين الوطنيين الذين يحبون الحرية ويأبون العبودية. وكانت الحوادث الأخيرة مناسبة لظهورها وبروزها».

«ولم يكن مؤتمرنا الوطني اللبناني الذي انبثق إبان المعركة الأخيرة، وضم جمهرة من الوطنيين العاملين، إلا مظهراً من مظاهر السعي الواعي إلى توحيد الصفوف وجمع الكلمة حول هدف واحد هو تحررنا الوطني من كل نفوذ أجنبي، ونحن واثقون أن كل وطني في لبنان مهما كان حزبه، ومهما كانت طبقته، ومهما كانت منطقته، ومهما كان دينه يجد في المؤتمر الوطني اللبناني أفضل شكل لضم الجهود الوطنية وتنظيمها وتوجيهها نحو تحقيق غايات الوطن العليا، الحرية والاستقلال.

«من خطاب له باسم المؤتمر الوطني اللبناني من على درج البرلمان بمناسبة استقبال عبد الحميد كرامي القادم من طرابلس»
صوت الشعب ـ ١٩٤٣/١٠/١٢

الحركة الوطنية تسجل أول انتصاراتها

«... وإذا كان اللبنانيون قد حملوا في القرن الماضي مشاعل النهضة الأدبية والفكرية في الشرق العربي، وخلقوا لنا تراثاً نزهو به ونفاخر، فيحق لنا، بعد الذي شهدناه من نضال لبنان الأخير، أن نتوقع أن يكون هذا الساحل العربي منبت حركة وطنية جديدة أكثر وعياً وأسلم فحوى تحتل مكاناً في الطليعة بين الحركات الوطنية في الأقطار العربية الشقيقة».

«وكل وطني لبناني واع، شيوعياً كان أو غير شيوعي، يعلم اليوم أن المحافظة على الانتصار الذي أحرزته قضية لبنان الوطنية، يقتضي المحافظة على اتحاد اللبنانيين وتقوية هذا الاتحاد، وأن الانتقال إلى انتصارات وطنية أخرى يقتضي أيضاً المحافظة على الاتحاد وتقويته وتنظيمه».

«ولا ريب أن كل وطني عربي صادق في لبنان وسوريا ومصر والعراق وغيرها قد أدرك اليوم، أكثر من أي وقت آخر، أن التقارب بين الشعوب العربية أساسه تضامن هذه الشعوب في نضالها من أجل تحررها الوطني وحقوقها وكراماتها. وأن هذا التضامن بين العرب لأجل حرية كل قطر عربي واستقلاله هو الهدف الأكبر والغاية السامية للحركة التحررية العربية بأسرها».

«من مقال الحركة الوطنية تسجل أول انتصاراتها»
صوت الشعب ـ ١٩٤٣/١١/٢٧

حريصون على كيان لبنان
وشخصيته وخصائصه

ورداً على من كانوا مطية للاستعمار. في ركبه يسيرون، وفي سيفه يضربون، ثم يأتون ويتظاهرون بأنهم حريصون على كيان لبنان الذي ـ حسب زعمهم ـ أصبح بعد الاستقلال الوطني مهدداً بالخطر، لهؤلاء قال فرج الله الحلو في مقالة له نشرت في «صوت الشعب».

«... وإذا كنا نقول بأن لبنان هو قطر عربي فذلك لا يمكن أن يكون معناه أننا نريد التفريط بكيان لبنان أو تضييع شخصيته أو انكار خصائصه. أما الذين لا يقولون بعروبة لبنان ويقولون إن للبنانيين نسباً آخر، فلا يجب أن يدفعهم اعتقادهم ذاك إلى مسلك يؤدي لإخفاق الوحدة الوطنية الداخلية، ولا يجب أن يكون اعتقادهم سبباً للنفور الأعمى من كل شيء يقال له عربي، ودافعاً لهم لاتخاذ موقف عدائي من الأقطار العربية جملة، ولرفض كل علاقات لبنان بالأقطار العربية المجاورة والبعيدة. إن القضية العربية بنظرنا ليست قضية عاطفية ولا يجوز أن يحدد أحد الفريقين موقفه منها على أساس عاطفي، بل يجب النظر إليها من وجهة أساس المصلحة الوطنية الحقيقية».

أواخر سنة ١٩٤٣

نحن نحب وطننا اللبناني

«نحن نحب وطننا اللبناني الجميل الصغير ونعلم أن ليس لنا وطن غيره، ولذلك نريده وطناً قوياً حراً ومحترماً، نريده وطناً يعيش فيه أبناؤه عيشاً هانئاً هادئاً، فلم يكن لبنان قط في نظرنا جبالاً جيلة فحسب، ولا سهولاً خصبة فحسب، ولا ماء عذباً وهواء طيباً فقط. إن لبنان هو في نظرنا، ذلك كله، وفوق ذلك كله، شعب لبنان. إن لبنان في نظرنا، هو اطفال لبنان وأمهات لبنان وصبايا لبنان وشباب لبنان. إن لبنان في نظرنا، ليس فقط أقلية ضئيلة من المنعمين المترفين، بل هو جميع اللبنانيين».

من خطاب له في برج حمود ألقي في ١٩٤٣/٦/١٩
بمناسبة اندحار المحور في أفريقيا.

لكي يكون العهد للشعب كله

«وإذا اغتبطنا اليوم لنشوء الأوضاع الوطنية الجديدة في سوريا ولبنان، فلأننا نعتقد أن هذه الأوضاع يجب أن تكون مرحلة استعداد لمجابهة الأحداث المقبلة حينما توضع أمام بلادنا قضية تقرير المصير. بل نحن نعتقد أن هذه الأوضاع لا يمكن أن تتوطد وترسخ وتسير في طريق تطورها

المنطقي إلا إذا أدرك المقيمون عليها أنها أوضاع يجب الاستفادة منها إلى أقصى حد استعداداً ليوم تقرير المصير.

« على هذا يجب أن يعين رجال الحكم والبرلمان سلوكهم وسياستهم. وأول ما يجب عمله وأحسن ما يمكن عمله في هذا السبيل هو اتباع سياسة تجعل الشعب في سوريا ولبنان يشعر ويقتنع أن هذا العهد الوطني ليس عهد أشخاص وعائلات، ولا عهد حزب أو هيئة من الهيئات، بل هو للشعب كله بمختلف أفراده وأحزابه وهيئاته. ولن يشعر الشعب أو يقتنع أن هذا العهد هو عهده إلا إذا انتفع بنعمه وتمتع ببركاته ».

من افتتاحية له في صوت الشعب ١٩٤٣/١٠/٣١

في استقبال عبد الحميد كرامي

« ... ولكن من الصعب أن ينجح دعاة التفرقة بعد اليوم في بلوغ أهدافهم. فالحركة الوطنية اللبنانية التي شملت لبنان كله بمدنه وقراه، ليست وليدة حوادث طارئة تزول بزوالها، بل هي تعبير عن رغبة كانت تجيش بها صدور ألوف اللبنانيين الوطنيين الذين يحبون الحرية ويأبون العبودية، وكانت الحوادث الأخيرة مناسبة لظهورها وبروزها.

« ولم يكن مؤتمرنا الوطني اللبناني الذي انبثق إبان المعركة الأخيرة، وضم جمهرة من الوطنيين العاملين، إلا مظهراً من مظاهر السعي الواعي إلى توحيد الصفوف وجمع الكلمة حول هدف واحد هو تحررنا الوطني من كل نفوذ أجنبي ونحن واثقون أن كل وطني في لبنان مهما كان حزبه ومهما كانت طبقته، ومهما كانت منطقته، ومهما كان دينه، يجد في المؤتمر الوطني اللبناني أفضل شكل لضم الجهود الوطنية وتنظيمها وتوجيهها نحو تحقيق غايات الوطن العليا، الحرية والاستقلال ».

من خطاب له باسم المؤتمر الوطني من على درج البرلمان بمناسبة استقبال عبد الحميد كرامي القادم من طرابلس ١٩٤٣/١٢/٢.

لبنان والانتداب

« .. فنحن لا ننسى أبداً أن بين النضال لأجل تحررنا الوطني، وبين السعي لتبديل نير بنير، حدوداً واضحة بيّنة، لا نتعدّاها، ولا يمكن أن يحملنا أحد على تعديها. إننا لا ننكر ولا نتجاهل المحاولات القائمة هنا وهنالك تحت الوان مختلفة، لاستغلال نضالنا التحريري، وطموحنا القومي من أجل احلال نفوذ استعماري جديد محل نفوذ قديم، أو من أجل اقتسام النفوذ. لكن ذلك لا يمكن أن يدفعنا إلى الانكماش والكف عن مناضلة النفوذ القديم بحجة الخوف من النفوذ الجديد. بل

نحن نعلم أن النضال الفعّال ضد نفوذ استعماري معيّن، هو في الوقت نفسه نضال فعّال ضد كل نفوذ استعماري على الإطلاق. وقد برهنت حوادث لبنان الأخيرة هذا الأمر خير برهان. كما أن استياءنا من سياسة هذه الدولة الاستعمارية لا يدفعنا أبداً إلى الارتماء بأحضان دولة استعمارية أخرى».

من افتتاحية في «صوت الشعب» كتبها الشهيد بتاريخ ١٩٤٣/١٢/١٥.

• من التقرير التنظيمي أمام المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي

«... لا يكفي أن يكون للحزب نظرية ثورية علمية، ولا يكفي أن يكون للحزب سياسة صحيحة وخطة صحيحة، موضوعة في ضوء النظرية الثورية، أجل لا يكفي ذلك لتطور الحزب لنموه واتساع نفوذه، لا يكفي ذلك لجعل الحزب قوياً وقادراً على تذليل المصاعب والانتصار على العقبات.

فالسلاح الثاني، الذي يعتمده الحزب في نضاله هو التنظيم، التنظيم هو الذي يعطي نظرية الحزب وخطته السياسية قوتها ومعناها.

فالحزب الشيوعي لا يمتاز فقط بإخلاص أعضائه وشجاعتهم وتفانيهم وحسن تقديرهم وفهمهم، ولا يمتاز فقط بأن له نظرية ثورية اجتماعية وسياسية وفلسفية يستطيع، في ضوئها، أن يقرر الخطة السياسية الصالحة لكل مرحلة من مراحل نضاله الوطني التحريري، بل يمتاز أيضاً، فوق هذا كله، بنوع تنظيمه وشكل بنائه الداخلي».

صوت الشعب - ١٩٤٣/١٢/٣١

العناية بصحة الشعب

«وأكبر واجب وطني وإنساني في الوقت الحاضر هو اعطاء مصلحة الصحة نصيباً كبيراً جداً من موازنة الدولة حتى تستطيع القيام بواجبها قياماً صحيحاً. وأول ما يجب الانصراف إليه هو تنظيم دوائر الصحة تنظيماً عصرياً، وجعل مراكز المعاينة المجانية في جميع المناطق كافية لحاجات السكان بعد تجهيزها بأطباء اكفاء امناء صادقين، مع توفير الأدوية اللازمة وتوزيعها بدقة وضبط على المحتاجين. إن الشروط الصحية الطبيعية المتوفرة في لبنان، لا تكفي وحدها لحماية الصحة اللبنانية، فيجب أن يوآزرها الانسان. إننا نطالب أن تكون نسبة الزيادة في ميزانيتي الصحة والتعليم متفقة مع الواجبات الكبيرة المطلوبة من هاتين المصلحتين الوطنيتين في الدرجة الأولى».

من افتتاحية له في «صوت الشعب» بعنوان «التعليم والصحة ينبغي إعطاؤهما من ميزانية الدولة النصيب المتكافىء مع أهميتها الوطنية» ٢٣ / ١ / ١٩٤٣.

القضايا الاجتماعية وصلتها الوثقى بالقضية الوطنية

« والاستقلال السياسي يسعى إليه الوطنيّون الواعون أفراداً وجماعات وأحزاباً، ليست غايته إلا إزالة العوامل التي تعوق حل هذه المشاكل والقضايا وتحول دون معالجتها بنجاح، فتمنع تقدم البلاد ورقيّها المتتابع وازدهارها. ولذلك فكل حق وطني جديد نناله يجب استخدامه بلا ابطاء وإلى الحد المستطاع لمعالجة كل هذه المشاكل وايجاد الحلول الصالحة لها في كل مرحلة معينة. لأن خطوات جديدة نحو اكتمال تكوننا القومي وتمتين وحدتنا الوطنية، وإزالة بقايا العهود البائدة، من نعرات طائفية، وتقاليد اقطاعية، ونزعات عائلية واقليمية. وبذلك نصبح أكثر فأكثر امة متلاحمة الاجزاء، وفي درجة من التجانس والانسجام.

ولذلك فكل نضال لأجل حل هذه المشاكل الفرعية يبقى نضالاً قليل النفع والاثر إذا لم يعمل جميع المواطنين متحدين لإزالة العائق الأكبر في طريق تقدم البلاد وتطورها المادي والثقافي والسياسي، أي إذا لم يعملوا لتحقيق تحررها الوطني الصحيح، وسيادتها الوطنية التامة ».

(مجلة الطريق ٣١ كانون الثاني ١٩٤٤)

العهد الوطني والقضايا الاجتماعية

« يظن بعض المشتغلين بالسياسة، في بلادنا، أن القضية السياسية هي القضية الوطنية الوحيدة التي ينبغي حصر الجهود بها دون سواها، وهم يرون أن كل جهد يبذل لغيرها يسيء إلى المصلحة الوطنية، لأنه يؤدي، في نظرهم، إلى تبديد الجهود وإضعاف الصف الوطني...

وهناك، من جهة ثانية، فريق آخر ينكر أهمية القضية السياسية ويقول بضرورة حصر الجهود بالمسائل الأخرى الإصلاحية من اجتماعية واقتصادية وغيرها.

والواقع أن هذين الرأيين، على ما يبدو في كل منهما من وجاهة، غير صائبين من الناحية الوطنية. وكل من الفريقين ينظر إلى المسألة من ناحيته وحدها ويهمل النظر إلى النواحي الأخرى. فخطأ الفريق الأول هو في أنهم يجهلون جوهر القضية السياسية وطبيعة تركيبها، فيحاولون فصلها عن بقية المسائل الوطنية وحلّها بمعزل عنها.

وخطأ الفريق الثاني هو في جهله أن جميع المسائل الوطنية، من اجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها لا يمكن أن تحل حلاً ملائماً بمعزل عن القضية السياسية. فالاستقلال السياسي هو الذي يزيل العوائق الكبرى التي تحول دون حل تلك المسائل الوطنية.

ولذلك فالقضية الوطنية الكبرى، في لبنان وسوريا، وفي كل قطر عربي آخر، هي، بإجماع آراء الوطنيين الواعين، قضية التحرر الوطني الكامل، والتخلص من كل نفوذ أجنبي سياسي أو اقتصادي من شأنه أن يؤثر في سياسة أي قطر من هذه الأقطار، فيوجهها وجهة غير متفقة تماماً مع مصالحه الوطنية الحقيقية».

من محاضرة للشهيد في راديو الشرق وقد نشرت افتتاحية في «صوت الشعب» بتاريخ ١٩٤٤/٢/١٢

لا يمكن إرجاع لبنان إلى الوراء

«إنهم لم يفهموا ولا يستطيعون أن يفهموا أن لبنان الحاضر قد بلغ هذا الشأن من الاستقلال والحقوق الوطنية بفضل عوامل قوية ثابتة ناشئة من لبنان نفسه وتستمد قوتها من اللبنانيين أنفسهم. إنهم يجهلون ولا يستطيعون أن يفهموا أن هذه العوامل أساسها الروح الجديدة، روح التحرر الوطني الصاعدة في كل الدنيا. إنهم لا يستطيعون أن يفهموا أن لبنان أخذ يسير في طريق التقدم والتحرر الوطني بفضل هذه العوامل التي تشتد قوتها ويقوى أثرها يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة، كلما قربت الهتلرية من قبرها، إنهم يجهلون حتى لو قدر لقوى الرجعية والتأخر ـ وهذا بعيد جداً ـ أن ترجع لبنان مؤقتاً إلى الوراء، فسيكون ذلك لمصلحة اسياد جديدين وخدم جديدين أيضاً، ولن يكون للسادة القدم ولا للخدم القدم من وراء ذلك أي نصيب.

ولكن لا يمكن إرجاع لبنان إلى الوراء بعد الآن. فالقوى التقدمية في لبنان وفي الدنيا أرجح كفة من قوى التأخر في لبنان وفي الدنيا».

من افتتاحية للشهيد في صوت الشعب بتاريخ ١٩٤٤/٤/٣٠

لماذا نؤيد العهد الوطني

«... أجل إننا نؤيد هذا العهد ونناضل من أجل توطيده ونجاحه، ونريد أن يناضل معنا جميع الوطنيين اللبنانيين الواعين، من تجار ورأسماليين ومثقفين وطلاب وشباب وعمال وفلاحين، ولكننا لا نتجاوز في تأييدنا، عن الأخطاء والعيوب، ولا نتغاضى عن أنواع التقصير والتصرفات الضارة، من أية جهة كانت. إلا أن انتقادنا للأخطاء والعيوب مستمد من حرصنا على هذا العهد ومن رغبتنا الصادقة في توطيده وأطراد نجاحه».

من افتتاحية للشهيد في صوت الشعب بتاريخ ١٩٤٤/٤/١٦

لبنان وقضية التضامن العربي

« إن لبنان عربي الوجه والروح. أما هذه الخصائص التي نشاهدها في لبنان والتي يستند إليها بعض الناس أحياناً لنفي العروبة عن لبنان فما هي في الواقع سوى مظاهر لبعض نواحي التطور التي سبق فيها لبنان سائر الاقطار العربية. صحيح أن للبنان كما لكل قطر عربي آخر ميزات إقليمية خاصة لكن ذلك أيضاً لا يزيل الطابع العربي العام. ووقائع الحياة نفسها تعطينا كل يوم براهين على أن لبنان هو بلد عربي في كل شيء، بل هو يمثل في كثير من النواحي خطوط التطور المقبل للاقطار العربية ».

« فالتعاون العربي، لكي يعطي نتائجه المبتغاة، يجب أن يكون شعبياً يتناول الجماهير ويستهدف تحقيق التضامن على أوسع حد مستطاع بين الشعوب العربية في نضالها من أجل استقلال كل قطر من اقطارها وتحريره الوطني من النفوذ الاجنبي ».

من ردّ على سؤالين وجهتها إليه جريدة الصفاء

ونشر الرد افتتاحية في صوت الشعب بتاريخ ١٧ ـ ٥ ـ ٤٤

فلتحيا فلسطين عربية مستقلة

« ... لذلك فكل حزب وطني لبناني، بل كل مواطن لبناني على الإطلاق، مهما كان موقفه السياسي ورأيه، ومهما كانت طبقته الاجتماعية، سواء كان رأسمالياً أم عاملاً، فلاحاً أم تاجراً، مثقفاً أم طالباً، يبقى نضاله في سبيل استقلال لبنان ناقصاً وتظل سياسته الوطنية غير رشيدة إذا لم يكافح الصهيونية وشركاءها في لبنان، وإذا لم يتضامن مع فلسطين العربية الشقيقة الشهيدة ويعاونها في النضال ضد هذه الأمة البغيضة، آفة الصهيونية ».

« ... لذلك ينبغي أن نحارب الصهيونية وأن نفضح كذبها على الديمقراطية والاشتراكية وندحض افتراءها على العرب وعلى أهداف نضالهم الوطني التحرري. إن الديمقراطية الصحيحة تبرأ من الصهيونية. والديمقراطيون الحقيقيون يعرفون ويؤمنون أن الفلاح العربي والبدوي العربي والاقطاعي العربي، حين يكافح الصهيونية في فلسطين ويدافع عن أرضه ويناضل لأجل استقلال وطنه وتحريره هو أقرب إلى الديمقراطية والاشتراكية من أي صهيوني أو أي نصير للصهيونية. ولو نُسب إلى أكبر الأحزاب الديمقراطية والاشتراكية في أوروبا أو اميركا ».

« ولقد كان الأجدر بالذين يدعون العطف على اليهود، ويزعمون أنهم يريدون انقاذهم في المستقبل من الاضطهاد، أن يعلموا أن القضية اليهودية لا يمكن أن تحل في فلسطين على حساب فلسطين. بل بالسعي إلى القضاء على مبادىء الطغيان والاستعمار واستئصال جذور الفاشيستية والعرقية من العالم كله. وبناء عالم ديمقراطي جديد تتأمن فيه لكل شعب ولكل أقلية ولكل فرد إمكانيات العيش بأمان واطمئنان».

من خطاب له بمناسبة المهرجان الكبير الذي اقامه «اتحاد الاحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية» في سينما روكسي بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٩٤٤

السلاح المطلوب للتغلب على المصاعب

« وقد قلنا مراراً ولا بأس من إعادة القول الآن بأن حل المصاعب الداخلية وتحسين أحوال الشعب، وتخفيف بؤسه والعمل على تأمين تموينه وإعاشته، كل ذلك لا بد منه كسلاح للتغلب على المصاعب الخارجية ورد أخطارها. فهذه الحقوق الوطنية التي انتزعها الشعب بنضاله تزداد توطيداً ورسوخاً، ويزداد الأجنبي لها احتراماً، بمقدار ما يتمتع بها الشعب، وبمقدار ما تستخدم لتحسين أحوال معيشته ورفع مستوى حياته.

إن مكافحة الغلاء هي الواجب الوطني الأول لكل حكومة تريد أن تكون وطنية قولاً وفعلاً والشعب في مكافحته الغلاء ومكافحة أبطاله المحتكرين والمضاربين إنما يكافح أبشع أعداء الوطن وأخطر خدم كل أجنبي مستعمر طامع».

من افتتاحية صوت الشعب ١٧ - ١٢ - ٤٤

الحرية بدأت هجومها

« ... وقد اكتسبت الحركة الشيوعية في لبنان وسوريا، كما في غيرهما من أقطار الدنيا، حق الوجود والبقاء، لأنها أثبتت نظرياً وعملياً أنها حركة وطنية من درجة عليا. وقد تبدد الحذر القديم عند الشعب نحو الشيوعيين، وتبدل بثقة تنمو وتكبر نحو الحزب الشيوعي، ونحو سياسته وأهدافه، وباتت الشيوعية حركة مشروعة قانونية، وأصبح الذين يحاربونها عرضة للتهمة والحذر، لأن الحوادث قد تضافرت على الإثبات أن محاربة الشيوعية كانت دائماً ستاراً للخيانة الوطنية. وأصبح اشتراك الشيوعيين في كل حركة وطنية ضمانة، في نظر الشعب، على صدق تلك الحركة، ومبعثاً على الأمل بنجاحها».

(من افتتاحية في صوت الشعب ١٩٤٥/١/١)

في مهرجان أول نوار بالدوره

في عيد أول نوار سنة ١٩٤٥، ألقى فرج‌الله الحلو خطاباً كبيراً في المهرجان الذي أقامه الحزب الشيوعي في محلة «الدوره» تحدث فيه عن سياسة الاتحاد السوفياتي، قال:

«.. ولا ريب أن وضع لبنان الجغرافي، ومصلحة توطيد موقفه الدولي تجاه المطامع الاستعمارية التي تتطاحن حوله، كل ذلك يجعل من أول الواجبات الوطنية السعي إلى توطيد وتوسيع علاقات الصداقة مع الاتحاد السوفياتي العظيم. فلقد برهن الاتحاد السوفياتي في جميع علاقاته الخارجية منذ وجد حتى اليوم، أنه يحترم حقوق جميع الشعوب، كبيرها وصغيرها، في التصرف بنفسها وتنظيم حياتها الوطنية كما تشاء، وبرهن الاتحاد السوفياتي أن طبيعة نظامه الاشتراكي تجعل من المستحيل أن يكون له أي مطمع في أرض غيره».

وتحدث عن القضية العربية فقال:

«لقد حدد حزبنا الشيوعي موقفه من هذه القضية بوضوح وصراحة في أكثر من مناسبة واحدة. ولسنا نريد أن يكون اختلاف الرأي حول نسب لبنان في بعض الحلقات والأوساط اللبنانية، سبباً لانقسام الصفوف الوطنية اللبنانية، ومثاراً للنزاع بين فريقين من المواطنين اللبنانيين. ومانعاً من التعاون في سبيل استقلال لبنان وحريته وسيادته وازدهاره.

وإذا كنا نحن نقول إن لبنان هو قطر عربي فذلك لا يمكن أن يكون معناه اننا نريد التفريط بكيان لبنان أو تضييع شخصيته أو إنكار خصائصه. أما الذين لا يقولون بعروبة لبنان ويقولون إن للبنانيين نسبا آخر، فلا يجب أن يدفعهم اعتقادهم ذاك إلى مسلك يؤدي لإضعاف الوحدة الوطنية الداخلية. ولا يجب أن يكون اعتقادهم سبباً للنفور الأعمى من كل شيء يقال له عربي. ودافعاً لهم لاتخاذ موقف عدائي من الأقطار العربية جملة. ولرفض كل علاقة للبنان بالاقطار العربية المجاورة والبعيدة.

إن القضيـة العربية ليست في نظرنا قضية عاطفية. ولا يجوز أن يحدد أحد الفريقين موقفه منها على أساس عاطفي بل يجب النظر إليها من وجهة علمية واقعية على أساس المصلحة الوطنية الحقيقية.

نقول هذا ونحن نعلم أن قضية نسب لبنان ما كانت لتوضع على بساط البحث لولا أن اراد فريق من الناس، لخدمة سياسة معينة، تقرير نسب خاص للبنان كما أن فرقاء آخرين كانوا يلحون في نفي هذا النسب الخاص لا تقيداً بواقع التاريخ بل خدمة لسياسة معينة أخرى. أما الآن

وقد تعينت السياسة اللبنانية بخطوطها الكبرى وباعتراف البلاد العربية وهي: استقلال لبنان وسيادته التامة بحدوده وتعاون أخوي مع شقيقاته العربيات فلم يبق من مجال للاجتهاد أو للتخوف في هذا المضمار.

وينبغي لبعض المترددين أن يدركوا بعد الآن أن كون لبنان بلداً عربياً لا يقتضي أبداً إرجاعه إلى مرحلة متأخرة من التاريخ، ولا وقف سير تطوره. مع العلم أن لبنان لم يبلغ الذروة في تطوره بل هو لا يزال في أول الشوط.

إن رأينا في قضية التعاون العربي كان صريحاً منذ البدء ولا يزال. فالتعاون بين الأقطار العربية لا يمكن أن ينحصر في تبادل المنافع الاقتصادية والعلاقات الثقافية، مهما بلغت أهمية هذه الأمور.

هذا شيء مسلم به في معظم الأوساط العربية. فهناك قضية التعاون العربي في الناحية السياسية. وفي رأينا انه لا يكفي ولا يمكن قصر هذا التعاون على النطاق الرسمي أي نطاق الاتصال بين الحكومات العربية. وكثيراً ما اظهرت الحوادث قريبها وبعيدها أن خير شكل للتعاون العربي هو التعاون في الميدان الشعبي.

أما الهدف الأكبر لهذا التعاون فهو تحقيق التضامن بين الشعوب العربية في النضال لتحرير كل قطر من أقطارهم من النفوذ الأجنبي الاستعماري. ومن المعلوم أن القضية العربية على شدة تشابهها بين قطر وقطر، لا تخلو من بعض فوارق وخصائص. فقضية مصر مثلاً تختلف بعض الشيء عن قضية سوريا ولبنان، وقضية هذين البلدين مثلاً ليست كقضية فلسطين. وكذلك نجد لقضية العراق خصائصها وميزاتها. فاذا كان على الشعب المصري والشعب العراقي أن يناضلا لاستكمال استقلالها وإنجاز تحرير وطنيها من النفوذ الأجنبي، فعلى فلسطين أن تناضل للخلاص من الانتداب ومن الصهيونية، وعلينا في سوريا ولبنان أن نناضل لتثبيت هذا القدر من الاستقلال والسيادة الوطنية وتصفية جميع الشؤون المعلقة مع الجانب الفرنسي، والعمل على إلغاء كل نص دولي يسمح لأية دولة أجنبية بالتدخل في أمورنا، ثم متابعة النضال للتحرر الوطني التام من كل نفوذ أجنبي قديم أو جديد.

فالتعاون العربي، لكي يعطي نتائجه المبتغاة، يجب أن يكون شعبياً يتناول الجماهير ويستهدف تحقيق التضامن على أوسع حد مستطاع بين الشعوب العربية في نضالها من أجل استقلال كل قطر من أقطارها وتحريره الوطني من النفوذ الاجنبي.

أما أشكال التعاون العربي الأخرى في جميع الميادين فهي تؤدي إلى الغرض المطلوب منها بمقدار

ما تؤدي إلى تنمية هذا التضامن ».

من خطاب للشهيد في مهرجان عيد أول نوار في محلة (الدورة) ٣ - ٥ - ١٩٤٥ .

لتكن هذه الفترة فترة
العمل الجدي للاتحاد الوطني

« .. وكذلك أصبح كل وطني مخلص واع يدرك أن السياسة الوطنية الصحيحة القائمة على العناية بمعيشة الشعب وصحته وثقافته، هي الوسيلة الكبرى لرد الهجمات الرجعية الاستعمارية من أية جهة جاءت، كما أنها من العوامل الفعالة في جمع الكلمة وتوحيد الايدي والقلوب لأجل صون حق لبنان في الحرية والاستقلال. ويدرك كل وطني مخلص أن السياسة الوطنية الصحيحة التي تكسب لبنان احترام جميع الاوساط الديمقراطية، وتأييدها لقضيته في العالم، هي السياسة القائمة على تشجيع الديمقراطية، ونبذ كل آثار وبقايا الفاشيستية والمنظمات النازية القديمة زارعة الشغب. إن هذه السياسة ترفع مكانة لبنان في اعين الامم الديمقراطية فتزداد حماسة في تأييد قضيتنا وعطفاً على حقوقنا، كما أنها تؤدي إلى تنظيف حركتنا الوطنية من جميع العناصر الخائنة الضارة المستعدة لطعن نضالنا الوطني من خلف عند الساعات الحاسمة ».

(صوت الشعب ٢٣ / ١٩٤٥)

لتحيا سوريا الباسلة حرة مستقلة

« إننا واثقون من أن اخواننا السوريين سيخرجون من هذه المعركة، كعادتهم في ماضي نضالهم المجيد الطويل، وهم أقوى عزيمة وأمتن اتحاداً، وأشد استعداداً لتوطيد استقلالهم وحريتهم وسيادتهم، وصون جمهوريتهم العربية الفتية.

واللبنانيون يعلمون أن الدماء العزيزة التي اريقت في ساحات دمشق وشوارع حلب، لم تبذل في سبيل حرية سوريا وحدها، بل في سبيل حرية لبنان أيضاً. ولبنان يعاهد سوريا الشقيقة اليوم أنه إلى جانبها ولن يتخلف عن النضال في سبيل حريته واستقلاله وسيادته، وصون جمهوريته الفتية الحبيبة ».

من مقال، صوت الشعب في ٤٥/٦/٣

لبنان وسوريا يريدان
أن يتحررا من كل استعمار

« لقد ناضل شعب لبنان وشعب سوريا خلال خمس وعشرين سنة، ليتحررا من الانتداب والاستعمار، وفي سبيل هذا الهدف ساهما بقدرتهما في مجهود الحلفاء الحربي ضد المانيا وهما يتابعان

هذه المساهمة ضد اليابان، وهما لا يريدان الآن، بعد هذا النضال الطويل، وبعد هذه الحرب التي تحطم فيها افظع استعمار في الدنيا، أجل لا يريدان بعد هذا كله، أن تبقى قضيتهما تحت رحمة المساومات الاستعمارية وأن يكتفيا من النجاح بتغيير شكل السيطرة القديمة، أو بتبديلها بسيطرة جديدة، أو بالرضوخ للسيطرتين معاً. إن لبنان وسوريا يريدان أن يتحررا نهائياً من كل استعمار وكل سيطرة استعمارية، مفردة أو مزدوجة مهما كان شكلها. وهما عازمان عزماً اكيداً على النضال في سبيل استقلالهما وسيادتهما، ويريدان أن يبنيا علاقاتهما مع الدول الحرّة الديمقراطية على أساس المساواة التامة وفي نطاق السلامة الدولية العامة».

(صوت الشعب ٢ - ٧ - ١٩٤٥)

موقفنا الدولي متين
وحقنا الوطني صريح
وقضيتنا ناجحة إذا أحسنّا العمل

... ولا ريب أن أكبر عمل وطني في الوقت الحاضر هو توحيد الصفوف الوطنية للنضال لأجل التغلب على المساومات الاستعمارية التي تبدو خطوطها في الأفق، والوصول بوطننا الغالي إلى تثبيت استقلاله وتوطيد سيادته، وتوطيد الديمقراطية في ربوعه.

إن الحكومة اللبنانية قد وقفت إلى الآن موقفاً صحيحاً في رفضها المركز الممتاز، وفي مطالبتها مع تسلم المصالح الباقية، جلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد. ولا ريب أن كل وطني مخلص يؤيدها في موقفها هذا ويطلب الاستمرار فيه. فالمستعمرون، مهما بدا أن لهم من القوة، هم اليوم في وضع اضعف مما كانوا فيه في وقت مضى، وحق الشعوب في الحرية والاستقلال أقوى من أي وقت آخر.

صوت الشعب ١٣ - ٧ - ١٩٤٥

ومع فلسطين لأجل تحريرها من الاستعمار والصهيونية والاحتلال العسكري الأجنبي وإنشاء حكم ديمقراطي فيها.

وإن جبهة وطنية من هذا النوع لن تكون «إئتلافاً» انتخابياً وحسب، ولا اتحاداً مؤقتاً بين أحزاب وكتل، بل ستكون حركة شعبية واسعة ينتظم في صفوفها كل الشعب وتستطيع أن تعطي لبنان مجلساً نيابياً على صورة لبنان الجديد ومثله.

من افتتاحية نشرت في صوت الشعب بعنوان: «عن أي ائتلاف يتحدثون»
٦ - ١ - ١٩٤٦

مناقشات مجلس الأمن
حول سوريا ولبنان

إن قضيتنا لا تزال قضية اتحاد جميع القوى الوطنية الشعبية في جبهة واحدة لمتابعة النضال في سبيل الجلاء والاستقلال والسيادة. وقد اثبت الشعبان اللبناني والسوري أنهما مستعدان للنضال في سبيل تحقيق هذه الاهداف الوطنية، وهما يريدان من الحكومتين اللبنانية والسورية مقاومة المطامع الاستعمارية وعدم التفريط بحق سوريا ولبنان في الاستقلال والسيادة التامة.

صوت الشعب ٢٠ - ٢ - ١٩٤٦

إحفظوا للفكر حرمته

... أما الذين يقومون بالحملات الطائشة على بعض الدول الكبرى الصديقة، دون أن يكون لها أية صلة بالحوادث التي يتخذونها حجة لهذه الحملات، وكذلك على بعض الفئات الوطنية الصادقة، فيجب نصحهم إن كانوا ضالّين، ويجب نبذهم إن كانوا من المضلّلين حرصاً على وحدة الصف الوطني في هذا الظرف الدقيق الذي يجتازه القطران الشقيقان سوريا ولبنان.

(من مقال له بعنوان «حملة العناصر الرجعية الهوجاء في دمشق» ٢٧ - ١ - ١٩٤٦)

ملاحظات من خلال مناقشة
قضية ولبنان وسوريا في مجلس الأمن

... إن قضيتنا لا تزال قضية اتحاد جميع القوى الوطنية الشعبية في جبهة واحدة لمتابعة النضال في سبيل الجلاء والاستقلال، والسيادة. وقد أثبت الشعبان اللبناني والسوري أنهما مستعدان للنضال في سبيل تحقيق هذه الأهداف الوطنية، وهما يريدان من الحكومتين اللبنانية والسورية مقاومة المطامع الاستعمارية وعدم التفريط بحق سوريا ولبنان في الاستقلال والسيادة».

(صوت الشعب ٢٩ - ٢ - ١٩٤٦)

قوى الحرية تتابع السير
رغم تهويش الرجعية

« ... ولكننا نقول للجنرال سبيرز وأمثاله إن الشيوعيين اللبنانيين لا يهمهم أن ينعموا بصداقة الجنرالات أمثال سبيرز ورضاهم، فنحن قد تركنا لغيرنا هذه الصداقة وذلك الرضى، فلينعموا بها ما شاؤوا، وليعتزوا بها ما استطاعوا، إذا استطاعوا. نحن يكفينا رضى شعبنا وصداقة عمال بلادنا وفلاحيها ومثقفيها وجماهيرها الكادحة».

(صوت الشعب ٤٦/٤/٤)

لبنان والسياسة العربية

« ... كلا ليس من مصلحة لبنان أن ينحاز إلى التكتلات التي تعمل وتروج لها عمان مع بعض ساسة بغداد. إن من مصلحة لبنان، ومصلحة مستقبله أولاً، تقوية التضامن مع سوريا في سبيل توطيد استقلال كل من البلدين وحمايته وتثبيت نظامه الجمهوري. وثانياً السير على سياسة عربية واضحة تشجب كل تكتل داخل المجموعة العربية وتعمل بصراحة في سبيل التضامن العربي العام مع جميع الشعوب العربية في نضالها لأجل الحرية والاستقلال وجلاء الجيوش الأجنبية عن اراضيها، وفي سبيل السير على سياسة دولية مستقلة لا تسير في ركاب أية دولة، بل تعمل على أساس مبادىء التعاون الدولي، ومبادىء الأمم المتحدة في سبيل الديمقراطية والمساواة بين الشعوب والسلام في العالم ».

(صوت الشعب ٢٩/٥/٤٦)

على العرب أن يتضامنوا في الكفاح لكي يحرروا فلسطين

« ... إن قضية فلسطين يجب أن ينظر إليها المسؤولون العرب في جميع أقطارهم في ضوء الأحوال والأوضاع الجديدة التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية. فمن الناحية الدولية يجب النظر إلى قضية فلسطين كجزء من قضية الحرية الصاعدة في جميع أنحاء الدنيا بعد تحطيم النازية والفاشيستية، والقضاء على الاستعمار الالماني، ونمو قوى الديمقراطية والحرية والانتصارات الكبرى التي أحرزتها هذه القوى في معظم الأقطار. ومن الوجهة العربية يجب النظر إليها كقسم من القضية الوطنية العربية السائرة صعداً مع قضية الديمقراطية في العالم، حيث تمَّ الجلاء عن سوريا وسيتم قريباً عن لبنان، وحيث تتابع الشعوب العربية في العراق ومصر نضالها ضد الاستعمار لأجل تحررها الوطني وجلاء الجيوش الأجنبية عن اراضيها. وحيث أصبحت الأقطار العربية أعضاء في أعظم منظمة دولية هي هيئة الأمم المتحدة، وحيث اصبح لهذه الاقطار مكانة دولية مرموقة، ومركز دولي وطيد ».

(صوت الشعب ٤ ـ ٨ ـ ١٩٤٦)

ونحن الشيوعيين اللبنانيين، موطدو العزم على الدفاع عن الحرية، تراث الآباء والأجداد، ولسنا وحدنا في نضالنا. ففي لبنان نخبة لها شأنها من كبار رجال السياسة أنفسهم، الذين قاموا بدور كبير في الانتصارات التي احرزها لبنان في عهده الاستقلالي هذا، نواباً وزعماء وكتاباً وشعراء وادباء وصحافيين، والوفاً من العمال التقدميين والفلاحين الواعين والشباب يؤمنون أن الحرية كانت ويجب أن تبقى طابع لبنان الاساسي، وجميع اللبنانيين يدركون أن قضية الحرية ليست قضية حزب أو

هيئة أو كتلة، بل هي قضية الشعب اللبناني كله، قضية الاستقلال والسيادة في الحاضر والمستقبل.

إن لبنان الذي ربح معركة الجلاء ومعركة الاستقلال بفضل وقوفه منذ البدء في جبهة الحرية ضد الطغيان والفاشيستية سيبقى أبداً في جبهة الحرية».

(من مقال له في صوت الشعب ١٩٤٦/٩/٢٩)

أصبح العرب يدركون المعنى الاستعماري الحقيقي لمكافحة الشيوعية

«... ويظهر أن الاستعمار لم يقتنع بعد، أو هو عاجز عن الاقتناع بأن ذاك السلاح، سلاح مكافحة الشيوعية، قد بات فعلاً مغلولاً صدئـاً ولا مفعول له. كما يظهر أن بعض الناس لم يقتنع أن هذا السلاح يعود في النهاية بالوبال والشر على مستخدميه وشاحذيه».

(صوت الشعب ١٩٤٦/١١/٩)

من خطاب له في استقباله بعد عودته من لندن ١٩٤٧

«... لقد خفق قلبي، كما لم يخفق من قبل، حين دوّى في مؤتمر الحزب الشيوعي البريطاني هتاف مندوبي ثلاثين حزباً شيوعياً في أوروبا وآسيا، وأميركا، وافريقيا، لاسم سوريا ولبنان، أول بلدين عربيين تحررا من الاحتلال العسكري الأجنبي».

من خطاب له في استقباله في حي المزرعة ـ بيروت لدى عودته من لندن ١٩٤٧/٤/٢١

الشرق العربي يتحرك

... وهكذا نرى أن شعارات الجماهير العربية في نضالها ضد الاستعمار هي: الاستقلال، وجلاء القوات البريطانية، والتقدم الاقتصادي والديمقراطي. كما أن الشعارات الرئيسية التي تهزّ الجماهير الشعبية في سوريا ولبنان هي الدفاع عن استقلالها، وتوطيد نظامها الجمهوري وتطوير هذا النظام نحو الاستقرار والتقدم الديمقراطي، والتضامن الوطني. إن الشعبين السوري واللبناني يقدران المركز السياسي والوطني الممتاز الذي يحتلانه حق قدره. وهما يدركان أن هذا المركز يفرض عليهما واجب النضال للمساهمة في الدفاع عن السلم العالمي. إذ أن هذين البلدين يريدان أن يثبتا للعالم ما تستطيع اتيانه الشعوب العربية إذا هي تحررت من نير الاحتلال الأجنبي.

(من مقال نشر في مجلة «ديمقراطية جديدة» الصادرة في باريس عام ١٩٤٦ ونشر في صوت الشعب في ١٩٤٧/٧/١٧)

الولايات المتحدة واستقلال الشعوب

في ٢٧ آب سنة ١٩٤٧ انشأ فرج‌الله الحلو مقالاً في جريدة « صوت الشعب » بمناسبة مناقشة مجلس الامن الدولي في شكوى مصر ضد بريطانيا، بعنوان: « الولايات المتحدة واستقلال الشعوب العربية » اوضح فيه دور اميركا كعدوة لشعوبنا العربية، ولاستقلال بلداننا جاء فيه:

« يتتبع العرب في جميع اقطارهم، بانتباه واهتمام، مناقشات مجلس الامن الدولي في قضية شكوى مصر على بريطانيا. لأن جميع الوطنيين العرب، على اختلاف احزابهم واتجاهاتهم، يرون في فوز مصر بأمانيها الوطنية، وفي تحقيق سيادتها وجلاء الجيوش الاجنبية عنها، أعظم انتصار تحرزه القضية الوطنية في كل قطر عربي. فتحرير مصر من الاستعمار هو فاتحة مرحلة جديدة في تاريخ الشرق العربي نحو تعزيز السلم، وتحقيق التقدم والرقي الديمقراطي السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري.

وبصرف النظر الآن عما يمكن أن يكون اتجاه قرار مجلس الامن وطبيعته، فمن الواضح أن تلك المناقشات قد اظهرت لجميع العرب أشياء جديدة، وعلمتهم دروساً هامة، وفتحت عيونهم على حقائق كانوا لم يروها بعد، أو كانوا غير متأكدين منها.

لقد كان عرض قضية مصر على مجلس الامن الدولي مناسبة اضطرت اميركا أن تكشف القناع عن وجهها الاستعماري الذي ظلت حيناً طويلاً من الدهر تستره بطلاء من ادعاء الديمقراطية الزائفة، والحرص على حرية الشعوب.

لقد حاولت الولايات المتحدة، اولاً أن تمنع مصر من عرض قضيتها على مجلس الامن، وسعت إلى اقناعها بضرورة التفاهم مع انكلترا والتساهل معها، وقبول احتلالها لمصر. وقد فضح مكرم عبيد باشا هذه المحاولة الاميركية في تصريح علني نشرته الصحف في حينه.

ولما لم تجد حكومة النقراشي بداً، تحت ضغط النضال الوطني المتعاظم، من قطع المفاوضات وعرض القضية على مجلس الامن، كانت الولايات المتحدة الاميركية في هذا المجلس سنداً لبريطانيا على مصر، وسعت وما زالت تسعى لإنقاذ موقف الاستعمار البريطاني واخراجه من المأزق، وقد اتخذت خطة لها إلى تحقيق محاولة العودة إلى استئناف المفاوضات بين مصر وبريطانيا، أي ارجاع قضية مصر إلى وراء، واعطاء انكلترا فرصة جديدة لاطالة امد احتلالها لمصر بأمل تثبيت مواقعها المهددة بالانهيار.

وقد ذكرت البرقيات أن مندوب البرازيل الذي تقدم في مجلس الامن باقتراح يرمي إلى العودة للمفاوضات بين بريطانيا ومصر. وقد فعل ذلك بوحي من أميركا، حتى لقد قيل إن صيغة الاقتراح البرازيلي الذي رفضته مصر رفضاً باتاً قد وضعت في وزارة الخارجية الاميركية.

وقد جارت الدول الأخرى التي تتأثر بسياسة أميركا الاتجاه الاميركي في القضية المصرية ووقفت منها الموقف الذي املاه الاتجاه الاميركي، لا الموقف الذي يتلاءم مع نصوص ميثاق الامم المتحدة وروحه، ومع العدل والحق. ومن يمعن النظر قليلاً يرَ أن سلوك الولايات المتحدة، لا يعود إلى المصادفة، وليست هي المرة الأولى التي تقف فيها حكومة المستر ترومان هذا الموقف المعادي لأماني العرب وحقوقهم. فالسياسة الاميركية الرجعية قد ايدت الصهيونية في فلسطين دائماً وتحمست حماسة هائلة في دعم مطالبها العدوانية. وقد كان بعض الناس ينسبون ذلك إلى ضرورات السياسة الاميركية الداخلية القائمة أحياناً على التزلف لليهود في اميركا باعتبارهم قوة انتخابية لها شأنها ووزنها.

ولكن الحوادث كلها بينت أن تفسير تأييد أميركا للصهيونية باعتبارات انتخابية فقط هو تفسير خاطيء وغير كامل.

فالشركات الاحتكارية الاميركية التي تريد السيطرة على مصادر الثروة الكبرى في البلاد العربية وعلى اسواقها، ترى أن أفضل السبل إلى ذلك هو دعم موقف الاستعمار الانكليزي، ومساعدته على الاحتفاظ باحتلاله العسكري لهذه الأقطار، واستخدام ذلك لمصلحة الشركات الاميركية الاحتكارية والتوسع الاستعماري الاميركي. صحيح أن هناك تناقضاً شديداً بين المصالح الاستعمارية الاميركية والانكليزية، وهذا التناقض في طريق النمو. ولكن هذا التناقض لا يصل في الظروف الحاضرة إلى درجة أن تحاول أميركا اخراج الانكليز من الأراضي التي يحتلونها، والحلول محلهم عسكرياً، ذلك لأن ابدال احتلال باحتلال، في الوقت الحاضر أمر دونه صعوبات ومشاكل دولية خطيرة تجعله غير ممكن.

فخطة الاستعمار الاميركي هي المحافظة على بقاء القوات الانكليزية في الاراضي التي تحتلها، واستخدام هذه القوات لأجل بسط النفوذ الأميركي الاقتصادي والسياسي، على تلك الاراضي.

فتأييد الاميركان للصهيونية في فلسطين، ولبقاء الاحتلال الانكليزي في مصر، ليس في الواقع سوى استمرار لسياستهم التي تؤيد الرجعية الملكية اليونانية ضد حرية الشعب اليوناني، والرجعية التركية ضد الشعب التركي، وتركيا و «الكتلة الشرقية» ضد حرية الشعوب العربية وضد السلام العام في الشرق الأدنى.

من هنا يتبين خطل وخطر موقف بعض الفئات وبعض رجال السياسة الذين يحاولون، في لبنان أم في سوريا أو في مصر أم في غيرها من الاقطار العربية، الاتجاه نحو أميركا بأمل ايهام جماهير الشعب أنهم يفعلون ذلك لكسب تأييدها ضد انكلترا. فمحاولة استغلال التناقض الاميركي الانكليزي أو الاعتماد على هذا التناقض لمصلحة الحركة الوطنية والنضال الوطني، محاولة فاشلة وضارة، لأنها تؤدي في الواقع إلى الارتماء في حضن الاستعماريين معاً.

ولكن التواطؤ الاستعماري الانكلوسكسوني في الشرق لا يعني أبداً، انعدام امكان النضال ضد الاستعمار، كما يزعم الانهزاميون وعملاء الاستعمار. فالحركة الوطنية العربية، لها من القوى المحالفة في العالم ما يفوق قوة التواطؤ الاستعماري الانكليزي الاميركي وما يكفي لقهر هذا التواطؤ ودحره. وكما استطاع لبنان وسوريا، بفضل نضالهما، وبفضل تضامن الشعوب العربية معهما، وتأييد القوى الديمقراطية في العالم لهما، أن يحبطا التواطؤ الانكليزي ـ الفرنسي المدعوم بالتواطؤ الاميركي في مجلس الأمن، تستطيع مصر إذا ثبتت وناضلت أن تحبط كل مؤامرة استعمارية على حقوقها واستقلالها مهما كان مصدرها، ومهما كانت القوة التي تدعمها.

ومما لا ريب فيه أن الجماهير اللبنانية والجماهير العربية على الإجمال، لم يبق من السهل خداعها وتضليلها حول موقف الولايات المتحدة من قضايا لبنان وقضايا العرب الاستقلالية والوطنية. ففي موقفها من فلسطين وفي موقفها الأخير من قضية مصر في مجلس الأمن عظة وعبرة. والمناضلون المخلصون من أجل حريتهم واستقلالهم يتعظون ويعتبرون، ويتخذون العدّة لمقاومة خصومهم وخصوم حريتهم واستقلالهم.

(صوت الشعب ١٩٤٧/٨/٢٧)

الثقافة والسياسة

وحول الثقافة ومهمتها، والمثقفين ودورهم كتب معلقاً على المؤتمر الثقافي العربي المنعقد في «بيت مري» قال:

«نحن كلبنانيين يعقد المؤتمر الثقافي العربي الأول تحت سمائنا، كنا نود أن يتخذ هذا المؤتمر اتجاهاً واضحاً صريحاً في تأييد قضايا الشعوب العربية الوطنية الاستقلالية، كقضاية الجلاء والاستقلال، وأن لا يكون في ذلك أي تحفظ. لأن أقدس مهمات الثقافة هو النضال لاجل الحرية، حرية الافراد وحرية الشعوب. والثقافة تنمو وتزدهر في هذا النضال. وكل محاولة لتحديد اهداف أخرى للثقافة، ليست سوى سخافة، سخافة خطرة تجب محاربتها».

(من افتتاحية للشهيد في صوت الشعب ٧ ـ ٨ أيلول ١٩٤٧)

سياسة التضامن العربي
السياسة اللبنانية الوحيدة الصحيحة

هذا العنوان يعكس مضمون الخطاب السياسي الكبير الذي القاه فرج‌الله الحلو في اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني، بتاريخ ٢١ ايلول سنة ١٩٤٧. وفي ما يلي مقاطع مهمة من هذا الخطاب التاريخي الذي حدد الخط السياسي للحزب، الذي كان وهو اليوم على أشد ما يكون، قائماً على التضامن الديمقراطي العربي كسبيل رئيسي للحفاظ على استقلال لبنان وصيانة كيانه السياسي، كما انه احدى المسلمات التي يقوم عليها نضال الحركة الوطنية اللبنانية.

« صحيح أن سوريا هي اليوم الهدف الذي توجه إليه جميع المؤامرات الاستعمارية باعتبارها هي العقبة الرئيسية حتى الآن في وجه المشاريع الاستعمارية، ولا سيما مشروع سوريا الكبرى ومشروع الكتلة الشرقية. فجهود المستعمرين متجهة الآن إلى الجاء الجمهورية العربية الشقيقة للرضوخ لمشيئتهم. وهم يستخدمون لذلك اساليب مختلفة من الضغط وحرب الاعصاب، ولا يتورعون عن السعي إلى اشعال الفتن الداخلية والاضطراب.

وأهم الخطط التي يلجأ إليها المستعمرون لارغام سوريا على الاستسلام التام لهم هي السعي لفك عرى التضامن بين لبنان وسوريا. وهذه الخطة الاستعمارية تفسر لنا المحاولات التي قامت لاجل التقريب بين لبنان وتركيا، والمساعي التي جرت لخلق جو « ودي » خاص بين لبنان والملك عبدالله. وتفسر هذه الخطة الاستعمارية أيضاً الحملات الطائشة التي تقوم بين حين وحين في بعض الأوساط اللبنانية وبعض الصحافة التي تستغل كل حادثة عادية، أو تختلق أحياناً الحوادث لاجل الطعن بسوريا والتهجم عليها وتوجيه التهم زوراً وافتراء إليها بقصد تسميم الجو وجعله غير صالح لمتابعة التعاون والتضامن بين القطرين الشقيقين.

ومن هنا تتضح أهمية الدور الذي يجب ويمكن أن يقوم به لبنان في إحباط مشاريع الاستعمار وفي الدفاع عن استقلاله واستقلال سوريا، والنظام الجمهوري في كلا القطرين، وذلك بتعزيز التعاون مع سوريا، هذا التعاون الذي بات بشهادة الحوادث والوقائع، حجر الزاوية في الدفاع عن استقلال لبنان وسوريا، بل عن بقائهما كدولتين مستقلتين. وهو أيضاً أساس التعاون العربي الصحيح في سبيل استقلال الأقطار العربية الأخرى وجلاء الجيوش الاجنبية عن أراضيها.

غير أن بعض الاوساط والعناصر اللبنانية تجهل أو تتجاهل هذه الحقائق، ولا تنفك تلتزم التحفظ تجاه الاقطار العربية الشقيقة، وتجاه تضامن لبنان وتعاونه مع هذه الاقطار، ولا سيما مع الجمهورية السورية الشقيقة. ولكن الانتقاد الذي يجب أن يوجه بحق إلى السياسة اللبنانية الرسمية في ميدان التعاون العربي، لا يجب أن يوجه إليها لكونها قد تجاوزت الحدود المرسومة لها، كما يفعل

المتحفظون والانعزاليون القدماء، بل يجب أن يوجه إليها لأنها لم تبلغ قط الحدود التي يجب أن تبلغها في التعاون العربي، فهي لا تزال سياسة مترجرجة ومترددة وحائرة، وتنقصها الجرأة والحزم والاقدام في التضامن مع الشعوب العربية في نضالها الوطني لأجل الاستقلال والجلاء. ويجب القول ان السياسة اللبنانية الرسمية في الميدان العربي لا تعبر تعبيراً صحيحاً لا عن ارادة الشعب اللبناني وشعوره الاخوي نحو الاقطار الشقيقة، ولا عن الضرورات التي تقتضيها مصلحة لبنان العليا.

وهناك انتقاد صحيح آخر يوجه إلى سياسة لبنان العربية ويوافق عليه جميع الوطنيين المخلصين في لبنان وسائر الاقطار العربية وهو أن سياسة التعاون العربي لا يجب أن تسير وفقاً لاهواء واتجاهات الاوساط الرجعية العربية المرتبطة بالاستعمار الأجنبي، فسياسة من هذا النوع ليست سياسة تعاون عربي، بل سياسة تعاون غير عربي، سياسة تعاون ضد العرب.

إن سياسة التعاون العربي التي يجب أن يسلكها لبنان ليس معناها السير في ذيل بعض الحكومات الرجعية التي يؤيدها الاستعمار البريطاني أو الأميركي في بعض العواصم العربية وتفرض نفسها بالقوة على الشعب، فلبنان يجب ان يسير على سياسة الطليعة في هذا الميدان فتكون سياسته العربية متجهة إلى القوى الوطنية والنضال الوطني في الاقطار العربية لتمكين هذه القوى من التأثير في سياسة حكوماتها وتوجيهها توجيها وطنياً ديمقراطياً منطبقاً على مطالب استقلال الشعوب العربية وسيادتها.

ومن الواضح أن في لبنان عناصر تنتمي إلى الطبقة الحاكمة وقد ارتبطت مصالحها إما بمصالح الرأسمال الاجنبي والشركات الأجنبية الاستثمارية، وإما بعلاقات تجارية وعلاقات عمل مع الصهيونية وغيرها من الاوساط التجارية والمالية في الخارج.

وهذه العناصر هي ذات تأثير قوي في السياسة اللبنانية الداخلية والعربية والخارجية، بسبب نفوذها المالي والاقتصادي، وبسبب تأييد المراجع والدوائر الاستعمارية الاجنبية لها ومشاركتها أياها في استثمار خيرات البلاد ومرافقها.

يضاف إلى هذا أن الارساليات والمدارس الأجنبية المنتشرة في لبنان بشكل هائل قد بثت خلال أعوام طويلة روح الاحتقار والحذر نحو الشعب بصورة عامة ونحو الشعوب العربية بصورة خاصة. ومن هنا كان الميل إلى البحث عن أصل غير عربي للبنان، وكانت الفينيقية، وذلك بقصد التبعيد بين لبنان وبين الاقطار العربية الاخرى، وخصوصاً بين فريق من اللبنانيين وفريق آخر. ولكن هذه المحاولات قد احبطت واخفقت أمام صعود النضال الوطني التحريري الذي شمل جميع جماهير الشعب.

ولسنا بحاجة إلى الاكثار من الادلة لكي نثبت أن الذين يريدون خلق الحواجز المصطنعة ضد

تعاون لبنان والشعوب العربية لا يمثلون الشعور الحقيقي السائد في أوساط الجماهير الشعبية الواسعة في القرى والمدن. فهذه الجماهير تعتز بما تعرفه من تاريخها العربي وتقاليدها العربية والادب العربي والشعر العربي. وفكرة الفينيقية بالرغم من جميع الجهود التي بذلت لاجل نشرها لم تصادف سوى حظ يسير جداً من النجاح. ولكنها تركت بملء الاسف آثارها. فالعناصر الرجعية الانعزالية التي جعلت همها مقاومة التعاون العربي لم تستسلم للامر الواقع، ولم تتخل عن افكارها وميولها الرجعية. بل هي تتابع نشاطها بأشكال مختلفة.

وقد تحولت إلى تغذية فكرة جديدة، هي فكرة «الوطن القومي المسيحي» التي تتلخص في تجزئة لبنان والتخلي عن بعض اجزائه وانشاء «دولة مسيحية» من اجزائه الباقية. وهي فكرة مستمدة من صميم مشروع سوريا الكبرى الذي وضعه المستعمرون الانكليز والصهيونيون. وهذه الفكرة التي يحاربها جميع اللبنانيين المخلصين الشرفاء، تؤدي إلى تفرقة الصفوف وخلق البلبلة التي يستفيد منها المستعمرون لتحقيق اهدافهم.

ويقابل هذا الاتجاه اتجاه آخر انفصالي يظهر بين حين وحين في الشمال خصوصاً، وفي الجنوب في بعض الأحيان. ومرد هذا الاتجاه يعود إلى الاستياء المشروع الذي تشعر به الجماهير الشعبية من سوء سياسة الحكومة وتصرفها واهمال تلك المناطق التي قاست في العهود الاستعمارية البائدة أشد انواع الحرمان والبؤس.

ومهما تكن أسباب هذا الاتجاه ومبرراته فهو يخدم مآرب دعاة «الوطن القومي المسيحي».

ويجب الانتباه بصورة خاصة إلى الاتجاه الأول، اتجاه «الوطن القومي المسيحي» لانه اخطر الاثنين، لما فيه من اثارة صريحة للنعرات الطائفية البالية ولأن العناصر التي تعمل له عناصر ربطت مصيرها بالاستعمار وتعودت خدمته، وقد تخلت عن كل شعور وطني وكل كرامة وطنية، وهي بعد أن فقدت سندها الاستعماري القديم أخذت تضع نفسها تحت تصرف الاستعمار الانكليزي الاميركي.

فواجبنا نحن الشيوعيين هو النضال والكفاح بلا لين ولا هوادة حتى يسير لبنان سيراً قويماً في سياسة تعاون عربي صحيح. واجبنا هو النضال ضد التيارات الرجعية الانعزالية التي يستخدمها الاجنبي، ولا سيما الاستعمار الانكلو اميركي لأجل إضعاف التضامن بين سوريا ولبنان وبالنتيجة لإضعاف تعاون الشعوب العربية في كفاحها الوطني.

إن حزبنا قد نما نفوذه وأخذت جماهير واسعة من العمال والفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى وفئات من المثقفين ورجال الفكر ينظرون إلى حزبنا نظرة احترام وتقدير لنضاله ووطنيته، فعلينا

أن نعمل بروح الشعور القوي بمسؤوليتنا الكبرى نحو شعبنا ووطننا وأن نقول كلمتنا بجرأة وصراحة في سياسة بلادنا لأن الحوادث قد أثبتت في كثير من المناسبات أن لموقف الحزب الشيوعي أثراً محسوساً في توجيه الرأي العام وفي التأثير بالسياسة اللبنانية.

إن سياسة التضامن العربي ليست السياسة الوحيدة الصحيحة في الدفاع عن الاستقلال والجمهورية فحسب، بل هي السياسة الوحيدة أيضاً في الدفاع عن الديمقراطية وتوطيد الحرية وتحقيق الإصلاح في لبنان.

إن ما يبدو في لبنان من مظاهر التقدم الاجتماعي والرقي الثقافي والحرية النسبية لا يمكن المحافظة عليه وتطويره إلا بالتحالف ضد الاستعمار في الاقطار العربية. ويخطئون أولئك الذين يزعمون أن لبنان في تعاونه العربي يعرض هذه النواحي التقدمية فيه للخطر والزوال، ويخطئون أولئك الذين يزعمون أن لبنان يجب أن يتطلع إلى الغرب وحده لأجل المحافظة على وجهه الديمقراطي ومظهره التقدمي. صحيح أن لبنان لا يمكن أن يقفل نوافذه وأبوابه دون أوروبا، ولم يطلب ذلك أحد، ولكن الحركات الوطنية العربية والنضال التحرري العربي الصاعد ضد الاستعمار والاحتلال الأجنبي هي الينابيع الرئيسية التي تغذي نبت الديمقراطية في لبنان. إن النضال الوطني العربي هو حليف لنضال لبنان في الدفاع عن استقلاله، وحليف لشعب لبنان في نضاله لاجل توطيد حريته وتوسيع الديمقراطية في ربوعه، والاستمرار في طريق التقدم الاجتماعي والعمراني والإصلاحي.

إن الشيوعيين اللبنانيين قد عملوا ويعملون لتطبيق سياسة الحزب الشيوعي هذه مهما لقيت من مقاومات رجعية ومهما لقيت من مصاعب قد يضعها في طريقنا الاستعماريون وأعوانهم. إن هذه السياسة العربية التي يسير على ضوئها جميع الشيوعيين هي الأساس الذي تقوم عليه وحدة الشعب الداخلية والوطنية، وهي الأساس للقضاء على النعرات الطائفية وعلى الطائفية نفسها، وإن وجه الحزب الشيوعي تتضح وطنيته كلما برزت خطوطه العربية ووضحت.

إن حزبنا الشيوعي لم يكن يوماً ذا وجه طائفي وعنصري، بل كان دائماً ذا وجهٍ كوجه لبنان الذي أخذت تزول عنه المساحيق الفينيقية وتظهر تقاطيعه وملامحه العربية ناصعة واضحة مع سيره في طريق الاستقلال والديمقراطية».

(صوت الشعب ٢١ أيلول ١٩٤٧)

نحو جبهة وطنية

وتناول فرج‌الله الحلو موضوع الجبهة الوطنية كشرط لتوطيد المنجزات، ولإحباط المؤامرات

الجديدة التي تنعكس بالأحلاف العدوانية التي استشرى امرها في الخمسينات، وأبرزها حلف بغداد. ومبدأ ايزنهاور. حول هذا الموضوع كتب الشهيد: «ولا ريب أن هذه الجبهة التي يجب أن تضم تحت لوائها أكثرية الشعب العظمى مع احتفاظ كل شخص بآرائه، وكل حزب ببرنامجه وفلسفته، تستطيع أن تعرض على الحكام سياسة وطنية ديمقراطية تناهض مشاريع الاستعمار بحزم وثبات، كما تستطيع هذه الجبهة أن تؤدي إلى قيام حكومة وطنية ديمقراطية أساس سياستها مقاومة مشاريع الاستعمار وإطلاق الحريات الديمقراطية والعمل لانعاش الحالة الاقتصادية لا عن طريق «المساعدات» الاميركية المزعومة التي هدفها تدمير اقتصاديات لبنان، بل عن طريق إطلاق قوى لبنان الاقتصادية والحد من طغيان الرساميل الاجنبية الاستعمارية، ومن سيطرة عملائها على توجيه سياسة البلاد، والإفادة من الإمكانيات العظيمة المفتوحة أمام لبنان عن طريق تنظيم علاقاته الاقتصادية الخارجية على أساس التكافؤ والنفع المتبادل».

«نريد أن يكون هذا الساحل العربي منبت حركة وطنية جديدة أكثر وعياً وأسلم محتوى تحتل مكاناً في الطليعة بين الحركات الوطنية في الاقطار العربية الشقيقة. إن قضية الحرية ليست قضية حزب أو هيئة أو كتلة، بل هي قضية الشعب اللبناني كله، قضية الاستقلال والسيادة، والتقدم في الحاضر والمستقبل».

(الصرخة ٢٠ / ٦ /١٩٥٤)

«... إن الشعوب العربية في مقاومتها مشاريع الاستعمار الحربية في هذا الشرق وفي إحباطها هذه المشاريع حتى الآن لم تدفع عن نفسها أفظع خطر استعبادي وحسب، بل ساهمت في الوقت نفسه مساهمة محسوسة في قضية السلم العالمي».

«ولذلك يحظى نضال لبنان وسوريا والشعوب العربية بتأييد وعطف جميع قوى الخير والحق والسلم في العالم أجمع».

«ولا ريب أن جميع الوطنيين المخلصين في لبنان تتجه قلوبهم الآن إلى سوريا ويرغبون بكل جوارحهم أن ينتصر الوطنيون العاملون في سبيل قيام حكومة وطنية ديمقراطية فيها. فما من أحد يجهل أن صمود الحركة الوطنية الشعبية في الشقيقة سوريا ونجاحها في رد ضغط المستعمرين ومكائدهم هو شيء له أثره وشأنه الكبير في لبنان وكل المجموعة العربية».

(من تصريح له نشر في جريدة «الصرخة» ٢٠ / ٦ / ١٩٥٤ بعنوان «لبنان بحاجة إلى أوسع جبهة وطنية تضم جميع القوى والفئات المناهضة للاستعمار على اختلاف اتجاهاتها وأحزابها»).

إلى بعض المواطنين اللبنانيين

« ... ومن هنا يتضح أن مقاومة التضامن بين سوريا ولبنان، والتعاون بين الشعوب العربية في النضال ضد الاستعمار، محاولة خطرة هي في الواقع، ومهما كانت نيات القائمين بها، تعاون مع الاستعمار وعملائه من الرجعيين العرب، ضد لبنان والشعوب العربية، وضد استقلالها وحرياتها. فلا مناص إذاً من تعاون عربي، فاما أن يكون كما تريده وتقتضيه مصلحة لبنان، وكما يريده كل وطني عربي تعاوناً بين الشعوب العربية، بين الجماهير العربية في النضال لأجل جلاء الجيوش الأجنبية والاستقلال والديمقراطية، واما أن يكون تعاوناً بين أولئك المواطنين « اللبنانيين » من جهة، وبين سبيرز وتشرشل وحسن سقّا وترومان وعبدالله ونوري السعيد وصدقي باشا والإخوان المسلمين من جهة ثانية ».

« أما السياسة اللبنانية العربية الرسمية، فقد كان أحسن ما فيها اتجاهها نحو التعاون العربي، واعترافها به وبضرورته، وشرّ ما فيها اليوم من أخطر الناس على سياسة لبنان العربية، لا لأنهم يحاولون أن يسيروا بها إلى أمام، بل لأنهم يسلكون مسلكاً يجعل لبنان في المؤخرة في هذا الميدان ».

(من مقال: « إلى بعض المواطنين اللبنانيين » ـ صوت الشعب ١٣ / ١٠ / ١٩٤٧)

خمسون سنة مع نقولا شاوي

الزمان: اوائل العام ١٩٣٤، والمكان: محل مارديروس مادويان، والد أرتين مادويان تجاه سينما اوبرا - بيروت.

في ذاك الزمان، وذاك المكان التقيت للمرة الأولى بشاب بهي الطلعة، فارع القوام، انيق الحديث والهندام. التقيته بعدما كنت قد امضيت عشرين يوماً في سجن الرمل. أما التهمة التي وجهت إليّ فهي وجود ورقة كتبها أحد الرفاق ووضعها على طاولتي ورد فيها اسماء: «العمال»، «الفلاحون»، «دولة العمال والفلاحين»، «الحرية» الخ... هذه المحتويات ادانتني بالرغم من أنني لست أنا الذي كتبها، وبالرغم من استكتابي لمقارنة الخطين، وتبيان الفرق بينهما ومع ذلك حكمت وأمضيت المدة في سجن الرمل. الشاب الانيق الذي ورد ذكره عرفني عن نفسه بانه يُدعى «بهيج»، وأنه أتى لمقابلتي باسم منظمة «المساعدة الحمراء». واقترح علي التعرف إلى سليم خياطة. وكان سليم قد بدأ بإصدار مجلة «الدهور». فقلت، بكل طيبة خاطر، سأكون مسروراً جداً بذلك. ومشينا إلى مكتب «الدهور» وكان بالقرب من خان انطون بك.

استقبلنا سليم ببشاشته المعروفة. وقدمني بهيج إليه وقال له: الرفيق من بلاد جبيل ماروني وفلاح، ومناضل، وقد أمضى ٢٠ يوماً في السجن. وهو الآن عائد إلى قريته حصرايل. فرح سليم بي وزودني بتوجيهات للعمل بين الفلاحين، وركز على ضرورة ايجاد مشتركين لمجلة «الدهور» التي كانت تصدر بعهدته.

عدت إلى حصرايل وظلت العلاقات بيننا وبين «بهيج» مستمرة باعتباره كان مسؤولاً عن منظمة «المساعدة الحمراء» ومهمتها الرئيسية والأساسية مساعدة السجناء السياسيين والاهتمام بعائلاتهم، وتأمين محامين للدفاع عنهم.

أما لماذا انتقى نقولا اسم «بهيج» كاسم مستعار له، فلأن خاله اسمه بهيج. وكان بينه وبين خاله علاقات ودية. يقدر خاله، وخاله يحبه. وعلى مدى سنوات من العام ١٩٣٣، حتى صدور

« صوت الشعب » في نوار ١٩٣٧، ما كان أحد من الحزبيين، اللهم إلا القادة المركزيين، يعرف أن « بهيج » هو نقولا شاوي.

وتمر الأيام ويوفدني الحزب في تموز ١٩٣٥ لتمثيله في المؤتمر السابع للاممية الشيوعية في موسكو بين ٢٥ تموز و ١٩ آب ١٩٣٥. ومكثت في الاتحاد السوفياتي قرابة الشهر ونصف الشهر. ثم عدت إلى لبنان، وبعد مكوثي فترة في حصرايل استدعيت إلى بيروت وكلفت بالعمل في المنظمة الشيوعية لمدينة بيروت والساحل. وهنا التقيت من جديد بـ « بهيج » الذي بدأت اتعرف إليه معرفة حقيقية. فإذا هو نقولا شاوي الذي كنت اقرأ له مقالات في الدهور منها ما هو من انتاج قلمه، ومنها ما هو من ترجمته. وقد توطدت سريعاً علاقتي به فكنت اراه أكثر من مرة باليوم، تارة في بيت ارتين مادويان، وتارة في دكانة عارف، وأخرى في مطعم سامي قايدبيه، وأخرى عند علي حمدان. ومن ثم في غرفة لي في حي دير الناصرة. في تلك الغرفة التقينا نقولا وأنا ومحمود الاطرش « أبو داود » ومنير سليمان وسواهم.

كنا في زهرة العمر وزهوته. أنا في الخامسة والعشرين ونقولا في الثالثة والعشرين، نعمل دون أن نشعر بالتعب. ولكم كنا مضطرين لنقطع مسافات طويلة مشياً على الاقدام. حينذاك لم تكن هناك وسيلة للتنقل سوى الترامواي. وكنا بحكم العمل السري، نتجنب التنقل بالترامواي كي لا نكون تحت عيون مراقبي السلطة. لذلك كانت اداة التنقل الوحيدة أرجلنا.

وبما أن نقولا كان يعمل في منظمة بيروت قبلي، ويعرف جميع ملاكاتها، وكل أصدقائها، بدأ يعرفني عليهم، وحرص على أن يحضر معي، للمرة الأولى، اجتماعات الفرق ليقدمني إلى الرفاق.

كانت لنقولا صلات واسعة بعدد كبير من الطلاب والمثقفين، والصحافيين. وكان يشترك في المبادرات النضالية الموجهة ضد الاستعمار والفاشية.

إن انضمام نقولا شاوي في آخر سنة ١٩٣٣ للحزب عن طريق سليم خياطة الذي شدته إلى نقولا، كما شدت نقولا إليه، عوامل عديدة أهمها سعة ثقافة سليم من جهة، وميول نقولا الثقافية، من جهة أخرى، وخلقية الاثنين، وجدية مواقفهما، واستقامتهما في التعاطي مع الآخرين، إن انضمام نقولا للحزب الشيوعي شكل قفزة نوعية، بالنسبة لموقعه في الحزب. ولم يعد هو مسؤولاً عن منظمة المساعدة الحمراء بل انتقل إلى المجال الحزبي في نطاق العمل القيادي إلى جانب أرتين مادويان، و « أبو داود ». في هذا الوقت بين منتصف العام ١٩٣٤ و ١٩٣٦ كان فرج‌الله الحلو موجوداً في سوريا، في حلب، ومن ثم في دمشق. لذلك ألقيت على عاتق نقولا شاوي أعباء كثيرة ولا سيما في مجال العلاقات العامة والإعلام. فنقولا كان، بين تموز ١٩٣٥، وحتى الإضراب

الخمسيني في دمشق العام ١٩٣٦، هو الذي يكتب المناشير الحزبية الصادرة عن القيادة المركزية، وبذات الوقت كان مسؤولاً عن العمل بين المثقفين والطلاب. وهو الذي نظم لي، عندما كنت أعمل في منظمة بيروت، صلات ببعض الرفيقات ـ تلميذات ومعلمات ـ في الجامعة الأميركية، وهو الذي عرفني بالمرحوم فايز بارد. وحتى نهاية العام ١٩٣٦ كان نقولا يصرف كامل وقته ـ وهو لم يكن متفرغاً للعمل الحزبي بعد ـ في كتابة البيانات والقيام بصلات عامة والإشراف على طبع المنشورات وترتيب المطابع السرية وتحرير الجرائد الخ...

عندما صدرت «نضال الشعب» في أواخر العام ١٩٣٤ كان نقولا مسؤولاً عن تحريرها. وكنت على صلة يومية به بحيث أجلب المواد منه، وأسلمها إلى حنا الزرقا، وحنا يسلمها بدوره إلى المسؤول عن صفها وترتيبها وطبعها وكان خليل الحلو. وفيما بعد في اوائل العام ١٩٣٦ صدرت «نضال الشعب» بأحرف طباعية وبلونين في حين كانت في بدء صدورها تطبع على الجيلاتين، ومن أبرز أعدادها المطبوعة العدد الممتاز الذي صدر بإشراف نقولا بمناسبة عيد أول نوار سنة ١٩٣٦، وفيه لمحة عن حدث شيكاغو ١٨٨٦، ودفاع العمال الإبطال الذين حكموا بالإعدام لتظاهرهم من أجل ٨ ساعات عمل.

استمرت نضال الشعب بالصدور حتى نهاية العام ١٩٣٦ برئاسة نقولا شاوي وكانت برغم حجمها الصغير مقروءة ومنتشرة، وقد اوقفت بعد صدور «صوت الشعب» في ١٥ نوار ١٩٣٧ لأنه اصبح للحزب جريدة علنية.

في العام ١٩٣٥ كان العدوان الفاشستي الايطالي على الحبشة. وقد طلبت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية من الحزب الشيوعي اللبناني إيفاد أحد المناضلين إلى اثيوبيا للقيام بعمل تثقيفي وتنظيمي. وكان سليم خياطة قد أبعد، بقرار من المفوض السامي الفرنسي، إلى فلسطين وقد كلف نقولا شاوي بالذهاب لعنده وعرض الاقتراح عليه. وبعدما عرض نقولا هذا الاقتراح على سليم، أجابه سليم بصراحة قائلاً، أنا لا أرفض ذلك ولكنني لست مؤهلاً للقيام بمهمة كهذه لكن يمكنني أن اضع كتاباً عن الحبشة. وبالفعل وافق نقولا معه. وقد عمل سليم على كتابه بجدية وسرعة واختار له عنوان «الحبشة المظلومة»، وقد طبع في بيروت بإشراف نقولا شاوي، وكان له صدى واسع في الأوساط الوطنية والشعبية اللبنانية والعربية، ولا يزال حتى يومنا هذا يحتفظ بقيمته السياسية والعلمية.

العام ١٩٣٦ كان عاماً خيراً بالنضال. التحرك الوطني والشعبي يعم سوريا ولبنان. التحرك العمالي في لبنان كان ظاهرة يومية. وكان لنقولا شاوي دور ملحوظ في هذا التحرك كما كانت صلاته بالمنظمات النقابية، عمال الأفران، والترامواي، والتبغ، والكندرجية، والمطابع، قوية وشبه

يومية. وتحت إشراف نقولا شاوي تم إضراب عمال الافران العام ١٩٣٦. فهو الذي كان يحضر الاجتماعات التحضيرية التي تعقد تارة على رمال رأس بيروت وتارة في كرم الزيتون بالأشرفية ويساهم في تشكيل لجان الإضراب، وإعطاء التوجيهات النقابية والسياسية للعمال، كي لا يقعوا في المقالب التي يضعها المستعمرون واصحاب الأعمال، لحرمانهم من الحصول على حقوقهم.

الانتخابات النيابية في بيروت، خاضها مرشحان عن العمال هما سعد الدين مومنة، وأرتين مادويان، وقد ساهم نقولا شاوي مساهمة نشيطة فيها، ويذكر في هذا المجال أن سعدالدين وأرتين نالا أكثر من ٤٠٠ صوت، علماً بانه لم تكن النساء تشترك في الانتخابات. وكان عدد الناخبين في بيروت قليلاً. وقد فوجئت الدوائر الاستعمارية بتلك النتائج غير المنتظرة وقد أوقعت النتيجة التي حصلها سعدالدين خيرالدين الاحدب مرشح السلطة أنذاك، في «البالوتاج».

في أثناء الإضراب الخمسيني في سوريا أبعدت السلطات الاستعمارية فرجالله الحلو إلى لبنان حيث التقى في بيروت نقولا شاوي واخذا يقومان مع أرتين مادويان وناصر حدّة، باعمال القيادة الحزبية. وكان التعاون بينهم جيداً وبناء، فحكمة فرجالله التقت مع ديناميكية نقولا شاوي، وتجربة أرتين مادويان، وقد أسفرت عن نتائج ايجابية في تلك المرحلة. فمن الانتخابات النيابية العام ١٩٣٤، حتى مطلع العام ١٩٣٧ كانت مرحلة جيدة وعامرة بمبادرات خلاقة. ويمكن إيجازها بالآتي:

- الاشتراك في الانتخابات النيابية ١٩٣٤ - عقد مؤتمر زحلة للمثقفين الديمقراطيين العرب الذي بحث موضوع تحرر البلدان العربية، وتحقيق الوحدة العربية - صدور مجلة «الدهور» كأداة لتنظيم وتوجيه الجماهير الشعبية والوسط المثقف بشكل خاص - صدور مجلة الطليعة كأداة نضالية ضد الاستعمار والفاشيستية وجمع كلمة الكتاب والأدباء العرب تحت مظلة التقدمية والديمقراطية، والتحرر الوطني - صدور كتابي سليم خياطة «حميات في الغرب» و«الحبشة المظلومة» - تنظيم النضال ضد الفاشيستية وتشكيل «لجنة الدفاع عن الحبشة»، وكان نقولا شاوي أحد مؤسسيها الرئيسيين وهو كان يحرر جميع ما نشرته من بيانات، وما قدمته من مذكرات. اضرابات العمال المتعددة: (اضراب السواقين، وعمال الأفران، وعمال المطابع الخ..).

ومنذ أواخر العام ١٩٣٤، أصبح نقولا شاوي، بحكم صلاته وكفاءاته ومهماته، على تماس بأساطين الصحافيين والكتاب من امثال: جبران التويني، الشيخ فؤاد حبيش، ميشال زكور، توفيق يوسف عواد، يوسف ابراهيم يزبك، الياس أبو شبكة، كاظم الصلح، ابراهيم حداد... وكان له من ذوقه السليم وتجربته في مجلة «الدهور» وفي الصحافة الحزبية افضل مساعد على تأسيس جريدة «صوت الشعب» في ١٥ نوار ١٩٣٧ التي ما لبثت أن اصبحت، ومنذ مطلع الأربعينات وبفضل

مساهمة نقولا الرئيسية، في طليعة الصحافة اللبنانية محتوى وشكلاً.

في العام ١٩٣٥ أصدر الحزب مجلة «الطليعة». وكان «مؤتمر المثقفين الثوريين العرب» المنعقد سنة ١٩٣٤ في معلقة زحلة، بمبادرة من الحزب وبرعايته، قد قرر إصدار مجلة تكون لسان حال الحركة التقدمية الوحدوية العربية. صدرت أولاً في دمشق برئاسة فؤاد الشايب، وبترخيص من الحكومة السورية. ثم انتقلت إلى بيروت ورئس تحريرها الاستاذ رجا حوراني، ثم عادت إلى دمشق برئاسة رجا نفسه.

كانت «الطليعة» محراباً لكل كاتب ديمقراطي متحرر، والذين كتبوا فيها كثر وفي طليعتهم نقولا شاوي الذي أولى المجلة كامل اهتمامه ورعايته. ويكاد لا يخلو عدد من اعدادها على مدى خمس سنوات من مقال لنقولا كتبه أو ترجمه. وبذلك واكب نقولا، بجدارة وكفاءة وحسن اداء، ركب المثقفين الوطنيين التقدميين من جميع الأقطار العربية.

العام ١٩٣٦، كان عاماً زاخراً بالنضال الوطني. في سوريا يتصاعد أوار النضال ضد الاستعمار. فيتحول إلى إعلان الإضراب العام في دمشق ويمتد إلى ٥٠ يوماً ويعرف تاريخياً بالإضراب الخمسيني. وقد أثر الوضع السوري على لبنان، واخذت القوى القومية والوطنية الديمقراطية اللبنانية تتحرك، وتستعد منتظرة نتائج كفاح الشعب السوري. وكان نقولا شاوي في صلب معركة التحفز اللبناني. وبخاصة في المجال النقابي العمالي، والمجال الإعلامي عبر جريدة «الرابطة الشرقية»، التي يملكها الاستاذ ابراهيم حداد. وقد وضع ابراهيم جريدته بتصرف الحركة التقدمية اللبنانية، بحيث افسح في المجال امام الحزب الشيوعي اللبناني لقول كلمته على صفحاتها، وكان نقولا شاوي يشكل صلة الوصل بين الاستاذ حداد والحزب. وعلى صفحات «الرابطة الشرقية»، نشر الحزب الشيوعي، بواسطة نقولا شاوي، رأيه في انتقاد المعاهدة اللبنانية ـ الفرنسية، وغير ذلك مما كان بالإمكان نشره بصورة علنية.

وعندما انتصرت الجبهة الشعبية في فرنسا وتشكلت حكومتها برئاسة ليون بلوم، زعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي، نظم الحزب الشيوعي اللبناني، في ١٤ حزيران سنة ١٩٣٧، مظاهرة انطلقت من ساحة الشهداء رافعة اليافطات الكبيرة الحاملة تحيات الشعب اللبناني إلى الشعب الفرنسي، ويافطات أخرى تحمل مطالب الطبقة العاملة وجماهير الشعب. وكان نقولا شاوي مع فرج‌الله الحلو وأرتين مادويان من منظمي تلك المظاهرة التي تصدى فيها المتظاهرون لقمع رجال السلطة وجرح فيها العامل الأرمني سيروب سوبلكيان.

وتنتهي سنة ١٩٣٦ وسوريا ولبنان يتابعان النضال من أجل تصديق المعاهدتين في البرلمان الفرنسي. وكان الفاشيست الفرنسيون، بما لهم من نفوذ وتأثير على سياسة فرنسا الخارجية،

يعرقلون التصديق على المعاهدتين. وفي تلك الاثناء كانت الجبهة الشعبية قد انتصرت في اسبانيا وشكلت حكومتها الوطنية. ولكن الفاشيست بقيادة الجنرال فرانكو اعلنوا العصيان وقاموا بثورة مضادة. وقد ايدتهم ايطاليا الفاشية، والمانيا النازية. وقدمتا لهم السلاح، والدعم السياسي والمعنوي. في حين وقفت الديمقراطيات الاوروبية، وبخاصة فرنسا وانكلترا، موقفاً «حيادياً»، تجاه ما يدور من صراع مسلح في اسبانيا. الأمر الذي جعل الامور تتطور لغير صالح الجمهوريين الاسبان، ولم يعد بالإمكان متابعة الدفاع عن الجمهورية واستلم الحكم فرانكو مع ما يحمله من تعاليم الفاشيست، وأصول سلطتهم القمعية. في هذه المرحلة أخذ نجم نقولا شاوي السياسي يتلألأ، ويزداد اشعاعة واتساعاً. ويمكن القول أن نقولا شاوي أخذ يدخل إلى كل منتدى ووسط، ويسير في جميع المجالات، ويوسّع صلاته بالجماهير، ويشترك في المفاوضات مع الشخصيات السياسية، كما لمع في مجال التنظيم النقابي والحزبي، وبخاصة في الظروف السرية. ولنقولا شاوي يعود الفضل الرئيسي في ترجمة تقرير ديمتروف حول الجبهة الوطنية ضد الاستعمار، والجبهة الموحدة للطبقة العاملة، والجبهة الشعبية الواسعة للنضال ضد الفاشيستية.

تقرير ديمتروف هذا كان في ذاك الحين، سنة ١٩٣٧، ولا يزال حتى يومنا هذا بوصلة للمناضلين من أجل التحرر والتقدم، من أجل منع الفاشيستية من الوصول إلى السلطة، من أجل التطور والتقدم الاجتماعي. والترجمة اللبنانية لتقرير ديمتروف، هي الأولى في البلدان العربية.

عام ١٩٣٧

حتى مطلع كانون الثاني ١٩٣٧، كان الذين يقومون بمهمات القيادة المركزية هم، فرج‌الله الحلو، أرتين مادويان، نقولا شاوي وناصر حدّة ولم يكن هناك لا مكتب سياسي، وحتى ولا امانة عامة. كان هناك أمين عام هو خالد بكداش. ولكنه كان غائباً عن الوطن منذ مطلع العام ١٩٣٣.

في كانون الثاني ١٩٣٧ عاد خالد بكداش إلى بيروت قادماً من فرنسا. وقد اقيم له استقبال في مرفأ بيروت. وبعد استراحة قصيرة في فندق «القصر الملوكي» بساحة الشهداء ذهب في مساء اليوم الذي قدم فيه إلى دمشق بالقطار ورافقه نقولا شاوي، وفرج‌الله الحلو، ورشاد عيسى. وبعد مدة قصيرة، عقد اجتماع، في شهر شباط، في دمشق حضره ممثلو منظمات الحزب في سوريا ولبنان. دام الاجتماع أكثر من يومين ألقي فيه تقريران اساسيان، تقرير سياسي ألقاه خالد بكداش، وتقرير تنظيمي حول بناء الحزب، وطبيعته، وقواعده الاساسية، القاه فرج‌الله الحلو. كما القيت مداخلات عديدة لممثلي المنظمات في دمشق وبيروت وسواهما من المناطق. في هذا الاجتماع انتخبت سكرتاريا للحزب من أربعة هم: خالد بكداش، رشاد عيسى، فرج‌الله الحلو، نقولا شاوي. واستمرت هذه

القيادة تمارس مهماتها في قيادة الحزب حتى اعتقال فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي في تشرين الثاني ١٩٣٩.

صدور « صوت الشعب »

كان اجتماع اللجنة المركزية الموسع المشار إليه، قرر اصدار جريدة يومية علنية. وعلى هذا الأساس تابع الحزب الشيوعي اللبناني ملاحقة هذه القضية.

وفي ١٥ نوار ١٩٣٧ صدر العدد الأول من جريدة « صوت الشعب » تتصدره افتتاحية لصاحب الجريدة ورئيس تحريرها نقولا شاوي بعنوان « في سبيل الحرية والخبز ».

كانت « صوت الشعب » الجريدة العلنية اليومية، بعد جريدة « الانسانية » التي صدرت سنة ١٩٢٥. وتمكنت « صوت الشعب » بلباقة نقولا شاوي، واتساع علاقاته مع المثقفين، وحسن درايته بالفن الصحفي، من أن تكون محط انظار الأوساط الوطنية: من كتاب ورجال سياسة. وإذا استعرضنا الرعيل الذي كتب فيها، مثل توفيق يوسف عواد، يوسف ابراهيم يزبك، الياس خليل زخريا، عمر فاخوري، رئيف خوري، سليم خياطة، مارون عبود، فايز يارد، جورج حكيم، اميلي فارس ابراهيم من لبنان. وكامل عياد، جميل صليبا، منير سليمان، نسيب الاختيار، وصفي قرنفلي، شوقي بغدادي، حسيب الكيالي، مواهب الكيالي، وصفي البني، نجاة قصّاب حسن، والعديد سواهم من كبار حملة الأقلام في سوريا، والبلدان العربية. بالإضافة إلى ابرز وجوه الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان: فرج‌الله الحلو، مصطفى العريس، خالد بكداش، الدكتور سميح علم‌الدين وسواهم، اذا استعرضنا ذلك ندرك كم هو الجهد الذي بذله نقولا شاوي شخصياً لجعل « صوت الشعب » منبراً يقدم كبار كتابنا من خلاله أفضل وأجمل، وأمتع ما تنتجه أفكارهم وتخطه أقلامهم. أنا لن انسى عندما كان ذواقو الفنّ الصحفي في بيروت يقبلون على مطابع « صوت الشعب » التي يعود لنقولا شاوي الفضل في اغنائها بأنواع الحروف وسائر المعدات، لمعاينة مستوى هذه الجريدة الوطنية المجاهدة. ومن الذين زاروا مطابع « صوت الشعب »، الوزير السابق عبدالله المشنوق، ومصطفى فتح‌الله صاحب مطبعة الكشاف، ورأفت بحيري وغيرهم.

عندما نذكر وثبة « صوت الشعب » بين ١٥ نوار سنة ١٩٣٧، وأواخر ايلول ١٩٣٩، امتداداً إلى اواخر تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ والشوط الذي قطعته في تقدم الفن الصحفي، وفي جمع تلك النخبة من الكتاب حولها، نذكر نقولا شاوي، المتفاني، الصامد رغم الصعوبات والمحن المادية. ولكن نقولا كان من أولئك الذين لا يتراجعون أمام صعوبة، مهما كبرت، وطالما كان لتعاونه الوثيق مع رفيق نضاله فرج الله الحلو، أطيب النتائج في دفع مسيرة الحزب على كل صعيد.

إن ارتباط نقولا شاوي الوثيق بفرج‌الله الحلو توطّد بعد شباط ١٩٣٧، أي بعد انتخابهما عضوين في امانة الحزب (السكريتاريا). وقد بـرزا كشخصيتين سياسيتين لبنـانيتين، واتسعت صلاتهما بالوسط الوطني، وكان لنقولا دور أساسي في ذلك بحكم ما كانت له من علاقات بالصحافيين، والطلاب والشخصيات الوطنية. وقد عمـل بجد واخلاص لتـوسيـع دائـرة صلات فرج‌الله العامة، وتقوية صلاته بالوسط الوطني اللبناني الذي كان نقولا قد دخله بحكم وجوده في بيروت من جهة، وعلاقاته الأكثر شمولاً من جهة أخرى.

في مجال توزيع العمل في القيادة (السكريتاريا) اهتم نقولا بشكل رئيسي بمسألة الإعلام والثقافة، وبالعلاقات العامة والشؤون الدولية. وهذا الاهتمام جعل نقولا يهتم بالنشاط السياسي، لأن الإعلام الصحافي، والعلاقات العامة تفرض بالضرورة المزيد من توسيع دائرة النشاط السياسي ولا سيما في مجال النضال الاعلامي والتنظيمي، ضد الفاشيستية سنة ١٩٣٧، ومن ثم في الاعمال التحضيرية للمؤتمر الأول لمكافحة الفاشيستية المنعقد في ٧ نوار ١٩٣٩، في بيروت.

وجريدة «صوت الشعب» برئاسة نقولا شاوي أولت هذا المؤتمر اهتماماً بارزاً، وأصدرت عدداً خاصّاً به، تضمّن حصيلة اعمال المؤتمر، من الخطب التي القيت فيه، إلى التقارير التي قدمتها اللجان المختصة، إلى التحيات الموجهة إليه من لبنان وسوريا وغيرهما من الأقطار العربية، إلى المقررات التي اتخذها المؤتمر والمناقشات التي جرت فيه. كل ذلك نشرته «صوت الشعب» وتحت إشراف نقولا الذي كان أحد أركان المؤتمر.

زيارة غريزا وباريل

في سنة ١٩٣٨ زار لبنان النائبان الشيوعيان الفرنسيان جاك غريزا وفيرجيل باريل موفدين من قبل الحزب الشيوعي الفرنسي، بناء على اقتراح من «الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا»، للقيام بجولة استطلاعية، عبر الاتصالات الحيّة الملموسة بالناس. وقد أولى الحزب الشيوعي اللبناني هذه الزيارة اهتماماً كبيراً. ورافقهما في تجوالهما تارة فرج‌الله الحلو، وحيناً نقولا شاوي. وقد أكدت اللقاءات التي أجراها النائبان مع العمال والفلاحين والمثقفين، والصحـافيين، وكـذلـك اللقـاءات الفردية مع الشخصيات من مختلف الأوساط، اكدت جميعها على مكانة قائدي الحزب فرج‌الله ونقولا شاوي. تشهد على ذلك حفلة التكريم التي اقامها المثقفون اللبنانيون على شرف النائبين وحضرها العشرات من كبار الادباء والكتاب من امثال: جبران تويني، الياس أبو شبكة، ميشال ابو شهلا، توفيق يوسف عواد، يوسف ابراهيم يزبك، انطون تابت. والخطاب الذي القاه باسم المثقفين اللبنانيين توفيق يوسف عواد بالمناسبة يؤكد الدور الذي لعبه نقولا شاوي بالذات بوصفه المسؤول عن العمل بين المثقفين.

و « صوت الشعب » برئاسة نقولا شاوي عكست إعلامياً وسياسياً أهمية زيارة النائبين ومدى تأثيرها على تطور النضال الوطني والديمقراطي في لبنان.

في سنة ١٩٣٧ - في خريف تلك السنة، جرت انتخابات نيابية، وقد رشح الحزب عن المقعد الأرثوذكسي في بيروت نقولا شاوي. وتم اتفاق بين نقولا شاوي والزعيم الوطني رياض الصلح، وعمر بيهم، وممثلي حزبي الهانشاق والرامغاوار الارمنيين على خوض المعركة بقائمة واحدة. ولأول مرة في تاريخ لبنان البرلماني، تتم فيها خطوة جبهوية كهذه. وكان لهذا الاجراء تأثير واسع في صفوف الناخبين البيروتيين، وبخاصة أن القائد النقابي الكبير سعد الدين مومنة كان مرشحاً للانتخابات عن العمال وقد لقي ترشيحه صدى في الوسط الشعبي.

ومما تجدر الإشارة إليه، المهرجان الانتخابي الضخم الذي اقيم تضامناً مع القائمة « الموحدة » قائمة الصلح - شاوي، الذي عقد في « نادي سحاقيان » وحضره الألوف من المواطنين الأرمن، ولما ظهر أركان القائمة على منبر الخطابة، حيا رياض الصلح الجماهير بقبضة يده دليلاً على التضامن في المعركة.

ولكن الاستعمار لم يمكن الوجوه الوطنية الديمقراطية الجديدة من الوصول إلى البرلمان، فلجأ إلى تزوير مكشوف، وارهاب شديد فرضا على القائمة الانسحاب من المعركة بعد بدئها بساعات قلائل.

وتوطدت بين نقولا شاوي ورياض الصلح صداقة شخصية، برزت بشكل ملموس، في أثناء رئاسة رياض لأول حكومة وطنية سنة ١٩٤٣، ثم في أثناء مناقشات مجلس الامن الدولي للقضية اللبنانية السورية - شباط ١٩٤٦ في لندن - وكان رياض الصلح من أركان الوفد الرسمي اللبناني، ونقولا شاوي موفد الحزب الشيوعي لمتابعة سير المناقشات وتقديم المساعدة لوفدي سوريا ولبنان، نظراً لما له من علاقات وديّة مع القوى الديمقراطية والشيوعية في فرنسا وانكلترا، مما سنأتي على تفصيله لاحقاً.

أعطى نقولا شاوي « صوت الشعب » كل ما يملكه من طاقات: فإصدارها بصورة منتظمة، وتحسين ترتيبها، والدقة بمواعيد الصدور، كان شغل نقولا الشاغل. في ١٩٣٨، بعد معركة الانتخابات، واجه الحزب و « صوت الشعب » صعوبات مالية قاسية، وكان نقولا يضطر لصرف قسم كبير من الوقت لتدبير تكاليف العدد - ثمن الورق - أجرة المطبعة - مرتبات العمال. وهذا الوضع فرض إعادة صدور « صوت الشعب » اسبوعية، بعد أن كانت قد صدرت يومية في أثناء المعركة الانتخابية. وبانتقال قيادة الحزب، خالد بكداش وفرج‌الله الحلو، ونقولا شاوي، إلى

دمشق في أواخر العام ١٩٣٨، اصبحت «صوت الشعب» تصدر فعلاً اسبوعية، أما اخبار بيروت ولبنان فكانت تزود بها برسالة تلفونية وتوضع تحت عنوان: بيروت ـ لمراسلنا كذا!...

في ربيع ١٩٣٩ عادت قيادة الحزب إلى بيروت وعادت «صوت الشعب» تطبع في بيروت كذلك، في ذاك الوقت كانت حتى الحرب تتصاعد حرارتها، وما يكاد هتلر يحقق انتصاراً في مكان، حتى يرفقه بعد فترة بانتصار آخر، مستفيداً من وهن الديمقراطيات الغربية، واستعدادها للتراجع. كل ما في العالم من تحركات سياسية ومظاهر عسكرية، وامتدادات اقليمية، كان يشير إلى أن الحرب واقعة لا محالة، وأنها ستكون حرباً استعمارية ضد استقلال بلدان اوروبا، وضد الاتحاد السوفياتي وبلدان حركة النضال الوطني، المستعمرات وأشباه المستعمرات، وبخاصة سوريا ولبنان.

كل العالم كان ينتظر الكارثة، ولم يبق من ضرورة لتقديم براهين أكثر مما كان يقدمه يومياً هتلر وموسوليني وارهاطهما في العالم، على أن الحرب تقترب، وكانت اتفاقية ميونيخ أكبر تأكيد على ذلك. في وضع كهذا كان من المفروض على الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان أن يستدرك الانعكاسات المحتملة على لبنان وسوريا وعلى وضعه كحزب ولكن شيئاً من هذا لم يحصل على الصعيد الأمني. وعندما بدأت الحرب بهجوم صاعق قام به هتلر ضد بولونيا وأتبعه بآخر ضد فرنسا وانكلترا، كان الحزب مضطراً إلى المناورة لكسب الوقت. وعلى هذا الأساس وبتوجيه منه، أهدى بعض مزارعي التبغ في بلاد جبيل، ما كانوا وضعوه من محصولهم المعدّ للتصدير، لدى شركة مونوبول التبغ، للجيش الفرنسي. وكل ما حصلوا عليه كتاب تقدير من القائد العسكري العام وجه إلى المزارعين برسالة خاصة.

عندما أعلن الاتفاق السوفياتي ـ الألماني أيده الحزب ببيان نشر في صوت الشعب. ولكن قلم الرقيب في المفوضية الفرنسية شطب معظمه، وأصبحت «صوت الشعب» كسواها، خاضعة للرقابة، ومعظم مساحات صفحاتها اصبح يصدر ابيض، ولم يعد بالإمكان متابعة صدورها، فتوقفت بقرار من المفوض السامي الفرنسي.

في شهر كانون الأول ١٩٣٩، أصدر الحزب بياناً هاجم فيه الحرب، ووصفها بأنها حرب استعمارية كما هاجم قرارات المفوض السامي الفرنسي. وعلى أثر توزيعه شنت الأجهزة الاستعمارية حملة اعتقالات شملت مناطق لبنان وسوريا وكان في طليعة المعتقلين فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي.

ولكن القائدين، كانا بالفعل قائدين في النظارة وأمام افراد الأمن العام الفرنسي، كما كانا وهما في ساحات العاصمة، وفي المؤتمر، وشتى منابر النضال. ولما حاول أحد المفوضين في الأمن

العام الفرنسي التطاول على نقولا شاوي بالضرب، رد له نقولا الصاع صاعين، واعتقد أولئك الارهابيون، أنهم باللجوء إلى القساوة، يرغمون نقولا شاوي على ما يريدون فشدوا يده اليمنى بالكلبجة إلى حديد شباك النظارة. ظل نقولا ليلاً بطوله على هذه الحال، البرد قارس. واعتقد الإرهابيون أنهم يحصلون من نقولا على تصريح بتأييد تدابيرهم، ولكنهم خسئوا امام صمود القائد، وصلابة إرادته. لقد برهن نقولا في تلك الساعات أنه بالإضافة إلى كونه كاتباً واديباً، وصحافياً فناناً، وقائداً وطنياً سياسياً، برهن على انه مناضل شجاع في السجن، كما في خارجه.

وبعد النظارة، لدى الأمن العام، نقل نقولا مع فرج‌الله والعشرات من الرفقاء في سوريا ولبنان، إلى سجن القلعة، في بيروت، وأحيلوا إلى المحاكمة لدى المحكمة العسكرية.

★ ★ ★

كم كنا نود أن لا يغيب نقولا شاوي عنا في مثل الظرف العصيب الذي غاب فيه وبمثل السرعة التي ذهب فيها. وكان الأمل بأنه سيعيش عمره كاملاً نظراً للصحة الجيدة التي كان يتمتع بها، والحيوية المتدفقة البادية على وجهه، ونشاطه. وبذلك لم يتمكن أبو زهير من أن يسير شوطاً أبعد مما سار به في كتابة مذكراته. فقد وصل إلى العام ١٩٣٣، وهو العام الذي انضم فيه إلى الحزب الشيوعي. العام الذي بدأ فيه فعلاً نشاطه ونضاله السياسي، وعمله التنظيمي، كنا نأمل أن يحدثنا نقولا عن نفسه بنفسه فيما بعد العام ١٩٣٣، وبخاصة عن الحقبة التي تمتد بين العام ١٩٣٣، والعام ١٩٣٧. فهو وحده أدرى بها من سواه.

لقد التقيت الرفيق أرتين مادويان وهو الوحيد الذي عايش نقولا شاوي في تلك المرحلة وتداولت الحديث معه حول نشاط نقولا بعد سنة ١٩٣٣، وكنا متفقين على ما تذكرناه من تلك النشاطات، وأرى من الواجب علي أن أدونها بالقدر الذي استوعبته، سواء مما أعرفه شخصياً، وما سبق لي أن تبادلت الحديث مع نقولا حوله، أو مما سمعته من أرتين مادويان، أو سواه ممن سمعوه بالتواتر عن نشاط نقولا شاوي الخصب.

انضمام نقولا شاوي إلى الحزب الشيوعي، كان بالفعل حدثاً بالغ الأهمية بالنسبة لنشاط الحزب وتطور عمله اللاحق. فنقولا كان طاقة نادرة، تتصف بصفات إيجابية عديدة ليست متوفرة في الكثيرين ممن تعاقبوا على قيادة الحزب في ذاك الزمن.

في تلك المرحلة، بين أواخر العام ١٩٣٣ والعام ١٩٣٦، كانت الأممية الشيوعية قد أوفدت محمود المغربي المعروف عندنا باسم « أبو داود » للعمل في لبنان وسوريا. وكان لا بد من أن تتوطد العلاقة بين أبو داود ونقولا شاوي. وكما سبق لي وقلت، إن نقولا شاوي في تلك الحقبة تحمل مسؤوليات كثيرة. فمن كاتب شبه دائم للمناشير التي يصدرها الحزب، إلى مجيب على الرسائل التي

ترد من لجان الحزب في المناطق، إلى رئيس تحرير لجريدة الحزب السرية «نضال الشعب»، إلى مترجم من درجة أولى، فإلى مناضل في الهيئات الاجتماعية مثل «لجنة الدفاع عن الحبشة»، إلى مشرف على طبع الكتب التي أصدرها الحزب في تلك الفترة الخ... ونقولا اشترك مع سليم خياطة في تحضير وثائق مؤتمر المثقفين الديمقراطيين المنعقد في زحلة سنة ١٩٣٤، وهو الذي أشرف على طبع البيان الصادر عنه «حول الوحدة العربية». كان نقولا شاوي بالفعل خلية نحل قائمة بذاتها يشتغل ولا يكل، ويعمل ولا يملّ.

مع فرج‌الله الحلو

عندما انضم نقولا شاوي إلى الحزب الشيوعي سنة ١٩٣٣ بواسطة سليم خياطة ـ وقد أسهب نقولا في مذكراته حول هذا الحدث ـ كان فرج الله الحلو في موسكو، وعاد منها في تموز ١٩٣٤، وبعد مكوثه بضعة اشهر في حصرايل، عاد إلى مقر قيادة الحزب في بيروت، وكلف بالسفر إلى حلب، حتى ذلك الحين لم تكن العلاقة قائمة بين فرج‌الله ونقولا. قال أرتين مادويان عندما سألته عن اللقاء الأول بين فرج‌الله ونقولا: عدت من موسكو في ربيع ١٩٣٥، وفي أثناء وجودي في المنزل الذي كان يسكنه محمود المغربي (أبو داود) بالقرب من مقابر اللاتين في محلة الزيتونة، قيل لي إن في الغرفة الثانية موجود فرج‌الله الحلو المعروف باسم «ناجي». وقد استدعي من حلب للبحث مع قيادة الحزب. وفي هذه الاثناء كان نقولا شاوي قد أصبح حركة دائمة في الحزب، وموجود باستمرار تقريباً بالقرب من أبو داود.. ومن المعتقد أنه في ذاك الوقت، خلال ربيع العام ١٩٣٥، تم تعارف فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي. ولكن التلاقي الأكثر تماساً حصل بعدما أصبح نقولا شاوي عضواً في اللجنة المركزية للحزب في أواخر العام ١٩٣٦. وازداد الارتباط بينهما، بعد انتخابها في سكريتاريا الحزب سنة ١٩٣٧، آنذاك لم يكن في الحزب مركز قيادي اسمه «المكتب السياسي». كانت توجد لجنة مركزية و «سكريتاريا» وفي مرات عديدة وبين اجتماعي اللجنة المركزية، كانت بيانات الحزب تصدر موقعة اما باسم الحزب الشيوعي، أو باسم «غرفة السكريتاريا».

قبل العام ١٩٣٦، كانت الشخصية السياسية للحزب الشيوعي اللبناني مفقودة، والبيانات الرسمية كانت توقع باسم الحزب الشيوعي السوري. وبعد اجتماع دمشق للجنة المركزية الموسع شباط ١٩٣٧، ورغم ان الحزب ظل حزباً سوريا لبنانياً وأمينه العام الفعلي خالد بكداش فقد بدأ يصدر في الصحافة أحياناً اسم فرج‌الله الحلو مقروناً إلى لقب أمين عام الحزب الشيوعي اللبناني بحكم وجوده مع نقولا في السكريتاريا ولأسباب تكتيكية. وعندما جرت المعركة الانتخابية في خريف ١٩٣٧، برزت الشخصية اللبنانية للحزب الشيوعي، بشخصي فرج‌الله الحلو مرشحاً عن

جبل لبنان، وبنقولا شاوي مرشحاً عن بيروت.

ولا بد من التأكيد مجدداً على أهمية التعاون الذي حصل بين نقولا شاوي وبين أبرز زعيمين لبنانيين، رياض الصلح وعمر بيهم وكانا مرشحين عن بيروت، هذا التعاون في المعركة الانتخابية اكسب الحزب الشيوعي مزيداً من الانطلاق في الميدان الوطني، فتكسّر الكثير من الجليد، وتهدم العديد من الجدران التي كان الاستعمار وصنائعه أقاموها، بين الحزب وقوى معادية للاستعمار وكذلك بين الفئات الشعبية التي تدافع عن مصالحها.

المعركة الانتخابية سنة ١٩٣٧، كانت مناسبة سياسية كبرى لابراز نقولا شاوي كشخصية وطنية قادرة على القيام بالدور التاريخي المفروض بالمناضل الوطني أن يقوم به.

ومع الأهمية السياسية والوطنية والتاريخية التي ارتداها إقدام الحزب الشيوعي اللبناني على ترشيح بعض وجوهه البارزة فرجالله الحلو عن جبل لبنان، ونقولا شاوي وسعد الدين مومنه عن بيروت كما ورد ـ كان لهذا العمل أهمية تنظيمية: فقد أدت المعركة الانتخابية إلى اتساع نفوذ الحزب في بيروت، ونشوء فرق حزبية عديدة بين العمال والمثقفين والطلاب. وكذلك كان الوضع في جبل لبنان من حيث الوصول إلى قرى جديدة أصبح للحزب لاحقاً فيها منظمات وأنصار ومحبذون.

وما انعقاد المؤتمر الأول لمكافحة الفاشيستية في نوار ١٩٣٩، في بيروت، وذاك الإقبال عليه ومشاركة شخصيات علمية وثقافية ووطنية، وإعلامية لبنانية وعربية فيه، سوى دليل وتأكيد على أن ما زرع سابقاً وبخاصة في المعركة الانتخابية، وعبر جريدة «صوت الشعب» التي يرئس نقولا شاوي تحريرها، كان له الأثر البالغ في التحول نحو الجماهير الكادحة من جهة، ووسط الحركة الوطنية من جهة أخرى، وليس بالقليل الأهمية وجود شخصيات وطنية وثقافية وإعلامية مدت أيديها إلى الحزب الشيوعي وإلى حركة مكافحة الفاشيستية مثل، رياض الصلح، جبران التويني، توفيق يوسف عواد، الياس ابو شبكة، اسكندر البستاني، يوسف ابراهيم يزبك، ميشال أبو شهلا، عمر فاخوري، يوسف الهراوي، الوزير ميشال زكور، والعديد سواهم. صحيح أن سياسة الحزب الشيوعي التي انعطفت انعطافاً واسعاً في سنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ هي في أساس هذا النجاح، ولكننا لا ننسى أن الإعلام الحزبي الذي كان نقولا شاوي مسؤولا عنه في تلك الحقبة، كان له دور كبير مؤثّر في ذلك. فمهما كانت الخطة صحيحة وصائبة، فاذا لم تعكس إعلامياً بشكل جيّد، ومرن تفقد قدرتها على الوصول إلى الجماهير الشعبية والوطنية.

وهناك عامل ذاتي آخر لعب دوراً مهماً جداً في الوثبة النوعية التي حققها الحزب بين أعوام

١٩٣٦ و ١٩٣٩، وتمثل بالعلاقات الرفاقية الوثيقة بين قائدي الحزب آنذاك، فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي.

لقد عمل نقولا شاوي قبل أن ينضم إلى الحزب سنة ١٩٣٣، كما لو أنه كان عضواً في الحزب، لقد كان شيوعياً ملتزماً، قبل نيله شرف العضوية سنة ١٩٣٣. كان انتسابه التنظيمي تكريساً لواقع قائم يعبر عن نفسه كل يوم، بل وفي كل لحظة، استعداد نقولا للقيام بما تفرضه مهمات الحزب. وعلى هذا الأساس سمعت محمود المغربي (ابو داود) يقول له، وكان البحث بينهما يدور حول توزيع منشور بمناسبة حدث وقع في البلد، قال أبو داود، اكتبه يا نقولا، ولما حاول نقولا الاعتذار لانشغاله بعمل آخر، قال له (أبو داود)، ومن غيرك سيكتبه؟. لا، أنت الذي يجب أن تكتبه لأنك ملم بالوضع وقادر أكثر من سواك على معالجة الحدث، وكان نقولا جالساً على الحصيرة في غرفة لي ومسنداً ظهره إلى الفرشة المطواة على الطريقة الفلاحية. وبالحال أخذ نقولا القلم وكتب المنشور في وقت لم يتجاوز النصف ساعة.

كان نقولا شاوي مثقفاً ولمع نجمه في ساح المثقفين، ومعهم أقام أوسع العلاقات الودية، وبالوقت نفسه كان مناضلاً نقابياً يلم بقضايا العمال. ولكم كان العمال يطمئنون عندما يأتي نقولا لحضور اجتماع لهم. من سيأتي لعندنا، هكذا كان حنا الزرقا وسعد الدين مومنه يطرحان السؤال عندما يقترحان إيفاد مسؤول حزبي لحضور اجتماع لهم، وعندما يجابون بأن «بهيج»، أي نقولا، هو الذي سيأتي، يبتسمان ويطمئنان.

فنقولا شاوي الطالب والمثقف الموجود دائماً مع الرتل الثقافي في «الدهور» و«الكوكب» و«الرابطة الشرقية» و«الطليعة»، كان دائماً موجوداً مع عمال الترامواي، والتبغ، والخبازين، والمطابع، والنجارين، والكندرجية، ومستخدمي التجارة، ونقولا نفسه هو الذي عرّفني عندما عملت في منظمة بيروت ١٩٣٥ - ١٩٣٦ بكل هذه الطلائع الخضراء من ابناء شعبنا.

ميزة نقولا شاوي الخاصة هي أنه إذا صمم على القيام بمهمة لا يتراجع عنها ما لم ينفذها. فمن عادته أنه لا يسلك طريقاً واحدة، ولا يستخدم وسيلة واحدة فقط، بل يلجأ إلى عدة وسائل حتى إذا لم تنجح واحدة، أصابت الأخرى، أو سواها، النجاح. خالد بكداش كان سنة ١٩٥٩، في أوروبا وعائلته بقيت هنا وقد بعث يطلبها إليه، وخروجها لم يكن سهلاً، ولكنها وصلت أخيراً إليه وكنتُ آنذاك في زيارته فقال، ما من قضية مهما كانت صعبة ويضع نقولا يده فيها إلا وتتحقق. وتابع قائلاً، أنا ذاتي تمكنت من اجتياز مطار بيروت بفضل جهد نقولا وحسن تصرفه.

نقولا شاوي طاقة لها فعلها وتأثيرها في جميع الميادين والمجالات خصوصاً إذا ما أضيف إليها قلبه الكبير الذي ما احتوى البغضاء إلا على اعداء الوطن، من مستعمرين وصهاينة.

* * *

بعد مضي حوالي الأربعة أشهر على اعتقاله مع فرج‌الله الحلو والعديد من الشيوعيين في تشرين الثاني ١٩٣٩، حكمت المحكمة العسكرية الفرنسية على نقولا شاوي وفرج‌الله الحلو بالسجن خمس سنوات، وبغرامة مالية قدرها خمسة آلاف فرنك ذهباً. وكانا في سجن القلعة ببيروت، حيث مكثا مع رفاقهما مدة من الزمن. وفي صيف ١٩٤٠ نقل نقولا وفرج‌الله والآخرون، إلى سجن «بتدين».

وأمام هيئة المحكمة العسكرية الاستعمارية القى فرج‌الله الحلو خطاباً سياسياً دافع فيه عن سياسة الحزب وهاجم السياسة الاستعمارية الفرنسية وقد نسخه نقولا شاوي على اوراق دفتر السيكارة بخط رفيع جداً وارسله لنا بطريقة فنية لم يدر بها حراس السجن. ولما أتى المكلف بتأمين ايصال الحاجيات إلى السجناء في بتدين المرحوم بوغوص ناتاريان، جلب معه اللباس وفي طياته رسالة نقولا. وقد عمدت إلى نسخه بخط واضح وصدر الدفاع لاحقاً بكامله، في جريدة «نضال الشعب». وكان له وقع جيد في وسط الرفاق، والشخصيات الوطنية التي كانت تصلها «نضال الشعب» باستمرار.

إن ابرز ما قام به نقولا وفرج‌الله في السجن، في «القلعة» ببيروت، أو في «بتدين»، انهما نظما مدرسة لتعليم الرفقاء الذين لا يعرفون القراءة، واولئك الذين بحاجة إلى توسيع معارفهم النظرية، والعملية. ومن هؤلاء الذين قبسوا على أيدي نقولا شاوي وفرج‌الله الحلو مزيداً من المعرفة في اللغة العربية وغيرها من العلوم، حنا الزرقا، اوهانس اغباشيان، أحمد صالح، محمد الديب، ميشال اللعازار وسواهم. كان نقولا يلقي دروساً في الجغرافيا والحساب واللغة الفرنسية، وفرج‌الله يلقي دروساً في اللغة والأدب العربي.

إن التصاق نقولا بفرج‌الله وتمتين أواصر الصداقة بينهما شكّلا في السجن، كما في خارجه، ظاهرة مميّزة كان لها، لاحقاً بعد خروجهما من السجن في صيف ١٩٤١، تأثير فعّال على نشاطهما في قيادة الحزب، وتوجيه سياسته، وتحويله بالفعل إلى حزب جماهيري ينضوي تحت لوائه أعضاء منتسبون يزيدون على ١٨ ألفاً من خيرة عمالنا وفلاحينا ومثقفي بلدنا.

عندما علمنا بأن السلطة الفرنسية قررت نقل نقولا وفرج‌الله وسواهما من الشيوعيين من سجن القلعة في بيروت إلى سجن بتدين، رحنا، خالد بكداش وأرتين مادويان وأنا وآخرون، نفكر فيما

إذا كان بالإمكان اللجوء إلى وسيلة لنزعهم من أيدي الشرطة الفرنسية. وقد تبين إننا نفكر بأمر صعب التحقيق، نظراً للقوة العسكرية المرافقة للسيارات التي ستقلهم من جهة، ولضعف الإمكانات التي بأيدينا من جهة أخرى. كانت الانتصارات الهتلرية تتوالى، وحكومة فيشي تزداد انغماساً في الخيانة، والتبعية للنازيين. هذا الواقع جعلنا نخشى على مصير رفقائنا من أن تمتد إليهم يد الشر النازية.

عندما كان نقولا وفرج‌الله ورفقاؤهما في سجن القلعة كانت الصلات بهم سهلة نسبياً. أما عندما نقلوا إلى بتدين أصبحت الزيارات لعندهم أقل مما كانت عليه في سجن القلعة. هنا في القلعة كانت أسبوعية وأحياناً مرتين في الاسبوع. أما في بتدين فأصبحت شهرية، وأحياناً عند الضرورة، مرتين في الشهر.

عندما نتحدث عن بتدين ونقولا شاوي وفرج‌الله الحلو وسواهما من الشيوعيين، من المفروض إلزاماً، وإحقاقاً للحق والتاريخ، أن لا ننسى المناضل العامل بوغوص ناتاريان المسؤول عن «المساعدة الشعبية» والمكلف بتأمين الصلات مع سجن بتدين، وكذلك تأمين الحاجيات، من مأكل وملبس وغير ذلك، للرفقاء هناك.

زرت بوغوص مرة في منزله وكان يستعد لزيارة سجن بتدين وأخذ أغراض لرفقائنا ورأيته كيف يرتب الاغراض المعدة للسجناء. هنا كيس برغل. وبقربه كيس كشك. وفي الناحية الثانية، مجمع دبس، فأكياس من الصابون، والبصل، والثوم، والفليفلة الحرّة والصعتر، ومجموعة قناني من الزيت وغير ذلك من الحاجيات الضرورية للسجناء. وكم من مرة اضطر بوغوص لعدم وجود سيارة، أو لعدم توفر أجرة سيارة، أن يمشي على قدميه من بتدين حتى الدامور.

كانت لبوغوص، منزلة مرموقة عند نقولا شاوي وفرج‌الله الحلو، وعندما استشهد في المعركة الانتخابية سنة ١٩٤٧، تأثر القائدان كثيراً لفقده، فهو لم يكن مغيث السجين وحسب، بل كان مناضلاً سياسياً وشعبياً محبوباً ومقدراً من أبناء حيّه، ولطالما كان لمداخلاته في الاجتماعات الحزبية تقدير نظراً لملموسيتها وارتباطها بالناحية العملية.

تعرض نقولا شاوي وفرج‌الله الحلو ورفقاؤهم لخطر الموت في سجن بتدين، عندما بدأت الطائرات الانكليزية القادمة من فلسطين تقصف السجن. أما لماذا كانت الطائرات تفعل هذا، فلأن المفوض السامي الفرنسي دانتز كان يتردد إلى قصر بتدين ويقضي بعض الوقت فيه، هرباً من الطائرات الانكليزية التي كانت تعرف الكثير عن تحركاته، وترصد الأمكنة التي كان يلجأ إليها في العاصمة.

إن القصف الشديد، أدّى إلى اندفاع السجناء لكسر أبواب السجن، الأمر الذي فرض على الإدارة والحراس، نقل السجناء، إلى مبنى آخر بالقرب من المبنى القديم « السجن ». ولكن الطائرات الانكليزية اقتفت آثارهم، وراحت تضرب المكان الثاني، عندها رأت الإدارة أن لا مندوحة من نقل المساجين إلى سجن آخر. فنقلوا إلى سجن « بعبدا ». وفي هـذه الأثنـاء كـان « الحلفاء » ـ الانكليز والديغوليون ـ قد حققوا النصر باستسلام القوات الفيشية. وعلى اثر ذلك بدأت السلطات الجديدة بإطلاق سراح المسجونين. فخرج نقولا اولاً من سجن بعبدا، وبعد أسابيع أطلق سراح فرج‌الله. وبخلال شهر كان جميع الشيوعيين قد أطلق سراحهم.

في هذه الاثناء وبعد خروج نقولا من السجن كنت أول من التقاه في بيت استأجرته في المزرعة.. وسكن هناك بضعة أيام. كانت الحال الاقتصادية سيئة بشكل عام. وبخاصة بالنسبة للحزب. لا موارد. وكنا لا نزال في دور نقاهة، ويلزمنا فترة من الزمن لإعادة التنظيم وإقامة علاقات مع الرفقاء المبعثرين، والاصدقاء المشتّتين. لذلك كنا مضطرين لتحمل شظف العيش لدرجة أننا أحياناً لم نتمكن من ايجاد الخبز. وذات ليلة اتيت ونقولا إلى البيت في المزرعة وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل، وكان الجوع متحكماً بنا، ولما لم نجد في البيت سوى بعض الرز الخام، فلا سمنة ولا زيت، فقد اكتفينا بسلقه، أي طبخه بالماء.

لم تطل إقامة نقولا في هذا البيت. فقد استأجر غرفة في بناية « التياترو الكبير ». وبخروج فرج‌الله من السجن وعودة خالد بكداش من دمشق إلى بيروت، بدأنا بإعادة العلاقات مع المناطق، وكانت الحيوية قد بدأت في منظمات الحزب، فكان الرفقاء تلقائياً يعودون إلى تنظيم صفوفهم وبخاصة في طرابلس، وزحلة، وبيروت، وانطلياس، ومرجعيون، وشرتون، وجبيل، وللعلم فإن الصلات خلال وجود فرج‌الله ونقولا بالسجن لم تنقطع، إنما كانت سرية ومحدودة.. ولكنها بعد آب ١٩٤١، استؤنفت بالشكل المعتاد.

أول عمل فكر به الحزب بعد البدء بإعادة تنظيمه، كان تأسيس مجلة تجمع المثقفين، وقسم منهم كان قد برز حول الحزب، في أثناء الحرب، كعمر فاخوري وغيره. وتقرر بعد بحث، ودرس، وتمحيص، أن يتقدم انطون تابت، رئيس عصبة مكافحة الفاشيستية، بطلب إذن بإصدار مجلة، تمت الموافقة على كل شيء إنما بقي الاسم. وهنا يعود لنقولا شاوي الفضل في اختيار اسم « الطريق » فوافق على ذلك انطون وعمر والمجموعة كلها، وتقدم انطون بالطلب ونال الرخصة، وصدرت « الطريق » أسبوعية أولاً في شهر كانون الأول ١٩٤١ كلسان حال لعصبة مكافحة الفاشيستية.

بقيت « صوت الشعب » معطلة بقرار من المفوض السامي الفرنسي من ٢٨ تشرين الثاني سنة

١٩٣٩ ، عند بدء الحرب العالمية الثانية ، إلى مطلع سنة ١٩٤٢ ، وركز الحزب على استعادة الترخيص بإصدارها. وبالرغم من زوال السلطات الفيشية التي عطلتها ، فإن سلطات فرنسا الحرّة أخذت تماطل. وألقي على عاتق نقولا بوصفه صاحب الامتياز ، عبء المراجعات. فكان يومياً يتنقل من مكتب إلى مكتب في المفوضية الفرنسية العليا ، إلى أن استحصل على قرار بالسماح لصوت الشعب بالعودة للصدور. كان ذلك في أواخر العام ١٩٤١. وصدر أول عدد منها في النصف الأول من شهر كانون الثاني ١٩٤٢.

وعند تنظيم الهيئة التحريرية والإدارية لصوت الشعب، كلفت بشؤونها الإدارية، أي اني اصبحت مديراً لإدارتها.

عندما استعيد الترخيص بصدور «صوت الشعب»، اتفقنا مع مطبعة الكشاف في المعرض لصاحبيها مصطفى وزهير فتح الله على طبع الجريدة عليها. وكان طاقم التنضيد مؤلفاً من مصطفى العريس وحنا الزرقا وأنطون سركيس (مركب) وميشال العازار، وآخرين. وعند صدور العدد الأول منها كنا مضطرين للسهر الليل بطوله، حتى إذا انتهى طبع العدد عند الساعة الخامسة صباحاً فرحت كثيراً. وحملت نسخة منه وذهبت مسرعاً إلى حيث ينام نقولا في غرفته ببناية التياترو الكبير، وأخذت اقرع الجرس فاستيقظ وفتح الباب. قلت له هل فيه أخطاء أو نواقص؟ وأخذ القلم وبدأ يشير إلى ما يجب تصحيحه، وقال لي هل سيتأخر الطبع؟ فأجبته العدد طبع ووزع. عندها قال لي بأسلوبه الظريف: تسلملي ولشو جايبلي العدد لتصليح ما فيه من أخطاء؟.

عادت «صوت الشعب» تصدر، وعاد نقولا يصب جهده وطاقته من اجلها، لتكون فعلاً صوتاً لشعبنا، ومنارة للمظلومين وسنداً للمحرومين، ومرآة تعكس أوضاعنا، وطبيباً يصف الدواء لكل داء كان حرص نقولا شاوي مركزاً على جعل «صوت الشعب» في طليعة الصحف اللبنانية، محتوى، وشكلاً، وهذا ما تحقق إلى حد كبير في الأربعينات حيث أصبحت الجريدة العربية الأولى في لبنان.

لم يقف دور نقولا شاوي كصحافي وكاتب لامع، على ما انشأه من مقالات في جريدة «صوت الشعب»، أو في سواها من الجرائد والمجلات، بل امتد إلى ابعد من ذلك، عندما راسل إحدى وكالات الاخبار السوفياتية.

ففي العام ١٩٤٢ بدأ نقولا شاوي يراسل باستمرار وكالة أخبار سوفياتية وكان معتمداً لها في لبنان واسمها «سوبريس». ومن خلال رسائله هذه كان نقولا بلباقته الصحافية، وخبرته وسعة اطلاعه وصداقاته ومعارفه، يعرض قضية لبنان وسوريا في المجال الدولي عبر الـ «سوبريس.» المشار إليها..

كانت الـ « سوبريس » تعمم رسائل نقولا امام الرأي العام العالمي مستفيدة من الامكانات المتوفرة لديها ، والتي لم تكن متوفرة في لبنان.

المستعمرون الانكليز والفرنسيون ، بالرغم من أنهم كانوا يحاربون الفاشيستية والهتلرية ، كانوا من جهة ثانية يفكرون ، ويعملون على أنهم باقون في لبنان وسوريا ، وليسوا مستعدين للانسحاب منها ، وكل نشاطهم كان مركزاً على تحقيق هذا الهدف. ورسائل نقولا إلى الـ « سوبريس » كانت تنقل الاخبار المفصلة عن واقعنا عن نشاط الانكليز والفرنسيين من جهة ، وعن التحركات الوطنية من جهة أخرى.

ولم يكتف نقولا بنقل الأخبار عمّا لدينا من وسائل اعلام محدودة جداً ومقتصرة على الصحافة اليومية ، بل كان يستصرح الشخصيات الوطنية والسياسية ويرسل تصريحاتها إلى الـ « سوبريس » في موسكو ، عبر طهران ، وبهذا أدى نقولا شاوي ، بالإضافة إلى المهمات الملقاة عليه ، كعضو في سكرتاريا الحزب الشيوعي ، وكرئيس لتحرير جريدة « صوت الشعب » ، وكمشرف على الإعلام في الحزب ، أدى خدمات جُلى للحركة الوطنية اللبنانية والسورية التي كانت بأشد الحاجة إلى ادوات اعلامية خارجية ، توفر لها الامكانات لنقل ما يجري على الساحتين اللبنانية والسورية إلى العالم الخارجي.

آنذاك على ابواب العام ١٩٤٣ ، كان الشعب اللبناني في تحرك وطني شامل ، معركة الاستقلال بدأت. معركة الانتخابات تشغل بال الجميع ، والكل في تحرك انتخابي في المدينة كما في القرية.. والاستعمار الانكليزي والفرنسي شغلتهما المعركة ايضاً فهما يريدان نتائج لمصلحتهما ، انهما يريدان برلماناً يقول نعم للمركز الممتاز لانكلترا أو لفرنسا في لبنان. ولكن محاولات الاستعمار لم تجد لها نفعاً وجاءت نتائج انتخابات ١٩٤٣ لغير مصلحته. الأمر الذي جعل ممثلو الاستعمار في لبنان يحضرون لانقلاب « فوقي » رجعي يعيد جماعتهم إلى السلطة ، كمدخل لتوجيه ضربة قاصمة للحركة الوطنية. ونفذوا مؤامرتهم ، واعتقلوا أركان الدولة وزجوهم في السجن ، وسلطوا جو ارهاب على البلاد وعطلوا البرلمان ، ووجهوا دباباتهم ضد الشباب والطلاب كما حصل في طرابلس. البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، تحركت واشتركت في المعركة ضد الاستعمار . وجاءت الحصيلة ، بعد عشرة أيام ، على المغامرة الاستعمارية ، عكس ما كانوا يشتهون ، ففرضت الحركة الوطنية الممثلة بـ « المؤتمر الوطني اللبناني » على الاستعمار التراجع ، واضطرت سلطاته إلى اطلاق سراح اركان الدولة الذين عادوا إلى مراكزهم وسط بحور من ناس شعبنا نزلت إلى الشوارع تحيي الاستقلال والحرية.

في هذه الغمرة التي استمرت عشرة أيام من ١١ تشرين الثاني إلى ٢١ منه ، كانت جريدة

« صوت الشعب » برئاسة نقولا شاوي تعكس الوضع برصانة، وصلابة، ودراية. مشت « صوت الشعب » مع كفاح شعبنا خطوة خطوة، فلم تترك شاردة أو واردة من التحرك الوطني العام الشامل جميع مناطق البلاد إلاّ ولقي مجالاً على صفحاتها. ونقولا شاوي مع فرج‌الله الحلو، حرصا على جعل « صوت الشعب » ذلك الرحب العاكس لنضال شعبنا، ولتبيان غطرسة الاستعمار ووحشيته.

المؤتمر الوطني للحزب

أبرز حدث حققه الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا في الأربعينات هو انعقاد المؤتمر الوطني للحزب. افتتح المؤتمر في الساعة العاشرة من قبل ظهر ٣١ كانون الأول ١٩٤٣ واستمرت اعماله طول يومي ١ و ٢ كانون الثاني ١٩٤٤.

شكل المؤتمر نقلة نوعية في مسار الحزب الشيوعي، إن لجهة نفوذ الحزب واتساع إطاره الجماهيري، او لجهة تنظيمه وانتخاب هيئاته القيادية. افتتح المؤتمر نقولا شاوي بخطاب قال فيه: « إن مؤتمرنا هو مؤتمر مخضرم بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ معاً، اذ يصادف عقده في اليوم الآخر من السنة المنصرمة، واليومين الأولين من السنة الجديدة، ٣١ كانون الأول ١٩٤٣ و ١ ـ ٢ كانون الثاني ١٩٤٤ فيكون هذا رمزاً لتماسك حلقات الزمن، ولسير الحرية إلى أمام من يوم إلى يوم ومن عام إلى عام ».

وقال: « إن اللجنة المركزية الحالية للحزب الشيوعي تعتبر منحلة منذ عقد المؤتمر ريثما تنتخب لجنة جديدة كما هو موضح في برنامج أعماله »..

واقترح نقولا على المؤتمرين تشكيل مكتب مؤقت لإدارة المؤتمر مؤلف من خمسة عشر رفيقاً يمثلون المناطق الرئيسية.

وترأس نقولا الجلسة الأولى للمؤتمر، ثم تلاه في الجلسة الثانية مصطفى العريس.

وما لبث المؤتمر أن تحول إلى لجان: لجنة سياسية، برئاسة خالد بكداش، ولجنة تنظيمية برئاسة فرج‌الله الحلو، ولجنة مالية برئاسة نقولا شاوي، ومع نقولا حضرت اجتماع اللجنة الذي انعقد في إحدى غرف الطابق الأرضي من مدرسة مار الياس المصيطبة للروم الارثوذكس، وألقيت فيها تقريراً عن الوضع المالي.

وكان نقولا هو الذي تلا في الجلسة العامة، برقية نائب رئيس الحكومة الاستاذ حبيب ابو شهلا الموجهة إلى فرج‌الله الحلو يعتذر فيها عن عدم تمكنه حضور جلسة افتتاح المؤتمر، ويرجو تعيين جلسة أخرى ليحضرها. وبالفعل عينت جلسة أخرى وحضرها الاستاذ ابو شهلا مع رهط

من الشخصيات السياسية والحكومية.

وعندما بوشر بانتخاب الهيئات القيادية، انتخب نقولا عضواً في اللجنة المركزية. وبعد انتخابها التأمت اللجنة المركزية وانتخبت «المكتب السياسي» الذي لم يكن موجوداً قبل المؤتمر. وأصبح مؤلفاً من: خالد بكداش، رشاد عيسى، عبد القادر اسماعيل، فرج‌الله الحلو، نقولا شاوي، يوسف خطار الحلو، مصطفى العريس.

وانتخبت اللجنة المركزية سكريتاريا للحزب مؤلفة من: خالد بكداش ورشاد عيسى، فرج‌الله الحلو، ونقولا شاوي.

وكانت جريدة «صوت الشعب» التي يرئس نقولا شاوي تحريرها، تعكس بدقة، وأمانة أعمال المؤتمر. فعلى صفحاتها نشرت الخطب والتقارير التي القيت فيه، والشخصيات التي لبت الدعوة لحضوره. وكان نقولا نفسه يشرف يومياً على ما يكتبه محررو «صوت الشعب» عن المؤتمر، فيحذف احياناً كلمات ومقاطع، وأحياناً يضيف جملاً وكلمات، مما جعل الأعداد التي غطت اعمال المؤتمر مراجع، لا للشيوعيين وحسب، بل وللصحافة اللبنانية التي تسابقت في حينه لالتقاط الأخبار عن اعمال المؤتمر، وعن اسماء الشخصيات التي حضرته.

ونقولا شاوي هو الذي طرح امام المؤتمر مشروع «الميثاق الوطني» للحزب الشيوعي اللبناني وهو بمثابة برنامج مرحلي للحزب. وقد وافق المندوبون عليه بالإجماع.

في أعلى مركز حزبي

وبحكم موقعه كسكرتير في الحزب، وكعضو في المكتب السياسي، القيت على نقولا شاوي أعباء جديدة سياسية وتنظيمية. الحزب أخذ بعد المؤتمر، يتسع، ويتمدد، وتشمل تنظيماته مناطق وقرى عديدة. وكان نقولا يقوم بحضور الكثير من الاجتماعات التأسيسية لمنظمات حزبية كثيرة في الشمال، وفي جبل لبنان، وأحياء بيروت. وسعة اطلاعه على الوضعين الداخلي والدولي، مكّنته من تقديم تقارير وافية لقيت المزيد من الاستحسان من الرفقاء والاصدقاء الذين يحضرون الاجتماعات والسهرات التي كانت تعقد خصيصاً لشرح سياسة الحزب، والوضعين الدولي والداخلي، والميثاق الوطني للحزب.

في هذا الوقت كان نقولا قد ترك غرفته في مبنى «التياترو الكبير» وسكن عند بيت عمته في شارع جاندارك ـ رأس بيروت، ونظراً لصعوبة الأوضاع المالية في الجريدة والحزب، لم يكن نقولا يتقاضى في ذاك الوقت مرتباً، وكانت عمته وابناؤها يهتمون به اهتمامهم بنفوسهم.

في هذه السنوات من العام ١٩٤٢ حتى بعد المؤتمر الوطني للحزب، توطدت العلاقة القيادية بين نقولا وفرج الله. كان همهما مركزاً على تحويل الحزب فعلاً إلى حزب لبناني جماهيري، مستند إلى قاعدة شعبية من العمال والفلاحين وجمهور المثقفين. وكان لنقولا مع هؤلاء الأخيرين علاقات واسعة بدأت في العام ١٩٣٣ عندما كان طالباً في معهد الحقوق باليسوعية، وامتدت إلى العام ١٩٣٤ حيث ساهم بجد في تحرير مجلة «الدهور» مع سليم خياطة، ثم في «الطليعة» ١٩٣٥-١٩٣٩ مع رجا حوراني. وكذلك في مجلة «الطريق» التي صدرت في كانون الأول ١٩٤١، فكان يمدها بتوجيهاته وخبرته في الفن الصحفي، عنواناً وإخراجاً وحرفاً وترتيباً.

وإن ما سيأتي لاحقاً عن نقولا شاوي كواحد من ابرز الوجوه الصحافية اللبنانية، سيضع النقاط على الحروف، ويعطي الدليل الأكيد على عصامية أبي زهير وقدرته. وأنا عندما قلت في كتابي «من نافذتي» عن نقولا شاوي إنه أب الصحافة في الحزب الشيوعي، أعود فأؤكد هذا القول.

إنه فعلاً أب الصحافة في الحزب الشيوعي وإن ما قلته مستند إلى وقائع ملموسة إن بالنسبة لصحافة الحزب السرية أو العلنية. فنقولا لم يكتب، ويحرر، ويبدع وحسب، بل طوّر بذوقه الصحفي الفذ، وبشجاعته المعروفة، الصحافة لا كحرفة ومهنة وحسب، بل وكصناعة. الأمر الذي رأينا انعكاسات له لاحقاً في الصحافة اللبنانية التي بلغت في الخمسينات والستينات شأواً كبيراً في انطلاقتها كصناعة لها ميزتها الخاصة ومركزها المرموق المقدر بين الصحافة في جميع البلدان العربية.

وتبقى وثبة «صوت الشعب» في الاربعينات برئاسة نقولا شاوي، وبجهده الذاتي، المثل الأعلى الذي استرعى انتباه، ونال اعجاب وتقدير اصحاب الذوق السليم من زملاء ذاك العهد، وكلهم ائمة في المجال الصحفي.

«صوت الشعب» لم تكن مدرسة سياسية للعمال، والفلاحين، والمثقفين الديمقراطيين، بل كانت رمزاً للانطلاقة الصحفية، في جميع مجالاتها، طباعة، وتحريراً، وعنواناً، وتكثيفاً.

في عددها الصادر في ١٨ أيلول ١٩٤٥ نشرت «صوت الشعب» تحت عنوان «نقولا شاوي يسافر إلى باريس» الخبر التالي: «سافر إلى باريس الاستاذ نقولا شاوي صاحب جريدة «صوت الشعب» ليكون قريباً من أعمال مؤتمر العمال العالمي ليوافي جريدته بأنبائه».

وكان الاتحاد العام لعمال لبنان قد عقد اجتماعاً مساء يوم السبت ٣١ آب سنة ١٩٤٥، انتخب فيه مندوبيه إلى مؤتمر العمال العالمي الذي سيعقد خلال شهر أيلول في باريس.

وصباح يوم الثلاثاء الواقع في ١٨ ايلول ١٩٤٥، سافر الوفد العمالي يرافقه مستشار الاتحاد المحامي الياس شاهين، ونقولا شاوي موفداً من «صوت الشعب».

في صبيحة ذاك اليوم وقبل بزوغ الفجر ذهبنا إلى «مطار بئر حسن» لوداع الوفد العمالي ورئيس تحرير «صوت الشعب». كان الجو بارداً، والطائرة لم تكن على شيء مما عليه طائرات اليوم. صغيرة الحجم وبمحركين. وبعد أن اكتمل مجيء اعضاء الوفد، إلا حسيب دليقان من نقابة للسائقين الذي اعتذر عن السفر، وكانت الطائرة الاميركية في فترة الاستعداد وبعدما ودعنا الرفيق نقولا وأعضاء الوفد عدنا إلى مكتب «صوت الشعب».

ويوم الأحد ٢٣ أيلول تلقت «صوت الشعب» أول برقية من نقولا شاوي تقول: «وصلنا إلى مرسيليا يوم الثلاثاء ومساء الأربعاء وصلنا إلى باريس. وقدم الوفد اللبناني أوراق اعتماده إلى اللجنة الادارية حسب الأصول المتبعة. نزل الوفد مع باقي الوفود، في «الفندق الكبير»، وكان أول عمل قام به، زيارة المفوضية اللبنانية حيث استقبل فيها احسن استقبال. الوفد يقابل بالترحاب والحفاوة في كل مكان».

ويوم ٢٦ أيلول افتتح مؤتمر العمال العالمي في «قصر شايو». وسبق جلسة الافتتاح الأولى، عقد مؤتمر صحافي واسع وكان نقولا يرافق اعمال المؤتمر خطوة خطوة ويمد «صوت الشعب» بالأخبار اليومية عن مسار العمل فيه. هذا عدا أنه وظف كل إمكاناته، وما له من علاقات مع اليسار الفرنسي وخاصة الحزب الشيوعي، لدعم القضايا العربية، ومن بينها، بشكل خاص القضية الفلسطينية.

ورسائل نقولا لم تكن ذات طابع إعلامي إخباري وحسب، بل كانت بالوقت نفسه، تتضمن توجيهات، وتحليلاً دقيقاً لما كان يجري في اوساط المؤتمر. ففي رسالة له نشرتها «صوت الشعب» في عددها الصادر في ٤ تشرين الأول ١٩٤٥ يقول: «انتخبت لجنة القانون الاساسي لدراسة التعديلات المقترح إدخالها على مشروع دستور اتحاد النقابات العالمي من قبل مختلف الوفود. وهذه الاقتراحات قدمتها زمرتان: الأولى ترمي إلى تأجيل تأسيس اتحاد النقابات العالمي إلى اقصى حد ممكن، وتضييق محتواه الديمقراطي. والزمرة الثانية تطالب بتأسيس الاتحاد حالاً وأن يكون شاملاً لجميع عمال العالم وتمكينه من المساهمة في تنظيم السلم وأن تشترك فيه منظمات الاقطار الصغيرة، وأن يساعد الجماهير الكادحة في البلدان المستعمرة والتابعة في نضالها من أجل التحرر الوطني».

ومن أبرز رسائل نقولا شاوي عن مؤتمر العمال العالمي تلك التي نشرتها «صوت الشعب» بتاريخ ١٠ تشرين الأول ١٩٤٥، وفيها تفصيل عن المعركة، التي خاضتها الوفود العربية لانتخاب مصطفى العريس عضواً في اللجنة التنفيذية وقد فاز بأكثرية ٦٠٣ اصوات، على المرشح الصهيوني

الذي نال ٣٢٦ صوتاً فقط. ويختم نقولا شاوي رسالته هذه بالقول: أما الذين صوتوا مع المندوبين العرب هم: الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الوسطى والشرقية، والبلقان وفرنسا، والهند وجميع دول أميركا اللاتينية، ومندوبو المستعمرات. والذين صوتوا مع المندوب الصهيوني هم: انكلترا، الولايات المتحدة الاميركية، وكندا والصين (قبل انتصار الثورة) وبلجيكا، وهولندا».

وفي رسائله، يلقي نقولا شاوي، اضواء على فكرة تأسيس الاتحاد النقابي العالمي، فيشير إلى اجتماع لندن الذي سبق المؤتمر. وكذلك إلى اجتماع اللجنة التحضيرية التي اجتمعت بين ١٣ نيسان و ٤ نوار ١٩٤٥ في واشنطن وسان فرانسيسكو ووضعت مشروع قانون الاتحاد، وهذه اللجنة قررت توجيه الدعوة إلى مؤتمر عام يعقد في باريس بين ٢٥ ايلول و ٩ تشرين الأول ١٩٤٥، على أن يتم أولاً التصديق على دستور الاتحاد في مؤتمر تمهيدي، وبعدها يتحول الاجتماع إلى مؤتمر اول للاتحاد.

وفي أثناء اعمال المؤتمر تعرف نقولا على المناضلة الاسبانية، دولوريس ايباروري (الباسيوناريا)، ويقول نقولا بهذا الصدد: «وعند خروجنا من المؤتمر صادفنا الباسيوناريا على السلم فقلت لها: نحن وفد سوريا ولبنان، وإننا فخورون بأن نحيي الباسيوناريا، فشكرتنا وصافحتنا بحرارة وقالت: إن بين سوريا ولبنان واسبانيا قرابة بعيدة. إني اشكركم وأتمنى لكم ولبلادكم التوفيق والرقي والنجاح».

كما أقام نقولا شاوي علاقات مع الكثيرين من ممثلي وفود أميركا اللاتينية، ومنهم من هم من أصل عربي ويقول نقولا: «وقد تعرفت في المؤتمر بالسيد بطرس خليل سعد مندوب الاكوادور، وهو لبناني الأصل في الثلاثين من عمره، والده من قرية «القباريه» - المتن ووالدته من عائلة نجيم في زحلة. وهو رئيس اتحاد عمال الاكوادور وعضو في البرلمان. وعضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاكوادوري، وكان أحد اعضاء الحكومة المؤقتة التي تألفت في نوار ١٩٤٤. اصبح بترو سعد، فيما بعد اميناً عاماً للحزب الشيوعي في الاكوادور وظل في هذا المركز حتى وفاته.

في لندن

في عددها الصادر يوم الخميس ٢٣ تشرين الثاني ١٩٤٥ نشرت «صوت الشعب» البرقية التالية من نقولا شاوي: «وصلت إلى لندن بالطائرة وسأحضر يوم الأحد المقبل مؤتمر الحزب الشيوعي البريطاني. وسأتحدث وأبحث مع بعض الشخصيات اليسارية في قضية لبنان وسوريا وقضية فلسطين».

وتحت هذه البرقية كتبت «صوت الشعب»:

« بعد أن حضر نقولا شاوي المؤتمر العمالي العالمي في باريس سافر إلى لندن طبقاً لقرار مشترك من الحزبين الشيوعيين اللبناني والسوري، لأجل شرح قضية سوريا ولبنان والدفاع عن مطالب البلدين الوطنية لدى الهيئات الديمقراطية واليسارية البريطانية ».

وفي عددها الصادر يوم الأحد في ٢ كانون الأول ١٩٤٥ نشرت « صوت الشعب » البرقية التالي نصها وقد ارسلها نقولا شاوي من لندن: « وجه النائب الشيوعي غالاشير في جلسة يوم الاثنين الماضي في مجلس العموم سؤالا إلى سكرتير وزارة الخارجية قال فيه: « متى تفكر الحكومة في سحب الجيوش البريطانية من سوريا ولبنان؟ . فأجاب المستر نويل بايكر، أن المستر بيفن قد بيّن في جلسة يوم الجمعة أن تبادل وجهات النظر مع الحكومة الفرنسية في موضوع جلاء الجيوش الانكليزية والفرنسية من دول الشرق لا يزال مستمراً، ولكن من الصعب الآن القول متى يتم اتخاذ القرار بهذا الشأن، فسأل غالاشير أيضاً: الا تعتقد أن لدى الشعبين السوري واللبناني كل الأهلية والكفاءة لتسوية شؤونها الخاصة بنفسيهما، وأن من المرغوب فيه بالنسبة لبلادنا أن ترى ابناءها يعودون إليها بسرعة؟ . فأجاب نويل بايكر: اننا نبحث المسألة مع الحكومة الفرنسية، ومن المفهوم أنه خلال الانتخابات وأثناء العمل لتأليف الادارة الحكومية الجديدة في فرنسا: لم يكن من السهل على الحكومة الفرنسية أن تنصرف إلى هذا الأمر ».

في مؤتمر
الحزب الشيوعي البريطاني

وفي ٢٣ تشرين الثاني افتتح في لندن المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي البريطاني، وكان الحزب الشيوعي اللبناني والسوري قد انتدب نقولا شاوي لتمثيله فيه. وقد القى نقولا أمام أكثر من الف مندوب وضيف حضروا المؤتمر، خطاباً شرح فيه الوضع في الشرق الأوسط، وبخاصة قضية سوريا ولبنان والقضية الفلسطينية. ومما قاله: « إن جميع الشعوب العربية التي ساهمت بجميع إمكانياتها في المجهود الحربي، ووضعت اراضيها ومنابع ثروتها تحت تصرف قوى الامم المتحدة المحاربة وتطوع الالوف من ابنائها في صفوف الجيوش الحليفة، إن هذه الشعوب تطالب اليوم بأن يصبح النصر المشترك على الفاشيستية نصراً لها، وأن يصبح عهد السلم الجديد عهد حرية وطنية وديمقراطية في ربوعها ».

وأعطى نقولا شاوي في خطابه لوحة واضحة عن التطاحن الاستعماري في المنطقة العربية فقال: « إن البلاد العربية تشهد اليوم تطاحناً مكشوفاً بين مختلف الكتل الاحتكارية الاستعمارية. فهناك المصالح الاستعمارية البريطانية المتنوعة تتصادم مع المصالح الاميركية التي أخذت تتسع مع الحرب وبعد الحرب في معظم الأقطار العربية. والاستعمار البريطاني الذي كان خلال الحرب يفرض

سيطرته على القسم الأكبر من اقتصاديات البلاد العربية ومراكزها الستراتيجية، يجد نفسه اليوم أمام منافسة جدية أميركية في معظم هذه الديار العربية. وقد أخذ الاتحاد السوفياتي يتمتع بمكانة سياسية ومعنوية هامة بين الجماهير الشعبية العربية».

وأشار نقولا شاوي في خطابه إلى الجديد الذي يعصف في العالم العربي ويحرك جماهيره ويدفعها لوضع مطالبها الاستقلالية الرئيسية فقال: «إن العالم العربي تهب عليه اليوم نسمة من الحرية. فإن انتصار شعوب الامم المتحدة على قوى الفاشيستية والرجعية كان حافزاً جديداً لحركتنا الشعبية الكبرى، حركة التحرر الوطني. ففي كل مكان تنتصب في وجه السيطرة الاجنبية جماهير شعبية واسعة مطالبة بتحقيق مطالبها الوطنية والديمقراطية. إن مصر تطلب جلاء الجيوش البريطانية عن ارضها وتعديل المعاهدة المصرية ـ الانكليزية. ويطالب العراق بإعادة النظر في معاهدته وتحقيق حرياته الوطنية والديمقراطية. وفلسطين تطلب إلغاء الانتداب ووقف الهجرة الصهيونية، وإلغاء الوطن القومي، وإقامة حكم وطني دستوري قائم على الاستقلال والديمقراطية. وسوريا ولبنان يطالبان بجلاء الجيوش البريطانية والفرنسية عن ارضهما استكمالاً لشروط استقلالهما ووضع حد للمؤامرات التي تقوم بها اوساط رجعية استعمارية انكليزية وفرنسية لتقاسم النفوذ والامتيازات واحتلال مراكز ستراتيجية حيوية في اراضيهما».

وختم نقولا خطابه: «إننا واثقون بأن جميع الشيوعيين والديمقراطيين البريطانيين يدركون أن الطريق لتوطيد علاقات الصداقة بين الشعب البريطاني والشعوب العربية هو في إقامة علاقات على أساس احترام استقلال هذه الشعوب وسيادتها وحريتها الوطنية».

وبفضل الجهد الديناميكي الذي بذله نقولا شاوي، والموقف السياسي الواضح الذي وقفه في أثناء اعمال مؤتمر الحزب الشيوعي البريطاني وتقديراً لنضال الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا بعث أمين عام الحزب الشيوعي الانكليزي الرفيق هاري بوليت رسالة تحية، بواسطة نقولا شاوي، إلى حزب الشيوعيين اللبنانيين والسوريين هذا نصها: «رفاقنا الأعزاء: سرّنا أن نستقبل مندوبكم الأخوي إلى مؤتمر حزبنا الثامن عشر، كما سرنا أن نغتنم فرصة وجوده بيننا لنزداد علماً بالحالة السياسية في وطنكم والاوطان المجاورة. إن زيارة مندوبكم قد وثّقت صلات التعاضد بين شعبينا ونرجو أن نستطيع نحن في وقت مقبل أن نزور بلادكم. وإني لأتمنى لحزبكم كل نجاح في حل المعضلات الصعبة التي يواجهها كما تواجهها الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية الأخرى. وثقتي وطيدة بأنكم ستنجحون في معالجة معضلاتكم، لأنكم تعتمدون، كما نعتمد نحن، على تفكير علمي ماركسي مشترك يساعدنا دائماً على حل أصعب المعضلات حلاً يكون في مصلحة جماهير الشعب. وهذا التفكير العملي المشترك يمدنا دائماً في الوقت نفسه بالقوة الكافية لنقاوم التفرقة التي

يحاول المستعمرون ابداً أن يشجعوها ويزكوها».

في هذه الاثناء وكان نقولا قد عاد إلى باريس بعد انتهاء اعمال مؤتمر الحزب الشيوعي البريطاني، طرأ حدث كبير في لبنان وسوريا، وهو بيان بيفن - بيدو وزيري خارجية انكلترا وفرنسا، حول الوضع في لبنان وسوريا، الذي أكدا فيه أن الدولتين الاستعماريتين ليستا مستعدتين لاجلاء قواتهما عن أرض البلدين، عندها اضطرت حكومتا لبنان وسوريا إلى اتخاذ قرار برفع شكوى إلى مجلس الامن الدولي على انكلترا وفرنسا بوصفهما دولتين معتديتين على استقلال وسيادة لبنان وسوريا المستقلين والعضوين في الامم المتحدة، وكلفتا وفديهما إلى اجتماعات دورة الامم المتحدة التي ستنعقد في شهر شباط في لندن سنة ١٩٤٦، بتقديم هذه الشكوى. عندها قرر الحزب الشيوعي تكليف نقولا شاوي العودة إلى لندن لمتابعة مناقشات قضية بلدينا أمام مجلس الأمن الدولي.

يوم السبت ١٦ كانون الثاني ١٩٤٦ نشرت جريدة «صوت الشعب» برقية وردت من لندن بإمضاء نقولا شاوي تقول: «منذ نهار أمس (الأربعاء) بدأت بحضور جلسات اجتماع الأمم المتحدة في لندن. وقد قابلت اليوم الوفدين السوري، واللبناني، فأعربا عن ارتياحهما للجو السائد في الاجتماع. وسيتكلم معالي حميد فرنجية، ودولة فارس الخوري يوم السبت في مناقشة تقرير اللجنة التحضيرية. ويفكر الوفدان السوري واللبناني بطرح قضية سوريا ولبنان على مجلس الأمن الدولي».

وفي رسالة لاحقة من لندن نشرت في «صوت الشعب» في عددها الصادر في ٢٧ ـ ٢٨ كانون الثاني ١٩٤٦، ورد ما يلي: «كان اثر خطابي الاستاذين الخوري وفرنجية جيداً بوجه عام. وعلمت أن وفدينا، اللبناني والسوري، لم يقررا بعد وضع قضيتنا أمام مجلس الأمن، وأنهما ينتظران تطورات المسائل الاخرى المشابهة. وقال رياض الصلح: «قد ننتهز فرصة وضع قضية مماثلة لإثارة قضيتنا. وقال عضو آخر في الوفد أنه طلب موعداً من الدكتور مانويلسكي رئيس وفد اوكرانيا».

وفي رسالة من نقولا بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٩٤٦ إلى «صوت الشعب» يقول: «الطائرة هي الوسيلة الوحيدة السريعة التي نستطيع اللجوء إليها نحن المراسلين العرب لإيصال المقالات والأخبار إلى صحفنا».

وورد في هذه الرسالة: «توجد ٥١ دولة ممثلة اليوم في قاعة «سنترال هول». قبل مغادرتي باريس أول امس إلى لندن، سألني صديق عربي لقيته صدفة في المترو قال: «هل تعتقد أن مؤتمر الأمم المتحدة سينجح في مهماته فاجبته: هذا ما ارجّحه وهذا ما ترجوه الشعوب».

وبعد أن مضى علي ثلاثة أيام في لندن، في قاعة المؤتمر، أرى أني لم أكن مخطئاً في تفاؤلي، وأني

آمل أن تزيد الأيام المقبلة هذا التفاؤل قوة ورسوخاً».

ويشرح نقولا شاوي الترتيبات التي جرت في اجتماع الجمعية العمومية للامم المتحدة ويقول: «لقد أعطونا بطاقة، ومعها شارة برونزية نضعها على صدورنا كتب عليها «بريس». واعطوا المندوبين شارات ذهبية اللون تحمل رسم كرة أرضية وتحتها اسم المنظمة وتاريخ انعقاد المؤتمر».

ويتابع: «الجلسات متواصلة، صباحية ومسائية، واحياناً ليلية. جميع الخطب تنقل فوراً إلى اللغتين الفرنسية والانكليزية. ومن الضروري أن أشير إلى أن رجل الساعة اليوم في المؤتمر هو الدكتور مانويلسكي رئيس وفد اوكرانيا. إن مانويلسكي يظهر لاول مرة في ميدان الديبلوماسية. وقد برهن في مناقشاته وخطبه وحديثه، أنه قائد سياسي كبير. وهو الذي اقترح مصر لعضوية مجلس الأمن، واقترح فارس الخوري رئيساً للجنة الأمن والسياسة».

وفي الرسالة التي بعث بها من لندن ونشرت في «صوت الشعب» بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩٤٦، يتحدث نقولا عن انتخاب أمين عام الامم المتحدة تريغفلي، وقد اقترحه رئيس الوفد السوفياتي غروميكو، كما يتحدث عن طريقة انتخاب الأعضاء الستة غير الدائمين بالإضافة إلى الأعضاء الخمسة الدائمين وهم: الاتحاد السوفياتي وأميركا وانكلترا وفرنسا والصين. كما تحدث عن انتخاب المجلس الاقتصادي التابع للامم المتحدة المؤلف من ١٨ عضواً، ونال لبنان ٤٤ صوتاً وكان تاسع الفائزين.

وفي رسالته التاسعة وقد نشرتها «صوت الشعب» بتاريخ ١٠ ـ ١١ شباط ١٩٤٦ يتحدث شاوي عن اجواء الوفدين اللبناني والسوري، وعن مسألة طرح قضية البلدين امام مجلس الامن الدولي فيقول: «في أول ايام المؤتمر كانت عند بعض أعضاء الوفد اللبناني فكرة ألاّ يتعرضوا بشيء لهذا الموضوع، وحتى في الخطاب الذي القاه الاستاذ حميد فرنجية في الجمعية العمومية. كانوا يقولون إن المناقشة تدور حول قضايا عامة عالمية، فهل يصح أن نضيع قضايانا الخاصة؟. وكان رأي آخر يؤكد أن من الضروري أن نشرح احال في بلادنا، لأن هذه الحال مرتبطة بالوضع العالمي وبقضية تنظيم السلم، وما دام لبنان عضواً في منظمة الامم المتحدة فمن واجبه أن يطلع المنظمة على ما يجري في بلاده، ويطلب مساعدتها وتأييدها لتعزيز استقلاله وسيادته والخلاص من القوات الأجنبية المحتلة أراضيه».

ويتابع القول: «واقترح الوفد السوري عقد اجتماع مشترك بين الوفدين السوري واللبناني وتقرير خطة مشتركة. وجرى هذا الاجتماع ودارت مناقشات حامية فيه، قال البعض: إذا اثرنا قضية الجيوش اغضبنا الانكليز وجعلناهم ضدنا. وقال البعض: إن الإنكليز ضدنا على كل حال،

لأن قضيتنا لا يمكن أن تكون غير موجهة إلا ضدهم، فإما المحافظة على قضيتنا، وإما المحافظة على رضاهم. ولا وسط بين الأمرين، هم يصرّون على بقاء قواتهم، ونحن نطالب بسحبها، فكيف يمكن أن نكسب تأييدهم؟».

وبعد أخذ ورد بين الوفدين تم الاتفاق على وضع المسألة أمام المؤتمر.

ويعلق نقولا في رسالته على أهمية عرض قضية سوريا ولبنان على مجلس الأمن الدولي فيقول: «إن مجرد عرض القضية على مجلس الامن يضعها في نطاق دولي ويساعدنا على الإفادة من عطف الدول الكبيرة والصغيرة. لقد تم الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني دون معرفتنا وأريد فرضه علينا دون أن نوافق عليه. أفليس من مصلحتنا أن نفنّده اليوم أمام مجلس الدول، ونطلب إعادة النظر فيه، على ضوء مبادىء شرعة سان فرانسيسكو؟! إن الوضع الدولي ملائم لنا إلى أقصى حد في الوقت الحاضر، والمصلحة الوطنية تقضي بأن ننتهز الفرصة لإيضاح قضيتنا امام العالم».

وفي عددها الصادر في ١٧ شباط ١٩٤٦، نشرت «صوت الشعب» على عرض اعمدتها الثلاثة الأولى من الصفحة الأولى خبراً عن البدء بمناقشة قضية لبنان وسوريا في مجلس الامن الدولي، تحت العناوين التالية:

«بحث قضية لبنان وسوريا في مجلس الامن بجلسات ثلاث» «خطب فرنجية والخوري وبيدو وكادوغان» «فيشنسكي يؤيد مطالب سوريا ولبنان ويهاجم الاتفاق البريطاني ـ الفرنسي ويقول، انه اعتداء على سيادة البلدين» «الوفدان يصرّان على طلب جلاء الجيوش الانكليزية والفرنسية».

وفي الجلسة الأولى لمجلس الأمن كان حميد فرنجية أول المتكلمين وقال في كلمته «إن قضيتنا بسيطة جداً. إن سوريا ولبنان هما بلدان مستقلان، ولا يمكن الحد من استقلالها في اية حال. ولكن جيوشاً بريطانية وفرنسية موجودة في ارضهما. وهذا الأمر ليس ناتجاً لا عن حالة حرب ولا عن أي اتفاق. نحن نريد انسحاب جميع الجيوش الاجنبية بوقت واحد، وفقاً لمبدأنا بمعاملة جميع الدول على قدم المساواة، وإننا نأمل أن يطلب مجلس الأمن جلاء الجيوش الأجنبية المقيمة في أرضنا».

ثم خطب فارس الخوري رئيس وفد سوريا فقال: «إن هذه القوات التي دخلت بلادنا كجيوش محررة قد لقيت تأييدنا، ولكن منذ انتهاء الحرب لم ننفك نطالب بجلاء هذه القوات. وكنا نتلقى جواباً واحداً وهو أن حلاً مرضياً سيأتي في مستقبل قريب. وقد انتظرنا عبثاً هذا المستقبل، حتى جاءنا آخر الامر اتفاق ١٣ كانون الأول الذي بُحث وعقد دون أن نشترك فيه. ومن الواضح أن جلاء الجيوش الأجنبية لا يتعلق فقط بالشروط الفنية، بل بشروط خارجة عن

مقدرة الأطراف ذات العلاقة. وما دامت السلامة الاجتماعية غير منظمة في هذه المنطقة فلن تسحب هذه الجيوش. ويقال إن هذه القوات غايتها ضمانة السلامة، ولكن سلامة من؟ إذا كان المقصود سلامتنا نحن، فإن ذلك من صلاحية حكوماتنا، وهذه السلامة قد ضمنها ميثاق الامم المتحدة».

في ١٧ شباط نشرت «صوت الشعب» برقية وردت من نقولا شاوي في لندن تقول: «في جلسة بعد الظهر ألقى فيشنسكي رئيس الوفد السوفياتي خطاباً مفصلاً استمر ساعة ونصف الساعة، أيد فيه بقوة مطلب سوريا ولبنان، واظهر عدم شرعية الاتفاق البريطاني ـ الفرنسي، وطلب جلاء الجيوش عنهما فوراً. وأيده مندوبا مصر وبولونيا وقد شكرت الوفود العربية فيشنسكي شكراً حاراً».

ولما لم يحز المشروع السوفياتي (القاضي بجلاء الجيوش الانكليزية والفرنسية جلاء تاماً دون قيد أو شرط عن أراضي سوريا ولبنان فوراً) على الأكثرية فسقط. ولما حاز المشروع الاميركي على سبعة اصوات، وكاد يمر لولا «فيتو» فيشنسكي الذي حال دون إلزام سوري ولبناني بشيء، وبقي المجال مفتوحاً أمامها لإجراء مفاوضات مع الطرفين الاستعماريين خارج مجلس الامن الدولي، على أثر ذلك انتقلت المفاوضات إلى باريس حيث وصلها وفدا سوريا ولبنان. وبالوقت نفسه انتقل نقولا شاوي إلى باريس لمتابعة نشاطه بدعم الموقف اللبناني السوري لدى الحكومة الفرنسية وفيها عدد من الوزراء الشيوعيين.

ويتحدث نقولا شاوي في أول رسالة له من باريس نُشرت في «صوت الشعب» في ١٣ آذار ١٩٤٦ ومرسلة من باريس في ٧ آذار، يقول: «.. يبدو أن هناك أوساطاً ودوائر تسعى لعرقلة الجلاء، وهي هذه المرة انكليزية بوجه خاص والقصد منها بيّن واضح وهو ايجاد وسيلة جديدة تساعد على اطالة أمد الاحتلال للبلاد، على أن تكون هناك حجة يستطاع بها تبرير الاحتلال الانكليزي امام مجلس الامن، إذا عادت قضيتنا إليه مرة ثانية. فمن المفهوم أن تحقيق الجلاء الفرنسي لا يترك أية حجة لبقاء الانكليز، ولذلك نرى هذه الأوساط الانكليزية المذكورة تشجع على تأخير موعد جلاء القوات الفرنسية وتعمل لإطالة أمد الاحتلال الفرنسي، حتى تبقى السهولة بمكان إذا قوبل بالحزم والجرأة من الجانبين اللبناني والسوري، فهل تتوفر هذه الجرأة عند المسؤولين يا ترى»؟

اتفاق على الجلاء التام

وانتهت المفاوضات إلى وضع روزنامة لجلاء الجيوش الانكليزية والفرنسية بوقت واحد عن

اراضي سوريا ولبنان. عن سوريا في ١٧ نيسان ١٩٤٦، وعن لبنان في ٣١ كانون الأول ١٩٤٦. وكان ذلك نصراً مبيناً للحركة الوطنية ليس في لبنان وسوريا وحسب، بل وفي جميع الاقطار العربية، وعموم البلدان التي تحتل اراضيها جيوش اجنبية.

وفي الرابع عشر من نيسان عاد نقولا شاوي إلى لبنان، بعد أن أمضى حوالى السبعة شهور بين باريس ولندن يكافح، من أجل نصرة قضية الاستقلال التام والجلاء الناجز. وكان لدوره في لندن وباريس تأثير ملموس على تذليل عقبات كثيرة تعرض لها المفاوض اللبناني. وقد أكد ذلك دولة الاستاذ رياض الصلح عضو الوفد اللبناني المفاوض، بتصريح له نشرته «صوت الشعب» والصحافة اللبنانية عن دور نقولا في تسهيل المفاوضات في باريس، وأن الزيارة التي قام بها رياض الصلح برفقة نقولا شاوي إلى مكاتب جريدة «الاومانيته» لتقديم التعازي بصديقه غابرييل بيري دليل على مكانة نقولا شاوي المميزة لدى ممثلي الرأي العام التقدمي في فرنسا، والحركة الوطنية اللبنانية.

إن مميزات نقولا شاوي وقدرته على فهم الوضع الدولي، ولباقته عندما يكتب فيه، تؤكد خبرته العميقة، واطلاعه الواسع على مجريات السياسة العالمية، ولهذا كانت المداخلات التي قدمها في اجتماعات اللجنة المركزية أو في اجتماعات المكتب السياسي، عن الحالة الدولية تستأثر بالاهتمام، وبالمناقشات الجدية المثمرة.

* * *

ابتداء من مطلع شهر نيسان سنة ١٩٤٦ بدأ الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا، وبخاصة في لبنان، يستعد لاستقبال نقولا شاوي العائد من رحلة غنية دامت من ١٨ أيلول سنة ١٩٤٥ إلى نيسان سنة ١٩٤٦. فقد مثّل نقولا الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا، وجريدة «صوت الشعب» في المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي البريطاني، وحضر مؤتمر الاتحاد النقابي العالمي في باريس، ودورة الأمم المتحدة في لندن وبخاصة مناقشات مجلس الامن الدولي للشكوى التي قدمها لبنان وسوريا ضد انكلترا وفرنسا بوصفهما دولتين معتديتين على استقلال البلدين. وفيما بعد حضر مفاوضات الجلاء بين الوفدين السوري واللبناني من جهة، والوفدين الفرنسي والبريطاني من جهة أخرى، في باريس وقد تم فيها الاتفاق على موعد الجلاء التام عن لبنان وسوريا خلال العام ١٩٤٦.

مهمات كبرى القيت على عاتق نقولا شاوي خلال رحلته ذات الصيد السمين وكان نقولا قولاً وفعلاً عند حسن الظن به. وكان ذلك السياسي الضليع، والمناضل الشجاع، والصحافي اللبق الذي لم تفته لا شاردة ولا واردة كما يقال. ورسائله إلى «صوت الشعب» تؤكد ما اقول، فهي من

حيث المحتوى، والاسلوب، والتعاطي مع الواقع، واكتناه حقيقة الادوار التي مثلت على مسرح مجلس الأمن، والسرد غير المعقد قد لقيت أوسع التقدير والاعجاب في جميع الاوساط الوطنية، والشعبية في لبنان وسوريا.

لهذا، راح الحزب يستعد لاستقبال نقولا شاوي استقبالاً يليق به، بما قدمه وأعطاه. فمن جميع الجهات، من البحر إلى أطراف البادية، ومن الجنوب القصيّ، إلى الشمال الأقصى، من كل انحاء سوريا ولبنان من الجزيرة وحلب مروراً بحمص ودمشق، تقاطر الألوف، الذين كونوا مع زحف جماهير بيروتية ولبنانية واسعة، موكباً من عشرات الالوف جاؤوا يستقبلون من مثّل وطنهم خير تمثيل، جاؤوا يؤكدون لنقولا شاوي ولحزبه، بانهم مخلصون، وعلى العهد باقون. وكان المكان المخصص للتجمع هو في حي المزرعة، وكان من المتفق عليه أن نقولا سيعود إلى الوطن عن طريق الناقورة، لهذا تقرر أن يذهب بعض الوفود المشاركة، باتجاه صيدا ليدخلوا العاصمة مع موكب العائد الكبير. ولكن الوقت استطال، وازداد التأخير، ودبّ التساؤل عن أسباب التأخير الذي زاد على الساعتين، وعلم فيما بعد أن نقولا لم يتمكن من العودة بالسيارة عبر طريق الناقورة، بل اتى عبر مطار بيروت «مطار بئر حسن» ولهذا كانت القيادة المنظمة للاستقبال قد علمت بذلك، فذهب خالد بكداش وفرج‌الله الحلو مع بعض المرافقين، إلى المطار وفوراً صعد نقولا إلى السيارة التي هما فيها، واتجهوا صوب الناقورة دون أن يعلم أحد بهم، وبالفعل وصلوا إلى الناقورة، ومن ثم عادوا باتجاه بيروت، وكانت المحطة الأولى التي استقبلت نقولا هي في صور. حيث احتشدت جماهير غفيرة على «البص» وبعد القاء الكلمات تابع الموكب السير إلى بيروت.

كان ذلك صبيحة يوم الاحد - ١٤ نيسان سنة ١٩٤٦. وعند الساعة الواحدة أو أكثر، كان تجمع الجماهير المتدفقة إلى حي المزرعة ببيروت من مناطق لبنان وسوريا قد اكتمل، وإذا بصوت فرج‌الله الحلو يدوي من على شرفة دار الياس وجورج قازان قائلاً، اهلاً بك يا نقولا، تعود إلى وطنك لبنان بعد أن ساهمت بنشاطك المبدع في اقرار الجلاء الكامل عن لبنان. أهلاً بك في وطنك الذي هب، كما ترى، لاستقبالك وتحيتك على ما قمت به من جهود. وتتالى المتكلمون، الرفقاء: وديع نصر الله، الدكتور سميح علم الدين، نجاة قصاب حسن، الشيخ حسيب غالب، ثم انتظمت مسيرة طويلة ملأت الشوارع بين المزرعة، ومحلة «العصّور» تتقدمها سيارة مكشوفة وقف فيها نقولا يحيط به فرج‌الله الحلو وخالد بكداش. وفي محلة «العصّور» هتف نقولا بصوت عال: «لتحيا ذكرى الشهيد ادوار الشرتوني ولتسقط الصهيونية وعملاؤها» وكان الشهيد الشرتوني قد قتل في هذه المحلة، في يوم وعد بلفور ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٤٥، بطعنة خنجر صوبها إليه عميل من عملاء الصهيونية.

وتابع الموكب سيره إلى ساحة الشهداء، فطريق الشام، فمحطة كراكول العبد، ومن هناك اتجه

يميناً نحو مكتب الحزب الشيوعي في رأس شارع سوريا، وكان هزج الجماهير الصاخب ترافقه دقات موسيقى المتين، وموسيقى جزين وكانتا مرافقتين لوفدي البلدتين الكبيرتين، وكان «لعيبة» السيف والترس و «لعيبة» الحكم يتوسطون الموكب ومن جهة كانت تتعالى الرّدات الزجلية ومنها:

فــــرج الله عــــاش لنــــا   والرجعيــــة ذلّــــت لنــــا

وكان وفد انطلياس ينشد:

وطني يــــا مطلــــع الجمال   وطني يــــا مسرح الأبــــاة

وابناء ساحل المتن الجنوبي كانوا ينشدون:

عــاش نقــولا شــاوي عــاش   شــاوي قلــوب الرجعيــة

منحــافــظ عــا الاستقلال   إســلام ومسيحــي

وكان وفد كل قرية ومدينة يحمل علمه الخاص وأكبر هذه الاعلام، كان علم منظمة الحزب الشيوعي في بخشتيه.

ولما وصل الموكب إلى امام مكتب الحزب في رأس شارع سوريا تكلم فرج الله شاكراً الجمع الغفير وقال: «عاش تضامنكم في سبيل الجلاء الصحيح، في سبيل حرية الشعب وخبزه، في سبيل الاستقلال والديمقراطية الصحيحين».

وفي اليوم نفسه، يوم الأحد ١٤ نيسان زار نقولا مساء بيت الشهيد ادوار الشرتوني معزياً.

التهاني

وقد اقبلت الشخصيات السياسية والوطنية إلى مكتب الحزب الشيوعي اللبناني مقدمة التهاني لنقولا شاوي ومقدرة الجهود التي بذلها في لندن وباريس وكان لها شأن في تسهيل مهمة المفاوض اللبناني، وفي طليعة هذه الشخصيات رئيس الحكومة سامي الصلح، الرئيس الفرد نقاش، الوزير سعدي المنلا، الوزير يوسف سالم، النائب صائب سلام، غبريال طراد، الشيخ ندرة عيسى الخوري، وسواهم.

في طرابلس

ويوم الأحد الواقع في الحادي عشر من شهر نوار ١٩٤٦، كان الموعد المقرر لذهاب نقولا شاوي لزيارة مسقط رأسه طرابلس، وقبل هذا الموعد بأسبوعين بدأت منظمة طرابلس والفرق

الحزبية في محافظة الشمال، وعلى طول الطريق الساحلية بين بيروت وجسر المدفون، بدأت بالتحضير للمشاركة باستقبال موكب نقولا شاوي، فهنا قوس نصر، وهنا تجمع تتقدمه الصبايا حاملات باقات الزهور، وهنا «لعّيبة» الحكم تحتل الساحة، مقدمة ضروباً من فن لعبة السيف والترس، وهنا رهط يتقدمه «دقيق» الكرنيطة.

ففي ساحل المتن الشمالي، وانطلياس وجونيه وبعشتا جرت للقائد استقبالات. ومن ثم في البترون، وشكا، وأنفه، والهري، في جميع هذه الامكنة لبّت جموع غفيرة دعوة الشيوعيين.

في هذا الوقت كانت طرابلس تغلي بالجماهير، الشوارع امتلأت بالناس. فابتداء من جسر البحصاص، فخنّاق حارو، فباب الرمل، فشارع العجم حتى ساحتي الحسيني والتل، كانت الجماهير قد سدّت كل المنافذ. وبالرغم من أن عدد لجنة التنظيم برئاسة المناضل الباسل سامي عويضة كان بالمئات، فإن الضغط الجماهيري عطّل مفعولها، لقد احتلت الجماهير الشوارع، ومن لم يتسن له النزول إلى الشارع، احتل شرفات المنازل. فاذا كان عدد الذين وجدوا في الشوارع حسب تقديرات لجنة التنظيم هو اربعون الف نسمة، فإن الذين احتلوا الشرفات المطلّة على ساحة التل أربى على هذا العدد بكثير.

كان الاستقبال رائعاً: هنا فريق الفرسان الذين يمتطون صهوات الجياد. وهنا عمال البحر في سفينة وضعت على سيارة، وهنا «لعّيبة» السيف والترس.

دخل نقولا طرابلس وهو على سيارة مكشوفة يحيط به الدكتور سميح علم الدين عميد الحزب الشيوعي في طرابلس وفرج‌الله الحلو، وخالد بكداش، سار الموكب رغم كثافته بكل هدوء ونظام. الهتافات هي المسموعة، وعندما وصل الموكب إلى أمام مكتب الحزب الشيوعي في بناية نحاس - كان بعض الاستفزازيين قد انخرطوا بالجماهير وراحوا يطعنون بعض المسؤولين عن التنظيم بالخناجر، فاحدثوا ضوضاء في الجمهور وجرح بعض الرفقاء.

لقد استغل بعض التقصير في تنظيم الموكب، وهو ما لاحظته لاحقاً قيادة الحزب، وحاولت تداركه خاصة بعد أن سعت اتجاهات مشكوك في وطنيتها آنذاك، إلى توسيع الخلاف، واحتضان زيارة نقولا لطرابلس. ولكن الحزب تنبه لذلك وجعل المكان الذي يستقبل فيه نقولا مهنئيه في منزل صديق له يمت إلى الجانب الوطني في طرابلس. وحتى اعلامياً لم تنشر «صوت الشعب» اسماء الذين زاروا نقولا من الصف الذي حاول توسيع رقعة الخلاف لمصالح ذاتية طرابلسية محضة، وفي اليوم التالي لوصوله إلى طرابلس زاره مصطفى كرامي شقيق المغفور له الرئيس عبد الحميد كرامي، في منزل الدكتور سميح علم الدين.

وبالمناسبة اصدرت لجنة الحزب في طرابلس بياناً موجهاً إلى الذين دلفوا للمشاركة في استقبال نقولا شاوي قالت فيه: «لقد لبيتم نداء الحزب الشيوعي فأتيتم بعشرات الألوف لاستقبال ابن مينائكم نقولا شاوي. إن الحزب الشيوعي في الشمال الذي يعتز بوطنيتكم وبروحكم الديمقراطية، يحيي هذه الروح التي حدت بكم إلى الاشتراك في هذا الاستقبال الشعبي الرائع الذي زحف فيه اربعون الفاً من المواطنين والمواطنات تعبيراً عن تقديركم لنضال وجهود نقولا شاوي».

وتحت مانشاتات على عرض صفحتها الأولى، نشرت «صوت الشعب» الخبر عن يوم نقولا شاوي في الشمال: وعلق الثقاة المرافقون لتاريخ طرابلس، أن الاستقبال الذي جرى لنقولا شاوي، من حيث كثافة الجماهير التي اشتركت فيه، هو ثالث حدث شهدته طرابلس، فالأول جرى يوم زار الملك فيصل طرابلس سنة ١٩١٩، والثاني يوم عاد عبد الحميد كرامي من الاعتقال في راشيا سنة ١٩٤٣.

لقد دخل استقبال نقولا شاوي في تاريخ طرابلس، بل في تاريخ لبنان. وجماهير الشمال، في مدنها وقراها، لا تنسى ذلك اليوم الأغر الذي التقى فيه أربعون ألف نسمة، ولم يحدث فيه ما يعكر صفو الأمن، اللّهم إلا ما حدث عند نهاية الاستقبال، أثناء استعداد الجماهير لمغادرة ساحة التل.

بين طهران وموسكو

في السادس من حزيران سنة ١٩٤٦، سافر إلى موسكو، بطريق طهران، مصطفى العريس ونقولا شاوي لحضور اجتماعات اللجنة التنفيذية للاتحاد النقابي العالمي: مصطفى كعضو فيها، ونقولا ممثلاً لجريدة «صوت الشعب» لتغطية أعمال اللجنة. ومن ١٧ إلى ٢١ حزيران عقدت اجتماعات المكتب التنفيذي التابع للجنة التنفيذية. وفي ٢٢ حزيران بدأت اجتماعات اللجنة التنفيذية، ومن موسكو بعث نقولا برسالة إلى «صوت الشعب» ورد فيها:

«بعد أن عقد المكتب التنفيذي للاتحاد النقابي العالمي اجتماعاته من ١٧ إلى ٢١ حزيران، بدأت اللجنة التنفيذية للاتحاد اعمالها في ٢٢ حزيران سنة ١٩٤٦. زارت الوفود قصر الكرملين، وضريح لينين ومدينة موسكو. ونظم اجتماع في «حديقة غوركي» حضره عشرون الف شخص، تكلم فيه عدد من المندوبين بينهم مصطفى العريس. وتلقى مصطفى برقيات من قيادة النقابات الرئيسية في العراق ليتقدم طلباً إلى اللجنة التنفيذية بانضمامها إلى الاتحاد النقابي العالمي، وأذاع راديو موسكو العربية خطابين لمصطفى العريس».

وبعد انتهاء اعمال دورة اللجنة التنفيذية والزيارات التي قام بها المندوبون إلى بعض المناطق

السوفياتية عاد نقولا ومصطفى إلى طهران حيث حضرا مؤتمر اتحاد العمال الايراني.

وفي عددها الصادر في ٣١ تموز ١٩٤٦ نشرت « صوت الشعب » برقية كان أرسلها نقولا شاوي من طهران وتأخر نشرها بسبب تعطيل « صوت الشعب » ورد فيها: « دعينا إلى المأدبة التي اقامها الامير فيروز وحضرها أعضاء الحكومة الايرانية وممثلون عن اتحاد الاحزاب الديمقراطية ومجلس النقابات ونقابة الاطباء والمنظمة النسائية. قضينا في اصفهان يوماً جرت فيه مواكب شعبية حافلة. نهار الخميس ذهبنا إلى اذربيجان فاستقبلنا في المطار الدكتور بيشفاري واعضاء الحكومة: وقد جرت مواكب شعبية ومظاهرات اشترك فيها عشرات الالوف من الجماهير وخطب فيها مصطفى العريس ».

وبعدما أمضيا (نقولا ومصطفى) حوالى الثلاثة أسابيع في ايران، عادا إلى لبنان وكان ذلك في الساعة الثانية عشرة ونصف من نهار يوم الثلاثاء الواقع في ٣٠ توز ١٩٤٦. وصل نقولا شاوي ومصطفى العريس إلى مطار بيروت ـ مطار بئر حسن ـ قادمين على متن طائرة من طهران، وقد استقبلتهما القيادات النقابية ولفيف من الاصدقاء، واسرة « صوت الشعب ».

وفي بيروت، بدأ نقولا بكتابة سلسلة مقالات عن مشاهداته وانطباعاته في ايران. وقدم لها في الحلقة الأولى بما يأتي:

« أتيح لي في هذا الصيف ـ في الطريق إلى موسكو ـ أن أزور إيران. لم تكن الزيارة طويلة، فقد دامت حوالى الثلاثة أسابيع. ولكنها مكنتني من الاطلاع على أشياء كثيرة قديمة وجديدة، في هذا البلد الشرقي الجاثم عند اطراف الهند، وعلى طريق الهند! ».

« لقد تعرفت عن كثب إلى هذا الجار الايراني الكبير ذي التاريخ الغني القديم المرتبط بتاريخنا العربي بصلات عريقة متنوعة كثيرة! صلات صداقة حيناً، وصلات خصومة حيناً آخر. صلات تحالف نضال مشترك ضد أكثر من عدو واحد، صلات فكر وثقافة ومدنية عظيمة عمّت جزءاً من العالم خلال فترة طويلة من الزمن، صلات دم وقرابة ».

وقد استقبل نقولا قادة « حزب توده » الذين مكنوه من زيارة مناطق عديدة في البلاد اتصل خلالها بجماهير الشعب من العمال والفلاحين، وتحدث إليهم وتحدثوا إليه. وقد سجل في مفكرته الكثير مما رآه وسمعه، وطرحه هو، وطرحه عمال وفلاحو ايران، ثم جمع، بعد عودته إلى لبنان كل ذلك بكتاب صدر سنة ١٩٤٧ باسم « شعب عظيم يخرج من القفص »، وقد لقي هذا الكتاب رواجاً، بالرغم من أن الوقت الذي صدر فيه لم يكن يتسع طويلاً. فقد دهمت لبنان موجة عاتية من الارهاب، كما أن انقلاباً رجعياً جرى في إيران، أطاح بالحكم الوطني الديمقراطي وبحكومة

قوام السلطنة، وبالحكم الذاتي في اذربيجان، وكان لهذه التغيرات في ايران تأثير سلبي في لبنان، ولكن بالرغم من هذا، فقد احتل كتاب «شعب عظيم يخرج من القفص» مكاناً مرموقاً وكان الإقبال عليه شديداً.

في مقدمة الحلقة الأولى من تحقيقات نقولا عن ايران يقول: «ولا اكتم أنني كنت سعيداً جداً، كمناضل عربي، وكصحافي، بهذه الرحلة إلى بلد اشغل المؤتمرات الدولية وما يزال يشغلها، بلد تشخص إليه منذ سنتين أنظار الشرق وأنظار العالم ويتتبع خطاه كل مناضل وطني في عالمنا العربي».

ويتابع نقولا: «إنه بلد يمتاز بتربة غنية جداً بالسائل الأسود السحري المسمّى نفطاً. وهو يسعى ويجد ويناضل بعزيمة صادقة من أجل حقه في الحياة الحرّة، وتوطيد استقلاله الكامل ونشر الديمقراطية الصحيحة في جميع ربوعه، والتخلص نهائياً من بقايا النظم الاستبدادية التي عمل التدخل الاستعماري سنوات طويلة للمحافظة عليها في هذه البقعة الجغرافية الهامة من الشرق».

ويتحدث نقولا في الحلقة الثانية عن مدينة طهران فيقول: «طهران مدينة كبيرة، حديثة العهد يتجاوز عدد سكانها الـ ٧٠٠ الف نسمة، تجمع بين الطابع الشرقي الفارسي وبين الطابع الاوروبي العصري. معظم ابنيتها من الآجر، ولكنها لا ترتفع أكثر من طابقين أو ثلاثة بسبب تعذر السكنى خلال الصيف في الأماكن العالية. أكثر المنازل أو القصور محاط بحديقة فسيحة تتوسطها بركة ماء. غير أن النقص الفاضح في هذه المدينة الجميلة، هو أن ليس فيها حتى الآن مياه للشرب في البيوت! والسكان مضطرين لشراء الماء وتقطيره! وليس في العاصمة مجارير، بل هناك أقنية مكشوفة في طرف الشوارع يزداد اسوداد المياه الجارية فيها مع تقدم ساعات النهار. ولا يزال معظم المنازل يعتمد على الآبار لتصريف المياه القذرة مثلما هي الحال بعد، في أكثر قرى الاصطياف عندنا».

وفي الحلقة الثالثة من التحقيقات يقدم نقولا لمحة عن تاريخ ايران منذ العام ١٧٧٩، يوم تسلط سلاطين آل قاجيار حتى العام ١٩٤٦ وكيف، انتقلت ايران إلى وضع ديمقراطي، هو حصيلة الانتخابات النيابية التي جرت سنة ١٩٤٤. فقد حققت الحكومة آنذاك تدابير ديمقراطية، كتوزيع الأراضي الاميرية على الفلاحين، وإصدار قانون العمل وسوى ذلك من التدابير الإصلاحية الديمقراطية.

وفي جميع الحلقات اللاحقة سرد واضح لحاضر ايران، ونضال الشعب من أجل الديمقراطية، وتحقيق المطالب الوطنية والشعبية، ومؤامرات شركة النفط، ودور الطبقة العاملة.

وبالرغم من مشاغله لم ينس نقولا « صوت الشعب » ومطبعتها. وهذا ما جعله يسعى وهو في ايران للحصول على طقم من الحروف العربية ذات الأشكال المختلفة، من الحرف حجم ٧ والحرف المجوّف، كبيراً وصغيراً، إلى انواع اخرى من الحروف لم تكن مستخدمة في مطابع بيروت.

هذه التشكيلة من الحروف، جعلت « صوت الشعب » من الناحية التكنيكية في الطليعة في لبنان، ولطالما زار مطابعها ذوّاقة الفن الصحافي، عبدالله المشنوق، مصطفى فتح‌الله، رأفت بحيري وكثيرون غيرهم ليروا عن كثب أنواع الحروف التي تستعملها.

وإذا قلت إن نقولا شاوي هو من الرعيل الأول الذي عمل من أجل تحقيق قفزة في الصحافة اللبنانية، فلا أكون مغالياً. وجريدة « صوت الشعب » في الاربعينات كانت محراب هذه القفزة، ومنطلقها الذي امتد وتعمق واتسع في الخمسينات، ومن ثم في الستينات، وحوّل الصحافة من عمل حرفي، إلى صناعة قائمة بذاتها.

في ذلك الوقت كانت الجيوش الانكليزية والفرنسية قد أتمت جلاءها الكامل عن سوريا ولبنان، ورافق الجلاء تبدلات مهمة في حياة البلاد السياسية، فالحكومة اللبنانية بدأت بممارسة سلطاتها على المرافق العامة التي استعادتها من الفرنسيين. وانتعشت الجماهير في المناطق، والمد الديمقراطي اتسع وتعمق. وأصاب الحزب الشيوعي، تطوراً واتساعاً شمل جميع المناطق وأربى عدد الذين انتسبوا إلى الحزب سنة ١٩٤٧ على ١٨ الف عضو. كما حصل مد في المجال العمالي. فبفضل الوحدة النقابية التي عبر عنها « الاتحاد العام » تمكنت الطبقة العاملة من انتزاع أول قانون للعمل في لبنان سنة ١٩٤٦، ولم تجدِ ضغوط الشركات الاجنبية والبيوتات التجارية الكبيرة، نفعاً، فالضغط العمالي المؤيد من جماهير الشعب كان الأقوى، ففرض ارادته: وكان قانون العمل، ثمرة الوحدة والنضال، والجهاد.

ومع تحقيق الجلاء العسكري التام، وممارسة الحكومة لصلاحياتها الوطنية، في التشريع، والقضاء، والأمن، والجيش، بدأت أصابع الاستعمار تمتد من جديد عبر الشركات الأجنبية، والبعثات المتعددة الأسماء، من أميركية وغيرها لتستأنف المعارك بأشكال أخرى.

* * *

في القسم الثاني من شهر كانون الأول سنة ١٩٤٦ نشرت « صوت الشعب » خبراً تحت صورتين لفرج‌الله الحلو ونقولا شاوي، ورد فيه، أن المكتب السياسي للحزب الشيوعي اجتمع ووافق على سفر فرج‌الله الحلو إلى فرنسا لمهات حزبية. وبذات الوقت انتخب المكتب نقولا شاوي رئيساً للحزب، بدلاً من فرج‌الله الحلو.

وأطل العام ١٩٤٧ وبدت في اجوائه ملامح لا تبشر بالخير. ففي الوضع الداخلي اللبناني كانت البلاد على ابواب انتخابات نيابية، وقد بدت المقدمات تشير إلى أن شيئاً ما يحضر لضرب الحريات الديمقراطية. وعلى الصعيد العربي بدأت المؤامرة على القضية الفلسطينية تزداد خطورة، وقد انتقلت من الساحة المحلية، إلى المجال الدولي، إلى الامم المتحدة.

في هذا الظرف كان الحزب الشيوعي اللبناني قد حقق خطوة إلى الامام. فالانتسابات إليه في ازدياد وانتشاره في المدن والقرى كان باتساع مستمر. ولكن المطامع الاستعمارية بدأت تتسرب إلى لبنان، عبر البعثات الوافدة من البلدان الاستعمارية، وبخاصة من الولايات المتحدة الاميركية. ويذكر في هذا المجال أن الاستعمار الاميركي الجديد بدأ بالهجوم بعد اعلان اميركا «مشروع مارشال» لحلول الاميركيين محل الاستعماريين الانكليزي والفرنسي في البلدان التي كانت تحت سيطرتها.

بعدما سافر فرج‌الله في أواخر كانون الأول إلى باريس عين لي ربيع العام ١٩٤٧ موعد الانتخابات النيابية في لبنان. وقرر الحزب الشيوعي خوضها في بعض المناطق، ومنها جبل لبنان. ولما لم يكن سوى فرج‌الله مرشحاً كفوءاً وقوياً لي الجبل، فقد تقرر استدعاؤه فوراً. وفي هذه الأثناء، كان الحزب الشيوعي الانكليزي يحضر لاجتماع للاحزاب الشيوعية في البلدان التي كانت تشكل «الامبراطورية البريطانية»، وقد وجهت الدعوة للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا. وانتدب الرفيقان خالد بكداش وفرج‌الله الحلو. وعلى هذا الاساس سافر خالد بكداش إلى باريس، ومن هناك سافر هو وفرج‌الله إلى لندن. وبعدما اشتركا بالمؤتمر وأجريا مجموعة من الصلات مع مسؤولين انكليز، وقادة الحركة الشيوعية العالمية، عادا بطريق باريس إلى لبنان.

وأخذ الحزب الشيوعي في لبنان بقيادة نقولا شاوي يستعد لتنظيم استقبال ضخم لفرج‌الله الحلو يكون منطلقاً للمعركة الانتخابية. وبالفعل فقد تحقق ذلك. فكان الاستقبال ضخماً جداً. فقد امتلأت شوارع وساحات حي المزرعة بالجماهير. ومن على شرفة بيت لطف‌الله قازان ارتفع صوت نقولا شاوي مرحباً بفرج‌الله الحلو وخالد بكداش، ومحدداً الخطى التي يجب أن تتبع لي المعركة الانتخابية النيابية التي سيخوضها فرج‌الله الحلو مرشحاً عن محافظة جبل لبنان، ومصطفى العريس عن بيروت، ونقولا شاوي عن محافظة الشمال. وكانت النتائج على الصعيد الشعبي باهرة، أما على الصعيد الرسمي فكانت النتائج سيئة. التزوير بلغ حدّه الاقصى. واصبح يوم ٢٥ نوار سنة ١٩٤٧ لطخة عار في تاريخ الحياة البرلمانية اللبنانية. حصل ذلك بعد أن قطع المسؤولون عهوداً بأن الحريات الانتخابية والديمقراطية ستكون مصانة.

بعد ٢٥ نوار، بدأت عربة الاستقلال تتعثر، فأصابع الاستعمار الجديد أخذت تمتد إلى

التدخل، بشكل مفضوح، في حياة لبنان الداخلية، وكانت القضية الفلسطينية تستأثر باهتمام الاوساط الوطنية. وبذات الوقت بدأت الاحوال الاقتصادية تزداد تردياً، وأخذ الاستياء في الاوساط الجماهيرية يتسع من سياسة الحكم، الذي كان يزداد انغماساً في التراجع امام مطالب الاستعمار الجديد الذي اندفع بالتطاول على الحريات الديمقراطية، وتسليط الإرهاب على المواطنين وبخاصة على الشيوعيين. في غمرة هذه التطورات السلبية، ظل الحزب الشيوعي الذي يضم ١٨ الف عضو، وصاحب المراكز القوية في الوسط العمالي والفلاحي، والثقافي، ظل متابعاً نشاطه بقوة، تحت قيادة نقولا شاوي، وبذلك خيّب نقولا، وهو على رأس الحزب، أمل من كانوا يعتقدون، من أقربين وأبعدين، أن إبدال فرج‌الله بنقولا، سيكون نقطة انطلاق لتبديل في خطة وستراتيجية الحزب. ولكن أمانة نقولا للحزب، ولمدرسة فرج‌الله الحلو، وحفاظه على تعاليمها وممارساتها، وصفاء روحها، جاءت صفعة لمن حاول الايقاع بين قيادة الحزب. وكما كان موقف نقولا من فرج‌الله عندما كان رئيساً للحزب، هكذا اصبح موقف فرج‌الله من نقولا عندما اصبح رئيساً للحزب. والموقفان اتسما دائماً بالصدق، والنبل والاخلاص. وهذه الميزة حفظت للحزب هيبته ووقاره، وصانت ارتباط القاعدة بالقيادة، والعكس بالعكس.

وبالرغم من الطريق الصعبة التي أرغم الحزب، والشعب على السير فيها، بعد قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين، مما فرض العودة إلى الحياة السرية، وتعطيل جميع الأدوات الإعلامية التابعة للحزب، كما وجهت إلى النقابات العمالية، والمنظمات الديمقراطية حملة ارهاب شديدة أفضت بالكثيرين من المسؤولين فيها إلى السجون والمحاكمات. وبالرغم من ذلك فقد حافظ الحزب تحت قيادة نقولا شاوي، على قواعده التنظيمية في العاصمة والمناطق. ولكن الرياح التي سبق أن هبّت ضد فرج‌الله الحلو سنة ١٩٤٦، بدأت تهب ضد نقولا شاوي. واستشرت في الحزب آفة عبادة الفرد، والتسلط وخرق الديمقراطية المركزية والتقاليد الرفاقية. وأخذ العمل لسحب البساط من تحت رجلي نقولا يشتد، فعمل القيادة في الحزب الشيوعي اللبناني تعطل. والمكتب السياسي ألغي بدون قرار وحلّت محلّه ما سمي بـ « القيادة المركزية » المؤلفة من شيوعيين لبنانيين وشيوعيين سوريين. وحتى هذه القيادة كانت يومياً خاضعة للتغيير والتبديل. وساد في هذه الفترة بين اعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٤، فتح الملفات لرفقاء مسؤولين في اللجنة المركزية، واعضاء في المكتب السياسي، كما اصبح التبدل في المواقع أسلوباً متبعاً في « القيادة المركزية » ونقولا واسمه السري كان « سمير » لم يسلم من ذلك، فبالرغم من أنه، رسمياً، رئيس للحزب، كان معرضاً للنقل، والعزل، ولو أن عمره طال، لكان كتب هو بقلمه، ما عاناه في فترات عديدة أثناء وجوده على رأس الحزب من آلام، ليحافظ على سلامة ووحدة الحزب.

في سنة ١٩٤٩، وقد اشتد فيها الارهاب ضد الشيوعيين والديمقراطيين فتح المرحوم وديع

ناهض بيته للحزب، وعنده سكن نقولا شاوي، وقد تحول هذا البيت الكريم إلى ملتقى للقيادة، وللضيوف الذين يأتون من المناطق للقاء بها. وفي هذا البيت تم قران نقولا على نهاد شقيقة وديع ناهض التي أصبحت لنقولا الزوجة الصالحة القنوعة، التي عايشت الواقع المظلم الذي خيّم على البلاد بعامة، وعلى العمل النضالي الحزبي بخاصة. وبالرغم من ابتعاد نقولا عنها، وبخاصة بعدما أنجبا الأولاد، لضرورات العمل الحزبي، تحملت هذا الواقع بصبر وأناة، فعملت بكل عناية وأمانة لتربية أولادها، وحرصها هذا هو الذي جعل نقولا، عندما كان يعيش في دمشق أو في خارج لبنان، أو في أمكنة سرية غير المنزل، أن يكون مطمئناً على سلامة أولاده لأنهم بين يدي نهاد، وحنان جدتهم لأمهم.

وكانت الخمسينات وفيها أشتد خطر الأحلاف الاستعمارية. فمن مشروع «سوريا الكبرى»، إلى «مشروع الهلال الخصيب»، «فالبدر الخصيب»، «فحلف بغداد»، «فالدفاع المشترك»، فحلف «قيادة البحر المتوسط»، «فالحلف التركي الباكستاني» فحلف «مبدأ ايزنهاور»... وكان الحزب الشيوعي في طليعة المناضلين ضد هذه الاحلاف. ولما برز إلى الساحة «حلف الدفاع المشترك»، سنة ١٩٥١، وكان الخطر الأشد، قرر الحزب تنظيم مظاهرة ضخمة ضده، بالرغم مما كان عليه وضعه السرّي. قمت مع نقولا شاوي بحملة اجتماعات في المنظمات والفرق الحزبية استمرت شهراً تقريباً، أشرنا فيها إلى الخطر الداهم، وبيّنّا للرفقاء أهمية اشتراكهم بالمظاهرة، دون أن نحدد لهم ميعادها. وبالفعل عندما جرت المظاهرة، يوم الاحد، أول تموز سنة ١٩٥١، ومشى فيها أكثر من اربعة آلاف نسمة سدوا الشارع من صيدلية حماده ـ طريق البسطة التحتا، حتى التياترو الكبير. لقد اكدت تلك المظاهرة اهمية التوعية المسبقة لأية مظاهرة. والمهم أن الشرطة لم تكن على علم مسبق بها. وقد عرفت بسيرها بعدما كانت طليعتها قد وصلت إلى تجاه كنيسة مار جرجس فبادروها باطلاق النار ووقع بعض الجرحى وقتل العامل الطرابلسي الرفيق أنور العش وإمرأة من بيروت.

وتركز النضال لاحقاً ما بين ١٩٥٢ و ١٩٥٧ ضد «حلف بغداد»، وقد قام نقولا في هذه الفترة بدور بارز ومقدر. فنسبياً كان قادراً على التحرك، وصلاته بمنظمة بيروت كانت متينة. أما فرج‌الله فكان بين ١٩٥١ و ١٩٥٤، يعمل مترجماً في جريدة «في سبيل سلم دائم» ويقوم احياناً بجمع تبرعات او اشتراكات للحزب من بعض الرفاق أو الأصدقاء.

ويحل العام ١٩٥٤، وتبدو في الافق ملامح انفراجات جزئية تسمح باستخدام بعض الحريات. وكان من الواجب أن يطل الحزب بوجه صريح وباسلوب علني، وعلى هذا الاساس اذاع الحزب بياناً سياسياً وقعه نقولا شاوي وفرج‌الله الحلو وأرتين مادويان وحسن قريطم نشرته جريدة «الصرخة».

وفي مطلع العام ١٩٥٤، وبعد بيان الحزب الشيوعي اللبناني المشار إليه، اذاع الحزب الشيوعي السوري بياناً مماثلاً وقعه خالد بكداش. وكان قد حدث في سوريا تبدل. فديكتاتورية الشيشكلي كانت قد سقطت، وبدت ملامح عهد جديد يحمل مظاهر من الحريات الديمقراطية..

وفي تلك الحقبة من العام ١٩٥٤، عقد عبد الناصر صفقة شراء سلاح من الاتحاد السوفياتي عبر تشيكوسلوفاكيا. هذه العملية شكلت خطوة تغييرية جذرية في السياسة العربية التي كان زمامها آنذاك بيد عبد الناصر. فقد حدثت انفراجات نحو العمل العلني. وفي سوريا جرت انتخابات نيابية سنة ١٩٥٤، ترشح فيها خالد بكداش. وهنا انتقل نقولا شاوي إلى دمشق ليشرف على تنظيم معركة خالد الانتخابية، ومع أكثر من مئتي متطوع لبناني وسوري عملوا في المعركة الانتخابية لمصلحة خالد بكداش، عمل نقولا شاوي كموجه، ومرجع رئيسي لهذا الجهاز. وقد عملت معه، وتحت قيادته آنذاك في دمشق وفي بيروت، حيث خصصت كل وقتي نهاراً وليلاً لطبع مستلزمات المعركة الانتخابية في دمشق. وأحياناً كثيرة كان نقولا يتصل بي بالتلفون في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ليقول، نحن بحاجة إلى كذا وكذا وكذا من المناشير والافيشات، ومرة اتصل بي في مكتب جريدة «الصرخة» فكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. والجميع هنا ينتظرون نتيجة فرز الاصوات. وبدأ يعطيني اخباراً عن المعركة. قلت له والنتيجة؟ قال يعني في نجاح، أي أن خالداً نجح.

الحقبة بين ١٩٥٢ وعلى وجه الضبط بعد انتصار الثورة المصرية في ٢٣ يوليو، والانقلاب الفوقي في لبنان الذي فرض استقالة رئيس الجمهورية، وسنة ١٩٥٢ وما تخللها من احداث ـ نشاط جماعة حلف بغداد وتأميم القناة والعدوان الثلاثي على مصر، معركة البترول، مبدأ ايزنهاور ـ. كل ذلك فرض تحركا وطنياً، قيادياً وشعبياً، جعل من لبنان ساحة للمعارك اليومية شغلت لا العالم العربي وحسب، بل العالم الخارجي.

وكان الحزب الشيوعي في صلب هذه المعارك، فما يكاد يمر أسبوع إلا وتنتظم مظاهرة يسير الشيوعيون على رأسها ضد هذا الحلف، أو هذا التدبير الذي يشكل تطاولاً على الحريات ـ وفي جميع اللجان التي تشكلت، لجنة البترول ـ لجنة الدفاع عن مصر ـ «المؤتمر الوطني للاحزاب والهيئات والشخصيات والصحافة الحرة» في جميعها، كان الحزب الشيوعي موجوداً بوجوه بارزة معروفة، إن لم تظهر كممثلة مباشرة للحزب، إنما كانت معروفة أنها شيوعية، كأنطون تابت، ومحمد الخطاب وسواه من المحامين، والنقابيين والشخصيات النسائية.

وفي وضع كمثل هذا الوضع، كان من الواجب أن يكون رئيس الحزب نقولا شاوي موجوداً في محراب حزبه، يقود، ويوجه، ويراقب ويتصل، وينظم. ولكن نقولا شاوي كان بعيداً عن

ذلك لا لأنه هو شاء هذا، بل لأنه نفذ قراراً للقيادة. فبعد انتقاله إلى دمشق ليشرف على معركة خالد بكداش الانتخابية، ونجح فيها خالد بتفوق، إذا بقرار يصدر بسفر نقولا شاوي إلى بوخارست عاصمة رومانيا ليكون ممثلاً للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان لدى هيئة تحرير جريدة «في سبيل سلم دائم» في حين كان بالإمكان إيفاد أي رفيق آخر وما أكثر القادرين على القيام بمهمة كهذه. ولكن النظرة الوحيدة الجانب، والتي لم تنظر نظرة واقعية للأمور الوطنية والحزبية، هي في أساس اتخاذ القرار المذكور، وفي حديث مع أرتين مادويان حول ايفاد نقولا إلى بوخارست قال: «القرار وحيد الجانب ولإبعاد نقولا عن الساحة اللبنانية».

مكث نقولا مدة في بوخارست منفذاً القرار الذي اتخذته القيادة وبعدما اوقفت جريدة «في سبيل سلم دائم» بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي سنة ١٩٥٦، عاد نقولا إلى لبنان وبقي فيه حتى انتهاء الاحداث المسلحة عام ١٩٥٨. وهو الذي أشرف على المعركة اللبنانية للتضامن مع مصر في أثناء معركة القناة والعدوان الثلاثي. وكذلك هو الذي اشرف على معركة انتخابات انطون تابت سنة ١٩٥٧، وأدت إلى نجاحه لولا عملية الخلط، والجمع ثم الطرح، الذي أدى إلى تخفيض الاصوات التي نالها من ١٥ الفاً إلى أحد عشر الفاً و ٥٠٠ صوت، ونقولا هو الذي قاد الحزب في اثناء النضال السياسي ضد مبدأ ايزنهاور وبالتالي في اثناء الاحداث المسلحة سنة ١٩٥٨، وقد اشترك فيها الحزب إلى جانب القوى الوطنية دفاعاً عن استقلال لبنان وعروبته وديمقراطيته.

في حقبة الاحداث المسلحة سنة ١٩٥٨، كنا يومياً نلتقي مع نقولا، وكانت الصلات منظمة مع مركز الحزب في بيروت. كما كانت منظمة مع مراكز: طرابلس، وبعلبك، والنبطية، وعيترون، شقرا، بنت جبيل، والجبل. مع جميع هذه المراكز والمنظمات الحزبية في كل المناطق، كانت الصلات منظمة وكان يجري التركيز على بلورة الطابع المعادي للأحلاف الاستعمارية وعلى رفض تشويه هوية لبنان وعلاقته العربية. كان الحزب يرى أن الخطر الأشد هو «مشروع ايزنهاور» و «حلف بغداد» وضد هذين الحلفين الاستعماريين لا تجب المهادنة، بل من الواجب خوض المعركة بما أمكن من القوة والاندفاع. وقد دلل الشيوعيون حاملو السلاح آنذاك، على انضباطية نوّه بها قادة الحركة الوطنية في بيروت وطرابلس، وبعلبك والجنوب، وبخاصة في الشوف وعلى لسان الشهيد الوطني الأكبر كمال جنبلاط.

وانتهت الحركة المسلحة في لبنان وتشكلت حكومة بعدما انتخب اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية، وبدأت البلاد تستعيد بعض الاستقرار وهذا كان يفرض بالضرورة بقاء نقولا على رأس الحزب في لبنان. ولكنه استدعي في شهر تشرين الثاني ١٩٥٨ إلى دمشق، وفي أثناء وجوده

هناك اعلنت في منتصف كانون الأول ١٩٥٨، البنود العشرة لإعادة النظر بالوحدة المصرية - السورية. وعلى أثر ذلك كان خطاب عبد الناصر في ٢٣ كانون الأول ١٩٥٨، الذي أعلن فيه حملته المعروفة ضد الشيوعيين. مما جعل أجهزة الأمن في سوريا تتحرك، وقامت بحملة اعتقالات ضد الشيوعيين. في هذا الوقت انتقل خالد بكداش ونقولا شاوي وفرج‌الله الحلو إلى لبنان بطريق حمص بمساعدة شيوعيين وأصدقاء في طرابلس. وفي ٢٢ كانون الثاني ١٩٥٩ سافر نقولا شاوي إلى موسكو، يرافقه المرحوم محمد الخطاب، لحضور المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي وكان خالد بكداش قد سبقهما إلى موسكو قبل ذلك بقليل عبر مطار بيروت. هذا فيما كان فرج‌الله الحلو ينشر في جريدة «الأخبار» بلاغاً يعلن استقلال الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. فالأعضاء اللبنانيون في اللجنة المركزية السابقة يشكلون اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني، وكذلك الأمر بالنسبة للحزب الشيوعي السوري.

وبعد هذا البلاغ الواضح المبين، كان مفروضاً أن يبقى فرج‌الله أمين سر الحزب الشيوعي اللبناني في لبنان، يقود الحزب بعد سفر رئيسه نقولا شاوي، ولكنه عاد إلى دمشق، لماذا؟ وحتى الآن وقد انقضى أكثر من ٢٨ عاماً على استشهاده، لا ندري لماذا عاد إلى دمشق، ولماذا اتخذ قرار بعدوته لدمشق.

سافر نقولا كما ورد في ٢٢ كانون الثاني ١٩٥٩ لحضور المؤتمر الواحد والعشرين، وعاد إلى لبنان في اوائل نوار ١٩٥٩، وكان قد حضر بعض المؤتمرات للأحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية.

عندما وصل نقولا إلى لبنان في مطلع نوار كما ورد أفاد بأن ندوة حول البرجوازية الوطنية ستعقد بمبادرة من الحزب الشيوعي الايراني (حزب تودة) وأن ممثلاً لحزبنا سيكون فيها وقال لي حضر حالك لتسافر أنت إليها. وكنت قد استحصلت على جواز للسفر بعدما حجب عني على مدى أكثر من ١٣ سنة.

حضرت ندوة «ليبزيغ» في المانيا، وعدت بعدها إلى براغ ومن ثم سافرت إلى موسكو فقابلت خالد بكداش وأطلعته على الوضع عندنا. وفي طريق العودة اتبعت طريق صوفيا ثم عدت إلى لبنان بطريق النمسا.

وصلت إلى بيروت في أول تموز ١٩٥٩، وأول لقاء كان لي مع حسن قريطم، قال أريد أن اراك على حدة، واقفل الباب، وأخبرني بأن فرج الله اعتقل في ٢٦ حزيران في دمشق وأن الأخبار مقلقة عليه، وقال يبدو انه قضي عليه. كانت دقائق رهيبة لم نتمالك نفسينا عن البكاء.

* * *

بعدما استقل الحزب الشيوعي اللبناني قيادة وسياسة، وتنظيماً، استقلالاً كاملاً في أواخر عام ١٩٦٤، وانتخاب نقولا شاوي أميناً عاماً له في مطلع عام ١٩٦٥، وتوسيع اللجنة المركزية بدخول رهط من الشباب إليها، بدأت، شيئاً فشيئاً، الحيوية تدب في اجتماعات القيادة وعبرت عن ذلك المناقشات حول القضايا المطروحة، وقد جذبت عدداً كبيراً من المشتركين فيها إلى المداخلات وإبداء آرائهم، سواء في المكتب السياسي أو في اللجنة المركزية. وشيئاً فشيئاً أخذ هذا الجو الجديد ينتقل إلى حياة الفرق (القواعد). وبدلاً من الدوران في الحلقات المفرغة عند البحث في خطة الحزب وفي موضوع التحالفات أصبحت الملموسية تظهر شيئاً فشيئاً وكانت ملموسية مرفقة بجرأة واقدام. وبدأ الحزب يتحول من جديد إلى قوة لها تأثيرها، والخط الجديد حرك الحزب وأعاد الدينامية إلى صفوفه وعزز تحالفاته التي بدأت تتأسس على أسس صحيحة ومع قوى فاعلة. وكان لنقولا شاوي الأمين العام دور كبير في الدعوة إلى توطيد هذه الحيوية الجديدة وجعلها أساس الوثبة السياسية والتنظيمية التي بدأت تترسخ في عمل الحزب.

إن جرأة نقولا شاوي في تقديم الكادر واخراج الحزب من قوقعته، وبروز وجوه شابة جديدة كفوءة، أثار بعض من لم يقدروا على إدراك كنه السياسة التجددية التي ينتهجها نقولا شاوي. وقد حاول هؤلاء، وكان الحزب في عزّ طفرته الجماهيرية، وحيويته التنظيمية، وضع العصي في طريق المسار التنظيمي منطلقين من مواقع ذاتية، من شأنها، لو تسنّى لها النجاح أن توقف دفقة الانطلاق البنّاءة الهادفة إلى خلق حزب شيوعي لبناني، جماهيري مكافح يتحسس آلام شعب هذا البلد، ويناضل من أجل تأمين مطالبه، في الميادين الاجتماعية والسياسية كافة.

حاول نقولا شاوي كثيراً اقناع الذين لم يدرسوا طبيعة المرحلة، مما جعلهم يبتعدون عن الواقع، في حين أن الأكثرية الساحقة من القاعدة قد دانت مواقفهم. وبالرغم من ذلك ظل نقولا حتى آخر لحظة يحاول انقاذهم. ولكن النقد غير البنّاء، واتخاذ المواقف الذاتية المحضة، والانطلاق منها لإصدار الأحكام المبرمة، أدت بهم إلى المزيد من العناد، ولما لم تعد محاولات الانقاذ مجدية، اضطر نقولا إلى وضع القضية امام أعلى هيئة في الحزب، أمام اللجنة المركزية.

دعيت اللجنة المركزية إلى الانعقاد في أوائل أيلول سنة ١٩٦٧ وقدم التقرير الرفيق نقولا شاوي. وقد عرض فيه الوضع الذي نشأ بعد حرب حزيران والضرورات التي تفرض موجبات جديدة للعمل على مختلف الصعد، الداخلية وفي أساسها العمل الجبهوي، والقضايا العربية وفي أساسها تنشيط حركة التحرر الوطني بعد الصدمة التي أصيبت بها في نكسة ٥ حزيران. ودولياً العمل على توسيع الصلات مع الأصدقاء في العالم لبذل الجهود لدعم قضية التحرر العربية التي كانت لا تزال معالمها متمحورة حول مصر وبقيادة عبد الناصر.

وعلى الصعيد التنظيمي عرض الأمين العام الوضع الذي نشأ في الحزب بعد اجتماع المكتب

السياسي في أواخر شهر نوار ١٩٦٧. وطرح الأمين العام اقتراحاً بحل مبدئي ديمقراطي، يستجيب لاقتراحات وآراء الأكثرية الساحقة لقواعد وملاكات وقيادة الحزب.

وحاول الرفقاء الذين لم ينظروا إلى الواقع بمنظار ديالكتيكي، أن يضربوا عرض الحائط بمبدأ رئيسي يشكل العمود الفقري للتنظيم الحزبي، أي المركزية الديمقراطية وهو موقف الأكثرية، فالأكثرية دانت موقف الذين تعاموا عن رؤية الشمس في عز النهار، وأيدت الموقف الذي عبر عنه الأمين العام، لأنه يعكس الحقيقة في الصرح الحزبي. وعلى هذا الأساس، تقرر عقد المؤتمر الوطني للحزب. (المؤتمر الأول للحزب عقد في ٣١ كانون الأول ١٩٤٣ و ١ ـ ٢ كانون الثاني ١٩٤٤)، وكان قد مضى على انعقاده ٢٤ سنة. والحزب يعمل خلالها دون قانون، ولا برنامج يحدد مساره، ولا قيادات منتخبة قانونياً. وخلال هذه المدة حدثت تطورات جذرية في الوضع الدولي، وفي الوضع العربي، واللبناني، مما كان يفرض عقد مؤتمر للحزب.

وعلى أساس القرار بدعوة المؤتمر الوطني للحزب، شكلت مجموعات من اللجان ذات الاختصاص، لوضع ورقات تشكل أساساً ومنطلقاً لبرنامج الحزب، فالحزب الشيوعي اللبناني الذي تأسس سنة ١٩٢٤، كان لا يزال، حتى تموز سنة ١٩٦٨، بدون برنامج. فهو قد أصدر عند التأسيس بياناً بمبادىء عامة، وفي مطلع الثلاثينات وثيقة برنامجية، والميثاق الوطني الذي صدر عن مؤتمر عام ١٩٤٤ كان أيضاً وثيقة برنامجية.

دامت مدة التحضير للمؤتمر حوالى العشرة شهور، وفي أوائل تموز عام ١٩٦٨، عقد المؤتمر بحضور مندوبين منتخبين من جميع المناطق اللبنانية، رئس المؤتمر الأمين العام نقولا شاوي. وهو الذي ألقى التقرير العام للفترة الواقعة بين المؤتمرين. وإن ما تميز به ذلك التقرير، هو الانتقاد الذاتي الذي صاغه نقولا شاوي باسلوب صريح، واضح لم يسبق أن حدث مثله في تاريخ الحزب. وتناول الانتقاد الذاتي الناحيتين السياسية والتنظيمية معاً؛ فالخطأ في الخطة السياسية، يقود إلى الخطأ في الخطة التنظيمية، والعكس بالعكس.

وإذا كان الحزب ينتقل في الفترة بين مؤتمريه، من نصر هنا، إلى عثرة هناك. ثم، من كبوة إلى نصر، ثم العودة إلى كبوة أشد عمقاً، فلأنه لم يكن يستند إلى بوصلة موجهة، كان يعمل بدون برنامج، وبدون نظام داخلي، ولهذا سادت العفوية حيناً، والفوضوية حيناً، والمسار المستقيم حيناً آخر، وذلك يعود، كما قلنا، لعدم وجود برنامج، ونظام داخلي.

أهمية مؤتمر ١٩٦٨ هي في أنه اقرّ البرنامج والنظام الداخلي. كما أوصى بوضع برنامج زراعي، وقد أقر نهائياً في كونفرانس خاص عقد سنة ١٩٧٣ برئاسة نقولا شاوي. وهي المرة الأولى في تاريخ الحزب يقر فيها برنامج زراعي مبني على أسس موضوعية علمية.

وانتخب المؤتمر لجنة مركزية جديدة. وإذا كان الحزب دخل المؤتمر بروح توحيدية عبّر عنها تمثيل المندوبين، فقد خرج منه، في وحدة فولاذية قوية أكد صلابتها الغزو الإسرائيلي الذي أدرك عملياً امكانات الشيوعيين، وقدرتهم على اتخاذ القرارات وتنفيذها.

إن الأزمة التي ظهرت في الحزب، في العام ١٩٦٧، وأدّت إلى قيام فريقين غير متوازيين، فريق أقلية أراد ابقاء الحزب في الجمودية، وفريق وهو الذي شكل الأكثرية، عمل لإنقاذه، والوصول إلى وضع اسفر عن اقتراح بحل انقاذي، يصون الحزب ويدعم وحدته. إن ما حصل آنذاك يعود لنقولا شاوي شخصياً فضل كبير فيه.

إن قدامى الحزب الشيوعي، من أعضاء وأصدقاء، وقادة نقابيين، الحريصين على وحدة الحزب، تخوفوا، بل خافوا على هذه المنظمة اللبنانية العريقة وهي أول منظمة سياسية تأسست في لبنان بعد الانتداب الفرنسي. وبقدر ما كان الخوف مسيطراً على الذين أشرت اليهم وسواهم من الملتزمين، والأصدقاء، كان الاطمئنان، والارتياح لمقررات المؤتمر الحزبي، مؤتمر الوحدة والإنقاذ. وإذا قلت إن هذا المؤتمر يشكل محطة تاريخية بارزة في حياة الحزب، فلا أكون مغالياً، ومعطيات السنوات اللاّحقة بينه وبين أوائل العام ١٩٧٥، وحتى العام ١٩٨٨، تؤكد ذلك.

وإذا كان الحزب قد تمكن في ٢٤ تشرين الأول ١٩٧٤، ولأول مرة في تاريخه، من تنظيم الاحتفالات بذكرى تأسيسه الخمسينية، وسط أوقيانوس هادر من الجماهير التي أمّت حصرايل، و «عروس البحر» في بيروت، فذلك يعود لصحة مقررات مؤتمريه ١٩٦٢ و١٩٧٢ التي جاءت شاقولاً عوّم السفينة وأطلق مسارها ورتب وضعها الداخلي فأصبحت جاهزة لاستقبال الركاب، من أبناء الشعب اللبناني. بناة هذا الوطن، ومحطمي صخور جباله، وتحويلها إلى بساتين، وجلول كسوها بالأشجار التي جعلت من لبنان بلد الاخضرار الدائم. هذا البلد الذي أحبه نقولا شاوي، ودخل السجون مع أقرب الناس إليه، فرج‌الله الحلو، وتعرض للتعذيب على أيدي المستعمرين لأنه رفض مطلبهم، وهو أن يعلن كفره باستقلال لبنان، فأبى.

إن الاحتفالات بالذكرى الستين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني، عام ١٩٨٤ أكدت صحة مقررات وتوجهات المؤتمر الرابع للحزب بالنسبة للعمل الجبهوي من جهة، ولجعل الحزب ذلك الحزب المناضل المقاتل من أجل تحرير لبنان، وعروبته وديمقراطيته ووحدته أرضاً وشعباً.

مجتزآت من كتابات سياسية لنقولا شاوي

في سلسلة المقالات التي كتبتها عن نقولا شاوي ونشرت تباعاً في «نداء الأحد» بعنوان

« خمسون سنة مع نقولا شاوي »، والتي يتضمنها هذا الكتاب حاولت أن اعطي صورة، بقدر ما مكنتني الذاكرة من جهة، والقلم من جهة، عن شخصية نقولا شاوي، كقائد سياسي بارع، ومنظم فذّ، وصحافي لامع، ولكن مهما اعتدّ الكاتب، واعتقد أنه قادر أن يفي من هم كنقولا شاوي، حقهم، فيبقى مقصراً. لأن نقولا شاوي كان مجموعة كفاءات، وقدرات، ومواهب، وخصال حميدة. وإن الأيام، التاريخ وهو ملك للشعب، للناس، للمناضلين من أجل الأفضل والأجمل والأسمى، لبلدهم: ستثبت لإنسان هذا البلد أن رفقاء نقولا شاوي سيتابعون الخط، وسيضعون، من قصّرنا عن إيفائهم حقهم، في المرتبة التي يستحقون.

وفيما يأتي بعض مجتزآت من كتابات نقولا شاوي السياسية، وقد نشرت في الجريدة الرائدة التي أسسها في ١٥ نوار سنة ١٩٣٧، « صوت الشعب ».

لقد جمع نقولا شاوي في كتاباته، بين عمق المحتوى، ورشاقة الشكل، فلا حشو، ولا تصنيع، ولا مطوّلات. فالخبر يلي اسم كان أو أنَّ، وليس كمن يجعلك تسلك المتاهات، لتجدهما، في نقطة نائية جداً، مما يدفعك إلى الدخول مع نفسك في حوار، هل ان ما وجدته هو اسم، أو خبر، أو شبيه بهما. فنقولا كاتباً، « إن ضرب فمباشرة على اليافوخ، وإن صفع فعلى الوجه »!.

حول التعطيل الاداري

« ... عطلت « صوت الشعب » بسبب المقال الذي نشرناه في عددنا العاشر عما يجري في الجزيرة، لأننا شجبنا حركة العصيان الرجعية التي نشبت هناك وحملنا على الذين نظموها وفضحنا القائمين بها، لأننا وضعنا النقاط على الحروف، واظهرنا الاخطار التي تهدد وطننا الناشىء من مثل هذه الحركات وأشباهها، فهل في ما كتبناه جرم؟. ألم يكن بالإمكان دعوتنا إلى المثول أمام المحكمة للدفاع عما قلناه؟. اهكذا تظل القوانين القديمة التي تقيّد وترهب الصحافة هي السائدة في هذا العهد الجديد؟. اهذه هي الحريات الديمقراطية التي يطالب بها الشعب؟. إن التعطيل الاداري وصمة مخجلة في جبين العهد الوطني، إننا نحتج عليه بكل قوانا ونطالب بالغاء كل القيود التي تقيد الصحافة ».

صوت الشعب ١٩٣٧/٩/٦

مصلحة الشعب فوق الشركات الاجنبية

« تدور على الألسنة اليوم شائعة مفادها أن شركات البنزين سترفع أسعارها خلال الاسبوع، وأنها أوعزت إلى عملائها وموظفيها ليأخذوا علماً بذلك.

إنهم يركضون وراء الربح الفاحش ويستبدون بلقمة الشعب ويوعزون في الوقت نفسه إلى عملائهم وجرائدهم لإيهام الناس بأن المسؤولية في ذلك تقع على العهد الجديد. إننا نطالب مع الشعب بوضع حد لهذه الحالة التي لا تطاق. وليس يدفعنا إلى طلبنا هذا إلاّ شعورنا بآلام الشعب، وغيرتنا على العهد الجديد، الذي نريده جديداً حقاً».

صوت الشعب ١٩٣٧/٩/١٦

خبز الشعب

«ترد إلينا كل يوم عشرات الرسائل من مختلف الجهات يشكو فيها اصحابها غلاء المعيشة الفاحش والصعوبات الاقتصادية الشديدة التي يلاقيها الشعب في حياته اليومية».

«إن الشعب يطلب خبزاً وهو ينتظر من اولياء الامر أن يهتموا بمصالحه ويصونوا حقوقه، فذلك أهم في نظره من التطبيقات الانتخابية وتعيين المخاتير، وعزل زيد وعبيد. إن مصلحة العامل والتاجر والصانع والفلاح تقتضي وقف جشع المحتكرين، وتحديد الاسعار وجلب كميات كبيرة من الحنطة لتوزيعها وبيعها باسعار رخيصة على المحتاجين بواسطة البلديات».

صوت الشعب ١٩٣٧/٩/١٧

غيروا نوع الرجال تؤمنوا للبلاد استقراراً

«... إننا نريد أن يدرك المسؤولون الاساسيون عن لبنان ضرورة إجراء تبديل أساسي في سياستهم وطرق عملهم، وأن يفهموا أن لبنان الجديد لا يمكن أن تديره بنجاح رؤوس عتيقة ووجوه بالية، إن لبنان الجديد يريد رجالاً جديدين يتولون أموره ويستلمون مقدراته».

«.. ولبنان اليوم يطلب من المسؤولين الاساسيين أن يساعدوا على إعطائه حكومة جديدة فيها رجال من الجيل اللبناني الجديد لم يخونوا ولم تتدنس أيديهم ولا ضمائرهم بجريمة أو بشرّ ضد الشعب».

صوت الشعب ١٩٣٨/١/١٢

هل تلك الأكثرية تمثل الشعب؟

«... إن الحكومة تخطىء كثيراً إذا كانت تعتقد أن الاستياء الكامن عند الشعب ضدها هو نتيجة دعايات بعض اعدائها كما نوّه بذلك في المجلس النيابي أحد أبواقها، كلا، لتفهم جيداً أن استياء الشعب ليس من زرع الدعايات المعارضة، إنه قائم على أساس مشروع وعميق. إنه نتيجة للسياسة التفقيرية، والاستغلالية والوصولية التي تتبعها. أجل لتفهم جيداً أن الشعب لا ينظر إلى

الأشخاص، إنه يتطلع دائماً إلى الاعمال، إنه يحكم على الحكومات مهما كان القائمون عليها على أساس افعالها. إن المظاهر لا تغرّه مطلقاً، والدعايات الفارغة: مهما كانت، سواء كان مصدرها الحكومة أو أعداء الحكومة لا تؤثر فيه. وإن أثرت فأثرها لا يدوم طويلاً، لأن الشعب يعرف دائماً ـ رغم كل الأقاويل ـ ماذا يريد ؛ يعرف أنه جائع، وأنه مقيد، وأنه مهدد، ولذلك فهو يناضل بكل قواه في سبيل خبزه وحريته».

صوت الشعب ١٩٣٨/١/١٣

يجب تعزيز الدستور
وإنقاذه من أيدي العابثين

« ... إن واجب انصار الدستور في الوقت الحاضر خطير للغاية وهو يحتم عليهم جميعاً أن يكونوا يداً واحدة لصيانته ورفع لوائه عالياً وإنقاذه من عبث العابثين، والدستور نفسه هو أمضى سلاح في أيدي الشعب لمحاربة أعداء الدستور ومشوهيه والمتآمرين عليه.

لقد نجحت لعبة المتآمرين في مصر فلا نريد أن تنجح شبيهتها في لبنان. إن فقدانا شيئاً من الحريات لا يجب أن يدفعنا إلى السير مع الذين يريدون إفقادنا كل الحريات، والحرية هي كل شيء للشعب، هي الخبز والعمل والهدوء».

صوت الشعب ١٩٣٨/١/١٩

ليس النظام البرلماني هو المسؤول عن المهازل التي تتمثل في لبنان

جوابنا على تصريحات المسيو روبير دوكه

« ... أجل يا مسيو دوكه، لقد قالوا لك أشياء كثيرة وتحدثوا إليك عن الفضائح التي رافقت الانتخابات الاخيرة وعن الضغط والارهاب الذي ساد البلاد في الاشهر الفائتة، فهل يجب الاستنتاج من كل ذلك أن المسؤولية فيما حدث تقع على الدستور والنظام النيابي؟. ثم هل من المعقول أن تحدث كل هذه الأمور لو كان الشعب يملك في لبنان حريات دستورية صحيحة غير معرّضة في كل يوم وكل ساعة لعبث العابثين ورغبات بعض المسؤولين؟ ».

« إن النظام الذي يسود لبنان منذ سنة إلى اليوم ليس دستورياً إلا بالاسم، والذين يطبقونه إنما يشوهونه ويحقرونه في أعين الشعب لأنهم يرتكبون في ظله كل الموبقات الممكنة. وإذا كانت الشكاوى ترتفع على ما يجري في البلاد من فظائع وأعمال منكرة، فإنما هي موجهة للاشخاص لا للدستور ».

صوت الشعب ١٩٣٨/١/٢٢

سياسة إقطاعية في التفكير والعمل

« تسير الحكومة اللبنانية اليوم بسياسة خطرة، ملأى بالمغامرات. فهي في سبيل احتفاظها بالكراسي وبقائها في الحكم تبيح لنفسها كل شيء: تتلاعب بنصوص الدستور، وتحتضن الرجعيين واعداء البلاد، وتنفق بسخاء لكسب رضى المحاسيب: وتنشيء الوظائف الجديدة من اجلهم، وتهمل مصالح أكثرية الشعب لترضي اقلية مكروهة، وتترك جانباً مطالب البلاد وتغطس في لجة الحزازات الحزبية لترد الضربات الموجهة إليها ».

« ... فالنواب والموظفون يشعرون بسيف مسلط فوق رؤوسهم على الدوام حتى اصبحوا لا يجرأون على ابداء الانتقاد أو الملاحظة في سبيل تقويم ما اعوجَّ أو فسد. وجماهير الشعب التي لا تدرك دائماً هذه الحالة تقع في أكثر الاحيان في أحابيل الرجعيين وأعداء لبنان عندما يعزون كل المصائب والنوائب التي تنتاب البلاد إلى النظام النيابي والدستور ».

صوت الشعب ٥ / ٢ / ١٩٣٨

صوت الشعب تناديكم

« ... قامت هذه الجريدة في الاشهر القليلة التي اجتازتها بجزء كبير من المهمة التي القاها التاريخ والظروف السياسية الحاضرة على اكتافها. فتعرضت بسبب ذلك لسخط اعداء هذا الوطن وهم اقوياء واصحاب جبروت، فحاربوها بكل ما لديهم من وسائل، كما أن السلطات المنتدبة والمحلية عطلتها مرتين. ولكن ذلك لم يضعف من عزيمتها بل زادها قوة وصلابة واندفاعاً. وإذا كنّا نعيد اليوم على قرائنا هذه الحقائق فلكي نقول إن الصعوبات القائمة في وجه « صوت الشعب » لم تذلل كلها بعد، وإنه لا يمكننا تذليلها إلا بمساعدة ومؤآزرة جميع قرائها ومشتركيها واصدقائها وكل العناصر الديمقراطية الشريفة التي تعطف عليها في ارجاء هذا الوطن العزيز ».

« إن « صوت الشعب » في محنة، وهي محنة مادية صرفة، فكيف الخروج منها؟ هذا هو السؤال الذي نضعه اليوم أمام قرائنا. إن « صوت الشعب » لا تعرف مورداً سوى ما تتقاضاه من مشتركيها وقرائها. إن « صوت الشعب » لن تلجأ ابداً إلى الاموال التي تنفقها الشركات الاجنبية والقنصليات الفاشيستية أو المراجع الرسمية على بعض الوريقات لتنطق باسمها وتدافع عن مصالحها المناقضة لمصالح واهداف الشعب ».

صوت الشعب ١٥/٢/١٩٣٨

٥٠ الفاً من فتيان لبنان يطلبون مدارس

« اليس من العار على لبنان الذي رفع نبراس الثقافة عالياً طيلة الاجيال الماضية، وأنجب كتاباً وشعراء وأدباء وأطباء وعلماء وفلاسفة خلدوا اسمه وحملوا اضواء المعرفة إلى كل انحاء العالم، اليس من العار أن لا يكون له في عاصمته مثلاً سوى مدرسة رسمية واحدة. إن الخمسين الفاً من الاولاد الذين يجوبون الشوارع ولا مدراس تجمعهم وتثقفهم وتنجب منهم رجالاً تنتفع منهم البلاد وتفتخر بنبوغهم، هم وصمة في جبين هذه الجمهورية التي يبذّر بعض وزرائها ٤٨ الفاً من الليرات كنفقات سرية من اموال الشعب ».

صوت الشعب ١٩٣٨/٣/١

فقدان المنطق في أسباب
تعيين البلديات

« ... نحن لا نعتقد أن شؤون البلدية هي قضية فنية بحتة متعلقة بتجميل المدينة وتنظيمها على الاسس العصريـة فقط، إن مثل هذه الامور لها اهميتها، ولكنها ليست كل شيء. فهناك النواحي الاجتماعية والصحية التي تلعب دوراً اساسياً. إن شعب بيروت الذي يدفع لبلديته المبالغ الطائلة في كل عام، من ضرائب ورسوم متنوعة يريد منها أن تهتم بحياته اليومية وراحته، قبل اهتمامها بالمشاريع الكمالية، وهو متأكد أنه ما من أحد يمكنه أن يفهم حقيقة مطالبه ويدافع عنها ويعمل لتحقيقها مثل اناس منه وفيه، يشعرون معه، ويحيون حياته، يلمسون شكاويه، يسيرون في ازقته في ليالي الشتاء حفر اوحول التي تعرقل سيره، وبحيرات الماء تظل في أحيائه طيلة فصل الشتاء، حتى إذا ما جاء الصيف جلبت له البرغش والذباب والامراض. أجل يريد الشعب ناساً يعرفون حياته حق المعرفة، يجوعون مثله، ينهكون قواهم للحصول على الرغيف، ليعرفوا في نهاية الامر قيمة الرغيف ويوفرونه للمحتاجين والجياع ».

صوت الشعب ١٩٣٨/٤/١٣

جبهة السلام

« ... لقد قلنا يوم مؤامرة ميونيخ إن التخاذل امام المعتدي لا ينقذ السلام بل يقرب خطر الحرب، لأن مطامع الدول الفاشيستية لا حد لها. وهكذا جرى بالفعل. فإن المانيا بعد ابتلاعها السوديت احتلت تشيكوسلوفاكيا وممل، وايطاليا من جهتها ذبحت اسبانيا وراحت تطالب بمقاطعات ومستعمرات فرنسية واحتلت البانيا. ولكن رغم هذه الاعتداءات المتكررة لم يضق الوقت بعد ولا يزال بالامكان سد الطريق في وجه الوحش الفاشيستي. غير أنه ينبغي الإقلاع عن

سياسة الترقيع والتحذير التي اتبعتها مدة طويلة دوائر لندن وباريس وانتهاج سياسة سلام صحيحة قائمة على مبادىء السلامة المشتركة، هذه السياسة التي رفع لواءها الاتحاد السوفياتي منذ سنوات وناضل في سبيل توطيد اواصرها بنشاط في جنيف وخارجها ».

صوت الشعب ١٩٣٩/٤/٢٣

أين حرمة الصحافة؟

« ... نحن نعلم أن للصحافة حرمة خاصة في كل بلدان العالم، ولا سيا في البلدان التي تعيش في ظل نظام دستوري، ونحن نعلم أن في الوزارة نفسها رجال صحافة، يأبون أن تهان الصحافة أو يضطهد القائمون عليها ».

« ... لنسأل رجال الحكومة!.. ألا يحق لنا حقيقة أن نقول هذا؟. إلا يحق لنا أن نغضب عندما نرى بعض انفار تحري يحاصرون جريدة تصدر بحرية في بيروت، في عهد نقول عنه إنه وطني دستوري كافل لكل الحريات؟ ».

صوت الشعب ١٩٣٨/٥/٦

الحملة على الأوضاع الجمهورية

وردّ على ما كان يقوم به عدد من السياسيين، من رسميين وسواهم، ضد النظام الجمهوري كتب نقولا مقالة بعنوان جاء فيها:

« ... إن النظام الجمهوري يبرأ من كل الاعمال التي اوصلت البلاد إلى هذه الحالة، لأن ما من جماعة استلمت الحكم في لبنان في السنوات الأخيرة إلا وبذلت جهدها لتشويه الدستور وتحقيره وجعله سلّماً لتنفيذ اغراضها ومآربها. أما الشعب فقد استنكر دائماً هذه المحاولات واعلن في كل المناسبات عدم رضائه عنها ».

صوت الشعب ١٩٣٩/٨/٧

الاتحاد السوفياتي وميثاق عدم الاعتداء

« .. لقد قلنا دائماً إن الميثاق الثلاثي بين فرنسا وانكلترا والاتحاد السوفياتي هو اداة فعالة لحفظ السلام في العالم وللوقوف بحزم امام مشاريع التوسع الهتلرية والموسولينية الرامية إلى استعباد الشعوب الضعيفة بالحديد والنار. ولا شك أن الإسراع في عقد هذا الميثاق يساعد إلى حد كبير على انشاء جبهة السلام التي ينشدها كل اعداء البربرية الفاشيستية: وكل الشعوب المهددة بالعدوان. على أن مسؤولية تأخر عقد الميثاق الثلاثي إلى اليوم لا تقع مطلقاً على عاتق الاتحاد السوفياتي الذي

ما برحوا يخلقون له الصعوبات ويضعون في وجهه شتى العراقيل التي تتعارض ومبدأ التعاقد القائم على أساس المساواة في الحقوق والواجبات لرفع الاعتداء وحفظ السلام ».

صوت الشعب ١٩٣٩/٨/٢٧

نشرت « النداء » قسماً من « مجتزآت من كتابات سياسية لنقولا شاوي ». ونظراً لما لهذه المجتزآت من أهمية سياسية وتاريخية، وتوجيهية، فإننا ننشر البعض منها، وهو ما تمكنّا من الحصول عليه نظراً لفقدان الكثير من مقالات نقولا السياسية، بسبب الظروف الإرهابية التي سيطرت بين الحين والآخر على الأوضاع السياسية في لبنان، فتارة كانت السلطات تضع يدها على المطبوعات التي نشرت فيها تلك المقالات، وتارة اضطر من يحتفظون بها إلى إتلافها كي لا تقع بأيدي مكافحيها، فتعرضهم إلى الاعتقال. وعلى كل فإن ما هو في أيدينا من هذه المجتزآت يقدم لوحة حيّة عن الدور الكبير الذي قام به نقولا شاوي كصحافي، وقائد للحزب الشيوعي، ومناضل في صف الحركة الوطنية. وفيما يلي قسم من هذه المجتزآت.

لا تفتروا على الديمقراطية
الديمقراطية تبرؤ من كل هذا!

« ... ليس من السهل اقناع الشعب اللبناني بافلاس الديمقراطية والنظم الدستورية، وليس من السهل أيضاً فرض هذا الاقناع عليه بالارهاب والقوة، لأنه نابه واع، سائر في طريق الاتحاد ».

ويخاطب نقولا شاوي جماعة « البشير » ويقول:

« ... وافهموا، ان المعاهدة والدستور والبرلمان والانتخابات وحرية التصويت، كلها، ملك الشعب اللبناني وهو لن يتنازل عنها، بل سيدافع عنها بكل وعيه ويقظته واتحاده ورصانته ».

صوت الشعب ١٩٣٧/١٠/١٠

الديمقراطية ومطالب الشعب

« ... وليس من السهل اقناع الشعب بأن شهر سيف التعطيل الاداري على الصحف ومعاكسة بعض الاجتماعات الانتخابية في قلب المعركة الانتخابية، وعدم سن تشريع للعمل، وترك الشعب تحت رحمة المتلاعبين بأسعار الخبز والطحين، وعدم وضع الضرائب على أساس الدخل، ليس من السهل اقناعه بأن هذه الامور ديمقراطية مستمدة من مبادىء حقوق الانسان ».

صوت الشعب ١٢ / ١٠ / ١٩٣٧

ضرورة تأليف جبهة ديمقراطية

« ... ونحن واثقون من أن القوى الديمقراطية، المنظم منها والمبعثر، إذا ما اتحدت جميعاً على أساس خدمة الشعب والدفاع عن مصالحه، ومنع المتاجرة بمصالحه، واتفقت على برنامج معين توضع خطوطه بعد البحث المشترك، فإنها بذلك تقوم بخدمة كبرى نحو البلاد ».

« ... فليس هناك ما يبرر أبداً ابقاء الديمقراطيين مبعثري الصفوف وليس هناك ما يمنعهم من توحيد صفوفهم إذا كانوا حقيقة ديمقراطيين، وإذا كانوا عازمين فعلاً على النضال دون هوادة ولا تراجع في سبيل البرامج التي يعلنونها امام الشعب ».

صوت الشعب ١٣ / ١٠ / ١٩٣٧

نهاية حلم جميل

« ... وذات ليلة سمع الطليان مذيعهم ينبئهم بسقوط طرابلس الغرب عاصمة الامبراطورية، فوجموا وأصاخوا بسمعهم إلى أصوات الفرح التي استقبلت هذا النبأ في أنحاء العالم، فأدركوا درجة الحقد الذي يحرك صدور الشعوب الحرّة نحو الجلاد المسخ الذي يسيطر على بلادهم. وسمع العقلاء منهم، هؤلاء الذين ينظرون إلى قلوبهم أولاً ليفهموا عواطف غيرهم، سمعوا أصواتاً بعيدة تهتف مغتبطة، أصوات الأحباش وهم يمدون أيديهم للعرب، العرب الذين قدموا ألوف الضحايا خلال المراحل المظلمة التي رافقت بناء الامبراطورية السوداء التي أصبحت الآن أنقاضاً. العرب الذين يذكرون في جميع أقطارهم، أن هذه الامبراطورية المنهارة كانت مصبوغة بدماء عمر المختار. ويسمع الشيخ الإيطالي حفيده يقرأ بصوت عال أمثولته في زاوية غرفة الطعام، مردداً بلا وعي، « عاش أبونا الدوتشي، حارس أوطاننا ورانع أمجادنا وقائد جيوشنا من ظفر إلى ظفر، فينهره بغضب، ثم يتناول الكتيب ويمزقه ».

« صوت الشعب » ٢٨ / ١ / ١٩٤٣

نظرة إلى جبهة مصر

« ...ولذا نقول إلى بعض المذعورين: إن ثقتنا بمصير الحرب، ثقتنا بانكسار المحور لن يزعزعها بعض انتصارات سريعة أحرزها رومل في الصحراء الغربية وعلى أبواب مصر. انظروا قليلاً إلى بعيد ولا تدعوا الأشجار تمنعكم من رؤية الغابة. إن الضربات تنهال على العدو من كل جانب ودماؤه تسيل رغم تظاهره بالقوة. إنه يفقد كل يوم الألوف من خيرة رجاله والمئات من دباباته في الجبهة الروسية. إن مصير الحرب لن يتقرر في مصر. وقوات الحلفاء الشرقية، قوات روسيا وبريطانيا وفرنسا الحرة المرابطة في ايران والعراق وفلسطين ومصر وسوريا ولبنان، لن تدع

هتلر ينفذ أغراضه » ويوزع « الوعود المعسولة على العرب، وهي كفيلة برد الغزاة الالمان والطليان على أعقابهم مهما توغلوا في الأراضي المصرية ».

« صوت الشعب » ٦ / ٧ / ١٩٤٢

لا سلام في انتصار النازية

« ... نناضل نحن العرب في سبيل أمانينا الوطنية، في سبيل حرياتنا واستقلالنا وحقنا في تقرير مصير بلادنا السياسي والاقتصادي، نناضل لرفع مستوى شعبنا من جميع الوجوه وتنمية مواردنا الصناعية والزراعية والتنعم بها إلى أقصى حد. نناضل لنعيش أحراراً في أوطاننا، ولتوطيد كياننا اللبناني، ولتحسين حالة عمالنا وفلاحينا وترقية صناعتنا وتوسيع تجارتنا وتنظيم علاقات ودّ وإخاء مع كل جيراننا ومع كل الشعوب الحرة. فأي طريق يقودنا إلى هذا الهدف: طريق دول المحور أم طريق الاتحاد السوفياتي وبريطانيا وفرنسا الحرة « أميركا وبقية الحلفاء ».

« صوت الشعب » ٣ / ٢ / ١٩٤٢

طلائع ربيعنا

« ... لقد قلنا منذ أيام إن الميدان السوفياتي هو الميدان الرئيسي للحلفاء، وإن النازية الالمانية هي العدو الأساسي. وها هي أنباء القتال في هذا الميدان تدعو إلى الاطمئنان والتفاؤل وتبشر بسلسلة انتصارات جديدة هامة. فليتشبث المتربصون إذا شاءوا، بتوجيه أنظارهم شطر الشرق الأقصى، بعد أن كانوا ييأسون من الربيع الأوروبي. فنحن أيضاً ننظر إلى الشرق الأقصى، ولكننا ننظر إليه على ضوء خطاب روزفلت الأخير وتصريح جواهر لآل نهرو ».

« صوت الشعب » ١٦ / ٣ / ١٩٤٢

الفصل المنشود

« إن حالة بعض المتربصين لمحزنة حقاً... يقولون عادة: الانتظار صعب، ولكن القضية قضية انتظار تراموای مثلاً تأخر ربع ساعة بسبب جنازة أو اصطدام أو انتظار صديق وعد بالمجيء في الساعة السادسة فدقت النصف دون أن يأتي، أو انتظار دراهم لا تقبض إلا في نهاية الشهر، أو انتظار جواب على رسالة هامة، أو انتظار عطلة أو سهرة أو رحلة الخ... فكيف والقضية قضية انتظار فصل من فصول السنة، فصل مؤلف من ثلاثة أشهر، اسمه الربيع؟

حقاً إن الانتظار لصعب؟ ولو كان مجيء الربيع معلقاً بروزنامة لهان الأمر. ولكن المسألة أعمق من ذلك. فربيع هذه السنة معلق بعوامل شتى، عوامل غامضة لا تمت إلى تقلبات الجو بصلة، فلا يكفي أن نرى الأشجار مزهرة والزرع أخضر والشمس مشرقة والنسيم عليلاً، لنستنتج

أن الربيع قد بدأ. فهذه موازين بالية عتيقة كان يلجأ إليها آباؤنا وأجدادنا ولم تبق لها عبرة في عصر الدبابات والمظلات والفرق المصفحة والمجهات الصاعقة الهتلرية. والربيع الحقيقي، الربيع الذي ننتظر يتوقف خصوصاً على قرار هذه الآلات بالسير شرقاً أو جنوباً. فاذا سارت غرباً، فذلك يعني أن الشتاء لا يزال مسيطراً، وهي الآن مع الأسف، تصرّ على السير نحو الغرب».

«صوت الشعب» ٢٦ / ٣ / ١٩٤٢

رغيفنا والطابور الخامس

«... لا تقولوا إننا واهمون، فمن السخف وضيق النظر السكوت عن هذا النفر المجرم أو استصغار شأنه. لأن الدروس التي اقتبسها العالم عن نشاط الطوابير الهتلرية في أوروبا وفي البلدان الأخرى، قد دفعت جميع الشعوب إلى التسلح باليقظة والحذر لمجابهة هذا النوع من الأخطار التي تهددها. وإذا كانت السلطات الحليفة قد اتخذت بعد دخولها إلى بلادنا بعض التدابير لشل أعمال أنصار النازي، فالقضاء عليهم وعلى دعايتهم لم يتم بعد. وقد برهنت الوقائع أن الناحية الاقتصادية هي أشد النواحي خطراً وأكثرها اتقاناً في نشاط الطابور الخامس. فكره أبناء بلادنا للنازية والفاشيستية وتعلقهم بالديمقراطية وعزمهم الشديد للدفاع عن وطنهم وصيانة حريتهم واستقلالهم، كل ذلك قد عزل إلى حد كبير، عملاء المحور عن الأوساط الشعبية واضطرهم إلى التستر بشتى أنواع الخداع والنفاق لبث سمومهم».

«صوت الشعب» ٢٦ / ٣ / ١٩٤٢

الوحش الجريح

«من يقارن بين خطب هتلر الماضية، وبين خطبته الأخيرة، أمام مجلس الريخستاغ ير الفرق شاسعاً. إن في الخطاب عجزاً بيّناً ودفاعاً يائساً وصراخاً يذكر بصراخ الحيوانات الجريحة. ولا شك أن أعضاء الريخستاغ وكثيرين غيرهم من الهتلريين «الأمناء» استغربوا كل الاستغراب لهجة «فوهررهم» ولمسوا في أقواله أشياء لم تكن تخطر ببال. ان لهجة الخطاب هي لهجة خنزير جريح. وقد اعتاد الصيادون الخبيرون في صيد الخنازير البرية إذا جرحوا أحدها أن يشددوا عليه الخناق حتى يتم لهم الاجهاز عليه. ولا شك أن هذه الخطة لا بد منها مع الطاغية الهتلري».

«صوت الشعب» ٢ / ٥ / ١٩٤٢

على أبواب الحياة النيابية

«... إن اللبنانيين، مثل غيرهم من الشعوب، قد استفادوا من دروس الحرب فصار من الصعب خداعهم وإرضائهم بالوعود المعسولة، وأصبحوا يدركون أن لإرادتهم وزنها في حياة

البلاد، فقرروا توجيه هذه الارادة بما يتفق مع مصلحة وطنهم ولقمة عائلاتهم.

إن المجلس الذي سينبثق عن الانتخابات القادمة، سيحمل في عنقه مسؤولية البلاد خلال أربع سنوات، ستكون بلا شك سنوات فاصلة في تاريخ لبنان. ففيها ستنتهي الحرب ويعقد مؤتمر الصلح. وفيها يواجه لبنان مرحلة جديدة من مراحل تطوره الوطني، تلك التي يتقرر فيها مصيره لسنوات ما بعد الحرب، فعلى عاتق ذلك المجلس بصورة خاصة تقع تبعة تهيئة البلاد لمواجهة الحوادث الجسام التي ستعترضها حينذاك، وعلى كفاءة أعضائه وأمانتهم واخلاصهم لقضية شعبهم يتوقف، إلى حد كبير، حسن استعداد اللبنانيين لمجابهة الموقف بصفوف موحدة وقلوب قوية متراصة ومطالب عملية، حولها اجماع تام، تستهدف خبز لبنان وسعادة لبنان».

«صوت الشعب» ٨ / ٥ / ١٩٤٣

وجه سوريا بعد الجلاء يريده كل عربي وجهاً ديمقراطياً ناصعاً

«... إن المستعمرين الأجانب وحدهم يرتاحون لمثل هذه القرارات الرجعية. يرتاحون إليها لسببين رئيسيين: **أولاً**، لأنهم يتخلصون من نشاط الأحزاب الوطنية التي تحارب محاولاتهم للتدخل في شؤون البلاد الخاصة وتفضح مؤامراتهم على كيان الوطن ومناوراتهم الرامية إلى تفريق صفوف أبنائه، **وثانياً**، لأنهم يستخدمون هذا التدبير في الأوساط الدولية لإظهار سوريا بمظهر الدولة الرجعية الأوتوقراطية، ذات الميول الهتلرية، العاجزة عن توطيد الأنظمة الديمقراطية الحديثة في بلادها، والتي تهدد باتجاهاتها الفاشيستية السلام والسلم الدوليين في الشرق الأدنى، وغداً تتذرع الأوساط الاستعمارية بذلك لمحاولة التدخل في أمورنا الداخلية من جهة، والهجوم من جديد على ما نلناه من حقوق استقلالية من جهة أخرى».

«صوت الشعب» ٢٣ / ٥ / ١٩٤٦

انتصار الحرية في لبنان يتوقف على أبناء لبنان

«... إنه لمن بشائر الخير ودواعي الابتهاج أن تدعى بلادنا إلى خوض معركة الانتخابات والدنيا تستعد لخوض معركة الحرية. إنه لمما يبعث على التفاؤل ويزيد في الرجاء، أن تخطو بلادنا أولى خطواتها نحو الحرية، وقضية الحرية تسير في العالم بقدم ثابتة إلى الأمام: فإن ذلك ليؤكد ما قلناه من أن قضية الحرية أصبحت واحدة، ويحدونا إلى الثقة بأن تلك الروح الطيبة التي تسري من شعب إلى شعب، ستنعكس في بلادنا، وفي انتخاباتنا، فيكون لنا مجلس نيابي يفضل المجالس القديمة، يناضل عن الحرية أكثر مما ناضلت، ويدافع عن حقوق الشعب أكثر مما دافعت، ويسير بالبلاد نحو الآمال التي تنشدها، مع قافلة الحرية السائرة إلى الأمام في كل بلد من بلاد العالم».

« ... لكن انتصار الحرية في لبنان يتوقف إلى حد كبير علينا نحن أبناء شعب لبنان. فمن واجبنا أن نعمل ونناضل من أجل انتصارها لا أن ندع أمرها للمقادير فتجري بها كما تشاء، وأن كل البوادر الوطنية في هذا البلد، لتدل على أن الشعب اللبناني قد أدرك واجبه العظيم ومسؤوليته الكبرى في هذه المرحلة الخطيرة من حياة وطننا، وأنه سيؤدي الواجب وينهض بعبء المسؤولية خير نهوض».

«صوت الشعب» ١٩٤٩/٦/٢

دعامة الاستقلال الوطني
حريات ديمقراطية واعتماد على الشعب

« ... فاستقلال لا يبذل شروط الشعب الاقتصادية ولا ينهض بجماهيره الكادحة إلى المستوى اللائق بهم كمواطني جمهورية ديمقراطية حرّة، لا يكون استقلالاً وطنيّاً صحيحاً، مهما اعترفت به دول أجنبية، واستقلال لا يساعد على نشر الثقافة بين أبناء البلاد، ويمحو الأميّة من القرية والمدينة، ولا يشيع الحريات الديمقراطية الكاملة بين جميع أبناء الشعب ليتمكن كل فرد من ممارسة حقوقه وإبداء رأيه، إن استقلالاً من هذا النوع لن يكون إلا صورة ممسوخة لما ينشده لبنان في هذا الظرف العصيب من تاريخه، ونحن على ثقة من أن أعضاء الحكومة أنفسهم ومعهم نواب البلاد، يفقهون جيداً هذه الحقيقة. والذي نطلبه منهم وتطلبه البلاد بأسرها هو أن يبذلوا كل ما في وسعهم لجعل لبنان اليوم ولبنان الغد أحسن وأرقى وأهنأ من لبنان الأمس».

«صوت الشعب» ١٩٤٣/١٠/١٦

وفيما يلي مقاطع اجتزأتها من افتتاحيات لنقولا شاوي نشرت في «صوت الشعب» في أولى سنوات تأسيسها.

في سبيل الحرية والخبز

«يا أخي القارىء إن «صوت الشعب» هي صوتك. صوتك الرنّان الداوي منذ ١٧ عاماً في كل سهول وجبال هذا الوطن العربي العزيز، صوتك الذي ارتفع على الدوام، في كل البقاع. في كل شارع وساحة وسجن ومنفى. بين قطرات الدماء وأزيز الرصاص مطالباً بالاستقلال وبالحرية والرغيف. صوتك الذي أرعب أفظع القوى الغاصبة وظل عالياً رغم كل اضطهاد وتنكيل وإرهاب. صوتك الذي انتزع في النهاية هذا العهد.

العدد رقم (١) من «صوت الشعب» ١٩٣٧/٥/١٥

الشعب اللبناني لن يغلب

« ... ففي عام ١٩٣٧ عاش لبنان في ظل عهد أسميناه جديداً، سجل بدء زوال الانتداب، غير أن هذا العهد الجديد رغم كل ما علّق عليه الشعب من آمال لم يبيض، كما كنا ننتظر، وجه لبنان. فالقائمون عليه وأكثرهم من رجال العهد البائد ظلوا في سلوكهم وسياستهم يطبقون أساليب الدور الماضي، واستمروا في سياسة الحزبيات الصغيرة فشقوا الشعب إلى معسكرين وتابعوا سياسة الإرهاب وحبس الحريات عن الشعب ففسحوا المجال لمؤامرات الدساسين وتركوا الجو حراً للمحتكرين ليتلاعبوا بخبز الشعب وقوته الضروري ».

ويتابع:

« ولكن إلى جانب كل ذلك رأينا في الوقت نفسه يقظة شعبية وطنية قل نظيرها في السنوات الماضية. فالفكرة الديمقراطية شقت طريقها بين جماهير اللبنانيين الذين أخذوا يتطلعون إلى الجبهة الشعبية الفرنسية بعطف كبير. وارتفعت أصوات كانت مخنوقة، تطالب بإطلاق الحريات وتدعو إلى توحيد جهود كل الشعب في جبهة متراصة قوية للدفاع عن حقوق البلاد ومصالح الشعب كله ».

صوت الشعب ١٩٣٧/١٢/٣

* * *

الخطر على المعاهدتين

« ... الشعب يعرف أن المعاهدة، سواء في سوريا أو في لبنان، ليست الاستقلال الناجز الذي يطلبه بأي وسيلة يتوقف على حسن تنفيذها وتطبيقها السير بسرعة أو ببطء نحو مراحل استقلالية أوسع، وكيان وطني أقوى، وشروط اقتصادية أغنى. ولذلك نرى من الشعب ميلاً شديداً إلى الدفاع عن المعاهدة والمطالبة في الاسراع بتصديقها. ونرى عند اعدائه نشاطاً في محاربة المعاهدة وتأجيل البحث فيها وسعياً إلى إحباطها وإرجاع العهد البائد كما كان ».

صوت الشعب ١٩٣٧/٥/٢٢

* * *

الصعوبات والنكبات لا تزيد
الشعب إلا صلابة وتمسكاً بأمانيه

« ... إن الازمات والنكبات لا يجب أن تفقدنا رشدنا وتوقعنا في احابيل ذوي المصالح

والاغراض النفعية وتضحية بمجوعة المصالح في سبيل الجري وراء واحدة منها.. إن ذكريات العهد المظلم البائد ليست عزيزة على الشعب بشيء. وهو يسعى الآن إلى نسيانها والتعرف إلى ما هو اعذب منها، لا الرجوع إليها. ورغبة الشعب الاساسية في الوقت الحاضر هي أن يرى المعاهدة تطبق تطبيقاً صحيحاً حازماً، وأن يرى اتحاده الوطني يقوم وينتظم، حتى يسير نحو مراحل استقلالية اوسع ترفع امكانياته الانشائية وتنشر بعض الرخاء في مجموع حياته، وتضمن له نهضة وطنية عامة ليستطيع متابعة نضاله في سبيل استقلاله التام واسترجاع ما ضاع من حقوقه».

صوت الشعب ١٩٣٧/٦/٥

* * *

لبنان لا يريد الفوضى والمذابح بل يريد العيش في سلام واخاء وهدوء

«يؤلمنا كثيراً أن نتكلم عن النزاعات الطائفية لأنها تذكرنا بعهود مظلمة وحشية عرقلت تقدم الانسانية مئات السنين وسادها التناحر والتباغض. إن المذابح التي عرفها الانسان في القرون الوسطى هي وصمات سوداء في تاريخ الانسانية، ولذلك نغضب ونثور عندما نرى أناساً في القرن العشرين يحاولون الرجوع بنا إلى ذلك العهد».

ويتابع: «نقول ذلك بمناسبة الاحداث المؤسفة التي جرت في لبنان هذا الأسبوع. فقد علقت إحدى الصحف على خطاب حلب وكان تعليقاً خالياً من التعقل اللازم في مثل هذه الظروف الحرجة. فبدلاً من أن تلوم الشخص الذي ألقى الخطاب وهو وحده المسؤول إذا كان في الخطاب من هفوات ـ راحت تهاجم الدين الاسلامي مباشرة. ونحن نسأل هؤلاء الناس: هل تعتقدون أنكم أدّيتم بعملكم هذا خدمة للدين المسيحي، هل تعتقدون أن المسيحيين في لبنان يوافقونكم على سلوككم هذا؟ إن الشعب اللبناني يريد أن يعيش في هدوء وطمأنينة ونظام، ولبنان يريد أن يسود الاخاء والحب في ربوعه الغنية الجميلة. يريد أن يكون صفاً واحداً في المطالبة بحقوقه الوطنية، وحرياته الديمقراطية. إننا ندعو جماهير الشعب إلى اليقظة والحرص والسهر أكثر من أي وقت آخر على مصالحها».

صوت الشعب ١٩٣٧/٧/٣

* * *

الشعب يريد انتخابات حرة

«... إن المعركة الانتخابية الحاضرة هي أول استفتاء شعبي يجري في هذا العهد الجديد، فلا

تجعلوا الشعب يرى فيه قيوداً وعراقيل كالتي كان يضعها أمام الشعب بعض المستشارين في العهد البائد. افسحوا المجال له لينتخب من يشاء دون ضغط أو تهديد، فهو أعرف الناس بالأشخاص الذين يخدمون مصالحه ويدافعون بإخلاص عن حقوقه. صونوا الحياة النيابية التي يحاول الرجعيون تحقيرها في كل المناسبات ودعوا الشعب يفهم أنه إذا كان لم يجن فائدة من المجالس السابقة، فما ذلك لان الحكم النيابي غير نافع، بل لأن أكثرية العناصر التي قامت عليه لم تكن تمثل الشعب تمثيلاً حقيقياً، ولم تكن عندها الجدارة والاخلاص الكافيين للقيام بدورها النيابي حق القيام، بل لم تكن لها الحرية اللازمة لذلك، فيا إذا ارادت خدمة الشعب».

صوت الشعب ١٩٣٧/٩/١٩

* * *

على عتبة الانتخابات في لبنان

«... لقد أشرنا في شتى المناسبات، ودعونا في كل ظرف إلى توحيد الجهود الوطنية المخلصة لكي تنتظم جبهة الشعب وتصبح قادرة على اسماع صوتها، وفرض ارادتها، وسحق جبهة الرجعية التي تغذي، أكثر من أي وقت آخر، نعرات التعصب الطائفي وتزيد في تفريق الأمة. وها هي الانتخابات ميدان عملي لتحقيق هذه الخطوة وتوطيد أسس العمل المنظم المشترك بين كل الجماعات والعناصر التي تسعى لخدمة الشعب. فلماذا لا نوحد فيها جهودنا؟. لقد كان صوت العامل والتاجر والمستخدم والفلاح، الوطني الجريء مفقوداً إلى يومنا هذا في المجالس النيابية الماضية، أفلا يجب أن يرتفع عاليا صريحاً في المجلس الجديد؟».

ايلول ١٩٣٧

* * *

عشرة آلاف سائق خبزهم في خطر

«... قلنا مراراً إن السواقين يؤلفون جماعة كبيرة من الشعب مع أطفالهم وعيالهم، وليس لهم مورد يعتاشون منه إلا مقود السيارة، وقد ارتفعت اسعار البنزين في الاشهر الاخيرة بشكل جعلهم يعيشون على هامش الحياة فرفعوا ظلامتهم إلى أولي الأمر وشكوا واحتجوا ولكن لم يصغ اليهم أحد.

لقد صرحنا دائماً أن العهود السابقة التي مرت على هذه البلاد كانت عهود سيطرة الشركات الاحتكارية واستبدادها بمصالح الشعب، ورجونا أن يحررنا هذا العهد نوعا ما من جشعها واستثمارها لكي يتنفس الشعب قليلاً ويرتاح إلى حاضره. لقد ضج الأهلون من شركة الجر

والتنوير ومن سكة الحديد، ومن شركة المياه، ومونوبول التبغ، وغيرها. واليوم يقف السائق اشقى أفراد الشعب طالباً أن ترد عنه ضربات شركة البنزين واعتدائها على خبزه، فهل يذهب صوته أيضاً هباءً؟».

صوت الشعب ١٩٣٧/٩/٢٤

* * *

يدنا، يد الحب والاخاء

« ... ولهذا، ولأننا لا قانون لنا إلا خدمة لبناننا الجميل المحبوب، دعونا وسندعو وسنظل ندعو ونعمل دون كلل لتحقيق الاتحاد الاخوي المتين بين كل ابناء لبنان».

« نعم إننا ندعو إلى اتحاد شعب لبنان كله للوقوف في وجه الفوضى والجهل والبؤس، ندعو إلى تكاتف كل اللبنانيين، وتعاضد كل القوى المخلصة الشريفة التي تحب لبنان، لكي نضمن لبلادنا تطوراً سريعاً وتقدماً مطرداً في مدارج الارتقاء والثقافة في جو من السلام والاخاء والهدوء».

صوت الشعب ١٩٣٧/٩/٢٥

* * *

الناخب اللبناني يطلب حريته
المقدمة

« لا نغالي إذا قلنا إن ما يشغل بال الناخبين اللبنانيين في المعركة الانتخابية الحاضرة هو ضمان حرية الانتخابات. ولعل الحكومة لا تجهل أن الكثيرين من الموظفين الاداريين يقومون اليوم بأعمال لم يسبقهم إليها حتى موظفي حكومات العهد البائد. إن الموظفين والموجهين بتطبيق القوانين لا يزالون يقومون بأعمالهم بروح تناقض تماماً تصريحات المسؤولين، فالحكومة تعلم أن الدرك في جدايل قد تصرفوا تصرفاً يخالف تماماً روح العهد الجديد ويناقض جوهر التصريحات التي أعطاها رئيس الوزراء ووزير الداخلية والعميد السامي، فهل بحثت الحكومة أسباب ذلك التصرف؟ وهل حققت عن المسؤول في تلك القضية؟ ».

صوت الشعب ١٩٣٧/١٠/٢

* * *

شيوعيون ومواقف

الياس البواري، من فقدنا [1]

الجرأة كان سيدها، والاستقامة كان ضميرها، والتشبث بالمبدأ كان دينه، والانتقاد والانتقاد الذاتي كان ديدنه.

ما حابى ووارب في أمر. الحقيقة قالها عارية، والصدق والإخلاص نضح بها ضميره، مقداماً في المهمات، شملالاً في المسيرات لا يرضخ لترهيب، ولا يهون أمام غطرسة، ولا تزعزع موقفه صفاقة، متواضعاً عاش، وعرياناً قضى اللهم إلا من إيمانه بحزبه الشيوعي، وثقته بقيادته التي تدير دفة السفينة بروية، ودراية، ولا سيما في أثناء هيجان البحار وتلاطم الأمواج محافظة على نقاوة، وصفاء جوهر الحزب، ومدى علاقته بالجماهير.

هذا هو الياس البواري مَن فقدنا، ومن رهن حياته لتحرير أبناء طبقته، وجماهير شعب وطنه، من عبث الماكرين، واستثمار الاقطاعيين والمحتكرين، ومن أجل ذلك لم يخش السجون فدخلها من أبوابها ولم يطأطىء رأسه أمام حاكم وحكم ظالمين، ارتضى العيش مع رهط البؤساء يشاطرهم ألمهم وعذابهم، ولقمة عيشهم، وكان له بذلك أمتع ما في حياته.

في العمل السري التقيته، وفي شوارع بيروت مشينا سوياً متظاهرين ضد مشاريع الاستعمار، وتجار الدماء وأرباب الاحتكار، في السجن عشنا سوياً، فاقتسمنا «القروانة» و«التعيين» وارتضينا شظف العيش لأننا شيوعيان نعمل من أجل التغيير، والتحرير والاستقلال عبر تنظيم الطبقة العاملة، وجماهير الفلاحين، هذه القوة المتحالفة التي تؤلف كتلة الصدام في معركة تقرير المصير، إن لجهة التحرر من الاستعمار واحتكاراته، أو من طغمة الاستثمار وشركاتها.

منطقياً مع نفسه، ومع رفقائه وأخوته العمال كان. حصر كل اهتمامه في العمل لإنقاذ العمال من غياهب الجهل، ومستنقع الانصياع. فلطالما رأيته وهو عضو في مجلس نقابة عمال المطابع مع حنا الزرقا ومصطفى العريس ورامز دميانوس وسعد الدين مومنة وميشال العازار، سائرين على اقدامهم

(١) توفي على أثر صدمة سيارة في ٢٢ أيلول سنة ١٩٨٧.

في جولات أسبوعية استطلاعية على عمال المطابع في أمكنة عملهم يستمعون إلى شكاوى العمال، وعرض مطالبهم. ثم استمرت سيرته هذه وهو برئاسة نقابة عمال المطابع طول أكثر من ٣٦ سنة قضاها في الكدح ليلاً ونهاراً، من أجل تحقيق مطالب العمال وجذب العدد الأكبر منهم إلى صفوف النقابة.

وعندما وجد بثاقب نظره، وصفاء تفكيره، أن هناك نقصاً في الأدبيات النقابية، ولا سيما ما يتعلق بمسار الحركة العمالية والنقابية في لبنان، تقدم بطلب إلى أعضاء مجلس نقابة عمال المطابع، وقيادة الاتحاد الوطني لنقابات العمال والمستخدمين في لبنان لإعفائه من مسؤولياته النقابية لينصرف إلى كتابة تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان. وقد تجاوب مجلس النقابة وقيادة الاتحاد مع الاقتراح، ومنذ ذلك الحين، أي منذ العام ١٩٧٦، أعطى الفقيد الكبير كل ما عنده من طاقة في تجميع المادة المطلوبة. فكان ظهور الجزءين الأولين منه. وفي العام ١٩٨٧ الحالي، أتم الجزء الثالث، وأصبح في متناول الجميع.

لقد تطور الياس البواري من مناضل نقابي شيوعي لتنظيم الطبقة العاملة، وملاحقة مطالبها، إلى مؤلف وبحاثة في التاريخ، فمؤلفاته الثلاثة في «تاريخ الحركة النقابية والعمالية في لبنان» أصبحت مرجعاً لكل من يريد أن يبحث في تاريخ لبنان الاجتماعي نظراً لما تضمنته من حقائق، ومعلومات لم يتمكن أحد قبل الياس البواري من تدوينها بروح من المسؤولية العالية، تشهد على ذلك الملاحظات الخاصة التي يبديها، والانتقاد الصائب الذي يوجهه.

لقد مات الياس البواري، وهو يعد لسفر إلى المجر يمكنه من الاستراحة، ولكن الطيش، والعبث بحياة الإنسان، واللامسؤولية التي تسم بعض الشبان الأغرار، حالت دون ذلك، وأدت إلى جَرْحنا جرحاً عميقاً بغياب من رافقناه ٥٣ سنة، شاركنا بعضنا فيها شظف العيش، ومشقات الحياة.

طوباك يا الياس في مثواك، طوباك يوم علا صوتك كقصف الرعد في وجه من حاولوا مد اليد إلى وحدتنا قائلاً لهم، مكانكم تجمدوا، كفى تدجيلاً، والظهور بوجهين. يقظتك تلك، كانت القبسة التي اضاءت الطريق أمام المخلصين، وأقفلتها على من ضللتهم أطماع الكهان المنافقين. ثم وقفتك الثانية يوم امضينا الليل حتى نهاية هزيعه الأخير دون أن ينال منكما، أنت ومصطفى منال، ونزلنا عند شق الفجر ثلاثتنا وعرجنا على محل الصمدي في بناية العسيلي. وبالرغم من أنني لم أكن معكما مئة بالمئة، فقد أعجبت بموقفكما وآثرت العودة معكما، على العودة مع سواكما من المراودين.

مواقفك من ألفها حتى يائها مفعمة بالنبل والاستقامة والشهامة. وعندما استعرض تلك

الساعات والليالي، أزداد احتراماً لك، واعتزازاً بموقفك، وأخجل من نفسي لبعض مواقف بدرت مني، بالرغم من أنني لم أصر لاحقاً عليها، ومن نفسي لنفسي عدت أستمسك بالعقدة الرئيسية في حبل النجاة، إلى أن نجوت ولعبت دوراً ملحوظاً بنجاة سواي.

باق يا الياس لا في ضمائرنا وشغاف عواطفنا وحسب، بل وفي تاريخنا، باق عملاقاً نهتدي برأيه كلما أعوزنا النضال إلى شاهدة. فالوداع الوداع يا من كنت رفيقي في صوفيا، وبرلين. وكم كان ليكون أمتع لو أننا ترافقنا سوياً، إلى المحطة الأخيرة التي أبيت إلا أن تلجها قبلي، فكنت العجول العجول.

الوداع يا أبا كميل، ولنا بعصارة فكرك، ونتاج يدك، الصبر الجميل، والمقوي لا على متابعة السير وحسب، بل وعلى العطاء. فالتقاعد للملتزم الشيوعي خرافة. لقد برهنت عملياً على أنه لا توجد في القاموس الشيوعي كلمة «لست قادراً» فالإرادة هي التي تصنع القدرة. فمن يقول لا أقدر، يعني أنه لا يريد، وهنا العجز، والتراجع المخزي. إننا لا نزال قادرين، ذلك لأننا نريد لحزبنا النمو والانتشار والتوطد. ولوطننا التحرر والتوحيد والازدهار. ولشعبنا السعادة والانعتاق من غول الرأسمال والاحتكار.

حسين عاقو

من الصعب عليّ إيجاد الكلمات التي تليق بالتحدث عن سيرة مناضل من شعبنا، بطل من أبطال الكفاح ضد الاستعمار والإقطاعية، شيوعي متفان نذر نفسه للكفاح في كل ساح من أجل وطن حر سعيد، ومن أجل حزب شيوعي له نفوذه وتأثيره بين الجماهير الشعبية.

نعم من الصعب عليّ استحضار الكلمات التي أرى من الواجب عليّ أن أقولها بعامل النسيج حسن عاقو (أبو سعيد) الذي استشهد بطلاً بسكاكين عُملاء الاستعمار والإقطاعية الرجعيين رافعاً دون وجل، راية حزبه وقد كتب عليها «وطن حر وشعب سعيد».

حسين عاقو (أبو سعيد) عامل نسيج من دمشق انتسب إلى الحزب الشيوعي قبل الأربعينات ومعرفتي الأولى به كانت سنة ١٩٣٧، ثم توطدت خلال الحرب فكنت كلما زرت دمشق للاتصال بالقيادة الحزبية هناك، كنت أجد دائماً أبا سعيد. فهو دليلي إلى المكان الذي عليّ أن أذهب إليه. وهو الذي يدبّر أمور تنقلي، وتأمين البيت للمنامة، وكذلك الطعام، وأغلب الأحيان كان منزله المتواضع، ومنزل والده محرابين لي.

من ميزات أبي سعيد التفاؤل الدائم. فلم أره مرّة إلا والبسمة بادية على وجهه، بالرغم من عسر

الحال الملازم له. فهو مسؤول عن عائلة، ومسؤول عن عمل حزبي، وهذا الواقع فرض عليه وصل ليله بنهاره. في الليل عمل حزبي، وفي النهار عمل في النسيج لتأمين أودّ عائلته. كان عصياً كادحاً صلباً، ملء صدره الإيمان بالقضية التي يناضل من أجلها، وملء أفكاره تأكيد على النصر المحتّم، وأوله تحرير سوريا ولبنان من الحكم الاستعماري، وثانيه إقامة حكم وطني ديمقراطي في البلدين الشقيقين، وثالثه سير منتظم وواع نحو تحقيق منجزات اجتماعية تضع سوريا ولبنان على طريق التحولات الاشتراكية.

كان عاملاً معدماً لا يملك شروى نقير. وثوريته والتزامه بالحزب الشيوعي هما كل عدّته. كان شعبياً في حيّه محبوباً، ويسعى باستمرار لتطوير علاقاته الاجتماعية، إن مع زملائه في أثناء العمل، أو مع أبناء بيئته، وحيّه وجيرانه. أضف إلى ذلك أنه شجاع لا يتراجع أمام ترهيب، ولا يقدم إذا ما استُفز. ولكنه إذا ما فرض عليه خوض المعركة، فلن يتراجع عن ذلك حتى ولو كان دون عضد.

مجموعة ميزات ثمينة التقت بشخص حسين عاقو فجعلت منه مناضلاً شيوعياً جيداً يشار إليه بالبنان وحسب، بل يقدم كأنموذج لسيرة الشيوعي الفاضل.

كان الزمان صيفاً. ودمشق تكاد تحترق من شدة الحرّ. كان ذلك في ٢١ حزيران سنة ١٩٤١ وقد توافد عدد من الرفاق المسؤولين من المناطق التي كان للحزب نشاط فيها، باعتبار أن معظم الملاك القيادي كان في السجن، من لبنان فرج‌الله الحلو، نقولا شاوي، مصطفى العريس والعشرات سواهم، ومن سوريا إبراهيم بكري، رشاد عيسى، والعشرات سواهما.

واستدعي أبو سعيد وكلف بتأمين مكان للاجتماع القيادي وبعد مداولة مع القيادة، اتفق على أن يعقد الاجتماع في مكان ما تحت اشجار غوطة دمشق. وبتنظيم دقيق اتى جميع المدعوين وفي الوقت المحدد افتتح الاجتماع برئاسة خالد بكداش، وكان أبو سعيد هو المسؤول عن الصلة بين المدينة والاجتماع، يروح ويعود ليطلع الاجتماع على ما هنالك من جديد. كما وأنه هو الذي رتب الطعام المؤلف من البرغل المطهي، ولبن الغنم الطازج. وفيما نحن نعود لمتابعة الاجتماع بعد تناول طعام الغداء، وكان البحث يتناول دور الحزب في حال احتلال هتلر لسوريا ولبنان، وقد اتخذ قرار بالاجماع بوجوب تشكيل مجموعات مسلحة ما وراء خطوط العدو، مهمتها القيام بعمليات تخريب وعرقلة. وقيل إن الحزب بالرغم مما كان عليه من ضعف تنظيمي، وقلة عدده، فإنه إذا لم يفعل شيئاً ضد الاحتلال النازي، فإن دوره التاريخي والوطني يندثر وتبتعد عنه لاحقاً الجماهير الشعبية.

في هذه الأثناء، والاجتماع لا يزال مستمراً، سمعنا إطلاق مدفعية، وأخذت أصواتها تقترب

وكثافتها تشتد . وقد اعتقدنا أن ذلك ناجم عن اقتراب الجيش النازي. وفيما نحن على هذه الحال، إذا بحسين عاقو (أبو سعيد) راكضاً وهتف بأعلى صوته، لقد بدأ هجوم الحلفاء . إن المدفعية تضرب « ازرع » حيث تتمركز قوات حكومة فيشي عميلة الاحتلال النازي، عند ذلك أوقف الاجتماع عمله، ودعي جميع ممثلي المنظمات إلى العودة بسرعة إلى مناطقهم، والعمل بجد لدعم جهود الحلفاء، وتسهيل مهمتهم العسكرية وتحرير سوريا ولبنان من سلطة حكومة فيشي واللجنة الألمانية، التي جعلت بيروت مقراً دائماً لها . وكان لأبي سعيد دور كبير في تسهيل عودة الرفاق إلى مناطقهم، دون أن يتمكن الأمن العام الفرنسي، ولا التحري السوري من معرفة أي شيء عن الاجتماع.

وينتهي حكم السلطة الفيشية، ويتمكن البلدان سوريا ولبنان من تحقيق استقلالها السياسي وإقامة حكم وطني فيهما، ويمارس شعبنا الكثير من الحقوق الديمقراطية، والحزب الشيوعي في سوريا ولبنان يعود لمتابعة نشاطه العلني بأوسع الأشكال، وفي مضمار هذا المسار يبقى حسين عاقو على الطريق سائراً بأمانة، واعتزاز، وشجاعة وإيمان. مقامه الحزبي في توطد، وعلاقاته الاجتماعية في اتساع مستمر، ومعارفه السياسية في تألق، لقد أصبح أبو سعيد قينوماً في الحزب الشيوعي يركن إليه في ادق المهمات واصعبها، وما تنكّب عن القيام بمهمة، ولم يرفض أي تكليف، كان مثال الشيوعي الصادق الجيد.

في أواخر تشرين الثاني سنة ١٩٤٧، وكان مجلس الأمن الدولي منكباً على بحث قضية فلسطين وبذات الوقت كان الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان يعقد في مكتب الحزب في بيروت، في محلة الخندق الغميق اجتماعاً كاملاً وموسعاً للجنة المركزية وبحضور ممثلي منظمات الحزب. وأبو سعيد لم يكن في هذا الاجتماع، بل كان مكلفاً بالمناوبة في مكتب الحزب في دمشق، بحي المزرعة، ولما أذيع قرار مجلس الأمن الدولي بتقسيم فلسطين بموافقة جميع أعضاء المجلس، سارع بعض الرعاع من عملاء الاستعمار ومن بعض الاستفزازيين واتجهوا صوب مكتب الحزب يهتفون بسقوط الاتحاد السوفياتي وضد الحزب، وما أن وصلوا إلى أمام المكتب، وكان أبو سعيد وحده هناك، فتصدّى لهم وسلاحه سكينه وحسب، فأصاب من أصاب منهم ولكنهم تغلبوا عليه وهم كثر ومصممون على ارتكاب جريمة القتل، فسقط أبو سعيد شهيداً بطلاً.

ولما وصل الخبر وكان اجتماع اللجنة المركزية منعقداً في بيروت كما ورد، وقف الاجتماع دقيقة تمجيداً، كما اصدر الحزب بياناً اتهم فيه الاستعمار والصهيونية بارتكاب الجريمة وطالب المسؤولين السوريين باعتقال المجرمين ومعاقبتهم.

إن ذكرى حسين عاقو ستبقى ملهمة لكل شيوعي في خوضه النضال ضد عملاء الاستعمار والصهيونية، لقد أكد أبو سعيد بالقول والفعل أنه بطل عاش، وبطل مات، ولسان حاله يقول

لرفاقه العتيدين ولكل مناضل وطني.

إن البطولة أن تموت من الظمأ ليس البطولة أن تعبَّ الماء

ناصر حدّة

كبير من المناضلين الوطنيين السوريين الذي ساهم مع فوزي الزعيم وشفيق داور آغا (أبو محمود) سنة ١٩٢٨، بتأسيس أولى منظمات الحزب الشيوعي في سوريا، إنه ناصر حدّة من قرية «يبرود» محافظة النبك.

عرفت ناصر حدّة قبل أن أراه، عرفته بواسطة كبيرنا فرج‌الله الحلو الذي التقى به في الكلية الإنجيلية، في حمص سنة ١٩٣١.

كان ناصر معلماً في الكلية الإنجيلية وفرج‌الله كان تلميذاً فيها وبذات الوقت معلماً، أي انه كان يعلم ويتعلم، دون أن يدفع مرتباً. وكان يدرّس الأدب العربي في الكلية المرحوم الأستاذ حنا نمر. وهناك توطدت صداقة حميمة بين فرج‌الله وحنا نمر وناصر حدّة. وفرج‌الله والأستاذ حنا لم يكونا حتى ذلك الحين على علم بالشيوعية ولا بالحزب الشيوعي. إنما كانا متحررين يناضلان ضد الاستعمار بأقوالها ومعاطاتها مع الناس وفي كتاباتها. أما ناصر حدّة فكان شيوعياً ملتزماً، وبحكم علاقته بفرج‌الله وحنا نمر، كان يطلعها باستمرار على أن في سوريا ولبنان حزباً شيوعياً ينضوي في صفوفه العمال والفلاحون والمثقفون التقدميون، وقد اتفق فرج‌الله وحنا نمر مع ناصر حدّة على تأسيس فرع للحزب الشيوعي في قضاء جبيل ـ لبنان.

وفي أثناء العطلة الصيفية حمل فرج‌الله الحلو وحنا نمر ما اتفقا عليه مع ناصر وبدآ، وبخاصة فرج‌الله، العمل لتأسيس فرقة شيوعية في قضاء جبيل. وقد تم ذلك بالفعل في شهر أيلول سنة ١٩٣١، وقد شرحت ذلك بتفصيل في كتابي «من نافذتي» وفي هذا الكتاب أيضاً في مكان آخر. ويترك فرج‌الله حمص، بعدما نال شهادة البكالوريا لعدم وجود فرع للبكالوريا ـ القسم الثاني في الكلية، وبعد ذلك توجه إلى دمشق والتحق بالمدرسة الأرثوذكسية التي كان الأستاذ حنا نمر قد أصبح مدرساً للأدب العربي فيها. وكان ذلك في خريف العام ١٩٣٢. وهناك استمرت علاقة فرج‌الله بناصر حدّة الذي كان أحد البارزين من مناضلي الحزب الشيوعي، وحتى ذلك الحين لم ألتق ناصر، وكل ما كنت أعرفه عنه مستقى من فرج‌الله الحلو.

ويذهب فرج‌الله الحلو إلى موسكو في حزيران ١٩٣٣، ويعود إلى لبنان في تموز ١٩٣٤، ولم

يمكث طويلاً في قريته حصرايل، ولا في بيروت، وكلف بالعمل الحزبي في حلب حيث مكث هناك حتى أواخر العام ١٩٣٥. ولما أعلن الإضراب الخمسيني في سوريا، كان فرج‌الله في دمشق، فاعتقلته سلطات الانتداب وأبعدته إلى بيروت. في هذه الفترة أخذ ناصر حدّة بحكم عمله القيادي للحزب الشيوعي السوري، بغياب أمينه العام خالد بكداش، يتردد إلى بيروت، وكان هو وفرج‌الله الحلو وأرتين مادويان ونقولا شاوي يشكلون، عملياً، القيادة الحزبية.

في هذه الفترة تعرفت على ناصر حدّة، فإذا هو شخصية مرموقة يملك القدرة على الحوار، صدره متسع للنقاش، يعير آراء الرفاق المزيد من الانتباه، إن انتقد فلا للتيئيس، وإضعاف الثقة بالنفس، بل للتشجيع، ولرفع المستوى، ضليع في اللغة العربية، ويجيد الفرنسية.

في حديث مع رئيس الحزب الشيوعي اللبناني، الرفيق نقولا شاوي عن ناصر حدّة قال: لقد عرفت ناصر في دمشق، فإذا هو ليس مناضلاً عادياً وحسب، بل إنه يتمتع بقدرة على إجراء أوسع الصلات ليس مع الشخصيات السياسية والاجتماعية، بل ومع الجماهير الشعبية. ولقد رأيت كيف أن الكثيرين من أهل قريته، ومنطقة النبك كانوا يأتون إليه في دمشق، عارضين قضاياهم ومشاكلهم. وكان يعمل بسرعة على مساعدتهم لحلها. ويقول الرفيق نقولا، إن ناصر كان يتحدث مع مراجعيه وزوّاره الذين يرجعون إليه في قضاياهم، بالكلام الذي يفهمونه، حتى باللهجات التي يمارسونها.

ويقول الرفيق نقولا، إن صلات ناصر حدّة بسليم خياطة كانت جيدة جداً، وكانا صديقين قريبين من بعضهما البعض.

إن جميع الرفاق الذين عملوا مع ناصر حدّة، كانوا مرتاحين لحسن تصرفه معهم. ومن شيمه كمسؤول، العمل لإقناع الرفيق إذا ما تردد حول أمر ما. ولم أشعر مرة أنه استخدم صفته القيادية كأداة للضغط أو الترهيب، لهذا كان محبوباً ومقدراً من جميع الذين عملوا معه في سوريا أو في لبنان.

وبعدما عاد خالد بكداش من أوروبا في مطلع العام ١٩٣٧. أي بعد انتصار الجبهة الشعبية واستلامها الحكم في فرنسا، وبعدما أصبح الحكم في سوريا قائماً على أساس معاهدة ١٩٣٦ المعقودة مع فرنسا. في هذا الوقت بدأ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان يمارس نشاطاً علنياً. وكان على الحزب أن يعيد تنظيمه بما يتفق والمرحلة الجديدة. وعلى هذا الأساس عقد اجتماع موسع للجنة المركزية في أوائل شباط سنة ١٩٣٧ في دمشق انتخبت فيه قيادة للحزب لم يكن ناصر حدة فيها. ومنذ ذاك التاريخ بدأ اسم ناصر كمسؤول، وكواحد من مؤسسي الحزب الشيوعي السوري، يزول

ولم أعد أسمع عنه شيئاً، سوى القول أنه انتحى ناحية أخرى وبدأ يعمل في مشاريع زراعية. ومنذ سنوات علمت أنه توفي دون أن أرى أي كتابة عنه في أي أداة إعلام لا في سوريا ولا في لبنان. وكل ما علمته أن ولده يدرس مهنة الطب في أحد المعاهد في الاتحاد السوفياتي.

وبما إنني أحرص في «أوراق من تاريخنا» على تقدير الذين يعود إليهم فضل في بناء الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، وتحقيق الاستقلال الوطني وفي كل ما يعود على وطننا بالخير، فإنني أرى من واجبي، بل من أوجب الواجبات عليّ، أن أعيد إلى الذاكرة، اسم مناضل كبير هو ناصر حدّة الذي يرتبط بحسن قيادته نشاط الحزب في مرحلة معيّنة من تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. بين العام ١٩٢٨، ومطلع العام ١٩٣٧، هذا فضلاً عن أنه من الرعيل الأوّل الذي ساهم بتأسيس الحزب الشيوعي السوري ولعب دوراً في انتشاره في تلك السنوات.

ناصر حدّة الشيوعي السوري المعروف، الذي ساهم بتوسيع وتوطيد الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان، له على الخلف حق وذلك، بأن لا يكون نشاطه نسياً منسياً، فناصر ناضل في ظروف صعبة مرت على سوريا ولبنان، وقيمته هي في أنه عمل بجد وصبر، ودون كلل، لخلق قاعدة جماهيرية للحزب في سوريا، وبخاصة في منطقة النبك. احترم فرج‌الله الحلو، وفرج‌الله قدّره، والتقت الإرادتان في معمعان المعركة، فكانت جملة من النجاحات تمكن الإشارة إلى واحدة منها، وهو مؤتمر المثقفين الديمقراطيين العرب الذي عقد في ربيع سنة ١٩٣٤ في معلقة زحلة، ثم بالانعطاف الواسع الذي جرى على خطة الحزب ابتداء من العام ١٩٣٤، أي بعد مؤتمر معلقة زحلة بالذات، هذه النجاحات التي حققها الحزب، ارتبطت بقيادة مخلصة أمثال، فرج‌الله الحلو، ناصر حدّة، نقولا شاوي، أرتين مادويان، وسليم خياطة.

كلما ذكرنا كبيرنا فرج‌الله الحلو وأخوانه الأوائل، تذكرنا ناصر حدّة، وكل الذين واكبوا الحزب في تلك المرحلة الصعبة، مرحلة تجليس الخط، ونقل الحافلة إلى خط آخر جديد، يمليه النضال من أجل تجميع القوى الوطنية والديمقراطية ضد الفاشيستية والنازية، والمساهمة ولو بصورة جزئية في تحطيم الدولة الهتلرية، وإحياء الديمقراطية وتحقيق الاستقلال الوطني وإقامة حكم وطني يستند إلى إرادة ورغبة وطنيتين تعملان لتوطيد السيادة، والتطور الاجتماعي والاقتصادي في جميع المجالات.

إننا لن ننسى ونحن نستعرض روزنامة البطولة والشهادة والالتزام الحق، في الحزب الشيوعي، لن ننسى ناصر حدّة وفوزي الزعيم وشفيق داور آغا (أبو محمود). والرفيقان سنأتي على ذكرهما بتفصيل في ورقة لاحقة من «أوراق من تاريخنا». إنهما مع ناصر وهيكازون بوياجيان وضعوا

اللبنات الأولى في بيت الحزب الشيوعي، لبيت العمال والفلاحين والمثقفين الديمقراطيين، لبيت الشعب بكل فئاته وهيئاته.

فوزي الزعيم

ورب قائل: ما هكذا يكتب التاريخ يا أبا وضاح. فهناك مقدمات، وأوضاع اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، وثقافية، مفروض بالمؤرخ أن ينطلق منها، ويربط بينها وبين الحدث التاريخي الراهن. وجواباً على هذا السؤال أقول: أنا لست بمؤرخ. أنا حاوٍ لأخبار وأحداث رأيتها بعيني وسمعتها بأذني وعشتها في حياتي، ورافقت أصحابها، وإنني أحاول أن أرويها، كما هي. دون تبجح وانتقاص. بل إنني أتوخّى الصدق بما أرويه. ولي من ذاكرتي التي تختزن ما رويته وأرويه المعين الذي يساعدني على ما انشئه، وأدوّنه، كما هو، تاركاً للمعنيين بالأمر تقديرهم، وهو دون شك، متفاوت. وما دامت كتابة التاريخ حتى الآن، تتم بوحي سياسي محض، بقرار من هذا المسؤول أو ذاك، فإننا لا نزال نجدّ لتاريخ مكتوب بشكل موضوعي محض، دون أن يهيمن عليه الطابع الذاتي والتوجيه السياسي المحض.

وبدون شك فإن ما أنشأته في كتابي: «من نافذتي» و«الدرب والرفاق» وفي مقالاتي «أوراق من تاريخنا»، لم يحظ باجماع ايجابي من قراء كُثُر. فهناك تأييد وهناك انتقاد، وفي الحالتين أشكر الفريقين، لأن القول الذي لا انتقاد عليه، يفقد الكثير من قيمته المادية والمعنوية.

أمام هذا الواقع، تناولت في كتابة ورقات من تاريخنا، رفقاء معينين، معظمهم من بسطاء الناس، ولكنهم بسلوكهم الاجتماعي والسياسي، أغنوا المدرسة الثورية في لبنان وسوريا، وكانوا روّاداً أصوليين للحركة الشيوعية التي بدأت بخمسة أشخاص سنة ١٩٢٤، وتحولت الآن إلى تيّار وطني وشعبي له وزنه السياسي في بلادنا التي قيل يوماً في عهد الانتداب الفرنسي، إن تربة لبنان ترفض التغيير والتجديد والتقدم والاشتراكية.

ومن أوجب ما هو ملقى على عاتقي، كما اعتقد، بوصفي كنت معاصراً لروّاد قدماء بارزين في الحركة الشيوعية في لبنان وسوريا، أن أدوّن بعض ما هو عالق في ذاكرتي عن أولئك الرفقاء الذين عايشتهم شظف العيش، وسوء المسكن، والاختباء في أمكنة مظلمة بعيداً عن ملاحقة زبانية الاستعمار، وعملاء السلطة. ومن هؤلاء الذين قاسوا ما قاسوه من إرهاب الاستعمار لأنه شيوعي، الرفيق فوزي الزعيم. فمن هو هذا المناضل الكبير؟

في العام ١٩٢٨ ولد أول مولود شيوعي في دمشق. تمت الولادة على يد شيوعي مجرب ماهر، هو الرفيق المرحوم هيكازون بوياجيان الذى كلفه الحزب بالانتقال من بيروت إلى دمشق والعمل

على تأسيس منظمة شيوعية فيها. وأول صلة أقامها هيكازون كانت، كما يقول شيوعي أرمني قديم صادق هو آغوب دربدروسيان، المعروف بـ «السولدا» وهو الآن يقيم في يريفان. إن هيكازون هو الذي نظم أول فرقة شيوعية في دمشق. وأول شيوعي سوري انضم إليها في دمشق كان رشاد عيسى الذي شدته إلى هيكازون علاقات ودية. وعن طريق رشاد انضمّ فوزي الزعيم، وناصر حدّه. ويقول بعضهم، إن علي خلقي، ومحمود داور آغا المعروف بـ «أبو محمود»، كانا ممّن انضموا إلى هذه الفرقة.

كان هيكازون فناناً في أساليب تضليل البوليس وزبانية الاستعمار. وقد رُوي لي أنه عندما كان مقيماً في دمشق، استأجر غرفة ملاصقة لدائرة الشرطة، وأنه صنع طاولة استعملها مخبأ للأوراق السريّة وكانت محكمة بحيث لم يدر البوليس المدخل إليها. إن استئجار غرفة بجانب دائرة البوليس، أبعد كل تفكير عند الدائرة، بأن من يسكن بالقرب منها هو شيوعي.

ولنعد إلى فوزي الزعيم. في العام ١٩٣٢ وكانت المرة الأولى التي سمعت فيها باسم هذا المناضل. فقد نشرت الصحافة اللبنانية والسورية، أن أفراد الأمن العام ألقوا القبض على الشاب فوزي الزعيم في «شتورا» وضبطوا معه مجموعة من المناشير الشيوعية طبعت في بيروت، وكان ينقلها إلى دمشق. سمعت باسمه فقط ولكنني لم أسعد بالتعرّف عليه إلا سنة ١٩٣٧، في الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب الذي عقد في دمشق خلال شهر شباط، وفيه تقرر انطلاق الحزب في المجال الوطني العلني والواسع. وتوطدت الصداقة لاحقاً مع فوزي زين الشباب، وصاحب الروح الخفيفة، والذهن الصافي والشجاعة المثلى.

كان فوزي الزعيم من الرعيل الشيوعي الأول في دمشق. وكان معروفاً في الأحياء الشعبية. وهذا ما جعله يتمتع باحترام عميق في الوسط الشعبي الدمشقي. وبحكم وحدة الحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنان وتجمّعهما في لجنة مركزية واحدة، كنا نلتقي باستمرار مع فوزي صاحب المعشر الحلو. وتحل الحرب العالمية الثانية، وتنقطع اللقاءات المشتركة. ولكنه استمر يشد أزر الحزب من خلال العمل الحزبي الصامت المثمر.

في تلك الفترة كان والد فوزي، الشيخ صلاح الزعيم، يدرّس في إحدى مدارس اقليم الخروب في لبنان. وبذات الوقت كان المناضل معروف سعد يدرّس في هذه المدرسة. وقد توطدت صداقة بين معروف وفوزي ـ جوهرها الأفكار الشيوعية التي حملها فوزي، وزرعها في تربة خصبة، في أفكار معروف النبيلة. وعن طريق فوزي الزعيم توطدت علاقة الحزب الشيوعي بمعروف سعد. وبرأيي أن هذا العمل الذي قام به فوزي الزعيم لهو من أمجد الأعمال وأبرّها. فمعروف سعد يشكل ثروة ثورية لبنانية وعربية ثمينة جداً، كلفته حياته في أثناء دفاعه عن عمال صيدا، عن المحرومين في

كل بقعة من بقاع بلدنا.

في مطلع الأربعينات، وبخاصة بعد تحرير لبنان وسوريا من القوى الڤيشية الفاشية ودخول الجيوش الانكليزية والفرنسية إليها. برز فوزي الزعيم في المركز المخصص له، أي عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. وفجأة لم نعد نشاهد فوزي، وسألت عنه فقيل لي أنه سافر إلى فرنسا. وشيئاً فشيئاً غاب والأصح غُيب اسمه كلياً ولم يعد يذكر. وأنا بدوري لم أعد أسمع عنه شيئاً. وأخيراً، وفي مجال سؤالي عنه قيل لي إنه توفّي.

إن من كان كفوزي الزعيم انتضى سيف الشيوعية منذ العام ١٩٢٨، وسجن، ولوحق، وعُذّب لا من أجل عقيدته وحسب، بل ومن أجل نشاطه المادي الشيوعي، لا يُنسى، ولا يجب أن يسدل الستار على ذاك الوجه المنير المتألق، الشجاع.

ونحن الشيوعيين اللبنانيين نذكر لفوزي الزعيم مبرّاته، وما قدمه للحركة الشيوعية في لبنان من خدمات. ويكفينا اعتزازاً أن نقدر له مبادرته بتوطيد صلاتنا بالمناضل معروف سعد. وهذه الصلات أصبحت أصالة وتراثاً تتوارث من السلف إلى الخلف الذي يسير على هدى السلف الصالح.

تلك الجرأة التي تحلى بها أولئك الشباب أمثال فوزي الزعيم بين أعوام ١٩٢٤ و ١٩٣١، وهم من العمال والمثقفين، فأعلنوا انضمامهم بشغف إلى الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان الذي رمى الاستعمار وزبانيته المحليين بأقبح ما عندهم من كلام، إذ لم يتركوا فرية إلا وألصقوها به. ولكن ذاك الرعيل المتقد حماسة وفي عداده فوزي الزعيم، تحدّى الاستعمار وقوى الظلام والشر، فأقدم بثقة لم تفتر، وعزيمة لم تكل، على توعية العمال والفلاحين وسائر الفئات الشعبية، ودعوتها إلى الانضمام للحزب الشيوعي الذي يشكل خطه السياسي طريق الانقاذ.

وإذا كان الحزب الشيوعي اليوم قوة وطنية شعبية قائمة لها وزنها السياسي، ودورها التوجيهي، ومقامها مع من نلتقي معهم في الحركة الوطنية، وإذا كان الاستعمار قد فشل بعزل الحركة الشيوعية، بالرغم مما حاكه ضد وطننا من مؤامرات، فلأن لها، بالإضافة إلى برنامجها التغييري، التقدمي الوطني، تراثاً مجيداً حققه السلف، وتلقفه عنه الخلف فحافظ على نقاوته، وعمل لتطويره في مختلف المجالات، وشتى المعارك. وفوزي الزعيم هو أحد أعمدة هذا التراث، المجيد، الذي ضم في جيشه كثيرين من الرفاق تواروا مثل: فؤاد الشمالي، يوسف يزبك، هيكازون بوياجيان، فريد طعمه، بطرس حشيمه، فوزي الزعيم، الياس القشعمي، أبو محمود، علي خلقي وسواهم.

هذه الكوكبة من فرسان الشيوعية في لبنان وسوريا وإن توارت من أمام أنظارنا، لن تتوارى

من ضمائرنا. إنها معنا في تحركاتنا، وفي مسارنا الطويل، ونضالنا الشاق لتحقيق الهدف الذي جذبهم قبل ستين سنة فأسسوا الحزب الشيوعي الذي يتمتع اليوم بصحة جيدة ونشاط لا يفتر، رافعاً الراية التي طالما رفعها الذين أسهموا بصنع تراثنا الثوري، فكانوا شموعاً مضيئة في ليل داجٍ، وقوارب نجاة في بحر هائج. آمنوا بقضايا شعبنا القومية والوطنية، والتصقوا بالحركة الثورية العالمية كجدار يشد أزرهم في ما هم ساعون إلى تحقيقه من أجل تحرير الانسان من ظلم الانسان، تحقيق الاشتراكية كمنقذ للمحرومين الذين كانوا يسمونهم آنذاك الصعاليك.

فإلى ذكراك يا فوزي التحية، مني أنا صديقك الصدوق، ومن جميع رفقائك الذين يقدرون جرأتك وتفانيك. ونحن إن ذكرنا الشباب الغض نذكر فوزي الزعيم. وإذا تحدثنا عن اللياقة والكياسة ذكرنا فوزي الزعيم. وإذا عرضنا للشجاعة والصمود قلنا فوزي الزعيم. حمماً كنت على الأعداء وطرياً نديًّا كنت مع الرفقاء والأصدقاء. ولطالما عرفتك يا فوزي بأنك من أقرب المقرّبين لرفيقك المحبب إليك كثيراً، فرج‌الله الحلو، الذي يقبع مثلك في أعماق أرض دمشق الحبيبة، ويلتحف مثلك سماءها الزرقاء الصافية.

تستحق يا فوزي أكثر من كلمة في جريدتك، «النداء»، ولا بد لرفقائك الخلّص القيمين على حفظ التراث الثوري لحزبهم من ايفائك حقك.

يوسف خطار الحلو

أحمد زكي الأفيوني
الثورة المستمرة

كان يفترض بي أن أنشيء في حينه، كلمة في صديقي الصدوق المرحوم أحمد زكي الأفيوني، إلا أني كنت بعيداً عن لبنان، البلد الذي أفنى الأفيوني شبابه في النضال من أجل تحريره، وتقدمه، وعروبته، واشتراكيته.

إن ثورية الأفيوني لم تكن كلاماً يصف في صالونات ولقاءات أو في أثناء مجالات. بل هي عطاءات ملموسة: قيادة مظاهرات وطنية، مواقف جريئة أمام ممثلي الاستعمار وصنائعهم المحليين، جسارة لم تتوقف في دفاعه عن حقوق العمال والفلاحين وجميع المحرومين والمضطهدين، ولطالما تعرض للشتم، والضرب، لكتابته مقالة في جريدة تضمنت عرضاً لمجموعة من الفضائح ارتكبها مسؤول في الدولة أو اقطاعي استباح حقوق وأعراض الفلاحين العاملين على أرضه، أو متزعم عمل لاختلاس حقوق من تزعم عليهم.

عرفت أحمد زكي الأفيوني سنة ١٩٣٢، وكان قد أنهى مدة « محبوسيته » بسبب قيادته سنة ١٩٣١ مظاهرة طرابلس الكبرى ضد الفاشيستية. والمناسبة التي تعرفت عليه فيها، كانت اجتماعاً موسعاً للجنة « المساعدة الحمراء »، « المساعدة الشعبية » لاحقاً وقد قدم مداخلة نمت عن قـدرة، وثورية، وإدراك لمتطلبات المرحلة.

وبعد ذلك بمدة كلف أحمد زكي الأفيوني لنقل مناشير إلي في حصرايل، فضل الطريق وعاد إلى بيروت. وفي أواخر الثلاثينات انقطعنا عن بعضنا، وكانت الحرب العالمية الثانية وقد حملت الحرمان والشقاء لأحمد زكي فطرق أبواب عمل عديدة، فشل في جميعها، لأنه لم يتكون لها، بل تكون ليكون ويبقى جندياً من جنود الثورة، مكافحاً من أجل العروبة الحقة، ورفع راياتها المشرقة فوق الأرض اللبنانية.

إن أبرز صفحات أحمد زكي الأفيوني هي قيادته الجريئة الشجاعة لتنفيذ قرار الحزب بتنظيم مظاهرة في طرابلس سنة ١٩٣١ احتجاجاً على الوحشية الفاشية الايطالية ضد الشعب الليبي، واعدام قائده الثائر الكبير عمر المختار، وبحكم جرأته النادرة، وشعبيته الواسعة، تمكن من أن يجمع في تلك المظاهرة أكثر من عشرة آلاف شخص، لم تشهد طرابلس جمعاً شارعياً أكبر منها، اللهم إلا حين زار الأمير فيصل طرابلس بعد الحرب العالمية الأولى.

وهنا لا بد من لفت الأنظار إلى أن لبنان هو البلد العربي الثاني بعد ليبيا، الذي شهر النضال ضد الفاشيستية وندد بأخطارها ودعا جماهير الشعب للتنبه لخطر هذه الظاهرة. ووجود مناضل كبير كأحمد زكي الأفيوني على رأس مظاهرة طرابلس التي حطمت المؤسسات الايطالية، أسبغ قدراً كبيراً من الحماسة والجدية عليها، وما اعتقال مجموعة من الشبان الطليعيين كانوا مع أحمد في رأس المظاهرة، إلا الدليل الحسي على الأهمية الوطنية والقومية التي اتسمت بها.

عمل في الصحافة الطليعية الرائدة، النداء ـ السيار ـ الكوكب في لبنان، وفي الصحافة الدمشقية فأفلح وأعطى إن لجهة مضامين المواضيع، أو لجهة قوة اللغة، ومتانة السبك وأصبح له قراء ينتظرون مقالاته، شأنه بذلك شأن صديقه سليم خياطة ـ والاثنان حررا في « النداء » مدرسة النضال الوطني والقومي في حقبة الثلاثينات.

كان شيوعياً فارعاً، لم ينكس الراية التي اؤتمن عليها منذ أواخر العشرينات وأريد أن أصحح ما كتبه الزميل طوني فرنسيس، بأن أحمد زكي الأفيوني هو الذي أسس منظمة الحزب الشيوعي في دمشق وقد انضم إليه لاحقاً هيكازون بوياجيان وعلي خلقي، والصحيح هو أن مؤسس تلك المنظمة سنة ١٩٢٦ هو هيكازون بوياجيان مع رشاد عيسى، وفوزي الزعيم وربما علي خلقي ومحمد

داور آغا (أبو محمود) هذا ما رواه لي آغوب دربدروسيان (السولدا) . وآغوب عاصر تلك المرحلة ، ولا يزال يتمتع بذاكرة نفاذة روى لي ذلك أثناء لقائي به في « يريفان » في شهر تشرين الأول الماضي .

إن انقطاع أحمد زكي عن مزاولة النضال الحزبي ، ما قاده أبداً لاتخاذ أي موقف مناقض لخط الحزب . وكان دائماً على صلة وثيقة بالشيوعيين في طرابلس .

وأهم ما قدمه أحمد زكي للحزب الشيوعي هو وضع جريدته (الصرخة) في العام ١٩٥١ ، بتصرف الحزب ، وقد استمر الحزب في اصدارها حتى أيلول ١٩٥٤ . وهذه الحقبة كانت من أصعب الحقب التي مرت على لبنان والعالم العربي ، فالامبريالية العالمية وفي رأسها الامبريالية الأميركية ، شنت حملة واسعة لفرض الاحلاف على لبنان والبلدان العربية ، وكانت « الصرخة » الجريدة العربية الوحيدة التي التزمت بالنضال ضد هذه الاحلاف . وبذات الوقت حملت راية النضال من أجل توطيد السلام ، فعلى صفحاتها نشر جميع ما صدر من مقررات عن مؤتمر أنصار السلم اللبنانيين ، ومؤتمر شعوب الشرقين الأدنى والأوسط ، وجميع ما صدر عن « المؤتمر الوطني للاحزاب والهيئات والصحافة الحرة » ، وجميعها يصب في مجرى النضال ضد الاحلاف الاستعمارية وبخاصة « حلف بغداد » .

وقد حول الحكم آنذاك أحمد زكي الأفيوني إلى المحاكمة ، فاعتقل ، بسبب موقف « الصرخة » العنيف من الاحلاف وسياسة التواطؤ الرسمية اللبنانية المسايرة ودفاعها عن السلم العالمي . وكان موقفه ، بوصفه صاحب الصرخة ومديراً مسؤولاً لها في أثناء المحاكمة عنيفاً . فلم يحاول التملص ، بل أكد وبقوة واقتناع على كل ما نشرته « الصرخة » وقد دلل بموقفه ذاك عن نبل وسمو أخلاقي ينسجم مع ماضيه النضالي المشرق ، بوصفه أول لبناني هتف سنة ١٩٣١ في شوارع طرابلس وهو يقود مظاهرة سار فيها أكثر من عشرة آلاف شخص ... « فلتسقط الفاشيستية » .

طوبى لطرابلس المنارة ، التي أعطت ولا تزال . وإنه لعظيم أن يقتفي الخلف السلف ، وهذا ما نشهده وبخاصة خلال السنوات العشر المنصرمة حيث أبلت الفيحاء في العطاء السخي من أجل الوطن ، والعروبة ، من أجل كرامة الانسان الطرابلسي .

مع سليم خياطة ونقولا شاوي ، وسامي عويضة ، والدكتور سميح علم الدين ، وأحمد المير ، ونعمة قاروطة ، والعشرات الذين استشهدوا في طرابلس خلال العقدين الأخيرين ، مع هذه الكوكبة اللامعة الوضاءة المشع نورها علينا أبداً ، أنت يا أحمد .

وأراني ، أمام عظمة طرابلس القدوة المعطاءة ، وشمم شعبها المقدام ، وخلقية طلائعه الوطنية

والثورية، أراني أمام هذا الواقع الذي يشكل ترابطاً متكاملاً، ملزماً بتكرار آبدة المتنبي في طرابلس ومنها هذا البيت:

أكـــارمـــاً حســـد الأرض السمـــاء بهـــم وقصـــرت كـل مصـــر عـن طـــرابلـــس

عندما وضع أحمد زكي الأفيوني «الصرخة» بتصرف الحزب الشيوعي وحركة السلم اللبنانية كتبت الافتتاحية التالي نصها:

«هذه الجريدة لا تنتمي لأي حزب أو فئة أو طائفة. إنها صرخة غير مقيدة ولا مرتبطة بأي بوق من الأبواق فهي إذن: صرخة السلام ضد الحرب، صرخة الحرية ضد العبودية، صرخة السيادة ضد التحكم، صرخة التحرر ضد الاستبداد، صرخة النور ضد الظلام.

صرخة الديمقراطية ضد الديكتاتورية السافرة والمقنعة، صرخة العامل، والفلاح، والمرأة، والطالب، والشاب، والمشرد ضد أعدائهم ومغرقيهم في بحار الجهل والبطالة والأمية والجوع والفقر.

صرخة الاتحاد الوطني للنضال لأجل السلام والتحرر والديمقراطية والاستقلال. صرخة كل شريف، وكل مخلص لأمته ووطنه وللانسانية. صرخة الانصهار الوطني ضد الطائفية.

صرخة وجه لبنان العربي ضد مشوهيه من كوسموبوليتيين وشوفينيين. إنها بكلمة، صرخة الشعب وكفاها فخراً أن تكون للشعب صرخة، وأن لا تكون للاستعمار بوقاً».

١٩٥١/١١/٢٠

ودفاعاً عن الصرخة

.. وعندما حول الحكم سنة ١٩٥٢: «الصرخة» إلى المحاكمة لنشرها أخباراً عن نشاط حركات السلم في لبنان والعالم العربي، والعالم، وبوصفه صاحبها ومديرها المسؤول، حضر المحاكمة ورد بالكلمة التي ألقاها في أثناء استجوابه على مغالطات النيابة العامة، وقد ورد فيها:

«لا يوجد أي ذكر للأحزاب المنحلة في ما نشرته هذه الجريدة. فالأنباء والمقالات التي نشرناها تذاع من إذاعات كثيرة في العالم، وإني أطلب من النيابة العامة تعيين الفقرات التي تشكل المخالفة القانونية حسب قولها. فلا يكفي القول أن الملاحق والمقالات والاعداد جميعها تشكل مادة جرمية».

وقال: « إن قانون الطوارىء يمنع البحث في الحزبين المنحلين في لبنان، وهذا ما لم نتعرض له. ولكن في العالم شيوعيون، فإذا ذكرت الصحف عن تظاهرات الشيوعيين في فرنسا والهند وايطاليا واليابان والمانيا وغيرها، وإذا ذكرت ما يجري في روسيا وكوريا والصين وسواها، فإن ذلك خارج عن نطاق الحزبين المنحلين. إننا ننشر ما يجري في العالم ولا يجوز عدم النشر، لأن هذا الحق تملكه جميع الصحف ومحطات الاذاعة ومنها محطة لبنان».

ويتابع الأفيوني: « ومنذ صدرت « الصرخة » كلسان انصار السلم وحركة السلم والتحرر والديمقراطية، كتبنا افتتاحية أعدنا نشرها اليوم قلنا فيها « نحن أنصار سلم وتحرر وديمقراطية » (تموز ١٩٥١).

هيكازون بوياجيان
فنان العمل الثوري

عندما نعيد قراءة تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني، لنتبين منهم الذين عملوا في العشرينات لنشر الأفكار الاشتراكية، وسعوا لادخال الوعي الاشتراكي في مفاهيم الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين، والمثقفين المتنورين في شعبنا، عندما نستعيد هذه الذكريات، لا بد لنا من القاء ضوء وضاء على أشخاص برزوا في ميدان النضال لنشر الوعي الاشتراكي في الوسط العمالي والفلاحي. ومن هؤلاء نذكر بتقدير الرفيق المرحوم هيكازون بوياجيان أحد رفاق أرتين مادويان في منظمة « سبارتاك » للشبيبة الأرمنية، ثم لاحقاً العضو في الحزب الشيوعي اللبناني، فعضو اللجنة المركزية للحزب. ومن المقدر استناداً إلى معلومات الرفيق ارتين مادويان أن دور هيكازون برز في العام ١٩٢٦، بعدما أصبح فؤاد الشمالي أميناً عاماً للحزب. ومما يؤكد ذلك ما هو متناقل إلي من بعض قدامى شيوعيي زحلة، ومما ورد في أطروحة الأستاذ هيكل الراعي حول نشوء الحركة النقابية وتطورها في لبنان.

إن هيكازون بوياجيان أعاد سنة ١٩٢٨ في زحلة تنظيم نقابة العمال، بعدما كان نشاطها قد توقف تحت اسم جديد، وأدى النشاط الذي قامت به تلك النقابة إلى إصدار أمر من محافظ البقاع بوقف نشاطها.

والشيوعيون القدامى في زحلة يقولون إنهم انضموا إلى الحزب الشيوعي سنة ١٩٢٨، أي في التاريخ الذي أسس فيه هيكازون بوياجيان مع مجموعة من العمال المتنورين الزحلاويين نقابة العمال.

إن محراب نضال هيكازون الشيوعي، كان زحلة. فهناك كان مسكنه وفيه يقيم أخوه ووالدته. ولكنه بحكم موقعه في قيادة الحزب الشيوعي، كان يتنقل بين سوريا ولبنان، فتارة يكون في

بيروت، وأخرى في دمشق. ومما اشتهر به هيكازون هو قدرته على التخفي عن عيون البوليس، وانتهاجه أساليب مبتكرة لتضليله. فبالرغم من قصر قامته الذي كان علامة فارقة فيه، كان لا يتجنب المرور في الأماكن المزدحمة بالسكان، حتى ومن أمام دائرة الشرطة، ولكن بهندام يضفي عليه أنه ليس من «الصعاليك»، بل إنه رجل أعمال. أو أنه طبيب كبير ـ وللعلم كان هيكازون طبيب أسنان ـ وقد أخبرني رشاد عيسى أن هيكازون عندما كان مقيماً في دمشق تعمد استئجار غرفة لسكنه بالقرب من دائرة الشرطة، وهذا ما كان ليثير حشرية البوليس، لأنه يعتقد أن الشيوعيين يبتعدون عن الأماكن الواقعة تحت مراقبة دوائر السلطة. أقام هيكازون في غرفته تلك أكثر من سنتين دون أن يدري به البوليس. وفي الغرفة استنبط وسيلة لتخبئة الأوراق السرية ولم يتمكن البوليس، عندما داهم الغرفة، من العثور عليها. علماً أن المخبأ لم يكن في الجدران، ولا تحت الأرض. ولكنه كان ضمن الوسائل المستخدمة في البيت.

عمل هيكازون بوصفه عضواً في اللجنة المركزية للحزب، في حقل تنظيم النقابات العمالية، وبين الفلاحين في زحلة وفي أوساط المثقفين الأرمن والعرب. وكذلك عمل في مجال الحركة القومية العربية فكان على تماس مع سليم خياطة، ورشاد عيسى، وكان يحسن العربية قراءة وكتابة، والفرنسية، والروسية، والأرمنية، وله المام باللغة الإنكليزية.

معرفتي به تعود إلى سنة ١٩٣٢، في اجتماع موسع عقد في بيت جورج عيان في محلة، «حاووز الساعاتية»، وكان مخصصاً للمساعدة الحمراء (المساعدة الشعبية، لاحقاً)، ثم التقيته بعض المرات في محل والد أرتين مادويان بالقرب من ساحة البرج وانقطعت أخباره عني سحبة طويلة.

وفي العام ١٩٣٥ خلال انعقاد المؤتمر السابع للأممية الشيوعية، في ٢٥ تموز، وكنت منتدباً من الحزب الشيوعي اللبناني لحضوره، هناك التقيت هيكازون الذي انتدب لحضور المؤتمر كمندوب استشاري. وكان قد سافر إلى موسكو في أواخر العام ١٩٣٣ للدراسة في المعهد التابع للأممية الشيوعية. في أثناء لقائنا في قاعة الأعمدة (بيت النقابات) حيث جرت أعمال المؤتمر السابع توطدت علاقتي به وعرفته عن قرب، فإذا هو مميز في معشره. ذو حجة مقنعة إذا تحدث وجادل. لا يستفز إذا ناقش، صاحب نكتة، ترى التشاؤم بادياً على وجهه، وإذا ما فاتحته الحديث، بدا لك غير ذلك.

انتهى المؤتمر السابع للأممية في ١٩ آب ١٩٣٥، وكان علي أن انتظر بضعة أيام لترتيب عودتي. وهيكازون كان قد أنهى مدة السنتين لدراسته، وعليه أن يعود إلى الوطن، فاقترح علينا أن نذهب لتمضية عدة أيام في بيت للراحة يقع في محلة «كونسوفو» في ضواحي موسكو، وهو تابع للكومنترن، وهناك ازداد تعارفنا وتوطدت ما بيننا صداقة تعمقت بعد عودة هيكازون إلى بيروت.

في « كونسوفو » أمضينا أياماً جميلة، فهناك تعرفنا على الرفيق تسوغلياني وبعض الرفاق الإيطاليين، وعلى مانويلسكي، الأمين العام للأممية الشيوعية قبل ديمتروف، وأمضينا سهرات أنس وطرب اتصفت بالأممية الصادقة التي يلتقي تحت رايتها عشرات الألوف، بل الملايين من المنضوين إلى جيش البروليتاريا العالمي الذي مثلته الأممية الشيوعية بصدق وإخلاص.

وتركنا « كونسوفو » لأعود في أول أيلول إلى لبنان بالقطار عبر النمسا، فايطاليا. ومن ثم لأستقل الباخرة من تريستا على الادرياتيك، إلى بيروت.

وبعد وصولي إلى لبنان ومكوثي بضعة أسابيع في حصرايل، استدعيت إلى بيروت وكلفت بعمل حزبي في منظمة العاصمة، واستأجرت غرفة بالقرب من كنيسة مار مارون، عند عائلة من آل سماحة من الخنشارة. وبعد ذلك بفترة في شهر كانون الأول ١٩٣٥، عاد هيكازون وكان يزورني في الغرفة. وأحياناً ينام عندي، وكانت الحيرة بادية عليه لجهة عمله. هل يعود لمتابعة عمله في عيادته لطب الأسنان، أم يبقى متفرغاً للعمل الحزبي. ويبدو أن الوضع المالي لم يكن ليسمح بتفرغه كلياً، فعاد إلى زحلة يتابع عمله في طب الأسنان، وكنت أراه في فترات متقطعة، إلى أن أعلنت الحرب في أول أيلول ١٩٣٩. فانقطعت الصلات معه. واستمرت الحال كذلك حتى دخول الحلفاء إلى لبنان في تموز ١٩٤١، وطردهم الفيشيين، وعودة الحريات الديمقراطية ولو بشكل مقنن إلى البلاد، ورحنا نعيد صلاتنا بالمناطق التي للحزب فيها منظمات، والصلة الأولى كانت مع زحلة، وقد تمت بواسطة هيكازون. فقد ذهبت إلى عيادته وبواسطته اتصلت مع الرفاق الآخرين.

وفي العام ١٩٤٧، سافر هيكازون مع عائلته، وكان قد تزوج، إلى أرمينيا، مع من سافر من الأرمن، وهناك مارس مهنة طب الأسنان. وعاد إلى لبنان زائراً في مطلع السبعينات فاحتفت به قيادة الحزب الشيوعي، وأقامت له حفلة عشاء تكريمية وكان هو مسروراً جداً من نمو الحزب، ومن تجدده، الذي يعطيه زخماً في العمل.

وفي أواخر السبعينات عاد هيكازون إلى لبنان نهائياً، ومن هنا سافر إلى البرازيل لمشاهدة اقارب له. وكانت الاضطرابات الداخلية على أشدها في لبنان. ولما وصل إلى أثينا عاودته أزمة قلبية فقضى نحبه.

إن هيكازون الذي وقف مع أرتين مادويان مؤيداً خطة التعريب، ومدافعاً عنها بوصفها خطاً سياسياً يتوقف على حسن تطبيقه مستقبل الحركة الشيوعية في لبنان وسوريا وفلسطين. هيكازون المناضل العنيد من أجل أفكاره وخطة حزبه، هيكازون الذي لم يضعف ولم يهن، أمام الإرهاب... كان شيوعياً جيداً. وحزبنا قدّره ويقدره كمناضل شيوعي، نشأ وترعرع وشب. وكافح

وضرب، وتعذب وصمد.

إن ميزة هيكازون هي في أنه دائماً ينطلق من موقف نقدي، ويناقش موقفه حتى يقتنع، ولكن هيكازون في جميع مراحل حياته الحزبية لم يحد قيد شعرة عن خطة الحزب، وكان يبذل قصارى جهده لتنفيذها، وغالباً ما كان النجاح في عمله مرافقاً له.. وميزة هيكازون الثانية هي أنه لم ينطلق في تعاطيه مع من يناقشه من كونه مسؤولاً وقائداً، بل كان يعتمد على المناقشة والإقناع.

إن أمثال هيكازون بوياجيان وإن طواهم الثرى، لا ينسون، بل إنهم مخلدون في التاريخ والضمائر.

فؤاد قازان

بكتابتي عن فؤاد قازان إنما أعكس، لا أرادتي ورغبتي، وقرار ضميري، بل اعكس إرادة ومشاعر الألوف من أبناء شعبنا الذين عرفوا هذا الرجل الرجل، القائد الوطني الجماهيري الذي جمع بين السيف والقلم، فكان في مجال كل منهما مجلياً معطاءً، لم يخر مهما ادلهم الخطب، ولم يتوان عن القيام بواجب مهما اشتدت الصعوبات، ولم يدر على نفسه مهما تشابكت القضايا وتعقدت. فبفضل تفكيره العلمي وجدليته في تحليل الأوضاع والقضايا، والتزامه الفذ بسياسة وتوجيهات حزبه الشيوعي، في ضوء ذلك، كان فؤاد يقرر، وينفذ، ويفكر، ويعمل.

قائداً محبوباً كان، يرضي محدثيه عندما يتكلم، ويقنع مجادليه إذا ما ناقشوه، وفي اثناء عمله في قيادة الحزب الشيوعي، بين ١٩٣٧ و ١٩٣٨ انطلق الحزب وحقق خطوات جريئة في طريق «اللبننة» ولا أعني باللبننة هنا معناها المتزمت الضيق المبتعد عن العروبة، بل ناحيتها الاجتماعية والاقتصادية لجهة مطالب الشعب، وقد عبر فؤاد عن نهجه هذا بمجموعة مقالات نشرت في جريدة «صوت الشعب» بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨.

وغب دخوله الحزب سنة ١٩٣٣ جابه مع صديقه ورفيقه مصطفى العريس، أول معركة ضد الاستعمار الفرنسي، في «ميسلون». فقد كلفتهما قيادة الحزب ترؤس وفد لبناني شعبي إلى ميسلون في ٢٤ تموز سنة ١٩٣٤، لوضع أكاليل الزهر على ضريح البطل الكبير يوسف العظمة الذي استشهد في المعركة التي جرت ضد القوات الفرنسية في تموز ١٩٢٠ ودخل على أثرها الفرنسيون إلى دمشق، بعدما هرب الحكم العربي تاركاً المدينة لقمة سائغة للمستعمرين الفرنسيين.

على قبر يوسف العظمة وقف فؤاد قازان ومصطفى العريس، وألقى كل منهما خطاباً بإدانة الاستعمار، وبدعوة الشعب في سوريا ولبنان لتنظيم صفوفه والاستعداد لاسترجاع ميسلون، بل سوريا ولبنان، واعتقل القائدان وحكم عليهما في محاكم الاستعمار الفرنسي بسنتين سجناً قضياها

متنقلين بين سجون دمشق، وحلب، وحمص، ودرعا، ولما انتهت مدة سجنهما، عادا إلى بيروت يتحمل كل منهما مسؤولية جديدة في قيادة الحزب. فمصطفى أصبح مسؤولاً عن مدينة بيروت، وفؤاد قازان أصبح مسؤولاً عن قيادة الحزب في جبل لبنان. وقد أشرت إلى الدور الريادي الذي قام به فؤاد، وهو على رأس قيادة العمل في جبل لبنان.

وفي العام ١٩٣٨، كلف الحزب الرفيق فؤاد بالسفر إلى فرنسا كمندوب دائم له لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي، وبذات الوقت كان يراسل جريدة « صوت الشعب». قام فؤاد بالمهمة المكلف بها خير قيام، فعمل بإخلاص لتوطيد العلاقات الودية مع الحزب الشيوعي الفرنسي الشقيق فنجح وخصوصاً في تزويد « صوت الشعب » بمجموعات من الصور حول شتى الأحداث العالمية مما ميزها في حينه عن سواها من الصحف اللبنانية.

وتعلن الحرب، وتشمل فيما تشمله فرنسا، ويحتل هتلر أرضها، وينظم الحزب الشيوعي الفرنسي المقاومة المسلحة ضد الاحتلال النازي، فتتألف فصائل الأنصار ويكون فؤاد قازان في طليعة المنضوين تحت لوائها.

قرابة ثلاث سنوات قضاها في غابات « تولوز » يناضل بالسلاح مع رفقائه الفرنسيين ضد العصابات النازية. ونظراً لانضباطيته، وبسالته، وإقدامه في العمليات الناجحة التي خاضتها المقاومة الفرنسية ضد الهتلريين، منح رتبة كابتين (نقيب).

وفي العام ١٩٤٥، قبيل انتهاء الحرب في ٩ نوار، عاد فؤاد إلى لبنان بلباس المقاومة، وجرت استقبالات وحفلات تكريم، في شتورة، وفي بيروت، وزاره في مكتب الحزب الشيوعي العديد من الشخصيات السياسية والوطنية.

كما عاد فؤاد لتسلم موقعه في قيادة الحزب الشيوعي كعضو في اللجنة المركزية، ومن ثم كمسؤول عن منظمة الشمال الحزبية، وفيما بعد كمسؤول عن شؤون التنظيم في الحزب.

ومن جملة ما اتصف به فؤاد من صفات حميدة، ديناميكيته، وثقته بالعمال والفلاحين وهو وإن يكن مثقفاً، فهو بذات الوقت عامل نجارة، ومن ثم عامل طباعة، وبذات الوقت كاتب مقالات وأبحاث. ومن يراجع مجلة « الدهور » بين أعوام ١٩٣٢ و ١٩٣٤، ير مجموعة من المقالات كتبها فؤاد قازان بروح ماركسية لينينية بالرغم من أنه لم يكن قد انضم للحزب الشيوعي.

وتشاء ظروف مزعجة، أن يعود فؤاد قازان إلى فرنسا ولكن مع عائلته هذه المرة، في حين لم تكن عنده رغبة بذلك، إذ كان يفضل الحياة في لبنان بالرغم من الإرهاب الذي أرخى سدوله

على البلاد آنذاك. ولكن للقدر مشيئة لباها فؤاد متألماً، ومكث في فرنسا أكثر من خمس عشرة سنة، عاد بعدها إلى لبنان يحمل في جسمه مظاهر المرض والوهن مما أصابه من شقاء في مطلع صباه، عندما كان يعمل في مصنع السيوفي للنجارة، ومن ثم عندما سجن لمدة سنتين في سوريا، وبالتالي لما قاساه من عذاب وشقاء في غابات تولوز عندما كان جنديا في قوات الأنصار الفرنسيين.

وهنا في لبنان انكب فؤاد على مواصلة أبحاثه في تاريخ لبنان، فأنشأ الجزء الأول الذي طبع ونشر وقد قيمه اساتذة التاريخ. كما وأنه أنجز الجزء الثاني الذي يتمتع بميزة، قيل إنها فريدة، لم يتطرق إليها مؤرخ سواه. وبملء الأسف أقول: إن هذه المخطوطة القيمة فقدت، فقدنا بها، مرجعاً من تراثنا لا يعوض عنه أي مرجع آخر.

في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي اللبناني في مطلع كانون الثاني ١٩٧٢، ألقى فؤاد قازان خطاباً، وكان المرض قد اشتد عليه، نضحت منه الاستقامة الشيوعية، والديناميكية اللينينية، والعزة القومية ومما قاله مشيراً إلى مساهمته في المقاومة الفرنسية، «كان اعتقادي راسخاً رسوخ هذا الجبل اللبناني، بأن الوقوف حتى الموت في وجه الهتلرية كان دفاعاً لا عن الشعب الفرنسي فحسب، بل عن وطني الصغير لبنان الحبيب وعن وطني العربي الكبير».

كلمات من القلب قالها فؤاد أمام أعلى هيئة في حزبه الشيوعي، وهي تنم عن شخصية مناضل أصولي، عاش ثورياً وقضى ثورياً.

واليوم، عيناك يا فؤاد تريان، وأذناك تسمعان، الأخبار عما يقوم به رفقاؤك المقاومون للاحتلال الفاشي الصهيوني في جنوب الوطن، إنهم يستبسلون في العمليات الضخمة التي يقومون بها، فتكبد العدو أشد الخسائر. وبكل ما يفعلونه، ويبتكرونه من وسائل للإيقاع بالأعداء يستلهمون من بطولات أسلافهم الشيوعيين، وبخاصة مما قمت به أنت، من أعمال مجيدة مع رفقائك المقاومين الفرنسيين في غابات «تولوز» ضد الغزاة النازيين. إن بطولاتهم هي تمجيد لذكراك وذكرى المئات سواك الذين سقطوا شهداء ليرفعوا عالياً راية الاستقلال والديمقراطية.

اطمئن يا فؤاد فالمقاومة الوطنية في الجنوب ورفقاؤك فيها يبعثون امجاد حزبك الشيوعي، في إطار خطة سياسية حكيمة، وتوجيه وطني صحيح.

الدكتور شكر الله كرم

في أصيل يوم ١٧ شباط سنة ١٩٧٧ امتدت يد الخيانة والغدر، يد الجبانة والخساسة، يد الصهيونية المجرمة، فاغتالت كبيراً من لبنان، وطنياً ملتصقاً بتراب وشعب الجنوب، أبت عليه

انسانيته، ومواطنيته، أن يترك بلده وفيها صحبه وعشراء عمره، امتدت يد عملاء إسرائيل فاغتالت الدكتور شكر الله كرم في منزله ببلدته «الخيام» فسقط شهيداً كبير المقام، كبير النفس، مرفوع الهامة، متحدياً الأنذال الجبناء، فكان لاستشهاده الوقع المؤثر لا بين أبناء «الخيام» وحسب، بل في كل جبل عامل، بل في لبنان بأسره.

سقط الدكتور شكر الله كرم وهو يقوم بواجب إنساني ووطني حيث كان يعالج أحد أبناء الخيام المصاب بشظية. فالجبناء الأنذال لم يحترموا إنسانية الطبيب، بل صرعوه، ثم هدموا منزله بقنابل مدفعيتهم الغادرة.

عرفت الدكتور شكر الله كرم عن قرب في أواخر العام ١٩٤٧، وقد قمت بزيارة إلى قضاء مرجعيون، وفي أثنائها زرت «الخيام»، وأول بيت وصلت إليه كان بيت الدكتور كرم. ومن هناك أجريت الاتصالات مع الرفاق الشيوعيين. لقد استقبلني ببشاشة وترحاب بالغين. وكان مسروراً جداً بزيارتي، ومتفائلاً بالنضال الذي نخوض. وأشد ما قدرت فيه، هو تلك الثقة الكبيرة بقضية الاشتراكية، وبهزيمة أعدائها. ومما لاحظته أثناء وجودي عنده، وقد قضيت ليلة في ضيافته، كثرة الزوار. هذا لمرض ألم به، وهذا لحاجة جاء يطلب مساعدة الحكيم لقضائها، وهذا لاستشارته بموضوع آخر. وكان يستقبلهم بما عرف عنه من أخلاق رفيعة، وبوجه باش.

وودعته في اليوم التالي حيث عدت إلى جديدة مرجعيون، وطلب إلي تكرار الزيارة فوعدته بذلك، ولكن أحداثاً سوداء عصفت بلبنان، بعد قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، والحرب العربية ـ اليهودية. وانتشار جو الإرهاب الأسود الذي فرضته الحكومة اللبنانية. حال دون وفائي بالوعد. فبدلاً من الذهاب لعند الدكتور شكر الله كرم، ذهبت إلى معتقل بعلبك. ومن ثم إلى سجن الرمل أولاً وثانياً وثالثاً حيث أمضيت ١٧ شهراً تنفيذاً لأحكام صدرت بحقي.

ولم أعد أعرف شيئاً عن الدكتور شكر الله كرم. إلا أنه بصحة جيدة، وأنه لا يزال كما كان، طيب الخلق، وعلى الدرب التي شقها لنفسه يسير، إلى أن أتانا الخبر المفجع باستشهاده. وفي هذا الوقت قال لي الرفيق جورج حاوي. هيا معي لنقوم بواجب التعزية بالشهيد الدكتور شكر الله كرم. فذهبنا إلى منزله في بيروت وقدمنا التعازي لحرمه، ولأبنائه، الدكتور كرم كرم وأشقائه.

كان الدكتور شكر الله كرم طبيباً إنسانياً بارعاً، كما كان أديباً وكاتباً يشار إليه بالبنان. وهذه الصفات والميزات جعلته وطنياً من درجة أولى، بل ثورياً مقدراً جداً.

فبالنسبة لرسالته الطبية الإنسانية. وضع الدكتور نفسه تحت تصرف حاجة سكان جبل عامل، وبحكم علاقته بالفلاحين وسكان القرى بعامة، أصبح خبيراً بحياة القرية، وحاجة سكانها..

وفي الأربعينات عين الدكتور شكر الله كرم طبيباً لبلدية الخيام، صحيح أن هذا التعيين لم يكن هو الذي تمسك به الدكتور. ولكنه كان دليلاً على المكانة التي يتبوأها في محيطه «الخيامي» و «الجنوبي» معاً. فالخيام هي من كبريات قرى جبل عامل، وربما كانت من حيث كثافة السكان، الرابعة بعد صيدا وصور وبنت جبيل، في الجنوب.

وفي العام ١٩٤٦، وكانت معالم الضغط على الحريات قد بدأت ملامحها تستشري في إدارة حكم الشيخ بشارة الخوري، وكان الدكتور كرم حركة سياسية لا تهدأ، وعبثاً حاول المسؤولون «نصحه» بالحد من نشاطه. في ذلك الزمن أنذر حاكم المنطقة الإداري، القائمقام بشارة حبالين، الدكتور شكر الله كرم ليتراجع عن الطريق التي اختطها لمساره، ولكن محاولته باءت بالفشل. والكتاب التالي نصه الذي وجهه القائمقام للدكتور، وجواب الدكتور عليه يعطي صورة عن صلابة الدكتور كرم، وموقفه الوطني الثوري النبيل الذي أصبح حديث جميع المناضلين والوطنيين في لبنان. وهذا هو نصه:

لا أبيع حريتي

اشتدت وطأة الإرهاب سنة ١٩٤٦، وأصبح تعطيل الحريات الديمقراطية شأناً من شؤون الإدارة العامة. ولم يوجه هذا الإرهاب ضد وسط معين من أبناء الشعب، بل تناول جميع الأوساط وبخاصة الأشخاص الوطنيين والتقدميين. وكان للجنوب حصة كبرى من هذه التدابير. ويذكر في هذا المجال التنكيل الذي انزل بمعلمي المدارس الرسمية في النبطية، وكيف أبعدوا عن بلدهم، ووزعوا على المناطق من بعلبك، حتى عكار. في هذا الظرف تصدى قائمقام مرجعيون (الدستوري) بشارة حبالين، إلى أنبل شخصية وأشدها وطنية، وهو الدكتور شكر الله كرم، طبيب بلدية الخيام ووجه إليه الإنذار التالي نصه:

الجمهورية اللبنانية - عدد ١٩٠٩

حضرة الدكتور شكر الله كرم المحترم - طبيب بلدية الخيام.

حيث تبين للحكومة اللبنانية انكم تنتمون لحزب سياسي في هذه المنطقة، وحيث إن القانون يمنع الموظفين من الانخراط في مثل هذه الأحزاب فإنني بناء لأوامر المراجع العليا: أنذركم لآخر مرة بوجوب الامتناع عن الانتماء إلى الأحزاب السياسية والاشتراك في أبحاثها حيث لي حال المثابرة يصار لاقتراح التدابير المنطبقة على القانون بحقكم. ٢٢ - ٧ - ١٩٤٦ - قائمقام مرجعيون - بشارة حبالين.

وأجاب الدكتور كرم على إنذار القائمقام بالكتاب التالي نصه:

لسعادة قائمقام مرجعيون المحترم.

لما كانت الحرية العامة هي أساس كل استقلال وأكبر دعامة من دعائم المدنية الحاضرة، وكانت الحرية الشخصية هي البذرة التي تتفرع منها الحرية العامة، وهي بنظري أثمن من اللآلىء والابريز الكثير ولا يعادلها شيء في الوجود مهما غلا أو سما، ولا يمكنني أن أبيع حريتي بأية وظيفة حتى ولو كانت أرفع مناصب الدولة، حتى إنني اعتقد أعتقاداً راسخاً، وأؤمن إيماناً وطيداً بأن شعباً لا يتمتع أفراده بحرية شخصية تامة ضمن حدود الآداب العامة والرصانة والتعقل لا يستحق الحياة. ولما كانت طبابة البلدية هي وظيفة شرفية لا يجوز أن تحجز حرية الطبيب من أجلها وكنت أحتقر كل وظيفة تحد من حريتي، ولما كنت انتمي إلى حزب يدافع عن استقلال لبنان بكل تضحية وعزم ويحارب الاستعمار دون هوادة أو لين يسد على كل تدخل أجنبي أبواب الدس بجرأة مبدئية نادرة وعقيدة وطنية راسخة ويسعى لتطبيق الديمقراطية الحقة دون مواربة وبتجرّد وإخلاص. وإني لأفتخر بانتسابي إلى الحزب الشيوعي واراني أخدم وطني أجلّ خدمة بانتمائي إلى حزب برهن ويبرهن وسيبرهن أنه الحزب الوحيد الذي يخدم لبنان واللبنانيين ومصلحة لبنان واللبنانيين فقط.

لهذا وجواباً على كتابكم عدد ١٩٠٩ تاريخ ١٩٤٦/٧/٢٢ الذي به تنذرني لأول مرة ولآخر مرة بوجوب الامتناع عن الانتماء إلى الأحزاب السياسية والاشتراك في أبحاثها. فإنني اتقدم من سعادتكم ومن المراجع العليا التي تذكرون باستقالتي من هذه الوظيفة إذا كانت تقف حجر عثرة في سبيل حريتي التي يضمنها الدستور اللبناني. راجياً قبولها مع قبول فائق الاحترام.

الخيام - ١٩٤٦/٨/٥

نشرت الكتاب «صوت الشعب» في ١٩٤٦/٨/١٦

الرسالة الأخيرة

وفي صباح ١٧ شباط، وقبل ست ساعات من استشهاده بعث برسالة جوابية إلى أولاده في بيروت هذا نصها:

أحبائي وأغلى الغوالي.

تسألون أسعيد أنا ببقائي في الخيام. السعادة آه من السعادة شبح كلما اقتربت منه نأى. أهي قناعة فأين الطموح؟ أهي استرخاء وعدم اكتراث وما نصنع بالعواطف والمشاعر، أهي طمأنينة وكيف؟ كيف اطمئن وحولي آلاف البائسين إذا تركتهم فمن يقرأ ميزان الحرارة ومن يتسمع

نبضات القلب؟ لم يبق عندي أكثر من ذلك أعطيهم أفيحق لي أن أمنعه؟

وتقولون ما زال في البيت من هم بحاجة إلي! لعمري عهدتهم رجالاً، بهم اقوى، أتحدى المستحيل والشباب ملء بردي. أفأترك الخيام تحترق والجنوب كئيب، علني أعيد إليه بعض فرحه. ليت الفرح يزوبع حول الوطن الصغير فيدخل من الأبواب ويعصف من النوافذ ويخترق الشقوق. وإن تفرقت العائلة الصغيرة فستجتمع، تستظلها خيمة الحب.

الأمور في المنطقة تتطور بسرعة وإلى الأسوأ. يفتعلون الحوادث لتخريب سلام متواضع حرصنا عليه. رائحة البارود تعبق في الأجواء. أحس بأننا قادمون على مجزرة خطط لها. مسكين إنسان هذي الحدود الجنوبية كم يتحمل من شقاء؟ أسيبقى من عبر الحدود مصرين على إبادتنا؟.

سيطلع الفجر. وقد ارتاحت الأرض من مغتصبيها وأشرقت على وطننا شمس السلام.

لا تفكروا بي مطلقاً وهذا يريحني. أقبلكم فرداً فرداً وأكثروا منها لعامر. ولكم مني عاطر السلام وأطيب الأماني وكل حبي.

من والد هو هكذا فهل تقبلوه؟

وسقط في الخيام

ويقول أصدقاؤه: «ولما اندلعت الحرب اللبنانية، وقياماً بواجبه الإنساني تبرع بيوم من أيام الأسبوع للمعاينة المجانية في «القليعة». ولكن مسلحي القليعة كافأوه بتصويب الرصاص إلى صدره».

ويقول أصدقاؤه: «حاولوا قتله سنة ١٩٧٦. ولكن الطبيب غفر لهم وسامحهم، عادوا وهددوه قائلين إنه المطلوب وذلك يصعب عليهم، لما له عليهم من أفضال. ضحك ضحكته المعهودة وأجاب: «لن تجرأوا. أنا هنا ولن أبرح إلا والخيام معي. وسأظل طالما هناك طفل واحد يحتاجني».

ويتابع الأصدقاء: «صبيحة ١٧ شباط ١٩٧٧، والدنيا قد امتلأت برائحة البارود، افتعلوا الحوادث كي يخرجوا الخيام عن حيادها. واصطفت الدبابات متأهبة لدخولها، تحميها وتمهد لها المدافع من وراء الحدود، أخذ الناس يهربون، كانوا يمرون عليه يوصونه بعائلاتهم وهو يأتي يضمد الجراح ويعود المصابين. في الثانية بعد الظهر دخلت الآليات الصهيونية الخيام وفيها عملاؤهم. وصلوا إلى البيت وهو المقصود وأصلوه وابلاً من نيرانهم. وفي تلك اللحظة وكعادته كان يؤدي واجبه الطبي وبين يديه أحد الجرحى من أبناء الخيام. انصبت النيران مجنونة. سقط الحكيم في الخيام».

الشهداء الثلاثة

قال الدكتور في مقالة له: «أي مأساة أوسع من مأساة الفلسطيني. سلب جنسيته، وطرد من وطنه، وهدر دمه في أنحاء العالم وأصبح بعين الناس مخرباً لأنه يطالب بحق سلب، وملك نهب، ووطن أبيح للغرباء». وفي مكان آخر كتب: «لم أفهم كيف أن حفنة من الصهاينة يعيثون في بيروت تقتيلاً وتدميراً كأنهم يتجولون بين القبور، مخلفين وراءهم الجثث والخرائب ولم يقبض على أحد منهم، بينما تهرع السلطة بقضها وقضيضها لاقتناص متظاهرين أو عمال مطالبين أو مزارعين مظلومين. العزاء الكبير كان في الجنازة الحشد في أروع مظاهرة دلت على طيبة هذا اللبناني، مظهراً للقريب والغريب ان شعبنا إذا توفر له بعض الحرية يعلن أصالته على الدنيا، وإن عطفه على القضية الفلسطينية ليس له حدود».

أطيب الأصدقاء

وقال الدكتور: «أكره الأبوة طاعة وإرهاباً. أحبها صداقة وإخلاصاً. فالأبوة الحقة أن يفرغ الأب ذاته من الأنانية لينقلها إلى أولاده حباً وتفانياً، لذا نرى أقربهم إليه من يمثل طموحاته ويحقق أمانيه، فأحسن الآباء هم أطيب الأصدقاء. ليتني أحظى بصداقة أولادي».

الطبيب والناس

وقال الدكتور: «كلما اختلط الطبيب بالناس وتقرب منهم وأصغى إلى شكواهم وعرفَ عقلياتهم، كلما كان الأقدر على تشخيص أمراضهم ورفع الضيم عنهم والتخفيف من آلامهم وبعث الطمأنينة في قلوبهم. وكلما ابتعد الطبيب عن الناس خسر مهنته وفقد متعتها».

وتابع الدكتور كرم طريقه غير آبه بحكم كتب صك سقوطه بيده، يوم أقدم على ضرب الحريات الديمقراطية، ولا باقطاع سياسي خانع وضع نفسه بأمرة هذا الحكم. ففي العام ١٩٥٣ خاض معركة الانتخابات البلدية عن «الخيام» ضد لائحة الإقطاع التي يرأسها آل العبد الله ويدعمها آل الأسعد، ففاز الدكتور كرم وأصبح رئيساً لبلدية الخيام. فاز بقوة وثقة الشعب الذي بادله الجميل بجميل مثله. وفي كلا الحالين، قبل أن يكون رئيساً لبلدية الخيام، أو بعدما انتخب وأصبح رئيساً لها، استمر على رسالته الإنسانية في خدمة الناس. ويمكن القول إن أي بلد أو قرية ترشح الدكتور كرم لرئاسة بلديتها كان الفوز مؤكداً له، نظراً لما تمتع به من نفوذ كونته ارتباطاته بالأهالي، وحدبه عليهم.

بيته مستشفى ميداني

وجاءت الأيام السوداء، وحلت بجبل عامل النكبة، ودفعت اسرائيل بزبانيتها. وراح جنودها يدمرون ويخربون في المناطق الحدودية والدكتور شكر الله باق في الخيام، في دارته، يعالج هذا، ويضمد جراح ذاك، منكباً على عمله ليل نهار، وإذا تسنى له أن يجلس على كرسي، فيكون بانتظار مصاب، أو من حل به داء ليواسيه.

ولطالما طلب إليه ذووه وأبناؤه وأصدقاؤه أن ينزح عن الخيام، بعدما أصبح الوضع فيها على ما كان عليه، فكل الآفاق مسدودة، ومثلها الطرقات، وإسرائيل عبر صنيعتها سعد حداد، تطبق سياسة الأرض المحروقة. ومع ذلك أبى الدكتور كرم ترك الخيام وفضل الاستشهاد فيها، مع عشرائه، وأصدقائه، أبناء جبل عامل.

ولد الدكتور كرم سنة ١٩١٤، ودرس الطب في الجامعة الأميركية، وتخرج منها طبيباً سنة ١٩٣٣، يقول «أصدقاء الدكتور شكر الله كرم» في كتيب أصدروه غب استشهاده: «عام ١٩٤٧ ولما اندلعت حرب فلسطين حوَّل بيته إلى مستشفى ميداني وأخذ يعالج الجرحى ويقيهم دون أي مقابل مهتماً في جميع النواحي الصحية والاجتماعية والإنسانية بالنازحين من عرب الحولة والجليل الذين هجروا بالإضافة إلى اهتمامه وعنايته بالجنود السوريين المقيمين في الجنوب، ونشأت هناك صداقة متينة بينه وبين الشهيد عدنان المالكي».

وعما قام به من خدمات بعدما أصبح رئيساً لبلدية الخيام يقول «أصدقاء الدكتور»: «وخلال فترة وجيزة من الزمن شق الطرقات وفتح المدارس والمستوصفات. ولم يرق ذلك لأعداء التقدم الذين سرعان ما قاموا يضعون العراقيل في طريقه، ولكنه صمم على المضي في العمل العام».

ويقول أصدقاؤه: «قبل انتخابات ١٩٥٧ خافوا من تأثيره فاعتقلوه اعتباطاً، ولكن الهياج الشعبي اضطرهم لإخلاء سبيله قبل الاقتراع، وفي غيابه افترش الناس أرض بيته وفسحته حتى عودته، ولما عاد كانت فرحة شعبية قلما شهدت الخيام مثلها».

مصطفى العريس يتذكر

تقديراً لدور الرائد الكبير، وأمانة لذكراه الخالدة، حرصت قيادة الحزب الشيوعي اللبناني على نشر بعض مما أنشأه مصطفى العريس أحد كبارنا الذي سافر سفرة أبدية، فكان كتاب «مصطفى العريس يتذكر» الذي قدم له بكلمات من القلب والضمير، الدكتور حسين مروة، فأضاف على نتاج مصطفى خصباً غزيراً.

« مصطفى العريس يتذكر » مؤلف من ٤٧٧ صفحة بغلاف متقن، وبرسم للمؤلف ليس موفقاً، ويتضمن الكتاب بعد ورود « التمهيد » ثلاثة عشر فصلاً يليها ملحق، والفصول هي: طفولتي الأولى ـ المعارك الأولى للحزب ـ عيد العمال في موسكو ـ إضراب بيروت ضد شركة الجر والتنوير سنة ١٩٣١ ـ في السجن ـ على أبواب الحرب ـ المؤتمر النقابي العالمي ١٩٤٥ ـ معركة قانون العمل ـ مع الحركة العمالية العربية ـ والشرق أوسطية ـ إلى السجن مرة أخرى ـ الحرب الباردة ـ تجربتان مع الانتخابات النيابية ـ مشاكلي مع المرض ـ صور من الذاكرة ـ وظلت الراية تخفق.

ويلي هذه الفصول « ملحق » وهو « شهادات حية عن أوضاع الطبقة العاملة في الثلاثينات ».

كان مصطفى يأمل أن يرى كتابه هذا، قبل الرحيل، ولكن المرض فاجأه في ليل، فعاجله بحيث لم تعد عواطف الأهل والرفاق، ولا حنان نهى، ودموع الخمس بنات والأصهرة والانسباء، ولا نطس الاطباء بقادر على الوقوف بدرب القدر، فتركنا مصطفى دون أن يتمكن من أن يقول وداعاً يا رفاق، وهو الذي عودنا، عندما يكون على سفر أن يزور كل واحد في « النداء » مودعاً حتى إذا عاد، فعل ما فعله عند الذهاب وأكثر من ذلك، حاملاً إليه الهدايا، والحلوى.

قال لي مصطفى عندما أنهى تحرير كتابه، لقد وضعت النص في البيت مرفقاً بورقة صغيرة كتبت عليها، إذا ما وافتني المنية فاترك لرفاقي في قيادة الحزب أن يتصرفوا بهذا الكتاب. وهكذا حصل، فقد سلمت نهى الأمانة للحزب، ونفذت القيادة وصية مصطفى وأصبح بأيدينا كتاب « مصطفى العريس يتذكر » حاملاً إلينا تجربة ٤٧ سنة من النضال الثوري العنيف، وخبرة قائد خاض معارك الكفاح لا في لبنان وحسب، بل وفي الساح العربي بعامة، كما في الساح الدولي عبر مركزه كقائد في الاتحاد النقابي العالمي، حيث مثل الطبقة العاملة العربية أفضل تمثيل، وما رحلتاه إلى تونس وايران موفداً من قبل اللجنة التنفيذية للاتحاد النقابي العالمي، والتقريران اللذان رفعهما عن نتائجها، سوى الدليل القاطع على صفته القيادية، وقدرته على الحوار، لما فيه مصلحة الطبقة العاملة العربية وفي المنطقة.

ومصطفى العريس في « مصطفى العريس يتذكر » يبدو كادحاً، بل شيخاً من شيوخ الكادحين، وضع طاقاته، وإمكاناته، وصحته، هنا في لبنان، كما في سوريا وفلسطين، من أجل مصلحة الطبقة العاملة. وهي جزء أساسي من مصلحة الوطن، والحرية والاستقلال.

فحيث كان وأنّى وجد، في السجن، أو ساحات المعركة، في الشوارع، وعلى منصات المؤتمرات، والمهرجانات أو قائداً للمظاهرات في الشوارع، رفع مصطفى العريس راية حزبه

الشيوعي، مؤكداً للملأ، أن أفضل عامل لمصلحة الطبقة العاملة هو شيوعي. كما أن أفضل شيوعي هو من يضع مصلحة الطبقة العاملة، مصلحة الجماهير الواسعة في صلب تفكيره، ونضاله، وحسبانه.

ومصطفى العريس لم تغب أبداً عن ضميره الروح الحزبية التي تشكل صمام الأمان لكل موقف، وتوجه، وانطلاقة. وبقراءة «مصطفى العريس يتذكر» يمكن التأكد من عظمة هذا المناضل الذي ارتبطت باسمه، بنضاله، وهو على رأس الاتحاد العام للعمال في لبنان، وفي اللجنة التنفيذية للاتحاد النقابي العالمي، أمجد الانتصارات وكانت حلماً من أحلام الرواد الاوائل الذين أنجبهم شعبنا، وطبقتنا العاملة، كرفيق-جبور، أنطون مارون، فؤاد الشمالي، الياس أبو شبكة، خير الله خير الله وسواهم، ألا وهو قانون العمل اللبناني، الذي شكل في حينه قفزة تاريخية ثورية لعبت دوراً رئيسياً في توطيد أسس الطبقة العاملة في مجتمعنا اللبناني، مما ساعد على تحقيق تحولات كيفية وضعتها على سكة النضال السياسي. لقد أصبحت الطبقة العاملة اللبنانية اليوم قوة سياسية ذات تأثير في مجمل قضايا الوطن، لا يمكن تجاهله.

لقد أحسن الذين ارتأوا أن لا يعنون كتاب «مصطفى العريس يتذكر» باسم «ذكريات مصطفى العريس»، إن ما هو في أيدينا إن هو إلا بعضاً من ذكرياته، أقول ذلك لأنني، وكنت قريباً جداً منه، وأدرك ما تحمله في سحبات معينة من تاريخ نضاله الحزبي، كنت أود أن يكتب مصطفى بخط يده ما أصابه من سهام، وقلت له أكتب هذا يا مصطفى، واقتنع بعد لأي، ولكنه عاد إلي وقال، يا أبا وضاح، كلما أتيت لأفعل ما قلته لي، أفقد القدرة على تجميع أفكاري، فما رأيك أن تكتب أنت ما اصبت به، وأنت أدرى الناس به؟ قلت له هذا صعب، فأنا أكون معاوناً لك، ولكن سرعة الرحيل فوتت علينا ما كان «أبو شاكر» يريد أن يكتبه لنا. ولكنني، ايفاءً مني لذكراه الخالدة، سأعمل طاقتي، لكتابة ما أتذكره عن مصطفى العريس بعد العام ١٩٥١ حتى العام ١٩٦٥، والحال التي وصل إليها، وهو الذي كان اسمه، ملء الافواه، أصبح نسياً منسياً إلا من اصدقائه الخلص، ورفاقه النبلاء الذين عملوا بوحي من جوهر حزبهم، فأعادوا مصطفى سنة ١٩٦٨، إلى موقعه في قيادة الحزب.

«مصطفى العريس يتذكر» بالرغم من بعض النواقص الشكلية، كعدم وجود فهرست، وترداد العناوين، فإنه يشكل مدرسة لا بد للمناضل النقابي والعمالي، من أن يقرأه مراراً. إن تجربة مصطفى العريس المدوّن قسم كبير منها في كتابه، هي جزء أساسي من تجربة الحزب الشيوعي التي أصابت النجاح في المحيط العمالي والنقابي. هذا الالتزام السياسي الذي شكل عند مصطفى درعاً واقية من الخطل والشطط، والتزم مصطفى بالتواضع الخلقي، بحيث وجد فيه لا ابن بجدته عامل

المطبعة، بل كان أصناف العمال، من عامل البناء إلى عامل التنظيفات، إلى عمال المصانع، والعمال الزراعيين، أخاً ورفيقاً لهم، وهذه الميزة هي شرط للقائد النقابي الذي يتطلب أول ما يتطلب له، لتكريس قيادته، ثقة الذين أوصلوه إلى مركز القيادة. فخر مصطفى العريس أنه بقي، سواء عندما كان منضداً للحروف، أو عندما أصبح قائداً للاتحاد العام، بقي على سجيته، محرابه الجلوس مع العمال، أعند ميرزا والناكوزي ووديع ضاهر وجدوا، أم وراء صناديق الصف، كانوا، أم في الرحلات الاسبوعية التي كان العمال ينظمونها إلى المناطق. وتحت قيادة مصطفى العريس تربى رعيل من القادة النقابيين يذكرون دائماً بالإجلال والإكبار، كسعد الدين مومنة، وحنا الزرقا، وميشال العازار، ورامز دميانوس، وتوفيق جمال، وحبيب لطيف، وجميعهم توفوا وأيديهم ملطخة بالحبر الأسود، إنما ضمائرهم كانت نقية بيضاء لأنهم اعتمدوا على كسب قوتهم بعرق جباههم.

وفي « مصطفى العريس يتذكر » لا يسرد مصطفى العريس الأحداث سرداً، بل يربط القارىء به ويشده إليه بسلاسة العبارة، والنكهة التي تسبغها روحه على ما يحرر قلمه. ولكن القارىء، أكان على قرب من مصطفى العريس، أم على بعد منه، لا بد له من أن يتأثر عند قراءته الفصل « مشاكلي مع المرض ». لقد عانى مصطفى الكثير الكثير، ولكنه صمد ولم يخرّ، جُني عليه ولم يهن، لأنه كان شيوعياً جيداً. لقد كنت على معرفة بمصطفى منذ العام ١٩٣٤، وانصرمت مدة من الزمن وجد فيها هو في السجن، حتى إذا خرج، عاد الوصل، في باريس سنة ١٩٣٧، لمدة ثلاثة شهور، ثم افترقنا بعدها، فأنا شرقت باتجاه الشمال، وهو شرق نحو لبنان حتى إذا حان صيف ١٩٣٨، عدنا إلى اللقاء الذي استمر حتى وفاته، وفي جميع الأحوال كنا صديقين متفاهمين. وأعلنها شهادة حق، بأن مصطفى ما تنكب يوماً عن القيام بواجب حزبي. ولم تكن له أية مشكلة مع الحزب. وإذا كان له شيء من ذلك فمع بعض من القيادات، وكان مصطفى هو الذي على حق.

إنني أكبّر في مصطفى صفاته، كل صفاته، وفي طليعتها شجاعته، وتصديه لكل من يحاول أن يمد يده، او يطلق كلامه ضد الطبقة العاملة، ومحراب الحزب الشيوعي، وإذا ما غامر متحذلق وحاول ركوب المركب الخشن، كنت ترى مصطفى يهب كالأسد الهصور، فيتحول جسمه النحيل إلى عملاق يرعب المتطاول، ويقزم المتحذلق.

إن كتاب « مصطفى العريس يتذكر » إكمال لمؤلفي الصديق الياس البواري « تاريخ الحركة النقابية في لبنان »، وكل مناضل نقابي، بل كل مناضل وطني، يرى نفسه مضطراً لاحتواء هذه الكتب التي يقل نظيرها عندنا، فهي للمناضل زاد معاد، يعود إليها لا ليجد ما هو بحاجة إليه من

استشهادات وحسب، بل لتحسين ثقافته وقبس المزيد من التجارب الغنية التي أعطى الرفيقان الصديقان، الياس ومصطفى، الكثير الكثير منها.

إن عمال لبنان أمانة منهم لذكرى مصطفى العريس سينكبون على قراءة ما خلفه لنا في « مصطفى العريس يتذكر » الذي سيضيف ثراءً جديداً لمكتبتنا العربية.

الشيخ ميشال

على امتداد ٣٥ سنة، من العام ١٩٣٠ حتى العام ١٩٦٥، كان ميشال العازار المعروف، في الوسط النقابي بـ « الشيخ » مالىء الصرح كله. كان لولباً دائم الحركة، جزيل العطاء، مكوكاً لا قرار له، متنقلاً من مطبعة إلى أخرى، ومن نقابة إلى نقابة ليعالج مشكلة هنا، وأخرى هنا. وما أكثر مشاكل العمال في بلد كثر فيه التطاول على حقوق الكادحين، وفقدت فيه، خلال الثلاثينات وحتى منتصف الأربعينات أبسط القوانين الضامنة لحقوقهم.

لم يكن الشيخ ميشال أمين السر شبه الدائم لنقابة عمال المطابع، معالجاً لمشاكل العمال وحالاً لقضاياهم وحسب، بل وكان كاتباً صحافياً، ومؤرخاً نقابياً بحوزته الفكرية والمحفوظاتية الكثير الكثير عن تاريخ نضال ونشوء الطبقة العاملة اللبنانية، عن مشاكلها المعيشية، وتنظيماتها المهنية. وعندما كان ميشال العازار يعالج قضية عمالية في الصحافة كان يدعمها بالبراهين والحجج التاريخية الدامغة المفحمة، فلا يترك منفذاً إلا ويسده.

عندما أراجع كتابات الشيخ ميشال في الصحافة اللبنانية بعامة، وفي الصحافة العمالية بخاصة، في جرائد « صوت الشعب » و « الأخبار » و « الصرخة » و « حياة العمال » و « الثقافة الوطنية » وسواها من الصحف، اتلقف منها مزيداً من المعرفة وكثيراً من المعلومات وأصول معالجة المواضيع والمشاكل الاجتماعية للطبقة العاملة اللبنانية، أضف إلى ذلك أسلوبه الايجازي في الكتابة بحيث يريح القارىء العمالي، ولا يزيد تعباً على أتعابه. إن أطول مقالة كتبها الشيخ ميشال لا تزيد عن ثلث العامود، عن ٢٤ سطراً، إنما كانت ملأى بما يجب أن يقوله للعمال، تنظيماً وتوجيهاً وتثقيفاً.

من الناحية الصحافية تشكل كتابات ميشال العازار، أبجد صفحة لا يستغني عنها كل من أراد معالجة موضوع عمالي أو نقابي. وصديقه الحميم، رفيق نضاله على مدى ثلاثين سنة، الياس البواري، اعتمد في مؤلفيه: « تاريخ الطبقة العاملة اللبنانية » على كتابات ميشال العازار القيمة.

في أوج ازدهار الطبقة العاملة، وفي مطلع تصاعد نضالها، في فترة من أمجد فترات تحركها، خلال العام ١٩٤٦، تمكنت هذه القوة الوطنية الطليعية الرائدة، « الاتحاد العام للعمال »، وبرئاسة مصطفى العريس، من انتزاع قانون العمل اللبناني. في هذه الاثناء كان ميشال العازار اليد اليمنى

لمصطفى. وبوصفه أمين سر نقابة عمال المطابع فخر النقابات وأمين سر الاتحاد العام لنقابات العمال، ألقى معظم ما له علاقة بالتنظيم والدعاية، والاعلام الصحافي على الشيخ ميشال. كان يصل ليله بنهاره، والعكس بالعكس، منكباً على العمل، دون أن يرفض المزيد منه. وعند الشيخ ميشال تجمعت محفوظات عن تاريخ الطبقة العاملة اللبنانية وبخاصة عن تاريخ نقابة عمال المطابع شيخة النقابات المهنية، بعد نقابة عمال السكك الحديدية. جميعاً كنا نلجأ إلى ميشال العازار للتزود مما يختزنه، وما هو في حوزته من مراجع، إذا ما أردنا كتابة موضوع ما عن الطبقة العاملة في بلدنا.

أينما ذهبنا، وحيث حططنا رحالنا، كان ميشال العازار رفيقاً لنا. حلو المعشر، وسنداً في غدواتنا وروحاتنا، أنيقاً بتحضير الطاولة وبتحضير مازاواتها، وبخاصة في تحضير فنجان القهوة المغلية. شلة من ذاك الرعيل، مصطفى العريس، سعد الدين مومنة، ميشال العازار، حنا الزرقا، الياس البواري، حبيب لطيف، فؤاد ناصر الدين، اميل الشمالي، كنا عندما نلتقي، اما بعد اجتماع، أو بعد مهرجان في أول نوار، أو أية مناسبة أخرى، نؤلف «تختاً» متكاملاً. آمالنا تكبر وتكبر وتكبر، لأننا مسؤولون، مسؤولون عن التغيير. عن السعي وراء الجديد المفيد، كقانون العمل. والنضال لإقرار يوم أول نوار عيداً مدفوع الأجرة. أو للتضامن مع نضال عمال في مهن أخرى أجحف بحقهم، فاستلوا سيف الاضراب، لاستعادة الحق السليب، في أساس ذلك، ومع كل هذه النخبة كان ميشال العازار قاعدة صامدة تهزأ بالصعاب، ولا تبالي بالشدائد، والمحن. لا تنسيه قعدة على كأس، أو التمتع بسحبة نارجيلة، هموم النقابة، وموجبات العمل النقابي المهيمنة على تفكيره.

كان مقداماً في العمل النقابي، جسوراً أمام من يتطاول على حقوق أبناء طبقته. ولكنه كان بالوقت نفسه، خجولاً إذا تصدّت له أنثى، يحمرُّ وجهه كما لو أنه طفل. ولكن هذا الخجل وتلك الحال لم تستمر أكثر من اللازم، فقد تزوج الشيخ أخيراً، ورزق الأولاد. وكان ذلك حدثاً مهماً، فرح به زملاؤه. وبدون شك فرضت الحياة العائلية عليه واجبات مادية، ما كان دخله كمنضد حروف بكاف للقيام بأود العائلة، ولهذا ساءت أحواله وهو رب عائلة.

في العام ١٩٣٩، عندما شنَّ الاستعمار الفرنسي حملة ضد الشيوعيين والمناضلين النقابيين، واعتقل حنا الزرقا، وسعد الدين مومنة، اعتقل ميشال العازار وحكم بالسجن أسوة بزملائه. ومع فرج الله الحلو، ونقولا شاوي ومير مسعد، ومصطفى العريس، الذي اعتقل فيما بعد، ورشاد عيسى أمضى ٢١ شهراً متنقلاً معهم بين سجون «القلعة» و «الرمل» و «بعبدا» و «بتدين». وكان داخل السجن مثال العامل المناضل الشريف.

وبعدما خرج مع من خرج من السجن في صيف ١٩٤١، عاد لتوّه مع مصطفى العريس وحنا

الزرقا وسعد الدين مومنة والياس البواري وحبيب لطيف إلى ميدان النضال، متابعاً سيرته في الانصباب والانكباب على اعادة تنظيم نقابة عمال المطابع.

كثيرون من عمال المطابع أعطوا عبر نقابتهم الكثير من أجل ترسيخ دور النقابة ورفع مكانة عضائها. وعلى سبيل الذكر لا الحصر نذكر، رامز دميانوس، وحبيب العنكسوري، وحنا الزرقا، وطانيوس نهرا، وحبيب لطيف، وتوفيق جمال، وفؤاد ناصر الدين، وجان ثابت، ويوسف بو عمار، وعامر خداج، والعديد سواهم، وقد أصبحوا بعيدين عنا، طواهم الموت، ومعظمهم في شرخ الشباب. هؤلاء الطلائع لن تمحى ذكراهم من أفكارنا وضمائرنا. إنهم خالدون خلود الطبقة العاملة اللبنانية، خلود لبنان وما فيه من تراث وأصالة يشكلان ثروة خالدة لشعبنا.

إن ميشال العازار الذي عانى ما عانى في سنيّه الأخيرة قبل وفاته، لم يوف حقه، فقضى وكأنه انسان عادي، ربما لم يدر به إلا القليلون من غير عائلته. لهذا المناضل الكبير، لهذا الجندي المجهول حق من الواجب ايفاؤه له. حقه علينا وعلى كل زميل ورفيق له، هو بجمع ما خطته يداه ومعظمه منشور في الصحف، وبخاصة في جرائد «صوت الشعب» و «الأخبار» و «الصرخة» و «حياة العمال»، ومنها الكثير من محفوظات «الاتحاد الوطني للنقابات». إن جميع هذه المقالات، والمقطوعات في كتيّب هو أفضل ما نقدمه من انجاز لتخليد ذكرى مناضل عمالي كبير شغل في حياته مناصب قيادية في الحركة النقابية اللبنانية، إن على صعيد نقابة عمال المطابع، أو على صعيد «الاتحاد العام للعمال».

إن الاهمال الذي تعرض له ميشال العازار في فترة معينة من آخر سنيّه، مرده لوضع غير طبيعي انسحب على مختلف الميادين الحزبية والعمالية، وسواها من ميادين العمل الاجتماعي والسياسي.

إن ما فاتنا القيام به تجاه ميشال العازار وأمثاله، في حياته، من الواجب، القيام به بعد وفاتهم اجلالاً لذكراهم ولتضحياتهم وبطولاتهم.

صعلوك اسمه حنا الزرقا

حتى نهاية العقد الأربعيني من القرن الراهن، كان حنا الزرقا أمهر منضد حروف في لبنان، وأبرع مركب اتقاناً وسرعة عرفته المطابع، مالىء عالم العمال. كان عامل مطبعة، ولكنه بحكم المهمة التي أوكلت إليه سنة ١٩٣٥، كمسؤول عن المنظمة التي أنشئت لهدف تنظيم الطبقة العاملة في نقابات مهنية وهي «الكومسيون النقابي»، أصبح على تماس مع جميع العمال من أي مهنة كانوا. أضف إلى ذلك نضاله العنيف على صعيد نقابة عمال المطابع، وإقدامه مع زميله الرفيق المرحوم

رامز دميانوس سنة ١٩٣٣ على تعطيل صدور جريدة الأوريان التي أبت إلا أن تكسر الاضراب الذي أعلنته نقابة عمال المطابع، باقتحام محل الطبع والتنضيد وقلب صناديق الحروف، وبعثرة صفحات الجريدة المصفوفة وتكسير الآلات، مما عرقل صدور الجريدة. هذا العمل كان له صدى واسع في لبنان بأسره، كما وأنه شدد من عزائم المضربين. وأثار نقمة المستعمرين فشددوا نكيرهم ضد الاضراب، وقد اعتقل حنا مع رامز، وغيره من الرفاق، وحكم عليهما بالسجن.

وخروج حنا من السجن وهو أمضى عزيمة وأشد استعداداً لخوض غمار الكفاح في الميدان النقابي، لا بالنسبة لعمال المطابع وحسب، بل بالنسبة للقطاع العمالي العام. وقد أشرت إلى «الكومسيون النقابي» ومهمته كانت تتعدى إطار عمال مهنة واحدة.

كان حنا الزرقا عضواً في الحزب الشيوعي وأحد قادة اللجنة المحلية الحزبية في العاصمة.

وبحكم خبرته وجرأته، وشجاعته، وأمانته واستقامته. كان حنا المعتمد الأساسي لمطبوعات الحزب السرية، وبخاصة جريدة الحزب التي تأسست سنة ١٩٣٤ «نضال الشعب»، والقدامى في حزبنا يذكرون مستوى هذه الجريدة التي كانت تطبع على الآلة الطابعة، وأبرز عدد منها هو ذاك الذي صدر بمناسبة يوم أول نوار ١٩٣٦، وكان الرفيق نقولا شاوي رئيساً لتحريرها.

وحنا الزرقا عامل المطبعة، بدأ شيئاً فشيئاً يتحول إلى محرر صحافي. ومنذ العدد الأول لصدور «صوت الشعب» في ١٥ نوار ١٩٣٧، بدأ حنا يكتب فيها عن قضايا العمال ومشاكلهم. وتطور من محرر عمالي، إلى منشيء تقارير عن أوضاع العمال، وقد امتاز بدقة معلوماته، وصحة ما يقدمه من معطيات تتعلق بحياة العمال في كل مطبعة، بل في كل مهنة.

وحنا الزرقا إذا تحدث في اجتماع عمالي يبعث في الحاضرين الثقة. فمنطلقاته في عرض القضايا كانت واضحة، وفي جميع أحاديثه ومعطياته، وطروحاته، لم تغب عنه صفة أساسية، هي الروح الحزبية، والروح الحزبية هي دائماً صمامة الأمان.

وكانت الحرب العالمية الثانية في ٣ أيلول ١٩٣٩، وفي شهر تشرين الثاني من العام نفسه، قام الاستعمار الفرنسي بحملة إرهاب شديدة ضد الحريات الديمقراطية وتناولت في الأساس الحزب الشيوعي، والنقابات. فاعتقل العشرات، ومن بينهم حنا الزرقا الذي حكم مع فرج الله الحلو ونقولا شاوي والآخرين، بخمس سنوات سجن. وأطلق سراحه بعد مرور ٢١ شهراً على اعتقاله، فخرج مع من اعتقل وإياهم وفي طليعتهم فرج الله الحلو ونقولا شاوي، وسواهما.

وعاد حنا إلى رحاب الكفاح النقابي والحزبي. وأصبح عاملاً أساسياً في جريدة «صوت

الشعب، وبالتالي مركباً لصفحاتها. كان حلو المعشر خفيف الروح مفعماً ثقة بقدرة الطبقة العاملة، وبالحزب الشيوعي الذي أعطاه حنا كل ما بطاقته لتوسيع أطره التنظيمية وليصبح بالفعل حزباً جماهيرياً كبيراً.

في الوسط العمالي والحزبي عرف حنا الزرقا بـ «الخال»، فإذا قال أحد الخال أتى، أو الخال ذهب، أو الخال قال، عرف الكل أنه حنا الزرقا. أحب الخمرة، فانصاعت له. ومهما كان «الخال» مضطرباً، وبائساً، فإذا ما تناول كأس عرق، عاد إلى سجيته المرحة، وعادت البسمة إليه، وراح يزت النكات، ويركب الأهوال الشداد.

ذات مرة سلمه كبيرنا فرج‌الله الحلو ترتيب مقالات وأخبار الصفحة الأولى من «صوت الشعب». ويبدو أن خبراً كان وارداً في موضع في أعلى الصفحة نقله حنا إلى أسفله، لأن التركيب لم ينطبق مئة بالمئة على الترتيب، أو أنه يلزمه بعض الجهد. أتى فرج‌الله لمراقبة الصفحة بعد تركيبها، فرأى التغيير فيها. قال لحنا أعد هذا الخبر إلى المكان الوارد في «ترتيب» الصفحة، فأخذ حنا يساوم عله ينجح بابقائه حيث وضعه. ولما يئس أمام تصميم فرج‌الله، قال يا رفيق «راح طلعلك الفرق بجسم الحرف». أي أنه يضع عنواناً للخبر بحرف كبير ربما حجم ٤٨. ولكن فرج‌الله أبى وأصر على نقله لأن الناحية السياسية تفرض ذلك، فنقله الخال إنما قال، يا رفيق هذه بدها بطحة. وعلى الفور أعطى فرج‌الله التعليمات لتنفيذ ما طلبه حنا.

حنا الزرقا العامل المقهور، أصبح كاتباً صحافياً ينشىء المقالات، ويدبج الأخبار كما لو أنه من ممتهني التحرير في الصحافة.

وتحت عنوان «العمال ينتظرون تشريعاً للعمل»، كتب مقالة في عدد صوت الشعب الصادر في ٣١ كانون الأول ١٩٣٧ جاء فيه:

لقد أعطي اخواننا عمال الافران والبناء ومعاونو الصيادلة حقهم في المنظمات المهنية. أما عمال المطابع ما زالوا محرومين من ممارسة حقهم النقابي المشروع منذ سنة ١٩٣٣، وقد قاموا باضرابات ومراجعات عديدة لأجل الغاء القرار الذي حل نقابتهم على عهد الرئيس الدباس ولم يجابوا إلى الآن إلا بالوعود. وختم الزرقا مقالته بالقول: فهل رجال الحكم الوطني بعد كل ما أبداه العمال من النيات الحسنة نحو هذا العهد، أن يكون أول مرسوم في مطلع العام الجديد «بسترينه» تشريع العمل؟.

وعندما زار النائبان الشيوعيان الفرنسيان جاك غريزا وفيرجيل باريل لبنان سنة ١٩٣٨، اتصلا بجميع الأوساط الشعبية والثقافية واطلعا على أوضاعها وسجلا العديد من الملاحظات

والشكاوى التي رفعها إليهما المواطنون، وكلها تستنكر مظالم الانتداب الفرنسي، وتشكو تصرفات ممثليه.

وكان الرفيق حنا الزرقا، عضو مجلس نقابة عمال المطابع مطلعاً جيداً على أوضاع العمال، وما يعانونه من ظلم وتعسف وحرمان، أنشأ مقالة بشكل كتاب مفتوح، في « صوت الشعب » نشرت افتتاحية بعنوان: « من عامل لبناني إلى النائبين الافرنسيين » قال فيها:

أيها الرفيقان غريزا وباريل:

أتيتما إلى هذه البلاد في وقت نحن فيه بأشد الحاجة إليكما، كي تريا بعيونكما وتسمعا بآذانكما ما يقاسيه أبناء هذا الشعب وخاصة الطبقة العاملة من آلام وعذابات وجور وضغط وإرهاب وهضم حقوق الطبقة العاملة التي لا يمكن أن يبنى استقلال ثابت، وسيادة وطنية دون أن تنال قسطاً من حرية وتنظيم وحقوق.

وقد رأيت أنا ابن الطبقة العاملة اللبنانية المظلومة والمحرومة ممارسة أقل حق من حقوقها التنظيمية. إني أرسل إليكما هذا التقرير، بشكل كتاب مفتوح ليكون في جملة الوثائق والمعلومات التي جمعتماها، وليطلع عليه المسؤولون الحقيقيون في هذه البلاد، عما تعانيه الطبقة العاملة اللبنانية من جراء الضغط المستمر عليها لقتل كل روح وطنية تقدمية فيها، وللعمل على دفعها إلى اليأس في هذا الدور الوطني الجديد.

أجل إن أبناء الطبقة العاملة في لبنان محرومون من كل الحقوق التنظيمية التي بدونها لا يمكنهم، إلى حد ما، أن يخففوا من هذه الأزمة الخانقة التي تكاد تقضي عليهم وعلى عيالهم وأطفالهم جوعاً.

إن الطبقة العاملة اللبنانية ما برحت منذ عشرات السنين تناضل لحمل السلطات المسؤولة على سن تشريع يخفف من شقائها ويحميها من تحكم بعض أصحاب الأعمال، ومن اضطهاد الشركات الأجنبية.

إن الطبقة العاملة محرومة من كل شيء، محرومة حتى من الكلام والاجتماع، والتظاهر والتنظيم. وبرهاناً على ذلك أوجز لكم الحوادث التالية التي لا يمكن دحضها وعدم الاعتراف بصحتها.

ويورد حنا الزرقا في « كتابه المفتوح » إلى النائبين غريزا وباريل، عشرات الأحداث التي تؤكد تعسف السلطات ودوسها حقوق العمال، وتعطيلها الحياة النقابية. كما يورد لائحة بأعداد عمال المهن في العاصمة المحرومين من حقهم في التنظيم النقابي. وأشار الرفيق حنا الزرقا، إلى ما قامت به السلطات ضد المحتفلين بيوم أول نوار.

وأنهى الزرقا « كتابه » بالقول: هذا شيء قليل من كثير مما أقدمه لكما تاركاً ما يقاسيه إخواني عمال لبنان من ويلات وجوع وطرد من العمل وإصابات وتشريد لهم ليقدموه في تقاريرهم ومقابلاتهم معكما.

وقال: وغداً عندما تعودان إلى فرنسا اشرحا لأخواننا العمال ما يقاسيه عمال لبنان، واطلبا منهم أن يناضلوا معنا لنيل الحريات لنتمكن بواسطتها من تنظيم أنفسنا ولنقف وإياهم جنباً إلى جنب لإهراق آخر نقطة من دمائنا في محاربة الفاشيستية وللدفاع عن الديمقراطية في لبنان وفرنسا والعالم ».

صوت الشعب ١٩٣٨/٥/٢٨

ولما بدأت الردة الرجعية في لبنان سنة ١٩٤٨، وانتضت حكومة رياض الصلح في عهد الشيخ بشارة الخوري سيف الإرهاب وأقفلت مكاتب الحزب الشيوعي، وراحت تنكل بالحرية النقابية، وصدقت نفسها أنها « دولة محاربة » لاشتراكها في الحرب ضد إقامة دولة إسرائيل في ١٥ نوار ١٩٤٨، وأعدت معتقلاً للشيوعيين وسواهم من المواطنين والنقابيين، كان حنا الزرقا واحداً من الرفاق الثلاثين الذين ضمهم معتقل بعلبك. انتزع حنا من عمله في المطبعة وهو صاحب عائلة لا معيل لها سواه، ورمي مع ثلاثين شيوعياً، بينهم المحامي، والطبيب، والصحافي، والأديب لماذا؟ لأنه لم يعمل شيئاً فرياً. وتسنى لي بعد افتتاح المعتقل بـ ٤٥ يوماً أن اعتقل وأوضع فيه. كان ذلك في أول تموز ١٩٤٨. وما كدت أصل إلى قاووش الرفاق حتى هب حنا الزرقا يقبلني ويرحب بي وكأن كابوساً أزيل عنه. لماذا فعل حنا ذلك؟ لا لشيء اللهم إلا أنني كنت مزاملاً له منذ العام ١٩٣٥ يوم عملت في منظمة بيروت الشيوعية. ولأنني كنت ممن ساهموا بنشاط في حملة الاحتجاج، وجمع المساعدات له ولرامز دميانوس عندما اعتقلا، في أثناء إضراب عمال المطابع، سنة ١٩٣٣. كانت بيننا بالإضافة إلى الرفاقية، صداقة متينة. وأزال وجودي عن حنا غيوماً تراكمت أمامه، وعادت البسمة والنكتة إليه، ولم يرفض طلباً طلبته منه أو ملاحظة قدمتها له. وأنا كنت أعرف شعوره وأدرك متطلباته. وفي الاضراب الأول الذي أعلناه وخرج حنا على أثره مع من خرج من المعتقل، أبدى حنا صموداً قدره جميع الرفاق المضربين، وخرج من المعتقل والدمعة في عينيه لأنني وبعضاً آخر من الرفاق بقي رهين الاعتقال.

وما كاد حنا يعود إلى بيروت ويتسلم عمله في المطبعة، حتى عاد إلى نشاطه النقابي مبدياً مزيداً من العزم والصلابة. ولكن الداء لم يمهله فقضى في منتصف الخمسينات كادحاً لا يملك شروى نقير، كما عاش كل حياته، هو والكدح صنوان.

نعم كلما رأيت حنا أو زرته في بيته، كنت أرى الكدح بأشد صوره إيلاماً. قضى حنا الزرقا، ولم يترك لا ثروة في مصرف، ولا بيوتاً، ولا أراضي، بل ترك ثروة أسمى، وأثمن من ذلك

بكثير. ترك ولدين رفيقين سارا على هدى خط والدهما. ويكفينا اعتزازاً بموقف الياس المعبر أصدق تعبير عما كان عليه والده « بو لياس » عندما بلغ سنة ١٩٧٦ السوداء، بأن ولده استشهد على أحد المحاور، في النضال ضد تقسيم لبنان وللدفاع عن الثورة الفلسطينية، فبكل هدوء وجلد قال الياس، لقد قام بواجبه، وهذا يعزيني ويعزيكم.

حنا الزرقا هو، لا غصناً في « السنديانة الحمراء » بل شرشاً من شروشها. وإذا أردنا أن نقدر الرفاق على ما قاموا به خلال مسار حياتهم في تنفيذ المهمات، وعقد الصلات بالجماهير، فحنا الزرقا يحوز على القدح المعلى، كان حنا ضمير نقابة عمال المطابع. ضمير « الكومسيون النقابي »، ضمير كل مهمة يكلفه بها الحزب. ولكن إذا ما أهمل ذات يوم وغيب عن ضمير الحزب، فهو الآن في ضمير حزبنا، ضمير مناضلينا في كل ميدان من ميادين النضال.

وحدتكم هي القضية الأساسية
في الحركة النقابية

إن القضية الأساسية في الحركة النقابية هي المحافظة على وحدة هذه الحركة، والسهر على منع كل محاولة، من أي جهة كانت، ترمي إلى إدخال الخلاف والتطاحن بين العمال. فيا إخواني العمال حافظوا على وحدة حركتكم النقابية، صونوها كحدقات عيونكم وابعدوا من بينكم ومن حولكم كل من يعمل على تفرقة صفوفكم وزرع الخلاف فيما بينكم، إن قوتكم باتحادكم ووحدتكم والتفافكم حول اتحاد عام واحد للعمال في لبنان.

يا عمال لبنان، إن عليكم واجباً وطنياً عظيماً، فوحدة نقابتكم هي أساس الاتحاد والاخاء الوطني بين اللبنانيين، وهي أيضاً عامل عظيم من عوامل التطور والديمقراطية في لبنان، وهي عامل من أكبر عوامل التعاون والتضامن بين الشعوب العربية، في سبيل الاستقلال والسيادة والتحرر من الاستعمار. ووحدتكم هي أساس رقيكم ورفع مستواكم واحترام كرامتكم وتحقيق مطالبكم فاحرصوا على وحدتكم كما تحرصون على نور عيونكم.

من خطاب لفرج‌الله الحلو أمام عشرين ألفاً في الدورة في يوم أول نوار سنة ١٩٤٦.

سليم الدبس
الوداع الأخير والكلمات الأخيرة

صبيحة الاثنين ٢٢ تشرين الأول كنت عند سليم الدبس في غرفته بالمستشفى، دخلت عليه برفقة ولده الاستاذ عصام. وكان مستلقياً على سريره ففتح عينيه... ملتفتاً نحوي. قال له عصام، هل عرفته؟ إنه يوسف خطار.

ولتوه قال لولده، خذ بيدي، وقعد، ثم نزل من السرير وجلس على كرسي وقال، كيف حالكم، كيف العيلة، كيف الأولاد؟ وكان في حالة طبيعية. لقد شعرت وهو يتحدث إلي، وكأنني معه في محله في شارع المرفأ، خلال الأربعينات، أو في بيته في الخندق الغميق، يستمع إلي واستمع إليه. يأخذ مني ويعطيني أكثر مما يأخذ، فمن شيمه الكرم والعطاء، وهما صفتان اشتهر بهما طول حياته المديدة.

وصبيحة يوم الاربعاء ٢٤ تشرين الأول، وفي أثناء تصفحي لجريدة «النداء» إذ بي أرى النعي المؤلم لسليم الدبس «أبو زاهي» فسرت لتوي إلى منزله مقدماً التعازي لأولاده الأعزاء الخلص، عصام وخليل، ووداد.

عن عمر تخطى الثماني والثمانين سنة توفي الرفيق سليم الدبس. منها ٧١ سنة قضاها معاركاً من أجل إحقاق حق الانسان، وبخاصة الانسان الكادح الذي يأكل خبزه بعرق جبينه. إن الدفاع عن حقوق الشغيلة كان أقنوماً له، فعنه ما حاد، ولا وارَبَ ولا انكفأ. وإلى سليم الدبس الفتى الأملود ابن الثماني عشرة سنة يعود الفضل في رفع شأن العمال في «مشغرة» ومعظمهم يعملون في المدابغ... ففي العام ١٩١٧ أخذ جانبهم، بالرغم من أنهم كانوا يعملون في معمل لوالده واشقائه. فقد زرع سليم فيهم فكرة المطالبة بتحسين حالهم، بزيادة ما يتقاضونه من أجور.

وسليم غير متضلع في العلوم حتى الثانوية منها، إنما بفضل ما كان عليه من إدراك لدوره كموجه للمحرومين والبؤساء، كان يطالع كثيراً، وبخاصة الأدباء الكلاسيكيين الروس، مثل تولستوي وسواه. وقد سمع بالأخبار عن ثورة أكتوبر الاشتراكية فتأثر بها، تشير إلى ذلك مواقفه اللاحقة، واعتزازه برموزها، الطبقة العاملة، العلم الأحمر، الفلاحون إلخ...

وتنقل سليم في أعمال شتى، غير معامل الدباغة. ففي العام ١٩٢٥ أنشأ مطعماً في «مشغرة». وكان دائماً يجالس أحد عناصر الدرك في البلدة ويدعى مخايل بو عينين. وكانا يتجاذبان الحديث، حول الظلم والاستعمار والتغيير، وحقوق العمال، ودور النقابات إلخ...

بعد ذلك أسس دباغة لحسابه في مشغرة. ولكن الحال لم تساعده فباعها وانتقل إلى بيروت حيث أسس محلاً تجارياً لبيع مواد السكافة. وهنا، بحكم علاقاته الواسعة، أصبح محله في شارع المرفأ، محراباً للمناضلين. ولما لم يعد يتسع هذا المحل للعمل التجاري، وللمناقشات السياسية صنع تتخيتة أصبحت لاحقاً المكان المعد لاستقبال الزوار السياسيين، أما الذين يقصدونه من أجل الأعمال التجارية، فكان مكانهم الطابق السفلي. ولطالما أربك هذا الترتيب المرحوم رفيق الدبس، فهو من جهة نصير للمناقشات السياسية، ومن جهة حريص على سمعة المحل التجارية.

في هذا المحل كنت أزور المرحوم سليم ثلاث مرات بالأسبوع، أزوده بما عندي من أخبار، ويزودني بالكثير من المعلومات المتوافرة لديه كتاجر في أكثر أسواق بيروت أهمية.

وإذا عدنا لسنوات سابقة. لأواخر الثلاثينات. نجد أن سليماً كان واحداً من الجيش الثوري اللبناني، جيش العمال والمناضلين ضد الاستعمار والاستثمار المحلي. عندما استحصل الرفيق نقولا شاوي على رخصة بإصدار جريدة «صوت الشعب» سنة ١٩٣٧، وجب عليه أن يقدم كفالة مالية نقدية بـ ٥٠٠ ليرة، وهذا المبلغ كان يعادل مئات ألوف الليرات اليوم، ولم يكن للحزب إمكانية الحصول عليه. هنا طرق الرفيق نقولا باب سليم الدبس فكان الجواب هو صرّة فيها ٥٠٠ ليرة.

وعندما انتهى عهد فيشي وعاد رفاقنا من السجون وفي طليعتهم فرج‌الله ونقولا فتح سليم الدبس أبواب منزله في الخندق الغميق لاستقبالهم ومضافتهم وعندما كنا نلتقي هناك، كان الحبور والفرح يبدوان على محياه.

وسليم كأب ليس كبعض الأباء الذين يعملون لإبعاد أولادهم عن محراب النضال، بل إنه كان يفتش، بل يبتكر الوسائل التي تحبب أولاده بالحزب الشيوعي، وبأساليب النضال التي يتبعها. وكم من المرات والحالات، التي تحول فيها منزله إلى مركز لقاءات دائمة لقيادات الحزب.

حدثني نقابي مخضرم عن سليم قال، سنة ١٩٤٠ وفي أثناء اضراب في مشغرة قتل قضاءً وقدراً، شخص مسيحي، راح دعاة السوء ومنهم بعض أصحاب الدباغة يعملون، بدافع من الإدارة الاستعمارية، لإعطاء القضية حجماً طائفياً. هنا راح سليم الدبس لعند خوري الرعية وطلب إليه التدخل السريع لحل الاضراب كي يفوت على الصائدين بالمياه العكرة ما يصبون إليه. وقد استجاب الخوري لطلبه، وسدت ابواب كان سيئو النية يعملون لفتحها.

ولطالما لقن سليم اولاده افكاره. ويذكر في مجال ذلك ما كان يعلمه لخليل وكان لا يزال طفلاً قوله:

وهذي راية حمرا
على أكتاف وادينا
رفاق حولها التفوا
فلا نخشى السراجينا
لنا النصر فلن نبقى
على هذا الأسى الماثل
لنا النصر، فها فلاحنا يشقى

لنا النصر ، ويشقى مثله العامل
رَسَم الموت ماضينا

ومجالس سليم الدبس ممتعة، طريفة، غنية في مباحثها، عميقة في جذورها، بعيدة في تطلعاتها.

ثوري بأفكاره وبممارساته، ومعاطاته مع الناس. الصدق دينه والاخلاص ديدنه والثبات عقيدته. عاش كهولته وشيخوخته وكأنه فتى املوداً، تسربل بالشيوعية فالبسته لباسها، فكرياً ومادياً. إن أمتع وأحب ما كان يتوق إليه، نصر يحققه الاتحاد السوفياتي لخير الانسانية: وأقبح المقابح على مسامعه، اعتداء ترتكبه الامبريالية على أي بلد في العالم، ناهض الفاشية فأعطى ما بقدرته لعدم إقامة موقع قدم لها في لبنان. وتعلق بالديمقراطية فارتهن لها وما كان ليضنَّ بغالٍ عليها.

الوداع يا سليم يا عشير عمر على مدى ٤٣ سنة. ولنا، نحن بأولادك الشجعان، ما كان لنا بك. إنهم خير خلف لخير سلف. وغالباً ما تنبت الشجر العروق، إنهم لخير شجرةٍ لخير عرق. أرقد قرير العين يا من لم تعرف في حياتك الرقاد، فالقافلة سائرة على الدرب القويم، وإبرة الاتجاه سليمة.
أواخر تشرين الأول ١٩٨٤

أوراق من تاريخنا
فوزي الشلق
المهمات الصعبة

فوزي الشلق، ومن هم على غراره، لن يكونوا، ولا يجب بأية حال أن يكونوا، من مهملات التاريخ، منسيين، وكأن وجودهم كان صدفة.

فوزي الشلق لا يعرفه الكثير من الجيل الوطني التقدمي والشيوعي الجديد. فمن هو فوزي هذا؟

إنه مهندس من دمشق، عمل موظفاً في البلدية وكان مثال الاستقامة، والصدق، والتهذيب، ومن أبرز صفاته أنه كان عضواً في الحزب الشيوعي السوري. وبحكم وضعه الاجتماعي كابن عائلة ميسورة الحال نسبياً، لم تكن «الشبهات» متجهة نحوه كمناضل في الحزب، وهذا ما أفاد الحزب كثيراً حيث استعمل منزله لإيواء بعض قادته المتوارين عن الأنظار في ظل الهيمنة الاستعمارية سنة ١٩٤٠ - ١٩٤١. وحتى ذلك الحين كان المهندس فوزي الشلق لا يزال سريّاً، لا يكلف بأعمال علنية تعرّضه للملاحقة والاعتقال، حتى للشك في مواقفه من قبل السلطات.

وقبل بروز فوزي الشلق كمناضل شيوعي، برز اسم شقيقته مقبولة، وكانت لا تزال طالبة عندما مثلت طلبة دمشق في المؤتمر الأول لمكافحة الفاشيستية المنعقد في ٦ و ٧ نوار سنة ١٩٣٩ في بيروت.

وبعدما دخلت الجيوش الحليفة (الانكليز والفرنسيون الاحرار) إلى سوريا ولبنان في أواخر شهر حزيران ١٩٤١، وطردت القوات «الفيشية» منها، استعاد الحزب الشيوعي في البلدين حقه بممارسة عمله العلني، وكان قد أخلي سبيل الرفقاء المحكومين بخمس سنوات سجناً في المحكمة العسكرية الفرنسية، بعد ذلك بدأت العلاقات مع فوزي الشلق تتسع دائرتها، وتتعمق جذورها. وكثرت مشاويره مع شقيقته مقبولة إلى بيروت، وأقام صداقات مع الكثير من العائلات الشيوعية في بيروت، وانطلياس، ومحطة بحمدون، وزحلة، وفي جميعها كان فوزي محتشماً أنيقاً، ملؤه التهذيب مما حببه إلى الكثيرين في لبنان الذين اصبحوا يستمتعون بمجالسته، وبخاصة في أثناء رحلات يوم الأحد.

لقد كان فوزي بالنسبة إلينا نحن «صعاليك» ذاك الحين وبحكم وظيفته قادراً على شراء ما يريد، وعلى الجلوس في المطاعم، والقيام بواجب ما يتطلبه الحصول على «المدقة» مع مازاواتها.

وحسب العادة المتبعة، وهي لم تكن بنظري حكيمة، ولا رشيدة، سُحب فوزي من وظيفته في بلدية دمشق، ليكون متفرغاً في الحزب. وقد قبل فوزي بما كلف به، ولكنه أصبح عبئاً على عائلته من الناحية المادية. وبعدما تجذّر في العمل الحزبي، وبالنسبة لكثرة المهمات الملقاة على عاتقه، رافقه الطفر. ولكنه قبل به ككل مناضل في سبيل انتظام السير نحو تحقيق الهدف الأكبر، ألا وهو الاشتراكية، وما تتطلبه من مهمات نضالية عنيفة.

وعندما تأسست «جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي في سوريا ولبنان» سنة ١٩٤٢، وبعدما أصبحت معروفة جيداً، وازداد نفوذها، انضم فوزي إليها وأصبح يعمل سكرتيراً لها. فنظم شؤونها، وأقام لها أوسع العلاقات مع شخصيات وطنيّة عديدة. كما وأنه أنشأ مجلة اسمها «اصدقاء الاتحاد السوفياتي» تصدر عن الجمعية في دمشق.

في السنوات العجاف ١٩٤٨ - ١٩٥١ كان فوزي يعمل في الحزب في بيروت ومهمته الأساسية لم تتعد الصلات بين هذا الرفيق المختبيء أو ذاك. خذ ورقة، وجيب ورقة جواباً عليها. جيب فلان إلى هنا. وخذ فلان من ذلك المكان، إلى مكان آخر.

وفي ذلك الوقت لم يكن النقل بالسيارات متوفراً، والركوب في سيارات (السرفيس) لم تكن سلامته مضمونة، لذلك كان فوزي مضطراً لقطع الكيلومترات يومياً مشياً على الأقدام. ولطالما

رأيته منهك القوى، ونعل بوطه مثقـوباً من جهة، والفرعة « قابعة » عن النعل من جهة أخرى. وبالرغم من قساوة هذه الحال، استمر فوزي في تنفيذ المهمات المكلف بها. ولكن عندما ترفق هذه الحال السيئة بـ « بهدلة » من مسؤول و بـ « عيطة » صاخبة من سواه، فلا تمشي الأمور، و « كل عود فيه دخان » كما يقال، هذه الحال، وذلك السلوك الذي اتُّبع مع فوزي الشلق الذي لم أر رفيقاً أكثر تفانياً، وانكباباً على العمل منه، لم يقبل به فوزي، في نهاية المطاف، ترك بيروت وعاد إلى دمشق بعدما كان قد تزوج ورزق أولاداً.

ومنذ تموز العام ١٩٥١، لم أعد اسمع شيئاً عن فوزي الشلق. في ذلك الوقت، دخلت السجن ولم أخرج منه إلا في أيلول ١٩٥٢، واختفى اسم فوزي الشلق الذي كان مع اسم شقيقته مقبولة ملء الاسماع في سوريا ولبنان.

ومنذ سنوات قليلة، سألت عنه فقيل لي إنه توفي، نزل عليَّ الخبر بألم شديد، وحسرة عميقة، لأن فوزي الشلق، كان شيوعياً جيداً، حرّاً مستقيماً، مندفعاً، وبفضل سلوكه الحميد، شملت عائلته جميعها مسحة من الشيوعية. فالكل، إن لم يكونوا أعضاء في الحزب، إنما كانوا اصدقاء لـه. وهكذا يفعل الشيوعي الجيّد الذي يفرض بسلوكه الحميد على من يتأثرون به، أن يحبُّوا الحزب، ويحترموا مبادئه.

كان فوزي شجاعاً، ويسير إلى تنفيذ ما يطلب إليه دون أن يخشى شيئاً. وعندما كانت زوجة الشهيد فرج الله الحلو في وضع يتطلب نقلها إلى المستشفى لاجراء الولادة، وكان فرج الله في وضع لا يمكنه فيه أن يقوم هو بهذا الواجب، وأنا لم يكن يسمح لي بذلك لأن أهل الحي الذي تسكن فيه فيرجيني يعرفونني جميعهم. عندها قال فوزي سأذهب بذاتي وأقوم بالمهمة، وبالفعل ذهب وبسرعة نقل فيرجيني إلى المستشفى وبعد ساعات تمت الولادة.

أنا لن أنسى فوزي الشلق، والعشرات من الرفقاء اللبنانيين الذين عرفوه عن كثب، لن ينسوه. فهو وأمثاله لا يُنْسَون، ولا يمكن لأحد أن يتناساهـم، لأنهم خـالـدون بـأعمالهم، بتصرفـاتهم، بعاطاتهم مع الرفقاء والناس عموماً. الخلود لك ولأمثالك يا فوزي. والحجر الذي وضعته يداك في مداميك الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا، سيظل شاهداً على ما قدمته من جهد، وما أسديته من فضائل في المهمات الصعبة. وما ساهمت في بنائه في صرح الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية سيظل موطد البنيان، قويّ الأركان لن تنال منه همهمة هنا، وغميمة هنا. إن الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية أصبحت راسخة رسوخ الكون، شامخة شموخ الانسان.

يوسف خطار الحلو

زاهي الدبس.. الينبوع والالتزام

إثنان لو بكت الدماء عليهما ... عيناي حتى تؤذنا بذهاب
لم تبلغ المعشار من حقيهما ... فقد الرفيق وفرقة الأحباب

وكيف إذا كان هذا الرفيق هو زاهي الدبس أو قل النبوغ والالتزام، الصدق والإخلاص، الديناميكية والحزم، جيمها ليست إلا جزءاً مما اتصف به زاهي الدبس سليل ذلك البيت الكريم، الذي شرع أبوابه منذ منتصف الثلاثينات للمناضلين ضد الاستعمار والصهيونية، للعاملين من أجل التغيير، بيت سليم الدبس.

عرفت زاهي الدبس في العقد الأول من الخمسينات. وكان أقرب المقربين للرفيق المناضل الكبير انطون ثابت. كانت ثقة انطون بزاهي كبيرة. وعلاقته به وطيدة، وكان زاهي السند الأكبر لأنطون، إن في نقابة المهندسين، أو في المعارك التي خاضها انطون مرشحاً عن الدائرة الثانية في بيروت سنة ١٩٥٧.

إننا افتقدناك يا زاهي. ومع امتداد الأيام وازدياد الصعوبات، سيكون افتقادنا أشد وأكبر. فمعركة شعبنا كبيرة وطويلة ومن مثلك يفتقدون في الملمات والصعاب. لقد عشت مناضلاً لا بقلمك وفكرك وعطاءاتك العلمية وحسب، بل بقواك الجسدية أيضاً. إن حرصك على تنفيذ المهمات الكبرى الصعبة التي تفرضها خطة الحزب، كان وسيبقى مثلاً يحتذى.

لم تبق علاقتي بزاهي مجرد تعارف في مكتب انطون ثابت، بل أصبحت تزداد قرباً وتوطداً. وإن ما كان يتصف به زاهي الدبس لا تطلعاته البعيدة الرؤيا، ولا ادراكه السياسي وحسب، بل نظرته النقدية البناءة. وهذا ما كان يعكس التزامه المبدع الخلاق بالحزب. إنها صفة مميزة في الفقيد قدرها لا رفاقه وحسب، بل جميع عارفيه من أساتذة وتلامذة ومهندسين ورجال فكر وعلم وقلم.

عندما كنت أتناول في كتاباتي بعض الأحداث المرتبطة بتاريخ الحركة الشيوعية، والنضال ضد الفاشية، والحركة العمالية العالمية، كنت مضطراً بالضرورة، أن أقول، هل إن ما أكتبه هو الحقيقة، وإذا لم يكن كذلك، فالويل لي من الرفيق زاهي، ماذا سيقول لي، ويقول عني. كان مرجعاً لنا ومعطياته كانت دائماً مصداقة تفوح منها روح حزبية سامية، وبسمة مرافقة لجديته.

وصدق اليازجي إذ يقول:

الناس للموت، كخيل الطراد ... فالسابق السابق منهم الجواد

ولكن الوطن، الشعب، المصيبة، المبتلاة بها شعوبنا، التطاول على قدسية تاريخنا، أي نضال

شعبنا، هو بحاجة إليك وأمثالك يا زاهي، يا سليل بيت سليم الدبس الذي ما انتشى يوماً، نشوته لنصر تحرزه الحركة الوطنية، والنضال التقدمي، والحركة الاشتراكية في العالم.

إن ألمنا كبير، ولوعتنا أكبر وأشد ايلاماً. ولكن عزاءنا هو بما أرثته لنا من تقاليد وصفات ثورية ستبقى اسفاراً خالدة لمدرستنا الخالدة.

الوداع يا مناضلاً من مناضلينا، يا وديعاً من ودعائنا، يا مدرسة في التفكير الجدي، والعطاء المجدي لما فيه مصلحة حزبك وتزويده بما أرثه شعبنا من كنوز ستبقى مضاءات تلهم المناضلين ضد الاستعمار والصهيونية في مسارهم الشاق لتحرير وطننا وشعبنا من آفاتها.

وإليك أيها الصديق العزيز القديم، يا رفيقنا أبا زاهي، إلى جميع أهل هذا البيت الكريم، إلى الرفيق العزيز خليل أحر التعازي على المصاب الجلل الذي ألم بهم.

الوداع يا زاهي، وسنظل نحن، عائلتك الكبرى على الرسالة محافظين، وعلى الأمانة قيمين. وأنت الغائب الحاضر ستبقى في ضمائرنا مقيماً وعلى ذرى السنديانة الحمراء، بيرقاً أحمر خفاقاً يتمايل مع النسمات اللبنانية. متصدياً للرياح العاتية. اطمئن فإن الصاري في أيد أمينة مخلصة، وهذه هي امنيتك فنحن عليها محافظون.

النداء /١٩٨١/٧/٣

إلى أكرم عويضة
يا أصلبهم عوداً وأكرمهم خلقاً

أكثر من نصف قرن، وتحديداً ٥٦ سنة، انقضت على انضمام أكرم عويضة إلى الحزب الشيوعي.

ست وخمسون سنة أمضاها أكرم عويضة في «الميناء» مشدوداً إلى أبنائها، صيادي البحر، وشغيلة البور، وجميع العاملين لكسب قوتهم بعرق جباههم. محله للخياطة، إن في «السوق القديم» في الميناء، أو في محلة «التل» بالبلد، حركة دائمة بالزوار، هذا أتى من عكار وهذا من «الزاوية»، وآخر من «الجبة» وسواه من «الكورة»، إلى العديد من أحياء «البلد» و «الميناء»، أتوا حاملين معلومات إلى أكرم وشقيقه المرحوم سامي، لإيصالها إلى «صوت الشعب» أو إلى «الصرخة» أو «الاخبار» و «النداء»، وفي الوقت نفسه ليتزودوا بالتعليمات الموجهة إليهم من قيادة الحزب عبر أكرم.

مزاراً محله كان، ومضافة. ومن لم يجده فيه يتجه تواً إلى منزله، في النهار أو في الليل، فكان

أكرم يستقبله والبسمة تطفح على محياه، وبالكلام اللطيف الحسن يتعاطى معه.

لم يهن أمام إرهاب. ولم يتقاعس عن القيام بمهمة كلف بها، فكان بذلك نموذجاً لسواه من الشيوعيين الذين أحبوه فاعتز بهم، وساندوه، فكان ملاذاً لجميعهم.

عرف السجون مراراً، آخرها اعتقاله في ١٥ نوار سنة ١٩٤٨ مع عشرات الشيوعيين في طرابلس والشمال وسائر مناطق لبنان، ووضعه معهم في معتقل بعلبك. وهناك كان مثال الانضباط والاستقامة والخلق النبيل. اشترك في الاضرابات التي أعلناها عن الطعام من أجل استرداد حريتنا وإطلاق سراحنا. وآخرها استمر سبعة أيام بنهاراتها ولياليها، كان أكرم خلالها مثال الشجاعة والبسالة.

في العام ١٩٧٤، كان أحد قدامى الحزب الذين سافروا إلى الاتحاد السوفياتي بدعوة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي للاطلاع على منجزات الاشتراكية التي بناها العمال. وقد أثر فيه ذلك المشوار كثيراً، وأعطاه دفعاً إضافياً في نشاطه ونضاله.

بفقد أكرم عويضة، نفقد آخر شيوعي طرابلسي قديم انضم إلى الحزب سنة ١٩٣٠. إن ما أسسه أكرم عويضة مع رهط من زملائه، نعمة قاروطه، سليم خياطة، جورج ساعاتي، الدكتور سميح علم الدين، وهيب القوزي، ديب أمين، وسواهم، تنمو شجرته في «الميناء» و«البلد»، بأجيال جديدة من المناضلين الأكفاء في حدبهم على صيانة البستان الثوري في طرابلس والشمال.. على يد ثوار ومقاومين ومناضلين يكملون مشوار الرواد العظام وكفاح الشهيد الكبير أبو حسن المير الأيوبي.

جال أكرم في لبنان كله وفي بلدان عربية كثيرة، وفي الخارج، ولكن الأحب إليه كانت «الميناء» مسقط رأسه، ومرح شبابه، ومحراب نضاله الشيوعي. وأبناء «الميناء» من منهم توارى ومن لا يزال على قيد الحياة، قدروا لأكرم مصداقيته، واحترموا استقامته. فمع المتوارين سيكون أكرم خالداً، ومع الباقين سيبقى في الضمائر رفيقاً ملتزماً، شجاعاً، يقتدى بمواقفه.

باحترام أتقدم من رفقاء أكرم في الشمال ومن عائلته الكريمة بأحر التعازي.

أكرم عويضة توفي في ٢٤ حزيران ١٩٨٦

النداء ٢٦/٦/٨٦

صامت من صور اسمه سميح الصعيدي

كانت صور ولا تزال قلعة للوطنية، ومصهراً للرجال، ومقلعاً للمناضلين. هذه الميزات

جعلت من صور على مدى تاريخها خلية نحل، لا تكل ولا تمل، لم يثنِ أبناءها عن عزمهم تهديد، ولم ينفع في تغيير اتجاه مسارهم ترهيب.

هذه الصفات جعلت من «صور» في أثناء الثورة السورية ١٩٢٥- ١٩٢٧ محراباً للنضال بمختلف أشكاله. وقد أزعج تحرك المناضلين الصوريين الاستعمار الفرنسي، ورداً على المقاومة الوطنية عمدت سلطات الانتداب إلى توجيه حملات إرهاب مستمرة ضد المدينة، وعملت لتدميرها بجميع الوسائل. فقد جردتها من أجمل وأبرز منظر طبيعي تمتعت به، ومن النادر أن يتمتع به شاطىء لبنان، عمدت سلطات الانتداب إلى قطع الأشجار التي كانت تشكل غابة كثيفة بين المدينة والبحر. هذه المساحة التي أصبحت جرداء كانت مكسوة بالاشجار الغضة التي تسبغ على صور جمالية لا نظير لها، قطعها المستعمرون لأن الثوار الوطنيين كانوا يختبئون تحت أفيائها. وتلا ذلك فرض شتى أنواع الحرمان، على صور، واعتبرت حسب التعريف الانتدابي من المناطق المسماة «انتر ليبان».

وفي الأربعينات دخلت صور حلبة النضال الوطني والاجتماعي من الباب العريض، كان ذلك عندما تأسست فيها منظمة شيوعية. وأكد هذا الإنجاز استمرار تطور النضال المسبق الذي مارسه الوطنيون الصوريون سنة ١٩٢٥، إنه استمرار لكفاح الصيادين الذين يقارعون الأمواج، ويعاركون العواصف الهوجاء، لتوفير صيد يؤمن لهم مؤونة عائلاتهم اليومية.

إن بلداً كصور، هذه هي طبيعته، وذاك هو تاريخه، من الطبيعي أن يجد في التنظيم الشيوعي على أرضه منبلجاً يدلف إليه الكادحون، ويلتف حوله البؤساء والتعسون.

في منتصف الأربعينات أصبحت صور النهائي «الترمينال» الساحلي الجنوبي الذي أدلف إليه كل ما سنحت لي الفرص. زياراتي إليها تكاثرت، ويكاد لا يمر شهر إلا وأقوم بزيارة إليها، وبالرغم مما كانت عليه أحوال صور السكانية، والجغرافية. أضف إليها الاهمال، فلا حاكم يرى ولا مسؤول يسمع، ولا وجاهة محلية بذات بال مما انحدرت إليه منارة فينيقية، وما أصيبت به مدينة «علأقة» بلد الصيادين الأشاوس.

الاهمال، الفقر، الكدح الذي نزل بصور، انعكس ايجابياً على أفكار ناسها: عمال البحر، الشباب، الفوالون، السائقون المتنورون، راحوا يتطلعون بأفكار صافية، وعيون ثاقبة نحو التغيير.

عندما كان الزائر يسير في أسواق صور ويشاهد ما يشاهده من حرمان وإهمال، وشقاء وأوساخ كان بذات الوقت، عندما يلتقي رهطاً من الناس، يجد نفسه أنه في عالم غير شكل. عالم متحضر، مهذب، مثقف، يفتش عن الأحسن والأفضل، والأجمل. ولحسن الحظ فقد وفق هذا الرعيل من

أبناء صور إلى تأسيس تنظيم ضم في البدء عشرات الشباب من الصيادين، لم يلبث مع الأيام أن ارتفع عدد المنضمين إليه إلى المئات.

من ثلاثة شيوعيين تحول هذا التنظيم إلى مجموعة كبيرة من الكادحين وذوي الرأي، بينهم الأملود المتحفّز، والكهل المتأهب، والفتى المتوثب. وبفضل هذا التنظيم احتلت جريدة «صوت الشعب» المكانة الأولى في البلد. وكانت تصل صباح كل يوم إلى البلد، ومن ثم توّاً بواسطة الموزعين إلى القراء. وفي أيام الآحاد تنتظم لجان من الشيوعيين ومن أصدقائهم تطوف الشوارع، والأحياء لبيع «صوت الشعب» مقدمين بذلك فائدتين بوقت واحد، نشر الأفكار الاشتراكية وسياسة الحزب. وإقامة حكم وطني ديمقراطي وتحقيق المطالب الشعبية. وثانياً تقديم نفع مادي لـ «صوت الشعب» التي كانت تعاني من عبء التكاليف.

إن أفاضل الشباب الشيوعي والتقدمي الوطني تكاثر في صور وكله يستحق لا كتابة «ورقة» بل «ورقات» تقديراً لما قدمه في مجالات الكفاح الوطني. ولكنني سأتوقف عند واحد منهم. عند شخص عايشته، وعرفته وأدركت أبعاد تفكيره، هو المرحوم سميح الصعيدي أحد مؤسسي المنظمة الشيوعية في صور، والعامل بدون كلل لتطويرها، وتوسيع مداها وتعميق جذورها.

كان سميح المعروف جيداً في الوسط الوطني الصوري، ضليعاً في اللغة العربية، هذا الواقع ساعده على أن يكون من أبرز مراسلي «صوت الشعب» ومن ثم محرراً في مركزها الرئيسي في بيروت.

وككل ثائر مدرك ومتفهم، حمل سميح الصعيدي قضية الحزب الشيوعي على كتفيه. فلم يبال بعسر رافقه طول حياته. وكان تنفيذ المهمات هو أشرف عمل يقوم به. كان يعطي كل مقام مقالاً. يقنع إذا حاور، ويصندد إذا ما أحد حاول تحديه واستفزازه.

ولكن الأيام دارت في العام ١٩٤٨، دورتها الخلفية. فقد حمل هذا العام إلى العالم العربي موجات عاتية من المظالم والإرهاب. فالتقسيم الذي أقره مجلس الأمن الدولي لفلسطين وما رافقه من خيانة انغمس في حمأتها معظم المسؤولين العرب، انسحبت سلبياتها على لبنان، كما سواه من البلدان العربية، فالإرهاب سلط ضد المناضلين الوطنيين، من شيوعيين وسواهم. والحال الاقتصادية ساءت. هنا اضطر سميح الصعيدي إلى الهجرة إلى القارة الأفريقية.

التقيته آخر مرة قبل سفره في منزله بصور. كان ذلك في مطلع العام ١٩٤٨. وفي تلك السهرة وقد وجد فيها محام من صور اعتقد أنه من آل الملاح. وكان الحديث يدور حول ما سيجد بعد قرار مجلس الأمن الدولي. هل سيقوم العرب بحرب، أما ماذا سيفعلون في ١٥ نوار الموعد المقرر

لتنفيذ قرار التقسيم. هنا قال الملاّح: انتظروا يا اخوان، غداً تهب الأفواج العربية من الشرق والغرب، والشمال، فتقبض على اليهود وتقضي عليهم. ولم نسايره نحن، وأظهرنا شكنا بقوله. وكنا ندافع عن قرار التقسيم الذي يتيح لنسرب إقامة دولة عاصمتها القدس، ومعها النقب والجليل، ومساحتها أكثر من ثلثي مساحة أرض فلسطين. وانتهينا غير متفقين وجاءت النتائج فيما بعد على غير ما قاله ذاك المحامي. فالأفواج العربية تراجعت، واسرائيل أقامت دولتها وتشرد مليون عربي عن أرضهم وبيوتهم.

بعد تلك السهرة انفصلت عن سميح، فهو هاجر إلى أفريقيا وأنا بقيت في لبنان، وإنما انتقلت إلى طرابلس وقد اعتقلت فيها في أول تموز ١٩٤٨، وأبعدت إلى معتقل بعلبك حيث التقيت هناك ثلاثة رفاق من صور، متري، ورفله، ومحمود. ولطالما دار حديثنا حول سميح الذي لو بقي في صور لكان حتماً من نزلاء «فندق» المعتقل.

في الهجرة لم يوفق سميح، فالعسر رافقه هناك كما هنا، وإذا كان هنا له من شفيع يعود إليه فيبدد بعض آلامه وأشجانه وهو الحزب الشيوعي بعامة، ومنظمة صور بخاصة وكذلك رفاق الصبا، فهناك فقد كل هذه الثروة. أضف إلى ذلك أن صحته ساءت بسبب المناخات العاطلة.

في مطلع السبعينات عاد سميح من أفريقيا. وفيما كنت جالساً في مكاتب جريدة «الأخبار» دخل إلى الغرفة، دون أن أتعرف إليه، بسبب التحولات التي طرأت على جسمه. وتعارفنا، وجلسنا نتذكر ونتحدث فإذا روح سميح هي كما كانت. وتفكيره الصافي لا يزال هو هو. إنما الجسم نحل، والهمة فترت، والهزال أصبح بادياً عليه.

سررت بلقائه، وكذلك هو سر بلقائي، وبالرغم مما كان عليه أظهر سميح بأنه مستعد للعطاء بالقدر الذي تمكنه أوضاعه الصحية منه.. ولكن «الرياح جرت بما لا تشتهي السفن». فسميح الصعيدي الذي عرفته في الأربعينات ديناميكية دائمة لا تستقر، تحول في أفريقيا إلى شبح: إلى هيكل عظمي. أما تطلعاته فبقيت صائبة، صافية.

في ٢٣ كانون الأول ١٩٨٢ كنت في طريقي إلى الاتحاد السوفياتي. وكانت الرحلة طويلة مرهقة من بيروت إلى دمشق، ومن دمشق إلى يريفان، ومن ثم إلى موسكو. كانت رحلة متعبة جداً. وقد أثر ذلك على قواي وأصبحت شبه عاجز عن نقل حقائبي. وكان على الطائرة جمهور من خريجي المعاهد السوفياتية عائدين إلى موسكو لقضاء عطلة رأس السنة. ودبّت النخوة في واحد منهم بادر إلى مساعدتي بنقل الحقائب. وقد قال أنا من صور. قلت رحم الله، سميح الصعيدي، فأجابني من أين لك أن تعرفه. قلت كان رحمه الله، من أعز اصدقائي. قال: أنا ابنه. فضممته

وقبلته تقديراً لنخوته وحميته من جهة، وتكريماً لذكرى والده، التي كانت حياته كلها مبرات.

إن صور الخالدة كانت ولا تزال نبوعة دفق وعطاء. ولأنها كذلك فلأنها موئل الأحرار، وموطن الصيادين، ومنبت الأصالة اللبنانية. صور العربية الشجاعة التي قالت دائماً وأبداً للمعتدين لا. ثم لا. ثم لا. صور التغيير بأوسع ما في هذه الكلمة من معنى. صور يوسف طناسي، وسميح الصعيدي والاستاذ متري الحلاج، وحسين الخشن. صور التي تشكل السور الأمامي للبنان الكبير بفضل سواعد وافئدة، وأفكار الرعيل الذي يسير على خطى الألى. هذه الصور لن تهون. لن تركع. لن تتراجع. فلك يا صور يا درة فينيقية، ولو قدر لك لأصبحت حديقة لبنان، منتزه الجنوب، لك أجمل موقع في الدنيا، التحية وعليك السلام، وللرواد المناضلين من أبنائك، أشيوعيين كانوا أم وطنيين مخلصين، المجد والخلود.

أحمد صالح المبدأ والالتزام

عندما يذكر الشيوعيون الحقيقيون الذين توارو ا، ينتصب بينهم صياد البحر، الكادح المعطاء المتفاني الصبور، العصامي، المرحوم أحمد صالح.

في مطلع الأربعينات، اتشح لبنان وسوريا بالسواد، فالإرهاب الاستعماري سلط على الجميع، الحريات عطلت، والسجون فتحت لحشر المناضلين الوطنيين، واللجنة الألمانية التي أوفدت خصيصاً إلى المشرق واتخذت بيروت مركزاً لها زاد وجودها هنا في « الطين بلّة ». ومهمتها الرئيسية كانت الإشراف على تصدير المؤن إلى الجيوش النازية، هذه اللجنة لم تقف عند حدود مهمتها، بل راحت تمارس توجيها وتسلطاً ضد القوى الوطنية.

في هذا الوقت في أواخر العام ١٩٣٩، وعلى أثر هجمة استعمارية فرنسية، طالت عشرات الشيوعيين في لبنان وسوريا، اعتقل فرج‌الله الحلو، ونقولا شاوي ورشاد عيسى ومير مسعد وسواهم. وبعدما أمضوا مدة في سجن القلعة ببيروت، أحيلوا إلى المحكمة العسكرية، فحكم فرج‌الله ونقولا بخمس سنوات سجناً، نقلا بعد الحكم مع بقية المحكومين إلى سجن بتدين وهناك مارس فرج‌الله ونقولا مهمتها كقائدين. فأسسا شبه مدرسة لتعليم الرفاق. كل حسب إمكاناته ومعرفته وتحصيله. وكان من بين الذين انخرطوا في سلك التلمذة شاب من إخواننا العرب القاطنين في « الهري » بلاد البترون، ومهنته صياد بحري، اسمه أحمد صالح.

اتهم أحمد بارتكاب جريمة قتل حكم على أثرها بالسجن وقد اكد أحمد لنا، بأنه بريء ولا علاقة له بما اتهم به. وقد لفقت القضية بحقه تلفيقاً. وأنا شخصياً اعتقد أنه على حق لأنه لاحقاً وقع بعدة مقالب حيكت ضده، وحكم على أثرها بالسجن، مع أنه بريء مما نسب إليه براءة

الذئب من دم يوسف.

كان أحمد أميّاً، وعلى أيدي فرج‌الله الحلو ونقولا الشاوي تعلم في السجن، الألف باء. ثم الابجد هوز حطي. ثم ارتقى فأخذ يتعلم القراءة في الكتب التي كان الحصول عليها بمتناول الرفاق في بتدين.

وتتطور الحرب، وتمتد إلى أفريقيا وتصل الجيوش الألمانية إلى العلمين ويصاب جيش روميل بصدمة هناك، وتعقد انكلترا معاهدة تعاون مشترك مع الاتحاد السوفياتي، وعلى أثر ذلك يحصل هجوم الحلفاء من فلسطين على سوريا ولبنان فيشل المقاومة الفيشية وتحتل قوات فرنسا الحرة، والقوات الإنكليزية البلدين، وأدى هذا الانتصار إلى إتاحة مناخ جديد للحرية، فافرج عن الشيوعيين، بمن فيهم فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي وفيما بعد أفرج عن أحمد صالح بعدما كان قد أنهى المدة التي حكم بها. وبعد الإفراج عنه أتى لتوه، وهو يعتمر الكوفية والعقال، إلى مكتب جريدة «صوت الشعب» يسأل عن فرج‌الله ونقولا، وإذا بهما يستقبلانه بالترحاب، ويهتمان به، ولم يلبث أحمد طويلاً حتى أصبح عضواً في الحزب الشيوعي، ثم مستخدماً في «صوت الشعب»، وكان دائماً يهتم بالقراءة والكتابة.

في جميع المهمات التي كلف بها كان النشاط، والامانة في التنفيذ ديدنين عنده. وإذا ارتكب أحياناً كثيرة أخطاء، فلأنه كان يعمل ولا يكل، ويقدم ولا يفكر بطلب أي شكر.

عندما كان شغيلاً في «صوت الشعب» كلف بجلب بعض الكليشهات من مطبعة في «حي التينة» تخص المفوضية الفرنسية، ولما وصل إلى هناك رأى أمامه الشخص الذي سبق أن اتهم بقتل والده، فعاد أحمد لتوه، يروي القصة، والعصبية التي انتابته، لأنه سجن وهو بريء.

في الخمسينات، وكان النشاط الحزبي محرّماً ولكننا كنا في بعض المناسبات المعينة، نقوم ببعض النشاطات. في هذه الأثناء غاب أحمد فترة طويلة، كان خلالها يعمل في الجهاز الحزبي السري لمنظمة الشمال، وهذا يعني أن عمله كان يمتد طول الليل، وما كان ليرى نور الشمس في النهار. وانتقل أحمد إلى بيروت، وهنا كان طليقاً، وفي أثنائه صدف الاحتفال السنوي بذكرى وفاة عمر فاخوري ودرجت العادة أننا كنا ننظم موكباً من حملة الأكاليل يقطع الشوارع بصفوف منتظمة حتى يصل إلى جبانة الباشورة، حيث توضع الأكاليل على الضريح الطاهر.

ومشى أحمد مع الماشين، وقد عمر صدره بما شاهده من ضخامة الموكب، وكبر قلبه بحزبه الذي رغم الإرهاب، وكم الأفواه والأنفاس، لا يزال يتمتع بهذه القوة، عندها وقف أحمد على مرتفع وهتف بأعلى صوته «يعيش الحزب الشيوعي الاشتراكي».

ذات مرة، في أثناء النضال ضد القنبلة الذرية، والهيدروجينية، وضد التوتر الدولي وكان مجلس السلم العالمي قد دعا إلى القيام بحملة لجمع تواقيع على عرائض لتحريم هذه الأسلحة، واللجوء إلى التفاوض من أجل حل الخلافات الدولية. وتجاوبت لجنة السلم اللبنانية مع نداء مجلس السلم العالمي، ونشطت الحملة اللبنانية في جمع التواقيع، وأعلنت المباراة بين جامعي التواقيع، وبرز أبطال للسلم، منهم من جمع لوحده ألفاً وألفاً و ٥٠٠، وألفي توقيع. وكان أحمد من الذين بادروا بحماسة لجمع التواقيع، وفي رحلة قام بها كانت غلتها ثمينة، عاد وهو في طريقه إلى مكتب رئيس حركة السلم أنطون تابت ليسلم ما جمعه من تواقيع، وقف تحت ضوء كهربائي، وأخذ يعد التواقيع. رآه أحد الحراس فارتاب بأمره، واعتقد أنه يقرأ منشوراً شيوعياً، فتقدم منه وانتزع العريضة من يده وساقه إلى المخفر حيث تطلب الإفراج عنه تدخلاً من انطون تابت بعدما كان قد قضى ليلة في النظارة.

في العام ١٩٥٨ كان أحمد موظفاً في جريدة «الأخبار» وكان الحركة المسلحة قائمة على قدم وساق. وفيما كان ينقل مواد من مكتب الجريدة في المعرض إلى المطبعة في شارع المنقذين اعتقل ودس في جيبه أصبع ديناميت، وحول إلى الأمن العام على أنه يحمل متفجرات. وتعرض لضرب شديد وضغط وإرهاب ليرغم على القول أن الحزب الشيوعي سلمه إياها. فأبت استقامته التجاوب مع ما طلب إليه لقاء الإفراج عنه، وحوّل إلى المحاكمة فحكم بمدة ثماني سنوات، ووضع في سجن الرمل.

وعند احتدام المعركة أصبح سجن الرمل في المنطقة الخاضعة للانتفاضة المسلحة، والقيمون على السجن من الدرك كانوا متعاطفين مع هذه الحركة. ولطالما رتب موضوع تحرير أحمد، فكان يرفض ذلك لخشيته من مقلب يؤدي إلى قتله. وبالرغم من القول له إن إخوانك موافقون على تحريرك، فلم يكن ليقتنع. وذات يوم وكانت سيارة السجن تقل بعض المرضى إلى مستشفى الصنائع لمعاينتهم وكان بينهم أحمد مكلبجاً كجميع السجناء، وفيما كانت السيارة تقطع سجن الرمل، اعترضها مسلحون وانتزعوا أحمد منها، واعتقد أحمد بأن المقلب الذي كان يخشاه قد تحقق. واقتاده المسلحون مكلبجاً إلى أن وصل إلى مركز الحزب العسكري في محلة قصقص، فاستقبل بالرصاص، وبعدما رأى رفاقاً يعرفهم هناك اطمأن، وعلى الفور نشر حديد الكلبجا وأصبح أحمد حراً.

منذ العام ١٩٤٨، عام عودة الحزب إلى السرية، وحتى العام ١٩٧٠، عام انطلاقة الحزب العلنية بعدما حصل على رخصة قانونية، كان أحمد صالح موجوداً في كل مجال. هنا تراه يحبو تحت المطر لابساً ذلك المشمع، وتحت إبطه رزمة مناشير. وهنا تراه يدب تحت الحرّ الشديد والعرق

يتصبب منه وفي جيبه رسالة عليه أن يوصلها إلى من وجهت إليه، وهنا تراه يقف شاهداً على رفيق يعقد قرانه بشكل سرّي. وهنا تراه منكباً على توضيب ما انتجته المطبعة السرية، ويهيئه للإرسال إلى المناطق. وفي جميع الحالات لم يتأفف أحمد ويتململ. فقط كان ينرفز، ويتحول إلى عصبي المزاج، عندما يرى تجاوزاً أو لامبالاة من مسؤول.

أحمد صالح الصياد الأمي، يصبح لاحقاً كاتباً في الجرائد. كتب حول عمال المطاحن، وعن صيادي البحر ومآسيهم، وكتاباته كانت مقروءة لأنها تتعلق بحياة الناس ومعيشتهم.

أحمد صالح لم يوارب في أمر، ولم يتزلف لأحد، إذا ما تلقى تعليمات من مسؤول، لا تلغيها أي تعليمات من أي مسؤول سواه، حتى ولو كان أعلى مسؤولية منه.

قبل وفاته بعامين وأكثر تقاعد، ولكنه حافظ على ارتباطه بـ «النداء»، كان يومياً عند الساعة الثامنة يأتي إلى المكتب لقراءة الجريدة وبعد قراءتها يبدي بعض الملاحظات وبشكل عام كانت ملاحظاته إيجابية.

كان أحمد صالح مدرسة ثورية. ثورية في الالتزام. وثورية في الاستقامة، والتفاني ونكران الذات. وثورية في الانضباطية، والشجاعة، والصمود بوجه الأعداء. ما لان ولا هان، ولا خار، وما كلّ، حياته منذ العام ١٩٤٥ حتى وفاته العام ١٩٨١، نضال مستمر، وكفاح وجهاد، وقل أن تجد شيوعياً من رعيل ما قبل السبعينات إلا وله مع أحمد صالح علاقات. ما ترك أحمد مجالاً لمسؤول أن يوجه إليه ملاحظات، أو انتقادات، اللهم إلا في مجال التخفيف من التشدد بتنفيذ الأوامر.

من كان كأحمد صالح يبقى رمزاً يُقتدى، ومنارة ثورة تعكس كل ما في الثوري من خصال حيدة، وجمالات بهجة، وأخلاق سامية يبقى الدرع الواقية للشيوعي، في عراكه من أجل التغيير، من أجل التقدم، والتحرر.

برجيس بو صالح

عن عمر بلغ الرابعة والتسعين توفي رفيقنا الشيخ برجيس أبو صالح متمماً واجباته الوطنية والحزبية عبر أكثر من نصف قرن قضاه في النضال مدافعاً عن حقوق زملائه العمال من على منبر نقابته، نقابة عمال النجارين. وفي مجالات كفاح حزبه، الحزب الشيوعي اللبناني الذي انضم إليه في العام ١٩٢٦.

كان برجيس ملء الأسماع، وملء الأنظار. فمع أي رفيق تحدثت أدركت أنه يعرف برجيس. تعرّف إليه إما في مظاهرة ضد الاستعمار، أو من أجل مطالب عمالية. أو أنه تعرف إليه في السجن وما أكثر المرات التي زار فيها برجيس «القصر المنيف»، أو أنه كان من رواد بيته الدائمين، وقد أطلق عليه في أشد العهود السرية «المنزول». وأحياناً كان هذا المنزول يستضيف عشرة رفقاء مرة واحدة.

أربعة وتسعون عاماً عاشها برجيس، أكثر من نصفها أمضاه مع الشعب، يعارك من أجل لقمة عيشه، من أجل حريته. وسجيته هذه هي التي قذفت به إلى السجن العام ١٩٣٩، فكان بجانب فرج‌الله الحلو ونقولا شاوي. وكما كان مناضلاً صلباً في الشارع وفي المعمل، كان هو هو في السجن، شجاعاً ملتزماً، لا يلين إذا ما كانت الليونة لضيم، ولا ييبس إذا كان اليباس لشر.

برجيس البسمة الدائمة، والتفاؤل المستمر، برجيس المستقيم الرأي والقول والعمل، عاش الأربع والتسعين مستقيم الجسم، لم يحدودب، ولم يلتو، فظل على سجيته مستقيم القوام، والأفكار، والمبدأ. وذلك ما انتهى إليه، إنه الشيوعي الحقيقي الذي تمكن خلال الـ ٥٣ سنة المنصرمة على وجوده في الحزب من الحفاظ على عضويته في الحزب الشيوعي، والحفاظ على هذه الجوهرة سليمة، معافية عافية الحياة بذاتها.

الوداع يا برجيس يا من خلفت أثمن إرث وأغناه لنا، أنت لم تترك بساتين وأبنية ومساحات شاسعة من الأرض، ولا أسهماً في المصارف، بل تركت إرثاً ثورياً لا تساويه أطياناً، وعقارات وأموالاً. إرثك الضخم هو أنك مت وأنت عضو في الحزب الشيوعي. فطوبى لك في مثواك، ومُجدت ذكراك يا من أصبحت مع الخالدين. مع طليعة شهدائنا أدوار شرتوني، مع كبير شهدائنا فرج‌الله الحلو، مع حدقة عين كل منا، آخر شهدائنا لا أخيرهم أحمد المير، (أبو حسن)، مع رافعي هاماتنا، رمز أصالة حزبنا ومجده الأربعمئة شهيد الذين قضوا من أجل استقلال وسيادة ووحدة لبنان، ومن أجل صون عروبته والتزامه بالتضامن العربي لنصرة الثورة الفلسطينية معهم جميعهم أنت يا برجيس، يا رفيقاً فقدناه، ويا عطاء يتقمص يوماً بالألوف من الرفقاء الذي تسلموا الراية التي حملتها ورفقاؤك منذ العام ١٩٢٦، راية النضال من أجل التحرير، والتغيير، من أجل الحرية، والديمقراطية والتقدم.

«النداء» ١٩٧٩/٧/٤

الياس عقيص

شرش من شروش «السنديانة الحمراء» تعطل عمد من أعمادها المتينة لحقه اليباس فتوقف عن

العطاء، وتجمدت الإرادة التي صممت منذ سبع وخمسين سنة مضت، على الاستمرار بالمسار مهما طال، وعلى تحمل المشاق مهما تكاثرت، وتكثفت. همه الرئيسي انصب على إرضاء ضميره بالنسبة للحزب الذي يمثل، ومن أجل القضية التي عقد قرانه عليها في العام ١٩٢٨.

إنه رفيق درب طويلة، مشينا عليها معاً، وشريك قضية كبيرة عملنا من أجلها معاً، درب وقضية أول حزب سياسي تأسس في لبنان سنة ١٩٢٤، أي الحزب الشيوعي اللبناني.

ومنذ يفعه في العام ١٩٢٨، لبى الياس عقيص، دعوة هيكازون بوياجيان، وكان في طليعة الذين أقدموا بملء إرادتهم على تلبية النداء، وتأسست «خلية» شيوعية كان الياس عقيص أحد أعمدتها ممثلاً رعيل الشباب الزحلاوي الفطن، المثقف، الجريء.

مات الياس عقيص بسبب داء عضال تحداه فأودى به، وهو لا يزال يملك القدرة والإمكانات، على تقديم العطاء لشعب لبنان، وبخاصة لحزبه الشيوعي.

النخوة إذا قلنا ما هي، كان الجواب، إنها الياس عقيص. التفاني والروح الحزبية إذا أردنا تحديدهما، قلنا دونكم الياس عقيص، إنه الجواب الصادق على التعرف إليهما من خلاله.

الياس عقيص لم يكن واحداً في بيت، في حي، في مدينة، بل كان مجموعة في فرد. أصدقاؤه كثر، ومحبوه جمهرة كبيرة من الناس. وهذه الميزات التي احتواها، والتصقت به، أصبحت، بالرغم مما كان عليه من سوء صحة، الشريان الرئيسي الذي يكون الدفق في عرق الوريد، الموزع الرئيسي لدورة الدم في جسم الإنسان.

كانت أمانيه كباراً، ومن أكبرها ثقته بالاتحاد السوفياتي. ولكم كان منشرحاً لرحلته مع مجموعة من قدامى الحزب الشيوعي إلى الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٨٤. إن شدة إعجابه بما شاهده من منجزات على أيدي بناة الاشتراكية المظفرة، عندما كان يسرد لي برامج رحلته تلك، وكيف كان الاهتمام بهم كبيراً جعلته في نشوة من الفرح والإطمئنان.

لم يجد نطس الأطباء، ولا حنان الشقيقتين جوزفين وافلين، ولا عطف الشقيق أنطوان، ولا رغبات محبيه الكثر وطوع وحدب الأربعة اللامثيل له، كل ذلك لم يجد فتيلاً. فكان القدر، وكان غياب الياس غياباً طويلاً لا رجعة إلينا بعده.

لقد فقدنا بالياس عقيص لا رفيقاً عادياً، بل شيخاً من المجربين الذين رضعوا الروح الحزبية منذ نعومة أظفارهم.

عركه النضال في سبيل قضايا شعبنا منذ العام ١٩٢٨، فكان في الفترات الصعبة القاسية

موجوداً، يلبي عندما ينادى، وينفذ عندما يطلب إليه أمر ما، وبحكم اتساع علاقاته الاجتماعية، كان يملك الإمكانات والقدرات على تحقيق الكثير الكثير من المهمات الصعبة، دون أن يطلب بدلاً أو شكوراً.

زحلة مولد الفكر الاشتراكي في لبنان، وموئل المحاولات الأولى لتكوين تنظيم يترجم هذا الفكر إلى الواقع السياسي الموضوعي. منذ عشرينات القرن، كانت وستعود موئلاً للتقدم والحضارة، إبنة بارة للآلئها الميامين، من توفيق جبور غيفارا عصره، إلى رشيد سويد، مؤسس أول نقابة لعمال زحلة، وهي بالجوهر كانت حزباً سياسياً رائداً للطبقة العاملة. زحلة التي تمت فيها خطوبة الحركة الشيوعية، التي احتفل بمراسم عرسها لاحقاً في قريتي «بكفيا» و«حدث بيروت»، أعطت الكثير الكثير، وستعود لدورها في العطاء عروسة لا للبقاع وحسب، بل ولكل لبنان.

لا بـد عـائـدة إلـى عشـاقهـا تلك العهود وإن حسبن خـواليـا

أرقد قرير العين يا أبا وليد، يا رفيق الحياة، وعشير فترة طويلة من العمر، فالقافلة مستمرة في مسارها الواعي، ولا بد من الوصول إلى هدفها بتحرير شعبنا من رجسين، رجس الاحتلال الصهيوني، ورجس الاستثمار والقهر والجوع. فـ «لا بد من صفاء ولو طال السفر».

الخلود لذكراك يا الياس التي تختصر ذكرى العشرات والمئات من أمثالك حاملي راية التحرر والاشتراكية في زحلة والبقاع، والتقدير العالي للبيت «بيت عقيص»، الذي أسست وأنميت فيه بذور التقدم والحضارة والتغيير على طريق الاشتراكية والتقدم والحرية.

وداعاً يا من كنت ملء برديك، ملء «حوش الزراعنة» ملء زحلة، ملء قلوبنا وتطلعاتنا، وبخاصة عندما تحل المحن، وتحيق بنا المصاعب. يا أخواتي، ويا أخيه، ويا أولاده الأعزاء، الصبر، فمن كالياس وإن غاب، فلن ينسى، وإن مات فذكره سيبقى مخلداً فينا.

كانون الأول ١ ١٩٨٥

ستراك عباجيان

أديب محترم، وكاتب صحافي مرموق. له في الوسطين الأدبي والاجتماعي الارمنيين مكانة مقدرة. معارفه كثر، ومقدرو كفاءاته وإخلاصه، وصلابته أكثر بكثير. شيوعي عنيد، صلب، قوي الحجة، سلس العبارة، قلمه سيّال. جلود، صبور، يتعب ولا يدري أنه متعب. ما سعى إلى منصب، أو عمل من أجل وجاهة. حمل على كتفيه ردحاً من الزمن أعباء تحرير «صوت الشعب» الأرمنية. وفي الأيام التي رئس فيها تحريرها، انطلقت بين الجماهير، وزاد عدد نسخاتها المطبوعة.

أديب في تعاطيه. مثقف يلمّ بكل قضية وأمر. الوسط الأدبي الأرمني له فيه قسط قدر مواهب ستراك.

علاقتي بستراك بدأت في الصحافة: كنت مديراً لإدارة «صوت الشعب» وهو كان في إدارة تحرير النسخة الأرمنية لـ «صوت الشعب». هناك توطدت الصداقة مع ستراك. ولكن الصداقة الأعمق والأسمى، توطدت بيننا في «معتقل بعلبك» وستراك كان من الرعيل الأول الذي اعتقل ليلة ١٤- ١٥ نوار ١٩٤٨، الليلة التي اعتقل فيها عشرات الشيوعيين في لبنان من بيروت وطرابلس ومرجعيون وصور، والبقاع. وكان ستراك مع يبرام الليزيان. مع ذلك الرعيل الذي «أسس» معتقل بعلبك. وفي المعتقل كان ستراك مدرسة في الصمود والصبر، والاستقامة. ما رأيته يوماً مكموداً، لم تفارقه البسمة، حتى عندما يكون «منرفزاً»، عشور، طيب القلب، ملتزم من نوع رفيع جداً.

عندما أضربنا عن الطعام في شهر آب ١٩٤٨ مطالبين بالإفراج عنا، وإلاّ نستمر بإضرابنا حتى الموت، حاولت السلطات إرغامنا على فك الإضراب، باللجوء إلى إحداث خرق بيننا. ولما حاول أحد المسؤولين ترهيب ستراك وحمله على العودة عن الإضراب، ثار ستراك، وأخذ يزمجر كالأسد المصور، وكان سلام «بو علي» حاضراً. وعندما عاد إلينا أخذ يروي لنا الحكاية وقال لي، عينك ترى يا أبا وضاح، ستراك النحيل الجسم المنهك القوى، عينك تراه عندما انفجر بوجه من حاول إرغامه على الرجوع عن الإضراب، ما كنت ترى ستراك الضعيف، النحيل، السبروت، بل ترى عملاقاً كبيراً، بطلاً يقود جيشاً، لا جندياً يمشي في مسيرة.

مجموعة كفاءات اجتمعت بستراك عباجيان، وبكل إخلاص وتفانٍ وظفها لمصلحة الحزب الشيوعي، ولكن المحتوم لم يمهله، فقد توفي باكراً، دون أن يرى تنفيذ بعض مطامحه، التي ناضل كل سنيّه من أجل تحقيقها.

أنطون معلوف
متظاهر

في العام ١٩٤٩، بعد قيام إسرائيل وتشريد أكثر من مليون عربي فلسطيني عن بيوتهم وأراضيهم ووطنهم، وبعد بروز ظاهرة «الأحلاف» الاستعمارية العدوانية، وفي طليعتها «مشروع مارشال» الأميركي، في تلك الحقبة امتد الإرهاب السلطوي، فتناول الحريات الديمقراطية، فكانت المداهمات والاعتقالات الكيفية، وإجراء المحاكمات. حتى لا يمر اسبوع إلاّ وتجري فيه مداهمة واعتقال مناضلين وطنيين، من العمال، والفلاحين، والطلبة، والصحافيين. إن أجواء

« معتقل بعلبك » ظلت سارية المفعول بأشكال متنوعة. ورافق هذه الحملات التنكيلية، وضع اقتصادي أخذ يزداد سوءاً، ثم ارتبط ذلك بخلل في الإدارة العامة، أبرزه التطاول الذي مارسته الخاصة المقربة من الحكم. وأدّى هذا الوضع إلى تفشي الفساد واستفحال الرشاوى، والتعدّي لا على حرية المواطنين وحسب، بل وعلى حياتهم نتيجة الاغتيالات التي أحدثت أعمق الاستياء في جميع الأوساط الوطنية.

في تلك الحقبة التي اشتد فيها خطر الأحلاف الاستعمارية، من سياسية، وعسكرية، واقتصادية وثقافية، تحولت الإدارة وكل الدولة إلى مصدر رزق للخاصة المحيطة بالحكم. هذا الوضع أحدث استياءً عاماً شاملاً، وقد عبر أبناء شعبنا عن استيائهم هذا بما كانوا ينظمونه من مظاهرات، ويشكلونه من وفود للإعلان عن تردّي الوضع، السياسي والاقتصادي، فما كان يمر أسبوع إلا وتنتظم فيه مظاهرة تتصدى لها الشرطة، وغالباً ما كانت تطلق الرصاص على الجماهير عشوائياً، والسجون ما كانت لتخلو من المناضلين، لتظاهرهم.

سنة ١٩٤٩ كانت سنة « إقبال » بالنسبة للحكم، فقد مد يده إلى نقابات العمال فدوهمت مكاتبها، واعتقل العديد من قادتها. كما اعتقل الزعيم النقابي مصطفى العريس، والمناضل النقابي الياس البواري، وكنت قد اعتقلت وضربت ومكثت في السجن شهرين و ١٥ يوماً خرجت منه بكفالة مالية. إن اعتقال قادة النقابات وإحالتهم إلى المحاكمة أثارت استياءً واسعاً، فقامت مظاهرة تطالب بالإفراج عنهم. وتصدى لها البوليس واعتقل العديد منهم. ولما كثر عدد الدعاوى وحّدها المستنطق في دعوى واحدة. و شمل هذا التوحيد قادة النقابات، ومصطفى العريس، والياس البواري، والذين تظاهروا مطالبين بالإفراج عن أخوانهم وأنا من جملتهم. وبعد محاكمات بدائية مثل فيها كل جانب من الجوانب المتهمة، حولنا إلى المحكمة الاستئنائية، وكان رئيسها القاضي جواد عسيران.

كان بين المعتقلين في المظاهرة شاب ببروتي من حي الكرنتينا اسمه أنطون معلوف. وأنطون شاب ظريف، أنيق، متحمس، محب للكيف.. وفي أثناء المحاكمة، أمام القاضي جواد عسيران هتف المباشر : أنطون معلوف!.

فأجاب أنطون قائلاً : حاضر ووقف أمام قوس القاضي.

سأله الاستاذ عسيران ما هي التهمة الموجهة إليك؟ أجابه أنطون بمهابة، وصمود، وهدوء أعصاب قائلاً : متظاهر.

وقال له القاضي: لماذا تظاهرت؟.

فأجاب أنطون بأعصاب هادئة: تظاهرت لأنني رأيت بلدي لبنان منحدراً نحو الهاوية، الأحلاف العدوانية تنهمر عليه من كل جهة، تظاهرت لأن الفوضى ضاربة أطنابها في داخل الإدارة، ولأنني عامل، والعمل مفقود. ولأنني رأيت لبناني الحبيب بدأ يسير في طريق الانحياز متخلياً عن حياده الإيجابي الذي هو صمام الأمان الذي يحفظ له سيادته وأمنه، ووحدته.

نعم يا حضرة الرئيس، لقد تظاهرت، ومستعد أن أتظاهر باستمرار لأساهم في إنقاذ لبنان مما يحاك ضده من مؤامرات، ويحرم شعبه من خبراته.

قال أنطون ذلك بكل قوة غير هيّاب، ولم ينكر أبداً أنه شارك في المظاهرة، ولم يحاور أو يداور ليقنع من يحاكمونه بأنه « بريء » ولا علاقة له بالمظاهرة.

فبكل مسؤولية، ورجولة، قال أنطون إنني: متظاهر، وعلى هذا الأساس حاكموني. وعلى هذا أكرم شعبنا هذا الشاب الذي امتحن، فلم يهن، بل أكّد على الترابط بين ما قصده بضميره، وفكره، ومعتقده وبين ما أقدم عليه باشتراكه مع رهط من الشبّان والشابات، في مظاهرة ضد التآمر على سيادة لبنان واستقلاله، ضد الظلم والقهر، ودفاعاً عن الحرية.

« متظاهر ». ذهبت في حينه حكمة تناقلها المتظاهرون والمناضلون، وأصبحت زاداً لهم في مواقفهم أمام من يستجوبونهم. « متظاهر » كلمة تختصر صفحات من ألوف الكلمات.

بانوس اراميسيان

الأنباء الواردة من أصدقائنا في جمهورية أرمينيا السوفياتية الاشتراكية تفيد أن رفيقنا العزيز بانوس اراميسيان قد توفي في الثاني عشر من شهر نيسان ١٩٨٦ . على أثر داء لازمه مدة طويلة ولم يبارحه إلا بعدما قضى على حياته.

بانوس. هذا الرفيق الفذ المثالي الذي يعرفه الشيوعيون اللبنانيون والسوريون، القدامى، كان انموذجاً مميزاً للمناضل الشيوعي. فهو لم يوظف أفكاره وضميره، لقضية الشيوعية وحسب، بل وضع جسمه، حياته، في سبيل انطلاق الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا. ومن هم مثله قلائل. فمن صفاته الحميدة، وكل صفاته حميدة، أن ما يقوله، ويقرره، ويدعو إليه الحزب، هو مقدس، لا يناقش مسبقاً، بل ينكب على تنفيذه، حتى إذا كان هناك من انتقاد أو وجهة نظر، أدلى بها لاحقاً.

سار في ركب الشيوعية منذ العام ١٩٢٤ مع أغوب دربدروسيان، حيث أسسا فرقة شيوعية في

ذلك الحين في مدينة حلب. بعدما انتقلا إليها من «جبل موسى» وفيها بعد حط ترحاله في بيروت، فتابع مع آغوب دربدروسيان وآرتين مادويان، وهيكازون بوياجيان نشاطه الشيوعي، فاعتقل، وسجن، وتعرض للإرهاب الاستعماري. ولم يثنه عن نشاطه ارهاب، ولا تشريد وجوع، فما كان ينتهي من محنة، حتى يعد للنضال بأشد مما كان عليه. ولطالما قال، وهو قول مأثور عنه: «الحزب قرر» وهذا يعني أن علينا أن ننكب بكل قوانا لتنفيذ القرار دون طلعات ونزلات ومماحكات.

في الشدائد والمصاعب كنا نفتقد بانوس. ولكن ضميره الشيوعي ما كان ليتركنا نشقى للوصول إليه. فكان هو بدافع من وجدانية حية، يفتش على الحزب مدللاً على مصداقية شيوعية، فما توانى ولا تغيب مرة عن القيام بواجب، بل كان حاضراً ناضراً كما يقال لكل تكليف بمهمة: طبع مناشير، نقلها، ايجاد مكان لإيداعها، ايجاد بيت لسكن قائد مسؤول، تدبير الطعام لهذا الرفيق أو ذاك، تنظيم الحفلات لتأمين نفقات جريدة صوت الشعب الأرمنية «جوغوفورتيتيسين» وكان هو مديراً لادارتها.

ومن ميزاته الحميدة، وصفاته المقربة، ان أحداً من أهل الشيوعيين ما كان يتململ أو يتأفف منه، فبأية ساعة طرق الأبواب، حتى ولو كان في نصف الليل، كانت هذه الأبواب تفتح له برحابة صدر.

كان بانوس حركة ديناميكية دائمة، ففيما هو في أحد المنازل في «البيوت البيض» ـ الأشرفية، تراه بعد ساعة على «الزيتونة» وبعدها في «المزرعة»، ثم في محل مارديروس مادويان على ساحة البرج. وبعدها في بيت بوغوص ناتاريان في الكرنتينا. وهذه التنقلات كان يقوم بها، لتنفيذ مهمات كلف بها.

هناك رفاق جيدون كثيرون، ولكنهم لا يخلون من محبين، وغير محبين. بانوس كان محبوباً من الجميع، قريباً من قلوب آباء وأمهات الرفقاء، ومن كل من يتعامل معه.

قيض لي في العام ١٩٤٠، وكان الارهاب الاستعماري على أشده أن أعمل وإياه في بيروت. فتوطدت بيننا صداقة رفاقية عميقة، والصدق في التعاطي. والاخلاص في تنفيذ المهمات والاستقامة في اعطاء التقارير. والشجاعة في تحمل المسؤوليات هي التي كانت في أساس ما شدنا وفتح قلبينا إلى بعضنا البعض. وعندما اعتقل في اواخر العام ١٩٤٠ في مصادمة مع أحد مفتشي التحري، أثناء ركوبه في الترامواي وهو أرمني، تأثرت كثيراً وصدمت لأنه كان سنداً رئيسياً للصلات الحية في العاصمة والمناطق، ويخرج بانوس من السجن، ليستلم مهمة مدير جريدة الحزب الصادرة باللغة الأرمنية. فانكب على نشرها، وتأمين المال لنفقاتها. وأكثر من ذلك كنت وإياه، نعد المشاريع المالية لتغذية الصحيفة، وفي جميع ما قمنا به كان بانوس مجلياً ناجحاً.

وتأتي مسألة سفر الأرمن إلى وطنهم الأم أرمينيا. فأقدم بانوس بعد أن كان قد تزوج، على السفر، وهو ما لم نكن نعتقد أن بانوس يترك رفقاء حياته، عشيري عمره. أكل معهم الخبز المعفن، وذاق أشد أنواع الارهاب والحرمان. ولكن بانوس ما تركنا إلا لأسباب لا يعرفها إلا اثنان أرتين مادويان وأنا. فهي التي دفعته لاتخاذ قراره بالسفر. ولكنه بالرغم من ذلك فقد راح، وبقي ضميره هنا، والدموع التي ذرفها وهو في طريقه إلى الباخرة «روسيا» الراسية في ميناء بيروت لنقل المسافرين إلى أرمينيا، وقعت شرارات نارية على حروق عواطفنا، وكيف لا وبانوس هو في مكان القلب من كل واحد منا. فبقدر ما فرحنا باستضافة أرمينيا أبنائها الأرمن المشردين في العالم، تكدرنا لفراق رفقاء عايشناهم وعايشونا، وكلهم جيد صمد في الشدائد، ولم يهن لضغط استعماري وارهاب بوليسي ففتح لنا القلوب، ووضع ما في الجيوب بتصرف الحزب الذي أصبح في ضمير كل مواطن ديمقراطي أرمني في لبنان.

وتقديراً لبانوس ولرهط من الرفقاء الأرمن، دعت قيادة الحزب الشيوعي اللبناني وفداً من قدماء الشيوعيين الأرمن المقيمين في أرمينيا مؤلفاً من اغوب دربدروسيان، وسيروب سوبككيان (توفي) وبانوس اراميسيان (توفي) وموسيس أغازريان، للمشاركة في احتفالات الحزب بمناسبة مرور خمسين سنة على تأسيسه، وإقامة نصب لشهيده الكبير فرج الله الحلو، كان ذلك سنة ١٩٧٤. وقد حضر الوفد المؤلف من الرفقاء الأربعة المشار إليهم وكان هذا في مطلع العام ١٩٧٥ مكان ترحيب واستضافة، وتقدير بالغ في قيادة الحزب وأوساطه كافة.

وفي خريف ١٩٨٥ تسنى لي زيارة أرمينيا، وطلبت زيارة بانوس، فقيل لي إنه على فراش المرض المضني، وإنه لم يعد يعرف أحداً، وقد عدت متأثراً لعدم مشاهدته. وأول سؤال سألتني اياه أم وضاح بعد عودتي هو: هل شفت بانوس، وكيف حاله؟ فأطلعتها على ما جرى فكان ألمها كألمي نظراً لاحترامها وتقديرها ومحبتها له.

إن تقديرنا لبانوس هو تقدير لجميع المناضلين الشيوعيين الأرمن. لكل الديمقراطيين الأرمن الذين لهم الكثير علينا نظراً لما قدموه ولا يزالون لقضايانا الوطنية والشعبية.

الوداع يا بانوس. وكما كنت ستبقى في الأفئدة مرقوماً، وبين الضلوع مقيماً، فمن كان مثلك لا ينسى، بل يقتدى به في مساراته النضالية.

حيتك، نخوتك، بسمتك، صلابة إرادتك، إخلاصك، أقانيم لا يمكن إلا الانحناء أمامها، وتقدير معانيها ومراميها.

النداء ـ أواخر نيسان ١٩٨٦

توفيق الأسود

في « زوايانا » كنوز وجواهر ثمينة لم تكتشف بعد. وحتى إذا ما اكتشفنا واحدة، قادنا حرصنا إلى اكتشاف أخرى. فالخبايا في الزوايا كثيرة، وإنه ليشرفنا شعباً وطبقة وحزباً أن يكون لنا هذا التراث النيّر.

في خريف ١٩٣٥، بعد رجوعي من موسكو حيث حضرت المؤتمر السابع للأممية الشيوعية ممثلاً لبنان، عدت لتوّي إلى « حصرايل » لأمكث فيها بضعة أيام، وعدت إلى بيروت، ملبياً دعوة قيادة الحزب، للعمل في منظمة العاصمة الحزبية. أول ما قمت به بعد انتقالي إلى بيروت، التفتيش على غرفة للسكن. وقد وجدتها بالقرب من سوق النجارين ضمن بيت مؤلف من عدة غرف معدة للايجار. وقد اشتريت تختاً بليرتين، وهو « مجوز » وأول ضيف استضفته كان الرفيق هيكازون بوياجيان العائد من موسكو. كنا الاثنان ننام على هذا التخت. جميع من كانوا يسكنون في ذلك البيت هم من المستأجرين الشغيلة. وأقربهم إليّ كانت عائلة من آل سماحة من الخنشارة، أم وبنتاها، وشاب هو ابنها يشتغل في هندسة الطرقات. والمهمة الثانية، بعد ترتيب أمر سكني، المفروض أن اتممها، كانت تنظيم الصلة بمن يجب أن أعمل بينهم ومعهم. وبينهم برز اسم توفيق الأسود، أو كما كان الرفقاء يسمونه أحياناً بـ « توفيق العينابي » نسبة لقريته « عيناب ».

قال لي أرتين بالعربية ولكن بلهجة أرمنيّة: شوف رفيق « شفيق » وهو اسمي المستعار آنذاك، لازم بيعمل صلة مع توفيق أسود الذي يسكن في محلة حاووز ساعاتي. وراح يشير عليّ كيف يجب أن أذهب إلى بيت توفيق، قال: « لازم تاخذ خط تراموای المناره: وعندما، تصل إلى محطة حاووز ساعاتي انزل وتابع لجهة مناره. وأول مفرق على اليسار اتركه وتابع سيرك، ولكن عندما تصل إلى المفرق تنين على اليسار اطلع فيه حتى إذا مشيت خمسين متراً هناك زاروب إلى اليسار، ادخل فيه. فتجد أول باب، دقه دقتين، إنه بيت توفيق اسود، فتجده هو، أو شقيقه أو شقيقته، وقل لهم إنك جايي من قبل « بيير » الاسم المستعار لأرتين مادويان آنذاك.

نفذت ما قاله لي « بيير »، وقد تم كل شيء على ما يرام، وأصبحت صلتي بتوفيق الأسود منظمة. أحياناً ألتقيه في بيته، وأحياناً في مكان ما في المدينة.

فمن هو توفيق الأسود؟

إنه من قرية « عيناب » بقضاء عاليه. مهنته سائق سيارة عمومية، انضم إلى الحزب الشيوعي قبل العام ١٩٣٣، مناضل نشيط في « جمعية السوّاقين »، التي بلغ المنضمون إليها سنة ١٩٣٥ حوالى العشرة آلاف سائق.

كان توفيق الأسود، بفضل شجاعته، واستقامته، وانضباطه، محترماً من زملائه السائقين، وقد التقى مع رفقاء آخرين سائقين شكلوا جبهرة في «الجمعية»، أصبح لها وزن في التحركات النقابية المطلبية، مثل الياس الحلو، وعلي حمدان، وحبيب دياب ونمر الرمّوز اللذين استشهدا في أثناء حمايتها الاضراب من الذين حاولوا الاعتداء على المضربين وكسر الاضراب.

توفيق الأسود هو من الرعيل الشيوعي المهووس بحزبه، الذي لا يرفض مهمة كلفه بها الحزب، ولا يحاول التملص من تنفيذ أمر أوكل إليه، وأكثر من ذلك فتوفيق الأسود هو من لشيوعيين الذين لا يستصعبون مهمة. والتشاؤم لا مكان له عنده، دائماً يرى والتفاؤل مرافق له.

في أي مجال شهد نضالاً للعمال، كان توفيق الأسود مع ذلك على موعد. فخلال اضراب عمال المطابع الشهير آب ١٩٣٣، كان توفيق، بالرغم من أنه ليس عامل مطبعة، أحد أعمدته الرئيسية.

خلال الفترة الزمنية بين ١٩٣٣ و ١٩٣٧، كان توفيق نسر الحزب، ودرعه الواقية، ليس في وسط «جمعية السواقين» وحسب، بل على امتداد النضال العمالي في بيروت.

لكن توفيق الأسود المتفاني في النضال، الذي ينفذ ولا يسأل، يعطي ولا يطلب شكوراً، يقتحم المعارك كالأسد الهصور، لم يكن في المجالات التنظيمية، كما هو في المجالات النضالية الجماهيرية.

لم يكن مزاجه ليتحمل مسؤولية التنظيم ولا سيما حضور الاجتماعات المطولة. فالتنظيم يتطلب نفساً طويلاً، وصبراً جميلاً، وأعصاباً باردة، وكما نعلم، أن الاجتماعات في هاتيك السنين، كانت مملّة فهي أولاً كانت طويلة، ولطالما تعمدّ المسؤولون استطالتها. ثم إنها كانت تلهي الرفقاء ببحث مواضيع بعيدة جداً، ولا ناقة لهم فيها ولا جمل. كحدث وقع في المكسيك، أو في الشيلي، أو في قارة أو أي بلد في العالم، والاجتماعات كانت تعقد في الليل، ولطالما استمر النقاش فيها حتى الساعات الصباحية. وكان الرفقاء، بدلاً من عودتهم إلى منازلهم ليستريحوا قليلاً، يذهبون مباشرة إلى أعمالهم.

هذه الأساليب في ادارة الاجتماعات تؤدي إلى الملل عند الرفقاء، وتوفيق الأسود لم يكن راضياً عن هذا الأسلوب، ولكنه كان يخشى أن يطرح رأيه في أثناء الاجتماع.

وذات يوم أتى رفيق يبلغ توفيق عن ضرورة حضوره اجتماع «الخلية»، أي الفرقة الحزبية التي ينتمي إليها، فاعتذر توفيق وأجابه: يا رفيق إنني مستعد لتنفيذ كل ما يطلب مني، الاشتراك بمظاهرة، الذهاب برفقة وفد للاحتجاج على عدم تحقيق مطلب ما، الاشتراك بفرقة صدامية لحماية الاضراب، ولكن التحليل بالاجتماع ليس من شأني، إنني شيوعي وسأموت في النضال من أجل الحزب.

ذكرني موقف توفيق الأسود بموقف شيوعي أميركي قدم استقالته من الحزب، من أجل مصلحة الحزب كما ورد في الكتاب الذي وجهه إلى قيادة الحزب. كان ذلك الرفيق شيوعياً جيداً، ينفذ كل ما يكلف به. منضبط لا يخل بموعد، وهذه الصفات دفعت المسؤولين إلى أن يحملوه مسؤوليات لدرجة أنه كان مضطراً أن يحضر كل ليلة اجتماعاً، بالاضافة إلى التزامه بعمله الخاص كحارس في محطة للقطار. وكانت النتيجة، أنه عجز عن حضور أي اجتماع، وانهالت عليه الملاحظات والتأنيبات من المسؤولين عن المهمات التي كلف بها، لهذا ارتأى ذلك الرفيق أن الأفضل له أن يستقيل من الحزب ليحافظ على شيوعيته، قبل أن يتعرض لعملية طرد، ويصبح موضوع عودته إلى الحزب صعباً.

وحال توفيق الأسود «توفيق العينابي» شبيه بحال ذلك الرفيق الأميركي الجيد، فالحزب بحاجة إلى قبضايات يتمتعون بأخلاق شيوعية، وإلى رفقاء مستعدين للحضور الدائم لتلبية مطالب الحزب، لهذا وبالرغم من اعتذار توفيق الأسود عن عدم حضور الاجتماع، وهو اعتذار غير مقنع أساساً، لكن قيادة الحزب نظرت إلى الموضوع لا من خلال موقف معين في لحظة معينة، إلى مجمل سير الرفيق توفيق، وهو من ألفه حتى يائه، ينم عن خلقية شيوعية صادقة، وطبيعة طبقية حقّة، لطالما أعطى توفيق، في المصاعب والملمات، أروع المُثُل، وألمع المواقف النضالية في سبيلها. إن وضع الانسان الصالح في المقام الصالح، هو ميزة من ميزات القيادة الجيدة. قال أبو الطيب:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضرٌ كوضع السيف في موضع النـدى

سلام الراسي
حلّفه ودخّله

في أثناء انعقاد مؤتمر الحزب الشيوعي الوطني في سوريا ولبنان في ٣١ كانـون الأول سنـة ١٩٤٣ و ١ ـ ٢ كانون الثاني ١٩٤٤، كان البحث يجري في اللجنة السياسية حول توسيع الحزب، وزيادة انتشاره بين العمال والفلاحين، والمثقفين والطلاب. واتسع النقاش حول أساليب الدعاية المفروض على مناضلي الحزب أن يتبعوها لزيادة عدد أعضاء الحزب. واشترك في البحث عدد كبير من المندوبين أعضاء اللجنة السياسية وممثلي اللجان المنطقية والفروع. وكثرت الاقتراحات المقدمة. وأعطي الكلام لأحد ممثلي المناطق فأكد الحرص على توسيع الحزب بضم أعضاء جدد إليه، وإن هذا الموضوع هو لا مهمة مرافقة لعضو الحزب فحسب، بل هي مبدأ. ولكـن قـال، هنـاك كما تعلمون أيها الرفقاء، شكليات إذا أخذناها بعين الاعتبار نتمكن من زيادة عدد الحزب بسرعة.

ومن هذه الشكليات أن جميع الاحزاب الموجودة والتي تُنشأ تستند إلى مقولة وهي « حلف اليمين ». أي أن كل من يقرر الانضمام إلى الحزب يتوجب عليه أن يقسم اليمين بأنه ينفذ كل المهمات الحزبية، ويتعهد بأن يعمل لتوسيع حزبه وزيادة عدد أعضائه. وتابع صاحب هذا الاقتراح، إذا كان بالإمكان اللجوء إلى هذا فإننا قادرون على تكثيف عددنا كثيراً.

وكان سلام الراسي (أبو علي) في هذه اللجنة. فأجابه على الفور إذا كان العائق هو كما أوردت أيها الرفيق، فأقول لك بصراحة (حلّفو ودخّلو)

عساف الصباغ
أول شهيد شيوعي لبناني ضد الصهيونية

فتى من فتيان « ابل السقي » الجنوبية. مدرسته، مدرسة سلام الراسي في التعاطي مع الناس، وفي الحكم على الواقع، والنظرة إلى التغيير، والشجاعة في المواقف.

عنفوانه عنفوان « جبل عامل »، تراثه تراث الجنوبي الكادح المعطاء الذي يدبّ ولا يتعب. يشب ولا يهلع. يقتحم ولا يتراجع. إن عطا أجزى، وإن وعد وفا.

فلسفته تقوم على مفهوم مادي للمجتمع. أسلوبه في العمل من أجل التغيير جدلي. فمن هو هذا الأملود؟

إنه الشاب الشيوعي المقدام عساف الصبَّاغ الذي استشهد من أجل لبنان الحر المستقل الموحد، خلال شهر حزيران سنة ١٩٤١ في ساحة « ابل السقي » على أيدي الفاشيست الفرنسيين الأوغاد.

كان عساف الصباغ رفيقاً لمير مسعد، وسلام الراسي وفؤاد الجرداق. وبذات الوقت كان أحد تلامذة سلام النجباء الأقوياء الصلبين، الصامدين.

ترعرع في محراب النضال ضد الاستعمار والفاشية، والصهيونية. ودفعته ثقته بنفسه، وبقدرة أبناء بلدته، وقوة شكيمتهم إلى الدخول والمشاركة في مكافحة الارهاب الصهيوني، من الباب العريض وبالوسائل المادية دون تبجج وزعيق.

وفي العام ١٩٣٨ - ١٩٣٩، اشتد الخطر الصهيوني على فلسطين، وراحت عصابات « الشتيرن » و « الهاغانا » تزرع البلاد ارهاباً ضد العرب متلقيّة أوسع الدعم من سلطات الانتداب الانكليزي، فانبرت مجموعة من شباب فلسطين، العمال والمثقفين، والفلاحين، وذوي المهن الحرّة، تحمل السلاح ضد تلك العصابات الصهيونية، وقصة « أبو جلدة » ورفيقه « العرميط »

المعروفة، تشير إلى ذلك. في تلك الأيام أقدم عساف الصباغ مع رهط من الشباب اللبنانيين الجنوبيين على تأليف كوكبة (عصابة) للنضال ضد الارهاب الصهيوني، وللدفاع عن حياة المواطنين العرب. وقد لُفّقت تهمة في حينه ضد عساف الصباغ، بحيث أتّهِمَ بقتل أحد المسؤولين اليهود، وهي تهمة باطلة، وأحيل عساف إلى المحاكمة لدى القضاء اللبناني. ولما كانت براءته واضحة، وأنه بعيد عن ارتكاب أية جريمة ضد أي مواطن، وبعد تدخل من صديقه الزعيم رياض الصلح، بُرّىء عساف مما نسب إليه، وعاد إلى « ابل السقي » وكانت الحرب العالمية الثانية قد بدأت. وظل عساف على ما كان عليه من نظرات، وتطلعات، ومواقف ومواقع إلى أن بزغ فجر جديد على لبنان وسوريا، استنشق منه الناس، الخلاص من الحكم الفاشي الذي سلّطته السلطات « الفيشية » العميلة للادارة الهتلرية، وذلك بالهجوم العسكري للقوات الحليفة ـ الانكليزية ـ الفرنسية الحرّة، من أرض فلسطين على سوريا ولبنان لتحريرهما من الادارة الفيشية. وكان من الطبيعي أن يعلن شيخ شباب ابل السقي، عساف الصباغ تأييده لها. فما أن دخلت إلى « ابل السقي » حتى بادر عساف مع من حوله من الشباب، لتأييدها وتسهيل مهماتها. ولكن القوات الحليفة ـ الانكليزية ـ الفرنسية الحرّة، اضطرت إلى التراجع وإخلاء « ابل السقي »، وعادت إليها القوات الفيشية فاحتلتها عبر ارهاب شديد. وكان أول ما فعلته اعتقال عساف الصباغ وبعض من الشباب الذين يلوذون به. وبشكل ارهابي فاشي صهيوني، أصدرت حكماً باعدام عساف في ساحة ابل السقي على مرأى من أهل البلدة، وقد تم الاعدام شنقاً وسط أسى وألم واستنكار عمّ جميع المواطنين.

ولكن القوات الفيشية لم تتمكن من الصمود. فأعادت القوات الحليفة هجوماً قوياً استرجعت بفضله « ابل السقي » وحررت كل الجنوب، وبالتالي كل لبنان. ولكن عساف كان قد انتهى جسدياً، ولكنه بقي في ضمائر رفقائه، وعشرائه، وأبناء منطقته يتقمص نضالاً عنيداً ضد الاستعمار والصهيونية.

وتدور السنون، ويضع الشعب اللبناني قضيته الوطنية على المصاف الذي وضعت سوريا فيه قضيتها. ففي الوسط الوطني والشعبي ارتفع أوار النضال لانتزاع الاستقلال الكامل غير المقيد وتحقيق الجلاء. وفي أوساط الحكم دبّت النخوة لايجاد تفاهم مع المستعمرين. وعليه قامت الدولة برحلة على المناطق على رأسها رئيسا الجمهورية والحكومة، بهدف إخماد الجذوة الوطنية في النفوس. وبدأت الرحلة في مرجعيون.

وهناك، كما روى المؤرخ الكبير الاستاذ سلام الراسي قال: في أثناء المأدبة التي اقيمت للدولة، وكنت، والكلام لسلام، مدعواً إليها بوصفي ممثلاً للحزب الشيوعي، وقد انتحينا، أنا وحبيب

أبو شهلا، وفؤاد شهاب قائد المنطقة العسكرية، وبدأت الخطب، كما بدأ تبادل الانخاب. وليس بكل ما قيل أي كلمة عن الاستقلال والجلاء. عندها وقفت مؤيداً من صحبي الذين أشرت إليهم، وألقيت خطاباً ارتجالياً طالبت فيه بأن تعلن الدولة موقفها من مطالب الجلاء العسكري عن أرض الوطن. وكان لكلمتي تلك وقع حسن في الحاضرين، اللهم إلا في قمة الدولة الذين صعقوا من هذا الموقف.

ومن «مرجعيون» انطلق شعار الجلاء التام، حتى إذا ما حل موكب الدولة، حسب البرنامج المعد، في مكان آخر، رأوا اليافطات ترفع حاملة الشعارات المطالبة بالجلاء، مما أرغم الدولة على طرح هذا الشعار، وقد أعلنت أنها تتمسك به متضامنة مع الشقيقة سوريا.

إن التربة، تربة جبل عامل المباركة، التي ضمت رفات عساف الصباغ، تنبت دائماً وباستمرار أكارم ميامين. ولكم يغمرنا الفخر عندما نذكر كبيراً سقط، قيدوماً هوى، بملء ارادته، رافضاً الهروب، مفضلاً البقاء مع أبناء «الخيام»، ابناء جبل عامل، هو الدكتور شكرالله كرم، الذي رفض كل ما أسدي له من «نصائح» ليهرب، إلى بيروت أو سواها قبل أن يدركه الخطر. فأبى مفضلاً الموت مع من عايشهم وعايشوه. فكان جزاؤه على مدى أربعين سنة من الخدمات، قتله على أيدي الصهاينة وعملائهم.

إنها الشجرة المعطاء، شجرة عساف الصباغ، وأسعد موسى، والدكتور شكرالله كرم، ومير مسعد، وفؤاد سماره، وجورج الزربا، وادمون فرح. إنه هواء «جبل عامل» وترابه وصخوره التي أوجدت هذه الكوكبة من الفرسان الأماجد الذين يشكلون تراثاً كاملاً، أصالة لبنانية ثورية تجدد باستمرار عهد «العاميات»، وترفع عالياً علم النضال ضد التحالفات الاستعمارية، ولحفر القبور للصهيونية والفاشية.

عندما نتتبع الملاحم التي يسطرها أبطال المقاومة الوطنية اليوم على أرض الجنوب ضد المحتلين الاسرائيليين، ليس لنا إلا أن ننحني باحترام أمام من لبّى الشهادة منهم، ونقدر عالياً جداً من لا يزال متنكباً سلاحه في بطاح وغابات، وشوارع وأحياء الجنوب عاملاً من أجل التحرير والتغيير.

إنهم شيوعيون بالفطرة

إذا نقبنا في ملفات تاريخنا اللبناني، واستطلعنا ما خبىء وخفي ما أعطاه الأقدمون، من أجداد وآباء، وأعمام وأخوال، لوجدنا أنهم أغنوا تاريخ بلدهم. بما امتازوا به من أصالة عبروا عنها في شتى المناسبات والظروف بأعمال مادية لا تزال آثارها راسخة في تقاليدنا ومعالمها واضحة في ما

يرويه القدامى، أو الذين سمعوا منهم عن ضروب قام بها ذاك الرعيل من شعبنا، معالم كانت ولا تزال وستبقى، آثاراً بها نقتدي، ونفخر، ونعتز لصدروها عن شهامة من جهة، وعن شعور بمسؤولية اجتماعية فطرية من جهة أخرى.

من هؤلاء الغيارى على المصلحة العامة، الذين كانوا يعطون بدون حساب. واحد من قريتنا حصرايل هو المرحوم فارس روكز (بو طانيوس). كان فارس رحمه الله، مجلياً في تقديم الخدمات العامة. وبحكم وضع القرى والطرقات القديمة التي تربط بعضها ببعض وهي معالم طرقات ليس إلا، هنا حفرة، وهنا ردوم، وهنا شجرة غطت غصونها الطريق، وهنا عليقة امتدت وسدت الممر. وكم من مرة اضطر فارس روكز لصرف ساعات في العمل لردم حفرة، أو لإزالة حجارة انهارت على الطريق، أو لبلكجة انحدار يشكل عائقاً للدواب المحملة، المنجل لم تفارق وسطه. كان يضعها بين دكة الشروال وظهره، كما يوضع المسدس الآن، وأصبح بو طانيوس مضرب مثل، لا في قريته حصرايل، بل في القرى المجاورة. حتى إذا مر أحد على طريق ورأى الحفر مردومة، والأمكنة المنحدرة، وضعت لها درجات ليسهل المرور عليها، أدرك أن فارس روكز مر من هناك. ولكم كان صعباً، علينا، عندما كنا تلامذة، مضطرين يومياً أن نقطع الطريق بين حصرايل وجدايل بسبب إزالة معالم الطريق. فهو فارس روكز اياه الذي كان بالفعل متعهدها الأمين. وحتى يومنا هذا لا تزال معالم همة فارس بادية عليها. فالبلوكاج (العقد) الذي كان يصنعه بيديه، متين وقوي وثابت، وتعذر على أشد الأعاصير مهما كانت شديدة وقوية، أن تزيلها.

إن تقديم الخدمات العامة عمل ممتع، ومريح للضمير، وعلى هذه الصورة كان فارس روكز.

وعلى طريق فارس روكز، وهو ابن خال والدي، كان المرحومان طنوس مخايل الحلو ويوسف مخايل الحلو. فالأول كان مزارعاً وفلاحاً، إن لجهة العادات والأخلاق والمزاج، أو لجهة الارتباط بالعمل. إن طنوس مخايل (بو مخايل) ما توقف عن فلاحة أرض جار له تتصل بأرضه عندما يحين «اليد» للفلاحة. كان يفعل ذلك دون أي طلب من الجار، ودون إبلاغه عما فعله.

وشقيقه يوسف مخايل (بو ميشال) ذهب أكثر من ذلك في نخوته من أجل الخدمات العامة. فإليه يعود الفضل في بناء الجسر الذي يربط حصرايل بعمشيت في فصل الشتاء عندما يكون «نهر بعشتا» هادراً بحيث يتعذر قطعه. وكانت الصلات بين حصرايل ومجموعة قرى تقع شماليها، وعمشيت حيوية جداً، فعمشيت كانت مركزاً للطبيب، والصيدلية، والمحامي، وإذا كانت الطريق مقطوعة بسبب النهر الشتوي، اضطر صاحب الحاجة أن يمشي أكثر من ساعة ليصل إلى عمشيت عن الطريق الساحلية. ولكن همة بو ميشال كانت في أساس الإقدام على بناء جسر. كما قلنا. ولم يلب دعوته سوى قلائل من حصرايل، أذكر منهم فارس روكز، وطنوس الياس. وأنا،

فمع ما بذلناه من جهد ، وما قدمه بو ميشال من جهد وتكاليف، أنشأنا الجسر ولا تزال معالمه حتى يومنا هذا قائمة.

وعلى أيدي فارس روكز ويوسف مخايل الحلو ، تربيت في هذا المجال. وكنت كلما مررت على الطريق التي تربط خط الطريق الدولية البحرية بقريتنا ، أصرف بعض الوقت لجمع الحجارة عن الطريق، وتنظيفها ، مئات الأمتار أصبحت صالحة لا ، للمرور القدمي بسهولة بل لمرور السيارة.

عندما أقدمنا على إصلاح طريق حصرايل ـ بعشتا طرحنا الصوت على جميع أبناء حصرايل ودقينا ذات يوم ، طبول العمل ، ولكن الذين لبوا الدعوة وانتخوا كانوا قلائل جداً ، ومع ذلك فلم نهن نحن القلائل ، بل استمرينا بالعمل. أما حجة المتقاعسين فكانت ، أن الجميع لم يلبوا الدعوة ، لذلك لم يقدموا على المشاركة. وقد رفضنا هذا المنطق غير السليم.

وإنني بهذه المناسبة لا بد لي من التنويه بنخوتلي من الدرجة الأولى ، هو الصديق جرجس نصار الحلو (بو يزبك) ولهذا الصديق ميزة في تقديم الخدمات العامة ، فهو يزعل ويأخذ عاخاطرو . إذا لم يدع إلى المشاركة في الأعمال العامة . وأمتع مناسبات الحياة عنده ، عندما يدعى للقيام بعمل ما ، أو لتقديم خدمة اجتماعية . وحتى يومنا هذا وبالرغم من الثمانين التي يحمل ، فلا يزال مرجعاً للفصل في قضايا عديدة تتعلق بمعالم حدود العقارات ، وكل ما يتعلق بحالاتها ومشاكلها .

عندما أسسنا في بلاد جبيل ، منظمة شيوعية سنة ١٩٣١ . بقيادة كبيرنا ، فرج الله الحلو ، كنا خمسة . فقط خمسة وكان علينا أن نزيد عددنا . كيف نعمل ، الشيوعية كلمة غريبة عن أسماع ، ومفاهيم الناس آنذاك ، ماذا نقول للناس لنجلبهم إلى جهتنا ، ونقنعهم للدخول في حزبنا ، أنقول لهم إننا سنحقق الاشتراكية ، فيقولون لنا أنتم مجانين. حتى نحن ما كنا نعرف أن نشرح لهم مبنى ومعنى ومغزى الاشتراكية . أنقول لهم أن هناك بلاد الحكم فيها في أيدي الشغيلة . ونحن نريد أن ننتقل إلى وضع كوضعهم ، أن نقول لهم ، إننا ندبر لهم عملاً ، والعمل مفقود . ولا سيما ونحن كنا دوارين بدون عمل . « جوعا وشبعا » .

لهذا ، وبتوجيه من كبيرنا فرج الله الحلو ، اتجهنا للخدمات العامة والخاصة ، كنا في طليعة المشاركين في المشاريع العامة .

هذا الأسلوب ، المشاركة وتقديم الخدمات ، ساعدنا كثيراً على الانطلاق ، وتكوين أصدقاء دعمونا في مناسبات قاسية ، كما أن « المساعدة الحمراء » التي أصبحت لاحقاً « المساعدة الشعبية » ساعدتنا كثيراً على توسيع أطر عملنا ، بما كنا نقدمه من مساعدات ضئيلة تسمح بها حالتنا المادية ، لبعض الفلاحين والعمال إذا ما مرضوا . أو تعرضوا لمصاريف ناجمة عن وضع صحي ، أو عن

إرهاب حكومي.

ما تعطلنا يوماً عن إيجاد عمل. بمعنى أننا كنا نفكر باستمرار، لإيجاد مهمات تفرض علينا واجبات يومية علينا أن نقوم بها من أجل توسيع الحزب، وتعميق صلاته بالناس.

كنا نذهب لعند الناس، في جميع المناسبات. ولم نقل يوماً هذا لم أره أبداً في بيتي، فلا أذهب لعنده، أو أن بيني وبين هذا لا توجد زيارات ولا واجبات. بالعكس، كنا نذهب أكثر لعند الذين لا زيارات بيننا وبينهم، ولطالما قال بعضهم، لحن لسنا مرتاحين لمجيئكم إلى بيتنا. ولكننا ما انقطعنا عنهم أبداً. وقد لمسنا لاحقاً، أن هؤلاء الذين رفضونا ذات يوم، أصبحوا من أقرب الناس إلينا. إن أشد ما يقوقع منظمة، في بلد، أو فرقة في حي، هو التزمت الناجم عن انعزالية وفردية، تجعلان من الجزيئات نقاطاً أساسية تقيم لها حدوداً، وتخوفاً من شأنها أن تفرض التباعد.

نحن بحاجة إلى تأييد الجماهير وعطفها ولحن بما لحن عليه من صفاء نظرية، وقوة تنظيم، وقدرة على البذل والعطاء، قادرون، على أن نكسب باستمرار ناساً إلينا. وفي أساس ذلك، تبقى الخدمات العامة، والتفاني ونكران الذات، والالتصاق الفكري والحياتي بالجماهير، الأساس الذي لا تكسر حجارته، ولا تطوى نصاله. فقط العمل لتحقيق الخدمات العامة، لا ينسى، بل يبقى لا في أذهان الناس وحسب، بل وتحت أنظارهم، ومتناول أيديهم، النبع الذي حفر وأمن الماء لأبناء هذه القرية أو تلك لا ينسى. الطريق التي شقت إلى هذه القرية، أو هذا الحي لن تزال، وهي في متناول أحاديث الناس. المعبد أو المدرسة اللذان بنيا مرئيان أمام الناس ولا يمكن تجاهلها.

إن من سردت من الأسماء، فارس، طنوس مخايل، يوسف مخايل، طنوس الياس، بو يزبك وأمثالهم، هؤلاء شيوعيون بالفطرة وإن يكن لا يعلمون شيئاً عن الشيوعية، ولا عن طبيعة الحزب وأهدافه.

نقابات واضرابات

شهدت العشرينات اقداماً بارزاً للتنظيم، بخاصة على الصعيدين النقابي العمالي والسياسي. وكانت الاتجاهات لتأليف النقابات العمالية تبرز في المناطق الأكثر تطوراً من الناحيتين الصناعية والزراعية. ففي بكفيا وجدت صناعة الدخان. وفي بيروت تطورت وتمركزت صناعة الطباعة، وفي زحلة والبقاع وجدت صناعات حرفية، صناعة الدباغة ـ صناعة الخمور ـ مشغل رياق التابع لشركة سكة الحديد. صناعة السنون على أنواعها، صناعة التبغ ـ حل الشرانق. صناعة الخياطة إلخ... وكان للصحافة دور تاريخي بمعزل عن أهداف أصحابها، فجريدتا «الصحافي التائه» و «زحلة الفتاة» الصادرتان في زحلة العام ١٩٢٢، لعبتا دوراً بارزاً ومهماً في دعم تأسيس نقابة للعمال. كما وأن بعض الذين عادوا إلى الوطن من المهاجر وكانوا قد تعرفوا في مهاجرهم على الحركات العمالية، أدركوا بتجربتهم جدوى تنظيمها. وكيف أنها تشكل عاملاً أساسياً للحفاظ على حقوق العمال. يضاف إلى ذلك سوء الحال الاقتصادية. بطالة في ازدياد. مواسم زراعية في بوار، الآمال التي علقها البعض على الانتداب الفرنسي بأنه جالب خير ومبعث نعم، ذهبت سدى. لهذا لقيت الدعوة التي بادر إلى طرحها لتشكيل نقابة لعمال زحلة المتنور رشيد سويد، اقبالاً وتأييداً واسعين برزا في الصحيفتين الصادرتين في زحلة الصحافي التائه وزحلة الفتاة. كما أن زعماء العائلات الزحلية لم يقاوموا في البدء تأليف النقابات، بل تركوا الأمور تجري على اعنتها بأمل أنه سيكون لهم في هذا التجمع العمالي الكبير حصة الأسد يفيدون منه في الانتخابات النيابية التي كان الجميع ينتظرها.

نقابة عمال زحلة

ففي السادس من شهر نيسان سنة ١٩٢٣، اجتمع في منزل رشيد سويد وبدعوة منه ثلاثون شخصاً بين عامل وحرفي واتفقوا على تأسيس نقابة لهم.

كان رشيد مهاجراً في «كندا» وهناك تمكن من الاطلاع على تنظيمات الحركة العمالية. ويبدو

أنه كان منخرطاً فيها. وعاد إلى الوطن تحمل أفكاره المفاهيم الواضحة عن أهمية التنظيم ودوره في الحفاظ على حقوق العمال الاجتماعية والاقتصادية (كان يعمل خياطاً).

وفي تلك الفترة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤، تزايد النشاط لتأسيس النقابات المهنية وذلك بحكم الواقع الذي تعيشه البلاد. في «مذكرة البحث» التي وضعها الأستاذ هيكل الراعي «نشأة الحركة النقابية في لبنان» ورد: حول أول جلسة لنقابة عمال زحلة ما يلي:

«في جلستها المنعقدة في ٦ نيسان سنة ١٩٢٣ انتخبت نقابة العمال الزحلية هيئتها من: «رشيد سويد رئيساً ـ فوزي بريدي أميناً للسر ـ انطوان شدياق أميناً للصندوق ـ نجيب جرمانوس معاوناً لأمين الصندوق ـ ونخلة خطار وميشال بيروتي عضوين».

واتخذت النقابة في جلستها هذه قرارين بـ: «جعل رسم الدخول خمسة عشر قرشاً ـ وبدفع ٢٪ من دخل العامل الشهري» لصندوق النقابة.

ومن معالم الجدية بتأسيس النقابة لتكون فعلاً شعبية وجماهيرية ينضوي تحت لوائها الفقراء والمحتاجون، هو أن رسم الانضمام لم يكن مرتفعاً، فقد روعيت قدرة العمال من جهة، وجعل النقابة منظمة شعبية جماهيرية من جهة أخرى. تَـمَّ تحديد رسم شهري نسبي يدفعه العامـل. أي أن الذي يكسب ١٥ ليرة بالشهر، يدفع أقل من الذي يكسب ٣٠ ليرة. وهذا برهان آخر يشير إلى الجدية التي توختها هيئة النقابة في تعاملها مع العمال

وتوخى مؤسسو النقابة جعل النقابة لكل العمال وذات جدوى وذلك بإقدامهم على تأسيس مكتب خاص بها. ففي جلستها الثانية المنعقدة في ١٢ نيسان ١٩٢٣ تقرر استئجار بيت أحد الرفاق (وديع نمر) واتخاذه مركزاً للهيئة بمبلغ قدره ١٥٠ قرشاً سورياً بالشهر.

اتحاد نقابات لا نقابة

لم تكن نقابة عمال زحلة نقابة عادية، بل كانت شبيهة باتحاد لعمال زحلة. ففي الجلسة الثانية المشار إليها تقرر «انتخاب لجنة تضم من كل مهنة واحدة». والمهن التي تقرر انتخاب ممثلين عنها هي مهنة: الخياطين ـ الصاغة ـ الكندرجية ـ عمال المقالع ـ الحلاقين. وفي هذه الجلسة اقترح أسعد المنذر «بأن يهيء كاتم الأسرار المواد الرئيسية ليصير البحث بها».

وحرصت نقابة عمال زحلة على أن يكون المنتمون إليها والمنضمون إلى صفوفها مطمئنين إلى أن مصالحهم مصانة. ففي الجلسة السابعة التي عقدتها هيئة النقابة تقرر أن يضم القانون الأساسي مادة تنص على: «أنه إذا مضت ستة أشهر على العامل في النقابة ثم اضطر لتركها بسبب مقبول من

الجمعية يحق له أن يتناول من صندوقها نصف كل الرسوم المدفوعة منه شهرياً ».

ويوماً فيوماً أخذ اسم النقابة يخترق الجدران، لا ليصل إلى بيوت العمال والمهنيين وحسب، بل وإلى بيوت الكثيرين من المثقفين والمتنورين وحتى من بعض الوجهاء، وهذا الإقبال على النقابة جعل هيئتها تفكر بوضع شارة رسمية لها. ففي جلستها التاسعة قدم السكرتير فوزي البريدي وهو مثقف شارة مصنوعة على هيئة منجل يحصد سنابل زرع واقترح أن تكون شعاراً للنقابة وأن يضع العلم على هذه الصورة.. وعين الرئيس لجنة برئاسة فوزي البريدي لدرس القضية وتقييد أسماء عمال المدينة يعاونه راجي القاصوف ورزق الله بو صعب وجوزف أيوب. وفي الجلسة العاشرة « قدم سبيع صدقة ورزق الله بو صعب - للهيئة صورة رجلين يديران دولاباً فوقها أرزة فصدق الاقتراح وكلف نجيب جرمانوس لعمل « مسطرة » عن ذلك ».

صحافة زحلة والنقابة

في العدد ٥٢ الصادر في ١٤ نيسان ١٩٢٣، كتب اسكندر الرياشي في « الصحافي التائه » حول تأسيس نقابة للعمال: « وتكلم الرفيق الرئيس (سويد) في إحدى جلسات النقابة مفنداً ماهية العامل والمركز الكبير الذي يشغله في الهيئة الاجتماعية. وفي كلمته التي ألقاها الرئيس رشيد سويد وجه كلمة إلى الصحافي التائه قال فيها: « إن هذا الحزب (يقصد النقابة) لم يتألف إلا اندفاعاً مع الحملات الشديدة التي قامت بها هذه الجريدة (يقصد الصحافي التائه) ضد أحزاب الرأسماليين (يقصد حزب العمال المعروف بحزب الصيفي الذي أسسه الانتداب الفرنسي لتخريب التنظيم العمالي) ».

الاهتمام بالشأن الاجتماعي

وأولت نقابة عمال زحلة الشأن الاجتماعي بالغ الاهتمام. ففي عددها رقم ٥٤ (٢١ نيسان ١٩٢٧) وصفت « الصحافي التائه » جلسة النقابة فقالت: « ومما سر الصحافي (يقصد الصحافي التائه) حماس ووطنية الدكتور يوسف جريصاتي الذي قدم ذاته لتطبيب العمال مجاناً. وقد قرر ايجاد صيدلية تقدم الأدوية اللازمة للعمال مجاناً. كما أن أحدهم اقترح إيجاد مدرسة ليلية لتعليم العمال ».

وأبرز ما ركزت النقابة عليه هو العمل على تأمين مدخول مادي يغطي مصاريفها. وإبراز اسم النقابة كمنظمة اجتماعية. وانطلاقاً من هذا قررت النقابة في جلستها الرابعة المنعقدة في ٢١ نيسان ١٩٢٣، تمثيل رواية يخصص دخلها للنقابة. وكانت لتمثيل هذه المسرحية نتيجتان - أولاً إقدام عمال جدد على الانتساب إلى النقابة. وثانياً، وعي بعض الفئات إلى الأهمية التي تحتلها النقابة.

وفي جلستها الحادية عشرة قررت النقابة تمثيل رواية عربية وذلك في ١٠ حزيران ١٩٢٣، كما

قررت دعوة الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي، وأمين الريحاني ليخطبا في الحفلة.

وكانت الحفلة «سوق عكاظ»، فقد ألقيت فيها الخطب والقصائد. هذا أمين الريحاني يطل على الجمهور بقصيدة مطلعها:

أعيـــدي إلي مـــن أيـــاديـــك خيرهـــا
أيـــادي عمال فـــؤوسهـــا تلمـــع

وهذا الفتى الياس أبو شبكة يلقي قصيدة عصماء عنوانها «أنا فتى حر» مطلعها:

وإنـــي فتـــى حـــر أسيـــر عـــلى هـــدى
ضميـــري ولا أهـــوى ســـوى الرجـــل الحـــر
بنيـــت مـــع الأحـــرار جـــراً ممنعـــاً
دعـــوني بحـــق الله أمشـــي علـــى جســـري

وهذا نجيب ليان يقول:

«وجميعنـــا بـــالفخـــر نعمـــل خـــدمـــة»
«للشعـــب لا لـــزعـــامـــة الأسيـــاد»
«مـــا أشـــرف العمـــال حيـــن نـــراهـــم»
«ولهـــم علـــى رأس الزمـــان أيـــادي»

هذه الأساليب في عمل نقابة عمال زحلة تذكر بمنظمة شيوعية في بلاد جبيل. فمع دفاع تلك المنظمة عن مطالب الفلاحين والعمال والشغيلة لجأت إلى أسلوب آخر في العمل وذلك لتوسيع صلاتها بالجماهير من جهة، ولتأمين دخل مالي من جهة اخرى. وبالرغم من أننا كنا جميعاً في تلك المنظمة من الفلاحين والشغيلة، عمدنا إلى تمثيل روايات حضرها المئات من أبناء بلاد جبيل. ومن أبرز تلك الروايات التي مثلناها رواية «لولا المحامي» لمؤلفها الكاتب الكبير سعيد تقي الدين. وكانت مناسبة تمثيل الروايات تشكل سوق عكاظ، حيث يلقي العديد من الحضور خطابات وقصائد «كم بيت» من المعنى، أو مواويل العتابا...

من هنا ندرك أن نقابة عمال زحلة سعت منذ الشهور الأولى لقيامها لترسيخ علاقتها بالجماهير، ولتوسيع رقعة نشاطها ضامة إليها العمال من جهة، وموطدة صلاتها بالوسط الثقافي من جهة أخرى.

وأنا من الذين يعتقدون أن نقابة عمال زحلة، كانت المنشأ الأول لبذور الشيوعية في لبنان.

وقد حضنت (تلك البدور) بعناية فيما بعد نقابة الدخان في بكفيا التي تأسست سنة ١٩٢٤. فعلى أيدي أعضاء هذه النقابة تمت ولادة المولود الجديد في ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩٢٤ وأعني به الحزب الشيوعي اللبناني الذي أصبح له من العمر الآن ستون سنة متمتعاً به حة جيدة، يزداد مع تقدمه في العمر معافاة، وديناميكية مميزة.

إن الحقيقة تفرض على المؤرخين، إعطاء كل ذي حق حقه. وبهذا لا بد من الاعتراف بالدور الريادي الذي قام به رئيس النقابة رشيد سويد. سواء عندما فكر بتأسيسها، أو عندما أشرف على مسار نشاطها بعدما أصبح رئيساً لها. وحول هذا الموضوع يقول الأستاذ ميكال الراعي: «يلاحظ من الرخصة المعطاة للنقابة أن اسم فوزي البريدي لم يذكر فيها. (تأسست النقابة في ٦ نيسان وحصلت على الرخصة في ١٢ حزيران ١٩٢٣) وأن اللجنة الادارية المقدمة لطالب الرخصة هي كلها من العمال الزحليين. وهذا يؤكد ما قلناه من أن سويد سعى دائماً لإبقاء الطابع العمالي مسيطراً على النقابة».

وكان من الطبيعي أن تتحرك الرجعية ضد نقابة عمال زحلة، عبر جريدة الجزويت، البشير، متهمة إياها أنها أصبحت في أيدي الملحدين، كما أن مطران زحلة اشترك في حملة التشهير على النقابة. وذلك لأنها دعت أمين الريحاني ومعروف الرصافي لإلقاء خطابين في الحفلة التي أقاموها بمناسبة تمثيل الرواية المشار إليها آنفاً.

وفي ٩ آب ١٩٢٣ عقدت النقابة جلسة اتخذت فيها قراراً نشرته «الصحافي التائه» في ١١ آب ١٩٢٣ نص على عدم قبول في سلك النقابة إلا العمال المأجورين الحقيقيين، أي الذين يعيشون من كد يمينهم وعرق جبينهم. وذلك عملاً بقانون النقابة، ولأجل تضامن الطبقة العاملة في سبيل مصلحتها.

وأخذ نفوذ النقابة يتسع لا في زحلة، بل في القرى والمناطق البقاعية. عندما يتكلمون عنها ما كانوا يسمونها نقابة، بل حزباً: الحزب عمل، الحزب قال: الحزب قرر، إلخ... وأصبحت الرغبة لتأسيس فروع لها تزداد. ففي ٢٩ آب ١٩٢٣ نشرت: جريدة «الصحافي التائه» رسالة وردت إليها من الدكتور أمين داوود في راشيا تضمنت ما يلي: «هبت روح جديدة في هذه المنطقة فهب الشعب الريشاني - وأعني بالشعب جماعة الذين يأكلون خبزهم بعرق جباههم - يطالب بما له من حق تحت الشمس خالعاً نير الرسماليين والزعماء وأصحاب النفوذ الوهمي... فالتف على نفسه بوابة مفكريه وقام يسعى لتأليف حزب للعمال يكون فرعاً للحزب الزحلي فهل لحضرة رئيس هذا الحزب أن يفاوضنا في اللازم عمله ويرسل لنا قانونه لنأخذه دستوراً لأعمالنا وهل لجريدتكم الراقية التي هي لسان حال العمال الحقيقيين والمجاهدة في سبيل إسعادهم أن تؤازرونا في طريقنا

الجديد الذي أسناه على حقوقنا المهضومة واقبلوا أيها الرفيق السلام؟».

وقد أجاب رئيس النقابة رشيد سويد على هذه الرسالة بكتاب نشرته «الصحافي التائه» تضمن ما يلي: «كتابكم المفتوح الذي وجهتموه إلى نقابة العمال الزحلية، صادف وقعاً جيلاً في قلوب الرفاق وأطربتهم روحك الثائرة على كل سلطة مستبدة ونود أن تنتشر وتعم هذه الروح في جميع أنحاء سوريا والبقاع فينتفض العمال البائسون على كل رأسمالي يحتكر أموال الشعب ويموه على العقول الضعيفة وعلى كل من لا يحترم العامل النزيه ويسعى أن يتمتع بتعبه وعرق جبينه. ونحن نطلب مقامنا تحت الشمس ومطلبنا حق وعدل لأننا لا نريد إلا المساواة. فباسم النقابة نشكركم ونفتح صدورنا ونرحب بالحزب الذي تريدون تأسيسه ليكون فرعاً لحزب العمال الزحلي، وسيصلكم صحبة البريد قانون النقابة. ونقابتنا تعقد جلساتها بكل انتظام وإن الحزب ينمو، وإن روح العمال لا تموت فالأرواح تحيا مع الزمن ولا تدفن تحت التراب».

وقد تابعت نقابة عمال زحلة أعمالها ولو بشكل متقطع خلال عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥، وأسست خلال هذه الفترة صندوقاً لمساعدة أعضائها وقد بلغ عددهم ثمانين عضواً. وفي مطلع العام ١٩٢٦ داهم أفراد الأمن العام منزل رئيس النقابة رشيد سويد، ولكنهم لم يجدوا فيه ما يشكل أي مادة جرمية. وهنا كان شمل النقابة قد أخذ ينفرط، وترك رشيد سويد مهنة الخياطة وبذلك توقف نشاط النقابة.

لا بد من التوقف ملياً عند نشاط مؤسس النقابة رشيد سويد، وتطلعاته البعيدة. فبحكم كونه كان مهاجراً في كندا، وأنه كان هناك رئيساً لجمعية «الاتحاد اللبناني»، وأنه أقدم على ارسال رسالة لحزب العمال البريطاني يهنئه فيها بنجاحه بالانتخابات البرلمانية، وكذلك في مداخلاته في أثناء اجتماعات النقابات، وفي جوابه على رسالة الدكتور أمين داود حول تأسيس فرع لنقابة عمال زحلة «الحزب» في راشيا، من كل ذلك يتضح أن رشيد سويد كان فعلاً يعمل لتأسيس حزب جدي للطبقة العاملة ولم يكن نشاطه مجرداً عن الأفكار الشيوعية التي أخذت تطل على المنطقة العربية وذلك بعد تأسيس الحزب الشيوعي المصري، ومواقف العديد من الأدباء والكتاب مثل، فرح انطون، ونقولا حداد، وشبلي شميل، وأمين الريحاني، وسلامة موسى وغيرهم، ومن ثم نشاط فؤاد الشمالي بعد عودته من مصر سنة ١٩٢٣، ونشاط رفيق جبور ابن زحلة في مصر ونفيه منها إلى فلسطين وكتاباته الرائدة حول طبيعة حزب الطبقة العاملة.

وإن الأثر الذي تركته نقابة عمال زحلة لعب فيما بعد دوراً ملحوظاً، في تأسيس فرقة شيوعية في زحلة، قيل إنها تأسست سنة ١٩٢٨. وإن النضال اللاحق الذي خاضه أبناء زحلة في أواخر العشرينات ولا سيما العمال والحرفيون والمثقفون منهم، هو استمرار للمواقف النبيلة التي وقفتها

نقابة العمال مع من أيدها من المثقفين والصحافيين وبخاصة صحيفتي: «زحلة الفتاة» و «الصحافي التائه».

غير أن التركيبة الزحلية والضغوط التي مورست على النقابة، وكذلك عدم نضوج العامل الذاتي المسترشد بالفكر الطليعي قد دفعوا هذه التجربة الرائدة إلى الحائط المسدود عام ١٩٢٦، مما استطاعت نقابة التبغ في بكفيا تجاوزه عام ١٩٢٤ حين أعقب تأسيس هذه النقابة بشهرين، تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني. ومن ثم تأسيس «حزب الشعب اللبناني» بنشاط فؤاد الشمالي ويوسف ابراهيم يزبك.

وما الاحتفال الذي أقامه «حزب الشعب اللبناني» بأول نوار سنة ١٩٢٥ في سينما الكريستال، إلا تكريس عملي لواقع الحزب الشيوعي. والاثنان معاً (حزب الشعب، والحزب الشيوعي)، هما المحصلة لنشاط نقابة عمال الدخان التي تأسست في بكفيا.

قلنا إن نشاط «نقابة عمال زحلة» توقف نهائياً في مطلع العام ١٩٢٦. ورقدت الحركة النقابية في «جارة الوادي» حتى العام ١٩٢٩، حيث أقدم فريق من العمال على رأسهم المناضل الشيوعي المعروف هيكازون بوياجيان على إعادة ممارسة النشاط النقابي بالاستناد إلى رخصة «نقابة عمال زحلة» المتوقفة ولكن تحت اسم جديد هو: «النقابة العامة لتعاون عمال زحلة». وقد ساهمت هذه النقابة باضراب السواقين اللبنانيين سنة ١٩٢٩. والتف العمال حول نقابتهم، وبخاصة عمال مشغل السكة «ateller» في رياق، ولم يرق هذا النشاط السلطات الاستعمارية فأصدرت مرسوماً رقمه ٥٨٧٧ حظرت بموجبه أي نشاط على النقابة. وعلى الأثر حرر قادتها منشوراً دعوا العمال والفلاحين فيه للقيام بحملة استنكار واحتجاج على قرار حل النقابة. ووقع البيان: رشيد الشويري، سليمان الحاوي، مخايل طراد، رشيد عاصي، الياس القرعوني، جرجس غانم، جورج جبران، بديع شيبان، أحمد ميتي، ابراهيم طنوس، هيكازون بوياجيان، يوسف الميهي.

ونشرت جريدة زحلة الفتاة الخبر مع البيان. وحول موقعو البيان إلى المحكمة، ودافع عنهم الاساتذة: اميل لحود، اميل قشعمي، فوزي البردويل.

وتحت تأثير النشاط الذي أبدته نقابة عمال زحلة ١٩٢٣ - ١٩٢٦ ومن ثم نشاط «النقابة العامة لتعاون عمال زحلة» ١٩٢٩، وبحكم مصالحهم الخاصة المتضررة، أعلن القصابون في زحلة في أواخر العام ١٩٣٤ الاضراب الذي بلغ درجة نضالية عنيفة. وقد أطلق عليه «انتفاضة القصابين». فأطلق الدرك الرصاص على المضربين الذين احتلوا المسلخ، فجرح منهم كثيرون، واعتقل آخرون وحولوا إلى المحاكمة. وبتدخل من الحزب الشيوعي في لبنان، أوفد الحزب الشيوعي الفرنسي

الشقيق أحد اعضائه المحامي الكبير انطوان الحاج للدفاع عن المعتقلين من القصابين في زحلة. وقد استقبل الحاج استقبالاً مشجعاً اشترك فيه كثيرون من أهل القلم والمحامين وغيرهم.

وخلال وجوده في بيروت قبل موعد المحاكمة دعي الرفيق حاج لإلقاء محاضرة في نادي حزب الاستقلال الجمهوري، وكانت محاضرة عنيفة هاجم الحاج فيها المفوض السامي، وحكم الانتداب في لبنان. فما كان من المفوض ديمارتيل إلا أن أصدر قراراً بإبعاده عن البلاد فوراً بحجة أنه غير مرغوب فيه. وقبيل سفره بعث أنطوان حاج برسالة إلى المفوض السامي وزعها الحزب الشيوعي بمنشور في جميع الأنحاء قال فيها مخاطباً ديمارتيل: لست أنا غير المرغوب فيّ بدليل أن الألوف استقبلوني وصفقوا لي، غير المرغوب فيه هو أنت يا ديمارتيل.

ولكن السجناء لم ينعموا بسماعهم دفاع انطوان حاج. وربما كان من الأفضل أن لا يقوم الحاج بأي نشاط سياسي قبل أن يكون أتم مهمته للدفاع عن السجناء.

لم تكن زحلة ينبوعاً للحركة العمالية النقابية المنظمة، فحسب، بل كانت شلالاً فيما بعد للحزب الشيوعي الذي تبوأ مكانة مرموقة لا في عاصمة البقاع، بل وفي قراه وسائر مناطقه وبخاصة في بعلبك. وهذا التراث يتفاعل اليوم بحيث تنمو في البقاع العزيز حركة نقابية في وسط العمال الصناعيين وفي وسط العمال الزراعيين، وجموع المزارعين، وهو واقع يجعلنا نلمس التواصل في النضال حسب مقتضيات ومتطلبات المراحل التاريخية.

(أوائل تشرين الأول ١٩٨٤)

المراجع

١ ـ هيكل الراعي: أطروحة حول نشوء الحركة النقابية في لبنان.

٢ ـ محمد دكروب: السنديانة الحمراء.

٣ ـ الياس البواري: تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان ـ الجزء الأول.

النقابة العامة لعمال التبغ ـ بكفيا

المرحلة الممتدة بين إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، وإعلان الحرب العالمية الأولى في أول آب ١٩١٤، كانت مرحلة التحرك النشيط لتأسيس النقابات العمالية والمهنية. ففي أواخر العام ١٩٠٨ تأسست نقابة عمال السكك الحديدية، ثم تلاها سنة ١٩١١ تأسيس نقابة الصحافة اللبنانية باسم «لجنة الصحافة»، ومن ثم تأسيس نقابة عمال المطابع في أواخر العام ١٩١٣، ولكن إعلان الحرب العالمية ودخول تركيا فيها، أوقف جميع التنظيمات العمالية والمهنية والسياسية، حتى إذا انتهت

الحرب في ١١ تشرين الثاني سنة ١٩١٨، ووقع لبنان وسوريا تحت حكم الانتداب الفرنسي، عادت النقابات التي توقفت بسبب الحرب، إلى تجديد نشاطها ومزاولة عملها النقابي.

ففي أواخر العام ١٩١٨ عادت نقابة الصحف إلى مزاولة نشاطها. وفي العام ١٩٢٣ عادت نقابة عمال المطابع إلى عملها المهني. ونقابة السكك الحديدية أعادت تنظيمها في العام ١٩١٩. وفي العام ١٩٢٢ تأسست نقابة الطهاة. وفي العام ١٩٢٣ تأسست «النقابة العامة لعمال زحلة». وفي مطلع صيف ١٩٢٤ تأسست «النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان» (بكفيا) موضوع هذا البحث.

في الحقبة بين أعوام ١٩٢٣ و ١٩٣٢ بدأت مظاهر أزمة اقتصادية عالمية انسحبت على لبنان. فعدد العاطلين عن العمل تكاثر. وضربت موارد اقتصادية أساسية كانت تشكل السند الرئيسي لعمل ومعيشة اللبنانيين كتربية دودة القز وما يتصل بها من صناعة بلغ عدد معامليها المئات في مناطق لبنان، وبخاصة في قضاءي الشوف والمتن حيث تجمع الوف الشغيلة.

هذا الوضع جعل عمال مختلف المهن يتحسسون أوضاعهم، ويعملون للم شملهم في نقابات وجمعيات تدافع عن حقوقهم وتعمل لرد الحيف عنهم. ورافق هذا التحرك العمالي والمهني، دخول الثورة الاشتراكية في روسيا في مرحلة مد جديدة تخللتها انتصارات اكدت ثبات وضعها ودخولها في مرحلة استقرار. فقد أكملت تحرير الوطن من المتدخلين الأجانب، وتأسس «الاتحاد السوفياتي» وتوسعت إطلالات الدولة السوفياتية في العالم الخارجي سياسياً وتجارياً، وفي الداخل انتهجت الدولة السوفياتية سياسة تصنيع البلاد كشرط لا محيد عنه للدخول في مرحلة بناء الاشتراكية وذلك بدءاً بكهربة البلاد. هذه المنجزات التي حققتها دولة العمال والفلاحين كان لها أصداء بعيدة وعميقة في العالم، ولا سيما في أوساط العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين في البلدان العربية قاطبة وبخاصة في لبنان.

نقابة عمال الدخان

في هذا الوقت، في مطلع صيف سنة ١٩٢٤ تأسست في بلدة بكفيا من أعمال قضاء المتن - جبل لبنان «النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان»، نقابة جديدة، ومن قماشة جديدة، عمالية مئة بالمئة. أسسها كادح لبناني عاش مدة طويلة من الزمن في مصر يعمل هناك في معامل التبغ المتطورة آنذاك. عامل مادي التفكير، ماركسي العقيدة، ديالكتيكي الأسلوب. كادح لا يملك من دنياه شروى نقير، كل عدته فكر ثوري، وإرادة لا تلين، وعصامية لا تتراجع أمام الصعوبات. إنه فؤاد الشمالي أول أمين سر لنقابة عمال الدخان، ومن ثم أمين عام للحزب الشيوعي اللبناني.

بعدما أبعدت السلطات المصرية - الإنكليزية فؤاد الشمالي من مصر لنشاطه الشيوعي بوصفه

أحد مؤسسي الحزب الشيوعي المصري، عاد إلى وطنه لبنان، إلى محراب عمال الدخان. فحط رحاله في بكفيا حيث كانت صناعة الدخان فيها متطورة، وتحتوي على تجمع عمالي واسع، في صفوفه عمال طليعيون كفريد طعمة وبطرس حشيمة وسواهما.

كانت زراعة وتجارة وصناعة الدخان في العام ١٩٢٤، غير موحدة في لبنان. ففيما كانت تجارة وزراعة وصناعة التبغ في بيروت وطرابلس والأقضية الأربعة التي أعيدت إلى لبنان سنة ١٩١٩ وتكونت على أساس ذلك دولة «لبنان الكبير»، خاضعة لنظام الاحتكار - المونوبول الموروث من الاحتلال العثماني الذي سبق أن أعلن العام ١٨٨٣ وتسلمت زمامه شركة أجنبية - فرنسية - إنكليزية - كانت صناعة وزراعة وتجارة الدخان في لبنان المتصرفية، أي لبنان الصغير، حرة لا تخضع لأي قيود، إنما كان محرماً توريد السكائر إلى مناطق المونوبول. وإن ما كان يتسرب إليها منها، كان يتم بواسطة عمليات التهريب التي نشطت في تلك الحقبة.

قدّر فؤاد الشمالي أمين سر نقابة الدخان سنة ١٩٢٥، أن عدد الذين يعيشون من صناعة الدخان يبلغ ١٢٠ ألف عامل وعاملة. وعدد المعامل قدر بـ ٢٠٠ معمل «السنديانة الحمراء لمحمد دكروب».

ففي مناطق جبل لبنان، وبخاصة المتاخمة للعاصمة، كثر تأسيس معامل لف السكاير في فرن الشباك، والشياح، وجسر بيروت، وانطلياس، امتداداً إلى بكفيا، وبتغرين، وجونية، وجبيل، والبترون، إلخ. كان إنتاج السكاير يتم بطرق أولية بدائية جداً، فالآلة لم تكن موجودة. فقد كان ما يسمى بـ «القالب» المصنوع من الورق المقوى - الكرتون - والمدك الخشبي الذي يستعمل لدفع التبغ من القالب إلى ورقة السيكارة. حتى إذا تمت هذه العملية، تسلمت إحدى المختصات السكاير وراحت تقطع التبغ الزائد فيها، ثم ترتبها وتوضبها في صناديق، أو علب، وإن أفضل لفيفة سكاير ما كانت لتقدر أن تلف أكثر من ١٥٠٠ سيكارة باليوم لقاء ٤٠ قرشاً سورياً.

طليعة نقابية

في تلك الحقبة، في سنة ١٩٢٤ تأسست في بكفيا «النقابة العامة لعمال الدخان» كما ورد، وحول ذلك يقول المؤرخ في الحركة العمالية والنقابية الياس البواري ما يلي: في عام ١٩٢٤ تأسست «النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان - بكفيا»، ويعود الفضل في تأسيسها إلى فؤاد الشمالي متعاوناً مع العمال إبراهيم اسطفانوس، أسعد نصار عقل، الياس الحاج، فريد طعمة، بشارة كامل، ويمكن القول إنها كانت طليعة النقابات التي قادت حملة التحرر من نفوذ (حزب العمال).

منذ تأسيسها رفعت النقابة العامة لعمال الدخان بقيادة فؤاد الشمالي، وفريد طعمة وزملائهما في

قيادة النقابة، النضال ضد المونوبول، وطالبت بالغائه، وتوحيد نظام التبغ في لبنان. كما أنها لم تتخل قط عن المطالبة بتحسين شروط العمل في المعامل، وتحسين الأجور، وتحديد ساعات العمل بثماني ساعات باليوم، وتحقيق الضمانات الاجتماعية للعمال.

مطالب مدروسة وذات
أهمية راهنة أيضاً

خاضت «النقابة العامة لعمال الدخان» نضالاً دؤوباً وعنيفاً ضد شركة المونوبول كما ورد، وأبرز ما قامت به هو تنظيم تظاهرة سيارات ضخمة في ٦ تموز العام ١٩٣٠، انطلقت من بكفيا إلى بيروت، وقيل ان عدد السيارات زاد على الخمسين سيارة، حيث قابل العمال المسؤولين وقدموا إليهم عريضة تضمنت المطالب التي صاغتها النقابة وهي، كما وردت في الوثيقة رقم ٥ المنشورة في «تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان لالياس البواري» «تحديد ساعات العمل بـ ٨ ساعات باليوم - لا يجوز طرد العامل إلا لأسباب جوهرية يحددها القانون وإذا شاء صاحب العمل صرفه يجب إنذاره قبل شهر على الأقل وإلا كان ملزماً بأن يدفع له التعويض الذي يحدده القانـون - إذا طرد العامل بلا مبرر يجب أن يحوز على أجرة ثلاثة شهور كتعويض وإذا قضى في الخدمة ثلاث سنوات فما فوق تدفع له أجرة شهر عن كل سنـة - إذا مرض العامل أثناء تأديته عمله، يقوم صاحب العمل بمعالجته ويدفع له نصف أجرته مدة المرض، وإذا أصيب بعاهة مستديمة تمنعه من متابعة عمله يجب أن يحصل على تعويض كـاف - إذا مات العامل بإصابة أثناء عمله يجب تأمين معيشة عائلته أي (زوجته وأولاده ووالديه وأخوته القصار) تأميناً كافيـاً - في حالة البطالة الإجبارية، لا يجوز لصاحب الملك أن يطرد العامل من منزله بسبب عدم دفع أجرة المنـزل - في حالة العجز والشيخوخة تدفع الحكومة للعامل ما يقيه شر العـوز - تدفع أجور العمال في المواعيد المحددة وبدون أدنى تـأخير - يمنع تشغيل الأولاد قبل السادسة عشرة من عمرهم، ولا يجوز تشغيل الأولاد الذين عمرهم بين الـ ١٦ والـ ١٨ سنة أكثر من ست ساعات في اليوم، وأن لا يشتغلوا في الأعمال الخطرة والناهكة للقـوى - يجب المساواة في الأجور بين الرجال والنساء الذين يشتغلون في عمل واحد، ولا يجوز تشغيل النساء في الأعمال الخطرة والناهكة للقـوى - يعطى للعاملة الحامل «الحبلى» اجازة ستة أسابيع قبل الولادة ومثلها بعدها، وتدفع لها أجرتها الكاملة. - يجب أن تتوفر الأسباب الصحية في المعـامل - يكون للعامل حق تأليف النقابات والأحزاب وحق الاجتماعات العامة وحق الإضراب عن العمـل - تؤلف لجنة تفتيشية من قبل الحكومة ونقابات العمال لمراقبة سير التشريع الخاص بحماية العمال، والعمل على تنفيذه بدقة».

أصبح العمال في لبنان وسواه من البلدان العربية يتجهون بتطلعاتهم نحو نشاط نقابة عمال الدخان

في لبنان. ورد في كتاب «تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان» للياس البواري أن «الدعوة وجهت في أواخر العشرينات من عمال فلسطين إلى نقابتي عمال الدخان، والمطابع في لبنان لإرسال مندوبين عنهما لحضور مؤتمر عمالي يعقد في حيفا. ولكن سلطات الانتداب لم تمكن النقابتين من ذلك».

إن الدور الذي لعبته النقابة العامة لعمال الدخان، بوصفها نقابة طليعية رائدة، لم يقف عند حدود مهنية نقابية صرفة، بل تجاوزته لتلعب دوراً وطنياً سياسياً بارزاً. وحول هذا يقول البواري في مؤلفه المشار إليه: «وكانت (النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان ـ بكفيا) قد أصدرت بياناً مؤلفاً من ١٥ نقطة كما ورد، وبعد صدوره دوهم مكتبها وصودر ما تبقى فيه من نسخ هذا البيان، وأرفق هذا العمل بصدور قرار من محافظ جبل لبنان ـ يحظر فيه على النقابة عقد أية جمعية عمومية بدون إذن منه. ولكن النقابة والعمال لم يتقيدوا بهذا القرار وتابعوا اجتماعاتهم تحت الأشجار في الحقول».

وفي «السنديانة الحمراء» يقول الزميل محمد دكروب حول تأسيس نقابة عمال التبغ ودورها الريادي، «كان فؤاد الشمالي قد عاد إلى لبنان مبعداً من مصر، واشتغل عامل دخان في بكفيا حيث أخذ مبادرة تأسيس «النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان» في صيف ١٩٢٤، النقابة العمالية الأولى التي تأسست حسب مفهوم عمالي ثوري خارج إطار المفهوم التقليدي المتخلف لتشكيل النقابات من العمال وأصحاب العمل».

نقابة عمال المطابع
الإقدام والريادة

إذا كان عمال المطابع، ومن قبلهم عمال سكة الحديد، ادركوا ضرورة التنظيم النقابي وأهميته، قبل سواهم من الشغيلة، فلأنهم بحكم مهنتهم، يشكلون الفئة الأوعى والادرك لمصالحهم، وهذا ما جعلهم يلجون التنظيم المهني الذي يشكل الشرط الرئيسي للحصول على المطالب ويجعل النضال الاجتماعي أكثر جدوى.

في اعلام المؤرخين أن نقابة عمال المطابع تأسست سنة ١٩١٣، ولكن الياس البواري يقول إنها تأسست سنة ١٩١٤. ولكنني أميل إلى التقدير أنها تأسست في أواخر العام ١٩١٣، باعتبار أن ذاك العام كان مدار نشاط سياسي عربي. فخلاله انعقد مؤتمر اللامركزية في باريس بحضور العاملين في الحركة الوطنية والقومية العربية. ومقررات المؤتمر وهي ترتكز إلى الدعوة التحريضية للعرب للاقدام على التنظيم واتخاذ موقف واضح وصريح ضد السلطات العثمانية التي أبت منح

العرب أي حقوق استقلالية. إن « مؤتمر اللامركزية »، أثار تحركاً عربياً واسعاً شمل جميع الفئات والبلدان العربية، وكان عمال المطابع الأكثر التصاقاً بالمعرفة السياسية، والإدراك الوطني، أكثر العمال فهماً لواقعهم بحكم احتكاكهم وصلتهم الوثقى اليومية بالأوضاع السياسية. لهذا أقدموا على تأسيس نقابة لهم، وبرهنوا بما أقدموا عليه، أنهم فعلاً الطليعيون المتقدمون المهيأون لتبوؤ المركز القيادي في الحركة الواسعة اللاحقة لتنظيم الطبقة العاملة المهني.

وسبق تأسيس نقابة عمال المطابع ١٩١٣، تأسيس جمعية لعمال المطبعة الأميركية سنة ١٩١٢، وقد انضمت لاحقاً للنقابة العامة عندما تأسست سنة ١٩١٣.

وتجيء الحرب العالمية الأولى لتوقف كل نشاط سياسي ومهني نقابي. فتتوقف نقابة عمال المطابع عن متابعة نشاطها إلى حين انتهاء الحرب، حتى إذ انقشعت الغيوم الحربية، وعادت الصحافة لممارسة نشاطها بتزايد عما كانت عليه قبل الحرب، عاد العمال إلى عملهم، وبذات الوقت، أعيد تأليف نقابة عمال المطابع، كأول نقابة فعلية مهنية مارست نشاطها.

ومع اتساع انتشار الصحافة، وصدور صحف جديدة، إزداد عدد المنضدين، والمركبين، والطّبّيعة، وهذا التزايد عزز دور نقابة عمال المطابع عددياً، ونضالياً وكانت لا تزال تلعب الدور الطليعي في مجال التحرك النقابي.

يقول الياس البواري في مؤلفه: « تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان » - الجزء الأول - صفحة ١٠٦: « في سنة ١٩٢٣ أعيد الترخيص بإنشاء جمعية لعمال المطابع والدور الكبير لإعادة هذه الجمعية يعود إلى النقابيين - إبراهيم قنبر - حنا البطراني - خليل سركيس - عيسى عيتاني - زكريا خليفة وغيرهم». ويتابع البواري « وقد جاء في المادة الأولى من نظام النقابة الداخلي المطبوع سنة ١٩٢٣ ما يلي: الأسم: تدعى نقابة عمال المطابع. مركزها الرئيسي في بيروت. ويمكنها أن تؤسس فروعاً لها في مدن البلاد اللبنانية. ولها الحق أن تتحد مع باقي النقابات في البلاد العربية ».

ومعظم ما سأورده لاحقاً مأخوذ عن المؤلف القيّم الذي وضعه الياس البواري والمشار إليه آنفاً: « تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان »، ولست أنا، بل أي مؤرخ آخر لن يتسنى له أن يكتب حرفاً عن تاريخ نقابة عمال المطابع ونضالها دون أن يستند إلى معطيات البواري.

ورد في « تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان » الجزء الأول - صفحة ١٣١ ما يلي: « تقول التقارير إن نقابة عمال المطابع إنطلقت للعمل على جميع العمال وتنظيماتهم منذ العام ١٩٢٦، باكورة نشاطاتها بدأت في أوائل آب سنة ١٩٢٧ حيث قدمت أول عريضة لها احتجاجاً على قانون

التعطيل الإداري للصحف».

ويتابع البواري: «وفي العام ١٩٢٨ عقد مجلس النقابة ٢٧ جلسة رسمية و ٣٥ جلسة للجان التي كانت تدرس المشاريع والاقتراحات الواردة من العمال». وورد كذلك: «وفي ٥ شباط ١٩٢٨ رفعت النقابة مذكرة احتجاج للحكومة ضد التعطيل الإداري للصحف ومدى ضرره على العمال. وفي ١٠ شباط من العام نفسه قدمت طلباً إلى الحكومة لتحديد ساعات العمل ووضع تشريع خاص للعمال يضمن لهم مطالبهم وفي أساسها إلغاء التعطيل الإداري».

ويتابع البواري: «وأرفقت النقابة هذه اللائحة في ٣٠ نيسان ١٩٣١، بعريضتين تؤكدان ما ورد في المذكرة المشار إليها. كما وأنها قدمت في ١٤ نيسان سنة ١٩٣١ مذكرة بنفس الموضوع، وبذات الوقت سجل أكثر من ٥٠ وفداً من العمال لملاحقة هذه المطالب».

وتجدر الإشارة إلى أن نقابة عمال المطابع اللبنانية هي أول نقابة أقدمت على تأسيس صحيفة نقابية عمالية هي: «اليقظة» وذلك في العام ١٩٢٩، وكان يقوم بتحريرها مناضلون نقابيون. لعبت اليقظة دوراً هاما في تحريك العمال ودعوتهم إلى التنظيم والنضال من أجل تحقيق مطالبهم وتحسين أوضاعهم المهنية ولكن سلطات الانتداب أوقفتها.

وتزداد نقابة عمال المطابع عرماً وقوة بزيادة المنتسبين إليها، وكيفية قيادتها. وشعور مجلس النقابة الدائم بالحيف النازل بالعمال. وهذه الهواجس انطلقت العام ١٩٣٣ بالإضراب الكبير الذي أعلنه مجلس النقابة وتجاوب العمال مع موقف «المجلس» فتوقف جميع صحف بيروت عن الصدور، وحاولت جريدة «الأوريان» المتواطئة مع سلطة الانتداب على كسر الإضراب وعدم الانصياع لقرار مجلس النقابة. ولكن حماسة عمال المطابع دفعتهم إلى القيام بهجوم على مطابع الجريدة وقلبوا صناديق الحروف وخرّبوا الصفحات المعدة للطبع. مما لم يعد بالإمكان إعادة صفها. وكان على رأس هذا «الكومندوس» من عمال المطابع الرفيقان حنا الزرقا ورامز دميانوس وشاركهما مصطفى العريس ولم يكن آنذاك قد انضم للحزب الشيوعي. قال مصطفى وبعدما انهينا العمل، أتيت لتوّي إلى البيت وغيرت ملابسي، وعدت إلى مكان تجمع العمال.

إضراب عمال المطابع في ٢١ آب ١٩٣٣، هز البلاد، بحيث أنه خرج عن نطاق مهنة واحدة. إن توقف الصحافة عن الصدور بسببه، أغاظ الانتداب والمتعاملين معه، من أزلام وعملاء ومنتفعين من جهة، وشدّد العزيمة في صفوف العمال وبخاصة عمال المطابع من جهة أخرى.

بهذا الإضراب دلّل عمال المطابع على أنهم بالفعل قوة طليعية لا تعمل لمهنتها وحسب، بل لجماهير الشعب، والقضية الوطنية في آن. إن مطلب الغاء التعطيل الإداري للصحافة، هو مطلب

سياسي، يهم صاحب الجريدة والقارىء، كما يهم المنضّد والطّبّيع، والمحرر معاً.

ونقابة عمال المطابع هي الأولى التي أقدمت على خوض الانتخابات النيابية في لبنان، بترشيحها أحد أبرز قادتها سعد الدين مومنة سنة ١٩٣٤، ونال عدداً من الأصوات إذا قسناه بعدد سكان بيروت آنذاك. وكون التصويت كان محصوراً بالرجال فقط، ومع ما قامت به سلطات الانتداب من مضايقات، وبالإضافة إلى انعدام الإمكانات المادية، بغض النظر عن ذلك، فقد حصل مرشح نقابة عمال المطابع، على حوالى الـ ٥٠٠ صوت، ثم رشحت النقابة سعد الدين نفسه سنة ١٩٣٧. وفي العام ١٩٤٧ رشحت مصطفى العريس، وكذلك في العام ١٩٥١.

ونقابة عمال المطابع كانت المصنع الذي يصنع شيوعيين أشدّاء رفعوا عبر نضالهم النقابي، والوطني على مدى عشرات السنين راية الحزب الشيوعي، ونشروا تعاليمه، غير مبالين بما وجه إليهم من إرهاب، ولا بما ذاقوه من آلام ومشقات في السجون والمعتقلات. وبالعكس كانوا بعد ذلك يعودون لساحات الكفاح وهم على أقوى مما كانوا عليه.

إن الحزب الشيوعي اللبناني يذكر بتقدير وعرفان جميل، أعلاماً من عمال المطابع: مصطفى العريس، سعد الدين مومنة، حنا الزرقا، ميشال العازار، حبيب لطيف، رامز دميانوس، إميل الشمالي، حمد خداج، فؤاد ناصر الدين، جان تابت، حسن عيتاني، حبيب العنكسوري، توفيق جمال، يوسف بو عمار، الياس الزرقا، كما وأنه يقدر بمزيد من الفخر من لا يزالون يتابعون الكفاح لا باليد وحسب، بل وبأفكارهم مثل الياس البواري الذي جعل منه إخلاصه وتفانيه في سبيل عمال المطابع، والطبقة العاملة اللبنانية، أن يصبح مؤلفاً لكتب قيمة تاريخية وسياسية ونقابية ليس بوسع أي كاتب في الشأن النقابي والتنظيم المهني والسياسي إلا الرجوع إليها. وتجدر الإشارة إلى أن فرقة عمال المطابع الشيوعية أربى عددها، سنة ١٩٤٧، على الـ ٩٠ عضواً.

لقد اتسعت الحركة النقابية في لبنان وأصبحت حركة وطنية تعمل لنفسها، وبذات الوقت للمجتمع. وبالرغم من الظروف الموضوعية التي يلعب الرأسمال الاحتكاري العمالي المسيطر إلى حد كبير على توجيه سياسة لبنان الرسمية، وبالرغم من امتداد الشركات ذات الجنسيات المختلفة، ومن دولارات النفط العربي وجميعها يصبّ لجعل الظروف الموضوعية غير متوفرة للطبقة العاملة ليكون نضالها أجدى وأكثر فائدة، فإن طبقتنا العاملة، بالرغم من هذا الوضع تتابع النضال عبر اتحاداتها ونقاباتها، واتحادها العام، لانتزاع ما يمكن انتزاعه من مطالب، من شأنها أن توفر ولو جزءاً أفضل لتحسين شروط عمل العمال، وتحسين أوضاعهم المعيشية.

والطبقة العاملة المؤتلفة في اتحاد عام، ومن بينها نقابة عمال المطابع، تدرك دون شك، كم هو

كبير، الدور المنوط بعمال المطابع. فبالرغم من استخدام التكنيك الحديث في الصحافة من الكمبيوتر، إلى الأوفست، إلى كل نقلة في تحسين الصف والطباعة وتحويل القطاع الصحافي إلى قطاع صناعي متطور، بالرغم من كل ذلك يبقى الإنسان، العامل، هو الأساس، الذي يدير كل ما هو متوفر من تكنيك، وهذا الإنسان العامل يبقى، مهما أدخل من تطور على صناعة الصحافة، محروماً، مرهوصاً، له حقوق ضائعة. وليس من شك أن دور نقابة عمال المطابع في هذه الظروف يتطلب أساليب جديدة، تناسب اسلوب العمل الجديد، وكما أن العامل ليس له بالنتيجة سوى نقابته، فالنقابة لا تقوى وتتوسع، وتحسن عملها، إلا بعمالها، بأعضائها، وبالصلة الوثيقة الحميمة بهم.

ولا شك أن عمال المطابع بخاصة، والعمال النقابيين اللبنانيين بعامة، يدركون أن الفضل في إقرار قانون العمل اللبناني وإقرار أول نوار عيداً رسمياً مدفوع الأجرة، وفي تحقيق الضمان الاجتماعي، وممارسة العقود الجماعية، إنما يعود بالأساس إلى نقابة عمال المطابع التي رفعت منذ العام ١٩٢٧ هذه المطالب مضافاً إليها مطلب إلغاء التعطيل الإداري للصحافة.

ويعلم عمالنا بدون شك، أن جعل هذه الفكرة حقيقة راهنة أي تحقيق هذه المطالب الأساسية، وإفادة جميع العمال منها، تحقق بفضل الجهود الجماعية للطبقة العاملة، بفضل النضال المتواصل الموحد لمختلف تنظيمات الحركة النقابية اللبنانية.

إن التاريخ سيرسخ بمداد من ذهب الدور لذاك الذي نضّد أول حرف في أول جريدة صدرت في بيروت سنة ١٨٥٨ (حديقة الأخبار). وشعبنا اللبناني بفئاته كافة، سيبقى حافظاً اليوم وغداً لعمال المطابع، سواء سُمُّوا عمال كومبيوتر، أو طبّيعة أوفست أو سواها، سيبقى حافظاً الجميل لهم لأنهم هم إياهم لا يزالون يقومون بأصعب عمل، لتأمين الإعلام المقروء، والثقافة، والمعرفة لجميع أبناء شعبنا، بل وللعالم العربي، وللإنسانية سواء.

كانت نقابة عمال المطابع، ولا تزال رائدة، والريادة يفرضها وضعها وارتباطها بالنتاج الفكري، الذي يحوله العامل إلى مادة في خدمة المجموع.

إضراب سائقي السيارات ١٩٣٣

في العام ١٩٢٩ تأسست «نقابة تعاضد السواقين» وكانت تضم جميع العاملين في قطاع النقل بالسيارات (السواقين، أصحاب الكاراجات، أصحاب السيارات، مكاتب النقليات، الخ..) ويقول الياس البواري في مؤلفه «تاريخ الحركة العمالية والنقابية»، إن عدد المنضمين إليها بلغ عشرة آلاف عضو.

وبالرغم من هذا التجمع الكبير الذي كانت تضمه « الجمعية » فإن عدم وحدة المصلحة بين جميع الفرقاء لم تكن موحدة (صاحب عمل وعامل، مالك وأجير) بوقت واحد . وهذا التضارب في المصالح لم يكن منسجماً مع العدد الضخم الذي تجمع في « الجمعية »، ومع هذا فلا مشاحة أن السوّاقين عبر « جمعيتهم » كانوا أكبر قوة منتظمة في جمعية نقابية، الأمر الذي ساعدهم على البروز في النضال من أجل المطالب .

في العام ۱۹۳۳ أقدمت الحكومة على فرض ضرائب على البنزين، ومنعت السواقين بالأجرة من الوقوف في محطات الترامواي لنقل الركاب. هذه التدابير حجمت مداخيل السائقين العموميين، وبذات الوقت أضافت على أصحاب السيارات الخاصة أعباء كبيرة نسبياً ـ وقد التقت مصلحة أولئك مع هؤلاء، وتم الاتفاق في « جمعية تعاضد السواقين » على إعلان الإضراب العام ضد فرض رسوم إضافية على البنزين، وإلغاء القرار بمنع السواقين العموميين من الوقوف في محطات الترامواي .

وفي ٦ آذار ۱۹۳۳ أعلنت جمعية تعاضد السائقين الإضراب العام الذي شمل الأراضي اللبنانية كافة، وشلت المواصلات شلاً كاملاً، واستمر الإضراب أربعة عشر يوماً .

الحزب الشيوعي
يؤيد الإضراب

في الصفحة ۱۸۸ من مذكرات (مخطوطة) محمود الأطرش[1] (أبو داود) ورد ما يلي : « أيد الحزب الشيوعي منذ البدء مطالب جمعية السائقين ولا سيما ما يتعلق منها بتخفيض الضرائب وأسعار البنزين. والمهم هو أن الإضراب لم يقتصر على سائقي السيارات اللبنانية ويتجاوز عددهم آنذاك أكثر من ثمانية آلاف سائق، بل تبعه إضراب سائقي السيارات بالأجرة في سوريا أيضاً . وقد وجد الإضراب تضامناً وتأييداً واسعاً لدى الجماهير العاملة وصغار التجار . ولأول مرة في تاريخ الإضرابات في لبنان تنظم لجان من المضربين والعمال لجمع المساعدات، ومساعدة المحتاجين وذوي العائلات من السائقين » .

ولما لم يكن العنصر العمالي هو في مركز القيادة المؤثر في « جمعية تعاضد السائقين »، حذر الحزب الشيوعي من المساومات والتنازلات الخلفية على حساب جماهير السائقين. ولنقرأ ما كتبه « أبو داود » في مذكراته حول هذا الموضوع :

---

(۱) رفيق جزائري الأصل، عاش في فلسطين وانتمى إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني، ودرس الماركسية في موسكو، وأصبح وهو عامل بناء، قائداً شيوعياً بارزاً في الشرق العربي.

« حذر حزبنا منذ البدء السائقين المضربين من مناورات « جمعية تعاضد السائقين » المؤلفة بأكثريتها من أصحاب السيارات والكاراجات. وبالفعل فقد أوقفت هذه الجمعية فجأة الإضراب وذلك مساء العشرين من شهر آذار ١٩٣٣، أي بعد أسبوعين تقريباً على إعلانه، دون استشارة سائقي السيارات بالإجرة المضربين. وقد تظاهر العمال السائقون ضد قرار العودة إلى العمل واصطدموا بالشرطة واعتقل فريق منهم. ولم يتمكن الحزب من التأثير على سير الإضراب مع أنه جند كل قواه من أجل تأييده ولا سيما بين عمال المطابع الذين كانوا يقومون بدور طليعي بين الجماهير العاملة في بيروت. وبعد ذلك تعزز نفوذ الحزب ليس لدى السائقين وحسب، بل ولدى الكثير من العمال ولا سيما عمال المطابع والترامواي ».

في مؤلفه « تاريخ الحركة النقابية » يقول الياس البواري: « كانت النقابة (نقابة عمال المطابع) قد أرسلت في بداية الإضراب رسالة إلى نقابة السواقين تعلمها فيها عن تأييدها وتضامنها معها، وطلبت منها أن تضع تحت تصرفها عدداً من السيارات للقيام بمظاهرة، تأييداً لها، وهذا ما حصل ولكن بعد حل الإضراب، حيث قام، يوم ٢٢ آذار، عمال المطابع بمظاهرة سيارات على ساحة البرج، كما أضرب العمال يوما واحداً تضامناً مع مطالب السائقين، واحتجاجاً على موقف السلطة منهم ».

إضراب السواقين الثاني

إزداد نفوذ الحزب الشيوعي في الحركة النقابية، ولا سيما بعد إضراب عمال المطابع الذي انسحبت آثاره الإيجابية على مختلف الوسط النقابي. وكان واضحاً أن عمال المطابع الشيوعيين كانوا على رأس الإضراب، وشكلوا أبرز قادته مثل، سعد الدين مومنة، ومصطفى العريس، وحنا الزرقا، ورامز دميانوس، وخليل الحلو وسواهم. وحول امتداد نفوذ الحزب الشيوعي كتب محمود الأطرش (أبو داود) في مذكراته صفحة ٢٢٠ ما يلي:

« أصبح لا يحدث أي إضراب عمالي إلا بالتشاور مع حزبنا، والوقوف على رأيه. قاد حزبنا مع « جمعية سائقي سيارات التاكسي » الإضراب الكبير سنة ١٩٣٤ بمساعدة حزبنا حسب طرق وأساليب جديدة، منها تحضير لائحة بمطالب الجمعية قدمت إلى الهيئات المسؤولة، وتأليف لجنة خاصة للمفاوضات وقيادة الإضراب، وتنظيم فرق لحراسة الإضراب وحمايته في كل مكان، وتنظيم فرق للدعاية للإضراب وأخرى لجمع المساعدات التضامنية لعائلات المضربين المحتاجة. وحزبنا هو الوحيد الذي أصدر منشورات بصورة متتابعة، عن سير الإضراب وأهدافه، وحث الجماهير على تأييده ومناصرته ».

شهيدان شيوعيان

وفي ذاك الإضراب سنة ١٩٣٤، استشهد رفيقان لنا من انطلياس وهما السائقان، حبيب دياب ونمر الرمّوز. فقد كلف هذان الرفيقان بحماية الإضراب، وفي أثناء قيامهما بعملهما على أفضل ما يرام، وبكل إخلاص إذ برصاص قوات الأمن يوجه إليهما ويصرعهما فسقطا شهيدين رافعين علم الطبقة العاملة التي شكل الإضراب رمزاً لنضالها من أجل مطالب السائقين وأبرزها تأمين معيشة عيالهم.

وجرى تشييع جماهيري حاشد للشهيدين في بلدتهما انطلياس، شكل مظاهرة كبيرة طالب فيها رفقاؤنا باعتقال الجناة المسؤولين عن قتلهما. ونزولاً عند اقتراح رفقائنا السواقين، علقت صورة الشهيدين في دار جمعية السواقين في بيروت.

إضراب عمال المطابع ١٩٣٣

في دراساتنا للحركة العمالية والنقابية في لبنان لا بد من التوقف عند محطات أساسية في مجال نضال الطبقة العاملة اللبنانية، محطات لها أهمية بالغة الفعل والتقدير في مسار نضال عمال لبنان. ومن هذه المحطات الأساسية، الإضراب الكبير الذي أعلنه عمال المطابع في ٢١ آب سنة ١٩٣٣ من أجل تحقيق مطالب مهنية وضعها عمال المطابع، عبر جمعيتهم، بعريضة رفعوها إلى الحكومة اللبنانية، والمفوض السامي الفرنسي وحدّدوا وقتاً للتنفيذ، حتى إذا لم يرد الجواب بالإيجاب، بادر العمال تلقائياً، بقيادة جمعيتهم، إلى إعلان الإضراب العام الشامل.

هزّ ذلك الإضراب لبنان الذي لم يشهد قبله أي إضراب عمالي صرف. فمنذ احتفال «حزب الشعب اللبناني» بعيد أول نوار سنة ١٩٢٥ في سينما «الكريستال» وإعلانه مطالب العمال الطبقية والوطنية، لم تجرِ أية محاولة نضالية لطرح مطالب العمال، اللهم إلا ما قام به عمال المطابع سنة ١٩٣٣. وقد اتخذوا هذا الموقف الجريء متحدّين السلطات التي كان جوابها استفزازياً حيث حلّت جمعيتهم دون أي مسوّغ قانوني. وراحت تضيّق عليهم سبل التنظيم وتلاحقهم وتعتقلهم، وتسلط عليهم شتى أنواع الإرهاب.

وسبق إعلان الإضراب سنة ١٩٣٣، أن احتفل عمال المطابع بيوم أول نوار. وفي هذه المناسبة في أواخر العشرينات، وضعت جمعية عمال المطابع مطالب العمال بعريضة رفعت إلى المسؤولين أكدت فيها على مطالب العمال المهنية ومن بينها مطلب مهم وهو، إلغاء التعطيل الإداري للصحف. وبذلك يكون عمال المطابع هم الأولون الذين رفعوا هذا المطلب الوطني الذي تحقق، بفعل نضال عمال المطابع والصحافة اللبنانية سنة ١٩٤٧، بعدما تحقق الجلاء العسكري الأجنبي عن لبنان.

«أبو داود» يقوّم الإضراب

لنقرأ ما دونه محمود الأطرش (أبو داود) في مذكراته عن إضراب عمال المطابع حيث قال: «وصلت إلى بيروت في شهر آب سنة ١٩٣٣ قادماً من أوروبا. وكان إضراب عمال المطابع قائماً على أشده. توجهت منذ اليوم الأول من وصولي إلى اجتماع نظمه العمال المضربون خارج المدينة (بيروت) على شاطىء البحر خلف سجن الرمل. هناك تعرفت على الرفاق النقابيين مصطفى العريس، توفيق جمال، حنا الزرقا، ميشال العازار، فؤاد ناصر الدين، نسيب المتني، سعد الدين مومنة، جورج جرجورة، خليل الحلو، رامز دميانوس وغيرهم. وكان العمال قد هاجموا مطبعة جريدة «الأوريان» التي أصرّ مديرها على مواصلة العمل وعدم الاستجابة لشعار الإضراب».

ويتابع أبو داود: «طلب عمال المطابع المضربون في البدء، من عمال مطبعة «جريدة الأوريان» التضامن معهم في الإضراب ليسهل عليهم الحصول على مطالبهم المشروعة والانضمام إلى الأكثرية الساحقة من العمال. ولما أصرّ رؤساء المطبعة على الرفض، هاجم المضربون المطبعة وقلبوا أدواتها رأساً على عقب وبعثروا الحروف في كل مكان على أرض المطبعة. وكان الرفيق توفيق الأسود في مقدمة المتظاهرين وقد أحدث هذا العمل والإضراب بالذات دوياً في لبنان والشرق الأوسط، وكذلك في فرنسا والعالم».

نسيب المتني رئيساً للجنة العمالية المفاوضة

ويتابع أبو داود: «تلقيت من ذاك الاجتماع درساً هاماً، وفيه تيقنت أكثر من السابق من أهمية العمل الجماعي، ومن ضرورة إسهام جماهير العمال في قيادة حملاتها وإضراباتها. كان العمال في ذاك الاجتماع يتناقشون بحرية وديمقراطية تامة. كان بعضهم يقدم أحياناً اقتراحات وآراء ذات صفة فوضوية، كانت تجد لها أجوبة صحيحة لدى البعض الآخر منهم. كاقتراح الهجوم على المطبعة التي ما زالت تعمل، أو إلقاء قنبلة عليها بعد العمل، لإيقافها عن متابعة أعمالها. فيجيبه أحدهم بأن هذه ليست طريقة ناجحة، لأنها، بعد حادثة مطبعة «الأوريان» تساعد على تعزيز القمع والارهاب ضدنا وضد اضرابنا، كما تجلب لنا ولاضرابنا مقت الجماهير الشعبية، وبذلك نكون قد جنينا على نفوسنا أكثر مما نكون جنينا على أصحاب المطبعة. ويجيب آخر ويقول، من الواجب، حسب رأيي، أن نتناقش مع عمال هذه المطبعة وأن نقنعهم بضرورة التضامن معنا وذلك للفائدة العامة لنا جميعاً. ويطلب ثالث الكلمة ليقول: أرى من الأفضل أن نترك هذه المطبعة تعمل، لأن ذلك سيكون مدعاة لوقوع التنافس بين أرباب المطابع والعمل، الأمر الذي يرغمهم على التفاوض مع ممثلينا وقبول ولو جزء من مطالبنا».

ويتابع: أبو داود: «ولتنظيم الاضراب بأكثر دقة وافق المجتمعون على رأي حزبنا بادانة الأعمال ذات الصفات الفوضوية، وتكوين لجنة عليا للتفاوض مع الحكومة، وأرباب العمل، ينتخبها العمال. وانتخبت وكان على رأسها المناضل النقابي نسيب المتني. كما وافق العمال على انتخاب لجان أخرى يكلف بعضها بجمع الإعانات والأموال باسم التضامن مع العمال المضربين كما تقرر، في ذاك الاجتماع إصدار دفاتر صغيرة تحمل طابع النقابة، مع بعض الشعارات بقيمة خمسة قروش ومئة قرش، وتكفل بطبعها الرفيق رامز دميانوس. وكلفت لجنة أخرى بتوزيع تلك الإعانات والدراهم على عائلات العمال المضربين الأشد احتياجاً».

ويتابع:

«ودار الحديث في ذاك الاجتماع حول تنظيم جمع الأغذية والخضار من أصحاب الدكاكين وتوزيعها على عائلات المضربين. وتقرر أيضاً تنظيم فرق صدام لحماية الإضراب، ومقاومة من يعمل على تحطيمه، ومنع العمال الآخرين ممّن يريدون تحطيم الإضراب والخروج عن مجموع العمال من العمل وبحث «فرق حرس الاضراب» للمحافظة على استمراره ونجاحه».

ويتابع «أبو داود» معلقاً فيقول: «أظهر هذا الإضراب من ناحية أخرى عدم نضوج الوعي الطبقي لدى الكثير من عمال المطابع الذين كانوا يتحاشون خجلاً جمع الإعانات، ولا سيما المواد الغذائية، وتفضيل العمل على حراسة الاضراب من جمع الإعانات».

وقد انتهى الإضراب يوم ٢٩ آب ١٩٣٣ مقابل وعود لم تتحقق. وتم ذلك بشكل فردي من قبل رئيس لجنة المفاوضة. فأبعد، وانتخب سعد الدين مومنة مكانه. ورفع شعار بين العمال بأن الإضراب لم ينته، بل توقف. وقد اعتقل العمال: حنا الزرقا ورامز دميانوس لقيادتهما الهجوم على مطابع جريدة «الأوريان». مكثا مدة في السجن خرجا منه على أثر حملة احتجاج واسعة شملت العمال واصدقاءهم في جميع المناطق.

أسباب الإضراب

لماذا أضرب عمال المطابع وما هي المطالب التي تقدموا بها؟

أهم أسباب الإضراب، هي، أن السلطات أصدرت مرسوماً في ٧ حزيران سنة ١٩٣٣، بالغاء رخصة «جمعية عمال المطابع»، بحجة أنها تعدت الأهداف التي من أجلها وجدت. فقابلت الهيئة الادارية لجمعية عمال المطابع هذا التدبير بالاحتجاج، وطالبت السلطة اللبنانية بالترخيص لها بالعمل كنقابة، وليس كجمعية. كما ناشدت النقابات في فرنسا بالتضامن مع نضال عمال المطابع، ومساعدتهم على انتزاع حقوقهم النقابية، وتحقيق مطالبهم المهنية، التي قدمتها الهيئة الإدارية إلى

الحكومة في ١٩٣٣/٨/١٩ وتتلخص بـ: زيادة الأجور ٥٠٪، ٨ ساعات عمل باليوم، دفع الأجور بانتظام، تأسيس صندوق للعاطلين عن العمل، دفع أجور العمال المرضى، تعويض المواظبة على مراعاة الأحوال الصحية في محلات العمل، وأمهلت الجمعية الحكومة مدة ٤٨ ساعة حتى إذا لم تستجب لما ورد من مطالب، أعلنت الجمعية العمومية الإضراب فوراً.

عمال المطابع في باريس يضربون تضامناً

وقد أهملت الحكومة عريضة العمال ولم تستجب لها، مما جعل الهيئة الادارية لجمعية عمال المطابع البالغ عددهم آنذاك أربعمئة عامل، تقرر اعلان الاضراب العام ابتداءً من ٢١ آب ١٩٣٣.

كان إضراب عمال المطابع حديث الجميع لا في العاصمة بل في جميع أنحاء البلاد. وكان للدور الإعلامي التأييدي الواسع الذي قام به الحزب الشيوعي بواسطة فروعه في المناطق، تأثير عميق في ذلك. فمعظم مناطق لبنان شاركت العمال المضربين: منهم من عبّر عن ذلك بإرسال رسائل التضامن والاحتجاج على تصرف السلطة، ومنهم بالمساعدات المالية أو العينية، ويكفيني فخراً أنني مع الرفاق في بلاد جبيل جمعنا مبلغاً زهيداً دون الخمس ليرات وأرسلناه إلى لجنة الإضراب بواسطة الحزب.

والآن لنقرأ معطيات الياس البواري حول هذا الاضراب الكبير: «استمر الإضراب عنيفاً لمدة تسعة أيام، نقلت أنباؤه إلى باريس، وأثار النواب الشيوعيون الفرنسيون قضيته في مجلس النواب، كما أعلن عمال المطابع في باريس الإضراب ليوم واحد تضامناً مع عمال المطابع في لبنان».

وحول وقف الاضراب يقول الياس البواري: «وبعد مرور تسعة أيام على إعلان الإضراب، جرت مفاوضات بين وفد يمثل النقابة والمراجع العليا المسؤولة أسفرت عن تحقيق بعض المطالب وأهمها زيادة الأجور، والاعتراف للعمال بالتنظيم النقابي، وعدم الضغط على الحريات النقابية والديمقراطية، والوعد بتحقيق المطالب الأخرى، ودرس المطالب التي تحتاج إلى تشريعات يقرها مجلس النواب».

وهنا يلاحظ اختلاف بين محمود الأطرش الذي يقول ان الإضراب أوقف بصورة فردية من قبل رئيس لجنة الإضراب. وإن ذلك أدّى إلى تغيير المسؤول عن لجنة الإضراب العليا فحلّ محله سعد الدين مومنة، كما ورد، وبين معطيات البواري بأن الإضراب أوقف بناءً على مفاوضات أجراها وفد يمثل النقابة.

إن إضراب عمال المطابع ١٩٣٣ شكل نقلة نوعية جديدة امتدت إلى العديد من عمال المهن،

وجميعهم كان يخضع لأساليب عمل مرهقة مما ساوى بين الجميع وفرض عليهم التفكير جديا والعمل الحثيث لإيجاد أشكال للتنظيم النقابي، تكون منطلقاً لتجمعات عمالية عديدة وواسعة، تؤلف ركناً عمالياً قوياً له شأنه في حياة البلاد الوطنية والنقابية، والاجتماعية والدروس التي أخذها العمال من اضراب عمال المطابع جعلتهم في نقلتهم الجديدة المنفتحة والهادفة إلى تنظيم العمال في نقابات، بمعزل عن أي موقف سياسي للمنتمين إلى النقابات، يعني تطليق شعار خلق معارضات نقابية، في داخل كل نقابة، واحلال شعار محله: «كل العمال في النقابة». وإن الاجتماع الموسع الذي عقد في بيت عامل المطبعة رامز دميانوس في حزيران ١٩٣٤، كان الترجمة العملية للنقلة النوعية الجديدة. ولنقرأ ما أنشأه الياس البواري عن هذا الاجتماع المهم في مؤلفه «تاريخ الحركة النقابية والعمالية»، قال:

لجنة تأسيسية مشتركة
برئاسة سعد الدين مومنة

«في حزيران ١٩٣٤ عقد مؤتمر في بيت المناضل رامز دميانوس حضره أكثر من ٣٠ مندوباً من نقابات العمال التالية: سكة الحديد، الكهرباء، الترامواي، المطابع، النجارين، الأفران، الميكانيك، البناء، التنجيد الفرنجي، ومن لجنتي عمال التبغ والمرفأ والأحذية وغيرهم: وقد انتخب المؤتمر لجنة تأسيسية تمثل فيها جميع النقابات واللجان العمالية المشتركة في المؤتمر. وانتخبت هيئة قيادية لهذه اللجنة برئاسة سعد الدين مومنة، وعضوية حنا الزرقا، وخليل الحلو، وتوفيق جمال، وتوفيق حداد. ووضعت اللجنة أمامها برنامجاً للعمل محوره قضيتان: الدفاع عن الحريات النقابية، وفرض الاعتراف بحق العمال في التنظيم النقابي» (تاريخ الحركة النقابية صفحة ١٦٤ - البواري).

اتسمت المرحلة ما بين آذار ١٩٣٣ وشباط سنة ١٩٣٦، بنشاط وطني وعمالي. فخلال هذه الحقبة أعلنت مجموعة من الاضرابات العمالية، فعدا اضرابات عمال المطابع والسواقين، اضراب عمال الأفران، وعمال شركة ريجي الدخان، وعمال شركة الترامواي، والمحامون، كما أن تحسساً وتحركاً نقابياً باتجاه وضع المطالب شملا عمال المرفأ، وسكة الحديد وسواهم.

انتفاضة بيروت ضد شركة الكهرباء الأجنبيّة ١٩٣١

لبيروت بالأمسين، البعيد والقريب، كما لها اليوم، دور بارز ومقدّر ومحوّل في عملية النضال الوطني. والكفاح من أجل تحقيق مطالب الشعب، السياسية والاقتصادية.

لقد كانت بيروت عروسة لبنان ولا تزال، سيّدة المدائن وزينة العاصمات، سبّاقة في خوض المعارك. لا يفت في عضد أبنائها ترهيب، ولا يحد من إقدامهم على التغيير اضطهاد. وهذه

الصفات أضفى عليها وقوفها بصلابة وبلامبالاة، أمام الأمر العسير، مسحة من الاحترام والتقدير.

ويسعدني في الحديث عن زينة العاصمات سيدة المدائن، أن أتناول وثبة من وثباتها الفذّة التي وقفت فيها وجهاً لوجه أمام الحكم الانتدابي الفرنسي مباشرة، غير مبالية بمدفعيته، و «فرقته الأجنبية» ورماح خيالته. وقفت بيروت وقفتها تلك لأنها انتضت سيف الحق، واستمسكت بأهداب الشعب الذي التفّ حول قياداته التي انتقاها بملء ارادته، فكان له بالنهاية ما أراد، فانتصرت سيدة المدائن، وتراجع الاستعمار وشركته.

يسعدني أن أتناول «إضراب بيروت ضد شركة الجر والتنوير - شركة الكهرباء» نيسان - تموز سنة ١٩٣١ - هذا الإضراب الذي قال فيه دولة الرئيس تقي الدين الصلح: إنه وثبة انتفاضية وظاهرة وطنية شملت فئات المجتمع البيروتي كافة.

لقد استباحت شركة الجر والتنوير حقوق الشعب بفرضها أسعاراً مرتفعة، سواء على الطاقة للإنارة، أم على أجور الركوب بالترامواي. ولطالما رفضت ادارة الشركة الأجنبية المذكورة، الانصياع إلى مطالب الشعب البيروتي التي كانت الصحافة الوطنية تعكسها على صفحاتها باستمرار. مما فرض على المواطنين البيروتيين اللجوء إلى أساليب أشد عنفاً ترغم الشركة على الرضوخ لإرادة جميع سكان العاصمة وذلك باعلان الاضراب العام ومقاطعة الشركة، أي عدم الركوب بالترامواي، والتوقف عن استعمال الطاقة في المنازل والمحال التجارية والمعامل وغيرها، والامتناع عن دفع ما هو مترتب للشركة على الأهالي.

حول هذا الاضراب كتب المؤرخ النقابي الياس البواري في كتابه: «الحركة العمالية والنقابية في لبنان ١٩٠٨ - ١٩٤٦ - الجزء الأول صفحة ١٤٩» ما يلي: «في أواسط شهر آذار سنة ١٩٣١ تشكلت لجنة شعبية واسعة ضمت ممثلين لمختلف الأحياء والاتجاهات الوطنية والقطاعات العمالية وأعلنت، ابتداءً من يوم الاثنين أول نيسان ١٩٣١، البدء بمقاطعة شركة الكهرباء والترامواي. وشكلت لجاناً لتقوم بدوريات في الأحياء لمنع حافلات الترامواي من السير وإلاّ تعرضت للتحطيم، كما أنها قامت بتحريض الأهالي بعدم الدفع للشركة. وفي ذات اليوم - الاثنين أول نيسان ١٩٣١ - سارت مظاهرة كبيرة في ساحة البرج دعماً للمطالب التي تقدمت بها لجنة المقاطعة، وحطم المتظاهرون حافلات الترامواي، وجرت معركة بين المتظاهرين وقوات الأمن وقع فيها جرحى، واعتقل عدد كثير من المتظاهرين وأعضاء اللجنة وأحيلوا للمحاكمة أمام المجلس العدلي».

وقد علقت الصحف على تلك الانتفاضة فكتبت جريدة المعرض تقول: «لا يزال الشعب البيروتي وقد مضى على المقاطعة عشرون يوماً، ثابتاً في موقفه، محافظاً على سكينته، فخوراً بما ألقاه من الدرس البليغ في التضامن، متباهياً بما أعطاه من البرهان الجليّ على أن بيروت الناهضة

بشبابها المثقف، ووطنيتها الرصينة، وبجموعها الراقي، تستحق أن تكون في مصاف أكثر مدن العالم حضارة ويقظة، وأن تعد من اوفرها تربية في وجهتي السياسة والاجتماع، وأجدرها حرية واستقلالاً فوق وجه الأرض».

دور جمعية التضامن الأدبي

وفي هذا المجال لا بد من التنويه بالدور الريادي البارز في التحضير، والتنظيم، وقيادة الإضراب، لجمعية التضامن الأدبي التي وضعت كل ثقلها المادي، والمعنوي، والسياسي لدعم الاضراب وإنجاح المقاطعة التامة للشركة. ولنقرأ فيما يلي ما كتبه أحد مؤسسي هذه «الجمعية» العضو البارز في قيادتها، الصديق جان سرور، في مؤلفه الجديد «جمعية التضامن الأدبي والحركات الشعبية أيام الانتداب الفرنسي» ـ الصفحة ٢٥ تحت عنوان: «أقوى حركة شعبية بيروتية ـ مقاطعة الكهرباء والترامواي سنة ١٩٣١»، قال: «مع حلول الثلاثينات أخذت الشكوى تتزايد من شتى أوساط الشعب اللبناني حتى أخذ الانتداب يتنبه لكل أمر ويرتاب في كل تحرك شعبي حتى ولو كان طابعه اقتصادياً بحتاً، وهذا ما بدا واضحاً كل الوضوح عندما طالب سكان بيروت بتخفيض أسعار الكهرباء والترامواي ورفضت «شركة الجر والتنوير» تخفيض الأسعار وأعلن البيروتيون مقاطعة الشركة، كان ذلك في شهر آذار ١٩٣١».

ويتابع الاستاذ جان سرور: «وكانت لجنة المقاطعة شعبية في تكوينها ليس للنزعات الحزبية أي أثر في توجيهها، وكذلك للنزعات الطائفية. وكانت اللجنة تتألف من ذوي المصالح المتواضعة وأصحاب الدكاكين مثل: الشيخ نخلة نفاع والصيدلي محيي الدين المحمصاني، وعبد القادر النويري، وفؤاد بو راشد، وطانيوس واكد، جوزف سمعان، وديع زخور، اميل عيراني، سليم العقاد، سليم فروخ، ميشال المعماري، جان صنبر، محمد قباني، جوزف فرنسيس، عيد علامة، جورج وردية. وكان الطلاب هم العصب الأساسي في هذه الحركة الشعبية ومثلهم في اللجنة عماد الصلح، وسعد الدين الغندور».

وقد استقبل البيروتيون خبر الاعلان عن مقاطعة شركة الكهرباء والترامواي بحماس شديد، وأعلنوا تضامنهم الكلي مع لجنة المقاطعة، وتجاوبوا كلياً مع النداء الذي أذاعته. وبالرغم من أن الترامواي كان وسيلة النقل الوحيدة في العاصمة. ومنذ ذلك الحين، تطور النقل في سيارات السرفيس، كما يقول جان سرور. أما بالنسبة للإنارة فقد امتنع الجميع عن استعمالها واستعاضوا عنها باضاءة الشموع، وقناديل الكاز، حتى موظفي الدولة التزموا بالمقاطعة في دوائرهم فكانوا يعملون على ضوء الشموع. كما يقول جان سرور في «جمعية بيروت الأدبية والحركات الشعبية أيام الانتداب».

إن الأخبار عن مقاطعة شركة الكهرباء، عمّت البلاد، وأصبح الحديث عنها على كل شفة ولسان. ولا أزال أذكر أن أحدهم وهو الصديق المرحوم أيوب من قرية «بجة» في بلاد جبيل، كان يروي ما يجري في بيروت، ومسار الإضراب، وموقف مدير الشركة الفرنسي إلى أن قال بأن المدير أجاب الوفد الذي أتى لمفاوضته بقوله: «بكون سوري ابن سوري إذا بنزّل قرش سوري».

ولكن تصلّب موقف مدير الشركة قوبل بموقف شعبي عام أكثر تشدداً باصراره على تحقيق المطالب، وهي تخفيض سعر الكهرباء للانارة، وأجرة الركوب بالترامواي. وحاولت السلطة الفرنسية التأثير على بعض أعضاء لجنة المقاطعة، لتليين موقفها والعدول عن الاضراب لقاء وعود. ولكن المؤمنين بعدالة المطالب الشعبية ومنهم السيد عماد الصلح ممثل الطلاب، اقترح على اعضاء اللجنة فيما كانوا يتفاوضون في مكتب رئيس مجلس النواب الشيخ محمد الجسر، وبحضور شخصيات بيروتية منها: هنري فرعون وحليم قدورة، وقائد الدرك، وبعدما رأى الصلح أن البعض بدأ يضعف و«يقتنع»، اقترح عماد الصلح الانتقال إلى مقر اللجنة في نادي النجار لاتخاذ الموقف المناسب. وبالرغم من أن الأكثرية ضعفت وأفصحت عن «اقتناعها» بما طرحه أمامها رئيس مجلس النواب والوسطاء، تصلبت الأقلية المستندة إلى تأييد جماهيري وشعبي واسع.

وبالرغم من أن الحكومة أسرعت وأضاءت السراي بالكهرباء، وبعض المقاهي كذلك، وبالرغم من انطلاق حافلات الترامواي على خطوطها قارعة الأجراس، وبالرغم من انطلاء خدعة الدولة هذه على بعض الناس، كما يقول السيد جان سرور في كتابه صفحة ٢٨، «فإن روّاداً يمثلون اللجنة الحقيقية جابوا الشوارع وهم يهتفون: خدعة. خدعة. المقاطعة مستمرة، فأعيد انطفاء الأنوار، كما أعيدت الشموع إلى البيوت، وحافلات الترامواي هرولت إلى مرائبها».

يعلق السيد جان سرور على ذلك فيقول: «وما أن عرف أعضاء مجلس جمعية التضامن الأدبي بما حصل حتى اتصلوا بأعضاء لجنة المقاطعة المعارضين وعقدوا اجتماعاً معهم واتفقوا على تأليف لجنة جديدة لمعارضة الاتفاق الذي عقد في مكتب الرئيس الجسر. وأصدروا بياناً أعلنوا فيه استمرار المعارضة، وتألفت لجنة جديدة برئاسة ابراهيم حداد وعضوية فؤاد عقل، الشيخ عبد الرحمن عبد الملك، يوسف سمعان، محمد القرى، طانيوس واكد، سعد الدين فروخ، سليم عقاد ومثل الطلاب فيها عماد الصلح. وضماناً لسلامة سير المقاطعة تألفت لجنة ثانية برئاسة الشيخ عزيز الهاشم رئيس حزب الاستقلال الجمهوري. ولجنة ثالثة برئاسة المهندس حبيب بستاني وذلك لتحل الواحدة مكان ما سبقها إذا اعتقلت اللجنة. كما تألفت لجنة اسعاف لمساعدة من يعتقل أو يحكم بالسجن والغرامات أو يتعرض لحادث صحّي وتأمين حاجته من الطعام. كما فتح باب التبرعات واعتمدت الصحف التالية: النداء ـ البيرق ـ السيّار لنشر الأخبار الصادرة عن لجنة المقاطعة وسواها

من اللجان وقد اندفع الناس يتبرعون بسخاء. وكان أمين الصندوق ينشر يومياً لوائح التبرعات. وأخذت اللجنة الجديدة تجوب في الأحياء وتعقد الاجتماعات الشعبية في البيوت لتقوية الترابط وإجبار الشركة على الرضوخ لمطالب الشعب. وقد اعتقلت الحكومة أعضاء اللجنة المحركين في أثناء اجتماع لهم في منزل السيد سعد الدين فرّوخ».

ولما لم تجدِ حيل الحكومة، وترهيبها فتيلاً، فالاضراب العام استمر واللجنة الجديدة استمرت في تحمل المسؤولية بقوة وصلابة. هنا لجأت السلطات إلى أساليب التآمر، وهي ذات الأساليب التي يلجأ إليها الحكام في كل عصر وقطر، عندما يفقدون اعصابهم، ويرتعدون أمام تضامن الشعب ضدهم. فتحت الضغط الحكومي وتدخل الشرطة والوعود التي قطعتها في مقهى النجار، خرق أصحاب المقهى الصف، وأناروا مقهاهم. وفي هذه الأثناء، كما روى جان سرور، مرّت سيارة وقذفت المقهى بمفرقعة قوية. فكان ذلك سبباً في اقدام السلطة على اعتقال بعض أعضاء اللجنة وتحويلهم إلى المجلس العدلي. وما كاد الخبر ينتشر حتى هبت جماهير بيروت تعلن تضامنها مع المعتقلين. كما أضربت الأسواق التجارية وكان ذلك دفعة جديدة لاشتداد زخم المقاطعة.

وفي السجن أضرب المعتقلون من أعضاء اللجنة عن الطعام. وكان لهذا الإضراب صدى واسع، مما أخاف الحكومة، وأقلقها. ولم تمض أيام حتى اضطرت الحكومة للإفراج عن المعتقلين المضربين. واستمرت المقاطعة من أول نيسان حتى ١٥ تموز ١٩٣١. وقد حل الاضراب وتوقفت المقاطعة بعدما خفضت تسعيرة الكهرباء بنسبة ٤٠٪ وتسعيرة الركوب بالترامواي بنسبة ٢٥٪ وكان ذلك حوالى منتصف شهر تموز ١٩٣١.

حول حصيلة الاضراب ورضوخ الشركة لمطالب البيروتيين يقول الياس البواري في: «الحركة العمالية والنقابية» ص ١٩٥ ما يلي: «انتصر الاضراب وحقق الشعب البيروتي مطالبه. فاضطرت شركة الكهرباء لتخفيض سعر الطاقة ٤٠٪، وأجور الركوب بالترامواي بنسبة ٢٥٪» وحول هذا الانتصار كتبت جريدة العرض في حينه تقول: «انتهت المقاطعة التي فاخرت بيروت بها بحق وعدل، كما قدرنا لها من اليوم الأول، عن طريق التفاهم والإقناع. فبرهن الأهالي بأنهم لم يقصدوا في مقاطعتهم غير معناها الحقيقي، وتوصلوا بفضل ثباتهم وتعقلهم، إلى القسم الأكبر من حقوقهم. كما وأنهم لم يغمطوا حقوق الشركة ومصالحها وكانت النتيجة فوزاً لمطالب الشعب العادلة، وأمثولة للجميع، فأخذت الشركة منها درساً للمستقبل، وعرف الشعب أن اتحاده يوصله دائماً إلى حقوقه، وعرفت الحكومة أنها تسوس شعباً يقظاً عزيز النفس».

إذا كان اضراب المستأجرين سنة ١٩٢٦ قد حرك الجماهير البيروتية فهبّت تدافع عن حقها ضد ظلم المؤجرين، وحصل ما حصل فيه من عراك أدى إلى سقوط بضعة شهداء من أبناء الشعب،

فإن الاضراب العام الذي أعلن لمقاطعة شركة الجر والتنوير، سنة ١٩٣١، كان من حيث الاتّساع والشمول، أهم وأعمق. وإذا كان اضراب المستأجرين محصوراً بالمستأجرين فقط، فإن المقاطعة سنة ١٩٣١ ضد شركة الكهرباء شملت الجميع: المستأجر والمؤجِّر. العامل وصاحب العمل. الدكنجي وصاحب الفندق. وهذه الشمولية هي التي أعطته ذلك الزخم، وتلك الصلابة اللذين كانا في أساس تحرك أعضاء اللجان القائدة، والتفاف الجمهور البيروتي حولها.

صحيح أن الشكل هو المطالبة بتخفيض أسعار الكهرباء والنقل، ولكن بالأساس كان النضال موجهاً ضد الانتداب الفرنسي، وشركاته الاحتكارية. وفي رأس تلك الشركات شركة الجر والتنوير. وعليه فإن اضراب ١٩٣١ له صفتان: وطنية واجتماعية. من هنا كانت قوته، والتفاف الجماهير حوله، وفرض التراجع على المستعمرين الذين حضنوا الشركة ودافعوا عنها.

وبتتبع الأخبار عن الحركات الشعبية العمالية وغير العمالية بين العام ١٩٣١ و ١٩٣٥، نرى كم كان زخم الاضرابات قوياً، وفي كل ذلك للاضراب العام ضد شركة الجر والتنوير، أثر بيّن. اننا نذكر اضراب السواقين ١٩٣١، ثم اضراب عمال المطابع العظيم سنة ١٩٣٣، ثم اضراب السائقين البارز سنة ١٩٣٣، فاضراب عمال الأفران سنة ١٩٣٥، لقد كانت تلك المرحلة، مرحلة تحرك وطني سادها نضال مستمر متلاحق ضد الاستعمار في سوريا ولبنان. والنضال الاجتماعي الذي ارتفع أواره في لبنان بخاصة خلالها إنما كان تعبيراً عمّا كان يكمن في نفوس المواطنين من حقد على الاستعمار، ومن حرمان تفرضه عليهم ادارته لمصلحة الاحتكارات الأجنبية.

سيبقى اضراب بيروت ضد شركة الكهرباء صفحة مشرقة لأبناء العاصمة، شقت الطريق للثبات والصمود والاصرار على تحقيق المطالب، إلى أن نالوها، فانتصروا، وخذل الاستعمار وشركته وعملاؤه.

العمال الزراعيون خلال ٧٨ سنة

لقد أعادنا المؤتمر الرابع لنقابة العمال الزراعيين في البقاع (المنعقد في أول كانون الأول ١٩٨٥ في شتورا) إلى سنوات طوال، إلى العام ١٩٠٧ يوم اندفعت قلة من العمال في قرية «انطلياس»، للاحتفال بعيد العمال العالمي ـ أول نوّار، ومشت جمهرة منهم بمواكبة بعض المهنيين الايطاليين، الذين كانوا يشتغلون في شركة مياه الضبيه، من انطلياس إلى «الضبيه» ليزرعوا في أرضها ـ أرض الضبيه ـ شجرة صغيرة أطلقوا عليها اسم «شجرة الحرية». أولئك الرواد كانوا مؤلفين من العمال الزراعيين، عمال بساتين الليمون والتوت.

وفي العام ١٩١٠ امتشق بعض العمال الزراعيين في انطلياس سيف التنظيم، وراحوا يطالبون

بتأسيس جمعية لهم. لكن السلطة أنكرت عليهم ذلك، ولم تبال بمطالبهم، لأنهم، حسب اعتقاد السلطة، مغلوبون على أمرهم، ولا سيما أن أصحاب البساتين، ومالكي الأراضي لا يرضون بقيام أي شكل يفضي إلى تنظيم هؤلاء بما يشد أزرهم ويحسن أوضاعهم المهنية.

وتمر سحبة من الزمن اعتقد فيها أن صوت العمال الزراعيين قد بح، ولم يعد بمقدور أحد منهم رفعه، إلى أن كانت سنة ١٩٣٠ - ١٩٣١، فإذا بانطلياس نفسها تعود إلى سيرتها الأصيلة، حيث يقدم بعض المثقفين في طليعتهم الأخوان قبلان وكمال مكرزل، على تأسيس هيئة عمالية للدفاع عن حقوق العمال الزراعيين وللنضال ضد الاقطاعية الجائرة.

وفي العام ١٩٣٨، تقدم فريق من عمال انطلياس الزراعيين من الحكومة بطلب منحهم ترخيصاً لعقد مؤتمر لهم. ولكن السلطة الاستعمارية، وحلفاءها المحليين، رفضا تلبية ذلك.

وجاءت الحرب العالمية الثانية فأطاحت بكل شيء تنظيمي، وأصبح الهم الرئيسي المسيطر هو كيف يمكن التخلص من الوحش النازي والفاشي، فانصهرت جميع الإرادات والقدرات الوطنية لدعم المجهود العالمي المشترك لتسريع الإجهاز على المجرمين الذين أشعلوا الحرب، على هتلر وحلفائه، كشرط رئيسي لإنقاذ بلادنا والبشرية من هذه الآفة الخطيرة.

وفي الأربعينات بدأت صرخات العمال الزراعيين تتصاعد، كما أنهم بدأوا يصبحون قوة متجانسة موجودة في معظم محافظات لبنان، ولا سيما في البقاع والشمال، وبعض مناطق جبل لبنان الساحلية، وساحل الجنوب.

عيد الليمون

وفي مناسبة «عيد الليمون» الذي احتفل به في صيف سنة ١٩٤٥ في انطلياس، وبحضور ممثلي الحكومة والنواب، سار موكب مهيب من العمال الزراعيين، في المهرجان الذي تخللته مسيرة نظمت مشياً على الأقدام من «الزلقا» حتى ساحة انطلياس. في هذه المسيرة، سار موكب العمال الزراعيين الذين حملوا الشوكات والمعاول والمناجل، والمقصات، وغيرها من الأدوات المستخدمة في قطاف الليمون، ساروا، رجالاً ونساء، حاملين اليافطات وفي رأس ما كتب عليها، مطلب منحهم حق التنظيم النقابي. ومع أن «لجنة العيد» قررت إعطاء جائزة المعرض لموكب العمال الزراعيين، لحسن ترتيبه، ولابهة منظره، ولجودة مظهره بالنسبة للأشياء المعروضة بدقة وإتقان وبهجة، بالرغم من ذلك لم تبد الحكومة أي حافز لمنح العمال الزراعيين حق التنظيم النقابي ولو بجمعية.

ويحل العام ١٩٤٦، ويرتفع خلاله أوار النضال العمالي للحصول على قانون للعمل أسوة

لبلدان المتحضرة، وتحت ضغط اتحاد العمال العام، وجماهير العمال، صدر قانون للعمل، ولكنه استثنى العمال الزراعيين، على أن يصار فيما بعد لإيجاد ملحق ينظم أوضاعهم.

ومضت الشهور، والسنون، وعم نضال العمال الزراعيين مناطق لبنان كافة. وكان نضالاً جماهيرياً منظماً واعياً مدركاً، وقد تركز، في جوهره، على مطلبين رئيسيين هما: زيادة الأجور، والحصول على حق التنظيم النقابي أسوة بعمال الصناعة. والمطلبان تجاهلتهما الحكومة، إلى أن أضطر العمال الزراعيون، في الجنوب والبقاع وعكار، إلى خوض المعارك المكشوفة لانتزاع حقوقهم مما مكنهم من الحصول على بعض مطالبهم الرئيسية.

ففي محيط سهل القاسمية، في قضاء صور، أعلن العمال الزراعيون في مطلع الخمسينات، الإضراب، وقد دعمهم فلاحو القرى، وقدموا لهم المساعدات المادية، وحضنوهم من جور وإرهاب السلطة التي راحت تطاردهم دعماً لأصحاب الأملاك الكبار والإقطاعيين، وكانت الحصيلة فرض زيادة على أجورهم بمقدار ليرة ونصف الليرة باليوم وكان ذلك انتصاراً باهراً يحرزه عمال الزراعة.

وفي الحقبة نفسها، أعلن العمال الزراعيون في البقاع اضراباً شمل الألوف منهم من أجل زيادة الأجور وحق التنظيم النقابي، فحصلوا على الزيادة، أما حقهم في التنظيم المهني فظلت الحكومة تماطل في الاستجابة له.

وتابع العمال الزراعيون في جميع المناطق، نضالهم لانتزاع حقوقهم بالتنظيم النقابي، ولكن التواطؤ القائم بين الحكم وكبار التجار وأصحاب المصارف وبين كبار الملاكين العقاريين والإقطاعيين، حال دائماً دون تحقيق هذا المطلب المهني، الاجتماعي، وقد تسبب هذا التحالف بإطلاق الرصاص على العمال الزراعيين والفلاحين في «تل عباس» بعكار، فسقط قتلى وجرحى.

وفي منتصف السبعينات أقدم العمال الزراعيون في البقاع على تنظيم صفوفهم في لجنة نقابية تأسيسية أخذت على عاتقها متابعة النضال للحصول على رخصة قانونية. والذروة التي وصل إليها العمال في تحركهم النضالي، هي المؤتمر الأول لنقابة العمال الزراعيين في البقاع. وقد عقد في «شتوره» سنة ١٩٧٥، وفي أساس التقرير الذي قدم فيه، متابعة الكفاح لانتزاع الرخصة القانونية بتنظيم نقابة للعمال الزراعيين.

وكان هذا المؤتمر منطلقاً لنشاط جماهيري واسع للجنة التأسيسية النقابية. وقد توج هذا النضال بالمؤتمر الرابع لنقابة العمال الزراعيين في البقاع المنعقد في ١٤ كانون الأول سنة ١٩٨٥ في «شتورة» وقد شارك فيه مئات المندوبين المنتخبين في مئات الاجتماعات التي عقدت للعمال في مئات القرى

وقد حضرها، حسب التقرير العام المقدم أمام المؤتمر، ٢٩ ألف شخص. وكانت حصيلتها انتساب أكثر من ثلاثة آلاف عامل إلى النقابة.

وليس هذا وحده هو الذي حققته النقابة من منجزات، بل إنها انتزعت الرخصة القانونية بتنظيم نقابة للعمال الزراعيين في البقاع، هذه الرخصة التي كانت الأمل المرجى لحملة المعول والشوكة، والمجرفة، والرفش منذ ٧٨ سنة، يوم احتفل عمال البستنة في انطلياس بعيد العمال العالمي، أول نوار.

إن من استمع إلى تقرير النقابة الذي قدمه أمام المؤتمر رئيس النقابة يوسف محيي الدين، وما تضمنه من معطيات وإنجازات قامت بها النقابة خلال السنوات العشر المنصرمة على تأسيسها، يتأكد من أن تنظيم العمال في نقابات مهنية، لا يفيد جماهير العمال أنفسهم وحسب، بل يفيد جميع الذين لهم مصلحة في تطوير الريف، وتحديث أوضاع الزراعة، وتأمين منافع لعموم المستهلكين في لبنان.

إن العمال الزراعيين، وهم طليعة كادحي الريف هم بالطبع طليعة النضال لتحقيق التغيير في واقع الريف الذي يعاني بقايا العلاقات المتخلفة وعلاقات الاستثمار الرأسمالية التي يمارسها كبار ملاكي الأراضي، وزمرة الملتزمين، حيناً آخر، وما تحرك عمال الزراعة في البقاع في نقابة مهنية، سوى انعكاس يلخص كفاح ثمانية عقود من الزمن، أطل خلالها العمال الزراعيون يحدوهم الكفاح لتحقيق مطالبهم وفي أساسها، تأسيس تنظيم مهني لهم.

إن البيارق التي رفعها العمال الزراعيون بدءاً من سنة ١٩٠٧ في «انطلياس» وصولاً إلى ١٤ كانون الأول سنة ١٩٨٥، في «شتورة» ـ البقاع، وهي شوكات ومعاول، ورفوش، وفؤوس، ومجارف، تلاقت مع طلائع جيش العمال، وقد أدركت بثاقب نظرها، وحيوية مطالبها، وضرورات حياتها، أن التنظيم النقابي هو شرط لتطوير كينونة الجسم العمالي بعامة والعمال الزراعيين بخاصة.

هذه الإرادات بفضل ثباتها، واستمرارية نضالها، وكنه طبيعة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تعمل خلالها، لا مناص لها من مؤسسة مهنية تجمع جميع الكادحين في الريف ليكونوا، مع إخوانهم الفلاحين وصغار المزارعين، بحراً دفاقاً، لا تقف عند تلاطم أمواجه الصخور مهما صلبت، والأنظمة الرجعية مهما عتت، والحكم مهما جار.

هذا التصميم هو الذي أعطى العمال الزراعيين في البقاع، وهو الذي سيعطي، غداً، وبعد غد،

في كل لبنان، نقابة، كانت حلم الالى من رواد عمال الزراعة في لبنان، وهي اليوم ملتقى ومحراب للأحفاد ينهلون منها العزم، والصلابة لمتابعة المسار إلى أن يتحقق في ريفنا الإصلاح الزراعي الديمقراطي، الذي يوفر الإمكانات لتحرير العامل الزراعي وزميله الفلاح من ربقة احتكار الأرض، وسيطرة نفر قليل على مساحاتها الخصبة، ومياهها الهادرة.

جمعية التضامن الأدبي البيروتية

في تاريخنا السياسي والاجتماعي والثقافي، أكوام من الأحداث الجسام التي تشكل صفحات مضيئة تؤكد إرادة شعبنا، وتصميمه على التغيير نحو الأفضل والأجمل.

وإذا كان إعلان الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨ قد شكل محطة انطلاق لرواد الإصلاح والتغيير، فأتت الطورانية، العثمانية لاحقاً التي انتهت بنهاية حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وعطلت تلك المحطة الانطلاقية، بتسليط الإرهاب على الشعوب العربية وتعليق المشانق لأحرارها. فإن حلول الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان محل الاحتلال العثماني، قد افسح في المجال لقدر ولو محدود، من ممارسة الحريات، وعلى هذا الأساس أخذ عدد من المثقفين، وحملة مشعل التغيير، من صحافيين، ومحامين، وأطباء ومهندسين، وعمال، يفكرون بإيجاد تنظيمات، إن على الصعيد الحزبي أو النقابي: حزب الاتحاد العائلي اللبناني ـ في عمشيت سنة ١٩٢١. حزب العمال اللبناني الذي تشكل بتوجيه من الانتداب مباشرة. والحزب الشيوعي اللبناني ١٩٢٤ ـ وحزب الشعب ١٩٤٥ وحزب الاستقلال الجمهوري في الفترة نفسها، ونقابة عمال زحلة، ونقابة عمال التبغ في بكفيا ١٩٢٣. وإعادة تشكيل نقابات تأسست سابقاً وتوقف نشاطها، كنقابة الصحافة ونقابة عمال المطابع، ونقابة الطهاة وغيرها.

في غمرة التوجه نحو التنظيم كشرط للنجاح في السعي من أجل التغيير والإصلاحات، تشكلت في منتصف العام ١٩٢٤، في بيروت، «جمعية التضامن الأدبي» وقد نالت الجمعية رخصة بتأسيسها من الجنرال «فندنبرغ» حاكم لبنان الكبير. كان ذلك في الثاني من شهر آب ١٩٢٤ ورقمه كما هو وارد في مجلة «الدهور» آذار ١٩٣٤ ـ ٤٧٦.

ولنقرأ ما كتبته مجلة «الدهور» عن نشاط هذه الجمعية في مختلف الميادين. قالت مجلة «الدهور» في عددها الصادر في آذار ١٩٣٤ بعد أن كان قرار المفوض السامي الفرنسي قد صدر بحلها.

«في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٤ عقدت الجمعية أول جلسة لها حضرها تسعة عشر عضواً من

أعضائها انتخبت فيها موظفيها، ففاز بالرئاسة الاستاذ عيسى مخايل سابا، وبنيابة الرئاسة الاستاذ محمد علي حمادة، وبأمانة السر السيد جورج كعدي. وبأمانة الصندوق الأديب المرحوم أمثل أبو الروس، وبوظيفة منسق الجمعية الاستاذ تقي الدين الصلح».

مؤسسو الجمعية ليسوا من الموسرين. ولا من أهل الإقطاع والمال. إنهم رهط من المثقفين الساعين من أجل إصلاحات وتغييرات عامة. ولذلك لم يكن بإمكانهم استئجار مركز للجمعية وعليه تقول «الدهور»:

«ولما كان صندوق الجمعية لا يساعدها على استئجار ناد خاص، فقد كانت الجلسات تعقد في منزل أحد مؤسسيها، السيد جان سرور، إلى أن حدث ما دعا إلى تبديل هيئة العمدة في مستهل العام ١٩٢٥. فترأس الجمعية السيد اسكندر عبد النور يعاونه بنيابة الرئاسة السيد جان سرور» وتقول «الدهور» «غير أن الضعف بقي سائداً في صفوف الجمعية، مما دعا إلى توقفها عن متابعة نشاطها في أواخر حزيران ١٩٢٥».

مساع لتجديد نشاط الجمعية

خلال السنوات الأربع بين ١٩٢٥ و ١٩٢٩، تعطل نشاط الجمعية. وفي أواخر سنة ١٩٢٩، كما ورد في «الدهور» فكر بعض الأعضاء بلم شعثها وتجديد قواها. فعقدوا في ٩ تشرين الثاني ١٩٢٩ اجتماعاً ألفوا فيه لجنة إدارية مؤقتة كلفت بوضع قانون داخلي والعمل على إحياء الجمعية بالطرق التي يرونها مناسبة. واسندوا الرئاسة إلى رئيس تحرير مجلة «الدهور» الاستاذ إبراهيم حداد. وأمانة السر إلى السيد محمد طبارة.

وتقول «الدهور»: وقد قامت اللجنة بأعمالها بنجاح. فوضعت نظاماً داخلياً للجمعية. كما أنها قامت بنشاط اجتماعي وثقافي. وعقدت لذلك عدة جلسات دعت إلى حضورها نخبة من الشعراء والأدباء. مما جعلها تنتشر في أوساط المدينة الأدبية.

وفي الخامس من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٠ عقدت الجمعية جلسة انتخابية عامة حضرها ما يزيد عن ٥٠ عضواً. وفاز بالرئاسة إبراهيم حداد وبنيابة الرئاسة حسن فروخ. وتلاه الاستاذ مختار التنير. وبأمانة الصندوق جان سرور، وبأمانة السر نسيم أيوب، وبمعاونة أمانة السر الياس خوري، ثم وديع فرح.

لجنة جديدة ونشاط جديد

وفي الفترة التي تلت الانتخاب، قامت الجمعية بنشاط أدبي وثقافي واسع. وظهر ذلك من خلال

الحفلات والمحاضرات العامة التي كان يخطب ويحاضر فيها عدد من خيرة رجال الفكر والأدب مثل، أمين الريحاني، وميخائيل نعيمة، وبشارة الخوري (الأخطل) وجريس وأنيس المقدسي، ومحمد جيل بيهم، وإبراهيم المنذر، والياس أبو شبكة، وصلاح اللبابيدي، وعبد الرحيم قليلات، وماري يني عطاالله، وشبل دموس، وراجي الراعي، ويوسف المراوي، وعلقت مجلة الدهور في عددها لشهر آذار ١٩٣٤ على هذا النشاط فقالت: «أصبح لهذه الحفلات من الأهمية في أوساط المدينة ما كان لسوق عكاظ عند العرب في الجاهلية، فكان الناس يرقبون مواعيدها بفارغ الصبر ويتمنون الإكثار منها».

وفي العام ١٩٣٠ نفسه استأجرت الجمعية نادياً خاصاً في بناية فخري بك، وفتحت مدرسة لتعليم الأميين، وأقامت مباراة خطابية بين تلاميذ المدارس الوطنية وقدمت إلى الفائزين جوائز ثمينة، منها كؤوس فضية حفر عليها أسمها.

منذ صدورها في صيف ١٩٣٠ أصبحت مجلة «الدهور» لمنشئها إبراهيم حداد، لسان حال جمعية التضامن الأدبي. وكونها المجلة العربية الطليعية الوحيدة في ذاك الوقت، وبفضل ما كانت تتطرق لبحثه من أهمية، فقد التف حولها كبار الكتاب والأدباء في لبنان والعالم العربي، وقد لعب ذلك دوراً كبيراً في تعميم المعارف عن «جمعية التضامن الأدبي» البيروتية التي غدت بالفعل لا بيروتية ولا لبنانية وحسب، بل مجلة عربية شاملة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن «جمعية التضامن الأدبي» جمعت بين البيروتين بيروت الشرقية وبيروت الغربية، وكانت بعيدة عن أي صبغة طائفية، والجمهور الذي التف حولها كان بيروتياً صحيحاً. وعندما نستعرض أسماء مؤسسيها، والذين تناوبوا على مجالس إدارتها طول السنوات العشر التي مارست خلالها نشاطها، ندرك الحقيقة التي تمسكت بها تلك الظاهرة المجيدة في تاريخ بيروت، بل في تاريخ لبنان والعروبة بعامة.

نشيد الجمعية

وارتأت جمعية التضامن الأدبي أن يكون لها نشيدها الخاص، وقد وضع الأستاذ وديع فرح النشيد ولحنه الموسيقار وديع صبرا (ملحن النشيد الوطني) وهذا هو:

هيا إلى الأمام	وحدوا القصدا
ندرك المجدا	روح ماضينا تنادي
يا فتية السلام	ارجعوا عز البلاد

أنتم اليوم عمادي فأله شؤماً
فارفعوا البندا يا مجدنا التليد
فقوة الأوطان نبه الذكرى
في تآخينا يا تربة الجدود
وفرصة الأزمان دونك البشرى
بين أيدينا هتف الأحفاد لنا
نهضة قبل الفوات قد « تضامنا » وقمنا
نجتلي نور الحياة لغة الأعراب منا
واطلبوا للمكرمات شمسنا الزهرا
العلم يحيينا نخط للدهور
لنبن للأخلاق صفحة غرا
مشعلاً أسمى فتملأ العصور
ينير بالإشراق فعالنا فخرا
جاهلاً أعمى حرروا الأفكار يرقى
ولنعد للفضل عهدا وطن بالجهل يشقى
هدّه الإفساد هدا واطلبوا العليا لتبقى
يا شقا شعب تبدّى غاية كبرى .

الدهور ، كانون الثاني ، ١٩٣٢

اهداف جمعية التضامن

في عددها الأول الصادر في شهر تشرين الأول ١٩٣٠ كتبت مجلة الدهور حول جمعية التضامن الأدبي ما يلي « كان الاحتلال ، وكان أن طغت علينا أحط عادات الغربيين وأشرها فجرفت أكثر شبيبة البلاد إلى حيث لا يدرون وقتلت في نفوسهم روح العزيمة والهمة فأصبحوا وليس لهم مأوى إلا المقاهي والملاهي ودور الفسق والفجور ، وإذا وجد فيهم من شذ عنهم في غيهم تراه قد أخذ بنور السياسة البراق فراح يسبح في بحرها المتلاطم الأمواج وهو جاهل أصول السباحة . لهذا السبب قررت نخبة من الشبان المتعلمين تأسيس جمعية تأخذ على عاتقها لم شعث الشبيبة وتوحيد النزعات بقدر الإمكان حتى توجد نواة ثقافة جديدة تنتج حضارة المستقبل ، وبعد تعب شديد استحصلت من الحكومة على رخصة يوم ٢ آب كما ورد ١٩٢٤ باسم « جمعية التضامن الأدبي » ، وعقدت عدة اجتماعات إنما ، ولأن العناصر لم تكن مستعدة لقبول مثل هذا العمل أوقفت الجمعية في أواخر سنة

١٩٢٩ فبعثت من جديد بقوة ونشاط غريبين وانضم إليها عدد كبير من الشبان الراقين وأقامت عدة حفلات خطابية في بهو التياترو الكبير وفي نادي الجمعية بخان فخري بك دعت إليها رجالات الحكومة والبارزين من الكتاب والوجهاء وأصحاب الفضل وهي سائرة على الخطة التي انتهجتها لنفسها وحصرتها بالمادة الأولى من قانونها الأساسي وهي « غاية الجمعية لم شعث الشبيبة وتعزيز اللغة العربية وتعليم الأولاد الفقراء والنهي عن ارتياد أماكن اللهو والفساد المضرة بالأخلاق».

ومن جملة قراراتها أيضاً قرار اتخذته بتحبيذ المصنوعات الوطنية ووجوب ارتدائها.

نشاط الجمعية سنة ١٩٣١

وفي البيان السنوي الذي تلاه في الجلسة الانتخابية العامة أمين سر الجمعية الاستاذ نسيم أيوب عن نشاط الجمعية للعام ١٩٣١، قال:

« إن الزرع الجيد متى كانت تربته خصبة وهيأ له القدر من يتعهده بالإصلاح، ينتج ولا بد، فوق ما يأمله الأمل. وينال الزارع مما يحصد نتائج اتعابه بفرح وافتخار».

وقال: « وقد رأيتم الآن الأمل محققاً وأننا ولا بد واصلون إلى ما نريد».

وإذا رأيت من الهلال نموه　　أيقنت أن سيصير بدراً كاملاً

وعن منجزات الجمعية خلال العام ١٩٣١ قال: « عقدت العمدة ثماني وعشرين جلسة، أخذت فيها سبعين قراراً صدقتها الجمعية كلها وفي أغلب الأحيان دون أعتراض. وبموجبها قبلت أكثر من ٤٠ عضواً وأقامت حفلتين خطابيتين كان لها صدى واستحسان بالغين».

وفي هذا العام، ١٩٣١ جدد انتخاب الاستاذ إبراهيم حداد رئيساً للجمعية، وانتخب فؤاد ميداني نائباً للرئيس، ونسيم أيوب أميناً للسر، ووديع فرح معاوناً لأمين السر، وجان سرور أميناً للصندوق.

وتحدثت مجلة « الدهور » عن دور جمعية التضامن في تلك الحقبة فقالت: « وكانت « الدهور » قد عرفت العالم العربي فحملت اسم الجمعية إلى أقاصي المعمور. وفي ١٢ كانون الثاني سنة ١٩٣٢ ترأسها الاستاذ المحامي وديع فرح وعاونه في نيابة الرئاسة الاستاذ المحامي معضاد معضاد، وبأمانة السر السيد إميل زين وبمعاونة أمانة السر السيد عبد الحفيظ سلطاني وبأمانة الصندوق جان سرور. وفي العام ١٩٣٣ ترأسها المحامي نسيم أيوب، يعاونه لنيابة الرئاسة الاستاذ المحامي نجيب الصايغ، وبأمانة السر المهندس أديب قازان وبمعاونة أمانة السر المحامي وديع فرح، وبأمانة الصندوق جان

مرور، وانتخب الدكتور الياس حبيب لمديرية المكتبة. ونسيم أيوب، ونجيب الصايغ، ونايف الخوري، وأديب قازان، وعبد الرحمن عبد الملك وإبراهيم حداد مستشارون.

خطبة الريحاني
ونفيه من لبنان

النشاط المستمر لجمعية التضامن، والمعكوس جيداً في المنتدى الصحافي، وعلى الصعيد الثقافي والأدبي، والكل مشغوف بهذه الظاهرة البيروتية التي آل منشئوها على أنفسهم، وعملوا بنكران ذات، وصبر واندفاع، جعلت لا نخبة معينة، بل جمهور كبير من المواطنين ينحون نحو جمعية التضامن الأدبي التي أخذ نشاطها يتعدى الأدب والثقافة. فالبلاد بدأت في قلق وتململ من أوضاع انتدابية آخذة بتجاهل قضايا البلاد، وأخذ اهتمام الانتداب يتركز على بناء قواعد لمصالحه. في حين كان الوضع في البلدان العربية، وفي سوريا بخاصة يغلي غلياناً شديداً. ساحات دمشق وشوارعها لا تخلو يومياً من المظاهرات. الانتداب عبر زبانيته، الشيخ تاج وسواه طرح عقد معاهدة. الجواب الوطني، كان ملء الشوارع بالناس، وجواب الانتداب كان الرصاص، شفيقة جبري الأديبة المناضلة تسقط شهيدة، كل ذلك أحدث قلقاً واستياء في النفوس. في هذه الفترة دعت «جمعية التضامن الأدبي» إلى لقاء في «التياترو الكبير» في بيروت للاستماع إلى محاضرة للفيلسوف اللبناني أمين الريحاني.

ضاقت صالة التياترو الكبير بالحضور مما لم يشهد له في بيروت مثيلاً. الكل ينتظر قنبلة يلقيها الأمين. وبالفعل تحقق ما أمله ورجاه الجمهور. وكان خطاب امين الريحاني قنبلة عنقودية ضيعت صواب الاستعمار الفرنسي، فأصدر المفوض السامي دي مارتيل، قراراً بنفي أمين الريحاني من لبنان، وفيما يلي النص الحرفي لذاك الخطاب التاريخي الذي هزّ لبنان والعالم العربي حقداً على الاستعمار الفرنسي، وهزّ الاستعمار فأفقده الصواب فنفى الأمين، ولكنه استناداً إلى الانعكاسات اللاحقة، نفى نفسه واليكم نص الخطاب. أو وثيقة الاتهام:

بين عهدين

«أيها السادة والسيدات.

لو كان لي ما أريد في هذا الأمر، أمر الخطابة، لكنت أريحكم واستريح، ولكني، على ما يظهر مسخر له، محكوم عليّ به كما أنه محكوم عليكم بي. أنا قصاصكم وأنتم قصاصي. هي الأقدار. وهؤلاء الشبان المجنونون بحبكم وبحبي، المخدوعون بكم وبي، هم المنفذون للحكم العالي، لأنهم يريدون لكم الخير الجم، ويظنون أن بحر هذا الخير عندي.

ولكن البحر، مالح، أيها السادة والسيدات، والأرض بائرة، ولو فرضنا انها صالحة للزرع. فهل ترويها المياه المالحة؟ هل تروي مياه البحر غليل الأرض العطشانة، إن لم تصعد إلى السماء بخاراً، ثم تهطل مطراً فيه الحياة؟

الحق أقول لكم لو كان عندكم مقدار ذرة من الإيمان لقلتم لهذا البحر أحلولل، فيحلو فتجري مياهه في الأرض البور فتحييها فتستحيل حقولاً خضراء، وجنائن غناء، وقد تتم الأعجوبة بعون الله ـ إذا اشتركنا أنا وأياكم في البحر فتعاونا وتضامنا، وكان، سبحانه وتعالى صاحب الانتداب علينا. بمثل هذا الانتداب أنا قابل، وانتم، على ما أظن قابلون، وكيف لا تقبلون، وقد قبلتم بما هو دونه درجات درجات!

أقف عند هذا الحد في الاستعارة الزراعية الانتدابية الآلهية، وأسألكم أن تعودوا معي إلى زمن ليس ببعيد كانت زراعتنا فيه قبل سياستنا، وكانت آلهياتنا فوق مادياتنا وكنت أنا من المحبورين المغتبطين مثل أصحاب الغبطة الرسميين في البلاد.

عندما عدت إلى وطني من أميركا المرة الثانية، منذ ثلاثين سنة، اتخذت الوادي منسكاً لي، وحمدت الله أن في جبال أجدادي ملجأ من حب الناس وأغراضهم، وقد كان لي ما أريد في السنة الأولى، كنت من المحبورين المغبوطين من أصحاب الغبطة، ولكن في غير اللاهوت والملكوت، مع أخواني الأقدمين. الأشجار والأزهار والأطيار.

والـذي حـارت البريـة فيـه   حيـوان مستحـدث مـن جمـاد

وتحققت معنى هذا الأخاء الطبيعي ظللني الصنوبر والسنديان، ونفحني بطيبه الزنبق والسوسن، وأطربتني بتغريدها الحساسين، وجاءت الحمائم تأكل من يدي.

سنة صنعت فيها الحياة وازدهت، فانعكس في الروح نورها، ونورت في النفس زهورها، وردد القلب صدى أصوات الوادي وأغاريده، وما أدرك الفلاحون جيراني ما أنا فيه من الغبطة فيحسدوني، أو يفسدون أسبابها علي.

على إني أخطأت إذ حلقت يوماً في سماء الابتهاج، فغبطت نفسي وهنأتها، ظننتني عظيماً، حسبتني من القديسين، النساك وخصوصاً عندما كنت أخاطب الأطيار واطعم الحمام مثل القديس فرنسيس الأسيسي.

وعندما بلغت هذه الذروة من الغبطة والحبور، أدركني ما كنت قد فررت منه. كأن الله لا يريد للإنسان من السعادة غير ما هو كالنور والهواء، فيستمتع به دون اعتزاز، ودون مباهاة. أجل فقد فقدت سعادتي عندما بدأت أذكرها بالإعجاب والثناء. ليذكر ذلك السعداء منكم. وليلبسوا

سعادتهم قبعة الخفاء والسكوت. فقد أدركني حب الناس ـ أصبت بالعين ـ عندما هنأت نفسي بسعادتي.

تبعني هذا الحب إلى الفريكة، وحاصرني فيها، واستولى عليّ، ثم جاء بي إلى هذه المدينة ـ وهو مع ذلك يدعي حبّاً ـ ومشى قدامي إلى منبر الخطابة وقال: هات مما عندك. فقلت متواضعاً: وماذا تبتغون من ناسك مفتون، يتغزل بالعوسج والطيون؟ ثم أعطيتهم مما عندي، حملت على حصونهم الاجتماعية والسياسية والدينية حملة مباركة موفقة، هذا ما ظننته في تلك الأيام. فقد خيل إليّ أن الحصون تتساقط الواحد بعد الآخر وكأنها من كرتون، وقال الحضور بأيديهم ـ صفقوا استحساناً ـ إنهم مسرورون بسقوطها. وما صدقوا في ما قالوا، وما أصبت في ما ظننت.

عدت إلى منسكي وقد داخل قلبي ما أفسد علي السعادة البريئة في ذلك الوادي، فانتهى عهد الغبطة، وابتدأ عهد الخطابة.

وكانت الخطبة الأولى في هذه المدينة، في جمعية شمس البر، في كنيسة الأميركان، في السنة الأخيرة من عهد عبد الحميد. أي منذ ثماني وعشرين سنة بالتقريب.

إن بينكم، ولا شك، كثيرين من الشابات والشبان الذين كانوا في سن الرضاع عندما ألقيت خطبتي الأولى في هذه المدينة، وإني أرى بينكم رجالاً ونساء، ممن هم مثلي من عهد عبد الحميد. فهل الجيل الجديد أحسن أبناء هذه الأمة في سهلها وجبلها، وساحلها، فيسمعون شيئاً من الأنين والشكوى، أنشر هذه الخطبة كما القيت.

وقد حان، على ما أظن، أن يتنبه أولو الأمر الأعلى إلى حقيقة الحال في البلاد، إلى الحقيقة كما هي عارية، خشنة فظيعة، لا كما يصورها لهم فريق من أبناء أمتي، أولئك الذين أسلفت الإشارة إليهم وقلت: إنهم ملكيون أكثر من الملك.

وإنه ليحزنني والله، أن يكون بين هؤلاء من الأسياد والصعاليك من لا يهمهم غير خير يومهم، وإن جُبل هذا الخير بالتزلف والذل والخداع. وبما أن داءهم في قلوبهم، كما هو في جيوبهم، فإني أسدل على ذكرهم ستار الشفقة والغفران.

ولكن في البلاد فريقاً آخر هو مثل الوطنية الأعلى، ونور آمالها. في البلاد أحرار صادقون من نساء ورجال عاملون في سبيل الوطن المنشود الحر المستقل، القائم على الأركان الوطيدة الثابتة للرقي والعمران، ولكن دون هذا الهدف الأعلى عقبات لا يذللها غير الثبات في الأعمال السلمية المنظمة. الثبات، يا أخواني، الثبات. الثبات في تحسين أحوال البلاد الاقتصادية والصناعية

والزراعية. الثبات في زرع بذور النشاط والإباءة والنزاهة في صدور الناس. الثبات في بث الشكوى والمطالبة بالحقوق المهضومة. الثبات في الأعمال السلمية المنظمة المثمرة.

وإلى أولي الأمر الأعلى، أصحاب الانتداب، أريد أن أقول هذه الكلمة دون أن أتوقع الشكر عليها. وقد يبرهنون على ما نعهده فيهم من الحكمة والحصافة وكرم الأخلاق فيشكرون.

إن خيركم، أيها السادة وشرفكم ومجدكم- كلها لفي طريق خطر من سياستكم في هذه البلاد. فإن أصلحتموها صنتم الأحساب الفرنسية المجيدة، وخدمتم بلادكم قبل البلاد التي أخرجتموني منها، لأني كما تقولون، أجنبي، أنا المولود بالفريكة، في قضاء المتن، في قلب هذا الجبل المدفونة فيه عظام أجدادي، أنا الأجنبي... وأنتم.. إنني استغفر الله لكم. وإن صح زعمكم فإني إذن غريب مثلكم، وقد قال شاعر العرب:

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

أفلا يحق لي، يا بني العم الأعزاء، أن أسدي اليكم النصح، بحكم القرابة، لخيركم قبل خير هذه الأمة وما نصحي غير كلمة أخرى من كلمات العرب الخالدة وهي:

إن العدل أساس الملك.

أفلا تفضلون حكماً يقوم على حب هذه الأمة، حكم ثقتها بكم، وتعاونها وإياكم. على حكم يستوجب جيشاً مقيماً دائماً في البلاد؟ هو سؤال أوجهه إليكم، وأنا اتأهب للرحيل طوعاً لأمركم العالي. أصلحكم الله ونفع البلاد بكم».

وقد أدى هذا الخطاب إلى إبعاد الريحاني عن لبنان كما ورد، وقالت «الدهور» وما كاد الخبر يذاع حتى تلقى أمين الريحاني دعوات من مختلف الأقطار العربية والمهجر فاختار العراق. وقد أحدث هذا الإبعاد وقعاً سيئاً في الرأي العام ههنا وفي العالم مما اضطر حكومة باريس إلى سحب دي مارتيل كمفوض سام من سوريا ولبنان، وإلغاء قرار الإبعاد.

ورافق قرار إبعاد الريحاني قرار بحل جمعية التضامن الأدبي، بعدما كان قد مر على تأسيسها عشر سنوات، مقدمة فيها، أفضل ما يمكن أن يقدمه صرح أدبي للمواطنين، للناس، للحرية، والتقدم، والرقي.

في آخر يوم من أيام السنة الفائتة وفي آخر ساعة من ساعات حكم رئيس الجمهورية السابق شارل دباس، صدر مرسوم بحل «التضامن الأدبي» هذه الجمعية الزاهرة التي خدمت العلم والأدب

والفلسفة عشر سنوات وكانت خير وسيلة في نشر المعرفة وأقوى معوان في تنوير الأذهان.

ويعزى سبب حلها إلى ذلك الخطاب الناري الذي ألقاه الفيلسوف أمين الريحاني في حفلة خطابية أقامتها على مسرح التياترو الكبير. وكان له ذلك الدوي الشديد في الأوساط الحكومية مما دفع بالسلطة المنتدبة إلى اتخاذ قرار بنفي الفيلسوف مع إصدار مرسوم الحل.

والذين يرقبون تطور النهضة الفكرية في سوريا ولبنان، يشعرون، ولا ريب، عظم الخسارة في انهيار هذا الصرح الأدبي الشاهق الذي قام على أكتاف فئة من أرقى شبيبة البلاد علماً وأدباً وأخلاقاً، وجمع في أفنائه كتلة قوية من المفكرين وقادة الرأي في هذا البلد.

وقد كان من جراء حل هذه الجمعية، أن شعر الناس بشيء من الجمود في الأوساط الأدبية، وأخذ شعاع التجديد يتضاءل بعد ذلك السطوع المحيي، حتى ان هذه الضربة التي أصابت الأدب في صميمه هدت من قوى المشتغلين بترقية العلوم، وسدت في وجوههم أكثر سبل النجاح.

و «الدهور» التي تفخر بأن حملت اسم «جمعية التضامن الأدبي» يوم صدورها، وكانت إذ ذاك لسان حالها، لا يسعها إلا أن تظهر أسفها الشديد لفرط ما نزل بالنهضة من كوارث، وترجو أن يبحث أركانها عما يعوضهم عنها خيراً.

تسع وخمسون سنة انقضت على تأسيس جمعية التضامن الأدبي، هذه الصفحة المشعة في تاريخ بيروت لا الأدبي، بل وتاريخها السياسي. وإذا كانت يدي وقعت على بعض المعلومات فأقدمت على كتابة هذه الصفحات المتواضعة، فلا ذلك بالبرهان العملي، ان الوحدة في مجتمع العاصمة أصيلة. والقلم الذي تنكبه أولئك الرواد الصالحون من أجل توفير الأجواء الأكثر مؤاتاة وصلاحاً، لتمكين شعب لبنان من التحرر، والسير في معارج الرقي، هذا القلم يبقى اليوم السلاح الأمضى لتوفير الاستقلال والحرية، والديمقراطية، والحياة الفضلى لا لشعب بيروت، بل لكل لبنان. وشعبنا الذي أعطى العام ١٩٢٤ تلك الجمعية برجالاتها الطيبين، لا يزال قادراً على العطاء، ليستريح لبنان، وليبقى قولاً وفعلاً واجهة عربية وضّاءة مشرقة مؤهلة لبروز الظاهرات لتوطيد كل ما هو حضاري، وتقدمي. لكل ما يساعد على توطيد الاستقلال والسيادة، والإنماء والخصب وكلها شروط لتوطيد صرح الأخوة الوطنية، في رحاب الوطن الواحد الموحد، المستقل، المتحرر.

(كتبت سنة ١٩٨٣)

الحزب الشيوعي والفلاحون

حزب العمال والفلاحين ولد. وفي كنف هذه العائلة المباركة ترعرع وشب. وكما كان العمل

والمصنع والمشغل منطلقاً له، كان الحقل وبيت الفلاح محراباً لتحركه، وميداناً لانطلاقته الريفيـة. ومنذ الشوط الأول الذي قام به الحزب الشيوعي اللبناني، في النضال الوطني والاجتماعي لقي من جمهور الفلاحين التضامن والدعم، ولم يكن انتشاره في المناطق الفلاحية ابتداءً من « بينو »، عكار، حتى بنت جبيل، الجنوب، وبعلبك، البقاع، وجبيل، وشرتون والبترون إلا التعبير الصحيح عن طبيعة هذا الحزب، حزب العمال والفلاحين.

النضال الطبقي كان موجوداً في الريف اللبناني، أوليست انتفاضات الفلاحين والمكارية في عشرينات القرن التاسع عشر، وفي أربعيناته، وخمسيناته، مظاهر للحقد الطبقي الكامن في صدور الفلاحين ضد الإقطاعية وحكمها الاستبدادي؟

وفلاحو عشرينات القرن العشرين الذين بعد بوار مواردهم الأساسية، الحرير بشكل رئيسي، وتعطيل وسائل النقل ـ المكاراة على البغال، والجمال والحمير، تعرضوا لأسوأ أزمة اقتصادية وضعتهم على حافة مجاعة كبرى. وزادهم ظلماً الحكم الاستعماري الذي عمل لحل أزمته في بلده فرنسا، على حساب المنتجين اللبنانيين. في هذا الوضع المتردي، انبثق الحزب الشيوعي اللبناني، وفي الريف اللبناني من عمال قرويين ومثقفين متحررين، يعكسون بصدق وإخلاص الواقع الفلاحي وما يعانيه من حرمان وكبت. أو لم تنشأ في انطلياس بمبادرة من المناضل الاستاذ قبلان مكرزل أول جمعية هي « تضامن المثقفين والعمال والفلاحين ضد الاستعمار والإقطاعية » التي ما لبثت أن انضمت إلى الحزب الشيوعي لاحقاً؟. وتابع حزبنا مسيرته في الوسط الفلاحي، سياسياً وتنظيمياً. وفي العام ١٩٣٨ قدم العمال الزراعيون ـ عمال البساتين ـ في انطلياس عريضة إلى الحكومة طالبوا فيها بالترخيص لعقد مؤتمر لهم؟

وانطلاقة الحزب الكبرى بين ١٩٤٢ ـ ١٩٤٧ كان مداها الحيوي الريف اللبناني من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال. من بنت جبيل حتى وادي خالد، ومن جونية حتى عرسال والقاع والراس. فما نزل ضيم بفلاح جنوبي استبدت به ادارة الكمرك إلا وهب إخوان له في بعلبك يحتجون على ما نزل به من ظلم.

والسطور التالية تشير إلى بعض ما قام به الفلاحون من تحركات كانت ولا تزال ذات أثر في تاريخ حزبنا وشعبنا اللبناني.

بينو عكار

كان ذلك في ١٨ شباط سنة ١٩٤٥ عندما أقيم مهرجان كبير في بينو، كتبت عنه « صوت الشعب » ما يلي:

كان يوم الأحد الماضي يوماً مشهوداً في بينو، فقد وردتها الوفود الشعبية في الصباح الباكر من قرى حلبا وتلعباس وجبرائيل والعيون وبزبينا، لحضور الحفلة الكبرى التي أقامتها منظمة الحزب الشيوعي احتفالا بالذكرى الأولى لإعلان الميثاق الوطني للحزب.

وفي تمام الساعة الثانية بعد الظهر غصت قاعة الحفلة الواسعة والطرقات المجاورة بالوفود وسكان بينو من نساء ورجال على اختلاف طبقاتهم. وكان بين الحضور: الدكتور راغب عطيه والأستاذ إسحق عطيه والدكتور جرجي عون ورئيس البلدية الاستاذ مالك عطيه والدكتور ملحم ابراهيم والسيد وديع عطيه والمختار السيد نقولا خوري والدكتور نعوم نادر والسيد نقولا سلوم وعقيلاتهم.

وقد افتتح الحفلة فريد الأشقر وتلاه السيد رامز حداد فرحب بالحضور باسم المنظمة. ثم تلاه الاستاذ عبد الله عدرا، فبين أهمية الميثاق من الوجهة الوطنية، وتحدث عن حالة الفلاح، وأوضح أسباب تأخره.

ثم تلاه الاستاذ رينه غنطوس فعرض بإسهاب كثيراً من الأمور السياسية وموقفنا من الدول الأجنبية وقال إن للحزب الشيوعي أكبر الفضل في إيصال الروح الاستقلالية، وإيضاح المفاهيم الوطنية لكثير من القرى النائية.

ثم ختمت الحفلة بالنشيد الوطني، وانفض هذا الحشد الكبير بين الهتافات للحزب وقائده فرج الله الحلو، وحرية لبنان وسعادته.

البترون

وبتاريخ ٦ تموز سنة ١٩٤٧ نشرت «صوت الشعب» رسالة من بلاد البترون تحت عنوان: «مطالب فلاحي بلاد البترون» جاء فيها:

بعد أن نكبت البترون بالملاريا في العام الماضي وتفشى هذا الداء بين السكان حتى لم يعد يخلو بيت منه، وبعد العرائض والمراجعات العديدة لدى السلطات، أرسلت وزارة الصحة إشعاراً للقائمقام بشراء كمية من الد.د.ت، فنفذت البلدة الطلب واشترت ١٥٠ ليتراً دفعت ثمنها ٥٠٠ ليرة، واعتقدت أن هذه الكمية تكفي البترون كلها التي يزيد عدد بيوتها على الخمسمائة معظمهم من الفقراء.

وقد وزعت كمية من الد.د.ت، على الموظفين وحين استعماله وجدوا أنه فاسد غير صالح، فاجتمعوا وراحوا يطالبون باسترجاع الثمن.

ونحن نسأل: ألا يمكن لوزارة الصحة التي توزع الد .د .ت على جميع أطراف الجمهورية وأن ترسل للبترون كمية صالحة منه للقضاء مرة واحدة على الحشرات التي تفتك بالناس وتنشر الأوبئة في بيوتهم.

إهمال وزارة الزراعة

مر على جر مياه الري للبترون ما يزيد على ست سنوات وليس في البلدة حتى الآن أشجار مثمرة. والسبب في ذلك عائد إلى إهمال وزارة الزراعة خصوصاً، وإلى فقر الفلاح وعدم تمكنه من القيام بالنفقات التي يتطلبها هذا العمل من رأسمال لدفع ثمن الأغراس والسماد وغير ذلك. لا سيما وأن البنك الزراعي منذ تأسيسه لم يدفع شيئاً لصغار الفلاحين.

وقد راجع مزارعو البترون مراراً الحكومة مطالبين بأن تزورهم بعثة مكافحة الامراض والحشرات التي انتشت مؤخراً. ولكن وزارة الزراعة لم تصغ إلى طلباتهم، فكان أن تكبد الفلاح البتروني في هذا الموسم خسائر كبيرة، ولم يعد عليه موسم الخيار والبندورة حتى بثمن البذار والسماد.

قرى البترون ومياه الشفه

لا تزال البترون وقراها محرومة من ماء الشفة، وهي ما زالت تشرب من مياه الآبار التي تبين أن فيها ما هو ملوث بجرثومة التيفوئيد. وقد قدمت مراراً الوعود الكثيرة بجلب مياه الشفة لقرى البترون، ولكنها لم تنفذ وبالحقيقة لو نفذت لأصبحت هذه القرى من أجمل مناطق الإصطياف. ومعروف أن تحقيق هذا المشروع ليس بالصعب العسير، لأن الينابيع كثيرة ومياهها تذهب هدراً. ولكن ليس بإمكان البلديات الفقيرة أن تقوم بأعباء ذلك بدون مساعدة الحكومة. فعسى أن يتجه انتباه المسؤولين إلى تلك المنطقة المحرومة.

لجنة انقاذ الفلاح في النبطية

وفي شهر كانون الثاني ١٩٥٤ اشتد هجوم شركة الريجي في مطلع الخمسينات ضد الفلاحين، وقد خفضت أسعار التبغ إلى ٨٠ ـ ١٢٥ قرشاً للكيلو. وهذا السعر لا يسد نفقات المياه التي اشتراها الفلاح لرش المشاتل وغرس الشتل. وتشتد حركة السخط والاحتجاج بين صفوف الفلاحين. والنقابة التي شكلت لحماية كبار المزارعين لا تنفع صغارهم، فلهذا تنتشر عند الفلاحين في منطقة النبطية فكرة إنشاء لجان لهم تدافع عن مطالبهم، وتشكلت في النبطية، «لجنة انقاذ الفلاح» أخذت على عاتقها الدفاع عن الفلاح الصغير ضد تعسف الشركة، وتسعى للاتصال

بالفلاحين في القرى لتأسيس اللجان التي تساعد الفلاح على الدفاع عن حقوقه.

إضراب ألف عامل في القاسمية

في ٨ شباط ١٩٥٣ أعلن ألف عامل زراعي في القاسمية ـ صور الإضراب. ونشرت «جريدة الصرخة» الخبر التالي:

منذ مدة طويلة والعمال الزراعيون في منطقة القاسمية يطالبون كبار الملاكين والضامنين برفع أجرتهم اليومية من ٢٢٥ إلى ٣٠٠ قرش وتطبيق قانون العمل بحقهم، دون جدوى. وعندما أفهموا أصحاب العمل أنهم سيتوقفون عن الشغل إذا لم تتحقق مطالبهم استنجد هؤلاء بالدرك الذين هرعوا لمساعدتهم واعتدوا على العمال الزراعيين بالضرب والشتم، وقد وقف العمال بوجه المعتدين الذين اعتقلوا بعضهم. ولما علم عمال القرى الساحلية في منطقة صور بالأمر هبوا يتضامنون مع إخوانهم، وقدموا عرائض كثيرة بتأييد مطالبهم واستنكار اعتداء الدرك.

وفي هذه الاثناء أخطر كبار الملاكين والضامنين العمال بأنهم سيخفضون أجرتهم من ٢٢٥ إلى ١٥٠ قرشاً.

وفي ١٥ شباط ١٩٥٢ نشرت الصحافة المعلومات التالية عن إضراب العمال الزراعيين.

لا يزال العمال الزراعيون في صور ـ الناقورة مضربين عن العمل منذ ١٣ يوماً. في سبيل زيادة أجورهم وتطبيق قانون العمل عليهم. وقد أشرنا في عددنا السابق إلى التظاهرات التي قاموا بها في صور وإلى الوفود التي هبطت بيروت وقابلت بعض المراجع المسؤولة والصحف والهيئات العمالية.

ويلاقي العمال المضربون العطف والتأييد من إخوانهم الفلاحين وأهالي القرى، في قضاء صور وسواه من أقضية الجنوب.

وقد حاول المدعو ابراهيم ابن الإقطاعي حيدر في صور إغراء بعض اللاجئين وتشغيلهم محل العمال المضربين ولما اعترضه العمال المضربون شهر الإقطاعي عليهم بندقية وهددهم بإطلاق النار، وعند هذا رماه أحد المضربين بدراجته. وقد أثار اعتداء هذا الإقطاعي ثائرة المضربين وغضبهم. وأخيراً انسحب الإقطاعي وانصرف اللاجئون وتضامنوا مع العمال المضربين.

وتسعى لجنة العمال التحضيرية لإعداد المؤتمر العام للعمال الزراعيين في الجنوب، الذي سيعقد في سبيل المطالب الثلاثية التالية: زيادة أجورهم من ٢٢٥ قرشاً إلى ٣٠٠ قرش باليوم، ٨ ساعات عمل، تطبيق قانون العمل اللبناني عليهم أسوة بغيرهم.

انتصر الإضراب ونال العمال مطالبهم

بفضل ثباتهم في إضرابهم حصل العمال الزراعيون على مطالبهم وهي ٣٠٠ قرش بدلاً من ٢٥٠ قرشاً. وعلى الأثر أعلن العمال الزراعيون في قرى: العباسية، معركة، طير دبه، نورة، برج رحال، دير قانون النهر، البرغلية، الإضراب من أجل تطبيق قانون العمل عليهم أسوة بعمال المدن وبثماني ساعات عمل باليوم وزيادة أجورهم.

وقد تجمهر العمال في البساتين وساروا في تظاهرة رائعة، تجلت فيها وحدتهم وروحهم الكفاحية.

الفلاحون والعمال الزراعيون في صور

في منتصف شهر آذار ١٩٥٢ أعلن العمال الزراعيون والفلاحون في قرى القليلة، السماعية، ودير قانون رأس العين، وكلهم يعملون في بساتين صور، الإضراب العام. توجهت تظاهرة من ٥٠٠ فلاح من هذه القرى إلى صور، ولكن رجال الدرك أخبروهم أن القائمقام غائب عن مركزه، فعادوا إلى أماكنهم على أن يعودوا في موعد آخر. وقد توجهت قوة كبيرة من الدرك واعتقلت أربعة منهم، فثارت ثائرة الفلاحين وشكلوا تظاهرة ثانية صاخبة اخترقت صور إلى السراي، وقابل وفد منهم القائمقام وعرضوا عليه مطالبهم الملخصة فيما يلي:

١ ـ تحديد ساعات العمل

٢ ـ رفع الأجور إلى ٣ ليرات في اليوم.

٣ ـ الإفراج عن المعتقلين.

ولم يسع السلطات إلا أن تفرج عن الموقوفين حالاً ووعدتهم بزيادة الأجور إلى ٢٥٠ قرشاً، ودرس قضية تحديد ساعات العمل مع المالكين.

وكان لهذه التظاهرة صدى كبير بين فلاحي الجنوب وقد أيدت اللجنة التنفيذية لمؤتمر الفلاحين الذي انعقد مؤخراً وتمثل فيه ٤ آلاف فلاح، نضال العمال الزراعيين والفلاحين في القليلة والسماعية ودير قانون في سبيل مطالبهم العادلة.

٤ آلاف بالجنوب يعقدون مؤتمراً كبيراً

عقد مؤتمر لفلاحي الجنوب حضره ٣٠ مندوباً يمثلون ٤ آلاف فلاح، وقد اتخذت فيه مقررات مهمة منها جعل حصة الملاك من الانتاج ٢٥ بالمائة حداً أعلى والإصرار على المطالبة بتوزيع الأرض، وتخفيض الضرائب عن الأرض والغاء «الويركو» ودفع تعويض لأصحاب

الأرض ضمن الحدود الاسرائيلية، وتوزيع رخص الدخان على الفلاحين لا على السماسرة والإقطاعيين والمطالبة بإلغاء امتياز الريجي، وإمداد الفلاحين بالآلات الزراعية والقروض، وإيجاد أسواق لتصريف الانتاج على أساس المقايضة والمساواة وخاصة مع الدول التي تسير على هذه الخطة، وتنفيذ مشروع ري الجنوب من الليطاني بعيداً عن شركات الاستعمار والنقطة الرابعة الاستعمارية، وتخفيض أسعار الماء والكهرباء وفتح مدارس ومستشفيات ودور توليد ومستوصفات مجانية بالقرى ومدارس ثانوية في صيدا وصور.

- (٢٣ آذار ١٩٥٢)

مطالب الصيادين في صيدا

تقول رسالة السيد محمد مسعود من صيدا إن صيادي السمك يشتغلون أكثر من ١٦ ساعة، ولا يحصلون على قوت عيالهم، وكم من صيادين يشتغلون طول الليل فلا يحصل أحدهم على أكثر من نصف ليرة. أما عائلات الصيادين فهي أشبه بأوكار أو أكواخ لا تتسرب إليها الشمس ولا الهواء النقي وجدرانها ترشح بالرطوبة والعفونة. مسببة شتى الأمراض الخطرة كالأمراض الصدرية والروماتيزم لساكنيها من نساء وأطفال. وقد أجمع صيادو صيدا البالغ عددهم حوالى ١٥٠٠ بحار على المطالب التالية: منحة لمساعدتهم على اصلاح شباكهم، توفير العمل للعاطلين عنه الذين اضطرتهم البطالة لمزاحمة الصيادين، انشاء مدينة العمال التي طالما وعد بها العمال، الطبابة المجانية للصيادين وعائلاتهم والمدارس وأدواتها مجاناً لأطفالهم، تخفيض وتحديد ومراقبة أسعار الخبز وسائر المواد الغذائية التي يتلاعب بها المحتكرون، الغاء الحجر الذي فرضته التابلاين على رقعة واسعة من الشاطىء والإجازة للصيادين بمزاولة الصيد فيها كما كان سابقاً، تخفيض الرسم المفروض على تذكرة الصيد من ليرتين إلى نصف ليرة لبنانية في العام.

٢٢ حزيران ١٩٥٢

بحارة صور يطالبون

رفع بحارة صور وعددهم الف بحار عريضة إلى المسؤولين يشرحون فيها الإجحاف اللاحق بهم لعدم الاهتمام بمصالحهم ومطالبهم الضرورية لهم ولعيالهم المحرومين من الخبز والتعليم والتطبيب المجاني، ويشتغل أحدهم طول الليل فلا يحصل على أكثر من ليرة لبنانية واحدة مما لا يكفي ثمن الخبز، ولذلك يطالبون بما يلي:

١ - تخفيض أسعار الخبز ومراقبة بيعه والضرب بيد من حديد على أيدي المحتكرين، وتخفيض أسعار جميع الحاجيات الضرورية من غذاء وكساء وأجور السكن، وجعل التعليم والتطبيب مجانيين.

٢ ـ التعويض عليهم بصرف مبلغ من الخزينة لشراء شباك الصيد ، ٣ ـ ايجاد عمل للعاطلين عنه وذلك بانشاء مشاريع وطنية عمرانية وانشائية واسعة.

(١٣ تموز ١٩٥٢)

إن المنطلق الأساسي لجميع هذه التحركات هو المؤتمر الفلاحي الذي عقد في النبطية بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ وحضره عشرات المندوبين من القرى، وخطب فيه الرفيق فرج الله الحلو، والرفيقان مير مسعد وهاشم الأمين. وقد صدرت هذه الخطب مع المقررات بكراس خاص وزع على جميع قرى الجنوب.

إن استمرارية الفلاح الجنوبي بقيادة الحزب الشيوعي في خمسينات وستينات القرن، هي في أساس الصمود والثبات والتفاني في النضال الذي خاضه فلاحو الجنوب في النصف الأول من العقد السبعيني، والذي شهد أضخم تحرك فلاحي جرى في النبطية ضد شركة الريجي وسقط فيه عدد من الشهداء بينهم الرفيق نعمة درويش.

وإذا كان فلاحو الجنوب صامدين الآن، يتحدون القلاع الاسرائيلة ـ الأميركية الطائرة، والمدافع البعيدة المدى، والتدمير والتقتيل، فـإنهم يستمدون من إخوانهم مناضلي الثلاثينات والأربعينات، والخمسينات والستينات، العزم على متابعة المسار مهما كانت الطريق وعرة، والمسالك صعبة. إن نصف الليرة التي انتزعها العمال الزراعيون زيادة على أجرتهم في صور سنة ١٩٥٢، انعكست على تحرك العمال الزراعيين في جميع المناطق الذين هبوا يضعون مطالبهم، ويعقدون مؤتمراتهم، ويتخذون القرارات المناسبة.

صحافة الحزب الشيوعي حلقات متماسكة
من «دهور» سليم خياطه ١٩٣٤ إلى «النداء» ١٩٥٩

ليس كالصحافة ما يعطي اللوحة الواضحة الصادقة عن نشوء وتطور أي حدث، وبروز أية ظاهرة في التاريخ. وبالنسبة للأحزاب السياسة بعامة، ولحزب الطبقة العاملة، الحزب الشيوعي بخاصة، للصحافة دور فعّال في تحقيق الايجابيات، وبذات الوقت في وقوع الانتكاسات وما تتركه من آثار سيئة على مسار الحزب في الوسطين الوطني والقومي من جهة، والوسط الشعبي وتحديداً الطبقي من جهة أخرى.

والحزب الجدّي، العامل من أجل التغيير الاجتماعي هو باستمرار بحاجة إلى التجديد، وإلى ابتكار أساليب عمل مشجعة على اقتحام المعارك النضالية، وتحقيق المكاسب، مهما كانت محدودة، بوصفها شرطاً لجذب الجماهير، وانضمامها، شيئاً فشيئاً إلى حركة الكفاح الوطني والطبقي، من أجل إنجاز المهمة الكبرى: التغيير الاجتماعي، مفتاح أي إصلاح، وبناء وإعمار جديدين.

والحزب الشيوعي اللبناني أولاً، ومن ثم السوري ثانياً، ثم في سوريا ولبنان ثالثاً، ثم اللبناني أخيراً، اعار موضوع الصحافة منذ البدء اهتماماً شديداً وعلق أهمية قصوى على تأسيس صحافة حزبية جريئة.

فبعد تأسيسه في ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩٢٤، وتحديداً، بسبعة شهور، أي في ٢٥ نوار ١٩٢٥، أصدر الحزب الشيوعي اللبناني جريدة «الانسانية» وقد رئس تحريرها أمين عام الحزب آنذاك، يوسف ابراهيم يزبك. وبالرغم من أن أيدي المستعمرين امتدت إليها وعطلتها بعد صدور خمسة أعداد منها، فإن الحزب تابع مساعيه لصدور جريدة، فكان ذلك سنة ١٩٣١، حيث صدّر جريدة حزبية سرية هي: «العلم الأحمر» ولكنها لم تعش طويلاً.

أما المد الواسع فقد حصل في مطلع العام ١٩٣٤، حيث صدَّر الرفيق سليم خياطه، بالاتفاق مع الحزب «مجلة الدهور» بعد أن حصل على حق الاستثمار من صاحبها الاستاذ ابراهيم حداد.

مجلة الدهور

فمنذ نشأتها العام ١٩٣١، كانت مجلة «الدهور» متطورة ذات اتجاهات متقدمة. وعندما رئس تحريرها سليم خياطه ابتداء من كانون الثاني ١٩٣٤، حتى آخر كانون الأول ١٩٣٤ تحولت إلى مجلة أدبية، سياسية، ترتكز إلى نظرية اشتراكية علمية، أخذت على عاتقها بهمة سليم والعصبة التقدمية من الشباب المتحرر التي كانت تعاونه، مهمة التوجيه، والتحريض، والاستنهاض من أجل تحرير لا لبنان وسوريا وحسب، بل الأقطار العربية الشقيقة، وبخاصة العراق وفلسطين، من الاستعمار، وسلوك طريق التقدم الاجتماعي، واعتمدت «الدهور» على تحقيق الكثير من توجهاتها بالارتكاز إلى الزخم التغييري الذي أخذ سليم خياطه ومعاونوه في تحرير «الدهور» على عواتقهم القيام به.

«الدهور» في عهدة سليم خياطه والعصبة المعاونة، انتقلت من قطب إلى آخر، فتحسنت شكلاً، وتعمقت مادة وأصبحت بالفعل مجلة الفكر التقدمي العلمي الماركسي ليس في لبنان وحسب، بل وفي جميع البلدان العربية، وحتى في اقطار الشرق الأوسط كافة.

صدرت «الدهور» بعهدة سليم خياطه في وقت كانت فيه الفاشيستيه قد حققت، في المانيا انتصاراً بسيطرتها على السلطة وسلطت على الشعب إرهاباً شديداً، فأبادت مئات الألوف من المناضلين الشيوعيين والديمقراطيين وفرضت حكم الحزب الواحد، واعتقلت أحد أبرز قادة الأممية الشيوعية الرفيق ديمتروف وأحالته استناداً إلى شهادة عميل للغستابو «فاندر لوبي» إلى المحاكمة بتهمة حرق الريشستاغ.

في هذا الوقت، كان الاتحاد السوفياتي قد حقق انتصاراً كبيراً في عملية بناء الاشتراكية وذلك بنجاح مشروع السنوات الخمس الأول نجاحاً تاماً، مما مكنه من وضع خطة جديدة لمشروع السنوات الخمس الثاني، وقد أكد مرور ثلاث سنوات عليه على أنه سينجح بأقل ما هو مقرر له من الوقت. اضف إلى ذلك أن الاتحاد السوفياتي كان قد انضم إلى عصبة الأمم متحفظاً حول المادة ٢٢ من دستور العصبة المتعلقة بنظام الانتداب الذي لم توافق الدولة السوفياتية عليه.

أصدر سليم خياطه الدهور خلال العام ١٩٣٤، وتمكن بديناميكيته الفذة، وعبقريته الدفاقة، وبما له من علاقات عامة واسعة، في الأوساط الأدبية والصحافية، والاجتماعية أن يلف حول الدهور، كوكبة من أبرز أهل القلم أعارت المجلة المزيد من الاهتمام والعناية، وأمدتها بالمادة؛ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، الأساتذة: كرم ملحم كرم، شبل دموس، صلاح لبكي، زاهية ايوب، فؤاد مفرج، الدكتور حبيب ثابت، جورج حكيم، فؤاد أبو عز الدين، شفيق حاتم، باسيل

كامل، ماجد شيخ الأرض، ابراهيم الكيلاني، بولس سلامة، خليل القرا، محمد جميل بيهم، نقولا شاوي، محمد أمين حسونه، قبلان مكرزل، حسني فريز، سمير الرافعي الزحلاوي، خليل زيدان، محمد المراوي، بشارة الخوري (الأخطل الصغير)، فايز يارد، ابراهيم حداد، ميشال عفلق، فؤاد قازان، يوسف ابراهيم يزبك، سلام الراسي، أحمد الصافي النجفي، جميل صدقي الزهاوي، فؤاد الشايب. وغيرهم.

وقد أعطى سليم خياطه الدهور الكثير الكثير. فعلى صفحاتها خلال العام ١٩٣٤ كتب قصة «مدينة على بحر الروم» وقصة «ضريح الشيخ طه» و «آراء جديدة في أدبنا المعاصر» ومقالة «الترجمة والتأليف».

وفي العدد الخامس من «الدهور» تموز ١٩٣٤، وجه سليم خياطه إلى القارىء الكلمات التالية:

«الدهور في طورها الجديد.

أيها القارىء!

إنك تذكر الصفحات اللامعة التي سجلت «للدهور» في سيرة صحافة تحرير الفكر العربي، لكنك، ولا شك، تذكر أيضاً أن هذه المجلة لاقت عرقلات وحملات جعلتها تخب كالمشعل الساري خلال ظلمات الليلة العاصفة. إلا أنها كانت تلقى، فوق ذلك، جمهرة من الصعوبات غير هذه التي صوبت إليها من شتى المصادر الخبيثة. ذلك أنها كانت هدفاً لمؤثرات داخلية متباينة: قسم منها يلازم عادة كل مشروع عمومي يضطلع بأعبائه فرد واحد، وقسم آخر نلحظه منتشراً في الصحافة العربية عامة، ويرجع إلى عاهة اجتماعية مستحوذة على عقلية «البعض»، عاهة ترمي إلى جعل الصحافة مطية مذلولة لفئات من المستغلين والجهلاء.

لهذه الأسباب انتصبت النخوة في رأس العصبة التي تؤازر هذه المجلة فبادرت، كما بادر منشئها، السيد ابراهيم حداد، بالاتفاق مع كاتب هذه السطور الذي أصبح مالك اصدار واستثمار هذه المجلة وصاحب إدارتها وتحريرها إلى ملافاة ما كان من الحال الماضي بإدخال المجلة في طور جديد يتقدم بها نحو أهدافها العليا.

تدخل «الدهور» طورها الجديد وهي محمولة على اكف واكتاف عصبة قيمة من شباب البلاد ومفكريها وادبائها المتحررين. هي عصبة «الطليعة» التي تتقدم الجماهير العربية، السائرة نحو انطلاقها المطلق من قيود حياتها الحاضرة. وتدخل مدعوة بدار طباعة ثابتة الاركان، مكتملة العدة، هي «مطبعة الفن الحديث» لصاحبها كاتب هذه السطور، التي كفلت إصدار المجلة

وإدارتها بل جعلها فريدة المجلات العربية بقوتها، بغزارتها، وقبل كل شيء آخر بروحها الانقلابية المقدامة.

ثم إن هذه الإدارة خصصت لهذا الطور الجديد هيئة تحرير نشيطة، منظمة ومخصصة على حسب أرقى أصول الفن الصحافي. إن هيئة التحرير هذه مكرسة لاستخلاص لباب التغذية الفكرية من أفضل مصادره وانخب مواضيعه العصرية، التي لا تنشر إلا بعد وزنها بالقياس المجرد عن كل اعتبار سوى اعتبار الاخلاص للقراء ولمشعل هذه المجلة المنير.

وإننا نغتنم هذه الفرصة لنفتتح طورنا الجديد بدعوة جميع العناصر النبيلة في نفوسها وأفكارها وأهداف جهادها إلى مؤازرتنا. ندعوها إلى السير معنا يداً بيد وجبهة واحدة لأداء الفريضة الصغيرة، الفريضة التي يجب أن تتحملها كواهلنا مهما كانت ضعيفة، من أجل مثل انسانية عليا ما فتئت انضج الأدمغة الصافية وأطيب جهود الجماعات المظلومة تكد وتتعب لتحقيق خلقيتها الكملى بكل روعتها وبهجتها، بكل سحر نظمها وعدلها.

إن دعوتنا تتجه إلى العلماء والأساتذة والطلبة والأدباء والمفكرين والأحرار والشباب العرب في كل أقطار العربية. إنها تهيب بالطبقات البائسة الجاهلة إلى الانتفاض من غفلة جهلها وبؤسها. وإنها دعوة تتطوع لخدمة هذه الطبقات بصفتها قوام مجتمعنا وصاحبة الدور الأول في الانتقال التاريخي العظيم الذي يجتازه عصرنا الدولي المتخبط.

نمد يدنا لهؤلاء جميعاً. لا نمدها للمصافحة فحسب، بل لنكون صلة وصل بين فكر الفئات الأولى وحقوق الفئات الثانية، كي تساعد على تمام تشكيل المجتمع العربي النظيف، العادل، الحر، الطليق».

وللدهور بعهدة سليم خياطه، يعود الفضل بانبثاق فكرة عقد مؤتمر للمثقفين الثوريين العرب، وكان انعقاده في ربيع سنة ١٩٣٤ في زحلة بحضور كوكبة من المثقفين في سوريا ولبنان، وقد قرر هذا المؤتمر اصدار مجلة، وكانت لاحقاً في سنة ١٩٣٥ «الطليعة».

ولم يكتف سليم خياطه بإنشاء مقالات، ودراسات وقصص قصيرة في «الدهور»، بل حرص على تحويل المجلة، إلى أداة تعبيرية، توجيهية للمثقفين، وللعمال والفلاحين وجميع المناضلين الوطنيين. وحرصاً منه على هذا الاتجاه، لم يترك سانحة إلا وابتكر فيها اسلوباً جديداً، وطريقة جديدة لتوسيع انتشار المجلة، والتفاف أكبر عدد من الكتاب والقراء حولها، وعندنا في بلاد جبيل اشترك فيها عدد من الفلاحين والعمال، وكانوا يقرأونها باستمرار، ويجدون فيها ما يساعدهم على حل الكثير من مشاكلهم. ولا يزال بعضهم يحتفظ بأعداد منها، وكان حظي سعيداً جداً لتمكني

من الحصول على بعض من الأعداد التي صدرت سنة ١٩٣٤ بإشراف سليم خياطه، وإنني إذ اغتبط لحصولي عليها، أشكر الصديق الذي أمدني بها وهي تشكل ثروة لا تثمن.

وظف سليم كل ما عنده من مبادرات وجرأة، وطاقات لانتشار المجلة. مثلاً أعلن فيها عن مسابقة في الأقصوصة بالكلمات التالية:

« أيها الأديب بادر إلى إرسال أقصوصتك، فالوقت لا يزال يساعدك. ولا تنسَ أن فوزك بالجائزة ليس فوزاً مادياً بخمس وعشرين ليرة فحسب، بل هو وثبة أدبية باهرة».

وأيضاً:

« بادر إلى الاشتراك بالدهور، أطلبها من بائعك لأنها المجلة العربية الوحيدة التي تحمل رسالة جديدة وتقوم وحدها بالإرادة والعمل والإخلاص لتحقيق احياء الأدب والفكر والمجتمع العربي».

« كل المثقفين والمثقفات والمتعطشين والمتعطشات إلى المعرفة الصافية والتفكير الطليق على التحرر من عبوديات بيئتنا وأوضاعنا ـ على كل شاب وعامل وفلاح متقدم أن يقبل مصافحة مجلته، أن يشترك بها ـ أن يعاضدها بقوته وتأثيره».

وأيضاً

« في العدد القادم تعلن الدهور نتيجة مسابقتها القصصية الكبيرة. أما لجنة الحكم فمؤلفة من السادة: أمين الريحاني، محمود تيمور، سليم خياطة، « عدد تشرين الثاني ١٩٣٤ ».

وأيضاً:

« الدهور أوسع مجلاتنا انتشاراً في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق، هي محور الحركة التجديدية في الأدب والفكر العربي. رأيها الأدبي هو الحكم الصادق المشهود له».

« كل مؤلف يعلن عن كتبه فيها يتأكد من: الشهرة لنفسه. والرواج لمؤلفاته».

« ذلك لأنه لا يكاد عدد الشهر يصدر وفيه إعلان عن كتاب حتى يتهافت القراء والأدباء على ذلك الكتاب تهافتاً حتى يصبح المؤلف مشتهراً بين ليلة وضحاها».

هدايا الدهور

كانت سنة الدهور عشرة أعداد، وأعلن سليم أن إدارة المجلة ستعوض على المشتركين بكتابين

يرسلان إليهم كهديتين. وقد وجه إلى المشتركين الكلمات التالية:

قريباً تعلن «الدهور» عن أولى هديتيها. وسيرى حضرات مشتركينا أن هذه الهدية والتي تليها ستكونان تحفتين أدبيتين نفيستين، يتشوق إليها، بل يشتهيها كل طالب للانتفاع بآثار الفكر الجريء المخلص، كل منهل من ينابيع الأدب الصافية، كما يتمنى كل مثقف لو يزين مكتبته مهما صغرت، ومهما كان مدخوله ضئيلاً أو كان ضغط الأزمة شديداً عليه. إذ مثلما لا يستغني الإنسان عن خبزه المادي كذلك لا يستغني الرجل والمرأة المتحرران، المتقدمان، عن غذائهما النفسي، الذي على خاصة اللذة فيه، يشكل ضرورة لا رفاهاً. وإن «الدهور» لا تقدم إلى مشتركيها، سواء في المجلة أو في هداياها، إلا افيد ما يستطيبه المثقف الحقيقي والمتحرر والثوري.

غير أن هذه الهدايا لا تصل إلا إلى الذين يسددون اشتراكهم تسديداً كاملاً. وعلى ذلك: فإننا نرجو المتأخرين في التسديد أن يبادروا إلى دفع ما عليهم حتى يسعنا إرسال الهدايا إليهم حال صدورها. ومن الامتيازات التي تكون لمشتركي «الدهور» في هذه الهدايا أنهم يقرأونها قبل غيرهم بمدة طويلة ويوفرون على أنفسهم لا أقل من ثلثي ثمنها.

إن لمعان «الدهور» لم يدم طويلاً فقد راحت عيون أجهزة الانتداب تعمل للإيقاع بها وتوجيه ضربة إليها، بعدما شعرت أنها أصبحت إعلامية توجيهية مزعجة بالنسبة إليها، وأخذت تضيق على الرفيق سليم خياطه، وتستخدم ضده وسائل الترهيب، والتهويل، والملاحقة. وكثرت المداهمات في المنزل الذي يسكنه، وإلى مكتب «الدهور» والمطبعة التي تطبع عليها وهي ملك له.

وكان العدد العاشر الذي صدر في كانون الأول ١٩٣٤، هو الأخير الذي أشرف سليم خياطه عليه. ومن بعدها عادت الدهور تصدر بإشراف صاحبها الاستاذ ابراهيم حداد.

أما سلطات الانتداب فقد أصدرت قراراً بإبعاد سليم خياطه من لبنان وسوريا، وعزَّ على أصدقائه وأصدقاء «الدهور» الانفصال عن عزيز عليهم جعله قلمه قريباً من كل قلب، من كل ضمير وطني ثوري. وعلى اثر ذلك أصدر سليم قبل تركه أرض الوطن بياناً مؤثراً وجهه إلى أصدقاء الدهور ونشر في العدد الأخير الذي صدر في كانون الأول ١٩٣٤، ونصه هو التالي:

بيان من سليم خياطه
إلى قراء ومشتركي ومناصري
«الدهور» في كل مكان

«يؤلمني أن لا تمر بضعة أشهر على تعهدي وعصبة منورة من الأدباء «مجلة الدهور»، حتى

تعترضني حملة القهر والجهل المنظمة اعتراضاً ظل يوالي ضرباته لتعطيل هذا العمل الكبير برسالته التحريرية والثقافية الرفيعة، التي أخذت «الدهور» تنطق بها نطقاً بعيد الأثر وتوحد لما صفوف النضال.

لقد اعتذرت «الدهور» في الشهر الماضي إلى قرائها عن تأخر صدورها بسبب اعتقالي الذي لم يكن مستنداً إلا إلى كابوس وهمي ثقيل. وأما في هذا الشهر، فإن التأخر يرجع إلى صدور قرار من المفوضية بإبعادي عن البلاد الموضوعة تحت الانتداب الفرنسي وإلى قرار من مجلس بلدية بيروت يقضي بعدم الترخيص لمطبعتي بالشغل، مما قطع مجرى أعمالي.

وإني آمل، وإن أبعدت عن هذه البلاد، أن «الدهور» ستبقى متابعة صدورها بعناية حضرة منشئها صديقي الاستاذ ابراهيم حداد وبمساندة العصبة المتحررة التي كانت تؤازرها.

وليس لي قبل السفر إلا أن أرسل تحيتي العاطرة إلى أبناء البلاد التي أحببتها وتطوعت كأديب للنضال في سبيل تحريرها، وهي البلاد التي نشأ فيها أجدادي، وهجرها لظلم حاكميها آبائي، والتي أطرد منها اليوم، فاتركها رغماً عني وأنا واثق بأن ليست من قوة تستطيع أن تمنعني عن متابعة العمل التحريري الذي يضطلع به المناضلون الأقوياء، في الأقطار العربية وفي العالم أجمع».

وأبعد سليم خياطه إلى فلسطين، ولما يتسنى له تأليف الكتابين المديدين اللتين وعد القراء بهما تعويضاً عن العددين اللذين لم يصدرا من الدهور، باعتبار أن سنتها هي عشرة أعداد فقط. ومن فلسطين لم ينقطع عن مراسلته للحزب، وإبداء الآراء، وعاد إلى لبنان بعد عقد المعاهدة اللبنانية ـ الفرنسية وتشكيل حكومة اطلقت حداً من الحريات العامة، وفي العام ١٩٣٩، وعلى أثر دخول فرنسا في الحرب وإعلان حالة الطوارىء في سوريا ولبنان اعتقل سليم ووضع مع رفقاء عديدين في قلعة القدموس وتعرض لضرب شديد أثر على صحته.

وفي سنة ١٩٦٦ توفي سليم دون أن يعرف به أحد من رفقائه. مات صاحب «حيات في الغرب» و «الحبشة المظلومة» و «على أبواب الحرب»، مات العملاق الذي بذل حياته في سبيل التغيير، والعدالة والتقدم، في سبيل الاشتراكية الحقّة، دون أن يلقي أصدقاؤه النظرة الأخيرة عليه، بعدما كانت عيناه تكلأهم بقلمه، بأفكاره، بضميره، أنى وجد، وحيث رحل.

إن الحزب الشيوعي اللبناني، حزب سليم خياطه استرشاداً منه بتوجهات مؤتمراته الثاني والثالث والرابع يحرص على تراثه وأصالته، من خلال مناضليه الميامين ومنهم سليم خياطه، هذا الحزب منكب الآن انطلاقاً من التزام قيادته وحرصها على إحياء ذكرى الذين تواروا وتنوسوا في حقبة عجفاء من الزمن، سواء من قضى منهم نحبه هنا على تراب الوطن، أو من سقط وهو يتابع نضاله في

هذا القطر العربي الشقيق أو ذاك هنا: الياس أبو شبكة فؤاد الشمالي سليم خياطه، رئيف خوري، وفي البرازيل فايز يارد. وفي مصر انطون مارون، وفي فلسطين رفيق جبور وهو منكب على إعادة نشر كل ما يتمكن من الحصول عليه مما انشأته تلك الكوكبة من فرسان النضال في سبيل الاشتراكية العلمية ونشر أفكارها في عالمنا العربي.

مجلة الطليعة

إذا كانت الدهور سنة ١٩٣٤، قد خرقت جدارات الفكر الاقطاعي الاستعماري، بإطلالتها المادية الموضوعية بأبحاثها، ومقالاتها القيمة التي زخرت بها بعهدة رئيس تحريرها الأديب التقدمي الكبير سليم خياطه فعملت بعمق واتساع كبيرين على إرساء الفكر الماركسي في ناشئتنا المثقفة، فإن مجلة الطليعة ١٩٣٥ - ١٩٣٩، عملت بوصفها وريثة لـ «الدهور» على تطبيع الأفكار الماركسية وجعلها اسلوباً لا في التفكير لدى المثقفين وحسب، بل عملت لتعميمها على جماهير الكادحين، من عمال وفلاحين ومستخدمين. وقد أصبحت أداتهم النضالية، بفضل نخبة الأقلام التي التفت حولها، لا من لبنان وسوريا وحسب، بل من الأقطار العربية كافة. أسماء كبيرة لمعت باعطاءاتها، وجذبت بأسلوبها، مما جعلت «الطليعة» محراباً لكل من يسعى نحو التغيير والتجديد، نحو الحضارة والتقدم.

فمن الناحية الفكرية سعت «الطليعة» لتحرير الفكر اللبناني العربي من العقد التي لفها حوله المستعمرون والإقطاعيون والبرجوازيون المتآلفون المتحالفون، على عرقلة كل منحى نحو التقدم. وتصدي الطليعة لهذا النهج الرجعي إنما هو خطوة جريئة عكست توجهات مؤتمر المثقفين الثوريين العرب سنة ١٩٣٤، والذي يعود إليه الفضل الرئيسي بإصدار مجلة الطليعة. أكدت «الطليعة» أن العرب بعامة، واللبنانيين والسوريين بخاصة، قادرون على انتزاع حقهم واستقلالهم من الاستعمار، وربطت ذلك بقدرتهم على التنظيم، وتوحيد الصفوف، وجمعها في كتلة، أو جبهة، أو تجمع واحد تندفع طاقاته لتصب في المجرى الكبير، في النضال الشاق العنيد من أجل التحرر الوطني والقومي.. ونذكر واحداً من أبرز كتابها الذين حملوا راية النضال من أجل التحرر والانعتاق من الاستعمار وحليفته الإقطاعية والبرجوازية الكبرى، الكاتب الكبير رئيف خوري. لقد حركت مقالات رئيف في «الطليعة» لا أفراداً هنا وهنا، بل جماهير واسعة من المثقفين والعمال والفلاحين الذين رفعوا راية النضال من أجل التحرر والتقدم عبر التنظيم الحزبي الطليعي.

ومن الكتاب البارزين سواه الذين تصدروا صفحات مجلة الطليعة، رفيقنا الكبير سليم خياطه. والرفيق الأديب الشاعر الثوري فايز يارد، بالإضافة إلى الجهد المضني المستمر الذي قام به الصديق الاستاذ رجا حوراني كمشرف على إصدارها ورئيس لتحريرها. فبفضل اسلوب الاستاذ رجا طالت «الطليعة» في لبنان وشقيقاته العربيات أوساطاً وشخصيات أدبية واسعة، عرفت بباعها

الطويل في ميداني الأدب والكفاح الوطني ضد الاستعمار والصهيونية والفاشية هذا الثالوث النجس القائم على الهمجية والوحشية.

المرحلة التي صدرت فيها الطليعة، منذ أواسط العام ١٩٣٥، حتى أواخر أيلول ١٩٣٩ كما ورد، كانت مرحلة اشتداد الهجمة الفاشية في أوروبا والعالم، وبخاصة في لبنان وسوريا وسواهما من بلدان العالم العربي. حيث لم يبق النشاط الفاشي والنازي قائماً على الدعاية والنشر فقط، بل أخذ يمارس أساليب تنظيمية، وخاصة في أوساط الشباب التي أخذ بعضها بهذه الدعاية معتقداً أن النازية هي السبيل المؤهل والمعول عليه لتحرير البلدان العربية من الحكم الاستعماري، والتغلغل الصهيوني. كما أنشئت أحزاب سياسية ظاهرها وطني قومي، إنما باطنها كان متأثراً بالدعوات والأساليب الفاشية: وقد لقيت هذه الأساليب والدعوات تسهيلات من كبار موظفي سلطة الانتداب الفرنسي، وفي أحيان كثيرة، لقيت تشجيعاً سياسياً ومعنوياً، اعتقاداً منها، عدا العامل الطبقي الذي يشدها إليه، أنها ستكون عاملاً محلياً للحد من تطور الحركة الشيوعية، ولوضع حد لنمو الحزب الشيوعي، الذي بدأ، بعد العام ١٩٣٧، يوسع شموليته، ويزيد عدد أعضائه ويتكاثر عدد المؤيدين له، والمحبذين لمساره.

في هذا الوقت كانت الطليعة، حتى ١٥ نوار ١٩٣٧، الأداة الاعلامية التقدمية المقروءة الوحيدة في سوريا ولبنان، وعليها القي عبء ثقيل. فمن جهة حملت لواء الدعوة ضد الانتداب الفرنسي في لبنان، والانكليزي في فلسطين والعراق، ومن جهة حملت لواء فضح الفاشيستيه ودعاتها، والصهيونية والمتواطئين معها، وبخاصة عندما كانوا يقدمون على بيع أراضيهم لها. ويكفي «الطليعة» فخراً أنها قبل ٤٧ سنة، كانت رؤيتها صافية، وتطلعاتها صائبة. فقد دعت بدون خوف ولا وجل، وبعزيمة صامدة، لإقامة علاقات مع الاتحاد السوفياتي، وإحلال الصداقة بين شعبنا العربي وهذه الدولة الفتية، كأحد الشروط الرئيسية للتحرير والاستقلال الوطني.

وأشد الأعباء ثقلاً كانت «الطليعة» ملزمة بحكم ارتباطها بقضايا العرب الرئيسية، وبمصالح شعبنا فيها، هو فضح الفاشية ودعاتها. والدعوة لمكافحتها بجميع الوسائل باعتبارها آفة من آفات العصر. وهنا أصل إلى مفصل رئيسي من مفاصل لنضال ضد الفاشيستيه، وأعني به المؤتمر الأول لمكافحة الفاشيستيه المنعقد في نادي الشرق ببيروت في ٦ ـ ٧ نوار سنة ١٩٣٩. وقبل انعقاد هذا المؤتمر كانت قد تشكلت في لبنان سنة ١٩٣٧ جمعية باسم «عصبة مكافحة الفاشيستيه» برئاسة المهندس انطون ثابت.

وحرصت مجلة «الطليعة» على تغطية أعمال المؤتمر الأول لمكافحة الفاشيستية اللبناني السوري،

وجعلت القارىء يشعر وكأنه مشارك فيه، يناقش، ويقترح، ويجادل، ليصل مع سواه من المشاركين في أعماله إلى قاسم مشترك للحد من المد الفاشي، والحفاظ ولو على قدر من الديمقراطية التي توفر وحدها مناخات الحرية، والتطور والتقدم. والعدد الخاص بالمؤتمر الذي صدر في شهر نوار سنة ١٩٣٩، يعرف بعدد «الطليعة» التاريخي، وقد تضمنت الصفحة الثانية فيه أقوالاً لحكماء ومناضلين اجتماعيين منها «الحرية معبودتي» لجبران خليل جبران. و«أشقى الرعاة من شقيت به رعيته» لعمر بن الخطاب». و«أيها الشعب أنت قوي» لجمال الدين الأفغاني.

وصدر العدد بتقرير اللجنة التحضيرية للمؤتمر ألقاه أحد أركان عصبة مكافحة الفاشيستية الأديب العربي الكبير رئيف خوري استهله بالقول: «لقد دل هذا المؤتمر على أن مقاومة الفاشيستية أصبحت عندنا شيئاً لا يقتصر على فئة تدين بمبدأ دون مبدأ، بل إنها تتناول الشعب بجملته أكثر فأكثر، ذلك لأن الفاشيستية ليست عدوة لفئة من الشعب أياً كانت وحدها، بل هي عدوة لكل الشعب».

وختمه بالقول: «ولقد اتضح من مؤتمرنا اننا شعب واثق بالديمقراطية وبقوتها، مؤمن بضرورة التعاون مع الديمقراطيات والديمقراطيين، وهو يدرك أن الحياد مهزلة في الصراع بين الفاشيستية والديمقراطية لأن الفاشيستية لا تتركه على الحياد، أن اكتساب صداقة الفاشيستية بالعزلة مستحيل لأن الفاشيستية ليس لها صداقة مع الشعوب الصغيرة المستضعفة، ومطمئن بعد ذلك كله إلى أن وجه الديمقراطية النبيل الجميل الذي يطل علينا من خلال لهيب الثورة الفرنسية العظمى لا يشوهه ديمقراطي أو ديمقراطيان مزيفان هنا وهناك. شعارنا: نحن في جبهة الديمقراطية».

وألقى رئيس تحرير «الطليعة» رجا حوراني كلمة في المؤتمر بعنوان «الفاشيستية والثقافة العربية» قال فيه: «إذا أردنا أن نعرف الخطر المحدق بالثقافة العربية فعلينا أن نرى ما حل بالثقافة في البلدان التي تسيطر فيها الفاشيستية. كلنا يقرأ الأخبار التي تتسرب يوماً بعد آخر عن أعمال هدفها محو كل أثر للثقافة كما حدث مؤخراً في «مِمل» من إحراق المؤلفات النفيسة لأشهر الكتاب العالميين».

وفي خطابها وعنوانه «الفاشيستية عدوة المرأة» قالت مقبولة الشلق: «إننا نساء العرب الديمقراطيات نقول بكل فخر إننا ننقم على الفاشيستية، ولن ننسى ما في ذمتها من دماء بريئة نبيلة، في طرابلس الغرب والحبشة واسبانيا، والبانيا. ولن يمنعنا شيء عن مقاومتها أشد المقاومة. ولم لا! أليست هي عدوة النساء العربيات؟ إلا تقودهن من مستعمراتها إلى الحرب، إلى خدمة جنودها عند فتحهم البلاد واضطهادهم الشعوب؟».

وتحت عنوان « الفاشيستية قاتلة الفكر »، قال الشاعر الكبير الياس أبو شبكة: « نحن في بلد ديمراطي أيها السادة، ولا نريد هذا البلد إلا هكذا ولكن الديمقراطية لا تهمني في بلاد الناس مقدار ما تهمني في بلدي. فقد تغزلنا بفرنسا التي أحببناها في أبطالها الانسانيين وفرسانها وانوارها، وتلاشينا في فرنسا التي احببناها تأيداً لتلك الحرية ولكل ما فعلت الثورة الكبرى لتحسين الجنس البشري وإنقاذه ».

وتحت عنوان « حقيقة الفاشيستية » قال الأديب الكبير توفيق يوسف عواد في خطابه أمام المؤتمر. « وكيف لا تفتح عيون العرب والسموم تلفح وجوههم أو تكاد. هي الصرخة الجديدة تدوي في أرجاء المانيا « إلى الشرق! » فيرددها الملايين، وتعود المشاريع الغليومية: برلين، استانبول، حلب، بغداد. وها هي ايطاليا تستبق الأحلام وتغم ـ بالأقلام ـ لبنان وسورية، وفلسطين، إلى خريطة الأمبراطورية الرومانية المبعوثة. إن الامر تعدى الحدس إلى التصميم، والتمني إلى المباشرة، فالخطر داهم والشر نصب العيون ».

وقال أنطون ثابت رئيس العصبة في كلمته: « إنني إذ أحيي البلدان العربية الشقيقة وفلسطين العربية المناضلة، أعلن أسف مؤتمرنا الذي لم تمثل فيه بقية الأقطار العربية الشقيقة العزيزة، ولكننا إن منعنا ضيق الوقت هذه المرة من الاجتماع مع ممثلي الأقطار الشقيقة، فنحن واثقون من مشاطرتهم إيانا الرأي، لأننا نسعى إلى هدف واحد! الاستقلال والحرية ». وقال: « إن مؤتمرنا هذا إن كان الأول من نوعه في البلدان العربية، فلن يكون الأخير. بل نعتبره الخطوة الأولى في سبيل تفاهم وتعاون أوسع وأعم بين جميع البلدان العربية ».

وقال نائب بيروت الاستاذ جبران تويني في كلمته أمام المؤتمر: « لقد بهرت أنظمة الطغيان بعض الأفكار بزخرفها الخلاب الظاهري. ولكن لو علم الناس أي ثمن دفعته الإنسانية من تفكيرها وحريتها، وأخلاقها وراحتها لوجدوا المحصول فوق الثمن. ولا بد لهذه الأنظمة أن تنهار، كما انهارت كل ديكتاتورية قامت على القوة الغاشمة التي لا تعرف الحق إلا في أفواه المسدسات ».

وألقى الأديب الكبير الاستاذ الياس خليل زكريا خطاباً بعنوان: « الوثنية الجديدة »، قال فيه: « الديمقراطية عندنا روح وحرية وضياء، ويوم نادى الناس في الغرب بالحقوق، نادوا باسم النور والحرية لتحطيم العبودية ودك الطغيان، ولرفع جبهة بني آدم، عن التراب الذي ألصقتها به الإقطاعية المجرمة الوثنية ».

وفي عدد « الطليعة » المشار إليه نص رسائل التحية التي وجهتها شخصيات رسمية ووطنية عربية نذكر منها: لطفي الحفار، فايز الخوري، شكري القوتلي، أحمد اللحام، بدوي الجبل، الكاتبة

نعيمة المغربي، منير المالكي والعديد سواهم من لبنان وسوريا.

وجاء في مقررات المؤتمر الأول لمكافحة الفاشيستية: الإسراع بتصديق المعاهدتين السورية الفرنسية، واللبنانية الفرنسية.

- أن تبادر الحكومة البريطانية إلى حل مشكلة فلسطين حلاً عادلاً يتفق وأماني العرب أصحاب الحق في البلاد.

- مكافحة الدعايات الفاشيستية والاستعمارية في بلادنا.

- تأمين الحريات الديمقراطية وتحقيق مطالب الشعب.

- تضامن الشعوب العربية فيما بينها بمختلف هيئاتها ومنظماتها لدرء الخطر الفاشي ومحاربة دعاته.

- إرسال تحية إلى مؤتمر مكافحة الفاشيستية الدولي الذي سينعقد في باريس ١٣ - ١٤ أيار ١٩٣٩.

- كل عمل تعمله الحكومات في البلدان الديمقراطية بتأثير المصالح الاستعمارية ولا يتفق مع مبادىء حق تقرير المصير، يخدم الفاشيستية وتتبرأ منه الديمقراطية.

- الموافقة على اقتراح مقبولة الشلق بمباشرة السعي لعقد مؤتمر مماثل لهذا المؤتمر في دمشق وإلى تأسيس فروع للعصبة في قرى ومدن سوريا.

لقد شكل المؤتمر الأول لمكافحة الفاشيستية هذا انطلاقة كبرى في معركة النضال ضد الاستعمار ومن أجل انتزاع المزيد من الحقوق الديمقراطية، وتطوير استخدام الحريات العامة، حرية النقابات والجمعيات، والنشر.

ولكن حدثاً خارجياً أوقف مسار النضال الوطني الديمقراطي، واستخدمه ممثلو الانتداب سلاحاً لتوجيه حملة مسعورة ضد الديمقراطية، والحريات، هو اندلاع الحرب العالمية الثانية التي تتحمل البرجوازية الفرنسية الكبرى بتواطئها مع الفاشيستية جزءاً من المسؤولية، فلولا سياستها التواطئية مع البرجوازية الانكليزية، والموجهة ضد الاتحاد السوفياتي، لما كان لهتلر أن يعلن الحرب بتلك السهولة، وأن يكبد الإنسانية ٥٠ مليون قتيل.

صوت الشعب

نشأت «صوت الشعب» في مرحلة المد الفاشي على الصعيد العالمي، مرحلة سادت فيها ذبذبة

الديمقراطيات البرجوازية الغربيــة من جهة، وامتداد التوسع الهتلري من جهة أخرى، مرحلة محور ـ برلين ـ روما ـ طوكيو من جهة، وانتصار النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي وانتقال هذا البلد الشاسع الواسع من درجة التأخر والانحطاط الاقتصادي إلى تبوء المركز العالمي الثاني على الصعيد الاقتصادي.

وكان لا بد لهذا المستجد على الصعيد العالمي، وما استجد لاحقاً على الصعيد الوطني اللبناني والسوري من إقامة العلاقات بين البلدين وبين فرنسا على أساس معاهدة من إيجاد أداة إعلامية تحريضية، توجيهية تعكس مواقف الحزب الشيوعي والحركة الثورية في لبنان.

في هذا الوقت ظهرت إلى الوجود اللبناني جريدة «صـوت الشعـب» النـاطقـة بـاسم الحزب الشيوعي اللبناني. واستمر صدورها تارة اسبوعية، وتارة يومية من ١٥ نوار ١٩٣٧ إلى آخر أيلول ١٩٤٧. وسدت رغم ما كان ينقصها من الوسائل الفنية، وقلة الموارد المادية، فراغاً كبيراً، وبخاصة في الدفاع عن مطالب العمال والفلاحين، وفي فضحها اليومي المستمر للفاشيستية، ودعوتها لممارسة الديمقراطية في الحكم، وتحقيق الاستقلال الوطني، ومناهضة الصهيونية، وتأييدها الثابت لقضية التحرر العربية.

وتمكنت «صوت الشعب» من أن تلف حولها نخبة من الكتاب البارزين من لبنان وسواه من الأقطار العربية مثل. رئيف خوري، توفيق يوسف عواد، سليم خياطه، يوسف ابراهيم يزبك، كامل عياد، خليل البديري، عصام الدين حفني ناصف، رجا حوراني وسواهم.

ولعبت صوت الشعب قبل الأربعينات دوراً بارزاً ورئيسياً في نضالها ضد الفاشيستية، فقد وضعت صفحاتها بتصرّف كل مقاوم لها، وعامل على فضحها كظاهرة رجعية معادية للشعوب، وبخاصة للشعوب العربية.

وعندما عادت، بعد تحرير لبنان وسوريا من السلطة الفيشية المتواطئة مع النازية، في أواخر العام ١٩٤١ إلى الصدور يومية، كانت بالفعل الجريدة الأولى في لبنان، إن لجهة محتواها، أو لجهة شكلها. وقد امتازت بأربع لم يكن لأية صحيفة أخرى التوصل إليها وهي:

أولاً، عكست بثبات وإخلاص مطالب العمال والفلاحين ووضعت ثقلها المعنوي في دعم هذين القطاعين المهمين.

ثانياً، كانت الجريدة الوحيدة التي تعكس على صفحاتها أخبار المناطق وتدعم نضال الفلاحين ضد الإقطاعية واستبداد السلطة من درك وسواهم.

ثالثاً، كانت الجريدة اللبنانية الوحيدة التي تنقل يومياً الأخبار عن نضال الشعب السوري من أجل الاستقلال، وضد الإقطاعية. وكذلك نضال الشعوب العربية كافة.

رابعاً، منذ إطلالتها دعت باستمرار إلى إقامة صداقة مع الاتحاد السوفياتي، وإلى توطيد العلاقات مع الحركة الثورية العالمية.

كان لصوت الشعب دور إعلامي من درجة أولى، وبذات الوقت كان لها دور تنظيمي. فعلى صفحاتها نشرت أسماء الذين أبدوا رغبتهم في الانضمام إلى الحزب الشيوعي، كما وأنها شرعت تلك الصفحات لجميع أصحاب القلم والفكر يعبرون عن مشاعرهم تجاه القضية الفلسطينية، وإظهار تضامنهم مع شعب فلسطين.

وبالرغم من الصعوبات التي تعرضت لها «صوت الشعب» إن لجهة التدابير الإدارية التي سلطها الانتداب ضدها، فمن تعطيل يوم ويومين، إلى شهر وشهرين، إلى حرمانها من «كوتا» الورق فكانت مضطرة لشراء الماعون بثمانين وأحياناً بمئة ليرة.

بالرغم من كل ذلك فقد ثابرت على الصدور وتوصلت في أعوام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ - ١٩٤٧ إلى طبع حوالى عشرة آلاف عدد يومياً، ويوم الأحد كانت تقفز طبعتها إلى حوالى الـ ١٨ ألف عدد.

وارتبطت «صوت الشعب» مع ألوف القراء عبر لجان أصدقاء «صوت الشعب» التي كانت في المدن والمناطق، تقوم كل يوم أحد ببيعها في الشوارع، وبزيارة البيوت، كما يفعل أصدقاء «النداء» حالياً.

وصلة إدارة «صوت الشعب» بأصدقائها كانت حية ومستمرة. فمن زيارات تقوم بها هذه اللجان إلى إدارة الجريدة، إلى لقاءات تنظم في الأحياء يحضرها مسؤول الإدارة، أو من ينوب عنه، تجري فيها أحاديث حول تطوير بيع الجريدة، وايصالها إلى أحياء جديدة، وأشخاص جدد.

وكثر عدد هذه اللجان التي شملت مناطق لبنان كافة. والاسلوب الذي لجأت إليه هذه اللجان لتطوير بيع الجريدة؛ كان فذاً ومشجعاً في آن. وأعني به اسلوب المباراة في المبيع. مثلاً كانت هذه اللجان تتبارى عبر إدارة الجريدة، ومع زميلات لها في مناطق أخرى.

ففي ٦ كانون الثاني سنة ١٩٤٦ باع أصدقاء صوت الشعب في طرابلس ٦٠٠ عدد. ويوم الأحد ١٣ منه ١٩٤٦ رفعوا مبيع يوم الأحد إلى ألف عدد دون أن يدخل في الحساب المبيع العادي اليومي، وبذات اليوم تبارت النبطية مع مشغرة فتعادلتا بـ ١٥٠ عدداً. وتبارت لجنة

أصدقاء صوت الشعب في الجميزة ـ بيروت مع لجنة البسطة على مبيع ١٠٠ عدد. وتبارت بكفيا مع بيت شباب على بيع ١٥٠ عدداً. وتبارت جبيل مع جونية على ١٠٠ عدد. وتبارت الأشرفية مع المزرعة على بيع ٢٠٠ عدد.

ويوم الأحد ٢٤ شباط ١٩٤٦ تبارت المزرعة مع الأشرفية على ٢٠٠ عدد. والجميزة مع البسطة على مبيع ١٠٠ عدد. وطرابلس مع زحلة على مبيع ٦٠٠ عدد.

وفي هذا اليوم فازت لجنة الحرش على البسطة ببيع عشرة اعداد زيادة. وباعت زحلة ٨٠٠ عدد، وطرابلس ١٠٠٠ عدد، وتبارت النبطية مع جونية على ١٠٠ عدد فتعادلتا. وباعت انطلياس ٣٥٠ عدداً.

ويوم الأحد ٣١ آذار ١٩٤٦، تعادلت زحلة مع طرابلس على مبيع ألف عدد، وتعادلت فرن الشباك مع بكفيا على ٢٠٠ عدد.

ويوم الأحد ١٤ نيسان ١٩٤٦، باع اصدقاء صوت الشعب ١٤ ألف عدد، زيادة عن البيع اليومي. باعت منها بيروت ٥٠٤١ عدداً. وباعت لجنة حي مار نقولا في بيروت وحدها ١١١١ عدداً، (الأولى في لبنان)، وتلتها لجنة الجميزة ببيع ٦٠٠ عدد، وفرن الشباك ٤٥٠ عدداً. ثم باعت لجنة الجميزة لاحقاً ١٢٠٠ عدد وانتزعت الرقم من لجنة مار نقولا. كما باعت زحلة ألف عدد وطرابلس ألف عدد.

وتقديراً لنشاط لجنة أصدقاء صوت الشعب في الجميزة، أقام صديق صوت الشعب الفنان الكبير المرحوم الياس الخوري حفلة تكريم لأعضاء اللجنة حضرها بعض أركان صوت الشعب، من محررين وموظفي إدارة. القيت فيها كلمات نوهت بجهود ونشاط لجنة أصدقاء صوت الشعب في الجميزة. وتقديراً لجهوده الخاصة، قدمت صوت الشعب بشخص هيئة تحريرها وهيئة إدارتها، الشكر للمرحوم الرفيق ملحم هاشم في حي السيوفي الذي باع يوم الأحد ١٧ آذار ١٩٤٦ وحده ٩٠ عدداً من أصل مئة عدد. كما قدمت الشكر للمرحوم غانم غانم (الدورة) الذي باع ١١٠ أعداد. وللمرحوم اسكندرطراد الذي باع وحده ١٢٥ عدداً في معلقة زحلة.

لجان أصدقاء جريدة الحزب الشيوعي، وبخاصة جهود لجنة الجميزة التي انتزعت العلم من لجنة مار نقولا ببيعها في يوم واحد ١٢٠٠ عدد، كانت ظاهرة جديدة في لبنان، ووسيلة رفعت من قدر الجريدة، وأوجدت عطفاً واسعاً نحو الحزب الشيوعي اللبناني.

ولتوطيد الصلة بين صوت الشعب وقرائها، كانت «لجان الأصدقاء» تنظم بين الحين والآخر، لقاءات لقراء الجريدة يحضرها رفاق من التحرير يتناقشون بالمواضيع التي تعالجها صوت الشعب،

ويستمعون إلى انتقادات واقتراحات القراء، وطالما أخذت هيئة التحرير بالكثير منها.

إن الصلة الحية بين هيئة تحرير الجريدة وبين مراسليها من جهة، وقرائها من جهة أخرى، تشكل العمود الفقري في تطور الجريدة تحريراً وإدارة. كما وأن هذا الاسلوب يشكل تماساً حياً من شأنه أن يجعل التحرير في الجريدة، لا مهمة متفرغين وحسب، بل مهمة المراسلين وبالتالي معظم القراء. إن لمن المهم جداً أن يعطي التحرير في الصحيفة بعامة، وفي الصحيفة الملتزمة بخاصة، إلى القراء باستمرار مبادرات جديدة، ومادة جديدة تشبع نهمهم إلى الجديد، وتسلحهم بما هو ضروري لهم في نضالهم.

والأهم من ذلك هو أن يعطي القراء جريدتهم بذلك تغنى مادتها، وتتوطد علاقتها بهم، والعكس بالعكس.

ومما يشار إليه بالنسبة لنشاط « لجان أصدقاء صوت الشعب » الزخم الذي كانت تبعثه اللجان النسائية. فلا يمضي يوم واحد إلا وكانت لجنة نسائية تحمل الجريدة وتعرضها للبيع في ساحة الشهداء، وكان الإقبال على الشراء منها كبيراً. وكنا نلجأ إلى تدبير وقائي للتصدي بسرعة لأي محاولة اعتداء أو تطاول على رفيقاتنا. فوراء كل لجنة كان هناك مجموعة رفاق لا يحملون جريدة، حتى إذا رأوا أي تحرش بالرفيقات هبوا لرده. وهذا التدبير كان يشدد من عزيمة الرفيقات.

لم تكن صوت الشعب ناقلة خبر وناشرة مقالة وحسب، بل كانت اداة توجيه، وتوعية، وتحريض ضد الاستعمار والفاشية والإقطاعية.

واليوم عندما تهب لجان أصدقاء جريدة « النداء » تطوف الأحياء، والقرى لنشر جريدتهم، إنما يحيون تراثاً لصحافة حزبهم. تراثاً لم يكن الهدف منه تحسين حال الجريدة مادياً وحسب، بل لتوطيد الاتصال بجماهير المنزوين في بيوتهم، بالذين لا يرفعون أصواتهم، كي يشعروا بضرورة رفع هذه الأصوات من أجل تحسين الحال، من أجل التغيير نحو الأفضل سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

ومن الواجب إسداء المزيد من التقدير لهؤلاء الرفاق والرفيقات على زوايا الشوارع، شباباً وشابات، عمالاً وطلاباً، فلاحين، وشغيلة في الريف. هؤلاء ورثة المبرزين في بيع صوت الشعب خلال الأربعينات وبخاصة لجنة الجميزة، ولجنتي زحلة وطرابلس، والرفاق، اسكندر طراد، وملحم هاشم، وغانم غانم وسواهم في كل حي وقرية، لهؤلاء الذين لا يقعدهم قر ولا حر، عن القيام بواجبهم، تجاه جريدتهم. وإذا كان لـ « النداء » العزيزة عليهم حق المطالبة بالمزيد من بيع نسخاتها، وزيادة عدد أصدقائها ومناصريها، فإن لهم على « النداء » أكثر من حق في تكثيف

اللقاءات الحية بهم، وباللجوء إلى مبادرات تشدد من عزيمتهم. وتحول باستمرار، دون أي ملل قد يحد من زخمهم في عمليات المبيع، ولماذا لا تلجأ إدارة الجريدة إلى تنظيم مباراة بين أصدقاء «النداء»، تتوج بإقامة لقاء، أو حفلة تكريم، أو توجيه تقدير للجنة المبرزة، أو الرفيق المتقدم في البيع؟. وإن ما أريد أن ألفت النظر إليه من أجل تطوير وتوسيع نشر «النداء» هو الصلة الحية التي يجب أن تكون العمود الفقري بين التحرير والقراء من جهة، وبين الإدارة ولجان المبيع من جهة أخرى. والصلات الهاتفية، وهي الوسيلة الإنسانية المتبعة بين الإدارة والذين يبيعون الجريدة، لا تعني ذلك، وغالباً ما تكون منفرة وغير مشجعة.

في فرنسا لا تكتفي لجان بيع «الاومانيته» بعرض الجريدة على الناس، بل وينادي حاملوها، وبخاصة حاملاتها بأعلى أصواتهم: اشتروا الاومانيته، جريدتكم المدافعة عن حقوقكم، والمناضلة في سبيل كذا وكذا.

إنه لشرف كبير، ولنضال أكبر فأكبر، أن يدق رفيق ورفيقة باب منزل عارضين على صاحبه جريدة «النداء»، وسواء عزف صاحب المنزل للمرة الأولى عن شرائها، أو أقدم عليه، فإن عمل الرفيقين بحد ذاته مقدر جداً. فالمهم أن نذهب لعند الجماهير، في الشارع كانت، أم في محالها، أم في بيوتها. ومهمة لجان أصدقاء «النداء» في هذا المجال كبيرة، وسياسية بالوقت نفسه. فهؤلاء الرفاق والرفيقات عندما يحملون اعداد «النداء» وينطلقون بها، ليسوا باعة صحف، مع كل التقدير والاحترام لبائع الصحف، بل هم رسل توجيه، وتنوير، وحاملو جديد إلى من يتعاملون معهم، إلى زبائنهم ولا شك أن الكثير منهم أصبحوا أصدقاء لهم، ولجريدتهم.

وليس هذا وحده من الأعمال التي كان أصدقاء «صوت الشعب» يقومون بها لدعم مالية جريدتهم. فكثيرون من أصحاب الحوانيت كانوا يضعون صندوقة في محلهم كتب عليها: «ساعدوا صوت الشعب، تبرعوا لها، ادعموا جريدة الشعب». وكانت صندوقة محل الرفيق جورج عيان في محلة العكاوي، ومن ثم في المسلخ تؤمن مورداً شهرياً للجريدة لا بأس به.

ومن يراجع «صوت الشعب» أكبر الجرائد اللبنانية في زمنها، يلمس الدور الذي لعبته على الصعيدين السياسي والاجتماعي. والأقلام التي شاركت في تحرير مادتها لم تقتصر على قيادة الحزب الشيوعي، ولا على موظفيها المختصين، بل التقت حولها شلة في الأربعينات من كبار الكتاب والادباء مثل، عمر فاخوري، رئيف خوري، الدكتور جورج حنا، حبيب ربيز، أميلي فارس ابراهيم، يوسف ابراهيم يزبك، الياس زخريا والعديد سواهم من الادباء والكتاب. وهذا ما اكسبها منعة استخدمتها خلال مسارها الكفاحي لمصلحة استقلال وسيادة لبنان، وتطوره الديمقراطي عبر تحقيق اصلاحات تقدمية، أبرزها في الاربعينات تعديل الدستور وإلغاء كل ما للانتداب من

صلاحيات، وبالتالي تحقيق الجلاء العسكري الأجنبي التام، وانجاز قانون العمل.

جريدة الصرخة

بعدما عطلت حكومة الشيخ بشارة الخوري «صوت الشعب» في أواخر شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٧، وضيقت الخناق على الحزب الشيوعي، بحيث حرمته من أداة إعلامية للنشر، في فترة تراكمت فيها الأحداث على الصعيدين القومي العربي، والوطني اللبناني، في هذا الوقت كان لا بد للحزب الشيوعي من أن يمتلك أداة إعلامية تعكس سياسته، وتشكل وسيلة إعلامية فعالة في النضال ضد الصهيونية ومشاريع الاستعمار الجديد التي تزعمتها الامبريالية الأميركية، وهي من الخطورة بحيث وضعت العالم من جديد، على حافة الحرب، متخذة من سياسة التوتر الدولي، عبر الحرب الباردة، وسيلة لتمرير مشاريعها، وفرض أحلاف عدوانية، عسكرية وسياسية، واقتصادية على البلدان الحديثة الاستقلال، والمسماة «بلدان العالم الثالث» أو «البلدان النامية» ومن بينها سوريا ولبنان.

في هذه الفترة كان لي شرف قيادة مظاهرة كبرى ضمت آلافاً من المواطنين، نظمها الحزب الشيوعي، في أول تموز سنة ١٩٥١، ضد المشروع الاستعماري العدواني، الدفاع المشترك، وقد اعتقلت مع بضعة رفاق، بعد أن سقط شهيدان فيها احدهما الرفيق الطرابلسي أنور العش.

آنذاك لم يكن لدى الحزب الشيوعي أي أداة للاعلام المقروء، ولا غير المقروء طبعاً. وكنا نمرر بعض ما نكتب في الصحف الأخرى، وبخاصة في الزميلتين العزيزتين، التلغراف لصاحبها الصديق نسيب المتني، والشرق لصاحبها الصديق خيري الكعكي. وكنت شخصياً اكتب في هاتين الزميلتين في القضايا الاقتصادية.

بعد مظاهرة أول تموز ١٩٥١، راح الوضع الداخلي في لبنان يزداد تأزماً. وبدأ التفكير بإجراء تغييرات جذرية فيه. فالانصياع للأميركان بدأ يشق طريقه، ففي تلك الحقبة عقدت الحكومة اللبنانية اتفاقاً مع النقطة الرابعة الأميركية، لإنشاء مركز دائم لها في لبنان، كما وان الفساد والرشوة والفوضى عمت الإدارة العامة، وأصبح المواطنون في قلق وملل مما يجري، وتراكمت الشكاوى من كل هذا، وجواب الحكم عليها، إنما كان الإرهاب وحده.

مجرى الحياة كله كان يشير إلى أن البلاد في أزمة لا بد لها من أن تنفجر، ولهذا لا بد من أداة اعلامية للحزب تشكل الرابط المستمر ولو اسبوعياً، بين المواطنين، من عمال وفلاحين ومناضلين وطنيين وبينه.

وقد تحقق هذا المطمح في ٢٠ شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥١، حيث اتفق الحزب مع أحد

الشيوعيين القدامى، المناضل الكبير أحمد زكي الأفيوني على استئجار جريدته « الصرخة »، لقاء مبلغ قدره ٨٠ ليرة في الأسبوع، على أن يصبح الحزب الشيوعي الجهة الوحيدة المقررة لسياستها ولشؤونها الإدارية: ويستمر الأستاذ الأفيوني مديراً مسؤولاً لها.

في تلك الفترة بين تموز ١٩٥١، وتموز ١٩٥٢، وكنت مقيماً في سجن الرمل لمدة عشرة شهور، ثم انتقلت إلى سجن البترون فأمضيت فيه ستة شهور، في هذه الفترة شهدت المنطقة العربية، والساحة اللبنانية احداثاً ضخمة كان لها ارتجاجات على مدى منطقة الشرق الأوسط كلها.

فهنا في لبنان وسوريا، اشتدت صلافة الاستعمار بطرحه بمجموعة من مشاريعه العدوانية: الدفاع المشترك، حلف السياتو، حلف كتلة البحر المتوسط، حلف الهلال الخصيب، حلف البدر الخصيب، ثم حلف بغداد لاحقاً. ولكن حدثاً زعزع مخططات الاستعمار، وأفسح في المجال أمام النضال الوطني والقومي العربي، لإحداث تغييرات تشكل نتائجها سداً منيعاً بوجه ما يخطط له الاستعمار الجديد. وأعني بذلك ثورة ٢٣ يوليو في مصر التي قام بها الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر، وأيدتها الطبقة العاملة، وجماهير الفلاحين والمناضلين الوطنيين المصريين.

أطاحت هذه الثورة بالنظام الملكي وأعلنت قيام الجمهورية على انقاضه، وأحدثت في العالم العربي انتفاضة ثورية، كان لها أثرها الملموس السريع في لبنان.

ففي الفترة التي انتصرت فيها ثورة مصر وأطاحت بفاروق، قامت هبة وطنية في لبنان أطاحت بحكم الشيخ بشارة الخوري، الذي بدأ بالانحياز للغرب، وانتخب على أثره كميل شمعون رئيساً للجمهورية. انتخب لأنه، كما اعتقد، يعمل ضد الأحلاف، وللتضامن العربي، وصيانة الحريات الديمقراطية، والوحدة الوطنية. ولكنه لم يلبث بعد أن وصل إلى الحكم أن كشف عن وجهه الكالح، فأجرى انتخابات نيابية أمنت له أكثرية في المجلس، فأدار للشعب وقضاياه، وللعرب ومصالحهم، ظهر المجن. وراح يسعى للتحالف مع الاستعمار مفسحاً في المجال أمام « حلف بغداد » ليعمل بحرية أوسع في لبنان، ومعتمداً على أميركا التي أنهى عهده بعقد حلف معها « مبدأ أيزنهاور » ويجعل من لبنان قاعدة لعسكرها ومشاريعها.

في هذه الحقبة وبالرغم من ضيق الأفق الذي هيمن عليها، كانت جريدة « الصرخة » أداة مهمة للنضال ضد الاحلاف الاستعمارية والمشاريع العدوانية المرتبطة بها. فعلى صفحات « الصرخة » انعكس نشاط حركة السلم العالمية واللبنانية، إن فيما نشرته من بيانات أصدرتها، أم بما أذاعته من أخبار عن حملات جمع التواقيع على نداء برلين لتحريم السلاح الهيدروجيني، والدعوة إلى التفاوض من أجل تخفيف التوتر الدولي، وبذات الوقت نشرها صور الذين برزوا في جمع التواقيع بوصفهم أبطال سلم.

وكانت « الصرخة » الرحاب الواسع الشديدة الالتزام بما يردها من أخبار عن مطالب العمال والفلاحين والعمال الزراعيين، في لبنان وسوريا، والبلدان العربية. ففي تلك الحقبة عقد العديد من مؤتمرات الفلاحين مثلت عشرات الألوف، وكذلك الأخبار عن العمال الزراعيين الذين خاضوا العديد من الإضرابات في جنوب لبنان والبقاع من أجل زيادة أجورهم ونجاحهم فيها بالحصول على زيادات ملموسة. كما وأنها دافعت باستمرار عن مزارعي التبغ في جميع المناطق التي تتعاطى هذه الزراعة.

وعلى الصعيد العربي وجد العمال العرب مكاناً دائماً لهم على صفحات « الصرخة »، فهي التي نشرت الأخبار عن عمال البترول المضربين في شركة أرامكو - بالظهران، وعن تحركات العمال في عدن.

وقضية الحريات والديمقراطية في لبنان. وقد وجه الحكم الشمعوني إرهاباً ضدها، دافعت « الصرخة » عنها بلا هوادة. وقد تعرض صاحبها المسؤول أحمد زكي افيوني للمحاكمة والاعتقال.

وحملت « الصرخة » لواء الدفاع عن الصداقة اللبنانية - السوفياتية، وطالبت بقوة بتوسيع أطر العلاقات الاقتصادية بين لبنان ومجموعة البلدان الاشتراكية. وفي تلك الحقبة عقدت أول اتفاقية اقتصادية بين لبنان وتشيكوسلوفاكيا، وتلتها في مطلع العام ١٩٥٤، اتفاقيتان مماثلتان، مع الاتحاد السوفياتي والجمهورية الديمقراطية الالمانية.

وكانت « الصرخة » الأولى التي دافعت عن حقوق البلدان المنتجة للنفط، وحق لبنان بزيادة العائدات لقاء تمرير الأنابيب في أرضه، وإقامة المصبات على شواطئه.

وعرفت « الصرخة » اقلام شخصيات لبنانية وعربية وطنية وسياسية، وعلمية وأدبية منها: الشيخ أحمد عارف الزين، الدكتور جورج حنا، شفيق طبارة، جبران مسوح، حسين مروة، الخوري طانيوس منعم، عبد السلام أدهمي، ناظم القادري، وصفي البني، ميشال سليمان، وسواهم ممن عالجوا المشاكل السياسية والاجتماعية التي جبهت شعبنا في تلك الحقبة من تاريخنا.

« والصرخة » هي التي نشرت الأخبار عن المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي، وكذلك مقرراته وملخصاً لأبرز التقارير والخطب التي ألقيت فيه، وهي التي نشرت أول بيان علني للحزب الشيوعي اللبناني موقعاً بأسماء: فرج الله الحلو ونقولا شاوي وأرتين مادويان، وحسن قريطم وقد تضمن خطاً سياسياً يرتكز إلى دعوة مخلصة إلى التعاون وإقامة جبهة وطنية واسعة لانقاذ البلاد من خطر الأحلاف والتدخل الاستعماري، وإقامة الحكم الوطني الديمقراطي.

وأولت « الصرخة » النقطة الرابعة الأميركية ، لفتة نضالية خاصة ، فعلى صفحاتها نشر ما ورد من المناطق عن تدخلات هذه « النقطة » وعما ارتكبه جهازها من فضائح كانت مجلبة ضرر للفلاحين.

وإذا كانت اللجنة الوطنية لأنصار السلم في لبنان قد أعطت زخماً ملحوظاً في جمع أكثر من ٢١٥ ألف توقيع على نداء برلين، ومن اصدار العديد من البيانات المتضمنة مواقف وطنية ضد الحرب ودعاتها ، والأحلاف وأنصارها ، فإن صفحات « الصرخة » لعبت دوراً أساسياً مكملاً في تعريف كل مناطقنا وجماهير شعبنا ، والعالم على هذا النشاط المقدر جداً.

قلنا إن « الصرخة » أولت التحرك الطبقي، والنضال المطلبي للعمال والفلاحين قدراً مهما . فهي التي نشرت الخبر عن انعقاد مؤتمر للعمال في بيروت مثل سبعة آلاف عامل. واتخذ المؤتمر مجموعة من المطالب المهنية والوطنية. وقرر تسمية المنظمة التي انبثقت عنه « اتحاد العمال في لبنان ».

كما أنها نشرت على صفحاتها الخبر عن انعقاد مؤتمر فلاحي الجنوب الذي حضره ثلاثون مندوباً يحملون تفاويض من أربعة آلاف فلاح. وهي التي نشرت الخبر عن مؤتمر فلاحي البقاع الممثل للألوف من الفلاحين.

كانت « الصرخة » تصدر أسبوعياً وفي أثناء المعركة الانتخابية ١٩٥٣، حولت إلى يومية لتتمكن من متابعة النشاط الانتخابي. وقد أرهقت الحزب بتكاليفها ، حتى إذا انتهت الانتخابات في لبنان وسوريا ، سنـة ١٩٥٤ ، ونجح فيها خالد بكداش. وكان الاستاذ سهيل يموت قد وضع تحت تصرف الحزب جريدة « الأخبار ». فأعيدت الصرخة في أوائل شهر تشرين الأول ١٩٥٤، إلى صاحبها الأستاذ أحمد زكي أفيوني، وحلّت « الأخبار » محلها.

قلت إن الدور الذي قامت به « الصرخة » كان كبيراً فلم يترك ميداناً من ميادين النضال الوطني والطبقي إلا وولجته من الباب العريض. واشتهرت بجرأتها في طرح القضايا ، إنما ، كما سبق التنويه بـه لم تحسن اتخاذ المواقف مع الأصدقاء.. ولم تدرك الأهمية الكبرى للعمل الجبهوي، مع من نحن ، وضد من نحن. فقلما كنت تراها خائضة ضد الأحلاف الاستعمارية. وضد سياسة التوتر الدولي. وفي الحريات الديمقراطية وبخاصة الحريات الصحافية والنقابية، كنت تراها من جانب آخر تتخذ مواقف ضد حلفاء طبيعيين وتجعل منهم بما توجهه إليهم من قارص الكلام وكأنهم الأعداء الأساسيون.

إن هذا الارتباك بالمواقف ضيع علينا كثيراً. وجعلنا رغم الجهود ، نسعى وراء العمل المشترك، ولكن المفروض فيهم أن يتجاوبوا معنا . ارفضوا عنا بلطف وكياسة. إلى أن بدأت نسمات رياح

التغيير في منتصف الستينات تتمايل، وإلى ما بعد ما قدمناه من عطاءات مادية ملموسة بشرية وسياسية صادقة. حتى تمكنا من السير على الطريق الوطني الصحيح، والقومي الصادق. وفي جميع ها المراحل، كان الالتزام الدقيق واضحاً في مواقف الحزب والصحف التي يشرف على اصدارها، وبات موضوع الإعلام يشكل حلقة رئيسية، على حسن أسلوبها، وصحة توجهها، يكون التجاذب بين المواطن والحزب، بين الجريدة والقارىء.

وأخيراً مهما كانت هفوات «الصرخة» وكبواتها، كثيرة. فقد لعبت دوراً تاريخياً ملحوظاً في النضال ضد هجمة الاحلاف الاستعمارية، وفي استنهاض جماهير العمال والفلاحين والطلاب، ودفعها في المجرى الوطني الكبير، الموجه لإحباط المشاريع العدوانية الاستعمارية، وسياسة الحرب والتوتر في منطقتنا والعالم.

الأخبار

بعدما توقفت «الصرخة» عن الصدور في آخر أيلول ١٩٥٤، كما ورد، أصدر الحزب الشيوعي، جريدة «الأخبار» الاسبوعية. صدر العدد الأول منها في العاشر من تشرين الأول سنة ١٩٥٤، مصدراً بافتتاحية صفحتها الأولى عنوانها: «ما هو موقف حكومة لبنان من مشاريع الاستعمار الأميركي الحربية؟». وتحمل افتتاحية صفحة المحليات العنوان التالي: «حول مشروع تعديل قانون الانتخابات في لبنان يجب متابعة النضال لإلغاء الضمانة المالية وسائر القيود الرجعية في قانون الانتخابات».

كانت مهمة «الأخبار» شاقة، فقد ولدت في معمعان احتدام معركة هجوم الاحلاف الاستعمارية من جهة، ومرحلة المد الثوري الكفاحي العربي من جهة أخرى. فإذا كانت الامبريالية لا تنام على طرح مشروع حلف قديم هبت جماهير لبنان ضده فطوت صفحته، حتى تطلع في اليوم الثاني على مشروع جديد أشد خطراً. فمن حلف سوريا الكبرى (الهلال الخصيب)، إلى حلف «البدر الخصيب» إلى حلف «قيادة البحر المتوسط»، إلى تعزيز مواقع أميركا في لبنان عبر «النقطة الرابعة»، إلى حلف بغداد، وبالمقابل جاءت ثورة ٢٣ يوليو بقيادة جمال عبد الناصر تصدع أبنية الاستعمار والرجعية العربية، وتجمع شتات الجماهير، وتدفعها في معركة النضال التحرري لدعم هذه الثورة المصرية الصنع، العربية المحتوى والاتجاه والامتداد، وإحباط المخططات الاستعمارية. وكانت أشدها معركة القناة التي بدأت بالجلاء العسكري الاستعماري التام عنها، وبالتالي بالإعلان الصادر عن الحكومة المصرية بتأميم شركة القناة، واستعادتها لصاحبها الشرعي، الدولة المصرية، وبذات الوقت احتدمت معركة البترول، فمن جهة هجوم الاحتكارات النفطية لفرض السيطرة المطلقة على النفط العربي، استخراجاً، وأسعاراً، وعائدات، ومن جهة

ارتفاع أوار النضال لاستعادة بعض الحقوق التي اختلستها الشركات النفطية.

هذه المعارك على تعدادها، وأهميتها، وجدت في جريدة الأخبار الداعم الأكبر لها. فما توانت عن القيام بواجب، وصفحاتها لم تخل أسبوعاً من عرض مكثف معمق لنضال شعبنا، ولطالما تعرضت للملاحقات من قبل شرطة المطبوعات، والسلطات القضائية، ولتفتيش مكاتبها، واعتقال العاملين فيها، من محررين وموظفي إدارة، لأنها أبت المهادنة مع من يتعدى على حق الشعب، حق العامل والفلاح، حق الوطن والمواطن، وحتى حق الدولة المعرض لتعدي الاحتكارات الأجنبية، ولتطاول الدول التي تسعى لفرض قيودها على لبنان تحت استرة التعاون المشترك تارة، والدفاع المشترك تارة، والنقطة الرابعة أخرى.

لم تكن، «الأخبار» في تلك المرحلة، من العام ١٩٥٤ حتى العام ١٩٥٩، جريدة عادية، تنقل الخبر، وتدون البرقيات، وتنشر مقالات وحسب، بل تحولت إلى مدرسة قائمة بذاتها، ومهمتها ليست اعلامية فقط، بل كانت متشعبة ومتعددة، تحريضية وتوجيهية، ودراسية، وابحاثية، وطنية، وقومية، وخارجية. وهذه الشمولية اكسبتها التقدير والاحترام في لبنان والأقطار العربية الشقيقة، وفي العالم بأسره.

ولم يقتصر دور جريدة «الأخبار» على النضال ضد الاحلاف الاستعمارية العدوانية، وفضح مراميها، وتعرية القائمين بها والداعين إليها، بل أولت القضية الاجتماعية اهتماماً رئيسياً، وما كانت لتترك شاردة أو واردة، ذات مساس بشؤون العمال والفلاحين إلا وتعالجها بجرأة، وبروح مفعمة بالدفاع عن مصالح الطبقتين المشار إليهما، ولنخص بالذكر رسائل المناطق التي كانت تعالج قضايا الفلاحين وتعكس نضالهم ضد الإقطاعية، من جهة، وضد تعسف السلطة من جهة أخرى. صحيح أن الصحافة بعامة كانت تنشر الأخبار عن نضال العمال والفلاحين، ولكن تنشرها كأخبار عن أحداث وقعت. إنما جريدة «الأخبار» كانت ترفقها بتعليقات توجيهية، منها ما يفيد الفئات القائمة بالنضال، ومنها ما يشدد على السلطة المتلكئة بالتجاوب مع المطالب الاجتماعية الحقة التي تناضل الفئات الشعبية من أجل تحقيقها.

كنت شخصياً من المحررين الدائمين في جريدة الأخبار، منذ صدور العدد الأول منها في العاشر من تشرين الأول سنة ١٩٥٤، حتى مطلع العام ١٩٧٦، وكنت مع كتابتي مقالات وتعليقات متنوعة، مختصاً بتحرير الصفحة الخامسة، وهي ذات طابع اقتصادي ـ اجتماعي. كان هذا قبل أن تتحول الجريدة إلى مجلة في العام ١٩٧٣. وكان يعمل فيها محرران آخران. ومعاً كنا نحضر مواد العدد الذي يصدر يوم الأحد. وكنا نحن الثلاثة نلتقي ومعنا كل مساء خميس ما حضرناه من مواد، مع الرفيق فرج الله الحلو فيطلع عليها ويبدي ملاحظاته حول ما لا يكون

منسجماً مع خطة الحزب، أو أن نشره غير مجد. وكانت علاقتنا به جد رفاقية، نناقشه وبصبر جيل، كان يرد علينا دون ملل إلى أن يقنعنا، ولا أذكر أنه لجأ مرة إلى الشدة لفرض ما لم نكن مقتنعين به بالرغم من أننا نكون غير صائبين في موقفنا.

إن ما كان يشغل بال فرج الله الحلو كمشرف على «الأخبار» وموجه لسياستها، أن ترضي المادة التي تنشر فيها، لا كاتبها، بل القراء، العمال والفلاحين والمثقفين والطلبة، في لبنان والبلدان العربية. و «الأخبار» لم تكن لبنانية التوجيه والخبر، والتعليق، بل عربية شاملة، لا تترك قضية من قضايا العرب أساسية كانت، أم اجتماعية، أم تطاول على حقوق هذا البلد أو ذاك، أم عسف نزل بالمواطنين بسبب بعض الأحكام السائدة هنا أو هنا، إلا وتناولتها وعالجتها وكانت دائماً نصيرة الجماهير الشعبية.

عندما أضرب عمال شركة أرامكو في السعودية سنة ١٩٥٣، كان اضرابهم كبيراً هز الشركة والسلطة التي أقدمت على اعتقال عدد كبير منهم، عندها شرّعت صوت الشعب صفحاتها، للدفاع عن مطالب العمال، ولاستنكار تدابير الشركة الأميركية التعسفية ضدهم.

وعندما أشتد أوار النضال الوطني في عدن والجنوب اليمني، وكانت الطبقة العاملة على رأس هذا النضال، ووجهت سلطات الاستعمار الانكليزي الارهاب ضدهم، انتصرت «الأخبار» لهم ودافعت عن حقهم، ووضعت صفحاتها بتصرف من كان يراسلها في عدن، وأبرز هؤلاء المناضل الكبير والقائد البارز المرحوم الرفيق عبد الله باذيب. ومعرفتي بهذا القائد وصداقتي له تكونتا عبر مراسلته لـ «الأخبار» حتى إذ التقيته لاحقاً في بيروت، كنا وكأننا نعرف بعضنا منذ سنين، تشدني إليه صداقة المراسلة، وتشده إلي صداقة طفحت صفحات «الأخبار» ودورها، كنت ألمس أنهم مطلعون على معظم محرريها وذلك من خلال استمراريتهم ومواظبتهم على مطالعتها.

المرحلة التي وجدت فيها جريدة «الأخبار» منذ العام ١٩٥٤، حتى صدور «النداء» ٢٠ كانون الثاني ١٩٥٩، هذه المرحلة كانت حبلى بالتحركات الوطنية والشعبية، لبنانياً وعربياً. هنا احلاف تحاك خيوطها بالاتفاق مع الحكم الرجعي اللبناني القائم، وهناك استعدادات جذرية، كما حصل في ١٤ تموز في العراق. حيث اندلعت ثورة شعبية أطاحت بالحكم الرجعي. في هذه الفترة كانت «الأخبار» الصوت الإعلامي المدوي غير الهياب، ضد الحكم الرجعي في لبنان، او مع الانقلاب التقدمي في العراق. وفي جميع مواقفها، وبكل ما كانت تنشه من مقالات، لم تغب الروح الوطنية، الروح الحزبية، وبمعنى أوضح، كانت مهمة «الأخبار» عدا كونها أداة تحريض، ودعاية، أداة تثقيف، وتنظيم. وبسبب التسلط الإرهابي، والتضييق على النشاط الحزبي للمناضلين الشيوعيين، ولعدم توفر الإمكانات دائماً لإيصال الخطة إلى الرفاق في المناطق النائية، كانت

« الاخبار » تحل هذه العقدة، بما يكتب وينشر على صفحاتها، حتى إذا قرأها أصدقاؤها، أدركوا الخط الذي يجب أن يتبنوه، ويعملوا بموجبه.

وكما خصصت « ألاخبار » صفحة لنضال العمال والفلاحين والحركات الشعبية، خصصت صفحة للثقافة والأدب والفكر. وبالرغم من الهزال الذي نزل بها أحياناً، تمكنت في ظروف معينة، وبخاصة عندما رئس محمد دكروب الإشراف عليها، من أن تلعب دوراً طليعياً أكد التماس مع الجماهير الشعبية، سواء بما نشر من قصص قصيرة، أو تحقيقات وريبورتاجات تتناول نواحي اجتماعية، كذلك الذي نشر عن صيدا، وقد حظي بتقدير وإعجاب، لا في صيدا وحسب، بل وفي أوساط قراء « الأخبار » كافة.

وحرصت « الأخبار » وبخاصة بين ١٩٥٤ و ١٩٦١، على عدم التسامح في الأخطاء النحوية. وكما كانت المقالات والأخبار خاضعة لرقابة مسؤولة، كذلك كانت هذه الرقابة تنسحب على الناحية النحوية، ولا أقول إن هذه الأخطاء انعدمت تماماً، لكنها انخفضت كثيراً، ولم تعد لتشكل عقبة بالنسبة للقارىء، ولا مجال تندر، وتهكم، وانتقاد حتى بالنسبة للقارىء العادي.

وأبرز ما بذل من جهد هو تصحيح بروفات « الأخبار »، وكنا نحن محرريها الثلاثة، أو الأكثر، أو الأقل، نقوم شخصياً بهذه المهمة. واحد يراقب الأصل، والآخر يقرأ البروفة. وهذه الطريقة وحدها هي التي تمنع (التفويتات) التي نعاني منها الآن، بسبب عناد المصحح، واعتداده، أو جهله.

فلا يكتفي بواقع وهو أن يكون المصحح على المام بالصرف والنحو، بل عليه أن يكون ملماً بالثقافة العامة، ومطلعاً على تاريخ وواقع بلده أولاً، ويعرف أسماء الشخصيات السياسية في بلده وعلى الأقل أسماء قادة الحزب الذي تنتمي الجريدة التي يعمل فيها إليه.

إن دور « الأخبار » لم يقتصر على معالجة القضايا التي أشرت إليها وحسب، بل حرصت على الجانب الدولي لنشاطها. وعملت باستمرار على تقويته وذلك بجذب جماهير أوسع فأوسع من شعبنا إلى جانبه، كالصداقة مع الاتحاد السوفياتي وسواء من البلدان الاشتراكية، والدفاع عن السلام العالمي ودعم حركة السلم العالمية، والتضامن بين شعوب آسيا وافريقيا. وابراز نضال الحركة الثورية، وحركة التحرر الوطني في العالم.

وبالنسبة لسوريا، كانت « الأخبار » الرحاب الأوسع، لتلقف أخبار القطر الشقيق. فمن بطاح الجولان، وجبل العرب، إلى شطآن طرطوس وبانياس واللاذقية، فإلى سهول القامشلي، وجرود حلب، ومن يبرود في النبك، حتى كفر تخاريم في ادلب، كانت الرسائل تأتي إلى الأخبار وكلها

مليء بما ينفع ويفيد، عن تحركات الفلاحين والعمال.

من أجل الأرض، وضد تعسف الإقطاعيين، وسعياً للحصول على الحريات الشخصية والعامة، في كل ذلك كانت «الأخبار» الأداة لا الاعلامية وحسب، بل التوجيهية التي ينتظرها كل أسبوع الألوف ليتعرفوا عبر مقالاتها وسطورها، على الجديد في الوضع السياسي، وعلى كيفية التعاطي مع من يناضلون ضده. وكانت فترة توصلت فيها «الأخبار» لأن تطبع كل يوم أحد حوالى العشرين ألف عدد، لا للبنان وحده، بل لسوريا، والعراق. ولكم تسلمنا من رسائل، من القرى العراقية، والسورية النائية، وكلها مفعم بالتقدير لهذه الجريدة المتواضعة، التي كان يحررها ثلاثة يرأسهم كبير قادة حزبنا، فرج الله الحلو، ثلاثة يعتمدون على مجموعة من أصدقاء الجريدة في المناطق اللبنانية يمدونها بالرسائل الأسبوعية باستمرار. هذه الرسائل كانت مورداً تحريرياً ثابتاً أغنى الأخبار على الصعيدين، الاجتماعي، والمطلبي. وميزة تلك الرسائل أنها لم تكن من المطولات، بل كان مرسلوها ومنشئوها يقدرون حجم جريدتهم، فيتقيدون بالتوجيهات والاتفاقات معهم، حول كيفية كتابة الرسائل، محتوى وحجماً.

ولم يكن الدور البنائي الذي قامت به الأخبار مقتصراً على لبنان والبلدان العربية التي توفرت لها حركات تحرر وطنية منظمة، بل كان لها دور عالمي. وقد تسنى لي رؤية كثيرين من المستعربين في البلدان الاشتراكية، وأثناء الحديث معهم عن الصحافة بعامة، والصحافة اللبنانية بخاصة وصولاً إلى الصحافة التقدمية، يقولون نحن تتلمذنا على جريدة «الأخبار» اللبنانية.

شكل العقد الخامس من قرننا الراهن محطة تاريخية مفعمة بالنضال الوطني والاجتماعي، إن لجهة الهجمة الاستعمارية التي شملت المنطقة العربية، أو لجهة النضال الاجتماعي الذي انسحب على الفئات الشعبية الواسعة.

ومن أبرز الأحداث، على الصعيد القومي العربي، انتصار ثورة الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر في مصر، هذه الثورة التي شكلت أساساً ومنطلقاً لتحرك وطني تغييري عربي شامل، ونقلت مركز الثقل في القيادة العربية إلى القاهرة، وجعلت من قائدها عبد الناصر بطلاً قوميًا رنت إليه انظار العرب في بلدانهم القاصية والدانية كافة. فالتفت الشعوب مؤيدة، وانبرت الرجعية الهلعة المتضعضعة تتآمر مع الاستعمار ضد الشعوب واستقلال بلدانها.

وجاءت «حرب السويس» سنة ١٩٥٦ تترجم صورة التآمر الاستعماري، ولكنها كانت وسيلة لزيادة الالتفاف حول مصر الثورة وقائدها عبد الناصر، كما وأنها أبرزت بوضوح صحة السياسة

السوفياتية التي لبّت دعوة عبد الناصر. فوضعت ثقلها في المعركة مهددة انكلترا وفرنسا واسرائيل بوجوب وقف العمليات الحربية، والانسحاب فوراً من مصر، وإلاّ يكون الاتحاد السوفياتي حر التصرف بما يرتئيه لوقف العدوان على مصر. وكان لهذا الانذار التهديدي أثره الفعّال، فاضطر المعتدون للتجاوب ووقف الحرب، وهذا الإجراء، رفع من مكانة مصر الثورة، ومقام قائدها جمال عبد الناصر كما وأنه شكل أساساً موضوعياً للتحالف بين الاتحاد السوفياتي وجمال عبد الناصر، وازدادت هذه الصداقة أهمية ملموسة، فلجأ المستعمرون بعد وقف العمليات الحربية إلى مقاطعة الشعب المصري اقتصادياً بمنعهم شحن القمح إليه. فما كان من الاتحاد السوفياتي إلاَّ أن أمر بتحويل البواخر السوفياتية الشاحنة قمحاً من أميركا إلى مصر. ويذكر الجميع كيف هبت عشرات الألوف من أبناء مصر إلى مرافىء الاسكندرية محيية الصداقة السوفياتية - المصرية، فكانت مظاهر الابتهاج على المرافىء المصرية ظاهرة مميزة في مجال توطيد العلاقات المصرية - السوفياتية.

وبمقابل هذا المدّ الإيجابي، حصل مدّ رجعي شمل لبنان وكل المنطقة العربية. وبرز ذلك بهجمة مجنونة لمشاريع الأحلاف الاستعمارية العدوانية المتعددة الأشكال والأسماء، ولكنها منسجمة مع بعضها من حيث الأهداف.

وكان لبنان حقل تجربة لطرح مشاريع الاحلاف تلك. ولكن شعبنا على قلته، وضعف إمكاناته، ورغم ضلوع الحكم باستمرار مع واضعي تلك المشاريع، أظهر أنه قادر على المجابهة، بل ويجب عليه مهما كانت امكاناته، أن يجابه. وأول مجابهة كانت سنة ١٩٤٩، ضد مشروع عقد معاهدة «أميركية - لبنانية». فقد قامت في بيروت مظاهرة لبنانية ضده، سقط فيها شهيد هو العامل سليمان علي الشريف. وكان أن طارت تلك المعاهدة، ولم يعد أحد يجرؤ على التحدث عنها.

وكان مشروع الدفاع المشترك الاستعماري يشكل الخطر الداهم، وقد حدثت في بيروت مظاهرة في أول تموز سنة ١٩٥١، قامت المظاهرة ومشت تحت شعار: ليسقط مشروع الدفاع المشترك الاستعماري. فجابهت الحكومة المظاهرة، وسقط فيها شهيد هو العامل أنور العش، ولكنها طيّرت المشروع الاستعماري.

وفي العام ١٩٥٢، برز إلى الوجود مشروع «قيادة البحر المتوسط الشرقي» وأوفد وزير خارجية اسبانيا (ارتاخو) إلى بيروت، لإجراء صلات مع الحكومة بشأنه. وقد انتظمت في بيروت مظاهرة ضده استشهد فيها العامل الشجاع جورج عزّو. ولكن المشروع الاستعماري طار وهو لا يزال طرحاً، وعاد ارتاخو بخفيّ حنين.

وفي الخمسينات ارتفع أوار «حلف بغداد» الذي شكل الخطر الأشد على لبنان والمنطقة العربية، واتخذت بيروت، حكماً واعلاماً، مركزاً له. ولكن بيقظة شعبنا، وإدراك قياداته الوطنية الخطر الداهم، دفعا إلى تشكيل جبهة وطنية عرفت باسم: «المؤتمر الوطني للاحزاب والهيئات والصحافة الوطنية الحرّة» برئاسة الشخصية الوطنية المعروفة، الحاج حسين العويني، وكان النضال ضد «حلف بغداد»، هو الأساسي في توجه «المؤتمر الوطني» المشار إليه. ولذلك عجز دعاة حلف بغداد المؤيدين من الحكم آنذاك، أن يتمكنوا ولو من فتح مكتب علني للحلف المشؤوم، وأصبح العداء له عاماً، شاملاً المناطق، والأحزاب الوطنية، ووسائل الإعلام على أنواعها.

وتجيء حرب السويس، ومعركة النفط، فتهب جماهير الشعب اللبناني إلى عضد مصر، والموقف الوطني من شركات البترول، وكان المطلب آنذاك الحصول على عائدات أرفع (٥٠ ـ ٥٠ أي فيفتي ـ فيفتي).

مبدأ ايزنهاور

إن أشد معركة ضد الأحلاف خاضها شعبنا اللبناني، هي النضال ضد «مشروع مبدأ ايزنهاور». فبعد حرب السويس وفشل الهجوم الاستعماري المدعوم ضمناً من «البنتاغون»، على مصر، راح القادة الأميركيون يتحدثون عن «الفراغ» في منطقة الشرق الأوسط. وتوصلوا، بالاتفاق مع الحكم اللبناني ـ حكم شمعون ـ مالك ـ آنذاك، إلى طرح مشروعهم الاستعماري العدواني المشار إليه آنفاً، وراحوا مع صنائعهم في الحكومة والحكم في لبنان يعملون لتنفيذ بنوده، وكانت هبّة شعبنا ضده على اثر اغتيال إحدى شخصيات «المؤتمر الوطني» البارزة العنيدة في كفاحها ضد مشاريع الاحلاف العدوانية، الزميل الكبير نسيب المتني، ولما لم يعد الكلام يجدي وحده لوقف الهجمة الأميركية الشرسة، انتفض شعبنا بالسلاح ضد التجديد لرئيس الجمهورية كميل شمعون، وإلغاء «مبدأ ايزنهاور» الذي كان الحكم قد وافق عليه. وكانت النتيجة، بالرغم من بدائية وسائل المقاومة آنذاك، أن لجم المد الأميركي وأرغم شمعون على الهروب من العاصمة، وحيل بينه وبين التجديد، ومنع الاسطول الأميركي من الرسو في المياه اللبنانية. حصل ذلك بالرغم من أن رئيس الجمهورية استند إلى المادة ٥٢ من الدستور واستدعى الجيش الأميركي لنجدته، وعلى الفور وجهت قطع الاسطول الحربي الأميركي السادس إلى المياه اللبنانية حاملة عشرات الألوف من قوات المارينز ونزلت حول بيروت وفيها، وراح الأميركيون يعملون لتطبيع وجودهم هنا، ولكن شعبنا حال دون مساعيهم، فاستخدم جميع الوسائل والوسائط، وكان الجنرال فؤاد شهاب قد انتخب رئيساً للجمهورية، واستناداً إلى موقف حكومة رشيد كرامي الجديدة، وإلى الدعم الذي وجدناه من الاتحاد السوفياتي في مجلس الأمن الدولي، اضطر مجلس الأمن إلى

أخذ قرار يقضي بالانسحاب السريع للأميركان من لبنان جارين وراءهم الذل والعار.

كل ذلك أدّى إلى تطلعات جديدة في الوسط الوطني، إلى متغيرات في الساحة اللبنانية والعربية تطلبت سياسة جديدة تقوّم دور شعب لبنان، وتتجاوب مع أماني هذا الشعب. وكان للاعلام دور مهم في هذا.

النداء

استناداً إلى ما مرّ الكلام عنه، وتوجهاً بما تفرضه الأوضاع اللاحقة، قرر الحزب الشيوعي التوجه لوجود أداة إعلامية يوميّة. لأن الأداة الاسبوعية، مهما بذل عليها من جهد، ومهما اتقن ما ينشر فيها من مادة، تبقى غير كافية لاعطاء جماهير الشعب، ولا سيما العمال والفلاحين منهم، ما هم بحاجة إليه من أجوبة على أسئلتهم. ولذلك تقرر اصدار جريدة يومية، وكانت « النداء » وقد صدر العدد الأول منها في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٥٩.

وعلى امتداد تسع وعشرين سنة انقضت على صدور « النداء » لم تتوقف هذه الجريدة، بالرغم مما تعرضت له أحياناً، سواء من مداخلات سياسة الدولة ضدها، أو من حيث توفر الامكانات المالية، أو لجهة تسهيل مرورها من منطقة إلى أخرى، ومنع توزيعها في هذه المنطقة دون سواها. بالرغم من كل ذلك، فقد حافظت « النداء » على الصدور بأوقاتها المحدَّدة. وندرت المرات التي لم تصل فيها صباح كل يوم إلى قرائها، من مشتركين وشراة.

« النداء » بالنسبة إلى معظم قرائها، وإلى كل وطني منصف وبالرغم مما تظهر فيها من هنات، مدرسة توجيهية في القضايا الوطنية الأساسية. فهي لا تضع سياستها، ولا توجه أخبارها، انطلاقاً من هاجس تجاري وحسب، بل وفي الأساس، من هاجس وطني. وما دام الأساسي هو النضال ضد الاستعمار والصهيونية، وتحرير بلادنا من وجودهما، وكل تدخلاتهما، فإن هذا الهاجس سيظل مهيمناً على نشاط « النداء » في جميع المجالات وكل المصادفات والمناسبات.

إن تشكيل جبهة وطنية لبنانية واسعة جداً في لبنان لتحقيق الأهداف الوطنية في التحرير، ووحدة الأرض، وعروبة البلد، ستظل، كما كانت دائماً، في صلب توجهات « النداء » وهاجساً يومياً من هواجسها المتعددة.

وعلى الصعيد القومي رفعت « النداء » بقوة واستمرار وبأشد ما يكون من الالتزام راية الوحدة والتحرر، ودعم حركات النضال ضد الاستعمار والصهيونية والدعم غير المحدود لقضية الشعب الفلسطيني في الحصول على حقوقه وتأسيس دولته الوطنية.

وعلى الصعيد الدولي والخارجي بعامة، استمسكت « النداء » بالصداقة اللبنانية والعربية السوفياتية، ومع جميع البلدان الاشتراكية، بوصفها أحد العوامل الموضوعية الأساسية لإنجاز مهمات التحرير الوطني بخاصة، والاجتماعي بعامة. لقد وجهت إليها صدمات عديدة، واحيلت إلى المحاكمات لثباتها في هذا الاتجاه، فتحدَّت كل ما وجّه إليها، واستمرت على مسارها الذي لن تحيد عنه.

و « النداء » ليست بالنسبة للملتزمين الشيوعيين صحيفة عادية تنقل إليهم الخبر عن الوكالة، أو تنشر رسالة من منطقة، أو تنشيء تعليقاً حول قضية دولية وحسب، بل هي وبالأساس مدرسة لا بد لكل من يتابع العمل السياسي الحزبي من المرور فيها، وإذا ألقينا نظرة على الملاكات الرئيسية القائدة في الحزب الشيوعي، نجد أن معظمها مرّ بمدرسة « النداء »، وهذه الصفة هي ميزة في جميع الأحزاب الشيوعية الجدية التي تضع نصب عيونها موضوع التغيير، عبر الحصول على أوسع تأييد جماهيري لها من العمال والفلاحين والطلبة وأهل الفكر والإبداع.

وإذا أعدنا مراجعة مجموعات « النداء » منذ عددها الأول الذي صدر صبيحة العشرين من كانون الثاني ١٩٥٩، حتى العام ١٩٨٦، نرى أسماءً عديدة من كبار الشخصيات السياسية، والأدبية والعلمية، قد أنشأت مقالات فيها. ولا سيما في الميزة التي تفرّدت بها، وأعني بإصدارها الأعداد الخاصَّة المميّزة، في المناسبات الوطنيّة الكبرى. ومنها ما طبع منه زهاء مئة الف عدد، وهو رقم ضخم بالنسبة لبلد صغير كلبنان، ولجريدة رأي كما « النداء ».

« النداء » هي بحق تتابع وتواصل لشقيقاتها « الإنسانية »، و « صوت الشعب » و « الأخبار » و « الطليعة » و « الدهور » ولـ « الصرخة » في إحدى الفترات. إنها جزء لا من تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني وحسب، بل ومن تاريخ شعبنا اللبناني. فأي باحث، أو مرشح لنيل ديبلوم في بعض نواحي القضيتين الوطنية والاجتماعية، ملزم بحكم الواقع، أن يعود إلى مجموعات « النداء كي ينال مبتغاه، سواء عن أوضاع الفلاحين والمزارعين أو أوضاع العمال والنقابات، أو عن تحركات الطلبة، ونضال المعلمين، ودور المرأة في الكفاح الوطني، والتغيير الاجتماعي. فعلى صفحات النداء تسطرت مقررات مؤتمرات الحزب الشيوعي الثلاثة: المؤتمر الثاني ١٩٦٨ والمؤتمر الثالث ١٩٧٢ والمؤتمر الرابع ١٩٧٩، هذه المؤتمرات ولا سيما الثالث والرابع اللذان شكلا مظاهرتين وطنيتين قوميتين، وأممتين كان لهما أوقع الأثر في الصف الوطني.

« النداء » صحيفة تتعاطى مع قراء في أكثر من أربعين بلداً في العالم، ويجدون فيها ما يتوقون لمعرفته عن أوضاع لبنان، بالنسبة للسياسة العامة، بل وبخاصة بالنسبة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تشكل القاعدة الرئيسية للتحرك الاجتماعي الهادف إلى التغيير الديمقراطي.

فإلى الخلف الخيّر المعطاء الذي حافظ على تراث السلف الصالح فطوره وأغناه، بعدما ارتكز إليه في مساره فصانه وأبقاه. إلى « النداء » التي كان لي، عندما تأسست لي ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٥٩، شرف رئاسة تحريرها خلال أربعة شهور من ٢٠ كانون، إلى ١٩ نوار ١٩٥٩. وكان لي مع محرريها الرئيسيين الرفقاء الأعزاء، كريم مروه، رفيق سمهون، محمد دكروب، أمين الأعور، ومن ثم لاحقاً حسين مروة، عزيز صليبا الذي أصبح رئيساً للتحرير، إليهم جميعهم أسدي الشكر على ما قدموه لي من مساعدة، كما وأنني أحنّ بعمق اعماقي، إلى ذلك الجو الطيب الذي ضمّنا خلال ترؤسي تحرير النداء آنذاك. باحترام عاملنا بعضنا، وبدقة وصرامة راقبنا بعضنا، وبتفاهم وقناعة حلّينا مشاكلنا، وما كان أكثرها آنذاك. معظم الصحف الحزبية التي تأسست بعد العام ١٩٣٥ حررت فيها، ولكن اثنتين منها صورتها حفرتا في حناياي: « الأخبار » و « النداء »، ذلك لأنني ساهمت بتأسيسها، وتحملت مسؤولية تحريرها ولو لمدة قصيرة.

محطات تأسيسية

من انطلياس
كان المنطلق

لن أغوص في أعماق التاريخ لأحدثك، أيها القارىء العزيز، عن «انسان انطلياس»، فبإمكانك أن تزور متحف التاريخ المتواضع، الذي أنشأه ونظمه بجهوده الخاصة، الاستاذ قبلان مكرزل، ليعطيك صورة عن تاريخ انطلياس، «وانسانها» الذي تشاهد له آثاراً ملموسة في متحف الاستاذ مكرزل.

إن ما أود التوقف عنده هو بعض الاحداث التي شهدتها انطلياس منذ ١٦٤ سنة مضت. منذ «العامية» ١٨٢٠ حتى العام ١٩٨٤، وهي أحداث كبيرة ذات أثر راسخ في تطور لبنان الاجتماعي والسياسي.

الأسباب التي أدت إلى أن تتبوأ انطلياس مكانة خاصة مرموقة، ربما كان موقعها الجغرافي، أو ربما كانت هناك عوامل أخرى، جعلت منها مقلعاً لكل عمل ثوري، ومنطلقاً لكل تغيير.

«العمية»

في سنة ١٨٢٠ شهدت «انطلياس» أول تجمع شعبي جماهيري مسلح عرفه القائمون به بـ «العمية». والسبب الذي جعل مواطنين من مختلف قرى «المتنين» وكسروان والشوف يتجمعون في حقل نضالي مسلح، هو الظلم الذي أخذ أمير جبل لبنان بشير الشهابي يتمادى فيه. فلكي يتمكن الأمير من تسديد الصك الذي وقعه لعبد الله باشا والي عكا بمليون قرش ليحفظ مركزه كأمير على الجبل، أوفد الأمير جباته ليحصلوا المبلغ من المكلفين. مع أن الاتفاق بينهم وبين الأمير، هو أن لا يدفع المكلفون سوى مال واحد في السنة. ورفضوا دفع مالين في سنة واحدة. وأفهموا جباة الأمير ذلك. ولكن الجباة لم يأبهوا وأصروا على جباية المال خلافاً للاتفاق.

يقول المطران يوسف الدبس في تاريخ سوريا إن عدد الذين اشتركوا في «العمية» بلغ ستة آلاف شخص. وتحت ضغط هذه القوى ومؤيديها رحل الأمير بشير عن لبنان وكتب إلى عبد الله باشا يقول: «عجزت عن الولاية وتركت بلادي وعيالي وتوجهت نحو بلاد الشام». وحط الأمير رحاله في حوران. وهكذا اندمج نضال جماهير شعبنا في المتن وكسروان وبعض الشوف سنة ١٨٢٠، ضد الضرائب الباهظة التي أراد الأمير بشير فرضها على الرعية، بالنضال السياسي ضد سلطة الحاكم. ولكن الأميرين اللذين تسلما الحاكمية بعد الأمير بشير وهما علي وسلمان سيد أحمد، اللذين ظاهرا الشعب ضد الأمير بشير، عادا بعد استلامهما الحكم فانتهجا السياسة الضريبية التي سار عليها سلفهما ليتمكنا من دفع المليون قرش جزية لعبد الله باشا في عكا. ولكن جماهير الشعب ارتدت عليهما. ولم يتمكنا من تنفيذ مخططهما لعزوف المكلفين عن دفع أي مال جديد، الأمر الذي جعل الأمير بشير يكتب إلى عبد الله باشا مستعطفاً، فأجابه حاكم عكا بالرضا، ووقع الأمير صكاً بالمليون قرش، وعلى أساسه عاد إلى حاكمية الجبل. كانت «عمية انطلياس» فاتحة نضال ضد حكم الأمير بشير الاقطاعي، ففي ضوء وهجها، انتظمت سنة ١٨٢١، عمية ذات فعالية أشد في قرية «لحفد» في بلاد جبيل. خاض المشاركون فيها وهم من مختلف المناطق، والطوائف معارك مسلحة، ما كان للأمير أن ينتصر فيها لو لم يلق الدعم من بعض اقطاعيي الشوف الذين أمدوه بقوات مسلحة ساعدته في الانتصار على «العميين» الابطال.

عام ١٨٤٠

مرة أخرى تشهد انطلياس حشوداً جماهيرية التأمت في ساحة كنيسة مار الياس وهي من جميع الطوائف، فشكلت «عمية» جديدة أكثر تنظيماً من «عمية» ١٨٢٠. والهدف من هذه «العمية» هو توحيد الرأي ضد ضرائب جديدة فرضها ابراهيم باشا المصري على المكلفين، منها جمع ما هو متفق على دفعه مع الأهالي عن سبع سنين مرة واحدة. كما انه ابتدع ضرائب جديدة وفرض نظام السخرة وتطبيق نظام «الفردة».

وإذا كان الفلاحون اللبنانيون قد أيدوا ابراهيم باشا عندما احتل لبنان، ومشوا معه ضد الحكم التركي الظالم، فساعدوه بكل شيء وحملوا السلاح بجانبه، فقد ارتدوا عليه، لما أراد فرض ضرائب جديدة. والقسم الذي أعلنه العاميون على مذبح كنيسة مار الياس انطلياس في ٧ حزيران سنة ١٨٤٠ وهم من جميع الطوائف، بأن الموقف واحد، والرأي واحد، يشكل ظاهرة تاريخية، على وحدة الشعب في النضال ضد كل من يحاول انزال ضرر به أو أذى.

عام ١٩١٠

وعي العمال ينمو، وشعورهم الطبقي يزداد، ومصلحتهم المعيشية تقضي بنقلة نوعية جديدة هي الشرط الرئيسي للنجاح. ففي العام ١٩١٠، وكانت البلاد تشهد إقبالاً واسعاً على تأسيس الجمعيات والأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية، في تلك السنة تقدم فريق من عمال البساتين الزراعيين بطلب إلى السلطة لتأسيس «لجنة زراعية» تدافع عن حقوقهم.

وينتهي الحكم العثماني، ويحل محله حكم الانتداب الفرنسي، وقد تنامى في ظله عدد العمال الزراعيين، وبخاصة في المناطق المحيطة بالعاصمة، وكانت انطلياس في المقدمة. فقد كثر فيها عمال البستنة، واتسعت المساحات المزروعة ليموناً، وبدأت تتكون الأفكار حول تنظيم العمال الزراعيين. وقد حمل هذه الفكرة بعض الشباب المثقف وفي طليعته الاستاذ قبلان مكرزل.

تضامن المثقفين والعمال

يقول الشاعر الكبير والمفكر التقدمي الاستاذ قبلان مكرزل: عندما تحسسنا، سنة ١٩٣١، بضرورة ايجاد تنظيم يضم الشباب المثقف والعمال والفلاحين، أقدمنا، أنا وشقيقي كمال وآخرون، على تأسيس منظمة أطلقنا عليها اسم «تضامن المثقفين والعمال والفلاحين ضد الاستعمار والإقطاعية»، وقد ضم عدداً كان يتزايد يوماً فيوماً، شعوراً من العمال بضرورة التنظيم من جهة، ولما كنا نبذله من جهود تثقيفية معهم من جهة أخرى.

وفيما كان الاستاذ قبلان وكمال يعملان في اطار «تضامن المثقفين والعمال»، كان فريق آخر على رأسه سليم بو كرم يعمل لتأسيس منظمة شيوعية، وبالفعل تأسست هذه المنظمة سنة ١٩٣١. وقد اتصل سليم بالشقيقين مكرزل وأطلعهما على مقصده وعمله، وطلب إليهما توحيد التنظيمين اللذين يهدفان لغاية واحدة، وقد تم ذلك فعلاً، وأصبحت المنظمة الشيوعية في انطلياس هي التنظيم الوحيد، وعلى رأسه قبلان مكرزل وسليم بو كرم.

عام ١٩٣٤

شهد لبنان في ربيع العام ١٩٣٥ أكبر وأوسع وأهم إضراب لسواقي السيارات وكان عددهم يربو على الثمانية آلاف سائق. وكان الشيوعيون في مركز التقرير والتوجيه فيه. وانطلياس القلعة كانت في موضع مسؤول بقيادة الاضراب. ومع عنف الاضراب وصلابة المضربين اشتد عنف الحكم وبطشه. وقد شكلت نقابة السواقين لجنة صدامية لحماية الاضراب. وكان على رأس هذه

اللجنة عاملان شيوعيان من انطلياس هما: غمر الرموز وحبيب دياب. وفي أثناء مصادمة مع الدرك الذين حاولوا كسر الاضراب تصدى لهم الرفيقان المشار إليهما فصوب الدرك عليهما الرصاص فسقطا شهيدين، وجرى لهما في بلدتهما انطلياس أكبر موكب تشييعي شهدته المنطقة.

عام ١٩٣٨

بمبادرة من العمال الزراعيين في انطلياس رفع فريق منهم مذكرة إلى الحكومة طالبوا فيها بتمكينهم من تأسيس لجنة نقابية ترعى شؤونهم، وبمنحهم رخصة لعقد مؤتمر عام للعمال الزراعيين. وقد رفضت الحكومة المطلبين المهمين.

وتابع عمال البساتين في انطلياس نضالهم لتحقيق مطالبهم التي تتلخص بـ ٨ ساعات عمل باليوم، وبزيادة الأجور. وكانت السنوات الأربعينية وما أحاط بها من جو اتسم ببعض الديمقراطية، وعرف العمال الزراعيون في انطلياس كيف يستفيدون من ذلك.

عيد الليمون

في العام ١٩٤٥ ولأول مرة في انطلياس أقيم «عيد الليمون» الذي جرى تحت رعاية الحكومة الاستقلالية. ففيه عرضت المنتجات الزراعية على أنواعها لا المنتجة في انطلياس وضواحيها وحسب، بل المنتجات اللبنانية كافة. وكان المعرض الذي أقيم في هذه المناسبة مفتوحاً لكل مزارع يرغب في عرض منتجاته الزراعية.

كان العيد مهرجاناً قل نظيره، وأبرز ما عرض فيه موكب العمال الزراعيين من حامل الشوكة، إلى حامل المعول، إلى حامل المنشار ومقص الاشجار... كان موكب العمال أخاذاً استلفت الانتباه، واسترعى الانظار، وتقديراً لعظمته منحته لجنة الجوائز في المعرض كأساً، تقديراً لدور العمال، ولحسن تنظيمهم، وبراعة العرض الذي قدموه. وقد قطعوا المسافة ما بين ساحة انطلياس حتى «الزلقة» وهم ينشدون أناشيد قبلان مكرزل: «لاحت رؤوس الحراب» و «وطني يا مطلع الجمال» و «انطلياس شذا هواك» إلخ...

من مجمل هذه الملامح التاريخية النضالية بدءاً بسنة ١٨٢٠ «العمية» حتى «عيد الليمون» ١٩٤٥، وحتى العام ١٩٨٤، استمر عمال انطلياس سائرين على الدرب التي شقها «العاميون» قبل ١٦٥ سنة من تاريخه. وبفضل هذه الجهود شكلت انطلياس رافداً نضالياً للعاصمة بيروت، فما حلت بالمناضلين في الثلاثينات والأربعينات محنة في بيروت، إلا ووجدوا في انطلياس ملاذاً وملجأ

لهم. فمن نبل اخلاق عمال ومثقفي انطلياس غرفنا، ومن حسن ضيافتهم وطيب أريجتهم رشفنا: بيوتهم مفتوحة لكل مكافح من أجل كرامة الانسان وتحريره من عبودية الانسان، وبساتينهم حصون لكل مناضل ضاقت به شوارع وأزقة وساحات بيروت. وبسيرها المتكامل هذا، ترفع انطلياس الحبيبة التراث عالياً، وتحرص على الأصالة اللبنانية العربية الراسخة رسوخ «فوارها»، والسامية سمو أشجارها.

عندما غرست شجرة الحرية
١٩٠٧ في «الضبيه»

من الأقل من عشرة اشخاص الذين جرأوا قبل خمس وسبعين سنة، على أن يحتفلوا بذكرى أول، نوار سنة ١٩٠٧، بتنظيمهم شبه مسار على الاقدام من انطلياس إلى «الضبيه» وهناك بكل خشوع وتواضع وصلابة، زرعوا شجرة اطلقوا عليها اسم «شجرة الحرية»، وبعدما تم غرسها، وقفوا وقفة صمت أمامها وانحنوا انحاءة ثورية وغنّوا الحرية، وعادوا مفعمي الضمائر، بأن ما أقدموا عليه، سيصبح يوماً تقليداً وطنياً في كل لبنان، وأن غرسة الحرية تلك، ستصبح ذات يوم شجرة عالية باسقة وارفة الظل.

هذه الحادثة سمعتها من قدامى في انطلياس، وهؤلاء سمعوها من أقدم منهم. وخلاصتها، عندما قررت متصرفية جبل لبنان إقامة مكان في «الضبيه» لتحويل مياه نهر الكلب إلى بيروت، استدعت فنيين ايطاليين للقيام بهذا العمل. وبعدما أقام هؤلاء مدة طويلة هنا، وأنجزوا المشروع عادوا إلى بلادهم، بضعة أفراد منهم استوطنوا هنا ولم يعودوا، ويبدو أن هؤلاء كانوا على تماس بالحركة العمالية والنقابية في ايطاليا، وأنهم يدركون ما هو أول نوار في التاريخ. وبمبادرة من واحد من هؤلاء الفنيين الايطاليين، نظم في هذا اليوم العمالي سنة ١٩٠٧ مسار متواضع، كما ورد من انطلياس حتى الضبيه، وهناك كما ورد اكتفوا بغرس «شتلة الحرية».

من أقل من هؤلاء العشرة، من العمال الطليعيين البعيدي الرؤيا التقوا على شاطىء الضبيه في قضاء المتن في محافظة جبل لبنان، ننتقل في سنة ١٩٠٧ وفي يوم أول نوار نفسه، لنجد رهطاً من المثقفين التقوا على رمال الروشة برأس بيروت، بعيداً عن عيون الرقباء والعملاء، واضعين على صدورهم شارات حمراء، أخذوا يتحدثون عن يوم أول نوار، عيد العمال العالمي، ويحيونه بعبارات ملؤها الثقة بأن هذا اليوم سيكون ذات يوم، يوماً مشهوداً في حياة لبنان والعرب، يوماً للنضال من أجل الأفضل والأجمل، من أجل التغيير الوطني والاجتماعي.

وقد أورد الرفيق محمد دكروب في الصفحة ٤٢ من كتابه « جذور السنديانة الحمراء » نقلاً عن كتاب الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك: « حكاية أول نوار »، أن من بين هذه الجماعة من المثقفين الذين احتفلوا سنة ١٩٠٧ بيوم أول نوار على رمال الروشة في بيروت، السادة: مصطفى الغلاييني (من بيروت)، فيلكس فارس (من صليما)، داود مجاعص (من الشوير) جرجي نقولا باز (من بيروت)، خير الله خير الله من جران ـ بلاد البترون.

ومنذ ذاك التاريخ سنة ١٩٠٧، لم نر في أي مؤرخ، أي خبر عن الاحتفال بأول نوار، اللهم إلا في العام ١٩٢٥، عندما احتفل حزب « الشعب اللبناني » ـ وكان الوجه العلني للحزب الشيوعي ـ بيوم أول نوار في اجتماع الكريستال الشهير الذي لم يكن الداعون إليه، والعاملون لتحضيره يعتقدون أن النجاح سيكون بالقدر الذي حصل. لم يبق في القاعة مكان للجلوس، والوقوف كانوا على قدر الجلوس، والحماسة التي هيمنت على جو الاجتماع، سواء بالنسبة للمثقفين الحضور، أم بالنسبة للمستمعين الحضور، أو الخطباء.

تظاهرة أول نوار هذه استرعت اهتمام الوسط التقدمي من الشبان المتحررين، والصحافة الوطنية، وأبرز ما أسفر عنه اجتماع أول نوار هو المقررات الجدية المهمة التي لا يزال بعض منها يشكل حتى يومنا أساساً لمطالب عمالية هي في صلب التحركات النقابية.

الأثر الذي تركه مهرجان الكريستال، كان كبيراً، والصحافة الوطنية المتحررة عبرت عنه بكتاباتها؛ واستميح الرفيق محمد دكروب العذر على استعارة بعض ما قالته الصحف وهو مدوّن في الصفحتين ٣٠ و ٣٢ من كتابه « جذور السنديانة الحمراء ».

قالت « المعرض »: « هذه روح جديدة حية دبت في لبنان، وبشير بحياة الفكرة السائدة اليوم في الشعوب الحية، وهي فكرة تأييد العمل وأحزاب الشعب ».

١٩٢٥/٥/٣

وقالت جريدة « الاحرار »: « وقد أراد عمال لبنان أن يشتركوا لأول مرة في هذه الحركة العالمية، وأن يحتفلوا بأول أيار كما يحتفل به سواهم في جهات المعمور. فقرروا الإضراب عن العمل والتظاهر في الشوارع ».

١٩٢٥/٥/٢

وقالت « البرق » « وكان لبنان ـ على ما نظن ـ أسبق البلاد العربية إلى التظاهر في يوم أول

أيار، فلقد قام فريق من عماله بتظاهرة حملوا لها الأعلام، ثم جالوا في الأسواق منشدين.. إن العمال يشيدون بناية التضامن، وما أحسن ما يفعلون».

١٩٢٥/٥/٢

وقالت «زحلة الفتاة»: «طلعت شمس البارحة على العالم والعمال تترنح أعطافهم في عيدهم ويقيمون مهرجاناً ما بعده مهرجان إجلالاً لشريعة العمال المقدسة التي ما بعدها شريعة، وتأييداً لمطالبهم التي يطلبونها من سادتهم الرأسماليين».

١٩٢٥/٥/٢

وقالت (الصحافي التائه): «وسرّ الناس من حركة جميلة كهذه تعد خطوة وسيعة نحو خلع العمال والفلاحين نير الرأسماليين والملاكين.. وهذه الجريدة تشترك بكل قواها مع الرفاق في عيدهم».

لم يكن مهرجان الكريستال فريداً من نوعه بالجمهور الذي حضره وهو من الكثافة بقدر كبير، بل وفي محتوى الخطب، وشجاعة الخطباء المفعمين بروح النضال من أجل التغيير، من أجل دعم حقوق العمال الذين يبنون صرح الشعب ومجد الأمة. فيهم وفي ظلامهم قال الياس أبو شبكة في قصيدته الخالدة التي ألقاها في ذاك الاجتماع:

«في موطني شعب يباع بقبضة	شعباً يقيم على ربى أجداده»
«يجتر عن ظمأ نطاق دمائه	ويريش نبلته على أجباده»
«من يسترق شعباً يعيش بماله	فلتبصق الدنيا على الحاده»

وفي قصيدة له «انشودة العمال في شهر أيار» وقد نشر محمد دكروب في «جذور السنديانة الحمراء» بعضاً من أبياتها ننقل منها ما يلي:

«أقبل الظبي على ذاك الفتى	مسترقاً فيه قلب الرجل»
«وأراه منجلاً في يده»	قائلاً: سر الهوى في المنجل»
«هوذا المنجل فاطلب عملاً	إنما المنجل رمز العمل»
«شارك العمال في مهنتهم	واجتهد في كل أمر تصل»
«إنما العمال أركان إذا	هبطت يهبط مجد الدول»
«إن ترم تهوى غزالاً فاقترن	قبل هذا بعروس العمل»

ونظم الشاعر الكبير الاستاذ ميشال أبو شهلا قصيدته بمناسبة يوم أول نوار بعنوان « العامل » ومطلعها :

« كن مجيراً يا صاح أو مستجيرا — راحة العيش أن تنام قريرا »
« ليس فرق بين الأسرَّة سيَّان — أكانت هشائماً أم حريرا »
« اطرد الهم تلو همّ كأني — أقطع العمر للشقاء أسيرا »
« ليت شعري، وما أتيت فريّا — كيف ألقى لشقوتي تفسيرا »
« أنا كالعامل الذي همه أن — يُتقصّى تحت التراب الجذورا »
« يحمل المعول الثقيل ولا يدري — أعمراً يفته أم صخورا »
« يمقت الواردين في زحمة الرزق — يزلّون أرؤوساً وظهورا »
« وارفع الرأس لا تبالي بجاه — وغنّى كان سبّة وفجورا »
« واحمل الرفش إنه لوحة — نحن رسمنا فيها الجمال نضيرا »
« إننا نزرع الحياة جمالاً — وهناءً خصباً ومهداً وثيرا »

ويختمها

« يا رفيق الحياة انا تآخينا — هموماً وفكرة وشعورا »
« معول قيل، أو يراع أديب — فكلانا نجم يضيء منيرا »

وفي أول نوار سنة ١٩٣٩ نظم الشاعر ميشال طراد قصيدة بعنوان « ونحنا المعاول » ننشر بعضاً من أبياتها :

يا معاول الدنيا الفقيري يا نسور
عمترمح بها الجو، وتفقش نور
هالقبب الخضرا، يا فردوس الهنا
المنكسي روسا عاجريكي العصور
يا معاول طيب يا عروق الحياة
يا صبح يدفق شمس يدفق شلالات
والناس مثل عالمبيغنوا واق واق
مثل الضفادع بين المستنقعات
يا ملوك الظلم يا عروش الحرير
مش هيك شرع الكون بكرا راح يصير

ولا هيك راح بتضل مركبة الدني

مثل ولي عمبتجرها عقول الحمير

وفي مناسبة أخرى من أول أيار نظم الشاعر ميشال طراد قصيدة بعنوان « بيارق حمر »، ننشر بعض أبياتها:

إلنا أكبر حلم أقوى من الرياح

وأوسع من شعاع الشمس، وقت الشروق

قوموا نضج الليل ونهز السلاح

بوجه الكون، هونيك، في إلنا حقوق

* * *

قوموا تحنا الشوك نهجم عالورد

ونفلت دبابير بوجه الكروم

تنفضي يا بلادي بكرا نعود

تمدد جرينا عاجبين النجوم

* * *

قوموا نكنس هالتلال البايخا

وننشر بيارق حمر عاروس الجبال

ونحرق الشجرة الغصونا .شايخا

ونغرس شجر يعطي للبلاد غلال

في أول نوار سنة ۱۹۳۸ أصدرت « صوت الشعب » عدداً خاصاً ملوناً بالأحمر وبـ ۱۲ صفحة، وبضمنه قصيدة لرئيف خوري بعنوان « يا كنوزاً للعمل » مطلعها:

المسوا الفقر بأكواخ القرى

وانظروا الجهل بها منتشرا

والقرى نبع ثراء

وشـــرايــــــن دمــــــــــــــاء
ويـــــــد الفــــلاح والتـــــرب الخصيــــــــب
زادنـــــا البقــــــاء على اليـــــوم العصيــــــب

* * *

وختمها:

عقـــــــد الشعـــــــب علينـــــــــا أملا
فلنـــــــــذلـــــــــل للصعــــــاب السبلا
إن شعبــــــــــاً فـــــي الصعـــــــــاب
مــــــــن لــــــــــه غيـــــر الشبــــاب
الفـــــــوا الصـــــــــف وسيروا لانتصــــــــار
في يــــــد الشعـــــب لكـــــم اكليـــــل غـــــار

في العام ١٩٤٣ أقام الحزب الشيوعي بالتعاون مع بعض المنظمات الديمقراطية مهرجاناً كبيراً بمناسبة يوم أول نوار في «صالة الباريزيانا» في بيروت وخطب باسم الحزب الشيوعي فرج الله الحلو ونقولا شاوي، وألقى الشاعر الشعبي أسعد سابا قصيدة حول تحطيم الحصار على لينينغراد مطلعها:

ويـــــن الحصــــــار انهار وستــــالين ســــــاد
ومشـــاعـــــل الأحـــــرار ضــــوت عــــالبلاد
وتيمـــــوشنكـــــو حطمـــــك يـــــا زوبعـــــة
وكسر صليبـــــــك تحت عتبـــــة لينينغـــــراد

وألقى الأديب الكبير عمر فاخوري باسم عصبة مكافحة الفاشستية وجمعية الصداقة اللبنانية السوفياتية، خطاباً قيماً، ننشر منه ما يلي:

«لقد أتى علينا زمن في لبنان، وبين الطائفة والأخرى، بين أبناء دين وأبناء دين آخر، كالحدود التي تفصل وطناً عن وطن، كدنا نحتاج إلى جوازات سفر بين الطوائف والأديان، ونحن على يقين من أن نظاماً سياسياً ديمقراطياً صحيحاً لكفيل بأن يمحو تلك الحدود الوهمية المخجلة، المؤذبة

ككثير من الأوهام. ولا خسارة في ذلك على أحد اللهم إلا على نفر قلائل من المستثمرين الكسالى، نحن بحاجة إلى ما يؤلف ويجمع، لا إلى ما يفرق ويقطع».

«إن الوطنية تؤلف وتجمع. إن النظام السياسي الديمقراطي الصحيح يؤلف ويجمع. إن التطور الاجتماعي يؤلف ويجمع، كذلك عيد أول أيار، فهو يؤلف ويجمع. عيد العمل والعمال، عيد النضال في سبيل حقوق الأفراد وحريات الأمم على إطلاقها».

وختمه بالقول:

«طوبى لمن يأتي إلى النيابة محولاً على اليد العاملة القوية النظيفة».

وفي العام ١٩٤٥، أقيم مهرجان في يوم أول نوار، في كازينو بطرس ـ الدورة تكلم فيه فرج الله الحلو ورئيف خوري وختمه مصطفى العريس بخطاب. وتضمن خطاب فرج الله الحلو دعوة إلى التضامن والتعاون لمجابهة المهمات الوطنية بعد الحرب، قال: «إن تلك المهمات لا يمكن أن يضطلع بأعبائها حزب واحد، أو تنفرد بتحقيقها كتلة واحدة، أو جماعة سياسية معينة في الحكم أو في المجلس النيابي. وقال: إن الحزب الشيوعي اللبناني يمد يده للتعاون مع جميع الوطنيين الصادقين في الأحزاب اللبنانية وفي المنظمات وخارجها».

وفي العام ١٩٤٦ أقيم مهرجان أول نوار في كازينو سعادة ـ الدورة حضره عشرون ألف شخص ختم فيه فرج الله الحلو مركزاً على الوحدة النقابية ومما قاله: يا عمال لبنان إن عليكم واجباً وطنياً عظيماً، فوحدة نقاباتكم هي أساس الاتحاد والاخاء الوطني بين اللبنانيين. وهي أيضاً عامل عظيم من عوامل تطور الديمقراطية في لبنان، وهي عامل من أكبر عوامل التعاون والتضامن بين الشعوب العربية، في سبيل الاستقلال والسيادة والتحرر من الاستعمار. ووحدتكم هي أساس رقيكم ورفع مستواكم واحترام كرامتكم وتحقيق مطالبكم. فاحرصوا على وحدتكم كما تحرصون على نور عيونكم.

هكذا احتفل الأولى والآخر بعيدهم بأول نوار كأمجد يوم ثوري في التاريخ، هذا اليوم الذي كان ولا يزال مناسبة تاريخية وسياسية واجتماعية، لطرح المطالب، والاستعداد لمعارك نضالية جديدة من أجل التغيير، نحو الأفضل، نحو التطور والتقدم في مختلف المجالات.

الخلود، لمن سبقنا، لواضعي اللبنات الأولى في صرح بناء أول نوار، والمجد للذين استشهدوا في هذا السبيل، والعمر المديد للذين يقتفون آثارهم اليوم، ويرفعون بأصالتهم الثورية، وتطلعاتهم العلمية، راية أول نوار، وكل آل هذا اليوم العظيم في بلادنا والعالم.

بلاد جبيل
مهد العاميات والانتفاضات الشعبية

إذا عدنا قليلاً إلى الوراء وليس إلى العهود القديمة، حيث كانت جبيل « بيبلوس » تتمتع بتلك العظمة والأبهة، بل إلى مطلع القرن التاسع عشر، وكيف تمكنت بلاد جبيل من احتلال المركز المرموق الذي حصلت عليه، فاستثنيت ومعها بلاد البترون، من خانة الأقضية، والمناطق، والمديريات وأطلق عليها اسم « بلاد » تقديراً للمركز السياسي الذي احتلته وللقدرة الاقتصادية التي تمتعت بها، باعتبارها أكثر المناطق انتاجاً للشرانق.

والجبيليون القدامى، وبخاصة من برز منهم من أدباء وكتاب، أبوا عندما كانوا يتحدثون عن محيطهم إلا أن يقولوا، لا قضاء جبيل، بل بلاد جبيل. وأنا واحد من هؤلاء المتشبثين بهذا الاسم الذي لم تحصل عليه المنطقة الجبيلية، لقاء دفع عشرين « عملية » للباشا، بل استحقته عن قدرة وجدارة، فرضها الأهالي، وأكدتها قدرتهم الانتاجية وبخاصة في اثناء عز التوت، وتربية دودة القز التي طالما قالوا عن موسمها « ممزق الدفاتر ». أي إن الفلاحين كانوا يتمكنون، بفضل مدخول موسم الشرانق من دفع ما عليهم من ديون لتجار المدينة.

لن أعود إلى الحرف باعتباره صنع على الشاطىء الجبيلي، ولا إلى أولئك الذين يتغنون به لأنهم جابوا البحار، وقطعوا الاقيانوسات، واشتهروا بأنهم من أمهر البحارة، بل أود أن أركز على قيمة بلاد جبيل النضالية، الكفاحية، من أجل الدفاع عن حقوق الفلاحين، ورفع راية الحرية الشخصية، وإسقاط الحكم الإقطاعي.

إن عامية لحفد سنة ١٨٢١ ستبقى صفحة مشرقة في تاريخ بلاد جبيل، ولا تمكن مقارنتها بأي عامية، اللهم إلا بعامية كسروان سنة ١٨٥٨، حيث أعلنت الجمهورية وبدأ قصاص المذنبين من الاقطاعيين المشايخ. إن « شير العامية » الواقع في خراج قرية « جاج » المقابل للحفد، سيبقى إلى الأبد رمزاً للصمود، والتصدي للظلم، فعلى سطح هذا « الشير » التقى الألوف من القرى الجبيلية والبترونية والفتوحية من مسيحيين ومسلمين، هبوا يتصدون لجيش بشير الشهابي، ولولا الدعم الذي لقيه من حليفه بشير جنبلاط لما كان له أن يحقق أي نصر ولارتد على أعقابه منكوداً.

العاميون لم يستسلموا، فمن بقي انسحب نحو الساحل باتجاه « عمشيت » والسلاح بأيديهم، وآخر معركة لهم كانت مع جيش المير الشهابي، في جبل « غرفين » المتاخم لعمشيت.

انتصر المير بشير، ولكن بلاد جبيل لم تحن الرقاب.. وراحت الأجيال المتوالدة اللاحقة ترشف من معين تاريخ أبائها وأجدادها روح النضال والثورة على الظلم والطغيان.

وإذ كان « المكارية » هم العمود الفقري لعامية لحفد سنة ١٨٢١ ، باعتبار أنهم كانوا يمتلكون وسائل النقل، فهم الذين كانوا ينقلون القمح إلى المطاحن، ليطحن ويعاد إلى الفلاحين طحيناً، وهم الذين كانوا ينقلون المواسم وأهمها الشرانق إلى الكراخين في « المتن » والشوف. هذه الميزة جعلت منهم فئة مميزة لها قدرتها ووزنها في المجتمع، وهذا بوأها القدرة على التوجيه والريادة في عامية لحفد الخالدة.

إذا كان المكارية هم روح عامية لحفد، فإن الأدباء والكتاب الذين نشأوا في بلاد جبيل بعد منتصف القرن التاسع عشر، وفي أوائل القرن العشرين، حملوا راية الكفاح في سبيل الحرية، سواء هنا في لبنان، وفي بلاد جبيل بالذات، أم في عالم الاغتراب. ونشير باحترام وتقدير إلى الأديبة الصحافية بنت حاضرة الثقافة عمشيت السيدة عفيفة كرم. حملت عفيفة كرم لواء الدفاع عن حرية المرأة وكانت جريدة « الهدى » النيويوركية المنبر الذي استخدمته لنشر أفكارها الحرة. وجدير بالذكر إيراد بعض ما تضمنه جوابها إلى العلامة محمد جميل بيهم حول « المساواة بين الرجل والمرأة »، وكان ذلك بين سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ . فقد ركزت الكاتبة الكبيرة على ضرورة تعلم المرأة، لتتمكن من تمزيق براقع الجهل والتخلف؛ وتناولت الأوضاع في ثلاث حالات: المرأة كزوجة، والمرأة كأم، والمرأة كشريكة تجارية. وختمت الأديبة الكبيرة جوابها بالقول: « فإذا ضحيت أخلاق بضع نساء فهم الحرية وذلك من أجل جميع النساء كان ذلك ألف مرة أفضل من أن نضحي الجنس كله خوفاً من تلك الضحية الزهيدة. فالأحجار الكريمة كثيراً ما يكسر بعضها تحت الصقل. فهل يقول عاقل بوجوب ابقائها في معادنها خوفاً من خسارة ذلك البعض؟. »

وبرز الأديب اللبناني الكبير مارون عبود. وكانت مطبعة وجريدة الحكمة التي أسسها سليم بك وهبة سنة ١٩٠٩ . وبذات الوقت تأسست « المدرسة الوطنية » لصاحبها المربي الكبير أديب لحود، كواحة للثقافة العربية في البستان الجبيلي الخصب. كانت « الوطنية » لبنانية الشكل، عربية المضمون، وقد وقفت بوجه التعاليم الاستعمارية التي كانت تمارسها الارساليات الأجنبية، ولا سيا مدارس « الأخوة المريميين » و « الجزويت ».

ونشأ رعيل آخر من الكتاب والأدباء المجددين في بلاد جبيل حملوا راية التقدم والتحرر، والتغيير، كروفايل لحود الذي أسس سنة ١٩٢٧، مع نسيبه وصديقه الأديب العلامة الكبير عبد الله لحود، جريدة « بيبلوس » التي كانت تصدر في جبيل.

ونشأ في بلاد جبيل اعلام في الأدب والشعر، فكانوا بما أنشأوه، من كتب، ومقالات، وأبحاث في الصحافة من أخلص العاملين لرفع راية العروبة المتحررة في لبنان، كسليم عازار، ورشيد سليم الخوري (الشاعر القروي)، وشقيقه قيصر الخوري (الشاعر المدني)، ونعمة مشرق،

وحنا نمر، والشيخ حنا خير الله، ونسيب عازار. وهناك شاعر كبير نظم بالفرنسية، فعمّق وأبدع، ولكن حقه مغموط وهو اميل لحود عم الصحافي الكبير روفايل لحود. كما عرف لبنان والعالم العربي أديباً كبيراً، وشاعراً ضليعاً، هو الخوري يوسف الحداد.

وفي المجال الصحافي يذكر أحد روّادها المرحوم خليل فرج من قرية «المنصف» الذي أنشأ سنة ١٩٠٧ مجلة أسماها «المنصف» وكان يخطها باليد لعدم توفر المطبعة.

هذه اللوحة تعطي فكرة عن أن بلاد جبيل، ليست بلاد «عاميات» وانتفاضات شعبية وحسب، بل هي بالاضافة إلى ذلك منبت لأهل القلم، ومنطلق لرجال الفكر الذين أرّثوا للبنان أمجد الصفحات وانصعها.

إن «عامية لحفد» وما حصل حولها من التفاف شعبي، وصمود حازم أبداه العاميون، إن على ضهر «الشير» أم في اثناء تراجعهم والسلاح بأيديهم، أم بالتضامن الذي تمّ بين جميع الطوائف، «العامية» تلك كانت منطلقاً لتفتيت الحكم الإقطاعي، ومؤشراً لزوال حكم العائلة الشهابية الذي استشرى في ارتكاب الموبقات، خلال حكم بشير الثاني الظالم.

مولود جديد

في شهر أيلول سنة ١٩٣١ عرفت بلاد جبيل حدثاً كان متواضعاً بحد ذاته، لكن ذوي البصر والبصيرة أدركوا أهميته المستقبلية في تطور بلاد المنطقة ومدى تأثيره على المناطق اللبنانية الأخرى.

هذا الحدث هو ولادة حزب شيوعي في المنطقة. الرفيق فؤاد الشمالي أمين عام الحزب الشيوعي وبحضور خمسة شبان لبوا دعوة كبيرهم فرج الله الحلو، وهم: فرج الله الحلو، جورج جبور، توفيق نجم، حنا نمر، ويوسف خطار الحلو.

في مكان منزو بخراج قرية «عمشيت» وعلى شاطىء قرية «الريحانة» وعند مكان يدعى «الزغرين» بالقرب من «نبع جورة سعيد»، وبعد نهار أمضيناه مع الشمالي في حديث مستفيض مشوق، فؤاد يطرح قضايا، ونحن نسأل، وهو يجيب. وبعد ساعات سادها حوار بناء، عقدنا الخناصر وأسسنا حزباً شيوعياً في بلاد جبيل، وهو امتداد للحزب الشيوعي اللبناني، وانتخبنا فرج الله الحلو سكرتيراً للمنظمة، وعاد كل منا إلى بيته، حاملاً في صدره أكبر الأماني، وأعظم الآمال، وذلك لأنه أولاً أصبح شيوعياً، أي أنه أصبح انساناً مسؤولاً يناضل من أجل التغيير الاجتماعي والتحرر الوطني. وثانياً لأنه عرف بأنه واحد من عائلة الكادحين في بلادنا. وثالثاً لأنه

أصبح واحداً من الجيش الشيوعي اللجب المنتشر في الكون، والذي أصبح يستند إلى دولة تشكل مساحتها سدس مساحة العالم، دولة العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين، الاتحاد السوفياتي.

إن ظهور فرج الله الحلو كقائد شيوعي في بلاد جبيل كان حدثاً كبير الأهمية لعوامل عدة. كان فرج الله يتمتع بميزات شكلت رسمالاً ضخماً للحزب لا في بلاد جبيل بل في لبنان. فعدا سعة اطلاعه، واتساع علاقاته الاجتماعية، كانت دماثة خلقه تضفي عليه صفة القيادة المحببة من جميع الناس.

فلفرج الله الحلو يعود الفضل باتخاذ المبادرة الجريئة لتأليف وفد من الفلاحين يحمل مطالب أبناء المنطقة إلى السلطات المنتدبة. كان ذلك سنة ١٩٣٤. وقد تم انتخاب المندوبين في اجتماعات وسهرات واسعة في القرى. ومن هؤلاء المندوبين انتخب وفد كلف بحمل المطالب التي اتفق عليها في الاجتماعات المشار إليها، إلى السلطات العليا، أي إلى المفوض السامي الفرنسي في بيروت. وفي الوقت المحدد حمل الوفد - وكان لي شرف عضويته - العريضة المتضمنة المطالب المشار إليها، ونزل إلى بيروت وقابل المختصين في المفوضية الفرنسية العليا وكان لهذا العمل صدى واسع. وقد نشرت الصحافة، ولا سيما جريدة «المساء» وجريدة «البلاد» العريضة المتضمنة مطالب فلاحي بلاد جبيل.

هذا الاسلوب من العمل كان بحد ذاته شكلاً من أشكال اللجان الشعبية التي تمثل قولاً وفعلاً جماهير الفلاحين، وتناضل لتحقيق مطالبهم الاجتماعية والحياتية على تنوعها.

وإذا أخذنا شركة حصر التبغ والتنباك نجد أن أوسع وأعمق وأعنف النضال ضدها جرى في بلاد جبيل. فمنذ اليوم الأول لإعلانها في أول آذار سنة ١٩٣٥، رفعت جماهير الفلاحين الجبيليين، بالتعاون مع الشيوعيين وبقيادة فرج الله الحلو، النضال ضد الاحتكار، واتخذ هذا النضال شكلين: جمع تواقيع على عرائض شعبية، وإضرابات عن تسليم المحصول احتجاجاً على الأسعار المنخفضة التي فرضتها الشركة الاحتكارية، وضد الغرامات التي تجاوزت أحياناً ثمن المحصول.

إن الإضراب الذي أعلنه مزارعو التبغ في بلاد جبيل في شتاء سنة ١٩٣٨ ضد الاسعار ا‍ ‍ضة، والمظاهرة التي تخللته ودامت أكثر من أسبوع كامل، هما بالحقيقة «عامية شعبية» فلا البرد «الشباطي» القارس، ولا الجوع حالا دون نزول المزارعين إلى جبيل ليشاركوا في المظاهرات، وقد اضطر العديد منهم إلى البقاء يوماً ويومين دون أي طعام لعدم توفر ثمنه معهم. بالرغم من ذلك ظلوا مشاركين المزارعين في النضال دون أن يتسرب إليهم خور.

وحركة الجماهير في غمار نضالها تخلق ما لا يمكن التفكير به في الظروف العادية. الجماهير هذه اقترحت تشكيل قيادة لها، وكانت الدعوة للتجمع في جبيل المدينة، حيث تم انتخاب لجنة قيادية من بضعة عشر مواطناً، منهم فرج‌الله الحلو، اسكندر وهبة، عبد الله لحود، اسكندر فتوح وسواهم.

وفي بلاد جبيل جمع الشيوعيون مع مزارعي التبغ أكثر من عشرة آلاف توقيع من الراشدين على عرائض ضد ظلم ونهب شركة الريجي. ولم تبق قرية جبيلية يتعاطى أهلها زراعة التبغ، إلا وعرفوا الشيوعيين يقطعون المسافات، ٥ - ٦ ساعات مشياً على الأقدام، في النهار والليل على حد سواء ليجمعوا التوقيع باستنكار المظالم التي تطبقها شركة الريجي بحق المزارعين.

□□ ومن أبرز مظاهر النضال ضد شركة الريجي، اعتقال الحاضرين في اجتماع عقد في قرية «شيخان» في الخمسينات، وكان الاجتماع مخصصاً للبحث في تدابير عملية لوضع حد لمظالم شركة الاحتكار وعدم التجديد لها وقد سيقوا إلى بعبدا، وحوكموا، وصدرت الأحكام ببراءتهم مما نسب إليهم.

ولم يكتف المواطنون الجبيليون بهذا. ففي قرية «بجة» اقتحم موظفو شركة الريجي (الجلاوزة) يرافقهم عدد من درك مخفر جبيل البيوت لتفتيشها عن التبغ. فتصدى لهم شباب «بجة» المليء بالعنفوان، ودارت بين الفريقين معركة. فارتد الجلاوزة ومن معهم من الدرك على أعقابهم. وفي حينه نظمنا وفداً من الساحل الجبيلي، زار بجة مهنئاً من جهة، ومبدياً تضامنه معهم من جهة أخرى. إن ردة الفعل ضد شركة الريجي تحولت في «بجة» إلى عامية شعبية، وتخلى الجميع عما بينهم من حساسيات، وشكلوا بتضامنهم متراساً ضد الشركة، الاحتكارية.

ونضال شعب بلاد جبيل من أجل مياه الشرب، وقد استمر أكثر من ٢٥ سنة، وقد شمل عشرات الألوف من أبناء بلاد جبيل، إنما اتصف بصفة «العامية»، إن اجتماع معاد سنة ١٩٤٦، والاجتماعات اللاحقة، وبخاصة في الستينات ومطلع السبعينات، وتشكيل لجنة المياه، وكان له أبعد الأثر، ولقي أوسع التأييد من جماهير المنطقة. ولم يكن الشيوعيون وحدهم في معركة المياه، كما في المعركة ضد شركة الريجي قبلها، بل إنهم عملوا مع جميع المواطنين من مختلف الميول والاتجاهات وأدى هذا النضال إلى انزال المسؤولين عن غطرستهم وتحقيق بعض المطالب. والعميد ريمون إده قالها بكل صراحة عندما زار «أفقه» ورأى غرفة المياه التي انشئت هناك أمام جمع كبير، «تأكدوا أنه لولا الشيوعيين لما كنتم حصلتم على ما حصلتم عليه، وهذه الغرفة لم يكن لها وجود».

إن فخر بلاد جبيل أنها لم تسر في ركاب الاستعمار الفرنسي وعلى امتداد سيطرته هنا مدة ٢٧

سنة لم يتمكن الاستعمار الفرنسي من إقامة عمالة في بلاد جبيل. لقد حاول الاستعمار الفرنسي أن يفيد من بعض الرموز لتقوية مركزه ولكنه فشل. مثلاً حاول الإفادة من قبر هنرييت رينان في عمشيت. ولكن أهالي عمشيت والمثقفين منهم بخاصة، نظروا إلى هنرييت رينان من طرف ثقافي محض. وعلى هذا الأساس تعاملوا مع الفرنسيين فلا هنرييت ولا أرنست رينان هما اللذان قدما شيئاً لعمشيت، بل عمشيت هي التي حضنتها، وسخت من أجلها، وأسكنتها في أعلى دورها، دار آل طوبيا زخيا.

لقد حافظت بلاد جبيل على اصالتها التاريخية كمأوى لكل مهان وملجأ لكل مضطهد، وإذا قيل قديماً «هنيئاً لمن له مرقد عنزة في لبنان» فكان الأصح أن يقال «هنيئاً لمن له مرقد عنزة في بلاد جبيل» وبخاصة في «عمشيت».

فلاحو ميفوق ينتفضون

بعد مئة وثماني عشرة سنة - ١٩٣٩ - انقضت على «عامية لحفد» المجيدة، اشتعلت بالقرب من «الشير» شير العامية للجهة الشمالية، في قرية «ميفوق» التي يملك أراضيها وبيوتها ومياهها، دير الرهبان، اشتعلت «عامية شعبية» قام بها الفلاحون في سبيل استعادة حقهم بالأرض التي يعملون عليها. فصادر الفلاحون الغلال، ورفضوا تسليم الدير أي شيء. وقالوا الأرض أرضنا، والغلال هي من جنى تعبنا وعرق جباهنا، وليثبت «الدير» حقه بالملكية. فالأرض اختلست اختلاساً، وكل ادعاء بالملكية من الرهبان هو باطل. اضطروا لذلك لأن الدير كان يعمل لإجراء مسح على جميع أملاك ميفوق باسمه.

تقع ميفوق في المنطقة الوسطى الجردية الشمالية من بلاد جبيل. وهي تعتبر مع قرية «القطارة»، قرية واحدة. ومنازل القريتين متلاصقة متشابكة وعائلاتها واحدة، وكنيستها ومدافنها واحدة، وبتبع «ميفوق» مزرعة صغيرة تدعى «كفر شللي».

أراضي ميفوق مشهورة بخصوبتها، وهي مع ما فيها من ينابيع، وخيرات وخصوبة، ملك للرهبنة اللبنانية المارونية، وبالتحديد للدير القائم في القرية والعائد لهذه الرهبنة. وكذلك هي الحال بالنسبة لقرية «القطارة» ولا يملك الأهالي في القريتين شيئاً.

دخول الرهبان إلى قرية ميفوق يعود إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، في أثناء حكم المير يوسف الشهابي. وورد في أحد المراجع التي يحتفظ بها مواطن من جاج، أنه في ١٧٦٦، وهب المير يوسف «خرائب» دير سيدة ميفوق للرهبنة المارونية.

ولفظة «خرائب» تدل بوضوح على أن الهبة هذه لم تكن تشمل سوى ما تبقى من هذا الدير،

ولا تتعداه إلى ملكية القرية. وبخاصة أن الصك الذي أعطاه المير يوسف شهاب للرهبان يحدد أحد جوانب هذه الخرائب بأملاك « بو صالح الرقيبي ».

ودير سيدة ميفوق المعروف بكنيسة ايليج، كان قبل ذلك بحوالى أربعة قرون مقراً للبطريركية المارونية، وقد تعاقب عليه أربعة بطاركة، مما يؤكد أن ميفوق كقرية كانت قبل دخول الرهبان إليها.

وبعد أن استقر الرهبان في « خرائب » دير سيدة ميفوق شاركوا سنة ١٧٧٢ « شراكة شلش » بربع الملك على بعض الأملاك التي تخص الشيخ سرحال حيدر حمادة الكائنة في مزرعة « كفر شللي ». وشراكة الشلش هذه تتلخص بأن يستلم الرهبان الأرض بيضاء، فيتعهدوا بغرسها والاعتناء بها بفترة محدودة تجري في نهايتها قسمة وفقاً للاتفاق بين الرهبان وصاحب الأرض. فيمتلك الرهبان نصف أو ثلث أو ربع الأرض. وبالوقت نفسه اشترى الرهبان بعض الاراضي من الأهالي.

ولكن ملكية الرهبان التي عادت إليهم سواء بالمشترى أو بالقسمة كما ورد، لم تكن لتشكل إلا جزءاً ضئيلاً من ملكية القرية.

أهالي ميفوق يقولون بأن ملكيتهم لأراضي القرية ظلت قائمة حتى الحرب العالمية الأولى. وعندما بدأت السلطة التركية بفرض الضرائب على اللبنانيين، تململ أهالي ميفوق من شدة الارهاق. فعمد الرهبان إلى اقناع بعض الأهالي بتوقيع تنازل عن أملاكهم للدير ليتخلصوا من دفع الضرائب. فاقتنع عدد قليل بذلك، ورفض الباقون. عندها وضع الرهبان أختاماً للذين وافقوا على التنازل عند شخص من قرية « دوما » اسمه « مسلم ». ونظموا عريضة بتنازل جميع أهالي عن أملاكهم وختموها بهذا الخاتم.

أما الذين رفضوا التنازل، فقد وقع نيابة عنهم - دون تفويض - بعض مختاري القرى المجاورة. ويقول الأهالي إن هذه العريضة (صك التنازل) لا تزال موجودة لدى الدوائر العقارية في جونية.

وبعد قيام سلطة الانتداب الفرنسي، أخذ الرهبان يطبقون علاقات اقطاعية على الفلاحين وكانت شديدة الوطأة وقاسية، فأرغموا الفلاحين على استئجار الأراضي التي يستعملونها. وكانوا يأخذون ثلثي انتاج شجرة الزيتون. والذي يقوم بتخمين المدخول هم الرهبان ولا يقبل أي اعتراض على تخميناتهم. وشارك الرهبان الأهالي في انتاج النحل، بحجة أن النحل يجني العسل من الأزهار التي تنبت في أملاك الدير. وأكثر من ذلك قال أحد أبناء ميفوق إنه منع من بيع هره، لأن الدير يملك نصفه.

وقد فرضوا نظام السخرة على النساء والرجال والأولاد. فالرجال الزموا بالحصد في أملاك الدير بدون مقابل، لفترة محدودة بالسنة. ومن كان يمتنع عن العمل يلزمونه بدفع مبلغ معين من المال يحدده رئيس الدير.

أما النساء والأولاد فكانوا يرغمون على العمل في الدير مجاناً. أما «عيدية الريس» فكانت تذكر صراحة في عقد الشراكة أو الايجار، فهي عبارة عن مبلغ من المال أو الإنتاج يفرضه الدير على الشريك أو المستأجر. ويحدد المبلغ أو الكمية قبل حلول عيد الريس بأيام، ليصار إلى تقديمه يوم العيد بالذات. ولا تزال نماذج من هذه العقود محفوظة لدى الفلاحين.

وكان الرهبان يفصلون في الخلافات بين الفلاحين ويفرضون غرامات على «المذنبين»، وكانت هذه الغرامات تعود إلى الرهبان دون سواهم. كما وأنهم أنشأوا شبه حرس لتأديب من يخرج عن طاعتهم، وأحياناً كانوا يتولون هم هذه المهمة بأنفسهم. ويقول الفلاحون إن أحد الفلاحين قتل في أثناء الحرب العالمية الأولى لأن بقرته دخلت أملاك الدير.

وعند وفاة أحد الفلاحين كان الدير يلزم ذويه الذهاب إلى الدير لتقبل تعازي الرهبان ليسمح لهم بدفن فقيدهم في المدافن التي ضموها إلى أملاكهم.

لهذه الأسباب، وهي بعض من كل، انتفض فلاحو ميفوق سنة ١٩٣٩، وقاموا بعامية للدفاع لا عن حقهم بالسكن وحرية العمل في الأرض، وحصولهم على أتعابهم، فحسب بل وللحفاظ على بقائهم كبشر، يكدون وينتجون، ويطورون الاقتصاد اللبناني. وهذه المعلومات تجمع بعضها لدى في أثناء معركة ١٩٣٩، وبعضها، وهو الرئيسي، تلطف باعطائي إياه أحد الباحثين المدققين من قرية جاج الذي وقف هو وعائلته بجانب الفلاحين، وبخاصة في معركتهم الثانية سنة ١٩٦٧.

وفي العشرينات قال الاستاذ: أنشأ دير ميفوق مدرسة، وكانت تضم طلاب بلادي جبيل والبترون. وقد دخل أبناء ميفوق إليها. وقد أخضعوا لدفع الأقساط المدرسية كجميع التلامذة من غير ميفوق. واتخذت الإدارة تدابير مذلة بحقهم. فقد أفردتهم في قاعات خاصة للدرس، ومنعوا عن مخالطة زملائهم. وأحياناً كانوا يرغمون على العمل في أراضي الدير المجاور للمدرسة. واستمرت هذه الحال حتى منتصف الخمسينات.

وفي أواخر ثلاثينات القرن استيقظ أبناء ميفوق على الواقع الاجتماعي الذي يعيشون، وأخذوا، كما سبق وقلنا، يتمردون على أوامر الرهبان ويطالبون باعادة أراضيهم المسلوبة. فعمد الرهبان لتكريس ملكيتهم، بالاتفاق مع سلطات الانتداب، إلى استقدام لجنة المساحة للقيام بعملية مسح

للأراضي باسم الدير. وقد تم ذلك، فمسحت أراضي ميفوق كلها، ومعها أراضي «القطارة»، على اسم الرهبانية المارونية البلدية، بما في ذلك الأملاك العامة وأملاك الدولة، من أنهار وطرقات عامة. وليكون المسح قانونياً طلب القيمون على الدير من مختار ميفوق التصديق على محاضر المساحة وفقاً لمشيئتهم. وقد رفض المختار الانصياع لهذا الطلب الذي يعني نزع يده، وأيدي أبناء قريته عن أملاكهم، وقد لجأ القيمون على الدير إلى حيلة دنيئة، فطلبوا أحد أبناء المختار وهو راهب، أن يتظاهر بالجنون، لإيهام والده بأن كنيسة «السيدة» هي التي فعلت به ذلك لأن والده المختار رفض الاعتراف بملكية الدير لأراضي ميفوق، فانطلت الحيلة على المختار، ووقع محاضر المساحة. وفوراً عاد ابنه الراهب إلى صوابه.

وقد اعترض فلاحو ميفوق على أعمال المساحة وأقاموا الدعاوى، ولكنها ردت، وثبتت ملكية الدير.

بعد صدور الأحكام، وكان ذلك في أواخر العام ١٩٣٩، كما ورد، أصبح المجال واسعاً أمام ادارة الدير للانتقام من الفلاحين، وبخاصة أولئك الذين أبدوا حماسة في معارضتهم. فاستعان الرهبان بأشخاص من إحدى القرى المجاورة للمساعدة على هدم ما يزيد عن عشرة بيوت للفلاحين. وقد تم ذلك بحماية أفراد الدرك دون أن يكونوا مكلفين بذلك.

وفي ليلة شتوية باردة عمد الأشخاص المأجورون إلى اخراج الفلاحين من بيوتهم، ورموا أغراضهم خارجاً، وهدمت البيوت أمام عيون ساكنيها. وإن الرهبان حذروا الذين يأوونهم من سكان ميفوق، بأنهم يعرضون نفوسهم للمصير نفسه.

وتحت وطأة التأثير، والعذاب، أصيب فلاح بجنون. كما أن آخرين توفوا، بينهم فلاح كان مصاباً بالحمى أخرج من منزله بالقوة ووضع تحت شجرة توت وهدم منزله. وآثار المنازل المهدمة ظلت ظاهرة للعيان حتى العام ١٩٧٠. ومعظم الفلاحين الذين بقوا في ميفوق أبدلت منازلهم. ولم يترك واحد منهم في منزله، وذلك لإخفاء جميع معالم ملكية الفلاحين.

وفي بداية الخمسينات بدأ بعض الذين هجروا من ميفوق يعودون إلى قريتهم بهدف شراء مساحات صغيرة من الأرض لبناء بيوت عليها. ولكن الدير رفض بيعهم أراض داخل القرية، بل في منطقة صخرية بعيدة عنها، وبصكوك بيع عادية، دون أي فرز، أو تسجيل وفقاً للأصول القانونية.

عامية جديدة سنة ١٩٦٧

في مطلع صيف العام ١٩٦٧، وبإلحاح من رئيس دير ميفوق، افتتحت أعمال التحرير

الإلزامية. وقد سبق ذلك توجيه انذار إلى عدد كبير من الفلاحين لإخلاء منازلهم. وأرسلت لجنة المساحة لفصل أملاك الدولة. عندها احتج الفلاحون على هذه التصرفات، ولا سيا وأنهم تأكدوا أن الرهبنة تريد اجراء مسح جديد يثبت ملكيتها، وأكد ذلك توجيه الانذارات إلى الفلاحين قبل ذلك بمدة.

أمام هذا الواقع عقد الفلاحون عدة اجتماعات، وقرروا الطلب إلى رئيس الدير أن يبيعهم المنازل التي يسكنون فيها. فرفض هذا الطلب. فطلبوا منه بيعهم أراض لبناء مساكن عليها فرفض الريس هذا الطلب، وأعلمهم بأن الأراضي التي بيعت سابقاً لن يعترف بملكيتها لمن اشتراها، وسيشملها المسح على اسم الدير، وأنه لن يعترف بالتحسينات التي أدخلها الفلاحون على بيوتهم. واستنجد الفلاحون بالسفير البابوي، وأتى هذا إلى ميفوق، ولكنه اصطدم بإصرار الدير فعاد كما ذهب.

هنا قرر الفلاحون منع أعمال المساحة، ومقاطعة الدير، والامتناع عن تسديد ما كان يفرض عليهم من إيجار، وحصص في المداخيل، كما ترك عمال الدير أعمالهم وانضموا إلى الفلاحين أبناء قريتهم. وقد أصبح الرهبان في عزلة تامة.

إزاء هذا، طلب رئيس الدير من الحكومة ارسال قوة من الدرك معززة بالمصفحات لحماية أعمال المساحة. فأتى العديد من الدرك، ولكنهم اصطدموا مع الفلاحين ووقع جرحى من الفريقين، وتوقفت أعمال المساحة.

حاول رئيس الدير الاستعانة بالقرى المجاورة لمؤازرته زاعماً أن الفلاحين يريدون سلب الوقف أملاكه بالقوة. ولكن وعي الأهالي حال دون ما كان يؤمله الريس، ولم يلبوا طلبه، بل وقف عدد كبير منهم بجانب الفلاحين.

فاستنجد رئيس الدير ببعض المتهورين من إحدى القرى المجاورة مستغلاً جهلهم لحقيقة موضوع القضية بين الفلاحين والدير. وفي أواخر صيف ١٩٦٧ جيء بهؤلاء إلى ميفوق. وسبق ذلك تدبير حيلة خسيسة، إذ عند وصولهم إلى ميفوق، وهم أكثر من خمسين شخصاً مسلحاً، اخذوا يطلقون النار، فسقط ثلاثة جرحى من هؤلاء بحالة الخطر. وتجمع المسلحون في الدير وبدأوا بإطلاق النار. وعند حلول الظلام انسحبوا وعادوا إلى قريتهم.

بعد هذا الحادث تجمدت القضية لغاية العام ١٩٧٢، حيث بدأ الدير تحت وطأة ضغوط المزارعين والتفافهم المتزايد بفرز العقارات الصغيرة التي تتراوح مساحة القطعة منها بين ٥٠٠ متر والـ ٧٠٠ متر لبيعها من المزارعين الذين ينتقونهم هم لبناء منازل عليها. فأقدم بعض الفلاحين على

الشراء وأحجم البعض مصراً على شراء البيوت التي يسكنها الفلاحون.

إن فلاحي « ميفوق » ينظرون إلى هذه القضية بأنها ليست قضية امتار من الأرض، بقدر ما هي قضية حق وكرامة، وهم لا يزالون يعتبرون مشكلتهم مع الدير قائمة. فالأرض هي لهم. ولا بد من أن يأتي ذلك اليوم الذي يقيم فيه شعب لبنان نظاماً ديمقراطياً من أبرز مقوماته القضاء على بقايا الإقطاعية، وإعطاء كل ذي حق حقه من الفلاحين الذين يعملون على أراضي الغير، إن بالحصة أو بالضمان الاستثماري.

لقد أعطى أهالي ميفوق مثلاً في التضامن والوحدة بوقفتهم الجريئة لاستعادة أرضهم المسلوبة. وإذا كان الحكم الذي شد أزر الدير، ومكّنه من كل ما هو بحاجة إليه لضياع حقوق الفلاحين، فإن الحقوق الطبيعية لن تضيع على أصحابها، ولطالما وجدت حالات عديدة مماثلة في التاريخ، حتى إذا توفرت ظروف سياسية واجتماعية معينة، أعيدت الحقوق لذويها، فجولة الباطل ساعة، وجولة الحق إلى قيام الساعة.

الوعي السياسي والفكري

إن الباحث في تاريخ بلاد جبيل، وبالتحديد من مطلع القرن التاسع عشر، لا بد له أن يلمس مظاهر الوعي السياسي لا في صفوف النخبة المثقفة من الناس، بل وفي أوساط الجماهير الشعبية المرتبطة بالانتاج. وعامية لحفد ضد الأمير بشير الشهابي، أليست دليلاً على الوعي السياسي والاجتماعي في أوساط الجماهير الشعبية؟.

عندما يقدم مواطن هو سليم بك وهبه من عمشيت على تأسيس مطبعة، وإصدار جريدة « الحكمة » سنة ١٩٠٩، ألا يدل ذلك على تحسس عميق بالوعي الاجتماعي والسياسي؟

وتأسيس المدارس في بلاد جبيل في مطلع القرن العشرين، ومنها المدرسة الشهيرة في جنوبي مدينة جبيل المعروفة بـ « مدرسة بيت شحادة »، ومدرسة « معاد » و « المدرسة الوطنية » في عمشيت. ألا يعني هذا الإقدام على نشر الثقافة والعلم، أليس هو مظهراً ملموساً للوعي السياسي والاجتماعي؟.

وظهور أطباء في بلاد جبيل قبل الحرب العالمية الأولى، كالطبيب يواكيم نخلة، والطبيبين الياس العنيسي ويوسف موسى بركات فرحات من جاج، والطبيب جرجي باز في جبيل، وجرجي سابا في شيخان، وحنا باسيل في غلبون، ومنصور كيرللس في الكفر، والطبيبين ملحم حسن ومخايل في المنصف، وفريد البدوي في عمشيت، هذا الرعيل من الأطباء الذي وجد قبل العام ١٩١٤ أليس برهاناً على أن بلاد جبيل تسير في مدارج الحضارة والتقدم؟

وعلى الصعيد الفكري والأدبي أليس بروز أدباء وكتاب كبار، لا في لبنان وحسب بل في العالم العربي، كالخوري يوحنا الحلو، ومارون عبود، والخوري يوسف الحداد، والخوري يوسف العمشيتي، وأديب لحود، وعبد الله لحود، وحنا نمر، والشيخ حنا خير الله، والشاعر القروي، وسليم عازار، ونسيب عازار، وفارس كلاب، وفكتور خوري، وأديب صعيبي وغيرهم ممن تبوأوا مراكز مرموقة في مجالي الثقافة والأدب، هذا الزخم أليس برهاناً على تحسس المواطن الجبيلي بوعي سياسي واجتماعي مميز؟

وليس هذا وحسب، فعلى الصعيد الصحافي برزت صحافة وصحافيون مرموقون في بلاد جبيل، ونذكر في هذا المجال جريدة «الحكمة» ٢٣ تموز ١٩٠٩، وجريدة «بيبلوس» سنة ١٩٢٧ في «عمشيت».

والحس السياسي والوعي الاجتماعي لا يتوقفان في بلاد جبيل على ما ذكرت. فقد رافق ذلك شعور، لم يلبث أن ترجم إلى عمل مادي أفضى إلى التفكير بتأسيس أحزاب ومنظمات سياسية.

يقول مصدر ثقة من عمشيت إنه وجد وثيقة تاريخية تشير إلى أن حزباً سياسياً تأسس سنة ١٩٢١ في عمشيت واسمه «الحزب العائلي اللبناني»، ونطاق عمله يشمل بلادي جبيل والبترون ولواء كسروان، ومركزه الرئيسي عمشيت، ومن مؤسسيه أسعد بك لحود، أحد كبار رجالات لبنان السياسيين في العهد العثماني، والمحامي يوسف كرم، والوجيه طانيوس بطرس كرم، والمرحوم زخيا طوبيا، ونجيب نعمه وغيرهم.

وورد في برنامج هذا الحزب، العمل على رفع مستوى الفقراء. ونص نظامه الداخلي، أنه إذا حل الحزب فإن المال المتجمع لديه يعود لأفقر أعضاء القيادة.

وعندما تأسس حزب الشعب اللبناني سنة ١٩٢٥، كان في عداد مؤسسيه الذين حضروا اجتماع الكريستال بمناسبة أول نوار، مواطن جبيلي من قرطبا هو المرحوم غطاس كرم.

وفي هذه الحقبة من العشرينات أسس الشيخ عزيز الهاشم من العاقورة «حزب الاستقلال الجمهوري» وهو حزب يطالب بالاستقلال بمساعدة فرنسا.

وفي العام ١٩٣١، تأسس في بلاد جبيل فرع للحزب الشيوعي برئاسة فرج الله الحلو. وفور تأسيسه أخذ هذا الفرع يعمل لإنشاء فرق له في القرى. وأصبح له قبل الحرب العالمية الثانية بضع فرق منتشرة في مشمش وغلبون، وحصارات، وبجعاز، وغرزوز، وجدايل، والمنصف، عمشيت وشيخان، والبربارة وحصرايل، كما وجدت عناصر شيوعية في قرطبا، والعاقورة، وميفوق، وجاج.

وفي العام ١٩٣٤ أنشىء فرع للحزب السوري القومي. كما أنشىء سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ فرع لمنظمة الكتائب، وفرع « للجبهة القومية » التي أسسها المحامي يوسف السودا.

ومع قيام الكتلتين المعروفتين، الكتلة الدستورية برئاسة بشارة الخوري، والكتلة الوطنية برئاسة اميل اده انقسم معظم أبناء بلاد جبيل بينهما. ففيما كانت عمشيت، وجاج، والعاقورة، وبجة مثلاً تتقدم بصف واحد إلى الانتخابات النيابية، سيطر التقسيم الذي أوجدتاه الكتلتان المشار إليهما وأدى هذا إلى كوارث عديدة.

وفي مطلع السبعينات وجدت منظمات ديمقراطية جديدة هي: حركة التحرر الديمقراطي، رابطة الشباب والطلاب، وجبهة الاحزاب والقوى التقدمية والشخصيات الوطنية. كما وجدت عناصر اشتراكية تقدمية في قرى عديدة لم تلبث في مطلع ١٩٧٤ أن شكلت فرعاً للحزب التقدمي الاشتراكي تتمثل في « جبهة الاحزاب والقوى التقدمية والشخصيات الوطنية ».

وعندما اعتدت اسرائيل على مصر سنة ١٩٦٧، انتظمت مظاهرة شعبية في جبيل مشى في طليعتها الشيوعيون والتقدميون ورئيس بلدية جبيل الدكتور انطوان الشامي، تضامناً مع رئيس مصر عبد الناصر وشجباً للعدوان الاسرائيلي.

والمواطن الجبيلي، بل اللبناني لا يمكن أن يزول من ذاكرته ذلك المهرجان الضخم الذي أقيم في ١٩ تشرين الأول سنة ١٩٧٤ في حصرايل بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال الشهيد فرج‌الله الحلو. أكثر من ٢٥ ألف نسمة ملأوا طرقات وسطوح وساحات وجلول حصرايل أصغوا على مدى ساعتين إلى خطباء من جبيل، ولبنان والعالم العربي، وبلدان العالم يتحدثون عن فرج‌الله الحلو وحزبه، وعن لبنان الواحد العربي الديمقراطي التقدمي.

الاحزاب والتشكيلات السياسية في بلاد جبيل

- سنة ١٩٢١ تأسس الحزب العائلي اللبناني كحزب محلي مركزه عمشيت.
- سنة ١٩٣١ تأسس فرع للحزب الشيوعي.
- سنة ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ تأسس فرع للحزب السوري القومي.
- سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ تأسس فرعان واحد للكتلة الوطنية والآخر للكتلة الدستورية.
- في القسم الثاني من الثلاثينات تأسس فرع لحزب الكتائب.
- سنة ١٩٣٧ تأسس فرع لـ « الجبهة القومية ».
- سنة ١٩٧١ تأسست حركة التحرر الديمقراطي
- سنة ١٩٧٣ تأسست جبهة الاحزاب والقوى التقدمية والشخصيات الوطنية، تمثل الحزب

الشيوعي، حركة التحرر الديمقراطي، الحزب السوري القومي الاجتماعي، الحزب الدستوري، حزب البعث العربي الاشتراكي، الحزب التقدمي الاشتراكي وشخصيات وطنية.

- في القسم الأول من عقد السبعينات وجدت عناصر من الحزب التقدمي الاشتراكي وشكلت فرعاً للحزب.
- بالوقت نفسه تأسس فرع لحزب البعث العربي الاشتراكي.

عمشيت

لعمشيت قدر مميز في النهضة الحضارية الحديثة في بلاد جبيل. وقد برز روّاد فيها أولوا قضية الثقافة والعلم اهتماماً كبيراً. فبالاتكال على تنوعهم وجهودهم الذاتية، تمكنوا من تحقيق منجزات رائعة تشكل صفحات مجيدة في تاريخ تقدم وتطور بلاد جبيل، سياسياً وثقافياً واجتماعياً.

وإذا كانت «جبيل» المدينة، هي عاصمة القضاء سياسياً، فإن «عمشيت» كانت بالواقع عاصمته الثقافية. أقول ذلك لا بدافع الحب الخاص الذي أكنّه لعمشيت، ولا للروابط التي تشدني إلى العديد من أبنائها عن طريق الصداقات، أو القربى، بل أقول ذلك لتبيان الحقيقة التي يجب أن تعلم وتعلن.

صحيح أن العلاقات الاجتماعية التي سادت عمشيت حتى أربعينات القرن، طبعت بطابع خاص ـ يختلف عما كانت عليه العلاقات الاجتماعية في بلدات وقرى منطقة جبيل، ساحلاً وجرداً. ففي عمشيت، ولعوامل تاريخية معينة وجد ملاكون عقاريون كبار في قطب. ووجد في القطب الآخر فلاحون يعملون على أراضيهم بالمحاصصة. هذه العلاقات المميزة لم تكن عمشيت بالذات مركزها الأساسي، بل العديد من القرى خارجها. والتي كانت ملكيتها تعود إلى ملاكين كبار من عمشيت، والعاملون فيها كانوا «شركاء» بالمحاصصة عندهم.

وفي صلب هذا الواقع نشأ تيار تحرري (ليبرالي)، ويعود الفضل في ذلك إلى أن العديد من أبناء كبار ملاكي الأراضي رادوا المدارس والمعاهد العالية، كمدرسة عينطورة، والحكمة، واليسوعية في بيروت، ومعاهد الحقوق والطب، والهندسة. ومنهم من حصل على العلم في فرنسا. وبعضهم تخصص في المحاماة، والطب. وتبوأ قسم منهم الوظائف الكبرى في الادارة المدنية والعسكرية. واشتهر عن الموظف العمشيتي بأنه لا يقطع، عندما يتبوأ وظيفة ما، مع محيطه ولا ينقطع عنه. فكان يحافظ على ما بينه، وبين أبناء بلدته، أو منطقته من العلاقات الطيبة.

عندما انتقى الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان وشقيقته هنريت عمشيت للسكن فيها، لم يفعلا ذلك عن عبث، وليست الصدفة هي التي دفعتها إلى ذلك. لكنهما بعد ما رأيا ولمسا المستوى

الحضاري الذي تتمتع به عمشيت، والدعة التي وجداها بأهاليها، والنظرة المنطلقة البعيدة عن ضيق الأفق، نحو الآخرين، أي نحو من ليس هو عمشيتياً، دون ما تفريق في الإقليم، أو البلد، أو الدين. بعدما رأى أرنست رينان وهنريت رينان هذا الواقع قررا جعل عمشيت مركزاً لاقامتها، وقد لقيا من شخصياتها البارزة كل تكريم وتعاطف، فأحسنت وفادته. وفيها توفيت هنريت. ولا يزال قبرها بالقرب من كنيسة البلدة الرعائية «السيدة» قائماً. وأصبح مزاراً عالمياً يدلف إليه الألوف من فرنسا والعالم الأوروبي.

فمن عمشيت بعث أرنست رينان وشقيقته هنريت بمجموعة من الرسائل بين عامي ١٨٦٠ - ١٨٦١ إلى صديقهما العالم الفرنسي الكبير مرسلين برتيللو، ونشر بعضها الاستاذ كميل أبو صوان في جريدة الأوريان في تاريخ ١٢ كانون الأول ١٩٦٥.

ويبرز في هذه الرسائل عنصرين مهمين، أولاً، الحكم القاسي على فظائع الحرب الطائفية (١٨٦٠)، ومن سعر نارها ونفذ جرائمها. فكتب أرنست إلى صديقه مرسلين في شهر تشرين الثاني ١٨٦٠ يقول: من هذه البلاد الجميلة الشبيهة بجبال الألب الضاحكة العطرة... لم يبقَ سوى جدران مهدمة.. ويستحيل تكوين فكرة عن مدى الدمار فيها. وكل ما قيل حول هذا الموضوع هو دون الحقيقة.. إنها جنة الله التي دمرها شيطان التتر الرهيب.

ولم ينس رينان عمشيت في رسائله. فقد أشاد بموقعها، وجمالها، وسحر أراضيها المغطاة بأشجار الكرمة والزيتون، والتوت، والنخيل، وبما تحلى به أهلها من البساطة وحسن الضيافة، والروح الديمقراطية، والبعد عن الطائفية.

وعبّر رينان بانفعال وتأثر وعرفان جميل لمضيفيه من آل زخيا وقد أبى عميدهم طوبيا زخيا، نقل رفات شقيقة رينان هنريت من مدفن عائلته.

وفي عمشيت برز أطباء ومحامون لامعون، وتجدر الإشارة إلى الدور الذي قامت به «المدرسة الوطنية» التي أنشأها المربي الكبير خريج مدرسة الحكمة، الاستاذ اديب لحود. فعلى «الوطنية» هذه تخرج العشرات من التلامذة الذين برعوا في ميادين العمل التي رادوها. فكان منهم لاحقاً الطبيب، والمحامي، والاستاذ في الأدب العربي. و «الوطنية» التي حاربتها الارساليات التعليمية الأجنبية، كالأخوة المريميين (الفرير)، غرست في أذهان تلامذتها الروح العربية. ويكفي دلالة على ذلك أن منشئها الاستاذ أديب لحود، ألف تاريخاً مدرسياً عربياً، هو «نيل الارب في تاريخ العرب» وكانت دراسته مادة أساسية معول عليها في «الوطنية». كان الاستاذ أديب يجوب القرى ممتطياً دابة لإقناع الأهالي بوضع أبنائهم في المدرسة «الوطنية»، واضعاً أمامهم شتى التسهيلات لأن

أبناء القرى لم يكونوا متحمسين لتعليم أولادهم آنذاك. وكانوا يفضلون أن يبقوا إلى جانبهم لمساعدتهم في أعمالهم الزراعية. وكان الاستاذ أديب يستوفي القسط المدرسي في فترات متأخرة. وغالباً ما كان يتم ذلك على الموسم، فيدفع ذوو التلامذة القسط نقداً أو عيناً، دون أن يلقى ذلك أي اعتراض منه. إن دور الوطنية لا ينسى في مجال مكافحة الأمية في قرى عديدة.

وبالرغم من الطبقية التي وجدت في عمشيت بحكم واقع العلاقات الاجتماعية المشار إليه آنفاً. كان لليبرالية مكانها المرموق. وتذكر في هذا المجال مواقف المعارضة لسياسة الانتداب التي تزعمها فرس بك لحود. وقد اعتقلته سلطات الانتداب سنة ١٩٢٦ في أثناء المعركة الانتخابية التي جرت على أساس الدستور الذي أعلنته سلطات الانتداب.

ومن أبرز ما يحفظه التاريخ لعمشيت وبلاد جبيل ولبنان تلك الخطوة الجريئة الشجاعة التي خطاها سليم بك وهبة، وهو أحد أثرياء عمشيت. وكان ليبرالي التفكير، ديمقراطي التصرف. ففي سنة ١٩٠٨، وعلى أثر اعلان الدستور العثماني وقد سمح الاتحاديون بممارسة قدر من الحريات الصحافية والتنظيمية، كان من نتائجها إصدار العديد من الصحف في لبنان، ونشوء تنظيمات سياسية مختلفة. في هذه الأثناء أقدم المرحوم سليم بك وهبه الشاب النشيط العصامي على تأسيس مطبعة في جبيل أطلق عليها اسم « المطبعة السليمية » وبذات الوقت أصدر جريدة كانت الأولى في بلاد جبيل هي « الحكمة »، وكانت يومية تصدر وبثماني صفحات، وكانت الوحيدة بين الصحف الصادرة في لبنان، آنذاك بهذا الحجم.

كان مؤسس « السليمية » ومنشيء جريدة « الحكمة » ذا تطلعات بعيدة النظر، دفعته لانتقاء رئيس تحرير لها هو الأديب الكبير ذو الافكار المتحررة المتقدمة، مارون عبود. كان مارون آنذاك أديباً وكاتباً ناشئاً، يتمتع بأسلوب كتابي جذاب، وبقدرة واسعة شاملة، على معرفة منطقته، بلاد جبيل، وبعادات أهالي قراها. وبذات الوقت كان يقرض الشعر، بالرغم من أنه ليس شاعراً. أوليس هو القائل في منشيء « الحكمة » الدمث الأخلاق المتواضع:

الدين والدنيا قد اجتمعا معاً	بسليم شخصك يا ابن وهبة فاجتني
لو كان شاهدك ابن مريم لم يقل	باب السما هيهات يدخله غني

يقول اسكندر بك وهبه، ابن المرحوم سليم وهبة، « كانت « الحكمة » منبراً لجميع أصحاب الفكر لا على الساحة الجبيلية وحسب، بل وعلى ساحة المتصرفية ». والرعيل الناشيء آنذاك من التلامذة وبخاصة، تلامذة « الوطنية » وبينهم العلامة عبد الله لحود، المحامي الكبير لاحقاً، وجدوا

على صفحات « الحكمة » متسعاً لهم للكتابة، إن نثراً أو شعراً. وقرض الشعر في ذاك الزمن كان صفة لازمة لكل من يدرس « المعاني والبيان » ومنهم كانوا يقرضون الشعر حتى لو لم يكونوا قد قطعوا مرحلة المعاني والبيان.

ومنشىء « الحكمة » الذي كان يهتم بالمراقبة على جريدته، ساهم بنشاط في تحريرها، وله كتابات عديدة فيها، غير موقعة باسمه. وأهم ما حرص عليه، وأولاه الاهتمام الزائد، الكتابة عما كان يجري في بلاد جبيل، من صغير أو كبير.

لم تكن « الحكمة » الجريدة الوحيدة التي كانت تطبع على المطبعة « السليمية »، بل كانت تطبع عليها جريدة « الروضة » الصادرة في البترون لصاحبها والد النائب السابق يوسف ضو. وبذات الوقت طبعت عليها كتب عديدة، منها مؤلفات الأديبة المهجرية العمشيتية، عفيفة كرم كـ « ملكة ليوم واحد » و « غادة عمشيت » وسواها من الروايات المترجمة الطويلة.

كان طاقم « السليمية » مؤلفاً من أربعة عمال هم: أمين الرزي من بشري، وآخر من آل القرداحي من جبيل، وأديب وطانيوس الكلاب من عمشيت.

عندما أسست مطبعة « السليمية » سنة ١٩٠٨ وضعت في جبيل، في الطابق العلوي من الخان الكبير. ولما بدأت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، نقلت إلى « بعشتا » ـ عمشيت. ووضعت مع ما فيها من جرائد وكتب ومعدات، في مخازن تخص المرحوم سليم وهبه.

اهتمت جريدة الحكمة برئاسة مارون عبود، وبتوجيه من منشئها سليم بك وهبه بالقضايا الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، أكثر من اهتمامها بالقضايا السياسية. ومنشئها وهو الرسام الموهوب، وله رسوم عديدة لا يزال بعضها محتفظاً به لدى أولاده، يعطي صورة عما كان عليه من قدرة على اكتناه الفن بمختلف أصوله وأشكاله. لم يرد سليم وهبه المدارس، بل تعلم بنفسه وعلى نفسه. وكل ما ساعده على اجتياز طريق العلم الصعبة، أن والده أمن له معلماً يلقنه العلم في منزله، وهذا المعلم هو الخوري بولس عدوان من قرية عبيدات.

كان تأسيس « الحكمة » ومطبعتها « السليمية » قفزة مهمة مقدرة على طريق الحضارة والتطور بشكل عام، وليس قليل الأهمية أن فرداً دون أي دعم من أي مرجع، ركب هذا المركب، وأقدم على تأسيس مطبعة وجريدة في منطقة جرداء تفتقر إلى الخصوبة. إن إرادة سليم وهبة تلك التي لم تقف عند تأسيس مطبعة كمشروع تجاري، بل أرفقت ذلك بإنشاء جريدة تعكس المطالب، وتوجه، وتثقف، وتدافع عن مطالب الناس وقضاياها، وتحيي التراث، وتعمل لتطوير الفنون الجميلة.

وفي سنة ١٩٠٨ أسس سليم وهبة في عمشيت جمعية هي: « صوت الحق »، من أهدافها كما يقول العلامة الاستاذ عبد الله لحود، تعزيز الاخاء الوطني، والعمل على توفير المساعدة والتعليم للفقراء، وإرشاد الشعب إلى واجباته.

وحصل سليم وهبه، بالإضافة إلى امتياز بإصدار جريدة « الحكمة » اليومية، على امتياز بإصدار مجلة اسمها « النسر الدهري »، ولكنها لم تصدر.

إن عمشيت هي الأولى التي فتحت قلوب أبنائها ووضعت أراضيها تحت تصرف من هم من غير أهاليها. وإن ما كان يرى من مظاهر الأخوة بين أبناء عمشيت والقاطنين فيها من الطوائف الأخرى كان ولا يزال مثلا يضرب، وخطوة جريئة في مداميك الوحدة الوطنية.

المجتمع العمشيتي منفتح على كل ما هو جديد وعقلاني. فالعروبة لم تجد في عمشيت انصاراً لها وحسب، بل انطلقت في بلاد جبيل من « وطنيتها » بثقافة غنى بتدريسها اساتذة كبار، كالمربي أديب لحود، والخوري يوسف نصار، وأحد كبار متخرجيها عبد الله لحود، وسواهم. وإنني أفتخر بأنني، ولو لمدة قصيرة، تتلمذت على « الوطنية » وعليها درست التاريخ العربي الذي غرس فيّ الأصول العربية الحقة معنى ومبنى. فالطائفية في عمشيت، كانت ولا تزال في خبر كان. إن هذا الارث هو أسمى ما يشرف هذه البلدة العريقة بدعمها المظلوم ضد الظالم. ألم يقم كبير من كبارها هو طوبيا زخيا ببادرة مثلى تجلت بدعوة الأمير بشير الشهابي الزاحف بجيش كبير سنة ١٨٢١، للقضاء على عامية لحفد « المجيدة »، إلى تناول الطعام على مائدته، بقصد استطالة الوقت، حتى تمكن من إيصال خبر إلى « العاميين » يعلمهم بمجيء الأمير بشير لمحاربتهم؟ هذا الموقف سيظل إلى الأبد أثرا خالدا لا لطوبيا زخيا وحسب، بل ولعمشيت.

عندما أتذكر مسار حياتي وأصدقائي في عمشيت. أتذكر « الوطنية » ومرتع صباي. و « الساحة » وروادها. و « المعبور » وزبائنه الدائمين. وقداس نصف الليل في أعياد الميلاد والغطاس، والفصح في كنائس عمشيت. أتذكر المعلم في « الوطنية المرحوم حبيب بمبينو و « طلبته » الشعرية التي يصف بها صبايا عمشيت المتألقات حسناً وعقلاً، وقد أصبحت انشودة في كل فم.

أينما كنت في لبنان أو سواه، في أي مدينة أو قرية، في لبنان، أو في العالم الخارجي، أتذكر دائماً وباحترام رفاقاً لنا في عمشيت واراهم الثرى منهم: يوسف ضومط، منير سليمان، توفيق شاهين، بو يوسف، سمعان بطرس، فارس الكلاب، الشاعر والكاتب اللبق الذي اكتسب تقدير واحترام لا الرفاق فحسب، بل جميع الفلاحين والشغيلة المثقفين في عمشيت وبلاد جبيل. وقصائده في التنديد بالصهيونية والاستعمار في فلسطين، وفي الدفاع عن عروبة لبنان وحقوق العمال

والفلاحين، وهي منشورة في جريدة «صوت الشعب» في الثلاثينات والأربعينات، وتؤكد مكانة هذا الرفيق المقاتل في قلمه، المناضل بأفكاره.

كانت عمشيت ولا تزال مع الحضارة والتقدم على موعد. وإذا لم يتسن لها أن تخطو بسرعة إلى الأمام، لكنها لم تتراجع إلى الوراء وقد حافظت على طبيعتها وسجيتها كقرية لبنانية عريقة في أصالتها.

كانت «الحكمة» صفحة مشعة في تاريخ بلاد جبيل ولبنان المتصرفية، وإذ نتذكر تلك السنوات، ونمر على «الحكمة» فنقف أمام إرادة الإنسان المنسجمة مع إرادة المجموع متهيبين خاشعين. لم تكن «الحكمة» لتروق للرجعية الدينية والمدنية، ولكن مؤسسها سليم وهبه، والمنشىء الرئيسي فيها مارون عبود، ما كانا ليتوقفا عند إرادة أولئك، بل كانت الليبرالية الفكرية هي التي توجه عملها وتسدد خطاها. فركبا المركب رغم خشونته، وأصابا فيه الإقبال والنجاح. فكانت «الحكمة» القاسم المشترك بين تطلعات مؤسسها ورئيس تحريرها، وبين الرعيل الطلابي الناشىء المتطلع نحو آفاق أرحب، نحو التمتع بقسط أوسع من الحرية الفكرية.

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد أوقفت جميع المظاهر الحضارية، وحالت دون الاستمرار بصدور الصحف التي أغلقها حكم السفاح جمال باشا، فاضطرت «الحكمة» إلى التوقف فخسرت بلاد جبيل منبراً حراً من المنابر التي استخدمتها على مدى ست سنوات، فإن روح التحرر الفكري التي وجدت بعمشيت تربة خصبة لها، أنبتت في العام ١٩٢٧ غرسة جديدة للحرية والنضال في سبيل قضايا سكان المنطقة، وذلك بصدور جريدة «بيبلوس»، الاسبوعية مؤقتاً، على أيدي نخبة من الشباب الناشىء المتحرر وفي طليعته الاستاذ روفايل لحود وعبد الله لحود، وبطرس يزبك وسواهم. ورئيس تحريرها الاستاذ عبد الله لحود.

انتحت «بيبلوس» ناحية الجماهير، فأفسحت في المجال لنشر هموم المواطنين والأخبار عن مطالبهم، وشؤونهم الاجتماعية، كما وإنها عنت بالمقالة السياسية الموجهة مما ساعدها على الانتشار السريع في القرى الجبيلية كافة.

وفيما يلي افتتاحية لها بعنوان «الخيانة العظمى» نشرت في العدد ٣٦ بتاريخ ٩ أيلول ١٩٢٨. نعيد نشر مقاطع منها.

الخيانة العظمى جملة يرددها الشعب عندما يسلم رجل حكومي مسؤول إلى دولة أجنبية أسرار المملكة. فيطالب الشعب بمحاكمته والحكم عليه.

الخيانة العظمى يرتكبها القائد إذا انضم بجيشه إلى صفوف العدو، أو الرجل السياسي الذي يفرط بحقوق بلاده في سبيل بلاد أخرى.

أما أن يختلف رجلان في الرأي حول قضية لا تهم الحكومة لا مباشرة ولا غير مباشرة، فاختلافهما ليس، والعاقل يدرك، خيانة عظمى.

ولكن بعض الصحف في بيروت أبت إلا أن ترمي صاحب هذه الجريدة ومندوب لبنان إلى المهاجرين، بالخيانة العظمى لأنه اختلف في الرأي والدكتور عاد في باريس بسبب مطالبة هذا الدكتور بضم لبنان إلى فرنسا أو تنصيب أمير أجنبي على رأس حكومته.

ذلك هو منطق الزملاء عندنا: يرمون الوطني المخلص بالخيانة العظمى، ويغدقون الألقاب على مرتكب الخيانة العظمى لو أنه يمثل غير شخصه، ويطالبون له بالإنعامات والمكافآت تقديراً لوطنية أثارت فيه عامل احتقار أبناء هذه البلاد والاستهزاء بهم، ودفعت به إلى القول عنهم إنهم لا يصلحون لشيء، فهم والحالة هذه في حاجة إلى أجنبي يدير شؤونهم.

أيتها الوطنية كم من السفسطات والجنايات يرتكبون باسمك!.

القهوجي يغني جبيل

في أثناء المعركة الانتخابية النيابية سنة ١٩٤٣، رشح فرج الله الحلو نفسه عن بلاد جبيل. وفي أثناء مهرجان جماهيري عقد في مدينة جبيل تأييداً له، ألقى الشاعر الشعبي ميشال القهوجي الأبيات التالية:

الرب طلطل من شبابيك السما	حامل على صدرو باقات من الورود
هـرَ منوّ زر عَ الأرض ارتمى	كوّن بلاد جبيل قطعة من الخلود

★ ★ ★

انتي سحرتي الّلي بعمرو ما انسحر	بجيئك بحدّ اللاّنهايي مصوّني
والبحر قبلّك قدامك وانتحر	والأرز صار لحب أهلك ينحني
وشمس التاريخ البازغا شقّ الفجر	طلّت من «القلعة» وشرقت عالدني

★ ★ ★

قديش ما انزرعت بلادك بالدما	حتى حصدت العز في عزّ الجدود
ومجد الفينيقيي بجنحيّك احتمى	وبيخاطبك لليوم من طي اللحود
جبيل حب المجد في رجالا نما	وشبّانها للحق مفتولة زنود
أما زئير شبالها رج الحمى	وخرصن أزيز العاصفة وقصف الرعود

خمسون سنة في رحاب
الحزب الشيوعي

بانقضاء شهر أيلول ١٩٨١ انقضى نصف قرن على انضمامي للحزب الشيوعي اللبناني. وكان علي أن أعكف في آخر ذلك الشهر الميمون من العام الجاري، على كتابة « ورقة » تحمل مسار نضالي على مدى ٥٠ سنة. ولكن انشغالي بمهات مهنية خارج الوطن، حال دون ذلك، مما دعاني الآن إلى كتابة هذه « الورقة » التي تروي ردحاً من تاريخي وهو جزء في تاريخ حزبنا، بل تاريخ شعبنا.

كنا في آخر شهر أيلول ١٩٣١، خمسة شبان، آلينا على نفوسنا أن نكون مع شعبنا، أن نناضل مجترحين العجائب في النضال من أجل تحرير إنساننا اللبناني من آفتين، آفة الاستعمار الفرنسي، وآفة القهر والاستثمار والحرمان. وعلى هذا قررنا، نحن الخمسة، تأسيس فرع للحزب الشيوعي في بلاد جبيل، وكنا على موعد مع فؤاد الشمالي أمين عام الحزب. فوافانا إلى محلة « بعشتا » بخراج عمشيت، ومعاً أمضينا نهاراً كاملاً نحدثه ويحدثنا، يستمع إلينا ونستمع إليه، وقد نقلنا بأسلوبه المرن الشيق إلى أجواء التفاؤل، إلى رحاب الأمل الأكبر، إلى واحات الاشتراكية، فازددنا ثقة بنفوسنا، وبخاصة كوننا أصبحنا نتحمل مسؤولية تفرض علينا الجرأة الواعية، والإقدام الجريء، والنشاط المتفاني في الدفاع عن حقوق الكادحين.

وعلى هدى توجيهات فؤاد الشمالي، وممارسات فرج الله الحلو، عملت، وكان همي وبخاصة عندما أصبحت، سكرتيراً للفرع، بعد غياب فرج الله ، أن أكسب ثقة المواطنين، وبخاصة العمال والفلاحين، والشبان العاطلين عن العمل، وكانت البطالة في الثلاثينات آفة متفشية لا في المدن، بل وفي جميع القرى. فالصناعة لا وجود لها، وموسما الحرير والتبغ بارا بسبب السياسة الاستعمارية. والهجرة تقلصت بسبب القوانين التي اتخذت في الخارج للحد منها.

فبوحي من تقاليد بيئتي الفلاحية ومن القيم الوطنية والقومية والأممية لحزبي عملت وأنا في مركز المسؤولية في منظمة الحزب الشيوعي في بلاد جبيل. وإن امتع لحظات حياتي آنذاك كانت عندما نقوم بمهمة حزبية، كتوزيع منشور في ليل مدلهم، أو الجلوس ساعة مع عامل أو فلاح نطلعه على مبادىء وأهداف الحزب الشيوعي. وكم يكون تعاظم سروري، عندما يتفهم من أحدثه، ما طرحته عليه، ويقول لقد وافقت على أن أكون عند حسن ظن الشباب، عضواً في الحزب الشيوعي.

ولكي أصل إلى ما أوكل إلي أمره، وما كلفت به من قبل قيادة الحزب، ما كنت لأمل وأقدم عا قطع الصلة بالذي يبدي شكوكاً بكلامي، بل كنت أثابر على العلاقة به، وأسعى لأجد منافذ جانبية تساعد على إقناعه فكرياً. ولطالما نجحت، وسواي من الرفاق بجذب كثيرين ممن كانوا يعنون جفاءهم، ويبتعدون عني كوني شيوعياً. ومما ساعدني وسواي على اجتياز الكثير من

الصعوبات، الرفيق فرج الله الحلو، الذي يتمتع بأخلاق رفيعة، وبأسلوب مرن، شيق في تعاطيه مع الآخرين، أرفاق كانوا، أم أصدقاء، كان فرج الله الحلو مقبولاً من الجميع، اللهم إلا من عملاء الاستعمار، وأعوانهم من إقطاعيين وسماسرة وتجار مبادىء. لقد علمني فرج الله، وتعاليمه مستمدة من طبيعة الحزب الشيوعي، وروحيته، أن لا أملّ من خدمة الناس. وأن أكبر رصيد وأثمن رسمال، يكتنزه الشيوعي، يكمن بمقدار ما يقوم به من خدمات للمقهورين الكادحين، ولكل أبناء الشعب. ومن الطبيعي أن مهمات كهذه تتطلب موجبات كثيرة مفروض توفرها بالمناضل، منها: الصدق بالقول، والبر بالوعد، والاستقامة في المعاملة، واحترام التقاليد المرعية في القرية. والنخوة والمروءة في الملمات، وحسن الضيافة، والمبادرة في الواجبات الاجتماعية، والسعي لحل المشاكل التي تبرز في القرية، وعدم التلكؤ عند الاستجارة، والابتعاد عن الاستفزازات ضد المواطنين، وغير ذلك من الصفات التي يجب أن يتحلى بها الشيوعي. على هذه العادات ربانا فرج الله، وكنت مع سواي متفهماً لما كان يعنيه من ذلك. كان يعني جعل فرع الحزب في بلاد جبيل جماهيرياً، بالتفاف كثرة كبيرة من المواطنين حوله. وأقولها بصراحة إن عددنا لم يكن كثيراً، ولكن سمعتنا ومدى تأييد الناس لنا كانا من حيث القوة والاتساع، بما لا يقاس بعدد أعضاء الحزب. وقلة عددنا لم تحل دون قيامنا بنشاط واسع كبير. نشاط من أجل مطالب حياتية تهم جميع أبناء بلاد جبيل. كالنضال ضد شركة ريجي التبغ، لجهة رفع أسعار المحصول وزيادة مساحات الزراعة. ووضع حد للظلامات في التخمين. وقبل تسليم أي موسم للشركة، كان كثيرون من المزارعين في قرى بلاد جبيل يتصلون بنا كشيوعيين ليقفوا على رأينا وليتفقوا معنا على موقف واحد في مستودع الاستلام.

وكذلك في قضية مياه الشرب وتأمينها للقرى، وفي تأمين بذار القمح، والأدوية لمكافحة حشرة الحرقص وغير ذلك من المطالب التي رفع الشيوعيون رايات النضال في بلاد جبيل لتحقيقها.

هذا السلوك الذي وجهني إليه فرج الله الحلو، هو أضخم رأسمال حصلت عليه في حياتي. فهو الذي وطد علاقاتي بأبناء قريتي ومنطقتي، وبجميع الشيوعيين وأصدقائهم في المناطق اللبنانية التي ناضلت فيها.

* * *

هاجسي الأول والأكبر، طول الخمسين سنة التي انقضت على عضويتي في الحزب الشيوعي، هو أن أنفذ خطة الحزب، وأن أكون عند حسن ظن لا قيادة الحزب وحسب، بل قاعدته. وأنا وإن شغلت مراكز مسؤولة في الحزب، لم أنقطع عن القاعدة. وكنت إذا ما انتهيت من اجتماع المكتب السياسي مثلاً، أجد نفسي بعد ذلك مع رفاق عاديين، اما في سهرة، أو في زيارة لرفيق أو صديق،

أو في تناول طعام أو شراب. وهذا التوافق رافق مساري الحزبي. ذات مرة في عهد سادت فيه ظاهرة عبادة الفرد، اتهمني قائد وكنت قد ذهبت ورفاق عاديين في رحلة إلى القرية، بأنني « كليكي » أي أنني أقوم بعمل انشقاقي. في حين أن من ذهبت وإياهم، أصبحوا لاحقاً، بعد ما تصحح خط الحزب، قادة مقدرين، محترمين، متفانين في النضال.

* * *

كلما تطلعت بعد « الخمسين » إلى ماضيّ واستعرضت عطاءاتي، ونشاطي، لا أرتاح إلى ما أعطيته في السنين التي أمضيت، وأشعر رغم انقضاء هذه المدة، أنني كنت أمام عظمة الأحداث، مقصراً، متخلفاً. أشعر بعظم مسؤوليتي لعدم مجاهرتي برأيي، والدفاع عنه. أشعر بمسؤوليتي عندما تعرض فرج‌الله الحلو في مطلع الخمسينات لعملية قدح وذم، وكيف سلطت ظاهرة عبادة الفرد عليه سهامها لترغمه على كتابة الرسالة المعروفة برسالة « سالم ». أنا لم أكن موافقاً على هذا التصرف حياله لكنني ما كنت لأجرؤ على اتخاذ موقف ضد العسف الذي تعرض له. ومهما حاولت إيجاد مبررات فلا ينفي ذلك مسؤوليتي.

أنا لم أكن موافقاً على سفر فرج‌الله إلى باريس في أواخر العام ١٩٤٦ « لمتابعة دراسة الماركسية » كما قيل آنذاك. ولكنني وأنا عضو في المكتب السياسي لم اجرؤ على اتخاذ موقف مناقض لذلك.

وإن أشد ما يؤلمني ويوخز ضميري، ويجرح مشاعري، موقفي في بداية الأزمة التي عصفت بالحزب سنة ١٩٦٧. صحيح كان لي مع آخرين في المكتب السياسي مواقف متمايزة، ولكن هذا ما كان ليكفي. كان علي وأنا في مركز المسؤولية ومن أقدم الرفاق أن يكون موقفي واضحاً كموقف الياس البواري ومصطفى العريس اللذين أدركا منذ البدء أبعاد المؤامرة المحاكة ضد الحزب، وأن اجاهر برأيي مثلهما. ولو أنني فعلت ذلك منذ البدء، لما كانت الأزمة استطالت، ولما كان حصل ما حصل. صحيح أنني تفهمت بالنهاية الخطأ الذي وقعت فيه، وعدت مع من عاد من الرفاق المسؤولين إلى رحاب الحزب نعمل مع الرفاق المجددين، وكلهم مخلصون، لبناء الحزب على أسس ماركسية لينينية صحيحة توّجها المؤتمر الثاني للحزب، بإقراره البرنامج السياسي، والنظام الداخلي، وانتخاب الهيئات القائدة.

* * *

سنة ١٩٣٢، وبعد رأي وجهد، توفقنا في بلاد جبيل، بقبول أحد الفلاحين الدخول في الحزب، وقد قلنا له، سنفعل كذا وكذا، وستكون ثورة لاهبة، فنضع أيدينا على المخافر،

ونصادر أملاك الإقطاعيين، وسنستلم السلطة. هذه المعطيات أكبرت آماله، وراح الرفيق الجديد ينتظر ساعة الصفر لنتقدم على استلام الحكم.

ومضى عام، فعامان، وقد ضاق الرفيق ذرعاً ولم يعد قادراً على الصبر. وأتى في ذات يوم قائلاً: يا رفيق لقد مضت سنتان على وجودي في الحزب، ولا نزال حيث نحن، فلا ثورة ولا استلام سلطة: وأنا لم يعد بمقدوري الصبر، فمتى تتحقق الاشتراكية؟

ورحت أطيب خاطره، وأؤمله بمستقبل قريب مشرق وضاء، وأحبب النضال إليه، وقلت له لنصبر فالصبر مفتاح الفرج.

كان رفيقاً جيداً وقد أمضى في الحزب أكثر من أربعين سنة كان فيها مثال الشيوعي الملتزم الصادق. ولكنها طبيعة الفلاح الذي يريد الشيوعية، ولكنه يريدها فوراً. وهنا لا بد من عنصر الثقافة الذي يجب أن يتوفر للأعضاء الجدد، وبخاصة الثقافة النظرية التي تسلح الرفيق الجديد بمفاهيم علمية مستندة إلى قوانين موضوعية تحدد المراحل التي تتم فيها التحولات الاجتماعية.

* * *

دخلت السجون مراراً عديدة، وأمضيت فيها ما يربو مجموعه على السنتين. كما وأنني حكمت غيابياً بعشر سنوات سجن. وتعرضت لعقوبات قاسية جداً داخل السجن، أصبت على أثرها بالبرونشيت الذي رافقني بضع سنوات. كما وأنني تعرضت في العهود السرية إلى أن أعيش في أجواء صعبة، بالنسبة للمنامة، والمعيشة، والملبس. فلا أغطية تقي من البرد، ولا نار تخفف من شدة الرطوبة. ولا غذاء، جوعه وشبعه، كل ذلك لم يفت في عضد نضالي وتابعت مساري في النضال يحدوني الأمل الأكيد بتحقيق أماني، بانتصار حزبنا في المعارك التي يخوض النضال فيها.

* * *

اتهموني بالجنون، لأنني في العام ١٩٣١، كنت أقول بأننا سنحرر بلدنا من الاستعمار الفرنسي، ومع ذلك تابعت الطريق لوثوقي بأننا لا بد واصلون إلى ما وضعه الحزب أمامنا. وما دامت هناك دولة للعمال والفلاحين قائمة في الاتحاد السوفياتي فإن النصر مؤكد لنا.

عايشت رفاقاً قادة كباراً، كانوا زهوراً فواحة في حديقة حزبنا: فؤاد الشمالي، سليم خياطه، فايز يارد، ناصر حدّة، فرج‌الله الحلو، انطون تابت، سعد الدين مومنة، فؤاد قازان، الدكتور سميح علم الدين، محمد الخطاب، مير مسعد، مصطفى العريس، وقد تواروا جميعهم تاركين آثاراً خالدة، وسمعة طيبة هي زاد معاد لحزبنا. كما عايشت أصدقاء خلصاً للحزب، رئيف خوري،

الدكتور جورج حنا، عمر فاخوري، مارون عبود، يوسف الهراوي، حبيب ربيز، ومع الجميع عملت، في مناسبات عديدة. وكان الانسجام متجلياً في كل عمل انجزناه، وهذا يعود إلى الالتزام الذي ربطني بالحزب، وأدى إلى شدي إلى الرعيل الذي أشرت إليه، وبالتالي إلى الرعيل الراهن، إلى الألوف التي تكون جسم حزبنا، وتسير به من نصر إلى نصر، وبالرغم من السبعين التي أحمل والخمسين التي انقضت على عضويتي بالحزب، ومن الفاصل التاريخي ذي البون الشاسع، فلا أجد، عندما التقي الرعيل الراهن، أي بعد بيني وبينه، إن ما ألمسه يشكل كلاً واحداً منسجماً ومتجانساً، ألا وهو العزم والتصميم والإقدام على تنفيذ خطة الحزب، والسعي بلا هوادة، وبحسن دراية، إلى تطبيق مقررات مؤتمرات الحزب، وبخاصة المؤتمر الرابع. حزبنا حزب الشباب، وعندما أكون في اجتماع، أو في أي لقاء آخر، أتحول، بذوقي، ومزاجي، وثوريتي وإقدامي، وتصميمي إلى شاب، وأحياناً الى ابن عشرين حولاً. أوليست الشيوعية هي شباب العالم؟.

* * *

اثنان كانا ولا يزالان، وسيبقيان في ضميري ما عشت. اثنان أحلصت لهما وأشعر دائماً أنني مقصر تجاههما. لهما علي، وما لي عليهما شيئاً. دينهما في عنقي، وهما الحزب ومجدلية.

الحزب رباني. ونقلني من عالم الجهالة، إلى عالم الحضارة والنور. ثقفني. جعلني أدرك من أنا. ووضعني في الخانة التي يجب أن أكون فيها. فإذا وأنا الفلاح المشحرجي، المكاري، صحافياً وكاتباً. وإذا سألني سائل من أين لك هذا؟ لأجبته على الفور: من هذا المعين الغزير، من الحزب الشيوعي اللبناني.

* * *

ومجدلية رفيقة الـ ٤٠ سنة، هذه المخلصة الطيبة البعيدة النظر، كم أنا مدين لها. فوضويتي وجموحي، وتحدياتي، عملت مجدلية بتصرفها اللبق، الأنيق على إزالتها. وكم كانت على حق في مواقف مفصلية في الحزب. ولكم كنت أنا «القائد» على خطأ في أثناء أزمة الـ ٦٥ التي تعرض لها الحزب، وكان الحديث يدور حول واحد محسوب على القيادة، ولكنه مكروه حزبياً، وشعبياً. قالت إن فلاناً لا قيمة له، وهو مكروه، ولماذا التعلق به. حاولت أن اقنعها بأنه غير ذلك فلم تقتنع فضربتها لأنها تهين «قائداً». وتبين لاحقاً أنه فعلاً كما وصفته مجدلية وكنت أنا على خطأ، وكانت هي على حق.

وفي أزمة الـ ١٩٦٧، وكانت النار منصبة على أنبل رفيق في الحزب. قالت لي مرة بالحرف «يا ويلكم من دينونة الله، لماذا تفعلون هذا بفلان، هذا الشاب «العرد البيشيل من القلب غصة» ما

ناقشتها، لأنني ضمناً كنت موافقاً معها، لكن عملياً كنت حتى تاريخ ذاك القول لا أزال موالياً « للنواة القائدة ».

وتدور الأيام، ويتمكن الحزب بفضل إخلاص وسلامة تفكير قيادته، من وضع الأمور في نصابها، فتذكرت ما قالته بجدلية، وقلت بنفسي لنفسي، أين ماركسيتك ولينينيتك يا أبا وضاح، وأين الديالكتيك التي تدعي أنك درسته، ألم تكن أم وضاح في موقفها ذاك، ديالكتيكية ومادية أكثر منك؟

الخمسون انقضت، ودخلت العام الواحد والخمسين، وكل ما أوصي به رفاقي الأماليد الأبطال هو: الحزب هو الكل، وما سواه هو ثانوي. وكل عمل، مهما كان كبيراً أم صغيراً، سياسياً ام اجتماعياً، وكل تصرف، ومسرى يجب أن ينظر إليه من الناحية الحزبية. هل يضر بالحزب، أم هو مفيد له، وعلى هذا الأساس يمكن التعاطي معه.

والحزب هو بقيادته السليمة، فلا خط صحيحاً للحزب، إذا لم تكن القيادة سليمة. وخطتنا اليوم وما يرافقها من سير لتنفيذها، سليم، وهذا ما يبهج كل رفيق، ويطمئن إليه كل صديق، ويجذب إلينا المزيد من العمال والفلاحين والأدباء والكتاب الثوريين.

* * *

إنني وقد اجتزت الخمسين عاماً في الحزب. ولا أزال أناضل في الميادين التي تعينها لي القيادة، أعاهد الحزب، قيادة وقاعدة، اصدقاء ومحبذين، بأنني سأواظب على تنفيذ خطة الحزب، وسأعمل لرفع درجة اليقظة، وأن أكون أكثر اجادة بكتاباتي، ولا أنقطع عن المحيط الجماهيري الذي هو المدرسة العليا التي تلقيت وأتلقى فيها دروسي. بل هو مدرسة لكل شيوعي على مختلف المستويات والمراكز المسؤولة.

كما وأنني، سأعمل باستمرار على إنماء مبدأ الانتقاد الذاتي (الأوتوكريتيك) الذي هو وحده السبيل الأسلم للإقلال من الأخطاء، ولتلافي ما قد يحصل منها، وبالتالي الرجوع عنها.

متمنياً لجميع الرفاق، قيادات وقواعد، خمسينات ميمونة تنقضي على عضويتهم في الحزب الشيوعي اللبناني، أقطع العهد بمتابعة المسار على الطريق التي وضعت مع رفاقي الخمسة في آخر أيلول ١٩٣١، الخطوة الأولى عليها، وإنني سأستمر بالعطاء ما دمت قادراً على ذلك.

* * *

الشباب ولى، ولكنني أعمل لكي تبقى أفكاري وتطلعاتي شبابية، وبذلك أقبس من مناهل

الحزب، لأن حزبنا حزب الشباب. والشباب ما كان دائماً وأبداً مرتبطاً بالأعمار، إنه في مناسبات عديدة، مرتبط بالأفكار. وحزبنا التراث، هو الواحة التي تربط بين القديم والجديد بين الشيوخ والكهول والشباب، وهذا أحد مصادر منعته، وقوته، وسلامته واستمراريته.

نشر في النداء في ١٩٨١/١١/٢٠

أتريد رخصة، هاكها!

أخبرني المرحوم جورج أبو نادر قال: ذات يوم، قررنا تأسيس فرقة شيوعية في بلدة المتين، وكلفت بالمجيء إلى بيروت ومقابلة قائد الحزب الشيوعي فرج‌الله الحلو وأخذ موافقته على رغبتنا بتأسيس الفرقة ـ كان ذلك في العام ١٩٤٤، أي بعد انعقاد مؤتمر الحزب الأول وصدور «الميثاق الوطني». أتيت لمقابلة الرفيق فرج‌الله والطلب إليه، باسم جمهور من شباب المتين، انشاء فرع للحزب الشيوعي في بلدتنا، رحب فرج‌الله بما عرضته عليه. وقلت له نحن نريد رخصة رسمية كي نؤسس الفرع المذكور. فأجابني بكل تواضع وجدية: سنعطيك رخصة.

ووضعت أمامه مسألة الأموال التي تجمعها الفرقة، وسألته فيما إذا كانت ستبقى في صندوق الفرقة، أم أنها تقدم بكاملها إلى المركز. فأجابني بكل هدوء قائلاً: مش راح نختلف بتعطونا قسم، ويبقى معكم قسم. وقلت له، نحن بحاجة إلى من يزورنا في المتين لمساعدتنا على تأسيس الفرع. قال: بكل تأكيد سنوفد رفاقاً إليكم. (وبالفعل زارنا الرفيقان مير مسعد وهاشم الأمين ومكثا ثلاثة أيام عندنا).

وقال: وقبل انصرافي قلت له: يا رفيق، والرخصة؟ وعلى الفور أخذ الرفيق فرج‌الله القلم وكتب ما يلي: لقد أجزنا للرفيق جورج أبو نادر تأسيس فرع للحزب الشيوعي اللبناني في بلدة المتين. ووقعه بامضائه وصفته الحزبية كرئيس للحزب، ومهره بخاتم الحزب الرسمي.

وتابع الرفيق جورج أبو نادر: واستناداً إلى هذه الرخصة، اصبح لدينا في المتين منظمة شيوعية من أبرز قادتها المرحوم اميل ابو نادر والشهيد يوسف لحود، وازداد عدد اعضائها وأربى على الـ ٩٠ عضواً.

خمسون سنة على صدور كتاب «النفط مستعبد الشعوب»

إذا كان عالمنا اليوم أصبح يدرك أهمية النفط، وما هو ارتباطه بالسياسة، ودوره في مصير الاقتصاد العالمي، والسياسة الدولية، فجيل ما قبل الخمسينات ما كان ليدرك ذلك، فقط أئمة

الاحتكارات في العالم، ودوائر التجسس، كالانتلجانس سرفيس ومثيلاتها، هؤلاء كانوا يدركون ذلك، ويقدرون دور النفط في مصير الشعوب بل في مصير العالم من أقصاه إلى أقصاه.

كانوا ينظرون للنفط بأنه عامل اقتصادي صرف، وما كانوا ليدركوا أن في أساس الحرب العالمية الأولى، وفي زيارة غليوم الثاني امبراطور ألمانيا في العقد الأول من القرن العشرين إلى الشرق الأدنى وبخاصة إلى العراق، وفي مشروع خط سكة حديد برلين- بغداد إنما تكمن إحدى مقدمات السيطرة على نفط الشرق الأوسط، وبخاصة، آنذاك، نفط ايران والموصل.

وكان انتصار الحلفاء في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ المنطلق الرئيسي الذي أفقد المانيا كل مشاريعها، وراح المستعمرون المنتصرون يقتسمون تركتها، وبخاصة ما كانت تملكه من نفط الشرق الأوسط، فالولايات المتحدة الأميركية ما كانت تملك شيئاً من نفط العراق، وبعد انكسار ألمانيا الهتلرية أصبحت تملك حصصاً في شركة الأي بي سي، موازية لحصة الانكليز والهولنديين.

وبالرغم من هذه الشراكة في نفط العراق بين الدول الاستعمارية الأربع، انكلترا وأميركا وفرنسا وهولندا، (لكل منه ٢٣,٧٥ ٪ أما الخمس الباقية فهي للرأسمالي الأرمني كولينكيان الملقب بالمستر ٥ ٪). بالرغم من ذلك بقي النزاع والصراع قائمين لزيادة السيطرة الأميركية واستئثارها بالمزيد من نسب الملكية في الشرق الأوسط وبخاصة نفط العراق.

تركز هم الاستعمار الانكليزي بالنسبة لفرض نظام الانتدابات على البلدان المنسلخة عن السلطنة العثمانية في الشرق الأدنى والأوسط على الشمال، العراق وما يجاوره من امارات الشاطىء المهادن (الامارات السبع) وقطر والكويت، مع توطيد موقعه في ايران. فهل هو شغف من الاستعمار الانكليزي تجاه شعوب هذه المنطقة؟

فقط النفط هو الذي كان في أساس هذا «الشغف»، وإن اقامة الحكم الهاشمي في العراق لم يكن لرغبة عربية، بل إنه تم بالتواطؤ مع الانكليز، ليتسنى للاحتكارات النفطية الانكليزية أن تحكم سيطرتها على نفط المنطقة العربية في الجزء الشمالي منها.

ويسرنا ونحن نعيش أيام الذكرى الستين لولادة الحزب الشيوعي اللبناني، أن نذكر أن أول أمين عام للحزب انتخب عند تأسيس الحزب في ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٤، يوسف ابراهيم يزبك الذي مارس فيما بعد الصحافة فخبر من على منبرها الكثير من الخبايا، واطلع على المؤامرات الاستعمارية الهادفة لإحكام سيطرة «سيدة العالم» (هو اللقب الذي كان يطلق على الانتلجانس سرفيس، أي على انكلترا)، على البلاد العربية، أدرك الدور المحرك والفعال للنفط ابتداءً من اندلاع الحرب العالمية الأولى، إلى عقد اتفاقية سايكس- بيكو التي قسمت البلدان العربية بين

فرنسا وانكلترا، فإلى وعد بلفور سنة ١٩١٧ بإقامة وطن قومي لليهود، امتداداً إلى السيطرة على معطيات غنية تجمعت لدى يوسف ابراهيم يزبك مكنته من تأليف كتابه الشهير « النفط مستعبد الشعوب ».

صدر الكتاب في خريف العام ١٩٣٤، وأحدث نشره ضجة في المجالين العربي والاستعماري. وبذلك يكون أول من نبه إلى دور الاحتكارات النفطية الأوروبية في المنطقة العربية وبخاصة الدور السياسي للنفط، هو شيوعي لبناني اسمه يوسف ابراهيم يزبك. فيوسف يزبك وإن لم يكن آنذاك ملتزماً في الحزب الشيوعي، إنما توجهاته، وبنات أفكاره، ومنطلقاته السياسية، وعلاقاته العامة والخاصة، ودوره في الكتابة بالصحافة التي أشرف عليها الحزب الشيوعي، كلها تشير إلى أن يوسف يزبك حافظ بشرف واستقامة على الثقة التي وضعت فيه في ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩٢٤، فبقي شيوعياً في أسلوب تفكيره، وطريقة محاكاته ومعالجته للقضايا الأساسية كقضية النفط، قضية العصر آنذاك والآن، وغداً أيضاً.

قال سليم خياطه في « النفط مستعبد الشعوب » (مجلة « الدهور »، عدد تشرين الأول ١٩٣٤):
« تحفة في بابه، تحفة في موضوعه، لخلو آدابنا السياسية من الاهتمام بمثل مواضيع النفط والقطن والمزارع والمصارف وجميع الأسباب والعناصر والمؤسسات الأخرى التي تؤلف الأركان الركينة في بناء الاستعمار الغربي، القوى المدمرة في طغيانه على الشرق، هو قيم بمحتوياته، وقليل أمثاله في انتاج الأدب العربي السياسي المعاصر ». وفي باب: « نقد ومراجعات » (الدهور عدد تشرين الأول ١٩٣٤) قال سليم خياطه كذلك في « النفط مستعبد الشعوب »:

« قيل في الكتاب قولان قد لا تكون المبالغة من حظهما كثيراً، فالأول « هلهله » به وزير عراقي سابقاً، وهو قوله: « أعتقد أنه ليس في الكتاب من عيب إلا أن مؤلفه عربي ومكتوب بلغة عربية ». والقول الثاني من الرسالة التي بعث بها الزعيم الوطني إبراهيم هنانو إلى المؤلف والتي جعلها هذا الأخير مقدمة لكتابه، إذ جاء في الرسالة: « إن هذا الكتاب هو ما كانت تحتاج إليه يقظة الأمة العربية ». غير أن مما استرعى نظري في رسالة الزعيم هنانو مخاطبته الاستاذ يزبك بقوله: « إن الاستشهادات التاريخية التي نقلتها عن لسان زعماء الحلفاء في سنوات الحرب لهي أكبر عبرة لنا في الاعتماد على أقوال الساسة والتورط في تصديقها... ».

ويختم سليم نقده لكتاب « النفط مستعبد الشعوب » بالقول: « .. وإن كانت لي من كلمة اختم بها هذا النقد فهي نصحي إلى كل قارىء، باقتناء هذا الكتاب. فهو بحق الأول من نوعه عندنا. وليس نوعه بالنوع الرخيص. كلا، فإن البحوث في السياسات الاستعمارية بحوث لا تكون عادة من النوع الرخيص، اللهم إذا كان صاحبها من الذين فقدوا كل حياء وأخذوا يسيرون بين الناس

وجلود ارجلهم تقنع أوجههم. وهذه طبقة بشرية عندنا منها. لكننا نرفع الاستاذ يزبك عنها رفعاً عالياً».

إن قيمة «النفط مستعبد الشعوب» هي بأهمية التحاليل الواردة فيه، والتي تتوقف عند كون النفط عنصراً سياسياً يخفي وراءه اهدافاً استعمارية. ولو لم يكن بعض الحكام العرب متواطئين مع الاستعمار، لم يتح للاحتكارات النفطية في أوروبا وأميركا امكانات استعباد شعوب البلدان المنتجة للنفط لأكثر من خمسين سنة. وعندما هبت شعوب هذه البلدان تطالب بحريتها وباستقلالها الكامل وإجلاء الجيوش الأجنبية عن اراضيها، رفض سادة الاحتكارات النفطية هذا المطلب، وقالوا باعطائهم حقوقهم إنما على أسس معاهدات بينهم وبينها، تضمن لاحتكارات النفط المركز الممتاز. هذا على الصعيد السياسي.

أما على الصعيد الاقتصادي فقد نهبت تلك الاحتكارات الأجنبية عشرات مليارات الدولارات بسبب تسلطها وترك أمور النفط بأيديها تتلاعب فيها كما تشاء. وهنا لا بد من حقيقة يجب أن تقال وهي: أن الشيوعيين اللبنانيين هم الأول الذين طالبوا في مطلع الخمسينات بتعديل اتفاقيات النفط المعقودة بين دول البلدان العربية المنتجة والاحتكارات الاستعمارية. وقد ورد ذلك في الكتيب الذي كان لي شرف تأليفه بتوجيه من الحزب سنة ١٩٥٤ وعنوانه: «نفطنا السليب». ففي ذلك الكتيب لمحة عن أسماء الشركات النفطية الأجنبية التي تسيطر على النفط العربي. والظروف التاريخية التي عقدت الاتفاقيات فيها التي فرضت فرضاً على البلدان العربية. واختتم كتاب «نفطنا السليب» تحت عنوان «الحل الصحيح» بما يلي: «إن الحل الوطني الصحيح هو بمصادرة شركات النفط وتأميمها لمصلحة الشعوب العربية وتصفية كل سلطة استعمارية عليها وليس من شك أن الشعوب العربية، باتحادها وتوثيق عرى التضامن فيما بينها، واصلة إلى ما تصبو إليه، من أن تستثمر بنفسها ولنفسها مواردها النفطية، هذا الكنز الثمين الغالي. وليس مطالبتها بتعديل الاتفاقيات المعقودة مع شركات النفط على أساس زيادة العائدات بصورة تتفق والأرباح الضخمة التي تنهبها هذه الشركات عن طريق الاستثمار الشديد الذي تنزله بشعوبنا ابتداءً من الخليج العربي حتى أرض الكنانة، إلا استعادة لحقوقها المهضومة وذلك بتحقيق تأميم شركات النفط الاستعمارية على النطاق العربي، ذلك هو هدف رئيسي لا يمكن أن يتراجع عنه العرب قيد شعرة».

ويتضمن كتاب «النفط مستعبد الشعوب» فصلين مهمين، واحد عن الثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا بعنوان «١٩١٧» وفيه عرض عن أوضاع روسيا القيصرية ومراحل النضال ضدها حتى

سنة ١٩١٧ أي انتصار الثورة الاشتراكية الكبرى. ومما ورد فيه: «لم يجرؤ وزير انكليزي على معارضة البيان التاريخي الذي أذاعته حكومة الثورة الروسية، ولكن جواب روبرت، سيسل، وجواب «اسكويت» في «تفسير» هما كانا ينطويان على تعبير «ميكافيلي» تأتيه الظنون من كل جانب... ولا سيما في تفسير معاني «الفم»، فكان المستر «اسكويت» وهو يشير صراحة إلى أن بعض البلدان المشمولة بالحكم العثماني، تسلخ عن جسم السلطنة، وستكون تحت حكم الحلفاء - ولم تكن مخيلة الجنرال سميث قد اخترعت كلمة «انتداب...» كان المستر اسكويت الذي أشار صراحة في «تفسيره» البيان إلى الانتدابات المقبلة، يريد أن يقول إن السلطنة العثمانية كانت تحكم الأقطار العربية بالسيف والنار والبارود، وهذا النوع من الحكم هو الوحشية، والبربرية، والفظاعة، والهمجية بعينها، لأن الأتراك كانوا يستثمرون موارد هذه البلاد، ويرهقون سكانها، ويحرمونهم حرياتهم، وأما حكم الحلفاء المنوي تطبيقه على البلدان العربية، المظلومة بنير الاتراك، أما حكم «الانتداب» فسيكون برداً وسلاماً».

وورد تعليقاً على تصريحات الانكليز المماثلة والتي أطلق عليها يوسف يزبك كلمة «رشوة» ورد «في النفط مستعبد الشعوب» ما يلي: «تكرمت حكومة لندرة بتلك الرشوة، ولكن الثوار الروس رفضوها، وأبوا إلا أن يكونوا أشرافاً في العمل، كما كانوا أشرافاً في القول، فأعلنوا أن حكومة العمال الجديدة تتنزل عن كل امتياز كان لحكومة القيصر السابقة، في أي بلد كان. وقالوا: إن الحكومة الشريفة، كالرجل الشريف، لا تحفر بيدها القبر لكلام ينطق به لسانها، إذا كان المتحاربون صادقين في أقوالهم فعليهم أن يقضوا على جميع الاتفاقات السرية، ويتنازلوا عن جميع الامتيازات التي يتمتع بها مواطنوهم في البلدان المستضعفة، ويعلنوا حالاً استقلال جميع الشعوب. ويقترحوا مثلنا بذلك الاستقلال، وإلا فهم كذابون، مراوغون، مجرمون».

ويتابع يوسف يزبك في «النفط مستعبد الشعوب»: «أعلن الثوار الروس تنازلهم عن جميع الامتيازات التي كانت تتمتع بها حكومة بطرسبرج بقوة السيف والإكراه في بلدان كثيرة، ولا سيما في المشرق، وانسحبوا من منطقة النفوذ الروسي في ايران، بعد أن احتلها الطغيان القيصري وظلمها وأرهقها بموجب عهدة ١٩٠٧، واعترف الثوار باستقلال تلك البلاد، فإذا بالجيوش الانكليزية تزحف إلى... المنطقة التي كان يحكمها الاستعمار القيصري، وتواصل زحفها إلى.. القوقاس! وإذا بشركة «الانكلو برشيان» تراود السمسار الأرمني كوشتاريان، وتغره بالوعود، ثم تخيفه بالتهديد، فتشتري منه امتياز النفط الذي حصل عليه من حكومة طهران بضغط السفير الروسي وبالجيش الروسي سنة ١٩١٦. ولهذا الشراء «قصة» - وأية قصة - بعد انتهاء الحرب في مصير الأقطار العربية».

دور الانتلجانس سرفيس

وفي فصل « سيدة العالم » يتحدث مؤلف « النفط مستعبد الشعوب » عن دور دائرة التجسس الانكليزية « الانتلجانس سرفيس » في سيطرة الاحتكارات الانكليزية على معظم نفط الشرق الأوسط وفي إحكامها الطوق على سيادة البلدان النفطية في المنطقة ويقول: « ولعمال « الانتلجانس سرفيس » في العراق والعجم واليمن والأفغان والحجاز حوادث تاريخية لم يكشف القناع عنها كلها حتى اليوم. ولكن الثابت منها يؤكد أنهم لم يكونوا أغراباً عن خلع الشاه أحمد قاجار والملك الجريء المصلح، أمان الله، وتنازل الملك حسين عن العرش العربي، بل كانوا في تلك الحوادث، بمظاهر منوعة، فمنهم من كان يشغل منصب مستشار لأحد الملوك المخلوعين، ومنهم من كان مدير مصرف، وآخر تاجر سيارات، وآخر مهندساً زراعياً أو عالماً أثرياً يحفر في النهاية بطن الأرض، ويمهد في الليل لتنفيذ مؤامراته... ».

ويتابع: « ولقد كان صاحبنا الراهب الورع، الذي ظهر على الباخرة في رفقة العجوز وليم دارسي بثوب القديس، العامل في حقل السيد المسيح، موظفاً في الانتلجانس سرفيس ويهودياً يدعى روزن بلوم، ثم اشتهر باسم سدني ريلي. ويروي عنه الكاتب النمساوي انطون زيخكا مطوحات تشبه الروايات الخيالية. فقد فتح امتياز دارسي أمامه ابواب حكومات الامبراطورية البريطانية، وصار مكمن ثقة الوزراء والحكام والزعماء، وبطل المهمات السرية والمغامرات الخطيرة، وأصبح الساعد الأيمن للوزير ونستن تشرشل في تحقيق سياسته النفطية التي خلقت عظمة الملاحة البريطانية الحديثة وجعلته أعظم الاخصائيين بشؤون النفط بين كبار الوزراء في العالم. وللجاسوس ريلي تاريخ في انشاء الامبراطورية البريطانية. وفي سنوات المجزرة البشرية، يصفه زيخكا بالرهيب... وقد كان مع الكابتن هيل على رأس بعثة التجسس في روسيا يوم اندلعت الثورة الشيوعية فيها. ومن أدهش الأمور، التي لم يكشف القناع عنها حتى الآن « وفاة » هذا الداهية سنة ١٩٤٦ أو اختفاؤه بأسباب غامضة، وتوارى كما ظهر يوم سافر مع دارسي بسكون! ».

مجد يوسف يزبك أنه عرى، منذ خمسين سنة السياسة الاستعمارية المنافقة الخداعة، وأكد بالبراهين التاريخية أنها عبر دوائر تجسسها تمشي على جثث الشعوب المستضعفة وبينها الشعوب العربية لتحقيق غاياتها ومقاصدها، والسيطرة على نفط الشرق الأوسط، ومعظمه في البلدان العربية، وإحكام طوقها عليه.

ومجد يوسف يزبك أنه انطلاقاً من تفكيره الشيوعي، وموقعه اليساري، وهو أول كاتب سياسي عربي أدرك دور النفط في تسيير السياسة الاستعمارية في بلدان العالم العربي. وأن كل الوعود البراقة، بما فيها الشروط « الولسنية » الـ ١٤، واتفاقية سايكس ـ بيكو، ونظام الانتدابات، وضع

من أجل النفط، السيطرة المطلقة على نفط منطقة الشرق الأوسط التي تحتوي على حوالى ٨٠٪ من الاحتياطي النفطي في العالم.

وتدور الأيام والسنون، على مدى عشرين سنة ليصدر في بيروت سنة ١٩٥٤ كتاب «نفطنا السليب»، كما سبق وأشرنا، حاملاً شعار «نفط العرب للعرب». وإذا كان بعضهم سخر من طرح هذا الشعار، كما سبق وسخر أحدهم سنة ١٩٣٢، في أثناء مناقشة لكاتب هذه السطور معه حول حتمية اجلاء الجيش الفرنسي عن أراضينا. ولكن ٣١ كانون الأول سنة ١٩٤٦، أعطى الساخرين والمتربصين، والعملاء درساً. ففي ذلك اليوم الأغر كان شعبنا اللبناني بالتضامن مع الشعب السوري قد أتم طرد آخر جندي استعماري، انكليزي وفرنسي عن أراضينا، وبالنسبة للنفط فقد جاءت سنة ١٩٧٣، حيث استعادت الدول العربية معظم حقوقها بنفطها، فكفت أيدي الشركات الاحتكارية الاستعمارية عن التصرف المطلق بالنفط العربي، فأصبحت عملية الانتاج من حيث الكمية، ووضع الأسعار، وعملية التسويق، حقاً كاملاً للبلدان المنتجة للنفط.

فمن شعار (فيفتي - فيفتي) الذي عد بوقته شعاراً ثورياً وقد رفعته سنة ١٩٥٥ «لجنة البترول الوطنية» التي كان للحزب الشيوعي اللبناني شرف المبادرة لتأسيسها في ذلك الحين. وقد أقامت مهرجانات ضخمة، ورفعت العديد من المذكرات إلى المسؤولين، وشكلت وفوداً أمت دمشق لتكوين جبهة موحدة في البلدين الشقيقين، لاستعادة حقوقها السلبية. من هذا الشعار الذي لم يرق آنذاك، حتى لبعض «الثوريين»، حصل العرب النفطيون على كامل العائدات التي لو صرفت، منذ ذاك الحين في المجالات التعميرية، والانشائية العائدة للمجموع، لما كان هناك عربي بدون بيت، ولتحولت الصحارى إلى جنائن.

لقد أصاب موقف «أوابيك» العربية سنة ١٩٧٣ مقتلاً للاستعمار ولشركاته النفطية، فشنوها حرباً على النفط العربي وذلك من خلال قرارهم بتخزين احتياطي نفطي ستراتيجي قدره مليار طن. وقد استشرى بعض البلدان العربية، وفتح كل آبار بلده لتأمين هذه الكمية بأسعار متدنية بين ٣٤ و ٣٩ دولاراً للبرميل. ولما أنجز الهدف وتوقفت الولايات المتحدة عن الاستيراد، ارتفع العرض على الطلب في السوق العالمية، فانخفض السعر إلى ٢٩ دولاراً، كما هي الحال الآن. وبذات الوقت تدنى انتاج أوبك اليومي من ٢٣ مليون برميل سنة ١٩٨١ إلى حوالى الـ ١٧ مليوناً فقط.

كتاب «النفط مستعبد الشعوب» لا يستحق مقالة متواضعة بل يستحق إقامة ذكرى يوبيلية له بمناسبة مرور خمسين عاماً على صدوره. لقد أنار هذا الكتاب الطليعي الطريق أمام الأجيال خلال نصف قرن، وتتالت الأحداث وكلها يؤكد صحة معطياته. لقد صدق سليم خياطة الذي قال في كلمته المنشورة في «الدهور» (تشرين الأول ١٩٣٤) إنه، «تحفة في بابه، تحفة في موضوعه».

وفي ذكرى تأسيس حزبنا الستينية نرفع الرأس عالياً بأننا الأول الذين نبهنا إلى مخاطر استيلاء الاستعمار على النفط العربي. كما وأننا الأول الذين رفعنا شعار « نفط العرب للعرب » ولا نزال رافعين شعار تحرير النفط العربي من أي سيطرة وهيمنة للاستعمار عليه، انتاجاً وأسعاراً وتكريراً وصناعة.

بيروت أيلول ١٩٨٤

التعريب ما هو ؟

في معمعان نهوض ثوري، عالمي، ووطني، عربي ولبناني، وعلى أثر انتصارات حققتها البروليتاريا الروسية بانتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية، وما تلاها من انتصارات في الحرب الأهلية، ومن ثم بتأسيس « الاتحاد السوفياتي » في ١٩ كانون الأول ١٩٢٢، وكذلك بتأسيس « الأممية الشيوعية » في ١٩ آذار ١٩١٩. وبالانتفاضات الثورية التي شملت معظم بلدان أوروبا ومنطقة الشرقين الأوسط والادنى، وبفعل تطلعات رواد الفكر التقدمي في لبنان، والتنظيمات العمالية النقابية الريادية، أقدم بضعة شبان، من العمال والمثقفين، على تأسيس « الحزب الشيوعي اللبناني » في ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩٢٤.

وكانت اطلالة الحزب الشيوعي بشكل علني وواسع في مهرجان أول نوار سنة ١٩٢٥، الذي دعا إليه « حزب الشعب اللبناني » الذي هو الوجه العلني للحزب الشيوعي السري. ففي ذاك المهرجان الذي عقد في « سينما الكريستال » - بيروت، وكان الأول من نوعه في لبنان وسوريا، التقى تنظيمان ماركسيان لم يكونا على صلة مسبقة ببعضهما البعض، تنظيم وطني هو الحزب الشيوعي بقيادة يوسف إبراهيم يزبك، وفؤاد الشمالي، وفريد طعمة، وتنظيم « سبارتاك » الأرمني وعلى رأسه أرتين مادويان الذي تأسس من الماركسيين الأرمن الذي هجروا من تركيا على أثر المذابح الجماعية التي نفذها الرجعيون الأتراك ضد الأرمن. فقد أقدم بعض الشبان (طلاب وعمال) على تشكيل منظمة شبابية باسم « سبارتاك » على أسس ماركسية - لينينية. وكان على رأسها الكاتب أرتين مادويان الذي أقام علاقات بالشيوعيين في جمهورية أرمينيا السوفياتية.

وقد اسفر اللقاء، في مهرجان أول نوار المشار إليه، والذي حضره تنظيم « سبارتاك » عن تلاقي التنظيمين الماركسيين، اللبناني والأرمني، والشيوعيين اللبنانيين السبارتاكيين الأرمن، لأول مرة. وعلى أثر ذلك حصل لقاء بين قيادة الحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة « سبارتاك »، وحصل الاندماج والتوحيد بين الحزب الشيوعي وبينها، وفي هذه الحقبة تشكلت في حلب خلية شيوعية من رفقاء أعضاء في منظمة « سبارتاك » منهم أغوب دربدروسيان، وبانوس اراميسيان وسواهما.

ومن خلال قيادة « سبارتاك » بعث هؤلاء رسالة إلى بيروت يعلمون الحزب أنهم أسسوا خلية شيوعية في حلب. إثر ذلك وجهت رسالة إلى اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية تتضمن طلباً لقبول الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان عضواً في الأممية الشيوعية. أما الطريقة التي استخدمت لإيصال الرسالة إلى موسكو حيث مركز الأممية الشيوعية فليست معروفة بحكم السرية المطلقة التي كانت مطبقة لدى الشيوعيين الرواد. وربما كان ذلك عبر الحزبين الشيوعيين، اما المصري، الذي كانت تربطه علاقة وطيدة بفؤاد الشمالي، أو الحزب الشيوعي الفلسطيني نظراً لعلاقته الوطيدة بالحزب الشيوعي اللبناني. وتثبت الوثائق وشهادات الرواد الاوائل، ولا سيما أول أمين عام للحزب يوسف إبراهيم يزبك، أن الحزب الشيوعي أسسه لبنانيون معروفون هم يوسف يزبك، فؤاد الشمالي، بطرس حشيمة، الياس القشعمي وفريد طعمة وطائفة من رفاقهم. كان أول مهرجان أقامه الحزب في أول نوار ١٩٢٥ قد اتسم بطابع وطني لبناني عربي إن بالحضور والمشاركة، أم بالخطب التي القيت. والشعارات التي أطلقت. والمطالب التي أقرت.

وعندما أعلنت الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي، وجيش فرنسا المنتدبة على سوريا ولبنان، هيأت فرنسا جيشها ووجهته ضد الثورة، دعا الحزب الشيوعي بمناشير طبعت باللغة الفرنسية ووجهت إلى الجنود الفرنسيين، للانضمام إلى الثوار، وإعلان العصيان ضد قادتهم، فاعتقلت السلطات المنتدبة قادة الحزب الشيوعي، وبخاصة يوسف يزبك، وأرتين مادويان، وفؤاد الشمالي وفرضت عليهم الإقامة الجبرية في جزيرة « أرواد » تارة، وفي « القامشلي » تارة أخرى، ثم في قلعة القدموس في الجبل العلوي، ثم في « أميون ». وقد أدى الإرهاب الاستعماري الفرنسي هذا إلى إحداث تضعضع في أوساط الشيوعيين الذين لم يكونوا قد تمكنوا من ترتيب شؤونهم التنظيمية، الأمر الذي جعل الرفقاء الأرمن المتمرسين بقواعد التنظيم الحزبي في « سبارتاك » مستمرين في مواقفهم ومواقعهم. ولعب دوراً سلبياً في هذا المجال تدخل الشيوعيين القادمين من فلسطين وكلهم يهود، وكانوا مكلفين من قبل الأممية الشيوعية بمهات في فلسطين وسوريا ولبنان. وقد برز عند هؤلاء اتجاه واضح في عدم العمل الجدي لتقديم رفقاء عرب في قيادة الحزب. وإذا أقدموا على ذلك. نادراً، ينتقون العناصر الأمية المنغلقة على نفسها، حتى إذا فشلت في المهات الحزبية الموكولة إليها، ولا سيما في الدراسة، وقد فشلت فعلاً، قالوا ما العمل؟ ليس في الميدان العربي من يصلح لتبوء مراكز قيادية شيوعية. من هنا ساد الفراغ حقبة زمنية بعد تأسيس الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان امتدت من العام ١٩٢٦ حتى نهاية العام ١٩٣٠. ولكن بالرغم من ذلك، بقيت عناصر شيوعية ماركسية ـ لينينية ـ سليمة، أبرزها فؤاد الشمالي، أرتين مادويان، هيكازون بوياجيان وسواهم مخلصة في توجهاتها، ومواقفها، وتطلعاتها، وراحت تتلمس وتنتظر المناسبات لإعادة تنظيم الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، الذي لم يبق نشاطه محصوراً في بيروت وحسب، بل نشأت خلايا

شيوعية في طرابلس بين ١٩٢٦ و ١٩٢٨ . وفي زحلة ودمشق سنة ١٩٢٨ . وفي « بينو » بعكار وفي بعلبك سنة ١٩٣٠ وسواها من المناطق اللبنانية.

ومما كان له تأثير فعال في الإقدام على إعادة تنظيم الحزب، المؤتمر السادس للأممية الشيوعية سنة ١٩٢٨ . ولنقرأ ما جاء في مذكرات أبي داود (محمود الأطرش) حوله واشتراك الحزب الشيوعي السوري اللبناني فيه: « تعرفت على فؤاد الشمالي خلال انعقاد المؤتمر السادس للأممية الشيوعية سنة ١٩٢٨. وكان هو ووهيب ملك الملقب بـ « حسن » يمثلان الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني في المؤتمر . أظهر لنا فؤاد الشمالي ، منذ البدء ، موافقته التامة على خطة التعريب في أحزابنا . وأعلمنا بأنه تكلم في هذه القضية أمام إحدى اللجان، وأظنها اللجنة السياسية ، وكان أحد أعضائها . أقمنا له ، نحن الطلبة العرب ، حفلاً في المدرسة ، ذكر لنا خلاله شيئاً عن نشاطه في مصر واعتقاله ونفيه إلى لبنان سنة ١٩٢٣ حسب ما أذكر . وقد عتب كاتب الحزب الشيوعي اللبناني أبو زيام لعدم دعوته لذاك الحفل، ولم يمنعنا من دعوته سوى معارضته لخطة التعريب ومواقفه العدائية منها. وقد أبدى امتعاضه من اللقاء ، لكننا دافعنا عن موقف الشمالي وهزأنا من موقف « أبو زيام » .

لكن بالرغم من موقف الشمالي الداعي إلى تقديم الملاكات العربية والاهتمام بتطويرها فقد استمر الخط الانعزالي ، ولم يتمكن الكونفرنس المنعقد في أواخر العام ١٩٣٠ في بيروت من الحد من سيطرة العناصر الغريبة ، برغم أن تلك الفترة قد تميزت بالتحرك الوطني ضد الاستعمار والصهيونية ، وبالتحرك الاجتماعي ، بالاضرابات العمالية الواسعة في لبنان ، وبالمظاهرات الكبرى في سوريا ضد الاستعمار وسياسة الشيخ تاج الدين الحسيني . ولم تتوفر الإمكانية فعلياً إلا عندما بدأت الأممية الشيوعية باتجاه آخر ساعد في إحداث تغيير جذري في سياسة الحزب الذي أصبح اسمه ، بعد المؤتمر السادس للأممية الشيوعية سنة ١٩٢٨ الحزب الشيوعي السوري . هذا ما أكده لي الرفيق أغوب دربدروسيان (السولدا) على اعتبار أن الشعار القومي آنذاك كان « الوحدة السورية » .

ففي مطلع سنة ١٩٣٢ ، طرحت في الحزب الشيوعي السوري ، وثيقة موجهة من اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية حملها الرفيق وهيب ملك المعروف باسم « حسن » تضع أمام الحزب ، خطة جذرية للتعريب ، بمعنى تقديم الملاكات العربية إلى مواقع القيادة المختلفة ، على اعتبار أن حزباً شيوعياً في بلد عربي ، لا يمكن ، ولا يجوز إلا أن يكون عربياً ، بخطته السياسية ، وبقيادته على حد سواء .

لقيت خطة الحزب الجديدة القائمة على « التعريب » مقاومة من العناصر الصهيونية القادمة من فلسطين ، ولكنها ، أمام الأمر الواقع ، سحقت وتوارت . ففي أواخر العام ١٩٣٢ ، أبعد نحمان

ليتفينفسكي. وأتى مكلفاً لعندنا من قبل الأممية الشيوعية محمود المغربي عضو قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني المعروف في تاريخ حزبنا بـ « أبو داود ».

وتعرض أبو داود للاعتقال، فكتبت الصحف تقول: إن الأمن العام أعتقل « عين موسكو » ولكنه عربي هذه المرة.

خطة التعريب لم تفهم في البدء عند مجموعة من الرفاق الأرمن الذين انطلقوا من مفهوم خاطىء فحواه: اننا أمميون، وطابع حزبنا أممي، فلماذا يجب الحصر بأن قيادة الحزب يجب أن تكون عربية؟ وقد تطور هؤلاء الرفاق بمواقفهم إلى تشكيل شبه كتلة معارضة لخطة التعريب. وقد استمرت المناقشة في الحزب حول هذا الموضوع أكثر من سنة، وانتهت بإدراك المعارضين خطأهم السياسي، وانتصرت الخطة، وهنا لا بد من التنويه بدور أرتين مادويان الذي، منذ اللحظة الأولى، أدرك المعنى السياسي للتعريب الذي لا يعني إبدال شخص بشخص بالأساس، بل بتعديل جذري في الموقف السياسي من الصهيونية وخطرها على البلدان العربية.

وثانياً ضد الانعزالية والتطرف الكلامي البعيد عن الواقع الموضوعي من نوع: « طبقة ضد طبقة » و « حكومة عمال وفلاحين » و « مقاطعة البرلمان والنقابات » إلخ...

ومن هنا برزت الخطة الجديدة المعروفة في تاريخ الحزب الشيوعي السوري بخطة « التعريب »، وبالرغم من المعارضة التي ظهرت ضد هذه الخطة من رفقاء لم يتمكنوا من إدراك مضمونها، واعتقدوا أن « التعريب » يعني نزع الصفة الأممية عن الحزب الشيوعي، والرضوخ إلى ميول التعصب القومي، فإن موقف الأممية الشيوعية التي تجاوبت معه مجموعة من الرفقاء الأرمن كما ورد، افضى إلى انتصار خط الأممية انتصاراً تاماً.

لكن ما كاد الحزب ينتهي من معركة « التعريب » منتصراً فيها على العناصر الغريبة عن الماركسية ـ اللينينية، تمت خطوة تنظيمية أضرت كثيراً كانت باستبدال فؤاد الشمالي بخالد بكداش أميناً عاماً للحزب وذلك باقتراح من أرتين مادويان. حصل ذلك سنة ١٩٣٣. وما كاد ينتخب خالد بكداش أميناً عاماً للحزب، حتى طرح قضية سفره إلى موسكو للدراسة في « الكوتف » ـ مدرسة الأممية الشيوعية ـ هذا الاقتراح من أمين عام الحزب الجديد دل على عدم تقدير للوضع السياسي، فقد كان غليان النضال الوطني في سوريا ولبنان قد بدأ. ففي سوريا سارت موجة من الغضب ضد الشيخ تاج الدين الحسيني ومشروع عقد معاهدة مع فرنسا. وعجّت شوارع دمشق بالمظاهرات. وقد استشهدت في إحداها المناضلة شفيقة جبري. وفي لبنان كان النضال الاجتماعي بالغاً أشده، فمن إضراب بيروت سنة ١٩٣١ ضد شركة « الجر والتنوير » إلى إضراب سواقي

السيارات، فإضراب عمال المطابع، ثم إضراب السواقين، فالنضال العنيف ضد شركة احتكار التبغ. أمام هذا الواقع اقترح هيكازون بوياجيان بقاءه هنا، أثار هذا الاقتراح خالد بكداش وأغضبه. قال أبو داود في مذكراته: قلت لهيكازون لنضع المسألة أمام خالد نفسه ليقرر بوصفه الأمين العام، هل يجب أن يسافر أم لا. ولكن خالد بكداش قال: بدّك تلبسني هالخر.. يا بوداود؟ بدّي البسها وقرر السفر.

وهكذا حصل وسافر تاركاً قيادة الحزب لسواه في غمرة تحرك وطني واجتماعي، وفي مجال تطبيق خط التعريب الذي تترتب عليه مهامات وواجبات عديدة، قام بها فيما بعد بشكل خاص «أبو داود» ـ محمود الأطرش ـ وناصر حدة، وسليم خياطة، ومن ثم فرج الله الحلو ونقولا شاوي وفوزي الزعيم. واستمر خالد مقيماً في موسكو حتى بعد انتهاء مدة دراسته! وكان من المفروض أن يصر هو، بوصفه الأمين العام على العودة إلى الوطن، لكنه فضل العمل في جهاز الأممية المختص بقضايا المشرق العربي، على العودة لقيادة الحزب.

إن خطة «التعريب» كانت خطة صحيحة من شأنها أن تجذر الحزب الشيوعي في المجالين الوطني والقومي، وأن تطلقه في المجال الأممي. والثمار التي قطفناها بفضل خطة «التعريب» وافرة. فمن تعديل خطنا اليساري الإنعزالي في العمل النقابي والعمالي، والعمل الوطني، إلى الانخراط بقوة في هذه المجالات. ومن شعار مقاطعة كل أجهزة الحكم القائمة بما في ذلك البرلمان، إلى الاشتراك في الانتخابات سنة ١٩٣٤. ومن الارتكاز إلى خلق معارضة نقابية في كل نقابة، إلى العمل الواسع لتأليف نقابات عامة لجميع العمال. ومن شعار «حكومة عمال وفلاحين» إلى شعار الغاء الانتداب والاستقلال الوطني والديمقراطية والحكم الوطني. وبدأ النضال يتركز ضد الاستعمار والصهيونية وحليفتها الاقطاعية، والفئات المتواطئة معهم من البرجوازية. كما وإننا أولينا العمل في المجال الثقافي والصحافي اهتماما كبيراً، فكانت مجلة «الدهور» ومن ثم مجلة «الطليعة»، كما وأننا استفدنا من صحف عديدة لنشر بياناتنا، ووجهات نظرنا، ومن أبرز تلك الصحف جريدة «الرابطة» وجريدة «لسان الحال» وأحياناً «البلاد» و «السيار».

وعلى الصعيد القومي كان لانعقاد «مؤتمر المثقفين الثوريين العرب» في ربيع ١٩٣٤، في معلقة زحلة، وصدور وثيقة عنه حول الوحدة العربية، أهمية بالغة. كل ذلك حصل بين أعوام ١٩٣٣ و ١٩٣٧، مرحلة انطلاقة الحزب في المجالين الوطني والقومي، كل ذلك حصل في أثناء وجود خالد بكداش في موسكو.

وجاء اجتماع اللجنة المركزية في أوائل شباط ١٩٣٧، بعد عودة خالد بكداش من موسكو، لينقل الحزب من حال إلى آخر، فبالرغم من أننا انطلقنا في العمل العلني، وأسسنا جريدة «صوت

الشعب »، وصوبنا جهودنا للنضال ضد الفاشيستية الآخذة بالامتداد، والعاملة بشكل واضح لتحضير حرب جديدة موجهة أساساً ضد الاتحاد السوفياتي، بالرغم من كل ذلك، ومن تمكننا من تأليف « لجنة الدفاع عن الحبشة » ضد إيطاليا الفاشية التي اجتاح جيشها أرض الحبشة، ومن ثم تأسيس « عصبة مكافحة الفاشيستية » وعقد أول مؤتمر لها سنة ١٩٣٩ في بيروت، فقد غابت عشية الأربعينات شعاراتنا ضد الانتداب، ومن أجل الاستقلال ليتم التركيز على شعار « التحالف مع الديمقراطية الفرنسية ». وازداد خطأ هذا الشعار بعد سقوط حكومة الجبهة الشعبية واستبدالها بحكومات رجعية تمثل فيها أصدقاء هتلر. وقد عمل رجال الانتداب التابعين لهذه الحكومات الرجعية على اضطهاد الحزب، فاعتقلوا حوالى أربعين رفيقاً، بينهم فرج الله الحلو، ونقولا شاوي، وحكم عليهم بخمس سنوات سجناً، وبخمسة آلاف فرنك فرنسي ذهباً.

إن المسيرة المجيدة التي بدأت منذ إنجاز خطة « التعريب » وبروز وجه الحزب الوطني والقومي بوصفه حزب حركة تحرر وطني حقيقي في لبنان وسوريا، قد تعطلت جزئياً، بعد اجتماع شباط ١٩٣٧ للجنة المركزية الذي قاده الأمين العام خالد بكداش. هذا الخط الذي بالغ في موضوع التحالف مع الديمقراطية الفرنسية ضد الفاشية مهملاً الجوانب السلبية في السياسة الفرنسية، ومهملاً، وهنا الخطر الأشد، ربط شعار التحالف مع هذه الديمقراطية، بمطلب الاستقلال والتحرر والسيادة الوطنية... وقد أدى هذا الخط المائع إلى إضعاف اليقظة في الحزب وتعرضه لضربة كانت نتائجها سيئة من قبل عملاء حكومة فيشي المتحالفة مع الألمان.

ولست أزعم بأنني في هذه العجالة قد وفيت موضوع « التعريب » حقه، ولست أزعم بأنني أكتب تاريخ هذه الحقبة الغنية والمعقدة والبعيدة من الزمن، حسبي أنني أدلي بشهادتي التي اعتقد بصحتها، ويبقى لمؤرخي الحزب البحث بالوثائق العديدة الموجودة منها، والذي نحن بحاجة للحصول عليها لكتابة تاريخ تلك المرحلة الخصبة من تاريخ حزبنا، وتحليلها واستخلاص الاستنتاجات الدقيقة والحقائق الصحيحة.

أوراق من تاريخنا

محمود الأطرش مع أبو جلده والعرميط

بالرغم من المرض الذي نزل بكلكله عليه طول سنوات، تمكن الرفيق محمود الأطرش (أبو داود) قبل ما أدركته المنية من كتابة مذكراته وهي كناية عن تجربة مناضل عربي من أصل جزائري، ولد في فلسطين، وشب فيها، وتلقى علومه في الماركسية اللينينية في موسكو، وناضل في الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني. ثم أوصله نضاله وكفاءاته، وإخلاصه لقضية الثورة الاشتراكية والتحرر الوطني، إلى أعلى مقام ومكان في الحركة الشيوعية العالمية، إلى اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، حتى إذ حلت الأممية نفسها، عاد ليتابع نضاله في صفوف الحزب الشيوعي الجزائري، ولما انتابه المرض استضافته جمهورية المانيا الديمقراطية ووفرت له كل عوامل المعالجة، وبقي عدة سنوات فيها، زهاء عشر سنوات، وانكب على كتابة المذكرات موضوع هذه «الورقة» إلى أن أنهاها في العام ١٩٧٤، على أرض جمهورية المانيا الديمقراطية.

أسم المذكرات كما اختاره المرحوم محمود الأطرش هو: «طريق الكفاح ـ من مذكرات مناضل شيوعي». وقد أضفى عليها محمود، بما له من تجربة، ويتمتع به من كفاءة على التقدير والتحليل، وما عاناه في مسار نضاله، أضفى على المذكرات طابعاً مشوقاً لقراءتها، بالرغم مما هي بحاجة إليه من التدقيق في بعض التاريخ والتقدير لمواقف بعض الشخصيات في الحركة الشيوعية العالمية. ولكن ذلك لن يزيل عن المذكرات أهميتها الثورية والتاريخية بالنسبة للحركة الشيوعية العربية وبخاصة في فلسطين وسوريا ولبنان والجزائر.

تتألف المذكرات من قسمين وخمسة وعشرين فصلاً. القسم الأول يتضمن المواضيع التالية: الولادة والنشء ـ البحث عن العمل ـ التعرف على الحركة الشيوعية وثورة اكتوبر الاشتراكية ـ ظهور الأحزاب الشيوعية في الشرق العربي ـ نشوء الحزب الشيوعي الفلسطيني ـ الوضع السياسي للبرجوازية الفلسطينية ـ تأثير الثورة التركية على شعب فلسطين ـ السفر للدراسة في الاتحاد

السوفياتي ـ أسباب انتفاضة ٣٠ اغسطس ١٩٢٩ وموقف الحزب الشيوعي الفلسطيني ـ المؤتمر الأول للعمال العرب ودور الحزب الشيوعي الفلسطيني في تحضيره ـ الذكرى الأولى لثورة اغسطس ١٩٢٩ ـ المؤتمر الوطني السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني ـ السجن ـ الخروج من السجن ـ السفر إلى لبنان ـ مؤتمر زحلة للثوريين القوميين والشيوعيين ـ اتصالات حزبنا بالجيش اللبناني وبقدماء الثوار ـ العودة إلى السجن في سوريا ـ وضع الأحزاب القومية وأزمة القيادة في فلسطين ـ تأزم الوضع في سوريا ودور الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني في كشف مؤامرات الامبرياليين الفرنسيين ـ العودة إلى السجن ـ السفر عن طريق لبنان إلى الاتحاد السوفياتي ـ النضال ضد المعارضة التروتسكية ـ الاقتراح علي بالسفر إلى فرنسا والجزائر. ويتألف القسم الثاني في المذكرات من المواضيع التالية:

السفر إلى الجزائر ـ تجربة المؤتمر الاسلامي الجزائري ونتائجها ـ لمحة عن بعض المواقف السياسية في الحزب الشيوعي الجزائري ـ إلى السجن ـ الوضع في الجزائر بعد اعلان الحرب العالمية الثانية ـ العمل في البناء ـ جيوش الحلفاء في افريقيا الشمالية ـ اجتماع ممثلي الأحزاب الشيوعية في افريقيا الشمالية ٢٦ فبراير ١٩٤٥ ـ مظاهرة أول ماي ١٩٤٥ ـ حملة العفو عن ضحايا القمع الامبريالي ـ مرحلة الجبهة الوطنية الديمقراطية الجزائرية ـ المجلس الوطني الفرنسي يوافق بالأغلبية على مشروع الحكومة ـ العمال الجزائريون في طليعة النضال الوطني الاجتماعي ـ المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي الجزائري ـ الانتخابات النيابية ١٧ يونيو ١٩٥١ ـ مرحلة تفكك الجبهة الجزائرية وانسحاب حزب البيان ـ ظهور التأزم في الحركة القومية ـ تصدع حركة انتصار الحريات الديمقراطية وانقسامها ١٩٥٢ ـ موقف حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري من أزمة الحركة الوطنية ـ المؤتمر الوطني السادس للحزب الشيوعي الجزائري ـ حملة تضامنية مع السجناء والشعب التونسي ـ بداية التحضير للنضال المسلح ـ زلزلة الأصنام ونتائجها ـ حكومة منديس فرانس والقضية الجزائرية ـ بداية الثورة الجزائرية ـ نظرية الأمة الجزائرية في طور التكوين ـ موقف الحزب شيوعي الجزائري في الانتخابات الفرعية للمجلس الوطني الفرنسي ـ هبّة اغسطس الثورية في قسنطنطين ونتائجها ـ المرحلة الجديدة في امتداد الثورة ـ تضامن الرأي العام الاشتراكي الدولي مع الثورة ـ مساهمة الشيوعيين الجزائريين في الثورة ـ موقف حكومة غي موليه ـ قضية السلطات الخاصة ـ مؤتمر «الصومام» اغسطس ١٩٥٦ ـ اعتقال أحمد بن بله ـ الاضراب العام ونتائجه ـ حرب التحرير الجزائرية ـ تفاقم الوضع في فرنسا ـ العصيان الفاشي في الجزائر ودعوة ديغول للحكم ـ الحرب النفسية لمقاومة الثورة الجزائرية ـ بعض وجوه النشاط الداخلي للحزب الشيوعي الجزائري ـ إلى المعتقل ـ في معتقل الدويرة ـ تمرد غلاة المستعمرين الفاشي وخطر الهجوم على معتقلنا ـ الخروج من المعتقل ـ العودة إلى المفاوضات ـ بيان الحزب الشيوعي الجزائري ـ بعض الأمثلة من المقاومة

الشعبية لأعمال منظمة الجيش السري الارهابية ـ أصعب مرحلة في الثورة الجزائرية ـ نشوة وفرحة الاستقلال ـ عودة « الجزائر الجمهورية » إلى الصدور ـ تكاليف الاستقلال ودور أول حكومة تألفت على تراب الجزائر ـ قضية اختيار الحزب الواحد ـ قضية حل حزبنا لنفسه واندماجه في حزب جبهة التحرير الوطني ـ موقف حزب جبهة التحرير الوطني من الوحدة العربية والافريقية ـ مواقف الحكومة الجزائرية من الأقطار الاشتراكية ـ عودة إلى العمل ـ النشاط الرجعي ـ النجاحات الداخلية الأولية ـ « الجزائر الجمهورية » تصبح لسان حزب جبهة التحرير الوطني ـ من طرق المقاومة الرجعية للتقدم ـ انقلاب يوليو العسكري سنة ١٩٦٥ ـ نظرة الوطنيين الثوريين والاشتراكيين لانقلاب ١٩ يوليو ١٩٦٥ ـ الاعتقال والسجن ـ الاضراب عن الطعام ـ الخروج من سجن الحراش ـ البحث عن العمل ـ السفر إلى المانيا الديمقراطية ـ قرار حزب الطليعة الاشتراكية الجزائري سنة ١٩٦٩ وتأثيره ـ هوية حزب الطليعة الاشتراكية ـ الثورة الزراعية ـ الخاتمة.

ويتناول محمود الأطرش، بعض المواقف والتقديرات من بعض الرفقاء، كما وأنه يروي بأسلوب، غير ممل بعض الأخبار عما تعرض له رفقاء مسؤولون بسبب ضعف اليقظة، وعدم التحلي بالمسؤولية.

فؤاد الشمالي وأرتين مادويان

ورد في المذكرات: « أعلمني الرفيق المسؤول عن لجنة تل أبيب المحلية في شهر يونيو ١٩٣٠ بمجيء فؤاد الشمالي كاتب الحزب الشيوعي اللبناني (أمينه العام) آنئذ وأرتين مادويان أحد قادة الحزب الشيوعي اللبناني، إلى مدينة يافا. وقد عيَّن لي موعداً ومكاناً لمقابلتهما. وكانا في طريقهما إلى الاتحاد السوفياتي. وفعلاً قابلتهما، وكانا بصحبة درويش الشامي الذي عيَّن لهما فندقاً لمنامتهما بالقرب من المركز النقابي لعمال المرفأ، قضيت نهاري معهما خارج مدينة يافا على شاطىء « نهر جرستو » تناقشنا خلاله في بعض المسائل التي تهم حزبينا، أعلمت الشمالي بحقيقة الوضع في الحزب، ولا سيما بين الرفقاء العرب، وطلبت منه أن يبلغ الرفقاء في موسكو أقوالي هذه، وأن يطلعهم على أحوالنا وما نلقاه من المشاق لدى الرفقاء المسؤولين ».

ويتابع محمود: « تعرفت على فؤاد الشمالي خلال انعقاد المؤتمر السادس للأممية الشيوعية سنة ١٩٢٨ وكان هو، ووهيب ملك الملقب بـ « حسن » يمثلان الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني في المؤتمر. أظهر لنا فؤاد منذ البدء موافقته التامة على خطة التعريب في أحزابنا. وأعلمنا بأنه تكلم في هذه القضية أمام إحدى اللجان، وأظنها اللجنة السياسية، وكان أحد أعضائها، اقمنا له، نحن الطلبة العرب، حفلاً في المدرسة، ذكر لنا خلاله شيئاً عن نشاطه في مصر واعتقاله ونفيه إلى لبنان

سنة ۱۹۲۳ حسب ما أذكر. وقد عتب علي كاتب الحزب الشيوعي اللبناني (أمينه العام)، أبو زيّام لعدم دعوته لذاك الحفل، ولم يمنعنا من دعوته سوى معارضته لخطة التعريب ومواقفه العدائية منها». "

ويتابع محمود الكتابة عن فؤاد الشمالي وأرتين مادويان: «عدت مساء معهما حسب الاتفاق لمقابلة الرفيق المسؤول الذي أخذ على عاتقه مهمة إعداد محل لإقامتهما. وقد أعلمني بأنه قد هيأ لهما مسكناً في إحدى ديار (دور) الحزب في الحي العربي بالمنشية، يقيم فيه أحد الرفقاء العرب الذي لم يكن لي سابق معرفة به. ذهبت فيما بعد بصحبة أرتين، وكنت قد تعرفت إليه للمرة الأولى، وفؤاد الشمالي، وقبل الوصول إلى المكان المعين تركتهما، وذهبت بمفردي للتأكد من محل الإقامة. ولما دهست المنزل، تعرض لي الساكن آخذاً بخناقي وبدأ ينادي امرأته وأولاده، وجيرانه فقلت له، وقد تملكتني الدهشة، إنني جئت هنا لمشاهدة فلان، فأجابني لا وجود لمثل هذا الاسم في هذا المنزل، وتابع صياحه، وأخذ يضغط على خناقي، عندها وضعت يدي في جيبي الخلفي، وقلت له بغضب أطلقني وإلا قضيت عليك. عندها أطلق يدي وفرّ إلى غرفته. وعندما تخلصت منه عدت أدراجي إلى المكان الذي تركت فيه أرتين وفؤاد، وأشرت لهما بأن يتبعاني وبعد اللف والدوران في مختلف الطرق رأيت نفسي معهما أمام ذاك الرجل، وكان يتحدث إلى جمع من الناس، وعند مرورنا سأله أحدهم، هل هم هؤلاء، فأجاب الرجل بالنفي».

ويتابع محمود: «رجعت بعدها إلى الرفيق المسؤول، عنفته بعدما أعلمته بأن هذا العمل ليس بعمل رفيق مسؤول ولا بعمل شيوعي. وعبثاً حاول انتحال مختلف الأعذار وإخفاء استخفافه بالمسؤولية التي أوكلت إليه، لأنه كان من أبسط واجباته مراقبة المكان الذي لم يره منذ بضعة أشهر حسب قوله، والتحقق من أمن المكان بأي وسيلة كانت وإعلام الرفيق الساكن مقدماً بالأمر غير أنه لم يعمل شيئاً من ذلك. وأخيراً قال لي دعهما يذهبان إلى الفندق الذي عينه لهما درويش الشامي. فقلت له على مسؤوليتك. وبهذه الطريقة ارسل الرفيقان إلى السجن والإبعاد إلى لبنان، بدلاً من الذهاب إلى الاتحاد السوفياتي، بعدما اعتقلهما البوليس في الفندق المذكور».

خلال المدة التي أمضاها محمود الأطرش (أبو داود) في سوريا ولبنان، من العام ۱۹۳۳، إلى ربيع العام ۱۹۳٦، انطلق الحزب في توسيع وتعميق خطه الماركسي اللينيني في القضية القومية، وفي هذه الفترة بدأ شعار «السوفيات في كل مكان» يزول تدريجياً، وحل محله شعار «الجبهة الوطنية» على الصعيدين الوطني والقومي، والجبهة الموحدة في المجال العمالي والنقابي. وما مؤتمر زحلة سنة ۱۹۳٤ الذي ساهم أبو داود مع سليم خياطه في تحضير وثائقه، إلا أحد المؤشرات التنظيمية والإعلامية على ذلك.

كيف تعرفت على سليم خياطه؟

وهنا يتكلم أبو داود عن معرفته بسليم خياطه ونقولا شاوي ويقول: « تعرفت على الرفيق المثقف سليم خياطه، وبواسطة سليم خياطه تعرفت على الشاب الطالب نقولا شاوي الذي ترك عليّ أحسن تأثير، وأظهر بعدما أتمّ دراسته، استعداداً للعمل في الحزب».

ويتابع:

« وجدت عند الرفيق المثقف سليم خياطه استعداداً وتفهمًا كبيرين من أجل العمل على توسيع قواعد الحزب بين المثقفين الثوريين، ولا سيما وقد وافق آخر سنة ١٩٣٣، نهاية مرحلة التعريب في سوريا ولبنان، وابتداء مرحلة جديدة هي مرحلة الجبهة الوطنية الموحدة، على العمل وفقاً لخطة الحزب».

« كان قصد الحزب في البدء العمل على تجسيد ما حققه من نجاحات في المدة الأخيرة. وإعطاء هذا العمل شكلاً تنظيمياً لتكتب له الحياة والتطور والنجاح. غير أن القصد الأسمى آنذاك هو تكوين جبهة كل القوى الوطنية والثورية لتشديد مقاومة الامبرياليين الفرنسيين والفاشية وإيجاد الظروف الملائمة لتحقيق ما تطالب به شعوبنا من حريات ديمقراطية واستقلال، وتوجيه ضربات قاسية للرجعيين المحليين ولسياسة « التفاهم النزيه » مع الامبرياليين. وقد فهم الرفيق سليم خياطة خطة الحزب وتطوع للعمل بجد من أجل تنفيذها ».

(مذكرات محمود الأطرش الفصل ١٦)

فرج الله الحلو

وتحدث الأطرش في مذكراته عن فرج‌الله الحلو قال: « في أوائل خريف ١٩٣٤ (الصواب في تموز) عاد الرفيق فرج‌الله الحلو إلى لبنان بعدما أتمّ دراسته في موسكو. وبعودته توسعت دائرة افق أعمال الحزب وكلف في البدء بمنظمة جديدة في حلب. ولم يكن لحزبنا آنذاك منظمة تذكر هناك، بل بضعة رفقاء شبه مشتتين. وبوجود الرفيق فرج‌الله الحلو تمكن الحزب بعد مدة قليلة من تكوين منظمة حزبية محلية بكل معنى الكلمة ومن إرسال عدد من الرفقاء في حلب للدراسة في الاتحاد السوفياتي كان الرفيق فرج‌الله مثالاً للانضباط الثوري والعمل الجدّي الدؤوب المتواصل الذي كان يقوم به بكل نكران ذات، وبهمة ثورية شيوعية عالية. كان صلباً ومتواضعاً مما جلب إليه محبة الرفقاء واحترامهم له. كما كان من مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني ومن قادته البارزين. قام بدور هام في الحركة العمالية والتحريرية في سوريا ولبنان».

(الفصل ١٨ من المذكرات)

مذكرات محمود الأطرش التي تتناول الحقبة التاريخية ولو بإيجاز، من حكم نابليون سنة ١٧٩٨ في مصر مروراً بحكم محمد علي الكبير ١٨١٢، حتى الانتداب الفرنسي والانكليزي، فمرحلة الاستقلال والحكم الوطني وما تخلل هذه الحقب والمراحل من انعطافات، وحدث فيها من ظاهرات، وحتميات، كتطور الطبقة العاملة، ونشوء الحركة الشيوعية، تشكل هذه المذكرات بمحتوياتها الثمينة، زاداً لا غنى عنه لكل مؤرخ، وبحاثة، وبخاصة من يجعل الماركسية ـ اللينينية أسلوباً له في التفكير، والتاريخ والبحث.

اعتقال أبو داود

في مطلع العام ١٩٣٦ اعتقلت سلطات الانتداب في لبنان محمود الأطرش (أبو داود) في غرفة لي استأجرتها في حي الناصرة بليرتين بالشهر. وقد أحاط الأمن العام الفرنسي اعتقاله بهالة مضخمة من الدعاية، فكتبت الصحف تقول: اعتقل قائد شيوعي جديد أوفده (الكومنترن) إلى سوريا ولبنان، انه «عين موسكو» ولكنه عربي هذه المرة.

اما كيف ولماذا اعتقل أبو داود، فلأن عميلاً للأمن العام كان مدسوساً في الحزب الشيوعي ويتمتع بمسؤولية في «لجنة الحزب المحلية» ببيروت، وكان هذا على صلة دائمة بأبي داود ويعرف أنه ينام في الغرفة خاصتي. هذا العميل هو الذي أرشد الأمن العام لاعتقاله. وصدف أنني في تلك الليلة (مساء الأحد) كنت قد ذهبت إلى الضيعة. وفي أثناء عودتي يوم الاثنين مررت على دكانة عارف فأخبرني بما حصل، فانقطعت عن الذهاب إلى الغرفة. وفيما بعد أصبح العميل المتستر موظفاً رسمياً في الأمن العام الفرنسي.

في المحكمة المختلطة

حُوّل أبو داود إلى المحكمة المختلطة، وهي المختصة وحدها بمحاكمة الشيوعيين. ودافع عنه الاستاذ شارل حلو، وقد برأته المحكمة، وأفرجت عنه وأنذر بمغادرة البلاد.

وسبق اعتقاله انعقاد المؤتمر السابع للأممية الشيوعية في ١٩٣٥، وقد انتخب أبو داود الذي رشحته الوفود العربية، لعضوية اللجنة التنفيذية وانتخب كسواه من الأعضاء بالإجماع. وعليه كان مضطراً للسفر إلى موسكو لاستلام مهمته في الأممية الشيوعية التي أصبح أمينها العام جورج ديمتروف.

في الأممية أصبح «أبو داود» معروفاً باسم «سليم عبود» وله جملة مقالات حول القضية الفلسطينية نشرت في جريدة «صوت الشعب» موقعة باسم «سليم عبود» الاسم السرّي لأبي داود.

في أثناء انعقاد المؤتمر السابع للأممية الشيوعية، وكنت مع الرفيق خالد بكداش نمثل الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، وفي أثناء إلقاء الكلمات، ألقى خالد كلمته عن سوريا، وأنا ألقيت كلمتي عن لبنان. ونشرت « البرافدا » سطوراً منها وقالت: وتكلم مندوب لبنان.

الوفود العربية، مصر وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق وافقت كلياً على اقتراح « الكومنترن » بأن يكون محمود المغربي عضواً في اللجنة التنفيذية للشرق العربي. وقد انتخب عضواً دون أي اعتراض، وسافر أبو داود من لبنان إلى موسكو حيث مقر اللجنة التنفيذية، عن طريق فرنسا، واستقر في موسكو منذ أواخر العام ١٩٣٥، حتى قبيل الحرب العالمية الثانية، حيث كلفته اللجنة التنفيذية للأممية بالسفر إلى الجزائر لمساعدة الحزب هناك. ووقعت الحرب وهو في الجزائر، فانقطعت أخباره، إلى أن بدأ الجو الحربي بالانقشاع واعيدت الصلات بالحزب الشيوعي الفرنسي، عندها علمنا أن أبا داود، لا يزال على قيد الحياة ومعافى. وإذا بي ذات يوم، وكنت مديراً لجريدة صوت الشعب، أتلقى منه رسالة يطلب إلي فيها تزويده بكتاب « الثورة العربية الكبرى » وهو ثلاثة أجزاء لمؤلفه أمين سعيد، وبعدما وجدته في إحدى المكتبات، أخذته وأرسلته إليه. وبدأت علاقتي به تتواصل عبر الرسائل، إلى أن التقيت به في برلين سنة ١٩٦٤، وكان هناك لقاء عالمي بمناسة الذكرى المئوية لتأسيس الأممية الأولى.

وبعد ذلك أصبحت العلاقات بيننا شبه منتظمة، يكاتبني باستمرار، وقد أمن الحزب الشيوعي اللبناني له، الصحف التي يصدرها. كما وأنه فتح له الباب لكتابة كل ما يشاء فيها. وبالفعل فقد أمدها بالعديد من المقالات القيمة سواء ما هو منها حول الوضع في الجزائر وشمالي افريقيا، أو ما هو عن تاريخ الحركة الشيوعية في البلدان العربية، أو حول سياسة الامبريالية الأميركية، في الشرق الأوسط والمغرب العربي، وفي جميعها التزم، محمود شأنه دائماً، بالأسلوب الماركسي اللينيني.

وفي مؤتمر الحزب الشيوعي اللبناني الثالث ١٩٧٢ كان محمود يرئس وفد الحزب الشيوعي الجزائري، وقد ألقى خطاباً في المؤتمر. وكان معجباً جداً بطريقة عمل حزبنا، والأساليب التي يتبعها، وسياسته في المجالين الوطني والقومي. ولقي محمود تكريماً خاصاً من قيادة الحزب الشيوعي اللبناني، وكيف لا يكون ذلك وهو من الذين ساهموا في بناء هذا الحزب، وعملوا بإخلاص لتصحيح خطه في المحيطين الوطني والقومي، وفي مجال تقديم الكادر العربي.

الذكرى الخمسون لتأسيس الحزب

وبمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني في ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩٧٤،

وجهت قيادة الحزب دعوة خاصة إلى محمود لحضور الاحتفالات الواسعة المعدة لهذه المناسبة. فأتى مسروراً جداً، وكان حظي سعيداً، لأنني كلفت بمرافقته. فقد كانت انطباعاته حول دور حزبنا وتطوره جيدة، وقدّر عالياً النشاط الذي تبديه قيادته لتحويله إلى حزب يتمتع بكامل الصفات؛ أممي، وطني، قومي، جماهيري، مقاتل الخ...

ولأنه تأخر عن حضور مهرجان حصرايل في ١٩ تشرين الأول ١٩٧٤، الذي حضره أكثر من عشرين ألف نسمة، لإزاحة الستار عن تمثال شهيد الحزب فرج الله الحلو، قام لاحقاً بزيارة خاصة إلى حصرايل، وعندما وصل إلى أمام التمثال، ركع محمود ووضع باقة زهر أمام أصدق أصدقائه، فرج الله الحلو.

وسافر محمود عائداً إلى المانيا الديمقراطية حيث كان يقيم لإنهاء كتابة مذكراته. وتبقى المراسلة مستمرة بيننا. وقد أتم كتابة المذكرات التي تعتبر بحق سرداً واسعاً ومعمّقاً لتاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني، وجزء كبير من تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني.

وذات يوم وكان محمود قد تأخر بالكتابة إلي، إذا بي أتلقى رسالة منه من الجزائر يقول لي فيها: عدت إلى أرض الوطن، بعدما اصبت بنكبة بوفاة زوجتي التي صدمتها سيارة فقضت على حياتها» ومن الجزائر استمر، بين الحين والآخر، بكتابة مقالات لجريدتي «النداء» و «الأخبار»: إلى أن مضت مدة طويلة لم أتلق فيها رسالة منه. ولكن رفيقاً يطلع باستمرار على الصحافة الفرنسية، أتى يوماً وقال لي، مات صديقك، أبو داود، والخبر أوردته بكل تقدير واحترام جريدة «الأومانيته» في صفحتها الأولى.

من ذكريات محمود في بيروت

لأبي داود تاريخ نضالي مجيد في بيروت. جميع الكوادر الحزبية كانت تقدره، وتحترمه. سلاحه كان الاقناع، وطريقته إلى الاقناع كانت الحوار. وما عمل رفيق في مجال معه، إلا وحظي بأعمق العطف وبأوسع الشعور بأنه يعمل مع مربٍّ، لا مع قائد سياسي فقط. ولنقرأ أبا داود في وصفه لعودته إلى بيروت في أواخر العام ١٩٣٣ وذلك في مذكراته صفحة ٢٠٩، قال: «عند رجوعي إلى مدينة بيروت أواخر سنة ١٩٣٣، وضع الرفيق خالد بكداش أمام أمانة الحزب قضية سفرة للدراسة في الاتحاد السوفياتي. وكان هيكازون بوياجيان يعارض هذا السفر، لأن مجال العمل الحزبي، يزداد كل يوم توسعاً، بشكل لا يسمح بنقص في الإطارات الحزبية الأساسية. وبالعكس فهو يتطلب إطارات جديدة. وقد صرح لي هيكازون برأيه هذا قبل الاجتماع. لكنني اقترحت عليهم في أثناء اجتماع القيادة أن نترك الأمر للرفيق خالد ليقرر ماذا يجب أن يعمل: فالتفت خالد

نحوي وقال مازحاً « يعني أنك تريد وضع « حز ... » على رأسي يا بو داود ، حسناً أضاف خالـد ، إنني أقرر السفر ». وقد توجه خالد إلى موسكو في أوائل كانون الأول سنة ١٩٣٣ مع أنه كان قد انتخب أميناً عاماً للحزب. وكانت البلاد تغلي كالمرجل بالنضال ».

مع أبو جلده والعرميط

في مذكراته (المخطوطة) كتب محمود الأطرش عن لقائه في السجن بالثائرين الفلسطينيَّين، « أبو جلده » و « العرميط ».

« إذا كان الشيوعيون في لبنان وسوريا وفلسطين قد أولوا قضية الشعب الفلسطيني اهتمامهم منذ بزوغ فجرهم في أوطانهم لبنان وسوريا وفلسطين ومصر والعراق، ورفعوا منذ اطلالتهم السياسية، على المسرحين العـربي والدولي رايـة الاستقلال الوطني لفلسطين، والنضـال الدائـم العنيـد ضـد الصهيونية والاستعمار البريطاني، فلأنهم انطلقوا من المبدأ الذي بنيت على صخرته أحزابهم، وأن الحزب الشيوعي هو حزب تحرر وطني قبل أي شيء آخر، حزب النضال من أجل الاستقلال والسيادة الوطنية.

وإننا لنفتخر نحن في لبنان وسوريا بأن البيانات التي صدرت عن هيئاتنا المسؤولة منذ العام ١٩٢٨، وأن الكتابات التي أنشأها المثقفون الشيوعيون وأصدقاؤهم منذ منتصف العشرينات، من يوسف ابراهيم يزبك إلى سليم خياطه، وفايز يارد، وأحمد زكي الأفيوني، ورئيف خوري، ورجا حوراني، وان أشعار فؤاد الجرداق، وكفاح عساف الصبّاغ في شغاف ومنعطفات « الحولة » ضد العصابات الصهيونية، تلك البيانات والكتابات والأشعار، تشكل تراثاً لا للشيوعيين في بلداننا فحسب، بل ولشعوب بلداننا كافة، للقضية الفلسطينية نفسها التي يحمل كل وطني، في أي بلد عربي علمها، عاملاً من أجل حلول ذلك اليوم الذي يتسنّى للعرب فيه أن يضعـونـه فـوق أرض دولتهم العربية الفلسطينية الحرّة، في أرض فلسطين بالذات.

الشيوعيون المخلصون في ثباتهم هذا، إنما ينطلقون من مقولة كبير شهدائهم فرج الله الحلو القائل: **« كل حزب وطني لبناني، بل كل مواطن لبناني على الإطلاق مهما كان موقفه السياسي ورأيه، ومهما كانت طبقته الاجتماعية، سواء كان رأسمالياً أم عاملاً، أم فلاحاً، أم تاجراً، مثقفاً أم طالباً، يبقى نضاله في سبيل استقلال لبنان ناقصاً، وتظل سياسته الوطنية غير رشيدة، إذا لم يكافح الصهيونية وشركاءها، وإذا لم يتضامن مع فلسطين العربية الشهيدة، ويعاونها في النضال ضد هذه الآفة البغيضة، آفة الصهيونية ».**

هذه المقدمة الموجزة تهيب بنا إلى قراءة الصفحات التالية التي تعطينا صورة عن الآمال التي

علقها بعض طلائع الثورة الفلسطينية في مطلع الثلاثينات على الشيوعيين في دعمهم لقضية شعب فلسطين، ونصرتهم لثورته.

في مطلع الثلاثينات سمعنا كثيراً عن الشاعر «أبو جلدة» الفلسطيني فصوّروه لنا بأنه «مشلدقجي» قطّاع طرق، وظلت هذه الصورة راسخة في ذهني إلى أن تسنّى لي في الخمسينات قراءة قصيدة للصديق المؤرخ الكبير سلام الراسي عنوانها «أبو جلدة»، وكانت قد نشرت في جريدة «الشرق»، ونقلتها عنها مجلة «الدهور» في عددها الصادر في شهر كانون الأول سنة ١٩٣٤.

وتدور الأيام، وينكبّ الصديق الرفيق العزيز محمود الأطرش المعروف في لبنان بـ «بو داود»، ودولياً باسم «سليم عبود» عضو اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية (الكومنترن) على كتابة مذكراته، وهي لا تزال حتى تاريخه مخطوطة. ففي الصفحة ١٥٦، وتحت عنوان: «ساعة مع أبو جلدة والعرميط في سجن القدس المركزي». كتب الأطرش: «كان ذلك في ربيع العام ١٩٣١، حسبما أذكر، حين شاهدت عند دخولنا إلى ساحة سجن القدس المركزي، وكانت إدارة السجن لا تسمح لأحد من السجناء العاديين بالبقاء في الساحة عند دخول الشيوعيين، سوى المحكوم عليهم بالإعدام، حين شاهدت رجلين بالبستها المدنيّة مكبّلين بالحديد غير آبهين في سيرهما، ذهاباً وإياباً، داخل تلك الساحة، بأثقال الحديد.

اقتربت رأساً منهما وعرّفتهما باسمي وهويتي الشيوعية، فأجاب أحدهما وكان عريض المنكبين، طويل القامة، ضعيف الوجه، يبدو وكأنه أكبر سناً من رفيقه، اسمي فلان أبو جلدة. وقع عليّ اعتقاله وقوع الصاعقة، لاحظ هو ورفيقه عليّ ذلك، وكنت قد قرأت عن أعماله وصاحبه في الجرائد.

كان اسم «أبو جلدة» على لسان كل فلسطيني وموضع فخره. كان بائعو الخضر والفواكه والخبز، والعمال كلهم يتغنون في بيوتهم وأعمالهم باسم هذا الرجل، الذي أرعب الامبرياليين، وأصدقاءهم من الصهيونيين، وأقضّ مضاجعهم ردحاً من الزمن، لأنهم كانوا يرون فيه النواة الأولى لبعث النجاح الجماهيري المسلح ضد انتدابهم وجورهم وها هو اليوم في قبضتهم. كان يوم اعتقاله وصاحبه، حسبما علمت فيما بعد، من الأيام السعيدة لدى الغاصبين البريطانيين وأعوانهم الصهيونيين. كان يوم احتفالات كبيرة، لديهم، وتبادل الانخاب، كما حدثنا أحد السجناء الذين كانوا يخدمون في دار الـ «سباسير» القائد العسكري للجيوش البريطانية في فلسطين.

أما الآخر فكان وردي اللون والوجه، أشقر الشاربين والشعر، متوسط القامة. فقد نظر إلي بحسرة وألم وقال، بعدما أومأ برأسه تأسفاً، « الآن تأتينا للتعرف علينا بعدما نفذ السهم. كم كنا نبحث عنكم في الخارج، ولكن دون جدوى. كم بعثنا إليكم من الناس للاتصال بكم، وكم سألنا حتى بعض من كنا نصادفهم في طريقنا، إذا كانوا من الشيوعيين أم لا؟ فلم نقع لكم على أثر. وأخيراً قال لي اسمي فلان العرميط.

أعلمني أبو جلدة أنه ورفيقه كانا يعملان لإقامة فرق مسلحة، لا كما يقولون للنهب، بل لمقاومة الاحتلال ومن أجل استقلال فلسطين. كم أرسلنا من الرسائل إلى جريدة « فلسطين » وباقي الجرائد العربية لنطلع الأمة والشعب على أعمالنا ونوايانا هذه. لقد تهرب الزعماء والاعيان وتبرأوا من أعمالنا ومن مشاريعنا التحريرية هذه. وليس لنا سواكم انتم محط آمالنا. ولكن مع الأسف لم نعثر عليكم لتساعدونا على السير ولتقوذوا خطانا نحو الطريق الصحيح.

فأجبته، يا أخي، نحن على قاب قوسين أو أدنى منكم، ولولا وقوعنا في السجن لما تمكنّا من الاتصال بكم والتعرف عليكم وعلى حركتكم المهمة هذه، ولعل تاريخ حياتكم وحياتنا عندها يتبدل لفائدة شعبنا.

اسمع، قال العرميط، أنا لست بسياسي، ولكنني أعتقد كصاحبي أن جماعة اللجنة التنفيذية التي كنا نأمل الخير منها، ليست على صواب في مواقفها تجاه الانكليز، لا يمكن التفاهم مع الانكليز إلا بالنضال، وبالنضال الشديد فقط نرغمهم على الاعتراف والتسليم بحقوقنا وحقوق امة فلسطين العربية وشعبها. آه يا صاحبي كم كنا مشتاقين إلى رؤيتكم خارج هذا المكان لترسموا معنا طريق العمل. انتم والله فقط الذين كانت لنا الثقة التامة بكم.

أما الآخرون فقد عرفناهم وجربناهم. همهم الأكبر اقتسام المناصب الكبرى ورعاية مصالحهم الخاصة قبل كل شيء. إنهم خدعونا وباعونا للانكليز ولليهود بأبخس الاثمان ».

ويتابع محمود الأطرش يقول، « ولما سألته عن الذين كانوا السبب في اعتقالهم، لم يجبني على سؤالي سوى كلمة، الله يعلم. أما أنا فقد أعلمته بدوري عن الذي سبب اعتقالنا وهو عبد المعطي الصالح البرغوثي.

هنا تدخل أبو جلدة مرة أخرى في الحديث، وقال، والآن يريد الانكليز أن يظهرونا بمظهر قطاع الطرق، أجل لقد أوقفنا بعض القطارات لكننا لم نمس أحداً بأذى، ولم نأخذ الدراهم إلا من أهلها المستعمرين واليهود والأغنياء لا للتنعم بل لإقامة عصابات مسلحة بها، ولم نأخذ سوى ما نحن بحاجة إليه. وكنا نسأل الركاب إذا كان أحدهم شيوعياً، وكانت الأجوبة دائماً سلباً، إننا

لسنا بأشقياء ولا بقطاع طرق، بل طلاب حق والله يشهد على ذلك».

يقول الأطرش، قضيت معهما «أبو جلدة والعرميط» ساعة مرت وكأنها بضع دقائق ولم افارقهما إلا بعد أن نادى منادي السجانين، «ادخلوا البلشفيك إلى غرفهم»، ودعتهما والألم يحز في نفسي، ومنذ ذاك اليوم لم أشاهد سوى العرميط بعد بضعة أشهر وعن بعد وقد شحب وجهه وهزل جسمه».

وقد وجدت من الضروري أن ارفق هذه الصفحات المجيدة بالقصيدة العصماء التي نظمها سلام راسي، بعدما شنق الثائر الكبير أبو جلدة وهي التالية، وقد نشرت في جريدة «الشرق» ونقلتها نها مجلة «الدهور» سنة ١٩٣٤.

أتشنق لا سيف يسل ولا دم ... هل انثلم الصمصام وانلجم الفم
وهل ريعت الأشبال يا ضيغم الحمى ... فما زأرت غيظاً ولا هب ضيغم
ويا أيها السيف الغضوب ألم يثر ... لخطبك مصقول غضوب ومرقم
هببت لتشري بالدماء كرامة ... لشعبك واستقلال عز يكرم
فأنت نبي الحق في شر أمة ... وهل من نبي في فلسطين يسلم
تباع بها الأسياد بخساً وتشترى ... كما بيع فيها الناصري، وتعدم
ألم تدر أن الحر فيها محقر ... وأن الفتى النمام فيها معظم
وأن الذي خان البلاد وعقها ... شريف، وأن المخلص البر مجرم
وأن الألى عدوك مذ ثرت مجرماً ... ولكن لعمري المجرمون هم هم
أبا جلدة لا تخشى أشرف ميتة ... وقد كان يخشاك الخميس العرمرم
فإن لم تنل بالسيف حقك فافتخر ... بأنك لم ترحم فتى ليس يرحم
وأنك لم تظلم ضعيفاً ولم تهن ... لعات، ولم يخدع عيونك درهم

* * *

تعودت الأقفاص أفراخ ذلة ... وما سكن الأقفاص بالذل قشعم
ليهنك موت بالبسالة حافل ... ورأسك مرفوع وثغرك يبسم

في تاريخنا اللبناني بخاصة، والعربي بعامة العدد العديد من مثل «أبو جلدة» و«العرميط» غيبهم عنا كتبة التاريخ، ونحاهم حكام لا يرون البطولة والتخليد، إلا عَبْرَ الأطياف والأموال، وارتكاب المظالم، فكم من ظالم استباح المحرمات والمقدسات، حوَّله بعض المؤرخين إلى منقذ، بطل، ارتبط باسمه بكل ما هو حضاري، وإنجاز عمراني في لبنان. وهكذا هو شأن بعض المؤرخين

في أي بلد عربي.

في لبنان وأي قطر عربي، من الواجب إعادة النظر في كتابة التاريخ، ولنضع كلاً في مكانه. إن شعب فلسطين يوم يتحرر ويبني دولته الحضارية المتقدمة، سيقيم لأبي جلدة والعرميط تمثالين يكونان محجه للمعتزين بوطنهم، بشعبهم، بقدرات ابنائه البسطاء، الجياع، الحفاة، العراة. فشكراً لك يا «بو داود» وأنت في أرض الجزائر ترقد رقودك الأبدي. شكراً لك على ما أورثته لنا وزودتنا به. شكراً للصديق سلام الراسي على قصيدته «ضيغم الحمى»، وشكراً لسليم خياطه الذي نشرها في «الدهور» لتكون زاداً للخلف من خلالها يتعرف إلى أبطاله، فيندفع في كفاحه من أجل التحرر والانعتاق مقتبساً من نضالهم، القدرة والنخوة والصلابة.

سليم خياطه
هل نفيه دينه؟

العظام المنسيون من أبناء شعبنا كثر. مع أن الكل يتبجح بحب الوطن، ويمجد لبنان ويتغنى بالتراث والأصالة اللبنانيين، ولكن العظام العظام من أبناء شعبنا معظمهم منسي. ليس لبنان صخوراً وأحراجاً، ولا ينابيع وشلالات، ولا شطآناً وقمماً، ولا بلاجات، ومواقع اصطياف وإشتاء وحسب، بل هو قبل كل شيء، الإنسان، الإنسان اللبناني الذي صنع بكده وجده، وصموده، وعناده، الأصالة والتراث، وكل ما في بلدنا من خلق وإبداع. وإنني بهذه المناسبة أذكر لا أهل القلم في لبنان، من صحافيين، وكتاب، ومثقفين، ومحامين وحسب، بل وأذكر الكادحين بأيديهم وأجسامهم، العمال والفلاحين، وكل من سعى لكسب كي يؤمن رزق عياله. أذكّرهم بكبير منا، من لبنان لم يسعده الحظ أن يعيش أكثر من ٥٥ عاماً، كبير أعطى خلال عشر سنوات من حياته، بين الثلاثين والأربعين، ما لم يعطه سواه على مدى نصف قرن. هذا الكبير الكبير هو سليم خياطه (الابن).

ولد سليم خياطه سنة ١٩١٠ وهاجر مع والديه إلى الولايات المتحدة الأميركية. وعاد معهما منها في مطلع العشرينات، وتلقى دروسه العالية في الجامعة الأميركية ببيروت، ودروسه التخصصية في المحاماة في معهد الحقوق العربي في دمشق.

أورث سليم خياطه (الأب) أولاده لا ثروة مادية وحسب، بل ثروة أكبر وأثمن. أورثهم التقدمية والثورية. وعلى غراره نشأ أولاده سليم كبيرهم، وحليم، وإميل، وحتى العام ١٩٤٢، كان دار خياطه في طرابلس في حي الزاهرية محراباً للحركة الشيوعية. وسليم (الأب) وكل عائلته كانت تفتخر بهذه الصفة.

كان سليم خياطه شعلة ذكاء، وأهراء للثقافة الإنسانية. وعهد العطاء الذهبي الذي غمر فيه سليم الساح اللبناني والعربي بالعطاء بدأ في مطلع الثلاثينات واشتد زخمه في منتصفها، وامتد حتى العام ١٩٣٩. في هذه الحقبة كان سليم خياطه شاغل الصحافة، مالىء المجالس الأدبية والفكرية، كتب كثيراً وأنشأ مقالات عميقة طالت العديد المتنوع من المسائل الفكرية والأدبية الأساسية. في «الدهور»، في «السيار»، في «الطليعة»، في «صوت الشعب»، و «النداء»، و «الكوكب». وله مقالات في «الأهرام» المصرية. وأنشأ مؤلفات كانت محط توقف كبار الأدباء والكتاب والمناضلين الوطنيين: «حيات من الغرب» و «على أبواب الحرب» و «الحبشة المظلومة» و «الأزليان». بالإضافة إلى مقالات شهيرة نشرت في الصحف المشار إليها آنفاً، منها: «مدينة على بحر الروم» و «نداء إلى المثقفين» و «النظام».

والتزام سليم خياطه بالحزب الشيوعي فرض عليه بحكم موقعه في الصحافة، أن يستقطب حوله جمهرة من الشباب التقدمي المتنور. ولكن الاستعمار الفرنسي لم يمكّن سليماً من إكمال مشاريعه الثقافية في المجال الصحافي، والوطني، والقومي. وبعد أن أصبحت مجلة «الدهور»، وهي في عهدته سنة ١٩٣٤، أوسع مجلة تقدمية في العالم العربي، وبدأت تبرز على صفحاتها أسماء كبيرة: أمين الريحاني، مخايل نعيمة، رشيد سليم الخوري، محمود تيمور، يوسف إبراهيم يزبك، محمد جميل بيهم، والعديد سواهم، أبعد الاستعمار سليم خياطه إلى فلسطين. وقبيل تنفيذ قرار الإبعاد نشر سليم بياناً في «الدهور» تحدث فيه عن الظروف التي تمنعه من الاستمرار في متابعة إصدار المجلة وهذا نصه:

إلى قراء ومشتركي ومناصري «الدهور» في كل مكان

«يؤلمني أن لا تمر بضعة أشهر على تعهدي وعصبة منورة من الأدباء، مجلة الدهور»، حتى تعترضني حملة القهر والجهل المنظمة اعتراضاً ظل يوالي ضرباته لتعطيل هذا العمل الكبير برسالته التحريرية والثقافية الرفيعة، التي أخذت «الدهور» تنطق بها نطقاً قوياً بعيد الأثر وتوحد لها صفوف النضال.

لقد اعتذرت «الدهور» في الشهر الماضي إلى قرائها عن تأخر صدورها بسبب اعتقالي الذي لم يكن مستنداً إلا إلى كابوس وهمي ثقيل. وأما في هذا الشهر، فإن التأخر يرجع إلى صدور قرار من المفوضية يقضي بإبعادي عن البلاد الموضوعة تحت الانتداب الفرنسي وإلى قرار من مجلس بلدية بيروت يقضي بعدم الترخيص لمطبعتي بالشغل، مما قطع مجرى أعمالي.

وأني آمل، وإن أبعدت عن هذه البلاد، أن «الدهور» ستبقى متابعة صدورها بعناية حضرة منشئها صديقي الاستاذ إبراهيم حداد وبمساندة العصبة المتحررة التي كانت تؤازرها.

وليس لي قبل السفر إلا أن أرسل تحيتي العاطرة إلى أبناء البلاد التي أحببتها وتطوعت كأديب للنضال في سبيل تحريرها، وهي البلاد التي نشأ فيها أجدادي، وهجرها لظلم حاكميها آبائي، والتي أطرد منها اليوم، فأتركها رغماً عني وأنا واثق بأن ليست من قوة تستطيع أن تمنعني عن متابعة العمل التحريري الذي يضطلع به المناضلون الأقوياء في الأقطار العربية وفي العالم أجمع».

سليم خياطه

(«الدهور» - كانون الأول ١٩٣٤)

ويعود سليم خياطه بشروط إلى لبنان ويستمر بين أعوام ١٩٣٧ و ١٩٣٩ في العمل بمطبعته في طرابلس، إلى أن أعلنت الحرب العالمية الثانية، وشن الاستعمار الفرنسي حملة اعتقالات ضد الشيوعيين، وكان سليم ممن اعتقلوا مع الدكتور سميح علم الدين وسواهما في طرابلس. ووضعوا في قلعة الدريكيش. وهناك تعرض سليم لتعذيب نفسي وجسماني. أثر على صحته، وبعدما خرج من المعتقل سنة ١٩٤١، استمر في إدارة مطبعته بطرابلس، إنما صحته كانت تسير من سيء إلى أسوأ. وأصيب بتصدع عائلي زاد في بلواه، وأثر على تفكيره. وبقي هذا العملاق الذي كان لسنوات محط أنظار كل مثقف ومتنور، كل عامل وفلاح، نسياً منسياً. لم يلق أي عضد لا من صديق ولا من رفيق، وحاقه الفقر من جميع الجهات. إلى أن قضى نحبه في العشرين من تموز سنة ١٩٦٦ في طرابلس.

في مقالاتي التي كتبتها ونشرت في مؤلفي: «من نافذتي» وفي المقالات الأخرى التي نشرت في مؤلفي الثاني «الدرب والرفاق»، كتبت كثيراً عن سليم خياطه، ودوره البارز في تطوير الحزب خلال حقبة زمنية معينة، كتبت ما كتبته بروح نقدية. لأن الرهط الذي أعطاه سليم زهرة شبابه، كل حياته لقضيته، لم يقم بما يفرضه الواجب الوطني والإنساني، والحزبي تجاهه، فمات فقيراً معدماً، وواراه الثرى عدد من الناس لا يزيد عن الخمسة.

كنت أجهل متى مات سليم، وصدفة وفي أثناء حديث مع أحد معارفي، وكان الحديث يدور حول أدب سليم خياطه، سألته عن تاريخ وفاته، فقال توفي في ٢٠ تموز سنة ١٩٦٦.

إن كلمتي هذه هي دون ما يجب أن يكتب عن سليم. ودون ما يجب أن يعمل من أجل إحياء ذكرى هذا العملاق الذي قلّ نظيره. إن الواجب، الأصالة، والرفاقية واللبنانية الحقة تقضي، على من يحملون الشعلة الآن، من أخوان سليم ورفاقه، من اتحاد الكتاب اللبنانيين، ومن الصحافة اللبنانية، وسليم كان صحافياً منتجاً ومتفوقاً أن يصار إلى تشكيل لجنة تعنى بتراث سليم خياطه،

وتعمل لإحياء ذكراه، بإعادة طبع مؤلفاته، وجمع مقالاته المبعثرة. وطبعها في مؤلفات لا لأنها أوابد تاريخية وحسب، بل ولأنها تشكل مادة حية لمن يتعاطون الكتابة بالأدب السياسي، وبالثقافة الوطنية.

إن الترجمة، والنقل، والاقتباس عن هذا الكاتب غير اللبناني، وإفساح المجال لنشر المطولات عنه مشكور وضروري. ولكن الاهتمام بالمسنين من أدبائنا وكتابنا، وهم طاقات لا تغني سوقنا الأدبية والصحافية وحسب، بل والسوق العربية والعالمية معاً، الاهتمام بهؤلاء، ومنهم سليم خياطه، هو واجب وطني وإنساني، قومي وأممي.

عن سليم خياطه

بعد إعادة تنظيمه عقيب الكونفرانس الموسع في أواخر العام ١٩٣٠ الشبيه بالمؤتمر، وصدور وثيقة برنامجية عنه لا تزال حتى يومنا تحتفظ بأهميتها الثورية، انفتحت أمام الحزب الشيوعي اللبناني آفاق جديدة. فمن جهة بدأت قيادته تتركز ومسؤولياتها تتحدد. ومن جهة ثانية بدأت منظمات حزبية جديدة تنشأ، في المدن والأقضية والقرى.

كان لبنان وسوريا، على أبواب مرحلة نضال جديدة. ففي سوريا كان المد الوطني يتسع.

وفي لبنان بدأ النضال وقد اتخذ شكلاً اجتماعياً. فبعدما حل المفوض السامي بونسو مجلس النواب وأوقف مفعول الدستور بين ١٩٣٢ - ١٩٣٣، اتسعت تحركات الطبقة العاملة التي وضعت مطالبها المهنية بصلة مع المطالب السياسية والحريات الديمقراطية. وأبرز هذا التحرك لوحظ في الإضراب الكبير الشامل المنظم الذي أعلنه عمال المطابع في بيروت وشعاره الرئيسي الرجوع عن قرار حل نقابتهم، والسماح لهم بمزاولة عملهم النقابي بحرية. ومنذ البدء تعاملت السلطات مع المضربين بالعنف. فرد العمال على العنف بالعنف (تحطيم مطبعة الأوريان لكسرها الإضراب).

وفي الوسط الفلاحي اشتد التحرك المطلبي واتسعت رقعته الجغرافية، وبخاصة في الأقضية التي كانت تمارس زراعة الدخان وصناعته. والبطالة ازدادت تفشياً، وتدنت أجرة الشغيل في الزراعة إلى حدود العشرة قروش باليوم (اشتغلت مع آخرين بصنع الفحم وبعد ثلاثة شهور كانت النتيجة ١١ قرشاً باليوم). وتصريف المنتجات الزراعية سدت بوجهه الأبواب. فسعر رطل زيت الزيتون تدنى إلى ٣٠ قرشاً. وسعر الجمل في سوريا تدنى إلى ليرتين سوريتين، ومع هذا فالشراة لم يكونوا متوفرين، وهكذا كان يقال في سوريا، الجمل بليرتين وليرتين ما في.

وعلى الصعيد الفكري ارتفع زخم الموقف الوطني الذي ضاق به صدر المستعمر. فتعطيل

الصحف كان يحصل بالجملة. وما نفي أبرز شخصية علمية وفكرية في لبنان والعالم العربي، أمين الريحاني، من لبنان لإلقائه خطاباً في «جمعية بيروت الأدبية» هاجم فيه المفوض السامي الفرنسي دي مارتيل، إلا مظهر من مظاهر الرعب الذي استولى على نفوس المستعمرين من جهة، ونتيجة للتحرك العمالي والثقافي والوطني من جهة أخرى.

هذه الأجواء المائلة كلياً نحو الإيجابية في العمل الوطني العام، والحزبي بخاصة، وفَّرت الإمكانات لنقل الحزب من حال القوقعة، إلى حال الانتشار المخطط له والمنظم.

رفيق جبور رائد تقدم وتغيير وتحرر

قليلون من أبناء هذا الجيل الذين يعرفون هذا الاسم، رفيق جبور. أين ولد وعاش، وكيف نشأ وناضل، وما هو دوره في دفع عملية التحرر والتقدم الاجتماعي وتسريع حركة الكفاح ضد الاستعمار، ولا سيما في مصر ولبنان وفلسطين. ثم وكيف وأين انتهت حياته كمناضل كبير في سبيل التغيير الاجتماعي، والتحرر الوطني؟.

في هذه المناسبة لا بد لنا من إسداء الشكر الجزيل إلى الدكتور رفعت السعيد الذي يعود إليه فضل كبير في تدوين بعض جوانب قصّة حياة رفيق جبور اللبناني المكافح، المتبصّر، العنيد ضد الظُلْمين المتآلِفَيْن، ظلم الأجنبي الغاصب المحتل، وظلم الإقطاع والاستثمار المحلي الضالع معه. إن كتاب «ثلاثة لبنانيين في القاهرة» (دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٣) الذي انشأه الدكتور السعيد، يتضمن بعض سيرة رفيق جبور أحد الثلاثة المشار إليهم وهم: الدكتور شبلي شميّل، وفرح انطون، ورفيق جبور. ومنه، من هذا الكتابة الثروة، ومما لا يزال عالقاً في الذاكرة من أقوال المرحوم الرفيق الصديق فؤاد الشمالي عن جبور وانطون ومارون، ومما أرّخه المناضل العربي الكبير في مذكراته، المرحوم محمود الأطرش، المعروف عندنا في أوساط الشيوعيين اللبنانيين بـ (أبو داود)، ومن العلاقة الرفاقية الطيبة التي كانت تربطني بشقيق رفيق المرحوم توفيق جبور أحد وجهاء زحلة وتجارها المحترمين. وبالتالي مما اتحفنا به من معلومات في كتابه الجديد «الهجرة اللبنانية إلى مصر» الصديق الدكتور مسعود ضاهر. ومما أنشأه الكاتب الكبير المدقق نابش «الخبايا في الزوايا» الاستاذ عصام محفوظ عن سيرة رفيق جبور، فمن الذين اشرت إليهم تمكنت من تركيب مادة متواضعة عن الرائد الثائر والسياسي البارع رفيق جبور. ورأيت بأن تدوينها ليس ضرورة لتخليد ذكرى وفاة الثائر الكبير وقد انقضى عليها ستون عاماً وحسب، بل إنها تشكل حافزاً لكل مناضل ثوري متبصّر يضع التغيير الاجتماعي هدفاً له، ويرى بأن النضال في هذا

الاتجاه هو وطني وقومي، وأممي معاً. بهذه الصفة عمل رفيق جبور اللبناني المولد والمنشأ، والعربي اللسان والمحتد، والأممي التفكير والرؤيا.

ولد رفيق جبور في زحله سنة ١٨٩٢. وكسواه من عشرات الكتاب والمفكرين اللبنانيين الذين أبوا البقاء في لبنان يعانون الكبت والظلم، أفي حكم المتصرفية، أم في حكم الانتداب، فضّلوا العيش في القاهرة حيث كان مجال التحرك الفكري أرحب، وأوسع. فالتقى هناك مع صحب له من أهل البيت، أنطون مارون، فؤاد الشمالي، أديب قشعمي، وغيرهم.

وكما يبدو من نشاطه المتنوع في مصر، كان رفيق جبور على درجة عليا من الثقافة العامة، وعلى اطلاع واعٍ وعميق على معالم الحركة الاشتراكية العلمية، أي على الماركسية اللينينية، وما سنتحدث عنه لاحقاً يؤكد أن رفيقاً لم يكن صحافياً عادياً، بل كان منظّراً كبيراً، يستند إلى جدلية في الأسلوب، وإلى مادية في التفكير. وهذا الكنز بوّأه لأن يكون واحداً من مؤسسي الحزب الاشتراكي المصري، وعضواً في لجنته المركزية، ثم عضواً في أمانته العامة، أي «السكريتاريا».

يصف الدكتور رفعت السعيد في «ثلاثة لبنانيين في القاهرة» رفيق جبور بالكلمات التالية: «.. ورفيق جبور صحفي مخضرم عمل لفترة طويلة محرراً لجريدة «النظام» الوفدية، وقبل «النظام» عمل في عديد من الصحف، وقد أمكن تتبع مقالات له منشورة في بعضها، يرجع تاريخها إلى العام ١٩١٤».

ويتحدث الأديب الكبير عصام محفوظ عن رحلة رفيق جبور من زحلة إلى اسطمبول فإلى مصر، ونفيه منها في كلمات مُهيبة نقلاً عمّا رواه له الاستاذ المحامي روفايل جبور ابن رفيق جبور فيقول:

«إنه الابن الثالث للدكتور حبيب جبور. أكمل دروسه الأولى في «الكلية الشرقية» في زحله. وفي العشرين من عمره عينته الحكومة الايرانية قنصلاً لها في اسطمبول (كان هذا الاسلوب معتمداً عند الدول التي تفتقر إلى مثقفين يتقنون اللغات الأجنبية لتمثيلها في الخارج). وفي بداية الحرب العالمية الأولى كان الشريف حسين أمير الحجاز يعد العدة لإعلان الثورة ضد الخلافة العثمانية، فاتفق الطرفان، جبور والحجازيون، على تهريب فيصل من اسطمبول. فتنكر في زي أفراد السلك الديبلوماسي الايراني، وهرب بمساعدة القنصل رفيق جبور الذي استلم فيما بعد رسالة شكر من الشريف حسين لا تزال عائلة جبور تحتفظ بها. ولما علمت السلطات التركية بالأمر اعتبرت القنصل رفيق جبور شخصاً غير مرغوب فيه، فنقلته الحكومة الايرانية إلى الاسكندرية. وفي العام التالي للحرب العالمية انتقل إلى القاهرة بصفة قنصل عام. وقد ضغطت الحكومة

الانكليزية على الحكومة الايرانية فرضخت وقررت سحب جبور، إلاّ أنه رفض وقدم استقالته من مركز قنصل عام لإيران واستقر في القاهرة».

ويتابع الأستاذ محفوظ:

«اشتغل في البدء في صحيفة «المحروسة» التي كان يصدرها والد الأديبة مي زيادة، الياس زيادة، وانتقل فيما بعد إلى التحرير في صحيفة «النظام» لسان الحزب المعارض، وكان جبور صديقاً لسعد زغلول، ثم تخلى عنه، بسبب مواقفه، وتسلم تحرير صحيفة «الحساب» التي أقفلتها السلطات المصرية وأحالت محرريها وفي رأسهم رفيق جبور إلى المحاكمة».

ويقول روفايل جبور كما ورد على لسان الاستاذ محفوظ «إنه شاهد والده مراراً يخطب في الساحة العامة على ظهر الترامواي». وبالنسبة لإبعاد رفيق من مصر مع عائلته يقول المحامي جبور: «رافقت شرطة السواحل المصرية المركب الذي حمله من بور سعيد إلى بيروت مسافة عشرين ميلاً مما جعل رفيق يضحك ويقول: يظنونني أني سأعود إلى مصر سباحة»؟

وعندما وصل المركب إلى قبرص رفضت السلطات الانكليزية السماح له ولعائلته بالنزول أسوة بالركاب. ولدى وصوله إلى مرفأ بيروت كانت الشرطة الفرنسية بانتظاره. فوضع عائلته في «لوكندة أميركا» ورافق الشرطة إلى مقر الكولونيل كاترو (الجنرال كاترو لاحقاً) فحذره من أي نشاط سياسي وكان ذلك سنة ١٩٢٦».

«سكن رفيق جبور مع عائلته في زحلة، لكنه بعد مضيّ شهور قليلة على إقامته في بلدته ترك عائلته عند أهله، وسافر إلى فلسطين». وورد في مقالة الاستاذ محفوظ المنقولة معلوماتها عن ابن رفيق روفايل: أن والده كان ذات قوى وجرأة نادرة. وأنه شهد مع والدته في مصر محاكمة والده. ويذكر أن والدته كانت تردد أمامه حين كانوا يفتشون بيته ويلقون القبض عليه، قوله للبوليس - إن سلاحه الوحيد هو قلمه. ويذكر أنه صاح بالقضاة عند الحكم عليه بالنفي قائلاً: «سأعود بعد أن تكون مشانقكم علقت في ميدان المحطة».

ويقول روفايل جبور «إن والدة رفيق طلبت من ولدها عندما وصل إلى بيروت، حلق ذقنه وعدم قيامه بأي نشاط سياسي، وحلقها نزولاً عند رغبة والدته» ولكن لم يوقف نشاطه السياسي.

ويقول الاستاذ محفوظ: «ولا ننس أخيراً، أن رفيق جبور هو الذي أطلق على صديقه الحميم أمين الريحاني لقبه «فيلسوف الفريكة».

ولمع اسم رفيق جبور عندما تسلم رئاسة تحرير جريدة «النظام» الوفدية فهو لم يكن محرراً

صحافياً عادياً، بل كان موجهاً سياسياً بارعاً. ويشرح الدكتور السعيد علاقة جبور بـ « النظام » فيقول:

« .. والحقيقة أن علاقة رفيق جبور بهذه الجريدة التي كانت تعتبر لساناً للوفد تستحق التأمل. فقد استخدم رفيق هذا المنبر الوفدي استخداماً ذكياً دفاعاً عن مبادئه وآرائه ذلك أن نظرة واحدة على « النظام » توحي بشكل كافٍ بأنها تختلف اختلافاً بيّناً عن الصحف الوفدية الأخرى، فهي على الدوام أكثر تقدماً، وأكثر تعبيراً عن مشاكل الجماهير، لكنها كانت بالنهاية جريدة وفدية ».

في العام ١٩٢٥ ألقي القبض على رفيق جبور كواحد من قادة الحزب الشيوعي المصري. وقد أثار اعتقاله ضجة لم تبق محصورة في المجتمع المصري، بل شغلت المجال الصحفي العالمي. فقد كتبت جريدة « المورننج بوست » بأن بين المقبوض عليهم مع رفيق جبور اثنين من محرري الصحف الوفدية، كما كتبت جريدة « الدايلي تلغراف »: وأعظم ما يلفت الأنظار فيما اكتشفه البوليس وهو ما يدل على العلاقة الوثيقة بين « دسائس » البلاشفة، وعلاقتهم بالوفد لأنه يوجد بين المقبوض عليهم طاهر أفندي العربي، المحرر في « كوكب الشرق »، إحدى الصحف الوفدية الكبرى، ورفيق جبور المحرر بجريدة « النظام » وهي من الصحف الوفدية » (ثلاثة لبنانيين في القاهرة. نقلاً عن الدكتور رفعت السيد).

من هو كونستانتين ڤايس؟

ويتابع الدكتور رفعت السعيد! « ولندع طاهر العربي يروي القصة لنفسه فقد قال: كنت أعرف زميلاً صحافياً يعمل في جريدة « النظام » هو الاستاذ رفيق جبور وكنت أتردد عليه من وقت لآخر في محل عمله، وذات يوم عرفني بصديق له كان زائراً في مكتبه، قال إنه، مستر كونستانتين ڤايس، وكاتب جرائد عمالية دولية، حضر لمصر لدراسة حالة العمال والفلاحين، وقدمنا إليه قائلاً: هذا صديقي طاهر ضحية من ضحايا الاستعمار البريطاني، قضى في السجن اثني عشر عاما في محاربة الانكليز فهو يكرههم ويكره كل ما يتعلق بهم ». ويتابع الدكتور السعيد ويقول:

« بقي أن نعلم أن كونستانتين ڤايس، هو الأسم السرّي لاڤيجدور الشخصية الشهيرة في مكتب الشرق الأوسط بالكومنترن ».

ورفيق جبور لم يكن المناضل اللبناني الوحيد الذي هاجر في مطلع القرن إلى مصر وناضل مع

الطبقة العاملة المصرية، وقارع الاستعمار الانكليزي، وساهم بتأسيس الحزب الاشتراكي المصري، ودخل السجون وتلقى التعذيب وحسب، فهناك كوكبة من أهل الفكر والقلم اللبنانيين تجلى نشاطها بخوضها المعارك العنيفة، بجانب الشعب المصري في نضاله ضد الاستعمار والإقطاع، والاستثمار. ونشير إلى فارس من فرسانها هو رفيق وصديق جبور، وأعني به المحامي الشهير انطون مارون. ويقال إنه من «زحلة». وقد استشهد مارون على أثر إضراب عن الطعام أعلنه السجناء السياسيّون.

كان انطون مارون قائداً عمالياً فذاً. وفي شهادة لانجرام بك، أحد كبار رجال البوليس، أمام هيئة القضاء ورد: «أن العمال كانوا يعملون بنصائح مارون ورفاقه، ولم يكن سهلاً على البوليس إخراج العمال من المصانع، ولكنه من أيسر الأمور على مارون. إن كلمة واحدة منه كانت كافية لإنهاء احتلال المصانع».

في العام ١٩١٩، كانت مصر تغلي كالمرجل. فكلمة الثورة على كل شفة ولسان. ففي ٩ آذار من العام ١٩١٩ وبينما كانت طلقات الرصاص تدوّي في شوارع القاهرة، وجه أعضاء الوفد رسالة إلى السلطان فؤاد ورد فيها: «إن أعضاء الوفد لم يتعدوا حدودَ القانون». وذلك ليبرهنوا على «حسن» نواياهم، وصدق إخلاصهم للقانون وللشرعية.

كانت أحداث الثورة تسير باتجاهين: «قيادة تدعو للعمل بالوسائل المشروعة. وجماهير تمارس العنف الثوري» وفي هذا الوضع قرر الاستعمار الانكليزي ارسال «لجنة ملنر» لتقصّي الحقائق والاستماع إلى مطالب المصريين ورغباتهم. وقد أحدث النبأ عن هذه اللجنة بلبلة. فماذا سيكون الموقف؟. من يقابلها؟ والزعماء جميعهم في المنفى!

ففي حين سيطرت الحيرة على الجميع، صدرت جريدة «النظام» باقتراح يدعو لمقاطعة جماعيّة للجنة ملنر، ورفض التعامل معها والمفاوضة وهكذا حصل. فقد ارتاح المصريون لهذا الاقتراح الذي أصبح بالفعل شعبياً ومحركاً لدرجة أن الفلاحين إذا ما صدف ورأوا أجنبياً قالوا هل هو من «لجنة ملنر»؟، وظلو لمدة طويلة لا يتعاطون مع الأجانب، ولا يتحدثون إلى أحد خشية أن يكون عضواً في اللجنة الانكليزية المذكورة.

هنا برزت عبقرية جبور، وحسن تصرفه في أصعب محنة، فدلّل أنه بالفعل قائد سياسي، بالإضافة إلى فروسيته كصحافي كبير يتمتع بجرأة اتخاذ المبادرات، وبشجاعة في سرعة التقرير.

جماعة لبنان الفتى

جمهرة من الثوريين اللبنانيين التقت في القاهرة وراحت تناضل ضد واقع، ومن أجل قضية. ضد الاستعمار والظلم والاستثمار. ومن أجل التحرر الوطني والاجتماعي والديمقراطي. ونضالها يتناول مصلحة الشعبين المصري واللبناني. وعليه فقد أسَّست تلك الكوكبة من شباننا منظمة «جماعة لبنان الفتى» ومن مؤسسيها: رفيق جبور ـ انطون مارون ـ فؤاد الشمالي ـ أديب قشعمي ـ شفيق باسيور ـ وسواهم.

وعندما تأسس الحزب الاشتراكي المصري في آب ١٩٢١ كان بعض هؤلاء الشباب، ولا سيما رفيق جبور، وفؤاد الشمالي، وانطون مارون من مؤسسيه.

ولكن الحملة الشعواء التي شُنت ضد الشيوعيين في مصر وأدّت إلى الاعتقالات الكبرى لأعضاء اللجنة المركزية للحزب وإحالتهم إلى محكمة الجنايات في الاسكندرية التي أصدرت حكمها في ٦ أكتوبر سنة ١٩٢٥ بانزال عقوبات شديدة بقادة الحزب المذكور، لم توقف النضال، بل تكونت على الفور لجنة مركزية جديدة وبدأت تمارس العمل السرّي، وكان رفيق جبور أحد أمنائها.

مجلة «الحساب»

بعدما ترك جبور جريدة «النظام» الوفدية أصدر مجلة «الحساب» كمنبر علني لسياسة الحزب الشيوعي المصري. ولكنها لم تكن «الحساب» المنبر الوحيد، بل إن رفيقاً بادر واسهم في تأسيس «لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين».

كانت «الحساب» بفضل رفيق جبور منبراً علنياً لحزب سرّي. وهنا تكمُن البراعة كل البراعة. فقد أحسن رفيق اخراجها بشكل لبق، أي انه دمج بين العمل العلني والعمل السرّي.

فإن علاقته بالأممية الشيوعية جعلته في مركز المسؤولية الكبرى التي تحمّلها بحنكة ودراية، وعرف في أشد الصعوبات أن يوفق بين العمل السري والنشاط العلني. وما استخدامه منابر الصحف الوفدية لمصلحة الطبقة العاملة المصرية، ولمصلحة الاشتراكية العلمية، إلا برهان ملموس يؤكد أهمية هذا المناضل الذي أدرك بأن الحل الأمثل والأوحد للتحرر من نير الاستعمار بعامة، والاستعمار الانكليزي بخاصة، لن يتحقق إلا عبر تنظيم يجمع شتات العمال وسائر الجماهير الشعبية، ويرتكز إلى نظرية علمية إطارها مادّي، وجوهرها ديالكتيكي، قادرة لا على تفسير الأحداث، بل على ترقب ما سيحدث، وإعطاء الحلول له.

وحول إقامة رفيق جبور في فلسطين وعلاقته بالحزب الشيوعي الفلسطيني ووفاته، كتب المناضل الشيوعي الكبير محمود الأطرش في مذكراته، التي لا تزال مخطوطه يقول:

«.. وكان رفيق جبور يحرر في جريدة (فلسطين) بمدينة «يافا» كرئيس لتحريرها. وبذات الوقت كان يحضر اجتماعات «فرقة المنشيّة» الشيوعية. وكنا نأخذ رأيه بكل أمر يُشْكل علينا. ونظراً لتفهمه الواسع في شؤون مصر، كان يطلعنا، في أثناء اجتماعات الفرقة عليها. وذات مرة شكل علينا أمر فقررنا وضعه أمام جبور بوصفه عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشوعي المصري. كان أقدم شيوعي بيننا. فأجابنا بأنه سينظر بالموضوع مع رفاق القيادة. وقبل تمكنه من الوفاء بوعده، توفي على أثر عملية استئصال الزائدة في المستشفى الفرنسي بيافا. كان ذلك في مطلع العام ١٩٢٧، وقد نعاه الحزب الشيوعي الفلسطيني بمنشور وزعه في جميع انحاء القطر واتهمنا السلطة بقتله».

طليعي في التنظير
ومقدام في التنفيذ

كان رفيق جبور مثقفاً كبيراً، فقد عالج الوضع الطبقي في مصر بأسلوب ديالكتيكي علمي وتوصل لطرح القضية الأساسية أمام المجتمع المصري ولا سيما الطبقة العاملة، أي قضية التحرر الوطني والاجتماعي باعتبارها قضية طبقية. وإن الطبقة العاملة المنطلقة، المنفتحة، الصاعدة، لا يمكن أن تتقوقع على نفسها، بل يهمها قبل كل شيء تحقيق مطالبها، والوصول إلى تبوّء مركزها في المجتمع كقوة أساسية مؤهلة لقيادته وإدارته. ولكي تصل إلى مبتغاها لا بدّ لها من قائد سياسي، من حزب يرتكز إلى نظرية علمية تمكنه من تحقيق اهداف الطبقة العاملة وحل مشاكلها الاجتماعية المعقدة. حول هذا الموضوع انشأ رفيق جبور مقالة في مجلة «الحساب» بعنوان: «تأسيس حزب الطبقة العاملة من عمال وفلاحين» قال فيها:

«وحزب العمال المصري السياسي يجب أن يتألف من مختلف طوائف عمال المدن ومن عمال الأرياف الذين يشتغلون في الزراعة وتوابعها، على أن تكون هاتان الطبقتان، طبقتا عمال المدن وعمال الأرياف، هما أساس وأركان وجدران الحزب. وبعد ذلك لا بأس من قبول بعض ابناء الطبقات الأخرى الذين لا يتنافى وجودهم مع الغاية التي أنشىء الحزب من أجلها».

ولكن آلة الارهاب الاستعمارية الانكليزية، والرجعية المحلية، اعتقلت رفيق جبور مع خمسة عشر من رفقائه، وصدر الحكم بإبعاده من مصر إلى لبنان، ولم يصدر عدد «الحساب» الذي أشار إليه رفيق.

لم يعش رفيق طويلاً فقضى وهو في ميعة عمره ـ ٣٥ سنة، ولاحقاً توفي فؤاد الشمالي وهو بعمر ٤٥ سنة، أما انطون مارون فلم يتسنّ له أن يصل إلى هذا العمر فاستشهد وهو فتى. وطوباهم، إنهم في ضمائر شعبهم في لبنان وسوريا ومصر وفلسطين خالدون. لهم التجلة والإكبار ولمن ظلمهم وشردهم، الخزي والعار.

فؤاد الشمالي
قبسة مشعة في تاريخ الحزب الشيوعي

إنه من قرية «سهيلة» بلواء كسروان. ولد سنة ١٨٩٤ فقيراً معدماً، وتوفي سنة ١٩٣٩ فقيراً معدماً. هاجر من لبنان إلى مصر وعاش فيها حتى مطلع صيف ١٩٢٤ حيث نفته السلطات لنشاطه الشيوعي. وبعد عودته إلى لبنان عاد إلى العمل في المحيط العمالي. ومن «النقابة العامة لعمال التبغ» في بكفيا انبثق المولود الذي بعث نوره في كل لبنان، ألا وهو الحزب الشيوعي اللبناني وذلك في الرابع والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٤. وإذا كان عمال الدخان تبوّأوا في الحقبة الممتدة بين ١٩٢٣ و ١٩٣١، الصدارة في النضال الوطني والطبقي في لبنان، فإن لفؤاد الشمالي القدح المعلى في ذلك.

الشمالي عن نفسه ومبادئه

ولنقرأ ما كتبه فؤاد الشمالي عن نفسه في مقدمة كتابه «نقابات العمال في لبنان»، الصادر سنة ١٩٢٨، وقد وضع فؤاد نصوصه في أثناء إقامته في الاعتقال والمنفى، في جزيرة أرواد وقلعة القدموس وسواهما. يقول، «يسرني أن أعلن أنني عامل منذ نعومة أظفاري. انضممت إلى الحركة النقابية في العام ١٩١٦، ومنذ ذلك الحين لم أتراجع خطوة واحدة إلى الوراء، بل إن شعاري دائماً هو إلى الأمام أيها الرفاق. وقد لاقيت الشيء الكثير من القهر والظلم والاضطهاد، وذقت طعم البؤس والشقاء أشكالاً والواناً، واشتركت في اعتصابات عديدة قام بها العمال في القطر المصري وفي سوريا، وكثيراً ما تضورت جوعاً وبت على الطوى بسبب الاعتصابات والبطالة الإجبارية. وسحت في سجون، بل في كهوف مظلمة رطبة لا يدخلها نور الشمس والهواء النقي. ونفيت إلى المنافي السحيقة الموحشة بينما أفراد عائلتي يقاسون أهوال البؤس والضنك والفاقة من جراء اعتقالي وإبعادي وتشريدي. ومع ذلك كله لم تهن عزيمتي ولم افقد شيئاً من ثباتي واندفاعي في سبيل تحقيق مبادئي التي تنحصر فيما يلي، تحطيم نير الرق والعبودية عن عاتق الطبقة العاملة المستعبدة واسترجاع حقوق العمال والفلاحين المسلوبة، وذلك يكون بقوة تنظيم الطبقة العاملة في الأحزاب والنقابات والجمعيات، تنظيماً صحيحاً مبنياً على أساس متين».

إذا وافقتم نشرته

وقبل أن يدفع بكتابه « نقابات العمال » إلى المطبعة حرص فؤاد الشمالي على أن يعرضه على قيادة نقابته « النقابة العامة لعمال التبغ » وأخذ رأيهم ـ حتى إذا وافقوا عليه دفعه إلى المطبعة ونشره، وإن لم يوافقوا أحجم عن ذلك. وفي مطلع الكتاب المذكور وتحت عنوان، « هذا الكتاب » كتب فؤاد الشمالي، « ولما كان هذا الكتاب يبحث في شؤون الطبقة العاملة خاصة، رأيت أن من واجبي عرضه على إحدى نقابات العمال لتبدي رأيها فيه، فقدمته إلى نقابة عمال الدخان مصحوباً بالكتاب التالي نصه: « قبل أن أقدم كتابي هذا للطبع رأيت من واجبي وبصفتي عضواً في النقابة أن أعرضه عليكم لتبدوا ملاحظاتكم الصريحة على ما جاء فيه ».

وتلقى فؤاد من النقابة الجواب التالي:

« بعد التحية أطلعنا على كتابكم « نقابات العمال » مرفقاً بكلمة تطلبون فيها إلينا إعطاء ملاحظاتنا على ما جاء فيه. وإجابة لطلبكم نفيدكم، أنه بعد الإطلاع عليه والإمعان في جميع فصوله لم نجد فيه الا كل نافع مفيد، وهو مملوء بالنصائح والإرشادات ومنارة تستضيء بها الطبقة العاملة في البلاد العربية لتسير في طريق تقدمها وارتقائها بقدم ثابتة فتذلل كل ما يعترضها في سبيل حريتها ».

ويتابع مجلس النقابة: « وقد جئنا بكلمتنا هذه **أولاً**، نثني على همتكم لوضع هذا الكتاب المفيد والذي نعتقد أنه الكتاب الوحيد من نوعه في اللغة العربية. **ثانياً**، نحث إخواننا العمال الأحرار أمثالكم على الإقدام بهمة ونشاط على وضع التآليف التي من شأنها أن تنير طريق العمال وترقى بهم إلى مستوى إخوانهم عمال العالم المتمدن. **ثالثاً**، لنقدم نصيحة إلى العمال في هذه البلاد على اختلاف صناعاتهم وحرفهم بأن الواجب يقضي على كل فرد منهم بأن يقتني هذا الكتاب المفيد، ويتمعن بمحتوياته، وأن يعمل بحسب ارشاداته لكي تصل الطبقة العاملة في القريب العاجل إلى كعبة آمالها، شامخة الرأس، عزيزة الجانب، موحدة القوى، صارخة بصوت واحد يتردد صداه في أربعة أركان العالم، فلتحيا نقابات العمال واتحادها الصحيح، وليحيا عمال العالم متحدين. بكفيا ١٩٢٨/٢/٢ ».

وقد وقعه قادة النقابة:

بشارة فارس بشارة (عضو)

فريد طعمة (سكرتير)
بطرس حشيمة (أمين الصندوق)
إبراهيم اسطفانوس (رئيس)

هكذا يجب أن تكون النقابة

لقد أكدت « النقابة العامة لعمال التبغ في لبنان (بكفيا) » أن النقابات هي فعلاً مدرسة سياسية تثقيفية تحضر أعضاءها لتبوّء المراكز الطليعيـة المسـؤولـة لقيـادة تحركـات الشعـب نحو التغيير ، والتقدم، والانضباط لما فيه مصلحة جميع المنتجين والكادحين. هكذا يجب أن تكون مهمة النقابات. فالنقابة ليست جمعية خيريـة لدفن الموتى، أو لمؤاساة بائس وحسب، بل إنها أيضاً وبالأساس منظمة نضالية تسعى نحو الأفضل والأحسن والأجمل، ولو لم تكن كذلك لما وجه الرأسماليون منذ الثورة الصناعية في إنكلترا حتى يومنا هذا الإرهاب ضدها. ولكن فن القيادة الذي يجب أن يتمتع به قادة النقابات، تواضع وتفان كما فعل فؤاد الشمالي وفريد طعمة ورفاقهما. هو الذي انتصر وتغلب على أعداء العمال وأوصل فريد طعمة رئيس النقابة، في أوائل العام ١٩٢٨، إلى عضوية المجلس البلدي. وقد هبت جماهير بكفيا ورفعت فريد طعمة على الأكتاف وطافت به في شوارع البلدة هاتفة بتحيته وتحية النقابة التي يعود إليها الفضل في انتخابه لعضوية المجلس البلدي.

إن المقلع الذي قدت النقابة " [illegible]ة لعمال التبغ في بكفيا من صخرته لا يزال إياه قائماً ، ماثلاً مثول صنين والأرز وكل هذه الجبال والقمم التي مهما عتا العاتون، واعتقد المتربصون بلبنان، من صهاينة ومستعمرين، بأنهم قادرون على تطويعها ، وتحويلها إلى مستقرات وممرات لهم سيمنون بالفشل والهزيمة لأن شموخها سيظل الأمنع والأقوى بفضل السواعد السمر ، أحفاد مؤسسي نقابة عمال التبغ في بكفيا ، والنقابة العامة لعمال زحلة ، ونقابة عمال المطابع وسواها من النقابات التي تشكل الجسم العمالي اللبناني التاريخي الذي يصبح يوماً فيوماً ، كما سبق وقلت، الأمل المرجى في عملية التغيير ، والتقدم والحضارة.

ستون سنة انقضت على تأسيس « النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان ـ بكفيا » . ستة عقود من القرن العشرين العظيم حملت إلى العديد من الشعوب الكثير من المنجزات الإيجابية التغييرية التقدمية.

إن العمال القادة الطليعيين من أمثال فؤاد الشمالي وفريد طعمة وبطرس حشيمة ورشيد سويد ،

وسواهم من العمال الذين حملوا قبل ستين سنة مضت راية المستضعفين، المحرومين، لم يكونوا يملكون سوى سواعدهم المفتولة، وتطلعاتهم البصيرة النيرة، وأفكارهم السليمة الواضحة التي أدركت طريق الخلاص فمشت عليه دون خوف ولا وجل. طوبى للأُلى الذين شادوا للبنان، للطبقة العاملة اللبنانية مجداً وعُلى يشكل بالنسبة إلينا وإلى أولادنا وأحفادنا، تراثاً ثورياً وأصالة يعتز بها.

فمن ذاك التراث، وهاتيك الأصالة استمد عمال لبنان خلال الأربعين سنة المنصرمة القوة والعزم، فصاغوا مطالبهم ورفعوها إلى المسؤولين، وكان لهم بفضل وحدتهم النقابية، والتفافهم حول «اتحادهم العام»، تحقيق الكثير من المنجزات التي سبق لنقابة عمال الدخان أن وضعتها في لائحة المطالب الخمسة عشر التي رفعتها إلى السلطات في حينه، والتي سبق أن أشرنا إليها.

يجب أن نعرفهم وأن نعيشهم

فبهذه المناسبة الذهبية، ذكرى مرور ستين سنة على تأسيس النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان، نهيب بإخواننا النقابيين وبخاصة المسؤولين منهم، أن يقوموا بما هو واجب عليهم وعلينا جميعاً فيعملون لإحياء ذكرى إخوان لهم كتبوا بنضالهم صفحات عمالية نقابية مجيدة ناصعة في تاريخ مسار النضال العمالي في لبنان وذكرى تأسيس نقابة عمال الدخان وسواها من النقابات التليدة.

وعمال لبنان يجب أن يعرفوا جيداً من هم: فؤاد الشمالي، وفريد طعمة، وبطرس حشيمة، ورشيد سويد، والياس القشعمي. هؤلاء الفرسان الذين وضعوا اللبنات الأولى في الصرح النقابي العمالي اللبناني، وكذلك، أن يعرفوا من هم فرسان الرعيل الثاني، سعد الدين مومنة، مصطفى العريس، حنا الزرقا، ميشال العازار، الياس الحلو، جان تابت، يوسف الشرتوني وسواهم، الذين

أن نتذكر روادنا العمال الأوائل فهذا من شأنه أن يبعث الحيوية والزخم في واقعنا الذي يتوفر فيه الكثير من الشروط الإيجابية للعمل النقابي من أجل تحقيق الوحدة، وبالتالي تحقيق المطالب، مما لم يكن متوفراً لمن عملوا في هذا المجال قبل ستين عاماً.

وإن الحزب الشيوعي اللبناني وكل الشيوعيين المطلعين على تاريخ وطنهم وحزبهم، ينحنون باحترام وعالي التقدير، وبمزيد من الهيبة والوقار أمام الذكرى الستينية لتأسيس نقابة عمال الدخان في لبنان. فمن محراب هذه النقابة وهذا العمل الشعبي والسياسي الطليعي انبثق الحزب الشيوعي اللبناني الذي يحتفل في ٢٤ تشرين الأول القادم بذكرى تأسيسه الستينية.

فؤاد الشمالي، فريد طعمة، بطرس حشيمة الثلاثة هؤلاء وكلهم من أركان نقابة الدخان، شكلوا القاعدة الرئيسية للحزب مع يوسف إبراهيم يزبك والياس القشعمي.

انحناءة رفاقية متواضعة ملؤها الوفاء والحب والإخلاص لذكرى فؤاد الشمالي ورفاقه الميامين في النقابة الذين وضعوا لائحة المطالب الخمسة عشر. والذين لعبوا الدور الرئيسي في تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني سنة ١٩٢٤ وبالتالي تأسيس «حزب الشعب اللبناني» سنة ١٩٢٥.

المجد لذكراهم الخالدة والعافية المتقدة ثقة وحماسة للخلف الصالح الذي تحدرت إليه راية الأل وعلى زوايتها رسمت «السنديانة» الحمراء..

(أوائل تشرين الأول ١٩٨٤)

فؤاد الشمالي في كتابه: «الاشتراكية»

لو أنه على شيء مما نسب إليه ـ والنسبة جائرة ظالمة ـ ولو لم يختزن في ضميره ثقته الكبرى، بانتصار قضية العمال والفلاحين، بانتصار الاشتراكية المؤكد في الاتحاد السوفياتي أولاً، ومن ثم في العالم الخارجي ثانياً. لو لم يكن مستقيماً صادقاً في مواقفه وأقوالهومعطياته، لما أقدم فؤاد الشمالي سنة ١٩٣٦، على وضع مؤلفه الفذ جداً «الاشتراكية».

بملء إرادته وبما توفر لديه، وهو في معركة دائمة مع القرش، أقول القرش الواحد ليتمكن من شراء رغيف الخبز، أقدم فؤاد الشمالي على طبع مؤلفه «الاشتراكية» الذي ينضح من ألفه إلى يائه

في العام ١٩٢٨، وعندما كان فؤاد الشمالي يشغل مركز أمين عام للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، انتدب ليمثل الحزب في المؤتمر السادس للأممية الشيوعية «الكومنترن». وبهذه المناسبة تسنى له لأول مرة، أن يزور الاتحاد السوفياتي. وبالرغم من أن الاتحاد السوفياتي كان يعاني، بعد، من ملامح العسر فقد نظر فؤاد إلى ما رآه وكأنه واقع طبيعي لبلد خرج من حرب أهلية امتدت على طول أربع سنوات، تلتها معارضة داخلية، وقفت ضد التوجه لبناء الاشتراكية. ففي العام ١٩٢٨، وضعت الدولة السوفياتية أول مشروع بنائي إنشائي عمراني، هو «مشروع السنوات الخمس الأول»، وهدفه الأساسي بناء صناعة وطنية واسعة وضخمة وشاملة، وجاء هذا الإنجاز نتيجة لانتصار خطة الحزب الشيوعي لبناء الاقتصاد الوطني، كأساس في الاتجاه لبناء الاشتراكية.

وأنا بما اكتبه في هذه المقالة، لا اعتمد على ما ورد في كتاب فؤاد الشمالي «الاشتراكية» وحسب، بل وعلى ما حدثنا فؤاد عنه في أثناء زيارته تلك إلى الاتحاد السوفياتي، بالرغم من الصعوبات، وفقدان الأشياء من المخازن، ومن كثرة الشحاذين الذين كانوا يقفون على مداخل الشوارع، ومن الذين كانوا يجمعون أعقاب السجائر ليعيدوا جمعها ولفها سجائر بأوراق جريدة «البرافدا»، بالرغم من ذلك، فإن نظرة فؤاد إليه كانت عادية، لإدراكه العلمي، وثقته الكبرى بانتصار الاشتراكية وبأن هذه المظاهر لا بد زائلة، وستصبح يوماً تاريخية.

وعاد فؤاد الشمالي بعدما أمضى بضعة شهور في موسكو وكان له موقف مشرف في الدفاع، خلال مؤتمر الأممية الشيوعية السادس، عن القضية الفلسطينية، وهاجم الاستعمار والصهيونية اللذين يعملان ضد عرب فلسطين، فاصطدم بالعناصر الصهيونية التي لم ترق لها مداخلته.

وأوراق الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان وعلى رأسه أمينه العام فؤاد الشمالي تشير إلى الانطلاقة السياسية والتنظيمية البارعة التي تحققت - تحت قيادة الشمالي بين الأعوام ١٩٢٩ - ١٩٣٢. وأبرز حدث فيها لملمة اشتات الحزب وإعادة تنظيمه، واعتماد الكونفرانس الحزبي في تموز سنة ١٩٣٠، وصدور بيان عنه طبع في كراس بعنوان: «لماذا يناضل الشيوعيون في سوريا ولبنان». كان لهذا الكراس تأثير بالغ الأهمية في سوريا ولبنان، وتمكن الحزب بعد نشره من تأسيس فروع عديدة له وبخاصة في المناطق الفلاحية، كما اتسعت علاقاته بالمثقفين، وبين العمال نشطت التحركات المطلبية، وأعلن العديد من الإضرابات، أبرزها إضراب عمال المطابع سنة ١٩٣٣.

ولكن الرياح غير المؤاتية أدت في مطلع العام ١٩٣٣، إلى إزاحة فؤاد الشمالي عن مركزه كأمين عام للحزب، وليس هذا وحسب، بل أبعد عن الحزب إبعاداً كلياً، استناداً إلى تهم ظالمة وجهت اليه. ولما كنت على صلة وثيقة به، أتيته ذات يوم وكان منزله في حي زقاق البلاط، وما كدت افاتحه بحديث عن شؤوننا في بلاد جبيل، حتى قال لي، لم أعد مسؤولاً يمكنك أن ترى بكداش. ولم يرفق كلامه بأي قول ناب بحق أحد.

ولكم أثلج صدري وصدور عارفي فؤاد الشمالي ومقدريه الموقف الذي اتخذته قيادة الحزب في ضوء مقررات المؤتمر الثالث للحزب، ولقي ترجمته العملية في الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب، سنة ١٩٧٤.

لنعد إلى كتاب فؤاد الشمالي «الاشتراكية» الذي لا يزال بالرغم من مضي ٤٧ سنة على نشره،

يحتفظ بأهميته العلمية والسياسية. الكتاب مؤلف من ٩٦ صفحة من القطع الصغير، متقن الطبع، نادر الأغلاط المطبعية والنحوية. عدد عناوين محتوياته ٢١ عنواناً هي: بيان موجز ـ كارل ماركس ـ الأحزاب الاشتراكية ـ المجتمع الرأسمالي ـ الغاء الملكية الخاصة ـ الغاء نظام الوراثة ـ استثمار الفرد والقيمة الزائدة ـ الغاء التجارة الفردية ـ المرأة والعائلة ـ الوطن ـ الدين ـ الفلاحون ـ الاحسان ـ الدولة ـ التعليم ـ الطب ـ الضعيف والشيخ ـ الضائقة الاقتصادية ـ الانتاج الاشتراكي ـ حياة العمال في الاتحاد السوفياتي ـ ديكتاتورية البروليتاريا.

وقد عالج فؤاد الشمالي هذه المواضيع بأسلوب واضح وشيق، كل عامل وفلاح ومثقف قادر على فهمه. وليس هذا وحسب هو الذي تناوله فؤاد الشمالي في مواضيع كتابه «الاشتراكية»، فتحت موضوع «الضائقة الاقتصادية» يقول: «إن النظام الرأسمالي لن يسقط نهائياً إلا بعد أن يقود العالم رغم أنفه إلى حرب عالمية تقشعر لهولها الأبدان وتشيب لفظاعتها الأطفال».

هذا ما قاله فؤاد الشمالي سنة ١٩٣٦. وبعد ثلاث سنوات، رأينا ماذا حل بالبشرية: خمسون مليون قتيل وعشرات الألوف من مليارات الدولارات بلغت قيمة الخسائر المادية..ولكن النظام الاشتراكي العالمي أقيم وأصبح قوة مادية جبارة قادرة على صيانة السلام في العالم.

وكتاب «الاشتراكية» الذي نحن بصدده هو أول مؤلف صدر في لبنان يتضمن معلومات عن الحياة في الاتحاد السوفياتي. وكذلك هو أول كتاب يتضمن مناقشة علمية صريحة وجريئة حول الاشتراكية في التطبيق. كثيرون قبل فؤاد الشمالي كتبوا عن الاشتراكية. ولكن كتاباتهم كانت عامة. وسليم خياطه كان وعد بأن الجزء الثاني من «حيات في الغرب» سيكون عن الاتحاد السوفياتي.

لا أقول دمعة على فؤاد الشمالي، لأن وقت الدمعة مضى، بل أقول كلمة عن فؤاد. وسأقول كلمة أخرى وأخرى، بمقدار ما يتسنى لي الاكتشاف من أوابده. لفؤاد الشمالي علينا حق، وله في أعناقنا دين، وفي ضمائرنا مكان.

حسين مروة

شجاعة والتزام وإبداع

الشكر العميم لاتحاد الكتاب العرب رئاسة وفروعاً وأعضاء على وضعه السيف في موضعه، بمنحه

الجائزة النبيلة التي أقرها «جائزة بيروت» إلى الكاتب الأديب الشجاع المبدع الدكتور حسين مروة، تقديراً لمجمل نتاجه الأدبي والفكري، وكله يصب في مصلحة تحرير الإنسان بعامة، والإنسان العربي اللبناني بخاصة، وبالتالي لإبداعه غير المتوقف في الدفاع عن بيروت، شعباً، وتراثاً، وموقعاً، دون أن تنال من جهده، غارات الطائرات الإسرائيلية، ولا صليل دباباتها تجوب شوارع «أميرة العواصم» ولا ترهيب جيشها ووقاحة زبانيته. لم يثنه ذلك كله عما قرره فاستمر في العطاء اليومي، وكان بذلك الأبن البار للبنان كله، والأبن الأبر لبيروت التي تناساها معظم المبدعين العرب في ساعات محنتها، فحمل أبو نزار وزرهم، وانكب على تدبيج القطعة تلو القطعة، فكان الفارس المجلي الذي كان لجولاته أثر فعال في إقدام رافعي اسم الوطن، المقاومين الأشاوس، الذين إليهم يعود الفضل في ارتفاع الراية عالياً فعالياً إلى أن يتحرر الشعب والأرض من كل موطىء قدم للغزاة وصنائعهم.

منذ ما ولج حسين مروة باب بيتنا «البيت اللبناني الكبير» في مطلع الخمسينات، أصبح في محرابه مقيماً تشده إلى ذلك ثلاث لا تتوفر بالكثير: روح حزبية ملتزمة ـ صلابة في المواقف مرفقة بإبداع في العطاء ـ خلقية رفيعة تعبر عنها مصداقية نبيلة.

إن الثلاث وثلاثين سنة التي انقضت على علاقتي بالرفيق حسين مروة مكنتني من أن أعرفه جيداً، وبخاصة عندما تحول منزله في محلة المزرعة إلى مضافة، واستراحة لكل مناضل أمن لبنان كان، أم من البلدان العربية الشقيقة، كان أبو نزار بقلبه الكبير، وببشاشته الأنيسة المحببة وبدماثة أخلاقه، وكرم ضيافته التي أسبغت عليها حرمه السيدة أم نزار مزيداً من الذوق يستقبل بها الدالفين إلى منزله ـ الملتقى ـ.

أنا أشعر في مجمل مراحل حياتي أنني كنت ملتزماً تشدني إلى ذلك روح حزبية هي، حجر الرحى، في تكويني السياسي. ولكنني عندما استعرض مسار أبي نزار خلال الـ ٣٣ سنة المنصرمة أرى نفسي مرغماً على التأهب، واتخاذ الموقف المناسب، لأؤدي له التحية الرسمية. فمسلكه الحزبي على مدى ثلث قرن يشكل ظاهرة يقتدى بها لا لليافعين في الحزب، بل لنا، نحن شيوخ وكهول الحزب. فمن نبعتك الصافية الرقراقة، نهلنا وما نزال يا أبا نزار فازددنا اعتزازاً بحزبنا، وفخراً بشعبنا وتعلقاً بوطننا، وحدباً على عروبتنا.

تاريخك أيها الرفيق، دفق عطاء، ونكران ذات. ولطالما كنت جندياً مجهولاً تعمل وتعطي دون انتظار تكريم. لقد كنت منذ العام ١٩٥٢ حتى غياب مؤسس حركة السلم اللبنانية وعرقها النابض

أنطون ثابت، أحد أعمدة هذه الحركة وبحضوري وعلى مسمعي، لطالما قال لك أنطون، يا أستاذنا الكبير، «اليوم بدنا كتابة بيان حول كذا. وفي يوم آخر بدنا مقال حول كذا وكذا، وفي مناسبة أخرى يجب أن تحضر تقريراً حول الموضوع الفلاني لتقديمه أمام اجتماع المكتب الدائم لمجلس السلم العالمي، أو لإلقائه في مؤتمر شعوب الشرقين الأوسط والأدنى». وعلى غرار المرحوم الدكتور رشيد معتوق، كان أبو نزار يسرع إلى تحضير الأوراق والقلم ليحضر كل ما طلب منه، دون اللجوء إلى اعتذار، أو التذرع بأي سبب.

هذه الصفات الحميدة المتجمعة في شخصية حسين مروة، كانت في أساس إقدام قيادة الحزب في المؤتمر الثاني سنة ١٩٦٨ على ترشيحه إلى عضوية اللجنة المركزية في الحزب، وبالتالي لتسنمه هذا المقام السامي.

وكان هذا الإنجاز نقلة نوعية في حياة حسين مروة نمت عليها عطاءاته الغزيرة الخصبة التي تشكل مراجع لجميع المناضلين من أجل التحرير والتغيير، في إطار علمي تقدمي لمفهوم مجتمعنا الذي يعمل الاستعمار والرجعية لتشويه أصالته ودثر تراثه.

«أعطى القوس باريها»، فعن استحقاق نلت يا رفيق ثلث قرن «جائزة بيروت» التي هي لجميع المبدعين في رحاب «الأميرة». لكل المناضلين في الجنوب، وفي أية قرنة من قراني لبنان، ضد الصهيونية، والاستعمار، والظلامية بمختلف صورها وأشكالها.

إنها لعمر فاخوري، والدكتور جورج حنا، وأنطون ثابت، وسعد الدين مومنة، ومحمد الخطاب، ومصطفى العريس، هذه الكوكبة من المناضلين البيروتيين أصدقاؤك يا أبا نزار، كانوا وما يزالون، وسيظلون معك بسيمتك، إنك وحدت بين القلم والمعول، بين الريشة والبندقية، فحزت على المجدين: مجد الإبداع في العطاء التقدمي، ومجد الالتزام الحق، بالسير على الدرب المستقيم.

إن الأدب عندما يحمل رايته مناضلون خلص، وحسين مروة في الركب الطليعي منهم، بإمكانه أن يسدي الكثير لقضايا عصرنا الرئيسية: التحرر ـ السلام ـ التغيير ـ التقدم، والأدب لم يكن مرة مسؤولاً، فهو في جوهره أداة للتقارب، والتآلف، والتصافي، ويسعدني أن أردد قول الشاعر:

إن يختلف ماء الحياة فماؤنا	عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا	أدب أقمناه مقام الوالد

مع تهاني القلبية وتحياتي الحارة أتمنى العمر المديد الطويل لأبي نزار ليظل حاملاً مشعل مجد بيروت، وراية تحرر لبنان، راية عتق الإنسان اللبناني مما كبله به طغاة الاستعمار والرجعية، والظلامية المقيتة. بمناسبة منحه جائزة بيروت

الدكتور رشيد معتوق
ثورة على الاستعمار والظلم

الدكتور رشيد معتوق أحد كبار المجاهدين اللبنانيين في سبيل تحرر البلدان العربية ورفع شأن القومية العربية. كان مناضلاً بقلمه وكان مناضلاً بسيفه ضد المستعمر وأعوانه. وكذلك عبر مهنته كطبيب انساني كبير.

لم أعرفه عن قرب إلا في الخمسينات، فقط في العام ١٩٤٤، سمعت همساً حديثاً لبعض الرفاق المسؤولين ورد فيه: والشيك بمبلغ ألف ليرة من الدكتور معتوق؟. ويبدو أن الدكتور رشيد وكان قد قدم آنذاك من العراق وتبرع للحزب بمبلغ ألف ليرة لبنانية. وهذا المبلغ إن لم يكن ذا قيمة فعلية تذكر اليوم، ففى العام ١٩٤٤ كانت قيمته كبيرة.

وكان للدكتور صلات وثيقة مع قيادة حزبنا، ولم تلبث هذه الصلات إلا أن برزت في نشاط عملي واضح وملموس للدكتور ظهر في مطلع الخمسينات عبر حركة السلم اللبنانية التي محضها كل قوته وإمكاناته. وأصبح مقرباً جداً لرئيس الحركة الرفيق انطون تابت. قال لي انطون، أنصار السلم كثار، ومعظمهم نشيط، ومعطاء، ومستعد لتقديم ما يطلب إليه. ولكن مثل الدكتور رشيد معتوق قليل.

والدكتور رشيد معتوق مجموعة مزايا حميدة. وأبرز هذه المزايا هو حبه وتقديره واحترامه لأبناء الشعب الكادحين. لم يقتن سيارة فخمة، بل اكتفى بسيارة جيب، وذلك ليتمكن من تقديم الخدمات للناس المحتاجين والمقطوعين ونقلهم فيها. ودائماً كان (جيبه) هذا. ملآنَ بالركاب.

وعلى صعيد مهنة الطبيب فكان وهو الطبيب القدير الناجح، يأبى تقاضي أجراً من ابناء الشعب، بل يصر على منحهم الدواء. وإذا لم يجده عنده منحهم مالاً لشرائه. إن انسانيته هذه بوأته مركز الزعامة الشعبية لا في جرود بلاد البترون وحسب، بل في جميع قرى القضاء، وإذا كان القانون لا يسمح له وهو الأرثوذكسي المذهب بترشيح نفسه للانتخابات عن قضاء البترون، فإن نجاح هذا وإسقاط ذاك من النواب الموارنة كان بيده. وهذا يعرفه جيداً أبناء منطقة جرد البترون عن ابن بلدة كفر حلدة.

هذه القيمة اللبنانية ـ العربية الثمينة جداً فقدناها، فقدناها يوم سقط الدكتور رشيد معتوق صريعاً في ٢٠ أيلول ١٩٥٦. ولنقرأ «الأخبار» تصف وقوع الحادث المؤلم.

كان الفقيد قادماً إلى بيروت من مسقط رأسه « كفر حلده ». ولدى وصوله إلى قرب المعاملتين اصطدمت سيارته بأخرى قادمة من بيروت فتحطمت أضلاع الدكتور ونقل إلى مستشفى أوتيل ديو حيث توفي. ورافق الجثمان من بيروت إلى كفر حلده موكب مؤلف من مئات السيارات والأكاليل.

وفي مسقط رأسه كفر حلدة، أقيم للمناضل الكبير مأتم ضخم ضم أكثر من عشرة آلاف نسمة. وقد أبنه العديد من ممثلي القرى المجاورة، كما أبّنه صديقه الحميم الأب طانيوس منعم، واميل طربيه باسم الحزب الاشتراكي ومحمّد الخطاب ومحافظ الشمال الذي قلده وسام الاستحقاق اللبناني المذهب.

والدكتور معتوق سجل حافل بأمجاد الجهاد الوطني في سبيل العروبة والانسانية، وضد الاستعمار والاحتلال. فقد كان عضو اللجنة القومية العليا، في عهد الأتراك، لتحرير البلاد، وعضو عصبة تكريم الشهداء، وعضو مجلس السلم العالمي، ورئيس بلدية دوما، وكان من رفاق يوسف العظمة، وقد اشترك في معركة ميسلون التي استشهد فيها يوسف العظمة، كما اشترك في معركة القنيطرة إلى جانب الشهيد أحمد مريود الذي استشهد في هذه المعركة. وقد نفاه الفرنسيون في عهد انتدابهم من لبنان وسوريا، فلم يهن ولم يستسلم، بل ظل يقارع الاستعمار ويشترك في مختلف الوثبات العربية، المسلحة وغير المسلحة.

والدكتور رشيد معتوق مجاهد كبير تجده حيث تكون المعركة. جاهد بالبندقية، وبالقلم، والمبضع. قاتل في الجبهات، ورفع عالياً علم النضال من أجل السلام العالمي. فكان أبرز قادة حركة السلم في لبنان والعالم.

فلسطين في القلب

وفي خطاب كبير له ألقاه في السادس من نوار سنة ١٩٥٣ في ذكرى الشهداء الأبرار قال:

من أعواد مشانق هذه الساحة ومن أعماق السجون وبالرغم من قادة الظلم المستعمرين وأذنابهم الخونة انبعثت بطولة الشهداء، فأعلوا الحق وزهقوا الباطل وصرعوا الموت بالموت.

على غرار ساحتهم الوطنية ستكون هناك في حقل الانسانية ساحات تتفجر من دماء أبطالها ينابيع التحرر الوطني فتجرف المستعمرين وحروبهم، وينتصر إلى الأبد الاخاء بين جميع الشعوب.

قال الشهداء وأوصوا ويوحون لنا دائماً: إن أعداء العرب الالداء هم الطائفيون منا والاقليميون والجشعون والمتكبرون والمرتشون والمتهاملون.

هم الخونة من العرب أنفسهم الذين أضاعوا فلسطين وهم المستعمرون الذين شيدوا اسرائيل والذين طردوا مليون عربي من ديارهم يذوقون بينكم أهوال الموت ومرارة التشريد. فلا تناموا ولا تبذخوا ولا تفرحوا حتى تزيلوا هذا العار لأن فلسطين هي قلب البلاد العربية التي لا يمكنها أن تعيش إلا بهذا القلب.

ويتوجه المناضل الكبير إلى الشعوب العربية باسم الشهداء فيقول:

أقدمنا على الموت ببطولة باسمة من أجل الأخوة العربية لا من أجل الطائفية والإقليمية والعنصرية ووضع جوازات سفر وحواجز جمركية بينكم.

ثرنا ثورة فكر للاصلاح وثرنا بالسلاح من أجل الاستقلال وناضلنا ضد الحروب والوسائل المجرمة للأشرار والاستعمار لأنه لا حرب بدون استعمار، ولا استعمار بدون حرب.

وينهي الدكتور معتوق خطابه بالقول: لقد سمعنا وصايا شهدائنا الأبرار. لذلك يجب علينا في هذه الساحة بالذات أن نقسم بكل خشوع أمام أرواحهم بأننا نقتفي آثارهم وننفذ وصاياهم.

وفي ١٥ نوار ١٩٥٣ ألقى الدكتور رشيد معتوق محاضرة بناءً على دعوة وجهتها إليه «جمعية العروة الوثقى» في الجامعة الأميركية، قال فيها:

أحيي شباب الجمعية التي بدأت هي وأمثالها تؤلف قوة صدام. وهاجم الاحتلال الأجنبي لبعض البلدان العربية وسيطرة الاستعمار على مواردنا الاقتصادية الأمر الذي أوجد بلبلة في تفكير العرب وأفقدهم تعاليمهم الصحيحة، وطالب بتوحيد برامج التعليم، وقال إن بين الشعب والمسؤولين هوة، فلا الشعب يحبهم ولا هم يحترمونه.

ثم تحدث عن وثيقة حقوق الإنسان التي لم يكد الناس ينتهون من الاحتفال بها حتى مزقتها الدول الاستعمارية وداستها بالأقدام ثم أقامت اسرائيل في فلسطين وشردت مئات الألوف من العرب.

وقال: إن إرادة الشعوب العربية هي التحرر لتحطيم كل محاولة لاعادة الاحتلال إلى الاقطار التي زال عنها. وأشار إلى أن كل أمراضنا الاجتماعية هي نتيجة للاستعمار. وطالب بالعناية بأدب الأمة الواقعي ومعالجة الأمور على أساس العلم والتطور ودعا إلى نبذ الأوهام والخزعبلات وتوحيد جهود العرب.

وبعد ذلك دعا إلى رفض جميع مشاريع المستعمرين مثل «الدفاع المشترك» والصلح مع اسرائيل والاتحاد مع تركيا.

ولم يكن الدكتور رشيد معتوق رجل بندقية وقلم ومبضع وحسب، بل كان بالاضافة إلى ذلك مناضلاً اجتماعياً حرص على تنظيم الطاقات الفاعلة في شعبنا وتوجيهها وطنياً ديمقراطياً وحدوياً مفيداً.

ففي صيف العام ١٩٥٣ عقد المهرجان العالمي للشباب في بوخارست ـ رومانيا واشترك فيه لبنان اشتراكاً واسعاً. وتشكلت لجنة تحضيرية للمهرجان وكان الدكتور رشيد معتوق أمين سرها. وقد وجه نداء إلى شبيبة لبنان حياها فيه، وزودها بتوجيهاته الوطنية الصادقة وقد جاء في هذا النداء: «يا شباب الجيل الصاعد. ستذهبون عما قريب للانضمام إلى مهرجان الشبيبة والطلاب العالمي الرابع في بوخارست في شهر آب المقبل الشهر الذي ذهبنا فيه نحن إلى مهرجان الشبيبة العالمي في برلين. فتجدون هناك ما وجدنا، إن الشعوب تحب السلم وتتعلق به».

«في ذهابكم ستعبرون المضايق وتمخرون البحار وتقطعون السهول والجبال وسترون أناساً يستقبلونكم بقلوب مفتوحة وثغور باسمة وفرح باسم وأيد تصفق حاملة إليكم الهدايا تحت الأمطار قياماً بواجب عليهم وتشجيعاً لكم في خدمة تحرير الأوطان والسلام العالمي المنشود، القضيتين اللتين لا انفصام بينهما».

«مثلوا وجه بلادكم الحبيبة أصدق تمثيل. ودعوهم وداعاً حاراً واشكروهم على حفاوتهم بكم».

وكان الدكتور معتوق مناضلاً بارزاً في حركة السلم اللبنانية وعضواً في مجلس السلم العالمي. وفي شهر حزيران ١٩٥٣ عقدت دورة لمجلس السلم العالمي في بودابست ـ هنغاريا. ومثّل الدكتور رشيد معتوق حركة السلم اللبنانية وألقى خطاباً كبيراً قال فيه:

«أما العواقب التي تجرها حرب جديدة، فيمكن التنبؤ بها بالاستناد إلى ما يجري في كوريا والفيتنام وتونس، وإلى الاستعدادات الحربية، وإلى احلاف الاطلسي والشرق الأوسط والشرق الأقصى، وإلى القواعد التي يبنونها في لبنان وسوريا، وفي كل مكان.

ونحن في لبنان وفي سائر الأقطار العربية، نقدر الدور الكبير الذي اضطلع به مجلس السلم العالمي. إن شعوبنا التي عانت كثيراً من ويلات الحروب، والاحتلال، والثقافات الأجنبية، ونهب الثروات الوطنية تقف بالإجماع إلى جانب حركة السلم العالمية وتساند نشاطها.

إن شعوب لبنان وسوريا وسائر البلدان العربية ستواصل النضال ضد جميع المشاريع الحربية، سواء منها الأميركية والانكليزية والفرنسية، والتركية، والإسرائيلية. إن فشل زيارة فوستر دالس هو مثال على كل ما سيلاقيه أي مشروع آخر. إننا نعلم أنه لا يوجد أي خطر علينا من جانب الاتحاد السوفياتي ولكننا نعلم أن الخطر ناجم عن إقامة القواعد العسكرية لمهاجمة الاتحاد السوفياتي،

بطل السلم وصديق جميع الشعوب».

والدكتور معتوق صاحب ماض، اشترك في مقاومة الجيوش الاستعمارية بسلاحه ومهنته وخاض عدة معارك إلى جانب أبطال العروبة من أمثال يوسف العظمة، وأحمد مريود وغيرهما.

وكان منزله في «كفر حلدة» ـ البترون موئلاً للأحرار، ومحراباً للمكافحين ضد الاستعمار الفرنسي الذي أبعده عن لبنان، فرحل إلى العراق حيث قام بأعمال انسانية ووطنية أبرزها أنه وضع مشروعاً للضمان الصحي والاجتماعي في البلد الشقيق. وبعد أن انتزع لبنان استقلاله السياسي سنة ١٩٤٣، عاد إليه ليتابع هنا كفاحه الوطني والاجتماعي.

أما أعماله الانسانية فهي من الغزارة بمكان كبير. فقد قام بعمل جديد من نوعه في لبنان عام ١٩٢٣ فأسس الضمان الاجتماعي في قريته. كما افتتح مستشفى في قرية دوما بمنطقته وكان دائب السهر على المرضى عاملاً على مؤاساتهم.

ولكن المحتوم لم يعن شعبنا بإطالة عمر أكبر صديق له، الدكتور رشيد معتوق. فقد فقده وهو لا يزال في إبان عطائه، وغمرة ديناميكيته. رثاه أصدقاؤه. وفيما يلي ما كتبه أقربهم إليه الدكتور جورج حنا:

شب الدكتور رشيد معتوق فرأى بلاده ترزح تحت وطأة الاستعمار. ورأى الجيوش الأجنبية الاستعمارية تحتل جميع أجزائها. ورأى شعبه ينوء تحت عبء الاحتلال. ورأى عامة شعبه تتضور من الجوع، وتموت في الحرب العالمية الأولى. وشهد غطرسة المستعمرين وراء ستار الانتداب بعد انتهاء تلك الحروب.

تجند في كل ثورة عربية ضد الاستعمار. ونام على الأرض تحت زخ الأمطار. واعتقل ونفي. وشرد نفسه بملء اختياره. وطاف الأقطار العربية ينادي شعوبها لمكافحة المستعمرين. واستقر في وطنه لبنان، وفي قريته كفر حلدة بعد الحرب العالمية الثانية، متابعاً نضاله التحرري من أجل توطيد استقلال بلاده، دون أن يثنيه عن متابعة النضال جلاء القوات الأجنبية عن بعض أجزاء العالم العربي. فالدكتور رشيد معتوق كان يدرك أن الجلاء الجزئي لا يفيد ما دامت القوات الأجنبية متمركزة ولو في قطر واحد من الأقطار العربية. هذا ما جعل الدكتور رشيد معتوق يناضل ضد ما تبقى من احتلالات في الأراضي العربية. وهذا ما جعله يناضل ضد حلف بغداد العسكري وضد مشروع الدول الغربية في تدويل قناة السويس وضد مشاريع الغرب الاستثمارية، وضد ربيبته اسرائيل.

وكان الدكتور رشيد معتوق من أول من أدركوا فائدة التعاون مع المعسكر الاشتراكي الذي

يقوده الاتحاد السوفياتي، كما كان من أول من أدركوا حقيقة حركة السلم العالمية، فانضم إلى صفوفها، وكان من أبرز المناضلين فيها.

وكان الدكتور رشيد معتوق يتطلع إلى التعاون الثقافي والاقتصادي بين الشعوب، تعاوناً مخلصاً صادقاً نزيهاً، على أساس احترام سيادة كل شعب، كسبيل أوحد لإقرار السلام العالمي، ووضع حد للتوتر الدولي، والقضاء على كل استعمار. فقاوم بقوة وايمان الدعايات الغربية المضللة ضد الاتحاد السوفياتي والبلدان الديمقراطية الشعبية. هذه الدعايات الهادفة إلى بذر الشقاق بين العالم العربي والمعسكر الاشتراكي، الذي كان الدكتور معتوق خبره في زيارته للاتحاد السوفياتي عام ١٩٣٥ وعام ١٩٥٥ ما جعله يؤمن ايماناً صادقاً بصدق نوايا الشعوب السوفياتية وبعملها من أجل السلم والحياة السعيدة.

إن الأرث الثوري التقدمي الذي خلفه الدكتور رشيد معتوق في قضاء البترون، وبخاصة في المنطقة الوسطى والجردية منه، خالد في نفوس وضمائر الأحرار من أبناء هذه المنطقة الأبية. لم يكن الدكتور رشيد عضواً في الحزب الشيوعي، ولكنه كان صديقاً حميماً له. وفي نواح عديدة من ميادين نشاطه عمل وكأنه أفضل عضو في الحزب. وفي الدكتور معتوق اجتمعت ميزتان: النضال السياسي اللبناني العربي الجامع، والنضال الأممي الانساني عبر حركة السلم، وجمعية الصداقة مع الاتحاد السوفياتي وكان عضواً بارزاً فيها. والنضال على الصعيد الاجتماعي وكان خلد ذكره رجل خدمات يغيث الملهوف، ويساعد المحتاج، ويضمد جروح المعذبين ويقدم لهم ما يحتاجون إليه. كل ذلك عبر صمت، وبدون أي ضجة. والتزامه بهذه الواجبات فرض عليه أن يكون دائماً مدينا، وقضى نحبه والديون المتراكمة عليه كثيرة.

ففي ضمير كل شيوعي، كل مناضل من أجل السلم، كل مكافح من أجل التحرر الوطني والاجتماعي، كل تقدمي، باقٍ الدكتور معتوق، وذكراه كانت ولا تزال وستبقى حافزاً للعراك من أجل الحرية، والديمقراطية، والتقدم الاجتماعي.

انطون ثابت والخوري طانيوس أمام القضاء

محاكمة أنطون ثابت والأب منعم كانت تلبية لرغبة الأوساط الامبريالية التي أخذت تضغط على الحكم اللبناني الطيع، للقيام بعمل ما يحد من نشاط هذه الحركة. فما من لجنة من عشرات اللجان التي تشكلت لجمع التواقيع على «نداء برلين» الداعي إلى المفاوضات لحل المشاكل العالقة، وقبله على «نداء ستوكهلم» إلا وتعرضت لمضايقات السلطة، وكثيرون من نشطاء الحركة اعتقلوا، وحقق معهم. ومنهم من قضى ليالي في النظارة أو في السجن. حتى رئيس حركة السلم الرفيق انطون

تابت اعتقل وأحيل، سنة ١٩٥٢، إلى المحاكمة وبات عدة ليال في السجن، الأمر الذي أحدث ضجة واسعة في جميع أنحاء البلاد. فانهمرت برقيات الاحتجاج وعرائض الاستنكار، من جميع المناطق ومختلف الشخصيات تطالب بإطلاق سراح المناضل الكبير. كما تدفقت برقيات الاحتجاج من جميع أنحاء العالم بشجب تدابير السلطة اللبنانية باعتقال أبرز رجالاتها.

وأحيل انطون إلى المحاكمة. ووقفته أمام القضاء كانت وقفة شجاعة تعكس طبيعة الرجل الكبير. ومما قاله في دفاعه أمام القاضي: « إنه لشرف لكل مواطن أن يحال إلى المحاكمة بالتهمة التي نحن بصددها. فقد ورد في القرار الظني أنني طعنت بالاستعمار الأميركي والانكليزي والفرنسي والتركي وأصحاب مشروع العدوان الرباعي. إننا نحترم الاتحاد السوفياتي ونكن له التقدير والاحترام، ولولاه لظلت بلادنا مستعمرة فرنسية (الرئيس: والانكليز ألم يساعدوا على الجلاء؟) انطون: كلا فهم قد اتفقوا على تقاسم بلادنا واحتلالها بموجب اتفاق بيفن - بيدو. إن الاستعمار لم يعد يجد في كل البلاد إلا أشباه الجراثيم أصدقاء وخدماً له. إن ٢٥٠ ألفاً وقعوا على نداء السلم. فعلى الحكومة بناء معسكرات تتسع لكل هؤلاء، إذا كانت دعوتهم إخلالاً بالأمن، كما تعتبر هذه الدعوى».

واضطر القضاء لاطلاق سراح انطون الذي دلل بموقفه أمام الشرطة، وفي السجن على أنه ذلك المناضل الشجاع ضد الحرب، ومن أجل توطيد السلم. وهذا ما أكسبه التقدير والإكبار في جميع الأوساط الوطنية التي كنّت له كل الاحترام. ومع الارتماء أمام سياسة الامبريالية الأميركية التي ضلع بها الحكم الشمعوني، ازداد ارتهان الحكم لسياسة واشنطن، التي يهمها بالدرجة الأولى مكافحة الحريات الديمقراطية، وكل نشاط ضد الأحلاف العدوانية التي أصبحت المحور الأساسي للسياسة الأميركية في الشرق الأوسط.

إن السجون بين أعوام ١٩٤٩ و ١٩٥٧ لم تخل من المناضلين في سبيل السلم العاملين في حركة السلم اللبنانية، وهذا الارهاب، أسبغ على الحركة عطفاً واسعاً، في المناطق والأوساط الاجتماعية كافة. ولم يقتصر الارهاب على أنصار السلم في العاصمة فقط بل شمل المناطق، وطال نشطاء حركة السلم فيها.

ففي ٣٠ نيسان ١٩٥٣ داهم رجال الأمن بيت المناضل الخوري طانيوس منعم في البترون وصادروا منه دفتر مذكرات ومقالات وكتباً ونشرات علمية وسياسية.

وقدم الأب منعم شكوى ضد رجال الأمن العام، ولكن النيابة العامة حفظت هذه الدعوى، وأقامت هي دعوى ضده استناداً إلى القرار رقم ١١٥ ل.ر. الاستعماري. وأصدر الحاكم البدائي

القاضي يوسف جبران حكماً بتبرئة المدعى عليه الأب منعم وفيما يلي فقرات أساسية من هذا القرار الذي أصبح اجتهاداً له مفعول القانون « بما أن ما ورد في تقرير رجال الأمن لهذه الجهة، فضلاً عن ذلك، لا يثبت انتساب المدعى عليه إلى الحزب الشيوعي. بل جاء بمجرد الادعاء لا تؤيده حجة ».

« وبما أنه لو صح وكان المدعى عليه يدين بالعقيدة الماركسية اللينينية الستالينية فعقيدته تلك لا توجب إدانته لأن حرية الفكر مصونة بأحكام الدستور وشرعة حقوق الإنسان ».

« لجهة المقالات التي نشرها في الجرائد والخطب التي يلقيها في الكنائس والاجتماعات العامة، وبما أن حق الكاتب والخطيب لا بل من واجبها أن ينصرفا إلى معالجة القضايا الوطنية والانسانية والكفاح توصلاً إلى تحسين مستوى العيش ورفعه وتحقيق الإنسان الكلي ووعي آلام الأمة وآمالها والإفصاح عنها، لا أن ينصرف إلى أدب المناسبات والأدب « النعاسي » الذي يحبط الهمم ويثبط العزائم ويصرف الانسان إلى فكرة خيالية تحول دون معالجته قضاياه الاساسية والحيوية ».

« وبما أنه من مراجعة الدفتر المعنون: « مذكرات يومية » ليتبين أنه دوَّن فيها آراء لبعض المفكرين الأجانب وليس في مطالعة الفكر الأجنبي مهما كانت صبغته ولونه جرم يعاقب عليه. لأن من حق كل انسان لا بل من واجبه الاطلاع على منابع الفكر وتياراته مهما اختلفت تلك المنابع والتيارات حتى لو كانت تلك التيارات الفكرية مما يسمى بـ « الجارف الهدام » إذ أن كثيراً ما يكون الهدم مقدمة البناء ».

« وبما أنه يمكن القول نفسه فيما يختص بجميع الكتب التي صودرت من بيت المدعى عليه والتي تتضمن معالجة مواضيع مختلفة لكتاب مختلفين ».

« وبما أن مصادرة نشرات من بيت المدعى عليه تتعلق بمؤتمرات السلم المنعقدة هنا وهناك في أرجاء العالم والدعوة للسلم في لبنان والتوقيع على العرائض ضد الدفاع المشترك لا تشكل الأفعال المنصوص عليها في المادتين ٢ و ٣ من القرار ذي الرقم ١١٥ ل.ر. ولأن العمل للسلم العالمي والاحتفاظ بمقرارات مؤتمراته ونشراته لا يمكن أن يشكل إخلالاً بالأمن في لبنان بلد السلام بتعريفه، فضلاً عن أن شجب الدفاع المشترك هو من الآراء السياسية التي يحق لكل مواطن ابداؤها وحرية الفكر ونشره مقدسان مكفولان بنصوص القانون الأساسي وشرعة حقوق الانسان التي كان للبنان القسط الوافر في اعدادها ونشرها « المادة ٨ دستور - ١٩ شرعة ».

« وبما أن اقتناء المدعى عليه نشرات تتعلق باتحاد الطلبة العالمي لا يشكل جرماً جزائياً لأنه ليس فيما تتضمنه تلك النشرات دعوة للشعب في لبنان أو للعصيان أو لمحو الكيان، بل دعوة جميع

طلاب العالم للاتحاد في سبيل نشر السلم في العالم ورفع مستوى الدراسة والعيش وهذه أمور طبيعية يناضل كل إنسان من أجلها ، كل إنسان يريد أن يحقق في ذاته الإنسان الكلي ».

« لهذه الأسباب: نحكم بتبرئة المدعى عليه وإعادة الكتب والنشرات المصادرة والمبيَّنة في متن هذا الحكم إليه وتعليق الرسوم حكماً وجاهياً صدر في الدرجة الأولى علناً بتاريخ ٢٩ أيلول سنة ١٩٥٣ ».

وقد أرسل الدكتور جورج حنا إلى القاضي يوسف جبران برقية التالي نصها:

« الحكم الذي أصدرتموه بقضية الأب طانيوس منعم يشرفكم كما يشرف بشخصكم القضاء اللبناني. وهو صفعة لمصغري الوجوه أمام القوى الاستعمارية الغاشمة. لا بد أن ينتصر الحق في لبنان ما دام فيه قضاة مثلكم. يهنئكم المعجب بعلمكم ونزاهتكم »

الدكتور جورج حنا

وقد دالت الدولة الشمعونية وصفى شعبنا حسابها ، ودالت معها الاحلاف العدوانية وفي أساسها « مبدأ ايزنهاور ». والصفحة المكتوبة في التاريخ عن هذه الدولة ، صفحة حالكة السواد ، قذرة المنظر. أما أنصار السلم ، أما الـ ٢٥٠ ألفاً من الراشدين الذين وقعوا على النداء الإنساني المطالب بتحريم القنبلة الهدروجينية ، فباقون خالدون ، أسماؤهم مسجلة في تاريخ لبنان بمواد من ذهب. المجد لمن توارى منهم بموت حل به ، والعمر المديد لمن هو حي منهم يتابع المسار الذي بدأه شعبنا في العام ١٩٥٠.

الاستاذ اميل
المحامي المثالي

لم يتسن لي التعرف إليه عن قرب. إنما من كثرة ما كان اسمه يتردد على أفواه الرفاق ، وبخاصة نزلاء سجن الرمل ، أصبحت أشعر بأنني أعرفه. وأنني قريب منه. فالسجين الشيوعي في مطلع الثلاثينات كان يعرف الاستاذ اميل جيداً. فما من محاكمة ضد سجين شيوعي جرت في المحكمة المختلطة ، إلا وكان اميل فيها للدفاع عن « الصعاليك »: هذا متهم بتوزيع منشور يدعو المواطنين لمساعدة عمال المطابع المضربين ، وهذا لأنه علق علماً أحمر على عمود التلغراف لمناسبة عيد العمال ، وهذا لأنه مشى في تظاهرة تضامنية مع السائقين المضربين... هؤلاء جميعهم وجدوا في الاستاذ اميل أفضل نصير ومدافع عن حق الكادحين. جسور إن انتصب ، دفاق إن حكى ، جريء إذا تبنى قضية.

فمن هو الاستاذ اميل؟

إنه المحامي اميل قشعمي من بكفيا ـ قصبة قضاء المتن، وابن عم المرحوم الياس القشعمي أحد مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني.

يقول الرفيق أرتين مادويان: تعرفنا إلى المحامي اميل قشعمي في العام ١٩٢٩، والفضل في ذلك يعود إلى فؤاد الشمالي، وبخاصة إلى فريد طعمة العامل في مصانع التبغ في بكفيا، وأحد مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني في ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٤، وفريد طعمه الشخصية العمالية والاجتماعية المعروفة، انتخب سنة ١٩٢٩، عضواً في مجلس بلدية بكفيا، وعندما كنا أنا وفؤاد الشمالي وآخرون، والقول لا يزال لأرتين مادويان، منفيين في جزيرة «أرواد»، ومن ثم في «القدموس» و «الرقة» لم ينقطع فريد طعمه عن مراسلة فؤاد الشمالي. ورسائله كانت مفعمة بالثقة والإخلاص، وتؤكد الالتزام العنيد بقضية الطبقة العاملة، وبالحزب الشيوعي.

إن صلة فريد طعمه وفؤاد الشمالي بالمحامي اميل قشعمي، أثرت كثيراً على أفكار إميل، فأعطى الكثير من طاقاته، وخصص المزيد من وقته لمعالجة قضايا العمال، والمناضلين السياسيين من شيوعيين وسواهم. وعندما أتى النائب الشيوعي الفرنسي أندريه برتون وهو محام كبير، أوفده الحزب الشيوعي الفرنسي الشقيق للدفاع عن سجناء شيوعيين، سنة ١٩٣٢، رافقه الاستاذ قشعمي، فتوطدت بين الاثنين صداقة متينة، كما ازداد ارتباط إميل بالحركة الشيوعية، دون أن يلتزم كعضو عامل في الحزب. وعندما أوفد الحزب الشيوعي الفرنسي في مطلع العام ١٩٣٥ المحامي الكبير انطوان الحاج ليدافع عن المعتقلين في اضراب القصابين في زحلة، رافقه إميل قشعمي وتوطدت بين الاثنين صداقة حميمة.

سلط الانتداب الفرنسي ارهاباً شديداً على الحركة الوطنية في لبنان. وكان واهماً أنه إذا ما قامت في سوريا حركة وطنية فذلك شيء «طبيعي». أما في لبنان فإن ذلك «مستغرب» جداً، وبخاصة في الوسط المسيحي، وعلى وجه الضبط، في الوسط الماروني والكاثوليكي.. وكان موظفو السلطة المنتدبة ينزعجون جداً إذا ما اعتقلوا شيوعياً مارونياً، أو إذا وقف محام مسيحي يدافع عن قضية شيوعية. ومن هنا ندرك كم كانت جرأة اميل قشعمي قوية وبخاصة في تلك السنوات العجاف، المظلمة، سنوات ١٩٢٩ ـ ١٩٣٥، سنوات الخصب في المعارك التي قام بها المناضلون الشيوعيون ضد الانتداب، ودفاعاً عن قضايا العمل وجماهير الشعب كافة. فبدون وجل، دافع اميل قشعمي عن الشيوعيين، وهاجم المحاكمات التي تدبر ضدهم، مما جعل اسمه يتردد في صحف لبنان وسوريا، وفرنسا.

وإن ما تجدر الإشارة إليه في سلوك إميل قشعمي، أنه لم يتقاض أي أجر من أي مناضل،

ولهذا كانت أحواله المادية صعبة.

كان جريئاً، وجرأته دفعته سنة ١٩٣٤ عندما ترشح أرتين مادويان وسعد الدين مومنة إلى الانتخابات النيابية في بيروت، إلى أن يذيع بياناً دعا فيه الناخبين، وبخاصة العمال لتأييدهما، لأنهما يمثلان بحق وصدق الجماهير الكادحة والمناضلة ضد الاستعمار. وقد حصل كل منهما على أكثر من ٥٠٠ صوت. وهو عدد ليس بالهزيل، إذ ما علمنا أن ألفي صوت كانت كافية للنجاح.

الحقبة بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ حتى بدء الحرب العالمية الثانية، شهدت انتعاشاً نسبياً في الحريات الديمقراطية. ففي سوريا ارتفع أوار النضال الوطني، مما أرغم الاستعمار على التراجع، والرضوخ لمطالب الشعب السوري، وبدأت المفاوضات بين البلدين لإقامة العلاقات بينهما على أساس معاهدة. وقد انسحب هذا الانتصار للشعب السوري، جزئياً على لبنان فشكل وفداً لمفاوضة السلطات الفرنسية ووضع مشروع معاهدة بين البلدين. ورافق موجة النضال هذه، انتصار كبير حققته أحزاب اليسار في فرنسا التي ألفت «الجبهة الشعبية». وقد حصلت «الجبهة» هذه على أكثرية المقاعد في البرلمان، وشكلت حكومتها برئاسة ليون بلوم، زعيم الحزب الاشتراكي. وكان الحزب الشيوعي الذي حصل على ٧٣ مقعداً في البرلمان ركناً رئيسياً في «الجبهة الشعبية».

في أثناء موجة انتعاش الحريات الديمقراطية في لبنان وسوريا، جرت انتخابات نيابية في خريف ١٩٣٧ في لبنان. وقد خاضها الحزب الشيوعي بأبرز وجوهه. فترشح عن جبل لبنان فرج الله الحلو عن مقعد ماروني، وترشح المحامي إميل قشعمي عن المقعد الكاثوليكي.. وفي بيروت ترشح نقولا شاوي عن المقعد الأرثوذكسي، وسعد الدين مومنة عن مقعد سني.

وفرج الله الحلو ممثل الحزب الشيوعي، اتفق مع المحامي إميل قشعمي المستقل، وخاضا الانتخابات في قائمة واحدة، وبالرغم من ضعف الإمكانات التي كانت بحوزة فرج الله الحلو واميل قشعمي، وهي دون الإمكانات التي كانت بأيدي القائمة الحكومية التابعة للكتلة الوطنية، أو قائمة المعارضة التي يرئسها الشيخ بشارة الخوري. لكن، وبالرغم من ذلك، فقد تمكن الحلو والقشعمي من أن يحدثا تحريكاً شعبياً واسعاً، ولا سيما في الوسط العمالي.

وككل معركة انتخابية في لبنان، لعبت ماكنتا التزوير وشراء الأصوات دورهما، وفي الاثنين كان دور فرج الله الحلو وإميل قشعمي صفراً، لأنهما، انطلاقاً من المبدأ الذي يعتنقانه، والكرامة الوطنية، وعلاقة المرشح بالناخب، كانا يرفضان استخدام الماكنتين، ويحاربان كل من يعمل لهما، وكان لعملية التزوير تلك أن جعلت قائمة رياض الصلح، التي تعاونت مع نقولا شاوي، تنسحب بعد مرور ساعة على البدء بالانتخابات، لأن «أبطال» التزوير لم ينتظروا النهاية، بل بدأوا بعملهم منذ فتحت الصناديق، وهكذا حصل في جبل لبنان، فقد سدّت جميع الطرقات والمنافذ بوجه

فرج الله الحلو واميل قشعمي، اللذين خاضا المعركة معتمدين على دعم الشعب لها. وما كانا ليملكان فلساً في جيوبها. كل رصيدهما هو نضال وتفان قدماهما خلال مسيرتها النضالية في خدمة العمال والفلاحين، وجميع الكادحين.

وتشاء الظروف أن يتأسس حزب اشتراكي في لبنان، وذلك على أثر انتصار «الجبهة الشعبية» في فرنسا. ومن أركانه، إميل قشعمي، ابراهيم حداد، ومير مسعد وسواهم، وقد حدث سوء تفاهم تطور إلى خلاف بين مؤسسي الحزب الاشتراكي، فقسم منهم وعلى رأسهم المحامي مير مسعد، انضم إلى الحزب الشيوعي اللبناني، وقسم آخر وعلى رأسه اميل قشعمي اتخذ موقف الحياد الإيجابي، وقسم حاول شن حملة ضد الحزب الشيوعي فباء بالفشل. وعلى كل، لم يعش الحزب الاشتراكي اللبناني أكثر من سنة ونصف السنة، فمعظم مؤسسيه انضموا للحزب الشيوعي، وبقي اميل قشعمي صديقاً للحزب الشيوعي مكملاً رسالته التي بدأها سنة ١٩٢٩ كمحام شريف أقدس ما عنده هو أن يقدم خدمة لعامل.

قال أرتين مادويان: «في الأربعينات التقيت صدفة إميل قشعمي، فكان حاراً بالسلام عليّ، وتمنى لنا النجاح في نضالنا». وتابع أرتين، «لقد وجدته كما عرفته قبل ١٥ سنة في مطلع الثلاثينات».

كان اميل قشعمي مناضلاً، على الصعيد القانوني، دافع عن المظلومين، وتعرض للحرمان بسبب مواقفه الثورية في نضاله ضد الاستعمار. ولكنه لم يهن، ولم يلجأ للبحث عن المبررات لينتقل إلى التلكؤ والتقاعس.

إن الطبقة العاملة اللبنانية التي تذكر باعتزاز من دافع عنها، وناضل لدعم قضاياها، كفؤاد الشمالي، ويوسف ابراهيم يزبك، وفريد طعمه، ومصطفى العريس، وسعد الدين مومنه، وحنا الزرقا، وميشال عازار، تذكر وباحترام، محامين وقفوا بجانبها ومنهم: اميل قشعمي، اميل لحود، يوسف جرمانوس، يوسف المراوي وغيرهم.

إن لإميل قشعمي ديناً في أعناقنا. في عنق كل كادح محروم. اليوم عشرات أصوات المحامين ترتفع بالدفاع عن حق العامل المهروس، ولكن في العام ١٩٢٩ كان لصوت يرتفع مدافعاً عن حق العامل معنى آخر، مغزى آخر، أهمية أخرى.

رئيف خوري ديومة حيوية نابضة في ضمائرنا

إذا كان «الفضل يعرفه ذووه» فمن أولى بفقيدنا الكبير رئيف خوري بذلك. إن فضل رئيف

خوري ليس منحصراً في زاوية من زوايا قضايانا الوطنية والاجتماعية، والقومية، فأينما فتشت، وحيث تلفت، في لبنان، في دنيا العرب، تجد لحقبة من الزمن امتدت من العام ١٩٣٥ حتى شهر تشرين الثاني ١٩٦٧، تجد رئيف خوري مالئاً المكان ساداً الأفق بالعطاء، هادراً كالأوقيانوس، صامداً يقارع الأعداء من أي نوع كانوا. لم يثنه عن ارادته ترهيب. ولم ينفع الذين أقضّى عليهم مضاجعهم ترغيب. بل انتصب بوجه هؤلاء عملاقاً لبنانياً عربياً يرمي الزنادقة بوابل من حممه، ويهدي الجماهير الهادرة إلى سلوك الطريق الأمين المؤدي إلى السلامة من عطاءاته المتدفقة تدفق ينابيع وشلالات لبنان.

منذ انطلاقته الأولى في منتصف الثلاثينات، وكان لا يزال أملوداً ملؤه الصحة والنشاط. وكله تطلع بأمل نحو المستقبل، التزم رئيف بالفكر التقدمي، بالمادية التاريخية والجدلية المرتكزة إليها. وأول معرفة لجماهير شعبنا، لعمال وفلاحي بلادنا، لمثقفيها المتقدمين برئيف، كانت في تلك الحقبة من الثلاثينات، عبر كتابه «ثورة بيدبا» واسمح لنفسي القول، إن «ثورة بيدبا» قد لعبت دورا كبيراً في توسيع أطر تنظيمات حزبنا الشيوعي، وإن عديداً من العمال والفلاحين قد انجذبوا إلى الفكر الماركسي، والتزموا في صفوف الحزب، وإن قرى عديدة أقدم الكثير من شبابها على تأسيس «خلايا» شيوعية فيها. بفضل «ثورة بيدبا» هذه ارتفع فيهم أوار التمرد، والثورة. وكان من الطبيعي أن يلتقي هذا المد التحرري مع الحزب الشيوعي اللبناني.

وأخذت الصداقة بيننا وبين رئيف تزداد توثقاً وتوطداً. وفي هذه الأثناء كان يدرس الأدب العربي في «جامعة القدس» بفلسطين. ولكنه روحياً كان مقيماً في لبنان. ولم يمض اسبوعان، واحياناً اسبوع واحد، إلا ويأتي إلى بيروت. في «فندق القصر الملوكي» الكائن شرقي سراي البرج القديمة، كانت تعقد اللقاءات مع رئيف. وأقرب المقربين إليه كان رفيقنا الكبير الأديب والشاعر فايز يارد. واتسعت صلات رئيف بلقائه مع فرج الله الحلو ونقولا شاوي، وانطون تابت. وما أن ظهر العدد الأول من جريدة «صوت الشعب» في ١٥ نوار ١٩٣٧ حتى شرعت صفحاتها أمام قلم رئيف خوري ينشىء فيها المقالات في الأدب، والقومية العربية، وفي الشعر. وفي العام ١٩٣٨ وكان الشباب العالمي على موعد للقاء له في مؤتمر بنيويورك. وتم ذلك في ١٥ آب من العام ١٩٣٨، وكان رئيف خوري يمثل الشباب الديمقراطي العربي، قوة الصدام في الدفاع عن حق عرب فلسطين، وضد المشروع الاستعماري الصهيوني. ولما عاد رئيف من نيويورك جرى له على مرفأ بيروت استقبال حافل اشترك فيه حشد كبير من مقدري نشاطه ومزاياه، وجهوده في سبيل خدمة القضية الفلسطينية التي حمل الحزب الشيوعي اللبناني لواء الدفاع عنها باستمرار.

وبسبب نشاطه القومي والوطني، لم يعد رئيف مرغوباً به في فلسطين. فطلبت إليه سلطات

الاستعمار الانكليزي مغادرة البلاد. فعاد إلى لبنان، ليتابع نشاطه الفكري إن في الكتابة، في الصحافة. وجميعها كان مشرعاً صفحاته أمام قلمه، أو في التأليف، وإلقاء المحاضرات. وكان رئيف من أركان عصبة مكافحة الفاشيستية التي تأسست سنة ١٩٣٧، ومن أبرز كتاب مجلة «الطليعة» التي تأسست بناءً على قرار من «مؤتمر المثقفين الديمقراطيين العرب» المنعقد، برئاسة سليم خياطه في معلقة زحلة سنة ١٩٣٤، للبحث في موضوع الوحدة العربية.

وفي المؤتمر الأول الذي عقد في ٦ ـ ٧ نوار ١٩٣٩ في بيروت لـ «عصبة مكافحة الفاشيستية» كان رئيف ركناً من أركانه، ووجها لبنانياً وعربياً متألقاً من وجوهه.

ووقعت الحرب العالمية الثانية، فإذا برئيف ينتقل إلى دمشق ليمارس التدريس في معاهدها، وهناك تابع نشاطه الوطني وصلاته الحية بالحزب الشيوعي. وقد أنشأ صحيفة جعلها منبراً للأفكار الاشتراكية مستخدماً الأسلوب الأدبي والعلمي في ذلك. ولكن لباقته وقدرته اصطدمت بموقف الاستعمار الذي أوقف الجريدة المذكورة.

وانتقل رئيف فيما بعد إلى مدرسة اللاييكْ في طرطوس. وعندما طردت سلطات فيشي من سوريا ولبنان كان لا يزال استاذاً في طرطوس. ولكنه أكثر من مجيئه إلى بيروت. وكانت استعادة علنية الحزب، وتصدير «صوت الشعب» بعد تعطيل دام حوالى الـ ٢٧ شهراً، كان ذلك حدثاً كبيراً ألّب أعداء الفاشيستية، ومعظم الديمقراطيين من الأدباء والكتاب حول الحزب الشيوعي اللبناني، وجريدته «صوت الشعب» وكذلك حول «مجلة الطريق» التي أسسها صديق رئيف خوري الحميم الرفيق المهندس أنطون تابت. لقد غدت مجلة «الطريق» الأداة الناطقة باسم المثقفين الديمقراطيين، ولجنة الاشراف على تحريرها المؤلفة من: عمر فاخوري، رئيف خوري، انطون تابت، يوسف ابراهيم يزبك، تؤكد ذلك.

في هذه الفترة بين تموز ١٩٤١ وأواخر العام ١٩٤٧ برز رئيف خوري لا كأديب، ونقادة، وشاعر، وصحافي، ومؤلف، ومحاضر، وحسب، بل برز كعالم قائم بذاته يزخر بما حمد من الصفات، وما تراكم من القدرات وقد وظفها كلها لمصلحة الحزب الشيوعي اللبناني.

وإذا كانت الألوف، عشرات الألوف التي تصفق للحزب الشيوعي عندما يلقي قائده فرج الله الحلو خطاباً في مهرجان، فإن تلك الأيدي التي صفقت لفرج الله الحلو، كانت هي ترتفع وتصفق لرئيف خوري هذا البحر الزاخر، بل الأوقيانوس الهادر.

قرض رئيف الشعر، فإذا به شاعراً مجلياً لم يتعثر أمام قافية، ولم يشكل عليه وزن، بل خاض معترك النظم فأبدع وأبلى.

في أول نوار سنة ١٩٣٧ نظم قصيدة بعنوان « يا كنوزاً للعمل » موجهة إلى العمال بيوم عيدهم أول نوار قال فيها:

« المسوا الفقر بأكواخ القرى
وانظروا الجهل بها منتشرا
والقرى نبع ثراء
وشرايين دماء
ويد الفلاح والترب الخصيب
زادنا الباقي على اليوم العصيب
ويقول:
عقد الشعب علينا أملا
فلنذلل للصعاب السبلا
إن شعباً في الصعاب
من له غير الشباب
ألفوا الصف وسيروا لانتصار
في يد الشعب لكم اكليل غار »

وفي ١٦ تشرين الأول ١٩٣٨ نظم قصيدة نشرت في « صوت الشعب » بعنوان « اخلق رجاء جديداً » موجهة إلى شباب الوطن جاء فيها:

إن كـان خـان جهـاد	فـلا تهـن يا صديقـي
ليـس الجهـاد وروداً	على امتـداد الطـريـق
جهـادنـا ـ أنـت أدرى ـ	صخـر وشـوك كثيـر
والمـوت عـن جـانبيـه	لكنـنـا سنسيـر!
والشعـب مـا مـات يـومـاً	وإنـه لـن يموتـا
إن فـاتـه اليـوم نصـر	ففـي غـد لـن يفـوتـا

في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٨ نظم قصيدة بعنوان « القلم الحر » قال فيها:

إن بعض الأقلام كالعاهرات
للذي عنده الفلوس تؤاتي

قلمي! إنني أريدك كالشمس: شعاعاً طلقاً ووجهاً حرا
فوق ما تبلغ النفّوس منالاً، أنت أغلى من أن تباع وتشرى

أنت أسمى من أن يقال أجير
أنت رؤيا، وثورة، وحبور،
أنت قدس الأقداس أنت ضمير

وقصيدته العصماء في الشهيد «غبريل بيري» الذي قتله النازيون، ونشرت في «صوت الشعب» ٤ نوار ١٩٤٢ يقول:

قتلوك هل قتلوا سوى الجسد الذي بهظته أعباء الجهاد فناء
نسفوا ترابك بالرصاص، وقصروا أن ينسفوا ما كان منك ضياء
عضوا بلحمك كالكلاب، وفاتهم قلب توقد جمرة حمراء
هل يظفرون به وقد قسمته ملء الصدور رجولة وإباء؟

ثم يقول:

خسرت بك العرب الصديق وفارساً يحمي الحقوق وينصر الضعفاء
شرع الحسام على الطغاة يراعه كانت أشد على الطغاة مضاء

وفي قصيدة له عن لبنان نظمها سنة ١٩٤٣ على أثر انتصار وثبة الشعب ضد الانتداب الفرنسي وتحرير قادة الدولة وإعادة الدستور، نشرتها «صوت الشعب» بتاريخ ٢٨/ ١١/١٩٤٣ يقول:

إذا قيل لبنان قيل النبوغ ولم تبق اسطورة عبقر
ولم يقع الليل في الشرق إلا أطل جبين له مقمر
سلوا لغة الضاد، عصر الجفاف ألم تك من سقيه تنضر؟
أخ، للعروبة في قلبه تظل جراحاتها تقطر

ويقول:

ابذكر في الأرض بأس الشعوب وبأسك لبنان لا يذكر؟
وكم قيل عنك رقيق الغناء فقلت، اسمعوا صوته يزأر

وفي البطل السوفياتي محرر كييف الماريشال فاتوتين قال رئيف:

مضى ومضا
كما انقضّا
شهاب عانق الأرض

ولكن فض ختم الليل عن آفاقها فضا!
إلى غاياته أفضى
بوثب لم يطق ربضا
وحب جل البغضا
وجه أحمر لولا دم الانذال لا ابيضّا

صوت الشعب: ٤٤/٤/٢٦

قمة الزمان

وملحمته الكبرى «قمة الزمان» وننشر بعض أبيات منها وقد ألقاها في ذكرى الثورة الاشتراكية الكبرى ٧/ ١٩٤٤/١١ تشهد على طول باعه في النظم مبنى ومعنى ووزناً وهي:

كنت فكانت قمة الزمان
وصفّيتْ عصوره في آن
بنت زواج الفكر بالحرمان
من طينة في درك الهوان
وغضبة الجائع والعريان
من شارق في فلك الأذهان
وغافل المعدن والصوان،
من لب ما زكي في الأديان
وانشق من منبلج نوراني
عن أحرف الانجيل والقرآن
صيغت واستهزأت بالحدثان
كوناً جديد الوجه في الأكوان!

وفي احتفال بذكرى الثورة الاشتراكية بدمشق في الأربعينات ألقى قصيدة من أبياتها:

هي العروش وإن تصقل قوائمها ... أساسهن أباطيل.. وطغيان
أإن مضى عهد عثمان فلا رهب ... لا تكذبوا كل من في العرش عثمان
يا واهمين وفي الأوهام مضيعة ... وحالمين وفي الأحلام بهتان
قالوا السلاطين والتيجان قلت لهم ... أكل التراب سلاطين وتيجان
تبقى الأكف التي تبني وأدمغة ... وقادة ومروءات ولبنان

من قصيدته الوطنية الرائعة التي نظمها على أثر الإرهاب الذي استخدمته شرطة النظام ضد الذين تظاهروا مطالبين بالإفراج عن معتقلي بعلبك، وكان المؤتمر العالمي للأونيسكو منعقداً في المبنى الذي أطلق عليه لاحقاً اسم «الاونيسكو» وكان مصطفى العريس يمثل الاتحاد النقابي العالمي فيه، ولكن هذه الحصانة لم تمنع الشرطة من اعتقاله وسوقه إلى معتقل بعلبك. في هذا نظم رئيف قصيدته وعنوانها «وراء قناع الأونيسكو» من أبياتها:

قل للأولى، أمس، صاحوا ساعة اعتقلوا	يا شعب! واستصرخوا لبنان إذ قهروا
حتى إذا اقتعدوا (الكرسي) لم يجدوا	حقاً للبنان إلا أن به غدروا
واستنزفوا الشعب حتى لا دماء به	وحقروه وداسوه بما بطروا
قد كان قبلكم باغون مد لهم	حبل من البغي حتى إن به انتحروا
فلا تسبوا انتداباً زال قبلكم	فإنما أنتم من رجسه أثر
قصوركم هن لا طين ولا حجر	بل مما تكدس مما يرهق البشر

رئيف خوري الذي التزم ايديولوجياً بالماركسية اللينينية، وارتبط بها ارتباط السوار بالمعصم، وبذلك كان أقرب الجميع إلى الحزب الشيوعي اللبناني، لم يلتزم بعضوية الحزب، ولكنه كان من حيث الالتزام المعنوي والمادي، من حيث العطاء شيوعياً ملتزماً، وما كان قط بحاجة إلى أي توجيه، فقدرته على الاستيعاب، وبعد نظره، وفهمه العميق للديالكتيك أهّله دائماً لأن يتلقف بسرعة فائقة كل ما هو جديد. كما أهّله لأن يكون صاحب مبادرات. وإذا كان لحزبنا الشيوعي اللبناني شرف إحاطة رهط كبير من كبار مثقفي وأدباء لبنان حوله، في الأربعينات، فإن لرئيف خوري دوراً مميزاً في هذا الانجذاب. اسم رئيف أصبح محبباً في البلدين لبنان وسوريا. وأينما كان، في أي مهرجان عقد، في بيروت، أو طرابلس، أو زحلة، أو دمشق، وحمص وحلب. كانت الأيدي التي ترتفع بتحية رئيف خوري، والأكف التي تصفق له هي الأقوى والأكثر والأشد حماسة.

مشوار طويل أمضيناه ورئيفاً من العام ١٩٣٥، حتى العام ١٩٤٩، حيث حصل الطلاق الذي لا ارادة لرئيف به، بل فرض عليه فرضاً، كما فرض على صديقه هاشم الأمين. وإذا بممجد انتصارات حزبنا بالأمس، حامل رايات الماركسية اللينينية والصداقة مع الاتحاد السوفياتي، صديق العمال والفلاحين يصبح خارج البيت. وأنا صديق رئيف الحميم التزمت بالتوصيات وقطعت كل صلة معه، حتى اننا التقينا مرة في سيارة سرفيس واحدة وحياني. فلم أرد التحية صلافة مني، بل جلافة. وكلما فكرت بها اليوم لا أجد لها تفسيراً.

الانقطاع مع رئيف دام حتى العام ١٩٥٨، ١١ سنة، وعدنا إليه مستندين إلى صداقات قديمة

وإلى مواقف نبيلة وقفها رئيف طول مدة الانقطاع. ففي جميع ما كتبه في الصحافة، وفي ما قاله في عشرات الندوات التي اشترك فيها ظل أميناً لتقاليده المجيدة في حين كانت نيران بعض الأقلام الملتزمة تنصب حمماً عليه متهمة إياه بالتيتوية. وإذا كانت مبادرة رئيف قد انطلقت لتصل إلى تأسيس رابطة « اخوان عمر فاخوري ». فكان من الواجب تقدير موقف رئيف هذا. خصوصاً وأن الحزب قد حل، ومكافحة تنظيماته تجري وسط إرهاب شديد. في وضع كهذا ألا يجوز لمثقفين كبار على رأسهم رئيف خوري تأليف رابطة تقوم بعمل علني يمكّن القائمين بها من الاستمرار في النشر، والصلات بالمثقفين والطلاب والصحافة وسواها؟

عاد رئيف وعاد للعطاء في « النداء » تارة، وفي « الأخبار » تارة أخرى. ولكن أي ثمن معنوي لم يقدم له ممن تجنوا عليه، ومع ذلك عدنا إليه، وعاد إلينا الصديقان الأب طانيوس منعم، والدكتور ميشال سليمان، وهما بالنسبة لرئيف في هذه الفترة، كما الرفيقين ميـر مسعد، وهاشم الأمين بالنسبة إليه في الأربعينات، لعبا دوراً مقدراً في تلطيف الجو مع رئيف صاحب القلب والتفكير الكبيرين، والأمل الأكبر.

إن قدرنا مع رئيف لم نكن نود أن يكون كما كان. فقد عاجلته المنية قبل انعقاد مؤتمر حزبنا الثاني الذي أعاد النظر بتعمق وبواقعية في مسار المرحلة منذ مؤتمر الحزب الأول. ولكن الجهد الذي أدى إلى انعقاد ذلك المؤتمر، استمر في عطائه المثمر في مؤتمرات الحزب اللاحقة وبخاصة المؤتمر الرابع، الذي أولى قضية التراث اهتماماً بالغاً وأوصى بإحيائه لأنه يشكل دافعاً لتنفيذ متطلبات المرحلة الراهنة. فكل ما هو حضاري وتقدمي ووطني في تاريخ شعبنا، مرتبط تاريخياً، وديالكتيكياً، بنضال شعبنا الراهن من أجل التقدم والديمقراطية والحرية. من أجل إحكام الضربة على يافوخ الاستعمار والصهيونية وحليفتها الرجعية.

إن الحزب الشيوعي اللبناني الحي المتطور، المقدّر لكـل مـا في تـاريـخ شعبنـا مـن وثبـات، وانتفاضات، وتطلعات، الوريث الشرعي للفكر التقدمي العربي المتحرر في لبنان. وهو من حيث طبيعته وتكوينه، وتطلعاته الواصل بين الماضي والحاضر المتقدم. وإذا ما قدر عمالقة الفكر العربي في لبنان وفي صلبهم رئيف خوري، فلا يكون ذلك إلا الانعكاس لما هو عليه. فالإناء ينضح بما فيه. وحزبنا الشيوعي الذي يفتخر برواد كبار كعمر فاخوري، والياس أبو شبكة، وسليم خياطه، ومارون عبود، ورئيف خوري، والدكتور جورج حنا، يفتخر لأنهم قضوا وبيد كل منهم قلم في اليمين وورقة في اليسار وكل أملهم اكمال السير إلى أن تتحقق للشعب اللبناني متطلباته الأساسية، في الديمقراطية، والتقدم، بظل وطن مستقل، متحرر موحد لا مكان فيه لكبت، ولا موقع لظلم.

حميد فرنجية

عندما فقد لبنان صنواً لحميد فرنجية سنة ١٩٣٧، هو المرحوم ميشال زكور وزير الداخلية في أول حكومة لبنانية تشكلت بعد إعلان المعاهدة الفرنسية ـ اللبنانية، بكاه الشعب، وبخاصة الجسم الوطني، لأنه كان معه. مع استقلال وسيادة لبنان، مع الديمقراطية التي عمل وهو في مركز وزارة الداخلية على إعطائها مفهوماً ملموساً وذلك بنشر الحريات العامة.

وعندما مات حميد فرنجية بكاه لبنان الوطن والشعب والديمقراطية لأنه سار على النهج الوطني القويم والمستقيم الذي سار عليه سلفه ميشال زكور.

إن اسم حميد فرنجية اقترن منذ العام ١٩٣٨ حتى يوم وفاته بالحرص على استقلال لبنان وسيادته، وبالنضال اللاتوقف له ضد الأحلاف الاستعمارية الساعية بلا كلل لاستباحة أرض لبنان، وتحويله إلى ذيل لها.

وميزة حميد فرنجية وهو الماروني الزغرتاوي الأصيل. أنه أدرك الأهمية الوطنية والقومية، والتطورية للبنان. وذلك كونه عضواً في المجموعة العربية، وأن شريان هذا الارتباط يمر عبر سوريا. فكان بكل نشاطه، ومواقفه، وأقواله، وتصرفاته حريصاً على هذا الواقع، مذكراً به في كل مناسبة، ومنطلقاً منه ليؤكد على ضرورة الحفاظ على ما للبنان من علاقات عربية. عاملاً على توطيدها، وتطويرها، وإعطائها مفهوماً وطنياً علمياً تدركه جماهير الشعب بحكم مصالحها الوطنية والحياتية على حد سواء.

ونجم حميد فرنجية بدأ يزداد تألقاً في مطلع عهد الاستقلال سنة ١٩٤٢. فسواء كان على مقعد النيابة أو في موقع الحكم وزيراً للخارجية، أو الداخلية، أو التربية الوطنية ظل منسجماً مع ما انطبع عليه من وطنية وديمقراطية، وصدق واستقامة.

وارتفع نجم حميد فرنجية في أثناء ترؤسه، بوصفه وزيراً للخارجية، وفد لبنان إلى مجلس الأمن في لندن ـ شباط ١٩٤٦ للدفاع عن قضية لبنان في الشكوى التي رفعتها الحكومة اللبنانية على الدولتين الاستعماريتين انكلترا وفرنسا اللتين رفضتا سحب جيوشهما من سوريا ولبنان، وأصرتا على منحهما مركزاً ممتازاً وعسكرياً لهما على أرضهما.

وفي لندن تكلم حميد فرنجية باسم لبنان وسوريا عارضاً الأسباب التي دعت البلدين إلى تقديم شكواهما على إنكلترا وفرنسا. ومما ورد في خطاب حميد في جلسة مجلس الأمن المنعقدة في ١٤ شباط ١٩٤٦ ما يلي:

« إن لبنان وسوريا هما بلدان مُستقلان، ولا يمكن الحد من استقلالها في أية حال. ولكن جيوشاً بريطانية وفرنسية موجودة في أرضهما، وهذا الأمر ليس ناتجاً عن حالة حرب، ولا عن أي اتفاق. ومنذ انتهت الحرب ونحن لم ننقطع عن المطالبة بجلاء الجيوش الأجنبية في آن واحد وفي أقرب وقت ممكن.

وقال: إن وجود هذه القوات عندنا لا تبرره لا ضرورات عسكرية، ولا أية معاهدة أو اتفاق. إن وجود قوات أجنبية في أرض دول مستقلة حادث لا مثيل له. وإن اتفاق ١٣ كانون الأول ١٩٤٥، يعد تدخلاً في حقوقنا الوطنية وسيادتنا ».

وبفضل موقف وفدي لبنان وسوريا برئاسة حميد فرنجية وفارس الخوري، وبفضل الدعم غير المحدود الذي أبداه المندوب السوفياتي باستخدامه حق النقض « الفيتو ». وبالتفهم الذي أبدته الحكومة الفرنسية وبخاصة الوزراء الشيوعيين والاشتراكيين فيها، تقرر تحقيق الجلاء التام الناجز دون قيد ولا شرط عن سوريا في ١٧ نيسان ١٩٤٦، وعن لبنان في ٣١ كانون الأول ١٩٤٦.

وعاد حميد فرنجية إلى بيروت مع عضوي الوفد اللبناني رياض الصلح ويوسف سالم ليستقبل في الوسطين الوطني والشعبي بالازاهر والزغاريد، تقديراً للموقف الوطني الشجاع الذي اتخذه في مجلس الأمن الدولي.

وتحقيق الجلاء العسكري الاستعماري التام عن لبنان وسوريا، جعل الوسط الاستعماري العالمي، مع ما له من احتكارات، في لبنان يشن حملة تهويشية متهماً بأن ما حصل وتحقق يسهل الطريق أمام الشيوعية، علماً بأن ذلك كله تلفيق بتلفيق. وأعطى دليلاً على ذلك ما ورد في مشروع ايزنهاور عن البترول، وقال: « من هو عدو أميركا؟ إنها الشيوعية الدولية وأنتم تعلنون أنكم ضد الشيوعية الدولية، ونحن من هو عدونا؟ إنها إسرائيل. فماذا قلتم ضد إسرائيل؟ ».

وقال: « لم تقم حكومة شيوعية بالعدوان على مصر، بل كانت دولاً غربية ».

وعندما اشتد خطر الأحلاف على سوريا، حلف بغداد من جهة، والدفاع المشترك من جهة، ومبدأ ايزنهاور من جهة أخرى، والحشود التركية، من الشمال وتآمر اسرائيل من الجنوب، والحكم الشمعوني في لبنان من الغرب، وقف حميد وقفته الصلبة مدافعاً عن سوريا وداعياً اللبنانيين للالتفاف حول البلد الشقيق. وفي تصريح له بهذا الخصوص نشر في الصحف بتاريخ ١٩٥٧/٢/٢٤ قال: « إنهم يتهمونني بأنني أدافع عن سوريا، لا ... أنا لا أدافع عن سوريا، إنما ادافع عن لبنان، عن علاقات لبنان مع سوريا والفرق شاسع بين الاثنين ».

وتابع:

« إن تحريض الدول الأجنبية على سوريا يعرضنا نحن للأخطار أيضاً. إنهم إذا اعتدوا على سوريا فلن يوفروا لبنان أبداً. لا يجوز أبداً أن نحرض الأجنبي على سوريا حتى ولو أعلنت شيوعيتها غداً».

وعروبة حميد فرنجية أصيلة، نابعة من تعلقه بلبنان، وحدبه عليه، وحرصه على استقلاله وسيادته. وفي تصريح له بتاريخ ١٩٥٧/٣/١٠ وقد نشرته جريدة « الأهرام » القاهرية يقول: « إن مصلحة لبنان أن يتجه نحو العرب بكل قوته، وأن يسارع إلى توحيد سياسته الخارجية معهم. فمصلحته الاقتصادية كشعب فقير، هي أن ينضم إلى شقيقاته العربيات ». وقال: « إنني أؤمن بالمساعدة الأجنبية ولا أؤمن بالاعتماد على الغرب ».

ومنددا بالحكم الشمعوني قال في تصريح له نشر في « الأهرام » بتاريخ ١٩٥٧/٣/١٠: « إن في لبنان برلماناً ودستوراً وشعبه عربي أصيل، ولكن مع كل هذا فالحكم هناك يكاد يكون ديكتاتوريا يتركز في جهة واحدة، اتخذت من ضعف الحكومة كل مقومات قوتها ».

وداعياً إلى تعزيز السيادة الوطنية، وتوطيد أسس المواطنية اللبنانية قال حميد فرنجية في تصريح له نشر في « كل شيء » اللبنانية بتاريخ ١٩٥٧/٣/١٧: « ما نطلبه اليوم من أبنائنا هو أن يكونوا أسياد أنفسهم، وألا يتأثروا بنفوذ الأجنبي، وان يؤمنوا بنفوسهم وقوميتهم، وأن لا يخضعوا لمطالب الانكليز بل أن يخضع الانكليز لمطالبهم ».

وفاضحاً ادعاءات المستعمرين حول الشيوعية وقولهم انها تشكل خطراً على لبنان، قال في خطاب له ألقاه في المؤتمر الصحافي الكبير الذي عقدته « جبهة الاتحاد الوطني » في ١٩٥٧/٥/٢: « أما ما يعمل وما يقال وما يصور في الحقل الخارجي من أن هناك شيوعية وأميركا، وأميركا وشيوعية... فقد قلنا رأينا صراحة به... قلنا إننا لسنا شيوعيين. وقلنا إن مصير هذا البلد لا يمكن أن يقرر بمثل هذه الخفة، وطالبنا أن تتخذ الاحتياطات التي اتخذت عندما حدثونا عن الدفاع المشترك، أو عن الضمان الجماعي العربي، وطالبنا بأن يؤخذ رأي البلاد. ونحن لسنا إطلاقاً مع الشيوعية، ولكننا لا نعتبر أننا ملك لأحد يتصرف بنا عندما يكون وزيراً أو يقول إن هذا التصرف هو أبدي » (ردا على شارل مالك وكان آنذاك وزيراً للخارجية).

وحميد فرنجية كان قولا وفعلاً فارس النضال المرحلي ضد مبدأ ايزنهاور. فهو الذي تحدى قوى القمع الشمعونية في ٣١ نوار سنة ١٩٥٧، واقتحم حرج بيروت، حيث اقيم مهرجان المعارضة ضد مبدأ ايزنهاور والحكم الشمعوني. لقد استخدم شمعون أقذر الوسائل للتنكيل بالجماهير الزاحفة تلبية لدعوة « جبهة الاتحاد الوطني »، فكانت القتلى وكانت مئات الجرحى، وعشرات

ومئات المعتقلين، ولكن صوت حميد فرنجية عبر المظالم الشمعونية، وحراب عساكره، تجاوب في جميع الأحياء ورددته عشرات ألوف الحناجر داعية لسقوط مبدأ ايزنهاور وحكم الطغيان الذي كان السبب في ربط لبنان به.

ونضال حميد فرنجية ما اتسم قط بأي وازع شخصي، ففي جميع مواقفه، وشتى تصريحاته وخطبه السياسية، أكد على الحريات الديمقراطية، وأن المعركة التي تخوضها «جبهة الاتحاد الوطني» هي معركة حريات.

وفي تصريح له أدلى به في أواخر شهر نوار ١٩٥٧ قال: «نحن نعتبر هذه المعركة معركة حريات، والفوز بها إن شاء الله معناه ضمان حرية الناخب اللبناني في ابداء رأيه في من يمثله في مجلس النواب».

وقال: «نحن واثقون من الفوز، وسوف يكون لمن أهرقت دماؤهم في هذا الصباح تعزية، ولأهلهم بلسماً لجراحهم وللوطن اللبناني ضمانة جديدة على أنه يوجد فيه من يعرف أن يضحي بدمه دفاعاً عن الحرية».

وأعود وأؤكد أن اثنين فقدهما لبنان، خلال ممارستهما النضال السياسي لحقبة زمنية قصيرة نسبياً، من أجل لبنان، لبنان الواحد العربي الحرب المتقدم. ناضلاً لتوطيد الحرية على أرض هذا الوطن: ميشال زكور، وحميد فرنجية. عملاقان مارونيان أدركا طريق الخلاص التي يجب أن يسير عليها الحكم لإنقاذ هذا البلد، إنهما طودان خالدان لا في صفحات تاريخ لبنان، بل في ضمائر اللبنانيين الأصحاء المخلصين. ألم يقل حميد فرنجية لوفد زاره في جونيه في أثناء المعركة ضد مبدأ ايزنهاور والحكم الشمعوني سنة ١٩٥٧: «إن أولادنا يعيشون مع أولادهم. ولكن بعض المنظمات تريد منا أن نتزمت».

ما تزمت حميد فرنجية، وكان بتصرفه السياسي والأخلاقي، مدرسة لشعب لبنان، داعية صدق وإخلاص لإنقاذ لبنان وذلك بالتراص في المواقف مع سوريا وكل ما هو متقدم في العالم العربي.

ولكم هي مجرمة السياسة التي يسير عليها الحكم في لبنان منذ العام ١٩٤٧ حتى الآن، فلقد أهملت مدرسة حميد فرنجية، وتحاول طمس معالمها القائمة على قواعد ثلاث وحدة لبنان ـ عروبة لبنان ـ الديمقراطية في لبنان.

في ضمائر شعبنا أيها الكبير باق، والطريق التي أفنيت زهرة شبابك لتجعلها طريق الخلاص لشعبنا ندعو اليوم للسير عليها، والتمسك بأعمدتها.

حديقة الأخبار أم الصحف السياسية العربية

عندما نقول إن لبنان هو أب الصحافة العربية فلا نكون متبجحين بتاريخ، ولا متطاولين على واقع أو متجنين على حقيقة. وإذا قلنا إن جريدة «حديقة الأخبار» هي أم الصحافة السياسية العربية فلا نكون إلا شهود حق ومثبتين لواقع ملموس يعيه كل من يلقي نظرة على ماضينا، ويعي الخطى المقدامة الجريئة للأُلى منا. روّاد القلم والكلمة الحرة، ذاك الرعيل الذي شق بإرادته وتصميمه الخلاقين، الديجور. فحوّل الصخر إلى تراب، وغرس فيه الأشجار التي روتها مياه ينابيع لبنان. فكانت الجنائن الغناء، و «الحدائق» الوارفة من هذا الواقع. وفي محرابه وجدت «حديقة الأخبار».

إن الأهمية التاريخية والصحافية لـ «حديقة الأخبار» لا لأنها أول جريدة لبنانية عربية سياسية وحسب، بل، ولأنها صدرت على أساس وثيقة وضعها منشئها خليل الخوري الخطوات الأولى التي يجب أن تخطوها، والتي تشكل نبراساً يضيء الطريق أمام الصحافة العامة.

إن المصادر التي اعتمدتها في هذه المقالة مستقاة من مؤلف الكونت فيليب دي طرازي «تاريخ الصحافة العربية» ومن مؤلفي الزميل الصديق جورج عارج سعادة «الصحافة في لبنان» و «النهضة الصحفية في لبنان»، ومن مقالات وأبحاث نشرت في مجلة «الدهور» سنة ١٩٣٤ ومن أشتات حصلت عليها من الصحافة. وكذلك مما تحدر إليّ من أخبار بالتواتر.

إن صنعتي كممارس لمهنة الصحافة فعلياً منذ العام ١٩٤٢، وكعضو في مجلس نقابة الصحافة. ونقابتنا عضو في اتحاد الصحافيين العرب الذي يولي تاريخ الصحافة العربية اهتماماً جدياً. وهو كما تقرر في مؤتمر الاتحاد السابع المنعقد بين ٢٨ و ٣١ نوار ١٩٨٣ في بغداد، في مجال تحضير «موسوعة الصحافة العربية»، كل ذلك دفعني لكتابة مقالتي المقتضبة هذه في الذكرى الـ ١٢٥ لتأسيس حديقة الأخبار».

نقابة الصحافة وحديقة الأخبار

في الثامن من كانون الثاني سنة ١٩٥٨ اجتمع مجلس نقابة الصحافة اللبنانية برئاسة النقيب روبير أبيلا واتخذ قراراً بتفويض النقيب أبيلا بتنظيم احتفال بمناسبة الذكرى المئوية لصدور أول جريدة عربية سياسية غير رسمية في العالم العربي. وهذه الجريدة هي «حديقة الأخبار» التي أنشأها في بيروت في مطلع شهر كانون الثاني ١٨٥٨، خليل الخوري واستمر صدورها بانتظام مدة ٤٩ سنة.

وقد وضع مجلس نقابة الصحافة في حينه، سنة ١٩٥٨ برنامجاً واسعاً للاحتفالات بهذه الذكرى على مدى أربعة أيام. تختتم بمهرجان ضخم لبناني عربي، عالمي، رسمي وشعبي. وتألفت لهذه الغاية، لجنة تنظيم من السادة جورج حيمري، ناظم عكاري، فكتور خوري، عادل الصلح، أسعد الأسعد، نصري حرفوش، محمد رعد، نقولا رزق الله، ميشال توما، روبير أبيلا.

ولكن أحداث العام ١٩٥٨ التي حلت بلبنان، حالت دون تنفيذ ما أقره مجلس نقابة الصحافة.

الأهمية التاريخية لصدور «حديقة الأخبار»

كانت «حديقة الأخبار» كما ورد في «تاريخ الصحافة العربية»، المظهر الوحيد للرسائل العمومية والأنباء المفيدة، وتنشيط الناس على إقامة المدارس وتعميم الزراعة، وترويج الصناعة، وتحسين التربية والأخلاق والعادات. وقد حافظت في جميع أدوار حياتها على مبدأ الاستقامة والعدل وحب النفع العام. ولذلك قرظها الأمراء والوزراء والعلماء شرقاً وغرباً بما تستحقه من المدح. ونذكر منهم رينو أحد أعضاء المحفل العلمي الفرنسي. ورئيس «الجمعية الأسيوية»، واستاذ اللسان العربي في باريس وحافظ المخطوطات الشرقية في مكتبة الدولة الفرنسية. فإنه تلا تقريراً مطبوعاً أمام الجمعية المذكورة في ٢٩ حزيران ١٨٥٨ وخصصه بوصف «حديقة الأخبار» مشبهاً إياها بأعظم الجرائد الأوروبية. ثم ذكر ما كابده منشئها من العناء في تعريب الأوضاع المستحدثة في أوروبا وإيجاد ألفاظ عربية تقابلها وتؤدي معناها الحقيقي بكل أمانة. ومنهم السيد فليشر أحد أركان «الجمعية الشرقية الالمانية» واستاذ اللغات الشرقية في كلية «ليبسك»، فإنه تلا خطابين سنة ١٨٥٨ وسنة ١٨٥٩ على محفل هذه الجمعية ونشرهما باللغة الالمانية. وهما يتضمنان الثناء على اسلوب انشاء حديقة الأخبار.

وكان أكبر عضو في انشاء هذه الصحيفة القديمة العهد رجل الفضل والشهامة مخايل بن يوسف مدور من أعيان بيروت وترجمان قنصلية فرنسا فيها. ولذلك قرظه خليل الخوري في العدد الخامس بما يأتي: قد جعل بمساعدته «حديقة الأخبار» أن تزهر برياض

والصدق في تاريخه لحديقة الأخبار شاكر.

وفي ١٨ كانون الأول ١٩٠٨، صدرت «حديقة الأخبار» يومية، (كانت تصدر اسبوعية) وذلك تيمناً بافتتاح مجلس النواب التركي لأول مرة بعد إعلان الدستور. وكما قلنا إن المدة التي

صدرت فيها « حديقة الأخبار » برئاسة مؤسسها خليل الخوري هي ٤٩ سنة. ومن ثم صدرت برئاسة أخيه وديع يومية لغاية ١٩١١ حيث توقفت عن الصدور نهائياً. وبلغ عدد أعدادها ١٩٧٣ عدداً.

من هو خليل الخوري؟

هو خليل بن جبرايل بن يوحنا بن عبده الخوري، أبصر النور في ٢٨ تشرين الأول سنة ١٨٣٦ في الشويفات من أعمال جبل لبنان. وبعد زمن قليل انتقل والده إلى بيروت فتلقى المترجم أصول اللغة العربية في مدرسة الروم الأرثوذكس وزاولها حتى اتقنها. ثم تعلم اللغتين التركية والفرنسية على اساتذة مخصوصين فجاد فيها. وفي غرة كانون الثاني أنشأ صحيفة « حديقة الأخبار » فكانت أول جريدة عربية صدرت برخصة رسمية من طرف الحكومة العثمانية خارجاً عن عاصمة السلطنة. ولهذا كان خليل الخوري من أخص رجال النهضة الأدبية في سوريا في القرن التاسع عشر بما وضعه من التأليف أو نشره على صفحات جريدته من النبذ المفيدة والمباحث المختلفة. وقد نظم الشعر منذ حداثته فنبغ في هذا الفن كما شهد له بذلك الشيخ ناصيف اليازجي في قصيدة مدحه بها وختمها بالبيتين التاليين وهما:

يــا هلالا قــد أرانــا   في الدجى وجهاً جميلا
سوف نلقى منـك بـدراً   كاملاً يدعى خليلا

خلف صاحب الترجمة ستة دواوين شعرية في مواضيع مختلفة بلغ مجموع أبياتها ١٠٨٧٤ بيتاً. وهذه الدواوين: زهر الربى في شعر الصبا، العصر الجديد، السمير الأمين، الشاديات، النفحات، الخليل.

بعد أحداث العام ١٨٦٠ عينه فؤاد باشا مأموراً بمعيته، وسنة ١٨٦٥ فوضت إليه سوريا إدارة مطبعتها وجريدتها الرسمية بارادة سلطانية. وسنة ١٨٧٠ عين مفتشاً للمكاتب غير الاسلامية ومديراً للمطبوعات، ومفتشاً فخرياً لمدارس جبل لبنان ومطبوعاته. وسنة ١٨٨٠ صار مديراً للأمور الأجنبية بالولاية المذكورة. وهو الذي أنشأ الجمعية الأرثوذكسية في بيروت. وسنة ١٨٨٧ سافر إلى لندن وهناك اقترن في ٤ آب بالسيدة ظافر بنت حبيب نوفل.

إن ما أريد أن أؤكد عليه هو أن لبنان هذا البلد الطليعي الذي حضن الصحافة منذ نشوئها، ودعم الحرية التي تشكل المناخ الصالح لنموها وبدونه لا يمكنها أن تتطور وتتقدم، بل لا يمكنها المحافظة على بقائها و « حديقة الأخبار » هي المشعال الأول الذي أنار الطريق ووضع أول حجر في مداميك الاعلام الخاص. وما الوثيقة التي وضعها منشئها خليل الخوري سوى الدليل على الدور الذي يمكن أن تقوم به الصحافة.

قبل العام ١٨٥٨ صدرت صحف عديدة باللغة العربية، أصدرها لبنانيون وسوريون وغيرهم، إنما في الخارج في الاستانة وسواها من العواصم الأجنبية. وأهمية جريدة «حديقة الأخبار» أنها صدرت في بيروت. وحول صدورها يقول الكونت فيليب دي طرازي في مؤلفة «تاريخ الصحافة العربية»: «كان خليل الخوري قبل إنشاء «حديقة الأخبار» عازماً على تسمية جريدته «الفجر المنير»، وعرضها للاشتراك على أعيان البلاد وأدبائها. علمنا ذلك من وثيقة محفوظة في بيت خليل مدور ومذيلة بأسماء الذين بادروا إلى الاشتراك في «الفجر المنير». ولكن خليل عدل عن ذلك وأصدر «حديقة الأخبار». وإننا نجهل السبب الذي حمل خليل على تبديل هذا الاسم».

وننشر فيما يلي نص الوثيقة التي وجدت في بيت مخايل مدور وهي تحدد أهداف إصدار جريدة سياسية رائدة. والنص منقول عن مؤلف دي طرازي «تاريخ الصحافة العربية».

«إنه سيطبع في مدينة بيروت بمطبعة خصوصية لمجموع حوادث عربي العبارة يحتوي على حوادث هذه البلاد وعلى الحوادث الخارجية مؤلفة ومترجمة من أحسن وأعظم جرنالات أوروبا. وعلى فوائد علمية عامة وأحوال مهجرية ليكون نافعاً سائر طبقات الناس. وذلك بهيئة جمعية مؤلفة من أحذق وأنبه رجال البلاد المؤلفين والمترجين والمصححين الذين ستنشهر أسماؤهم فيما بعد ولا سيما جناب عمر أفندي الأنسي الحسيني، وجناب الشيخ ناصيف اليازجي. وابتداء العمل يكون حين ورود الفرمان العالي بعد أخذ الأسماء اللازمة لهذه العملية. فنلتمس من كل مهذب يرغب نفع البلاد أن يشرفنا بوضع اسمه في هذه القائمة. وثمن هذا المجموع (الاشتراك السنوي) مائة وعشرون غرشاً بالعام تدفع عند استلام أول عدد.

ولما حضر فؤاد باشا إلى سوريا سنة ١٨٦٠ خصص «حديقة الأخبار» بخدمة الحكومة واتخذها بمثابة جريدة نصف رسمية. وقد عين لصاحبها بإرادة سنية راتب شهري قدره عشرون ليرة عثمانية إعانة على نشرها. وفي ١٣ آب ١٨٦٨ صدرت باللغتين العربية والفرنسية. وقد جعلها فرانقو باشا الصحيفة الرسمية لحكومته بدلاً من جريدة «لبنان» الملغاة. وكان يساعده في تحريرها أخوه سليم الخوري مع سليم بن مخايل شحادة وغيرهما من الأدباء. وبعد أن قطعت حكومة الجبل عن «حديقة الأخبار» راتبها الشهري (كان الراتب ٣٠ ليرة عثمانية ذهباً)، استمر خليل الخوري على نشرها لحسابه إلى آخر أيامه. وقد توفي خليل الخوري في ٢٦ تشرين الأول سنة ١٩٠٧ وتحول امتياز «الحديقة» إلى أخيه وديع الخوري. وفي ١٣ شباط ١٩٠٨ احتفل وديع بيوبيل «الحديقة» الذهبي. وفي هذا الاحتفال قال داود بك نقاش:

هذي الحديقة طالما	أرجت بالاغر الازاهر
بعثت إلى الأدباء تنشر	من لها قد كان ناشر

هــي أم كــل جــريــدة عــربيــة وبهــا نفــاخــر
فــالحر كــل الحر مــن فــي مدحها أبداً يجاهر
وأخو الكمــال فتــى عليــه مذ بكت شقف مرائر

لم يحصر خليل الخوري نشاطه بطبقة معينة من المجتمع اللبناني بل قال في الوثيقة التي أعلنها، إنها ستكون « حديقة الأخبار » نافعة لسائر طبقات الناس. كما أنه في دعوته لنصرة جريدته قال: « فنلتمس من كل مهذب يرغب نفع البلاد أن يشرفنا بوضع اسمه في هذه القائمة ». لم يقل من كل موسر، وغني، بل قال من كل مهذب. وهذا هو منتهى الأناقة في مخاطبة الناس. ومنتهى التعويل على الناس كافة. لا على فريق منهم قادر على تقديم الدعم المالي وحسب.

لقد أصاب مجلس نقابة الصحافة سنة ١٩٥٨ عندما أعد للاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس « حديقة الأخبار ». ومجلس نقابتنا الحالي ليشرفه ان يتبنى قرار سلفه المتخذ سنة ١٩٥٨. ولكن الأوضاع العامة التي حالت دون تنفيذ ما قرره زملاؤنا سنة ١٩٥٨، هي إياها وبأشد ايلاماً وأكثر عمقاً، تحول دون القيام بعمل ما هو واجب لا على مجلس نقابة الصحافة والجمعية العمومية للنقابة وحسب، بل على كل العاملين في الحقل الإعلامي والأدبي. وسواهم من المواطنين الذين يهمهم مصير الإعلام بعامة، والصحافة بخاصة. فإحياء التراث هو تعبير عن الأصالة، والأصالة بحد ذاتها هي رمز للترابط بين القديم والجديد. بين الماضي والحاضر.

وبكتابتي هذه القطعة، إنما هي للتدليل بأننا بالرغم من الفارق الزمني، نعيش مع الألى الذين يعود إليهم الفضل الأساسي في تشييد البناء الصحفي، وفي طليعة هؤلاء المقدام خليل الخوري وحديقته، « حديقة الأخبار » أم الصحف العربية السياسية.

دور منظمة العاصمة في تطوير الحزب الشيوعي وامتداده

في مجال التقويم لمسار الحزب الشيوعي اللبناني لا بد من وقفة طويلة، جدية عند منظمة العاصمة (بيروت) صاحبة القدح المعلّى في عملية تطور وصمود الحزب، وتربية كوادره منذ العام ١٩٢٥ حتى يومنا هذا.

صحيح أن ولادة الحزب تمت في محافظة جبل لبنان، في قرية « حدث بيروت » على ايدي خمسة من « الاطباء » المهرة، الذين شخصوا الداء، فوصفوا له الدواء الناجع الشافي: أربعة من اصل عمالي مع مثقف واحد. وهذا الانبثاق التاريخي مقدر جداً، في دراسة تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني. ولكن الواجب التاريخي يفرض علينا أن لا نبتعد عن الواقع، وأن نعترف بالحقيقة وهي إذا كان

الحزب ولد تنظيمياً في جبل لبنان، فإن مدار ومدى نشاطه اللاحق كان في العاصمة بيروت. ففي هذه المدينة التاريخية العظيمة مهد انتشار وتدريس القانون في العهد الروماني، ودرة «آل عثمان» في العهد التركي، ومركز السيطرة للانتداب الفرنسي، في هذه المدينة تكونت الافكار الاشتراكية العلمية، ومن على شاطئها انطلق الشهاب الأول فكان التعارف بين القطبين فؤاد الشمالي القادم مبعداً من مصر، ويوسف ابراهيم يزبك الناهل من جمعية الاشتراكيين العلميين الفرنسيين قدراً جعله يسعى مفتشاً عن ضالته، فكان اللقاء بين الرفيقين وكان التماس اللاحق، وبالتالي التصميم على انشاء تكوين تنظيمي، فكانت ولادة الحزب الشيوعي اللبناني في ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩٢٤.

بعد الإعلان عن تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني انتقل مركز الثقل في العمل السياسي والجماهيري والتنظيمي إلى العاصمة بيروت. وقد جاء تأسيس «حزب الشعب اللبناني» تعبيراً حياً للاهداف التي اتفق عليها مؤسسو الحزب الشيوعي الخمسة وبرأسهم الامين العام يوسف ابراهيم يزبك. جاء تأسيس «حزب الشعب» انعكاساً متطابقاً مع الواقع، وابرز ما توصل إليه هذا الحزب الذي انضم إليه في مدة زمنية قصيرة عدد واسع من المثقفين، والعمال، وذوي المهن الحرة، من محامين وصحافيين وتجار وسواهم. وأبرز ما توصل إليه في مسار نشاطه، المهرجان الذي اقامه في قاعة «سينما كريستال» بمناسبة عيد أول نوار، في بيروت سنة ١٩٢٥، وعدا الأهمية السياسية التي كانت لهذا المهرجان الضخم، سواء بمن حضره من الناس وقد غصت بهم قاعة السينما، أو بمن ساهم في القاء الخطب وكلهم من الشخصيات الوطنية المفعمة بالروح التحررية، والاشتراكية، عدا ذلك، فقد أسفر هذا المهرجان عن امتدادات تنظيمية عميقة الجذور، كان لها لاحقاً تأثير بالغ الأهمية، على توسيع قاعدة الحزب التنظيمية سواء بانضمام الكثير من العمال إلى لائحة المطالب التي أقرها المهرجان، وهي بمثابة برنامج سياسي لتعبئة الجماهير، والنضال خلال تلك المرحلة، أو باللقاء التاريخي بين الحركتين الشيوعيتين العاملتين على الصعيد البيروتي، الحزب الشيوعي اللبناني الممثل بفؤاد الشمالي، ويوسف إبراهيم يزبك والآخرين، وحركة سبارتاك الأرمنية الممثلة بأرتين مادويان وهيكازون بوياجيان والآخرين، التي اعلنت في اجتماع لممثلي الفريقين انضمامها إلى الحزب الشيوعي اللبناني. وعلى أثر هذا الحدث التاريخي تشكلت فرق شيوعية حزبية في بعض أحياء العاصمة وكذلك في المعامل. كما وجد شيوعيون نشيطون في صفوف الجيش الفرنسي، وكذلك جرت امتدادات للحزب، خارج بيروت، في طرابلس ـ الميناء، حيث وجدت فرقة شيوعية انضم إليها أعداد من الشباب.

ومن بيروت وقد اصبحت المركز الرئيسي لقيادة الحزب الشيوعي اللبناني، صدر أول منشور موقعاً بإمضاء الحزب، وموجهاً إلى الجيش الفرنسي، داعياً اياه للتضامن مع الثورة السورية، ضد سلطة الاستعمار. ومما تجدر الاشارة إليه هو أن هذا المنشور وزع بدقة على قطعات الجيش

الفرنسي، ولم يخل توزيعه من إحداث أثر.

وعندما اعلن الشعب البيروتي اضرابه الشهير ضد اصحاب العقارات المبنية المعدة للإيجار، ويعرف هذا الاضراب بـ «اضراب المستأجرين» سنة (١٩٢٥)، واستعملت سلطات الاستعمار اشد ما تتقنه من وحشية ضد الجماهير المتظاهرة على أرض ساحة البرج، حيث هاجمتها قوات الشرطة وهي على ظهور الخيل بالسيوف، كانت المنظمة الشيوعية في العاصمة مشتركة بهذه المظاهرة، وكان الشيوعيون من المساهمين بتنظيمها.

وعندما امتدت يد الاستعمار الفرنسي إلى الشيوعيين، بعد توزيع المنشور المشار إليه آنفاً، واعتقلت قيادة الحزب: الشمالي ويزبك ومادويان. فنفت الشمالي ومادويان إلى «الرقة» ثم نقلتهما إلى «جزيرة أرواد»، ويزبك إلى جرود شمالي لبنان. هذا الاعتقال شل عمل الحزب التنظيمي وتوقف حتى العام ١٩٢٨، أي إلى بعد عودة المنفيين المشار إليهم، وحصول البلاد على بعض التدابير الدستورية (إعلان الدستور وإجراء الانتخابات النيابية).

ومن بيروت أوفد الحزب الشيوعي مندوبه فؤاد الشمالي إلى موسكو سنة ١٩٢٨، لحضور المؤتمر السادس للاممية الشيوعية. وعندما عاد الرفيق الشمالي من المؤتمر، جرى البحث الجدي في إعادة تنظيم الحزب. وكان ذلك في حزيران ١٩٣٠، في «كونفرانس» خاص صدرت عنه وثيقة سياسية طبعت بكراس ووزعت سنة ١٩٣١ بعشرات الألوف بعنوان «ماذا يريد الشيوعيون»؟. هذا الكونفرانس عقد في بيروت، وقامت بتنظيمه وترتيبه، والسهر على سلامته منظمة بيروت الشيوعية.

وبعد انطلاقة الحزب وطنياً، وجماهيرياً على أثر «الكونفرانس» المشار إليه، وتوزيع الوثيقة الصادرة عنه، أخذت منظمات شيوعية عديدة تنشأ في المناطق، وكانت منظمة بيروت هي صمام الامان لها. فهي التي أوكل إليها أمر طباعة المناشير، والبيانات، والصحف الحزبية، وتأمين وصولها إلى المناطق. وعلى عاتق منظمة بيروت القي عبء جميع المتطلبات الضرورية لتأمين عمل الحزب في جميع الميادين. فمن بيروت كان الرفقاء المسؤولون المعروفون، يحصلون على الجوازات للسفر إلى الخارج. وكان الجهاز الخاص في منظمة الحزب هو الذي يحضرها لهم. روى لي الرفيق المرحوم هيكازون بوياجيان ما يلي: ذهب أحد الرفاق للحصول على تأشيرة للسفر إلى أحد البلدان الاوروبية، وكان المكلف بإعطاء التأشيرة على شيء من الثورية والاشتراكية، ولما رأى الجواز وهو «مزور» قال لصاحبه، لا يمكنني أن اعطي تأشيرة على مثل هذا الجواز، اذهب وصحح الخطأ فيه، وعد لأعطيك التأشيرة، وكلما تذكرت ذلك انحني بتقدير وخشوع أمام ذكرى الرفيق المرحوم سيروب سوبككيان الذي كان ماهراً في تحضير جوازات السفر لكل من لا قدرة له على الحصول

على جواز من السلطات».

ومن منظمة بيروت انطلق أول مسار لتصحيح خط الحزب الشيوعي سياسياً وتنظيمياً، وبفضل هذه المنظمة، حلت القضية الكبرى التي تعرضت لها وحدة الحزب ١٩٣١-١٩٣٣، والمعروفة بقضية «التعريب».

ومنظمة بيروت الشيوعية هي التي، بالتفاف قيادتها حول خط الحزب في قضية «التعريب»، وضعت حداً لهذه القضية، وكانت فيما بعد الانطلاقة الحزبية الواسعة في ميدان العمل السياسي، والتنظيمي، وبخاصة في ميدان بروز الكادر الحزبي ـ العربي والأرمني.

في العام ١٩٣٣، عندما اعتقلت السلطات النازية في المانيا ديمتروف الزعيم البروليتاري العالمي، ورفقاءه الشيوعيين، جرت حملت عالمية، بقيادة الأممية الشيوعية للإفراج عنهم، اقتحم اعضاء من منظمة بيروت الشيوعية القنصلية الألمانية في بيروت وحطَّموا العلم النازي المرفوع على ساريتها.

وعندما احتل موسوليني البانيا سنة ١٩٣٨ باعتداء غادر عليها، تظاهرت بيروت ضد الفاشيستية، وكانت منظمة الحزب هي المبادرة لهذه المظاهرة وكان مصطفى العريس، أحد ابرز الوجوه البيروتية،التي قادتها.

ومنظمة بيروت الشيوعية هي التي تصدت لاحتكارية البرجوازية في الترشيح للانتخابات النيابية. فقد اقدمت بجرأة على خوض انتخابات ١٩٣٤، بمرشحين اثنين هما الرفيقان سعد الدين مومنه وأرتين مادويان، وبالرغم من فقدان الوسائل المادية والتكنيكية، ومن تسلط الارهاب الاستعماري، فقد جرت معركة انتخابية لها،ونالا أكثر من ٤٠٠ صوت.

ومن العاصمة بيروت، وعبرالمنظمة الشيوعية انطلقت الحركة النقابية من الأبواب العريضة. وذلك بالإضراب الشهير الذي اعلنه عمال المطابع سنة ١٩٣٣، من أجل إعادة العمل بترخيص النقابة، ولتحسين شروط العمل وزيادة الأجور وإيجاد تشريع للعمل. في هذا الإضراب برز عمال شيوعيون اشداء في النضال، كحنا الزرقا ورامز دميانوس، وميشال العازار وتوفيق الاسود وخليل الحلو وجورج عيّان وسعد الدين مومنه وسواهم، رفعوا بمواقفهم الصامدة، سمعة الإضراب الذي أصبح على كل شفة ولسان في جميع مناطق لبنان. وبخاصة عندما اقدم العمال وفي طليعتهم حنا الزرقا ورامز دميانوس وسواهم على تحطيم الآلات الطابعة لجريدة «الاوريان» التي حاولت كسر الاضراب.

ومن منظمة بيروت الشيوعية انبثقت سنة ١٩٣٥ فكرة تشكيل «كومسيون نقابي» مهمته

العمل لتأليف نقابات، ولجان نقابية، وحث العمال على الانضواء تحت لواء النقابات القائمة. وكان من أركان هذا الكومسيون الرفيقان سعد الدين مومنه وحنا الزرقا وكلاهما من قادة نقابة عمال المطابع. وبفضل هذه التشكيلة التنظيمية وجدت لجان نقابية، وصلات في أكثر امكنة العمل حيث يتواجد العمال.

وأبرز الرفقاء الذين عملوا في منظمة بيروت هو الرفيق نقولا شاوي المعروف باسم «بهيج». الذي كان منذ دخوله إلى الحزب صلة وصل نشيطة مع المثقفين، سواء المنضمين منهم إلى الحزب، أو الأصدقاء والمتعاطفين معه. وبين العام ١٩٣٢ و الـ ١٩٣٥، كان مسؤولاً عن «المساعدة الحمراء»، وهي منظمة مهمتها مساعدة السجناء السياسيين، والاهتمام بعائلاتهم، وتأمين المحامين للدفاع عنهم.

وكان نشاط نقولا موضع تقدير واهتمام في القيادة، حتى اذ تأسست جريدة الحزب المركزية السرية «نضال الشعب» سنة ١٩٣٤، رئس نقولا تحريرها وأشرف على إصدارها.

صحيح أن تعرف نقولا على الشيوعية والحزب الشيوعي، تم في الشمال على يد سليم خياطة. ولكن ممارسة عمله كعضو في الحزب وكمسؤول، في قطاع من قطاعاته، وكقائد من قواده، جرت في منظمة بيروت. وإن ترشيحه للانتخابات النيابية سنة ١٩٣٧ عن بيروت هو دليل على ارتباطه بمنظمة الحزب الشيوعي في العاصمة.

في أواخر العام ١٩٣٣، وبفضل جهود خاصة بذلها سعد الدين مومنه (أبو عبد) انضم إلى الحزب الشيوعي، عامل المطبعة مصطفى العريس، وفي الوقت نفسه، أو قبله، كان فؤاد قازان العامل في معامل السيوفي، قد أنضم إلى الحزب، وبذلك اكتسبت منظمة بيروت بدخول هذين الرفيقين الحزب، قوة سياسية، ومعنوية، ولكن حدثاً سياسياً أدى إلى تغييبهما مدة سنتين عن مجرى النضال، ذلك عندما انتدبا ليلقيا في ٢٤ تموز سنة ١٩٣٤ خطابين في ذكرى موقعة ميسلون في سوريا. وقد اعتقلا وحكما بالسجن سنتين امضياها في سجون سوريا واخلي سبيلهما في ٢٤ تموز سنة ١٩٣٦.

إن انضمام مصطفى العريس إلى الحزب الشيوعي، كان بالفعل حدثاً مهماً، فمصطفى هو من عائلة بيروتية عريقة معروفة. وثانياً هو عامل مطبعة متقدم. وكان حذراً من الشيوعية والشيوعيين، ولكن صبر سعد الدين مومنه، وحسن منطلقه، أديا إلى اقناعه بصواب سياسة الحزب الشيوعي، فأعلن انضمامه، وعد ذلك عملاً بالغ الاهمية. وجاءت السنون اللاحقة المليئة بنشاط مصطفى العريس، تؤكد صحة التقدير الحزبي. فلمصطفى فضل كبير في قيادة الحركة النقابية

ودوره، سواء على الصعيد الوطني، أو القومي العربي، أو الدولي بعد تأسيس الاتحاد النقابي العالمي، أصبح كبيراً جداً. وبين أعوام ١٩٤١ - ١٩٥٠ كان اسم مصطفى العريس مالىء الدنيا. فمن باريس إلى موسكو، ومن تونس إلى طهران، ومن بيروت إلى دمشق، فالقدس. كان مصطفى في حركة دائمة، يتدخل بمساعدة رفقاء له كميشال العازار أمين سر نقابة عمال المطابع وسواه، لإنهاء خلاف هنا، أو لتصحيح وضع هناك. وإذا كان نشاط هذا الرفيق قد احيط بالكتمان في الخمسينات لدرجة الشلل التام فمرد ذلك لظهور الاتجاهات المغايرة للديمقراطية في الحزب، وقد نتج عنها اتجاهات أشد خطراً أنمت عبادة الفرد، ان وضعا مناقضاً لمصلحة الحزب، وللديمقراطية الاشتراكية، عطل نشاط مصطفى، وبين ليلة وضحاها، لم يعد هذا الرفيق، يعرف أين هو، في حين كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب، وهذه انتخبته في أول اجتماع لها بعد المؤتمر الأول للحزب عضواً في المكتب السياسي، وأقولها بكل اعتزاز، إن التصحيح الذي أتى به المؤتمر الثاني للحزب، أعاد مصطفى العريس إلى مكانه في الحزب، وعاد اسمه ونتاج فكره، يطلان يومياً على عمال بلدنا، وجماهير شعبه، من خلال صحافة الحزب، وسواها من وسائل الإعلام العديدة.

في العام ١٩٣٦ اضرب عمال الأفران في بيروت. وان لهذا الاضراب أهمية نقابية وعمالية بالغة. فهو لم يعلن عفوياً بل جاء بعد عمل تنظيمي وتحضيري واسع شارك فيه جميع العمال. وكان «للكومسيون النقابي» المشار إليه سابقاً دور ملحوظ في دعم عمال الأفران، ومساعدتهم على انجاح اضرابهم. وقد وجهت السلطة ارهاباً خاصاً ضد الإضراب والمضربين. ومع ذلك فلم تفلح التدابير الاستعمارية في شل قدرة العمال وعزلهم فالتفت حولهم نقابات عديدة أيدت مطالبهم. ولمنظمة بيروت الشيوعية دور مميز ومقدر في تنظيم الاضراب والعمل لتأييده من النقابات الأخرى.

وفي هذه الأثناء كان أوار النضال الوطني يرتفع في دمشق. فالإضراب الخمسيني الذي أدى إلى ارغام الاستعمار الفرنسي على التراجع، والقبول باجراء مفاوضات مع الحركة الوطنية السورية وتشكيل الوفد للذهاب إلى باريس لهذا الهدف. كل ذلك أدى إلى تحرك وطني في لبنان أجمع على المطالبة، بأن ينال لبنان كما نالت سوريا. مما جعل ممثلي السلطة الفرنسية يوجهون الدعوة لبعض الزعماء البرجوازيين لبدء المفاوضات معهم. وقد انتهت بالاتفاق على عقد معاهدة تؤمن بعض الحقوق الوطنية. ولكنها أقل بكثير مما أمنته المعاهدة السورية - الفرنسية للشقيقة سوريا.

وإن ما توصل إليه البلدان، سوريا ولبنان، من اعتراف رسمي فرنسي باعطائهما بعض الحقوق في نطاق معاهدتين تعقدان بين البلدين وفرنسا. هذا الانجاز أصبح مهدداً بالخطر بعدما شن الفاشيست الفرنسيون حملة ضده. ولكن حدثاً كبيراً شهدته فرنسا غيَّر ميزان القوى، وأدخل عليه

تحولاً جديدا، وذلك بالانتصار الكاسح الذي حققته «الجبهة الشعبية» في الانتخابات النيابية. حدث ذلك في أوائل حزيران ١٩٣٦. وقد انعكس هذا الانتصار بارقة أمل في لبنان وسوريا. فمن جهة اعتبر مؤشراً للتساهل من جانب الإدارة الفرنسية. ومن جهة أخرى أكد بأن الحريات الديمقراطية سيكون لها ملامح أوضح، ونصيب أوفر في تطبيق سياسة المعاهدتين. وكون سياسة المعاهدة اللبنانية ـ الفرنسية أوجدت مناخاً أكثر ملاءمة للعمل السياسي والوطني. ونظراً للأهمية السياسية والتاريخية التي ارتداها عقد معاهدة مع فرنسا، وتضامناً مع القوى الديمقراطية الفرنسية التي حققت «الجبهة الشعبية» دعت منظمة بيروت الشيوعية في ١٤ حزيران ١٩٣٧ إلى مظاهرة على ساحة البرج تضامناً مع الجبهة الشعبية ولاعلان المطالب الوطنية التي تهم شعبنا وأبرزها تصديق المعاهدة، واطلاق الحريات الديمقراطية. وكانت المظاهرة الأولى التي يطل من خلالها الحزب الشيوعي كهيئة سياسية وطنية تعمل لفرض شرعيتها، وهي على علم بأن قوى الاستعمار من شرطة وسواها، ستتصدى لها وبالفعل حصل الصدام، وتمكنت قوى الاستعمار وأدواته من تفريق المظاهرة، ولكن رد فعل المتظاهرين كان قوياً، فضربوا وضربوا، وتمكنوا من انتزاع بعض مسدسات الشرطة من بينها مسدس المفوض الممتاز قائدها. وعن هذه المظاهرة وما جرى خلالها، تحدثت جميع صحف العاصمة مقدرة بطولة المتظاهرين ومنوهة بالتحرك الذي يبديه الحزب الشيوعي.

وفي بيروت صدرت الصحف الشيوعية السرية وأبرزها «نضال الشعب» وقام بصفها وطبعها طاقم من الرفقاء وكان طاقم طباعتها مؤلفاً من أعضاء في منظمة بيروت ابتداء من ناقل المواد إلى المطبعة، حتى ناقل الجريدة بعد طبعها إلى الأمكنة السرية.

في تشرين الأول سنة ١٩٣٥، وبعد عودتي من المؤتمر السابع للأممية الشيوعية دعاني الحزب للعمل في العاصمة. وأصبحت سكرتيراً للمنظمة الشيوعية وكانت تسمى «اللجنة المحلية» واستمريت في عملي هذا حتى مطلع شهر نوار ١٩٣٦ حيث أعفيت من العمل وعدت إلى حصرايل. أما لماذا حصل ذلك فأمره لا يزال مجهولاً عندي حتى الآن.

وفي أثناء وجودي على رأس منظمة بيروت، تعاونت مع رفقاء جيدين أذكر منهم، توفيق حداد، علي حمدان، عارف الخشن، ميشال القهوجي، سعد الدين مومنة، حنا الزرقا، خليل الحلو، ميشال العازار، أنيس حداد، بانوس اراميسيان، جورج قازان، وغيرهم من رفقاء عرب وأرمن عديدين. وكان التعاون مع «بهيج» نقولا شاوي، وثيقاً، ومفيداً لي من جميع النواحي.

بعد توقيع المعاهدة اللبنانية الفرنسية سنة ١٩٣٦ توفر قدر من الحريات الديمقراطية. وأصبح الحزب يمارس نشاطه العلني، ولو بشكل محدود، وقد تمكن من إصدار جريدة سياسية علنية،

بعدما حصل الرفيق نقولا شاوي على رخصة بذلك من وزارة الداخلية، وهي جريدة «صوت الشعب». كما حصل الرفيق انطون تابت سنة ١٩٣٧ على رخصة بتأسيس «عصبة مكافحة الفاشيستية». وبذات الوقت نشطت الأوساط العمالية بطلب التراخيص لتأسيس نقابات لها. ومعظم هذه النشاطات كان محور الماصمة، ومداه الحيوي منظمة بيروت الشيوعية.

وأبرز ما أقيم في بيروت في الثلاثينات المؤتمر الأول ضد الفاشيستية ٦ ـ ٧ نوار ١٩٣٩. وقد أعدته ونظمته «عصبة مكافحة الفاشيستية». ولكن إعلان الحرب العالمية الثانية عطل نشاط منظمة بيروت، فأكثر قادتها والرفقاء البارزين فيها اعتقل وفي طليعتهم فرج الله الحلو ونقولا شاوي. وحلت سلطات الاستعمار المؤسسات التقدمية، والنقابات العمالية، وعصبة مكافحة الفاشيستية، وأقفلت مكاتب الحزب الشيوعي، وأصدرت القرار ١١٥ ل. ر. وهو يقضي بالسجن خمس سنوات لكل من يقوم بدعاية لحزب منحل، أو للشيوعية، أو إلقاء شعارات وطنية موجهة ضد الاستعمار والفاشية.

في هذه الحقبة المظلمة وبخاصة بعد الهجمة الاستعمارية وإلقاء القبض على معظم كوادر الحزب، برز رفقاء نشيطون وضعوا ثقلهم من أجل استمرار عمل ونشاط الحزب، كالرفيق بارور ياريتسيان وبوغوص ناتاريان وموسيس ماركاريان، هؤلاء الرفقاء لم يضعوا بيوتهم، وامكاناتهم المادية تحت تصرف الحزب وحسب، بل وضعوا نفوسهم، حياتهم من أجل ذلك. وبوغوص استشهد لاحقاً في معركة انتخابية سنة ١٩٤٧ وبارور لا يزال يتابع بأصلب ما تكون عليه الصلابة نضاله السياسي في سبيل الحزب الشيوعي، وتنفيذ خطته، ورفع شأن وسائل اعلامه.

ويشار هنا إلى أن عشرات العائلات الأرمنية الشيوعية، قدمت للحزب كل التسهيلات لمتابعة نشاطه. وما اقدمت عائلة على رفض لطلب من الحزب، سواء لإيواء الرفقاء المتوارين عن انظار الاستعمار، أم لتقديم خدمات أخرى لهم كتأمين الطعام، والملابس، والأدوية، ونقل المناشير وحفظها في أمكنة أمينة. إن الخدمات التي قدمها القطاع الشيوعي الأرمني للحزب في فترة ما بين تشرين الثاني ١٩٣٩ وتموز ١٩٤١، مقدرة جداً وثمينة جداً، والحزب اليوم يدرك ذلك ويوليه اهتماماً خاصاً. وكانت الاحتفالات بالذكرى الـ ٥٦ لتأسيس الحزب، أفضل مناسبة للتعبير عن التقدير لتلك المواقف الشريفة.

ضربت ولكنها استمرت

بالرغم من الضربة التي وجهت لمنظمة بيروت بالاعتقالات الكثيرة لملاكاتها سنة ١٩٣٩ فإن الاستعمار لم يتمكن من شل نشاطها. ففي معظم الأحياء بقي شيوعيون وإن يكونوا قد فقدوا

الصلات الحزبية التنظيمية لحين، لكنهم لاحقاً عادوا يمارسونها. وتسنى لي أن أعود مرة أخرى لقيادة منظمة بيروت، وذلك ابتداء من شهر آب ١٩٤٠ حتى شهر تموز ١٩٤١. وكان من أنشط مساعدي في هذه الفترة الرفيق الشهيد ادوار الشرتوني، وجورج فريحة، وجورج قازان وعارف الخشن، وسامي قايدبيه، وبعض الرفقاء الأرمن وأبرزهم بانوس، الذي لم يلبث أن اعتقل بسبب استهتاره بمراقبة العدو.

كان ادوار طاقة مشتعلة حماسة. يتعب ولا يتذمر، يعمل بأصعب الظروف ولا يتأفف، يعطي دون أن يطلب شكوراً. كنا نتلقى ترجمات لفصول من تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي فينكب على كتابة نسخات عنها على الكربون لتوزيعها على الفرق، وعلى أساسها كنت أقوم بإعطاء دروس تثقيفية للرفقاء.

كان ادوار من أنشط أعضاء منظمة بيروت، فمع عمله الحزبي السري، نظم صلات واسعة مع أصدقاء وشخصيات عديدة، كما وأنه انضم إلى حلقة في مؤسسة « الشبيبة العاملة المسيحية » وهناك تعرف إلى الكثيرين وأقام علاقات معهم.

وما كاد حكم فيشي يزول ويعود الحزب لممارسة حريته في العمل، حتى وجدنا منظمة بيروت تعود بسرعة إلى حياتها وحيويتها الحزبية. وبخلال أقل من سنتين انتشرت الفرق الشيوعية في جميع الأحياء، وازداد عدد أعضائها، مثلاً فرقة عمال المطابع وصل عددها إلى الـ ٩٠ رفيقاً. وفي جميع المناسبات كانت منظمة بيروت طليعية في جذب الجماهير إلى مهرجانات الحزب. في حملات التطوع لبيع « صوت الشعب » في أيام الآحاد. في جمع التبرعات لدعم مالية الحزب. والقدامى يذكرون كيف كانت اللجان، وأكثرها من الرفيقات تحمل العلب وتنتقل من شارع إلى آخر. تجمع التبرعات للحزب، أو لجمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي.

ومؤتمرات الحزب الأول والثالث والرابع وإن تكن منظمات الحزب في أنحاء لبنان كافة ساهمت بتنظيمها وحراستها، وتأمين ما تطلبته من مهمات، فإن منظمة العاصمة تحملت أكثر من سواها، ودورها كان مميزاً.

وفي مجال التقويم لمنظمة العاصمة، لا بد من التوقف عند محطة وهي، أن هذه المنظمة كانت، ولا تزال وستبقى، الدرع الواقية للحفاظ على قيادة الحزب المركزية. فحتى تاريخه، أي منذ ممارسة الحزب الشيوعي اللبناني نشاطه السياسي والتنظيمي، وعلى وجه الضبط، منذ أول نوار ١٩٢٥، كانت بيروت المركز الأساسي والرئيسي لقيادة الحزب. وهي لا تزال كذلك، وبالرغم من الجور الذي نزل بمنظمة العاصمة، وبخاصة بالنسبة لتكوين قيادة بيروتية دائمة ثابتة لها، فإنها استمرت

على أمانتها للحزب، وعلى قيامها بكل ما تتطلبه المهمات الملقاة على عاتقها، وإذا كانت الستينات وبخاصة السبعينات شكلت قفزة نوعية كبرى في ميدان تركيز قيادة سياسية وتنظيمية بيروتية لمنظمة بيروت، فذلك يعود لتقويم خط الحزب السياسي والتنظيمي عبر الوثبة التصحيحية التي بلورها المؤتمر الثاني للحزب، وأكدتها سياسة الحزب اللاحقة وبخاصة في مؤتمريه الثالث والرابع. إن قيادة منظمة بيروت الأساسية هي بيروتية، كما أن بروز رفقاء يتمتعون بصفة القيادة في قلب هذه المنظمة أخذ بالتطور والازدياد، وبذلك تحافظ، وتطور وترسخ منظمة العاصمة أصالتها الثورية. وتؤكد أنها أمينة على تراثها الوضاء الذي حمل لواءه في الثلاثينات رفقاء شجعان تصدوا للواقع الأسود، رافعين بإيمان وعزم راية التغيير والتطور، والتقدم، رفقاء رفعوا بثباتهم وتفانيهم راية الحزب الشيوعي، وشكلوا اللبنات الأولى لبناء صرح منظمة العاصمة الشيوعية التي رسا أصلها على قواعد عمالية لم تقو على زعزعتها لا الأعاصير العاتية، ولا الأمواج المتلاطمة، وتمكنت من أن تجمع حولها رعيلاً من كبار الكتاب والأدباء، دعموا بأقلامهم وعصارات أفكارهم، بناءها، كعمر فاخوري، وفؤاد قازان، وانطون تابت ورئيف خوري، والدكتور جورج حنا الغزير العطاء، إن منظمة العاصمة، كانت وستبقى مكلوءة بعيون قيادة الحزب الشيوعي اللبناني، وبحرص ملاكاتها، واندفاع أعضائها، قدوة في التصدي والثبات لكل المؤمرات، وشتى الردات الرجعية.

إن منظمة بيروت التي لم تهن أمام صعاب ولم تتراجع أمام ارهاب ولا تهويل، أكدت بصمودها على أصالتها الثورية، وعلى طبيعتها الأممية، وما الذين سقطوا من أعضائها، أو من أصدقائها، في شوارع العاصمة، إن برصاص الشرطة، أو بغدر المرتزقة والعملاء، إلا أثمن ثروة لمنظمة العاصمة.

سلوا «الساحتين» و «البسطتين» عن البطولات التي قدمتها منظمة بيروت في المعارك ضد المعاهدات مع الاستعمار، وضد الاحلاف العدوانية. سلوا «صيدلية حمادة» وقد أزيلت من مكانها، سلوا شوارع العاصمة ومنعطفاتها، فجميعها يعطيكم الخبر اليقين، عن نضال الشيوعيين وفي مقدمتهم، أعضاء منظمة بيروت التي يعود إليها فضل كبير في تجييش المظاهرات، وقيادتها، والاشراف على تنظيمها وترتيبها، واستقبال القادمين من المناطق للاشتراك فيها، ومعالجة الجرحى، وإيواء المتوارين عن أنظار الشرطة. وتأمين جميع حاجاتهم ومتطلباتهم.

وفي معركة الاستقلال في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٣، حملت منظمة بيروت معظم الثقل الذي ألقي على الحزب. فكانت هي من جهة، ومنظمة طرابلس من جهة حجري الزاوية في النضال اليومي. وما المظاهرة الكبرى التي سبقت التراجع الاستعماري، وأرغمت مسؤولي الانتداب الفرنسي على إطلاق سراح قادة الدولة وإقفال قلعة راشيا وإلغاء القرارات التي اتخذها هيللو، إلا الدليل الحسي على فعالية منظمة بيروت الشيوعية. ودورها الملموس في التأثير على مجرى المعركة.

لقد كانت تلك المظاهرة من حيث ضخامتها، والشعارات المرفوعة فيها، وسرعة تحركها، بيضة قبان رجحت كفة الحركة الوطنية في قطف أولى ثمرات انتصاراتها.

وكان من الطبيعي أن يؤثر موقف منظمتي العاصمتين، بيروت وطرابلس، على مجمل منظمات الحزب في جميع المناطق التي تحركت في الوقت المناسب. وكان لموقفها وسرعة تحركها تأثير سريع على انتهاء المعركة لمصلحة الحركة الوطنية الملتفة حول «المؤتمر الوطني»، وإحباط المؤامرة الاستعمارية، وقد ظن الخونة، أن إلغاء قانون جيد بقوة السلاح، واحلال آخر سيء محله، إنما هو عمل سهل التنفيذ فهناك الشعب الهادر، والبحر الزاخر، لا يمكن وقفهما مهما اشتد الإرهاب وبلغ السيل الزبى.

وفي أثناء موجات الارهاب وتعطيل الحريات في سوريا، ضد الوطنيين والديمقراطيين وبخاصة الشيوعيين اضطر العديد من رفاقنا وأصدقائهم إلى ترك سوريا والعراق، والسعودية وسواها من البلدان العربية، في هذا الوقت كانت بيروت مركز الثقل باستضافة المئات من هؤلاء الرفاق والأصدقاء، وقد وضعت هذه المنظمة العديد من أعضائها، وعشرات المنازل، تحت تصرف الرفقاء والأصدقاء النازحين لإيوائهم. فكانت العناية الفائقة بهم، وبذلك دللت منظمة العاصمة على حقيقة اهميتها، ومزيد حدبها على أشقاء لنا نزل بهم ضيم فوجدوا في منازل شيوعيي بيروت وسواهم من الشيوعيين في طرابلس وجبل لبنان مضافات وأخوات وأمهات، وأشقاء وفروا لهم كل ما هم بحاجة إليه.

سلوا قدامى الشيوعيين في سوريا والعراق، وسواهما من الأقطار العربية الشقيقة. فعندهم الخبر اليقين، عن شهامة، واندفاع منظمة بيروت الشيوعية.

ومما يذكر ويجدر التنويه به، وتقديره في مواقف منظمة بيروت الشيوعية، هو أنها حملت في سنوات الارهاب السوداء، التي امتلأت فيها بالرفقاء والمناضلين الوطنيين، العبء الأكبر في التقديمات الاعاشية للسجناء ولعائلاتهم. وبذات الوقت كان اهتمامها الجدي بتأمين المحامين للدفاع عنهم أمام المحاكم، وبتوفير الضمانات المالية، لمن يتقرر اخلاء سبيله بكفالة. كل هذه الموجبات بنسبة ٩٠ ٪ ألقي ثقلها على منظمة بيروت. ويذكر ذلك جيداً الذين دخلوا السجون في الخمسينات. إنها صفحة مجيدة مشرقة في تاريخ نضال منظمة العاصمة التي لا تزال تشكل مركز ثقل أساسي في معركة النضال السياسية والطبقية.

من الطبيعي أن تكون منظمة بيروت على هذا القدر من الإمكانية والتحرك فهي دائماً وأبداً تحت أنظار القيادة. وفي فترات ليست بالقصيرة في تاريخ الحزب، شل فيها عمل القيادة فغيبت

بسبب تسليم قيادتها إلى رفقاء لا علاقة لهم بصفات القيادة، فهم أقرب إلى التهريج منهم إلى ميزة القيادة. ومع ذلك، وبالرغم من ذلك، فقد أكدت هذه المنظمة أصالتها الثورية، وذلك عندما عصفت العام ١٩٦٧ في قيادة الحزب أزمة كادت تحدث الانشقاق فيه. هنا صمدت منظمة بيروت وأكدت على صدق شيوعيتها فدعمت التصحيح، وأيدت الداعين إليه، والقائمين به. وهذا الموقف أثر على المنظمات الجماهيرية المرتبطة بالحزب. فكان موقفها أصيلاً كموقف منظمة بيروت. وأقولها بصراحة إن لمنظمة بيروت القدح المعلى في عملية الإنقاذ التي تحققت حقاً، وصدقها الحزب بالإجماع في مؤتمره الثاني ـ تموز١٩٦٨، بإقراره برنامج الحزب السياسي، وبالقرارات وانتخاب الهيئات القيادية.

صحيح أن قوة الحزب الشيوعي اللبناني هي بصواب خطته التي يتفرع عنها كل شيء، سواء في العمل النقابي، أم في ميدان التحالفات والعمل الوحدوي أم في المجال الثقافي والاجتماعي. ومع هذا فقوة الحزب هي باتساع منظماته، وعدد اعضائه، وارتفاع مستواهم السياسي والايديولوجي، ولكنني أسمح لنفسي أن أقول إن لمنظمة العاصمة، والعاصمة هي المركز الرسمي لقيادة الحزب، أهمية أساسية في قوة الحزب، وقوة منظمة العاصمة يحددها اثنان: اندفاع عمالي، وإقدام طالبي. وفي الوقت الذي تسنى فيه للحزب تاريخياً توفير قدر من هذين الاثنين المشار إليهما، حقق مزيداً من النجاحات في جميع المجالات.

والآن، حيث يتسنى لحزبنا في إطار نشاطه السياسي الذاتي، وفي إطار الحركة الوطنية تحقيق نجاحات، وإن لم تكن كافية، فهي مهمة، نرانا بأشد الحاجة إلى تحقيق المزيد من النجاحات في نطاق العاصمة. والملامح العامة تشير إلى ذلك. إن ما منيت به منظمة بيروت من نكسات، تاريخياً كانت بسبب عدم استمرارية قيادتها وبخاصة البيروتية، وهذا الأسلوب أضعفها في الأربعينات وفي الخمسينات، واستمر حتى منتصف الستينات. ومما يؤمل بالتفاؤل، هذه الاستمرارية التي بتنا نرى ملامح لها في منظمة العاصمة.

ومنظمة الحزب الشيوعي في بيروت تفتخر بأن شخصيات سياسية وثقافية لامعة، معروفة، بارزة لبنانياً وعربياً وعالمياً كانت وإياها على صداقة ومودة تامتين، ومن هؤلاء الشيخ عبد الله العلايلي، الدكتور جورج حنا والشاعر رضوان الشهال، والصحافي الشهيد نسيب المتني، والمحامي الكبير حبيب ربيز، ومحمد جميل بيهم، أصدقاء لم يشرعوا أقلامهم في سبيل الحرية والتقدم وحسب، بل فتحوا قلوبهم لتقبل معطيات العلم التقدمي، تقبل مفاهيم وتعاليم الاشتراكية العلمية.

وإذا كان الحزب الشيوعي هو أب النضال ضد الأحلاف الاستعمارية إبتداء من مشروع معاهدة مع أميركا سنة ١٩٤٩، حتى مشروع ايزنهاور سنة ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨، فإن دور منظمة

بيروت في معركة النضال ضد الأحلاف كان دوراً طليعياً. إذ ما كان ليمضي اسبوع إلا وتنتظم فيه مظاهرة، قوامها جماهير بيروتية، ضد حلف من تلك الاحلاف الاستعمارية. وحركات الطلاب الجماهيرية الواسعة، ألم تكن بيروت ساحتها، ومنظمة بيروت الشيوعية هي المنظم والموجه لها؟ فبمزيد من الاحترام والإجلال، انحني بكامل الخشوع، أمام ذكرى الرفقاء الشهداء الذين سقطوا في معارك النضال من منظمة بيروت. كما احيي الأريحية العالية التي تمتع بها شيوعيو العاصمة، بتوفيرهم كل ما هو ضروري ومريح لضيوفهم من شيوعيي البلدان العربية، وبخاصة الشيوعيين السوريين، أو لضيوفهم من منظمات الحزب في المناطق اللبنانية.

إن ذكرى ادوار الشرتوني، واطـام، وبـوغـوص، وجـورج عـرو، ومحمد الخطـاب، وبيرام ايلليزيان، وستراك عباجيان، وبرجيس بو صالح وجورج قازان، وخليل نعوس ستظل حية في ضمير شيوعيي بيروت الذين يناضلون بثبات ضد المؤامرة الهادفة لتقسيم لبنان، وللحفاظ على هذا البلد موحداً أرضاً وشعباً، وديمقراطياً عربياً سيداً مستقلاً.

تحية إكبار وإجلال لمنظمة بيروت التي نظمت مظاهرة ١٤ حزيران ١٩٣٧، والمظاهرة الكبرى ضد المستعمرين وللمطالبة باطلاق قادة الدولة سنة ١٩٤٣، ومظاهرة ١٩٤٩ ضد المعاهدة الأميركية والتي كانت في أساس تشكيل فريق قتالي مسلح ضد مبدأ ايزنهاور سنة ١٩٥٨، والتي أمنت لأنطون تابت أكثر من ١٣ ألف صوت في انتخابات ١٩٥٧.

دردشة في «يريفان» مع آغوب دربدروسيان

في أثناء وجودي في يـريفـان بتـاريـخ ١٩ تشريـن الأول ١٩٨٥، التقيـت الرفيـق اغـوب دربدروسيان المعروف في تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني بـ «السولدا». و «السـولدا» هو الاسم السري له لكونه كان مجنداً في الجيش الفرنسي.

الرفيق أغوب «السولدا» هو من أول رعيل شيوعي في سوريا ولبنان. رافق مسار الحزب عن كثب من سنة ١٩٢٤ لغاية سنة ١٩٣٣، ولا يزال يحفظ الكثير عن خبايا ومعلومات تلك الحقبة، وهي حقبة تكوين وتأسيس الحزب.

أسس أغوب «السولدا» مع فريق من الرفاق الأرمن فرقة شيوعية سنة ١٩٢٤ في حلب، وكان فيها بانوس اراميسيان، وعندما جاء إلى بيروت، وكان قد أصبح جنـديـاً في الجيش الفـرنسي، وطّد صلاته بالحزب، وكان يقوم بما يطلب إليه من أعمال متحصناً بجنديته التي صانته مراراً عديدة من الوقوع بين أيدي البوليس.

قال « السولدا » إن الحزب الشيوعي في سوريا تأسس بادىء ذي بدء في حلب، وبعد ذلك بسنوات تم بدء العمل في دمشق عن طريق هيكازون بوياجيان. فكان ذلك سنة ١٩٢٨، حيث تم تأسيس فرقة شيوعية.

وامتد الحديث مع اغوب فتناولنا الحقبة الممتدة بين ١٩٢٧ و ١٩٣٣، وكانت حقبة خصبة في مسار الحزب. فخلالها أعاد الحزب تنظيمه وذلك بعد انعقاد المؤتمر السادس للأممية الشيوعية سنة ١٩٢٨، وقد مثل الحزب فيه امينه العام فؤاد الشمال ومن ثم حصل بعد فترة عودة فؤاد من موسكو انعقاد الكونفرانس الحزبي الذي أقر بياناً بعنوان « لماذا يناضل الشيوعيون في سوريا ولبنان » وهو كناية عن لائحة مطالب تؤلف برنامجاً سياسياً للحزب. وحدث مهم آخر تم هو، نجاح الخطة السياسية المعروفة بـ « التعريب »، وقد تطلب إقرار هذه الخطة، ووضعها موضع التنفيذ، صعوبات جمة، ولكنها بالنهاية انتصرت في أواخر العام ١٩٣٢ ومطلع العام ١٩٣٣. ولكن رافقها تدبير سيء، وهو طرد فؤاد الشمالي الأمين العام من الحزب لاتهامه بالعمالة.

حول هذا الموضوع قال أغوب أنا ضد القول بأن فؤاد الشمالي كان عميلاً، ولو كان كذلك، لما بقيت أوضاعه المعيشية سيئة. فالعميل يكسب مالاً يساعده على العيش، ولكن حياة فؤاد كانت دائماً بائسة، ولطالما عجز عن تأمين الخبز والجبنة. وقال أغوب: إن الصهاينة هم الذين حاكوا المؤامرة ضد فؤاد. فقد حضر من موسكو، بعدما أنهى دراسته في الجامعة التابعة للأممية الشيوعية، المدعو حسن، وكان مزوداً بتعليمات من الجهاز المختص عن شؤون سوريا ولبنان في « الكومنترن ». كان اليهود الصهاينة يسيطرون عليه، ولقد ساءتهم مواقف فؤاد الشمالي ولا سيما بالنسبة للقضية الفلسطينية، وبخاصة عندما كان في المؤتمر السادس للأممية حيث حدد موقفاً عنيفاً ضد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. الأمر الذي أزعجهم، فلفقوا تهمة العمالة والصقوها بفؤاد. وقد نقل المدعو « حسن » ذلك إلى قيادة الحزب في سوريا ولبنان، فتلقف بعضهم هذه التهمة غير مقدر ما تجلبه من أخطار على تطور حزبنا، خصوصاً عندما تقرر طرد فؤاد الشمالي لا من القيادة بل ومن الحزب، وحل خالد بكداش مكانه. أغوب دربدروسيان أكد لي، أن التهمة التي الصقت زوراً بفؤاد الشمالي لم تنبت من هنا، بل صدرت إلى هنا بواسطة « حسن » والخطأ أن بعض من بأيديهم القرار آنذاك تلقفوها وساروا بها إلى نهايتها إلى أن طرد فؤاد من الحزب.

وأغوب دربدروسيان هو شيوعي جيد وموثوق وعلى كتفيه ألقي عبء الكثير من العمل، بوصفه جندياً في الجيش الفرنسي، وبخاصة في أثناء الثورة السورية، حيث كان يقوم بتوزيع المناشير التي يكلفه الحزب بنقلها وإيصالها إلى من يلزم لتوزيعها على الجنود، وللعلم فإن العقوبة الناجمة عن عمل كهذا تعرض القائم بها إلى الإعدام، وبالرغم من ذلك فلم يتوان رفاق تلك

الحقبة، عن تلبية كل ما يطلب إليهم تنفيذه.

قال «السولدا» كنت أقوم بمهمة صلة وصل بين فؤاد الشمالي ورفاق آخرين بينهم اليهودي الصهيوني المدعو نحمان لتفينفسكي وكنت أقوم بمهمتي خير قيام دون أن يدري أحد بما أقوم به من أعمال.

وأضاف الرفيق أغوب، أن «جبل موسى» بالنسبة إلينا، كان المقلع الذي اقتطعنا منه، فمعظم أعضاء الفرقة التي أسسناها في حلب، أنا وبانوس كانوا من «جبل موسى». وصادف تأسيسنا لفرقة شيوعية في حلب سنة ١٩٢٤، مع تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني.

بالرغم من السابعة والسبعين من العمر لا يزال أغوب دربدروسيان يتمتع بنشاط جسدي ومعنوي، وعندما يبدأ بسرد الأخبار عن نشاط الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان في ما بين ١٩٢٥ و١٩٣٣، يزداد زهواً، واعتزازاً، وهو يكن للرفيق أرتين مادويان كل الاحترام والتقدير.

و«السولدا» الذي يملأه حنين الشوق إلى الحزب الشيوعي عندنا حيث في رحاب الحزب ناضل، وعرّض نفسه لأشد المخاطر، أصبح متقاعداً عن العمل وأولاده متفوقون، أحدهم مهندس يشغل رئاسة مصنع يضم أحد عشر ألف عامل، وآخر طبيب مختص بأمراض القلب. فهو من الناحية العائلية مرتاح إلى وضعه.

لقد أمضيت حوالى الساعتين مع الرفيق أغوب دربدروسيان، كانتا مليئتين بخصب الحديث. وقد ودعنا بعضنا، على أمل اللقاء، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه. فامنيتي كانت في زيارتي لأرمينيا السوفياتية، أن أرى أحب الرفاق إلي، الرفيق بانوس اراميسيان، ولكنني لم أسعد بذلك، فبانوس يقيم بعيداً عن العاصمة. ولكن ليس البعد هو السبب، وكما علمت ان وضعه الصحي صعب كثيراً، فهو لم يعد قادراً على معرفة الأشخاص. أمام هذه الحال، لم أصر على زيارته، لأنني لا أقدر أن أرى من كان يلتهم المسافات في بيروت التهاماً ويصل نهاره بليله متنقلاً من حي إلى حي، ومن شارع إلى آخر، ليجمع الاشتراكات لجريدة «صوت الشعب الأرمنية» وقد أصبح غير قادر على الكلام ومعرفة الأشخاص.

* * *

في العام ١٩٧٤، وبدعوة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان، زارنا أربعة من قدامى الشيوعيين الأرمن الذين يحتفظون بأمجد وأنصع الصفحات النضالية في حياتهم الحزبية في لبنان وسوريا وهم: أغوب دربدروسيان، وسيروب سوبككيان (توفي) وموريس اغازاريان،

وبانوس اراميسيان وهو الآن على فراش الموت. هؤلاء الرفقاء دعوا بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني. وقد زاروا حصرايل ووضعوا باقات الزهر أمام تمثال الشهيد فرج الله الحلو، وتناولنا الغداء معهم، وكانت ساعات اختصرت سنوات من حياتنا. تذكرنا ماضينا، برج حمود، الكرنتينا، البيوت البيض، الزيتونة، مار مخايل، مرعش الخ. وجميعها أحياء آوتنا في شدائدنا، وأبواب رفقائنا الأرمن فيها كانت مشرعة، ليل نهار، لاستقبالنا واستضافتنا.

ولم يتوقف حديثنا على الذكريات وحسب، بل تناولنا ما يجري في عالمنا العربي والعالم، وقد أورد بعض الرفقاء اللبنانيين كشاهد على تقديره، ما حصل في البرتغال، كمظهر للتغيير الثوري. هنا تدخل أغوب دربدروسيان وقال، اسمح لي يا رفيق أن لا أوافق معك، قل لي كوبا فأنا أؤدي السلام. أما البرتغال فلننتظر لنرَ ما سيحصل. وهكذا يبدو أن المنطلق الثوري عندما ينبع من عامل طبقي، يظل مستمسكاً بالحلقة الرئيسية، ولا يضيع في المتاهات.

وهذه بالإضافة إلى أن الصلابة والإخلاص من صفات الثوريين الأرمن الحقيقيين الذين ساهموا في بناء حزبنا، وما زالوا يساهمون في مسيرة نضاله الطويل.

١٩٨٦/٢/١٦

الفهرس

يوسُف خطّار الحلو

- ولد في ٢٦ كانون الأول سنة ١٩١٠، في قرية حصرايل - بلاد جبيل.
- تلقى دروسه الابتدائية في المدرسة الوطنية في عمشيت ومدرسة قرية جدايل.
- انضم إلى الحزب الشيوعي اللبناني في شهر أيلول سنة ١٩٣١.
- بدأ حياته الصحافية سنة ١٩٣٨ في الكتابة في جريدة «صوت الشعب».
- عضو نقابة محرّري الصحافة منذ العام ١٩٤٢.
- مسجل على الجدول النقابي الصحافي منذ العام ١٩٥٠.
- عضو مجلس نقابة الصحافة منذ نيسان ١٩٧٦.
- عضو اتحاد الكتّاب اللبنانيين.
- عضو في جمعيات الصداقة بين لبنان والاتحاد السوفياتي، وبلغاريا وكوبا. عضو مجلس إدارة صندوق ضمان أصحاب الصحف الصحافيين منذ مطلع العام ١٩٨٣.

مؤلفاته:

الريجي عدوة الشعب ١٩٥٢ - نفطنا السليب ١٩٥٣ - العاميات الشعبية في لبنان بين ١٨٢٠ و ١٨٤٢ ١٩٥٥ - في الاقتصاد اللبناني ١٩٥٧ - اسرائيل في خدمة الاحتكارات العالمية ١٩٥٨ - من نافذتي ١٩٧٨ - الدرب والرفاق ١٩٨١ - قصة النصر الكبير ١٩٨٥. وله ثلاثة كتب في الزجل اللبناني هي: درب الضيعة - طرابين - حبق.